

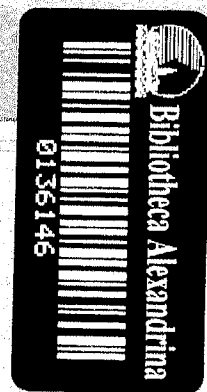
ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها

في مصر

الدكتور
عبدلشيم بابج



دار الفكر العربي



ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها

فى مصر

التاريخ السياسى

الدكتور

عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الإسلامى

بقسم التاريخ بكلية الآداب

فى جامعة عين شمس

الطبعة الرابعة

١٤١٤هـ / ١٩٩٤م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ ش عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

تليفون : ٢٦١٩٠٤٩

٩٥٣,٠٧٣٨	عبد المنعم ماجد.
م ن ظ هـ	ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر : التاريخ السياسى / عبد المنعم ماجد . - ط ٤ . - القاهرة: دار الفكر العربى ، ١٩٩٤ .
	٤٧٤ ص ، ٢٤ سم .
	ببليوجرافية : ص ٤١١ - ٤٦٠ .
	يشتمل على كشاف بالأعلام وكشاف بالبلدان والمدن.
	تدمك : ٦ - ٥٩٣ - ١٠ - ٩٧٧ .
	١- مصر - تاريخ - العصر الفاطمى (٩٦٩ - ١١٧١ م) .
	١- العنوان .

تصميم وإخراج فنجان / محمد سيد عبد الحمال

«طلبت الرفعة وجدتها في

التواضع،

طلبت المودة وجدتها في الصدق،

وظلت الرياسة وجدتها في العلم،

وظلت الكرامة وجدتها في التقوى،

وظلت النصرة وجدتها في الصبر،

وظلت العبادة وجدتها في الورع،

وظلت الغنى وجدته في القناعة،

وظلت الشكر وجدته في الرضا،

وظلت الراحة وجدتها في ترك الحسد،

وظلت ترك الغيبة وجدته في الخلوات،

وظلت الملْك وجدته في الزهد،

وظلت العافية وجدتها في الصمت،

وظلت الأُنس وجدته في ترتيل القرآن،

وظلت قتل الحيران وجدته في ذكر الله،

وظلت البر وجدته في الأُنس السخية،

وظلت رحمته يمن علينا بها.

مَعَدَّ أَبُو تَمِيمٍ

(المعزُّ لدين الله الغاطمي)

يتناول هذا الكتاب التاريخ السياسي للخلافة الفاطمية في مصر، وهي التي حكمتها زهاء قرنين من الزمان من ٣٥٨ إلى ٥٦٧ هـ/٩٦٩-١١٧١ م. وقد خصصنا لها دراسة مستقلة؛ لأنها قطاع قائم بذاته في تاريخ مصر الإسلامية؛ فلأول مرة منذ الفتح العربي قام في مصر نظام خلافة، مستقلة استقلالاً تاماً.

وبذلك اتبعنا تقسيم المقرئزي، عند عرضه لتاريخ مصر الإسلامية: فجعل تاريخ مصر في عهد الخلافة الفاطمية قطاعاً منفصلاً عن حكم أمراء مصر قبلهم، والملوك والسلاطين بعدهم.

وأهمية دراسة التاريخ السياسي للفاطميين في مصر؛ تظهر في أن مصر في ظل حكمهم أخذت تتبوأ مكانتها المرموقة في الشرق الإسلامي. فلأول مرة أيضاً منذ الفتح العربي؛ بل منذ حكم الفراعنة؛ أصبحت مصر مركزاً إمبراطورية كبرى؛ بعد أن كانت مجرد ولاية تابعة للخلفاء في الحجاز أو الشام أو العراق؛ ومن قبل جزءاً من إمبراطورية اليونان أو الرومان أو الروم. وكان ظهور مصر المستقلة القوية على المسرح الدولي بفضل الفاطميين الذين اتخذوها قاعدة لخلافتهم الواسعة، الممتدة من المحيط إلى الخليج. معناه كما هو الحال في معظم أدوار تاريخها؛ تميّزها وزعامتها لجيرانها. وقد بقيت مصر حتى بعد سقوط هذه الخلافة المحرك للسياسة الإسلامية؛ إلى وقت مجيء الأتراك العثمانيين. فالخلافة الفاطمية نبهت إلى مركز مصر المرموق في العالم الإسلامي.

ونشعر في دراستنا لتاريخ هذه الفترة السياسي في مصر؛ بأن المصريين الذين كانوا قد أسلم معظمهم؛ يشاركون في الحكم. هذا، مع أن تاريخ الشام أو

غيرها من الأقطار الإسلامية - في أثناء حكم الخلافة الفاطمية - لم يت لها أو الخروج عليها. ويؤيد رأينا هو أن خلافة الفاطميين في مصر ا كتب المعاصرين لها، باسم: خلافة المصريين؛ والخليفة الفاطمي با، المصرى، وحتى زمنهم وصف بزمن المصريين. ولا مرأ؛ فإن الفاطم من المغرب إلى مصر بناء على دعوة المصريين أنفسهم؛ وأن هويتهم أصبحت منذ استقرارهم فيها مصرية بحكم المواطنة، وبما أنجزوه والمقدار.

وفوق ذلك؛ فإن تاريخ الخلافة الفاطمية بعامه، وهى خلافة شيه بمذهب خاص؛ يبين أن العقائد الدينية فى ذيك الوقت، هى التى ك السياسة، وليست العقائد الاقتصادية كما هو فى وقتنا. ولا ريب؛ الفاطمية هى أكبر دولة شيعية؛ حققت أحلام الشيعة لأول مرة، و مجيئها إلى مصر، وتكوينها خلافة واسعة شملت المغرب والمشرق ا إن هذا الكتاب يتم ظهوره، بعد جهود دامت أكثر من عشر البحث العلمى فى المخطوطات والكتب المعاصرة والحديثة؛ مما جعلنا أوثق المصادر والمراجع. وفقنا الله إلى ما فيه خير العلم والوطن.

عبد المتعم ما.

هذا الكتاب مطلوب؛ لطابعه الأكاديمى البحث، وطبعته الجديدة هذه

مثل سابقاتها.

المصادر التاريخية

الأوراق الرسمية

- الآثار - النقوش - السكة -

الكتب التاريخية من العصر الفاطمي -

الكتب التاريخية من العصر الأيوبي -

الكتب التاريخية من العصر المملوكي -

كتب العقائد الفاطمية - كتب السنة المعادية -

كتب مؤرخي القبط ووثائق اليهود -

كتب مؤرخي اليونان المعاصرين -

كتب مؤرخي الحروب الصليبية -

المراجع الحديثة

المصادر التاريخية

ولدينا مصادر تاريخية من الدرجة الأولى عن الخلافة الفاطمية في مصر، لم يستخدمها المؤرخون الإسلاميون في العصور الوسطى في كتاباتهم لتاريخها، ولكنها أخذت الصدارة والأهمية نتيجة لتطور المنهج التاريخي الحديث.

فيأتي في المكان الأول الأوراق الرسمية^(١)؛ التي هي من أوثق مصادر التاريخ؛ إذ تحمل مادة حية نشيطة^(٢). فكان يطلق عليها عدة أسماء في العهد الفاطمي، منها: توقيعات، كتب، عهد، مناشير، ملطفات، سجلات^(٣)، وهذه الأخيرة هي الغالبة؛ لتدل على المكاتبات الرسمية، التي تبعث بها الدولة الفاطمية إلى الأعمال بمصر والأقطار التابعة لها.

وكانت الأوراق الرسمية في الدولة الإسلامية تصدر عن الدواوين، ولذا سماها ابن خلدون: أوراق الدواوين^(٤). وفي عهد الفاطميين كانت تصدر على الخصوص عن ديوان اسمه: «ديوان الإنشاء والمكاتبات»^(٥)، الذي كانت توجد به الوظائف للكتاب، يتصدون - بحسب مؤهلاتهم - لكل أنواع المكاتبات الرسمية، ونجد من بينهم من يعرفون لغات أجنبية، كال يونانية والأرمنية والفارسية

(١) يرى المستشرق « Quatremère »: أن تاريخ الفاطميين لا يعرف إلا من مصادر أدبية، لا تعطى فكرة صحيحة عنهم؛ فهي جافة أو مضطربة أو مختصرة؛ وذلك لعدم وجود وثائق. أنظر. *Mémoire Historique sur la dynastie des Khalifes Fatimides. Paris, 1838. P.I.* ولا ريب؛ فإن معظم الوثائق الخاصة بهم، أو المخطوطات عن عقائدهم أو تاريخهم؛ لم تنشر أو تعرف؛ إلا منذ سنوات قليلة.

(٢) أنظر. *The Fatimid Documents as a source for the History of the Fatimids and thier Institutions. Reprinted from the Bull. of the Fac. of Arts.Alex. Univ. VIII. Dec. 1951.*

(٣) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، تحقيق على بهجت، القاهرة ١٩٠٥، ص ٨ هامش(١)

(٤) مقدمة ابن خلدون، ط. القاهرة ١٣٢٢هـ، ص ١٦ س.١٠.

(٥) المقرئ؛ الخطط، القاهرة ١٣٢٤هـ، ص ٢٤٤؛ القلقشندي؛ صبح الأعشى، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٠١ وما بعدها، ص ٤٨٦. يطلق عليه ابن الصيرفي اسم: ديوان الرسائل. أنظر بتفصيل: ماجد؛ نظام الفاطميين، ط. القاهرة ١٩٨٥، ص ١٠٤ وما بعدها.

والتركية. كذلك كان يوجد بهذا الديوان وظائف الناسخ، الذى يقوم بنسخ أو تبسيط ما يرد إلى هذا الديوان أو يصدر عنه، والخازن الذى يجمع كل نوع من الأوراق الرسمية إلى مثله فى دوسيهات «أضابير»، ويضع عليها البطائق، مكتوب فيها محتوياتها وإقليمها وتاريخ وصولها؛ ليسهل استخراجها من أماكنها كلما دعت الحاجة. فكان هذا الديوان بالإضافة إلى قيامه بالكتابة، أشبه بدار المحفوظات، أو أرشيف للأوراق الرسمية.

وقد ألف مؤرخون معاصرون للفاطميين بمصر عن هذا الديوان، وكان قصدهم من مؤلفاتهم توضيح قواعد الكتابة الرسمية، ومهمة الديوان وموظفيه. فكان من أشهرهم على بن منجب، الذى ألف كتابه المعروف: «قانون ديوان الرسائل»^(١)، واشتهر باسم ابن الصيرفى؛ لأن أباه كان صيرفياً. وقد عمل ابن منجب بدواوين الفاطميين، وربما تولى رئاسة ديوان الإنشاء والمكاتبات، وتوفى فى عهد الخليفة الحافظ فى سنة ١١٤٧/٥٤٢. ويبدو أن ابن منجب، لم يكتب بكتابة هذا المؤلف عن ديوان الإنشاء، بل كان يجمع ما يكتبه من رسائل^(٢).

وكانت كتابة الأوراق الرسمية الفاطمية، مبنية على أسس وقواعد؛ فهى فى أغلبها تفتتح بالبسملة، وبعدها الحمدلة مباشرة. وهذه الأخيرة، تتكون من مصطلح خاص، يشتمل بالضرورة على صيغة الحمد، يعلم به الخليفة بيده على الأوراق الرسمية الصادرة، فى مكان يخليه الكاتب بعد البسملة، وهى ما عرفت باسم: العلامة. فلعل العبارة التى تتكرر فى معظم السجلات المستنصرية -نسبة للخليفة الفاطمى المستنصر-: «بخط اليد الشريفة»، لها علاقة بالعلامة. ومع ذلك، يرى المقرئ أن علامة جميع خلفاء مصر كانت: «الحمد لله رب

(١) تحقيق على بهجت، القاهرة، وترجمة Masse، بعنوان: Le Code de la Chancellerie. B.I.F.A.O. Le Carie., 1914.

سبقه على بن خلف إلى الكتابة عن ديوان الإنشاء الفاطمى فى كتابه: «مواد البيان»؛ حيث اعتمد المقدّمون المتأخرون عليه؛ وإن كان نص هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً فى إستانبول.

أنظر. الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، القاهرة ١٩٥٨، ١، ص ٩

(٢) لدينا بعضها مصوراً فى معهد المخطوطات العربية. أنظر. فهرس المخطوطات المصورة، القاهرة ١٩٥٤، ص ١٤٦؛ الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ١، ص ٤٣.

العالمين^(١). ويبدو أن علامة النساء الفاطميات اختلفت بعض الشيء؛ فكانت علامة أم المستنصر، التي سيطرت على الحكم من دون ابنها، وتوقع بها الأوراق الرسمية، هي: « الحمد لله ولي كل نعمته »^(٢). وبعد ذلك، يأتي العنوان أى اسم المرسل، وحين يكون الخليفة يسبق عادة بعبارة: « عبد الله وليه، بقصد إظهار خضوع الخليفة أمام الخالق، ثم يأتي لقب: «إمام»، يليه اللقب المعروف: «أمير المؤمنين»، وقد يذكر الخليفة نسبه بذكر أبيه^(٣)، أما المرسل إليه، فإنه يذكر في الغالب بألقابه وألقاب أبيه وجده، ويدعى له. وبعد هذا التصدير، نجد الجملة التي تتكون من: صيغة السلام، والحمد، والصلاة على النبي، وذكر على، والدعاء للأئمة. ثم تليها البعدية وهي عبارة: «وأما بعد»، يتبعها الحمد من جديد، الذي يبدأ موضوع السجل، وهو ممتن، الذي ينتهي بعبارة إن شاء الله والسلام. ثم يأتي التاريخ الهجري، الذي قد يأخذ سطرًا بمفرده. ويختم السجل عادة بالحمدكة والصلاة على النبي والأئمة، وعبارة: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ولسوء الحظ، لم نعثر على معظم أصول الأوراق الرسمية الفاطمية، وذلك لأن أعداء الفاطميين الذين أتوا بعدهم، وهم الأيوبيون، كانوا من السنة، فلم يكتفوا بالقضاء على دولتهم، وإنما قضوا على أوراقهم الرسمية. ومع ذلك، فقد بقي منها الآتي:

« وثائق أصلية^(٤)، من العصر الفاطمي، محفوظة في مكتبة دير سانت كاترين بسيناء، صدرت عن الخلفاء الفاطميين ووزرائهم؛ لتأمين رهبان هذا الدير على أرواحهم وممتلكاتهم. فلدينا مثلاً: منشور صادر عن ولي عهد المسلمين عبد المجيد، الذي ولي الخلافة بعد الأمر باسم الحافظ، والوزير أبي علي أحمد الملقب بكتيفات بتاريخ ١١٣٠/٥٢٤، وآخر صادر عن الخليفة الفائز ووزيره طلائع بتاريخ ١١٥٦/٥٥١، وثالث صادر عن العاضد ووزيره شيركوه بتاريخ ١١٦٩/٥٦٤.

(١) الخطط، ٢ من ٢٤٥.

(٢) السجلات المستنصرية، تقديم وتحقيق ماجد، ط٢، القاهرة ١٩٨٥، سجل رقم ٥١.

(٣) نفسه، سجلات ٥٧، ٤٣، ٣.

(٤) انظر. أحمد عيسى، مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء، مقالة

بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس، ١٩٥٦، ص ١٠٩ - ١٢٤.

و « السجلات المستنصرية ^(١) »، أو ما يعرف باسم « سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، إلى دعاة اليمن وغيرهم، قدس الله أرواح جميع المؤمنين »؛ عبارة عن ستة وستين سجلاً، منقولة عن الأصل، الذي أرسل من ديوان الإنشاء الفاطمي إلى عمال الخلافة باليمن، يغطي في تاريخ الفاطميين فترة أربعة وأربعين عاماً من ١٠٥٣/٤٤٥ إلى ١٠٩١/٤٨٩. فتتضمن سياسة الفاطميين في اليمن وأنحاء الجزيرة؛ فضلاً عن تناولها الحياة السياسية الداخلية في مصر؛ إذ كان الخليفة الفاطمي في كتبه الرسمية، يذكر لحكام اليمن أخبار مصر وأحداثها. ومع أن هذه المخطوطة وجدت بالهند؛ فهذا لا يمنعنا من الظن بأنها من أصل يمني؛ ذلك لأنها خاصة بدعاة اليمن أنفسهم. فهذه السجلات تعتبر أكبر مجموعة من الأوراق الرسمية الفاطمية، وقعت بين أيدينا.

وأخيراً لدينا نصوص أوراق رسمية فاطمية كثيرة، وردت في «كتب المؤرخين» ^(٢)، المعاصرين والمتأخرين، وهي خاصة بالخلفاء والوزراء والقضاة والولاة والحسبة والمال والدعوة، والأمانات والمعاهدات والهدنات والاتفاقيات؛ ورسائل الملوك إلى الخلفاء.

يلى الأوراق الرسمية في القيمة التاريخية الأثر، التي تفيد جداً في استكمال الإطار التاريخي وسرده، إذ الأثر علم مساعد للتاريخ. ونلاحظ أن العصر الفاطمي

(١) تقديم وتحقيق ماجد، ط٢، القاهرة ١٩٨٥.

(٢) بدأ المرحوم جمال الدين الشيبان، الذي رسم خطة لجمع كل ما يستطيع أن تصل إليه يده من وثائق تتصل بتاريخ مصر الإسلامية، فأصدر كتابه؛ مجموعة الوثائق الفاطمية، المجلد الأول، القاهرة ١٩٥٨، جمع فيه ثلاثاً وعشرين وثيقة؛ عشر منها عن نظام الخلافة وولاية العهد، وثلاث عشرة عن نظام الوزارة والوزراء، بحكم أنهما النظامان الأساسيان في بناء الدولة الفاطمية. ومع أن أغلب ما أورده قد ورد في كتب المؤرخين المعاصرين والمتأخرين؛ إلا أن بعضه القليل قد نقل من نسخة خطية لكتاب؛ إتعاظ الحنفاء، لمؤلفه المقرئ، لم تنشر بعد؛ تعرف بمخطوطة طوب قبو سراي؛ لوجودها بتركيا. وقد قسم المجلد إلى قسمين؛ القسم الأول دراسة تحليلية مقارنة لكل وثيقة، مع شرح المصطلحات الفاطمية، والقسم الثاني هو نشر نصوص الوثائق، مرتبة ترتيباً موضوعياً، ثم زمنياً.

غنى بالآثار^(١)، فالفاطميون في مصر، كانوا مثل الفراعنة من قبل بنائين، ولا تزال مبانيهم بيننا شواهد فصيحة للحياة السابقة- وإن كانت صامتة- تدل على عظمة دولتهم وازدهارها.

فمن أهم مبانيهم الباقية في مصر، الجوامع، مثل جوامع الخلفاء: كالأزهر الذى بنى فى أول نشأة القاهرة فى عهد المعز، وتم فى عهد العزيز، وجامع الحاكم أو الحاكمى، الذى كان يسمى الأنور، وجامع الأمر أو الأحمر، الذى سمي هكذا نسبة للقمر أو للقمر، وهو خليط من اللونين الأبيض والأخضر. ومن جوامع وزرائهم: جامع العطارين بالإسكندرية، الذى بناه بدر الجمالى، ومشهده المسمى بالجوشى ليدفن فيه فوق جبل المقطم، ثم مشهد الحسين، الذى بناه الوزير طلائع لكى يدفن فيه رأس الحسين، التى دفنت فى الشام بعد مقتله على يد الأمويين، فأحضرت إلى مصر خوفاً عليها من الصليبيين، ثم جامع المعروف باسم: جامع الصالح طلائع. هذا فضلاً عن المشاهد لنساء علويات من بنات على: كمشهد السيدة رقية والسيدة زينب والسيدة نفيسة.

ثم مبان غير الجوامع: كمقياس النيل بالروضة، وأسوار القاهرة وأبوابها، مثل: باب زويلة، وباب النصر، وباب الفتوح، وهذه الأسوار تعتبر أعجوبة وقتها، بسراديبيها التى تؤوى الجنود، وممراتها المقببة داخلها، وبمشربياتها وفتحاتها التى كانت ترسل منها على المهاجمين سهام وشواظ من نار. وحتى مدينة الفسطاط^(٢)، التى أحرقها الوزير شاور أمام هجوم الصليبيين، ليوقف تقدمهم ما زالت موجودة بأطلالها، وهى التى عرفت لذلك بالكوم أو الكيمان^(٣)، لكثرة الهدم فيها.

(١) ليس لدينا بحوث وافية عن الآثار الفاطمية من الناحية التاريخية؛ وإن تناولتها من الناحية المعمارية على الخصوص. فذكر من أهمها:

Hauteceur et Wiet : Les Mosquées du Caire, 1932.

Wiet : Les Mesquées du Caire. Paris, 1966.

: سعاد ماهر، حفائر كلية الآثار، العدد ١، ١٩٧٦، ص ٩٥ وما بعدها.

(٢) نلغت النظر إلى كتاب Casanova : Essai de reconstruction topographique de la ville, : d'al- Foustât ou Misr. 3 vols. Paris, 1913-1919.

(٣) الخطط، ٢ ص ١٤٤ س ٣.

كذلك تعتبر النقوش عماد البحث الحديث في تاريخ الخلافة الفاطمية السياسي؛ فهي تحل محل المصادر الأرشيفية، في تقديم مادة موثوق بها؛ إذ هي الكتابة على الآثار من مساجد وعمائر، وعلى التحف بمختلف أنواعها، وعلى قطع النسيج. وقد جمع المستشرقون هذه النقوش في موسوعات هائلة مثل: Van Berchem في مجموعته المسماة: Corpus^(١)، و Sauvaget و Wiet و Combe في موسوعتهم الكبيرة "Répertoire"^(٢). وتظهر أهمية النقوش في دراسة التاريخ الفاطمي مما كتبه Sauvaget، عن نقش للوزير الفاطمي بدر الجمالي^(٣) (ت ١٠٩٤/٤٨٧).

والسكة^(٤)، أو العملة؛ هي الأخرى مصدر من الدرجة الأولى، في تاريخ الفاطميين؛ فهي تساعدنا على تتبع التطور السياسي بدقة، ولاسيما من الناحية الزمنية. وبالإضافة إلى العملة المتداولة، كان للفاطميين عملات تذكارية، تفرّق على كبار الدولة، وترسل إلى جميع أنحاء الخلافة الفاطمية، تصدر في الأعياد سواء أكانت إسلامية أم قبطية. فمثلاً في عيد أول العام الهجري، كانت تسك عملة تعرف باسم الغُرّة^(٥)، وفي خميس العهد، الذي كان يحتفل فيه القبط بذكرى غسل المسيح لأرجل تلامذته كناية عن التواضع، كانوا يصدرون دنانير تسمى خرايب^(٦). ولأهمية السكة في التاريخ الفاطمي، ألف عنها مؤرخون

(١) جمع Wiet ما يتعلق بالفترة الخاصة بمصر منذ الفتح العربي إلى الفاطميين، بعنوان:

Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum. Première partie, t2, Egypte,

1930.

(٢) العنوان الكامل، Le Répertoire chronologique d'épigraphie arabe. Le Caire, 1931،

sqq.

(٣) انظر. Inscription de Badr al Jamâlie. Ext. de la Revue Syrie Paris, 1929.

(٤) هي كلمة تدل على خاتم الحديد، الذي تطبع عليه العملة أو تخسب عليه بالمطرقة. ابن

خلدون، المقدمة، ص ٢٠٦.

(٥) صبح، ص ٣٠٥.

(٦) مفردها خروية. الخطط، ص ٢٠٢، ص ٣٢١.

مسلمون في العصور الوسطى؛ حيث نذكر المقرئزي^(١)، الذي ألف كتابه؛ النقود الإسلامية^(٢). أما في العصر الحديث، فقد ازداد اهتمام المؤرخين بالعملية الإسلامية كمصدر موثوق به في البحث التاريخي؛ فجمعوها في المكتبات، وصوروها مع ترتيب أزمنتها في كتب^(٣)؛ بما فيها العملة الفاطمية.

وبعد ذلك، نرجع إلى المصادر الكتابية الأصلية، ونقصد بها الإنتاج الأصلي من الكتب، التي تنقل إلينا حوادث معاصرة، أو تعتمد على مصادر معاصرة ليس من السهل الرجوع إليها. ولسوء الحظ، لم تصلنا معظم المصادر الأصلية؛ إذ هي الأخرى بُدِّت طواعية من قبل الدولة الأيوبية السنية، التي قضت على كل ما يتصل بالشيعية؛ فحددت لبيع الكتب التي كانت بالقصر الفاطمي في كل أسبوع يومين^(٤)، وكانت تقذف بعضها إلى جبل المقطم، فأصبحت كيماًناً تعرف؛ بتلال الكتب^(٥). وهذه الكتب الفاطمية بلغت في وقت ازدهار الدولة الفاطمية ما يزيد على مائتي ألف كتاب^(٦)، خصصت لها دار كتب كبرى، عرفت بخزانة الكتب، تتكون من أربعين حجرة؛ إلا أن كثيراً من كتب الفاطميين وتراثهم بمصر، كان

(١) حقه أنستاس ماري مع ما كتبه البلاذري وابن خلدون والقلقشندي عن النقود في كتابه، بعنوان: النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩؛ وتوجد طبعة أخرى لكتاب المقرئزي باسم: شذور العقود في ذكر النقود، النجف ١٣٥٦هـ؛ وترجمه de Scay بعنوان: Traité des monnaies musulman Paris. 1797.

(٢) مثلاً كتاب: Catalogue des monnaies de la Bibliothèque, Lavoix nationale, continué par Casanova. 3 vols. Paris, 1887-1891.

أهمها الجزء الثالث، الذي يشتمل على نقود خلفاء الفاطميين.

وأيضاً Fatimid coins in the collection of the Univ.:Miles Museum Philadelphia and the American Numismatic Society. New York. Amer. Num. Soc. L II 195).

Catalogue des monnaies Fatimites entrées au Cabinet, des Medailles, : Launois depuis 1896 B.E. Or. txxv, Damas, 1971, P.17 sqq

(٣) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة ١٢٨٧هـ، ١ ص ٢٦٧.

(٤) الخطط، ٢ ص ٢٥٤ س ٢٣.

(٥) نفسه، ٢ ص ٢٥٤، (آخر سطر). توجد روايات أخرى عن أعدادها؛ انظر. بعده.

(٦) نفسه، ٢ ص ٢٥٣، وما بعدها.

مستوراً عند أتباع المذهب فى أماكن متفرقة. وحتى قبل سقوط دولتهم، كانت بعض كتبهم قد نقلت إلى مكتبات بعيدة عند أتباعهم فى الهند واليمن على الخصوص. وكان هؤلاء الأتباع يغالون فى ستر الكتب الفاطمية التى انتقلت إلى أيديهم، فلم يكونوا يطلعون عليها، حتى أبناء الطائفة الشيعية نفسها. ومع ذلك؛ فقد تسرب من كتبهم عدد لا بأس به إلى مكتبات الشرق وأوروبا وأمريكا؛ كما سعى بعض علماء العرب بمجهودهم الخاص إلى الحصول على بعضها؛ مما جعل تاريخ الفاطميين يزداد وضوحاً، وكتابتها من جديد ضرورة علمية. ولكن يجب أن نقرر أن عدداً كبيراً من المخطوطات الفاطمية الخاصة بالفترة الفاطمية فى مصر، لا تزال مجهولة ومستورة.

ومن ناحية أخرى، يجب الحذر فى تلقى المصادر الأصلية عن الدولة الفاطمية فى كتب غير شيعية، ولا سيما ما كتبه عنها المؤرخون السنة. فقد كان أغلب هؤلاء لعداوتهم المذهبية للدولة الشيعية، يظهرون تاريخ الفاطميين بمظهر مزيف، ولم يكونوا يطلقون عليهم إطلاقاً اسم الفاطميين، وإنما يسمونهم من العبيديين^(١)، نسبة إلى جدهم عبيد الله المهدي، رغبة فى نفي انتسابهم إلى على وزوجته فاطمة. ولا نجد تاريخ دولة شوّه من قبل مؤرخى السنة، كما شوّه تاريخ الفاطميين. فهم فى رأى السننيين من الراضيين^(٢)، الذين خرجوا على الدين، أو من المجوس على اسم أتباع الدين المجوسى الذى رفضه الإسلام، أو من اليهود بقصد نسبتهم إلى جد يهودى. والثابت أن هذه العداوة راجعة إلى نجاح الفاطميين فى تكوين خلافة مستقلة، تنافس خلافة العباسيين.

فمن الإنتاج الأسمى، نعتمد على كتب المؤرخين المعاصرين للفاطميين، وللأسف أن بعضها لا نعرف منه غير الاسم؛ وإن وردت مراراً وتكراراً فى كتب

(١) الروضتين، ١ ص ٢٠١. ربما قصدهم التصغير لاسم عبد الله؛ وإن أصبحت العبيديين، تسمية شائعة.

(٢) إن المحضر الذى برز أيام خليفة بغداد القادر بالله (٣٨١-٤٢٢/٩٩١-١٠٣١)، المعاصر للخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١/٩٩٦-١٠٢٠) فى سنة ٤٠٢/١٠١١؛ ويتضمن هذه التسميات العداوية للشيعية. انظر. بعده

المتأخرين. فنذكر ابن المأمون^(١) جمال الدين (ت ٥٨٨/١١٩٢)، وهو ابن الوزير مأمون البطائحي (٥١٥-٥١٩/١١٢٢-١١٢٥)، وزير الخليفة الأمر؛ فهو لذلك يستقى معلومات تاريخية لا توجد في أى مصدر سابق. وآ خر اسمه ابن الطوير^(٢) (ت ٦١٧/١٢٢٠)، الذى عاش فى أوائل العصر الأيوبي، أى أنه عاصر الفاطميين؛ وإن ضاع مؤلفه المسمى: نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين الفاطمية والصلاحية.

كذلك وصلتنا شذرات غير ذات قيمة من كتب مؤرخين معاصرين؛ تظهر أهميتها فيما نقله منها مؤرخون متأخرون، لابد أنهم اطلعوا عليها كاملة. فنذكر ابن زولاقي^(٣)، وهو الحسن بن إبراهيم (ت ٣٨٧/٩٩٧)، الذى ألف كتاباً باسم: فضائل مصر وأخبارها وخواصها، وهو مخطوط لا يتعدى عدة ورقات. وآخر اسمه المسبّحى^(٤)، وهو الأمير المختار عز الملك محمد (ت ٤٢٠/١٠٢٩)، الذى ألف كتاباً عديدة ضاعت، أهمها: التاريخ الكبير أو الجليل فى ثلاثة عشر ألف ورقة، تناول فيه أخبار مصر والولاة والأمراء والأئمة الخلفاء، فلم يتبق منه غير مقالة قصيرة عن حكم الخليفة الفاطمى الظاهر^(٥). وتبدو أهميته فى أنه تقلّد للحاكم

- (١) الخطط، ٢ ص ٣٠٥. له عدة كتب: تاريخ ابن المأمون، ومختصر تاريخ ابن المأمون، والتاريخ المأمونى. أنظر. هريدى، فهرست خطط مصر، المجلد الثانى، المعهد الفرنسى ١٩٨٣، ص ١١٤. تحقيق أيمن فؤاد، نصوص من أخبار مصر، المعهد الفرنسى ١٩٨٣.
- (٢) هو المرتضى أبو محمد عبد السلام بن محمد بن الحسن بن عبد السلام بن الطوير الفهرى، الكاتب المصرى. المصدر ذاته، ص ٢، ٢١٧-٢١٨. عنه: المنذرى، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار معروف المجلد الخامس، القاهرة ١٩٧٥، ص ٣-٤.
- (٣) يوجد مخطوطاً بدار الكتب بالقاهرة، برقم ٣٥٩١ تاريخ؛ وبالمكتبة الأهلية فى باريس، برقم ٢٠٦٩، وقد أعاد بناؤه وحققه وقدم له أيمن فؤاد، المنشورات الإسلامية ٢٩٠٠، شتوتجارت، ١٩٩٢. وله كتب أخرى ضاعت، مثل: سيرة جوهري، وسيرة المعز، وسيرة العزيز، وسيرة الوزير اليازودى، وله تذييل على كتاب القضاة، وآخر على كتاب الولاة للكندى، وله كتاب: أخبار سيهويه للمصرى، تحقيق الديب، القاهرة ١٩٣٣، وغير ذلك.
- (٤) عنه ابن خلكان، وفیات، القاهرة ١٢٩٩هـ، ص ٢، ٣٤٢ وما بعدها.
- (٥) نشرها Becker وترجمها بعنوان:

Regierung und politik unter dem chalifen Zahir. Beiträge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam. Strassbourg. 1902-1903.

حقيقه حديثاً أيمن فؤاد وBianquis، ولعله الجزء الأربعون. كذلك للمسبّحى كتاب آخر بعنوان: أخبار مصر وفضائلها وطرائفها وقرائنها، أنظر. هريدى، فهرست ص ٧٥، المعهد الفرنسى، القاهرة ١٩٧٨.

والظاهر بعض الأعمال، وهى الولايات. كذلك بقى لنا مخطوط لاغناء فيه، لمؤلف اسمه القضاعى^(١)، وهو أبو عبد الله (ت ٤٥٤/١٠٦٢)، بعنوان: عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف^(٢). بيد أنه مما نقل عن القضاعى، تبدو أهمية مؤلفاته؛ وخصوصاً أنه كان قد تولى قضاء مصر فى عهد المستنصر.

ومن حسن الحظ، أننا نملك عيون مؤلفات معاصرة، بعضها من تأليف الكتاب الفاطميين أنفسهم؛ نستطيع أن نعتد عليها فى عرض التاريخ السياسى للفاطميين، وهى:

كتب النعمان بن حيون^(٣) (ت ٣٦٣/٩٧٤)، أحد قضاة الدولة الفاطمية. وهى عديدة؛ فى كل أنواع العلوم؛ بحيث ترك على حسب قول المؤرخين آلاف الأوراق. فآلف فى^(٤): الوعظ، والتاريخ، والأخبار، والسير، والعقائد، والحقائق أى التأويل، والفقه. وأهم كتبه المعروفة فى التاريخ: افتتاح الدعوة وابتداء الدولة^(٥)، الذى يتناول تاريخ الدعوة فى إفريقية، إلى أن تمكن المهدي من تأسيس الدولة الفاطمية، وهو مخطوط فى متناول اليد؛ كما أن أجزاء منه نشرت أو ترجمت.

(١) عنه، انظر . وفيات ، ٢ ص ٢٤٣ وما بعدها.

(٢) مخطوط بدار الكتب، برقم ١٧٧٩، والمكتبة الأهلية .B.N.، برقم ١٤٩٠.

وإن كنا لا نثق فى نسبه إليه، وذلك لأن هذا المخطوط يستعرض حوادث؛ محشودة بدون نظام أو ترتيب معقول، حتى عصر الماليك. وفوق ذلك؛ فإن المعلومات الواردة فيه ليست لها قيمة ما ينقله المقرئ عن القضاعى نفسه.

(٣) وفيات، ٣ ص ٨٠؛ انظر . كامل حسين، فى أدب مصر الفاطمية، ص ٤٢-٥٤ : Fayzee:

Kadi an- Nu' mân the Fatimid jurist and author. J.R.A.S, An, 1934;

Ismaili law and its founder. Isl. Cult Vol. IX, No. I. Jan, 1935, P.107 sqq.

(٤) أنظر. A Guide to Ismaili Literature. London,1903, P. 34 : Ivanow

Al-Qâdî al- Nu'mân's Work and Sources. B.S.O.A.S,1973, P.109, 115.:Poonawála;

(٥) توجد المخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٨٠٨؛ وقد اطلعت على نسخة منها فى مكتبة الهمداني الخاصة، وقد نشر منها Ivanow الجزء السابع عشر.

أنظر.

Ismaili-Traditions concerning the Rise of the Fatimids. Oxford, 1942,P. 40-46;

عن هذه المخطوطة، انظر. بعض ترجمتها فى مقالة Dachraoui :

Contribution a l' histoire des Fatimides en Ifriqiya. Arabica, 1961,P. 189 sqq.

وظهرت لها طبعة فى بيروت بعناية ونداد القاضى، بيروت ١٩٧٠؛ لم تستخدم، إذا لم تطلع المحققة على مخطوطة القاهرة.

وكتاب من تصنيف أبي علي منصور العزيزي الجوزري، الذي كان في خدمة جوذر أحد العبيد الصقالبة من أعوان الفاطميين، بعنوان: سيرة الأستاذ جوذر^(١)، وهذا الكتاب من كتب السير؛ إلا أنه يلقي ضوءاً على حياة الخلفاء الفاطميين في شمال أفريقيا، وأوائل حكمهم في مصر، فضلاً عن احتوائه على توقيعات أي سجلات للأئمة الفاطميين، من ٩٣٥/٣٢٣ إلى ٩٧٢/٦٣٢؛ تعتبر من الوثائق الرسمية. فهذه السيرة صورة جزئية مباشرة لأربعين عاماً من حياة الدولة الفاطمية.

وكتاب سيرة جعفر الحاجب^(٢) (حوالي ٩٧٦/٣٦٥)، وهو جعفر ابن منصور اليمن، الذي فر إلى المغرب بعد انقسام الدعوة الأولى في اليمن، فوجد الخليفة المهدي قد توفي، وإن ظل وثيق الصلة بالأئمة إلى عهد المعز. وقد نال جعفر^(٣) مكانة هائلة عند الفاطميين، واعتبر حجة في علومهم^(٤)، حتى بز القاضى النعمان نفسه. فهذه السيرة التي ألفت في عهد العزيز، تتناول نشأة الدولة، وتؤيد حق الفاطميين في الخلافة؛ كما تتناول بعض الأخبار.

ورسائل إستانار الإمام^(٥)، التي ألفت في عهد العزيز بالله، من تأليف إبراهيم النيسابوري الفارسي (أحمد بن محمد)، تبين تاريخ الفترة التي اختفى

(١) قام بتحقيقه والتقديم له محمد كامل حسين وعبد الهادي شعيرة، القاهرة ١٩٥٤، وترجمها Canard، بعنوان :

Vie de l'Ustádh Jaudhar. Alger 1958.

(٢) تحقيق Ivanow، في مجلة كلية الآداب، بجامعة القاهرة، القاهرة ١٩٣٩، وله ترجمة منه في كتابه:

Ismaili Tradition Concerning the rise of the Fatimids. Oxford, 1912.

وترجمة من Canard، بعنوان: L'Autobiographie d'un Chemebellan du Mahdi le Fâtimide. Hesperis, 1952, P.P.279 - 330.

(٣) تكلم جوذر عنه. انظر. سيرة جوذر، ص ١٢٦.

(٤) لدينا منه مخطوطات عديدة عن العقيدة، نشر بعضها القليل. الفهرس الخاص بمخطوطات جعفر في مكتبة الهمداني الخاص. الهمداني، الصليحيون، القاهرة ١٩٥٥، ص ٣٥٢-٣٥٣.

انظر، كتاب الكشف، تحقيق Strottmann، القاهرة ١٩٤٩.

(٥) نشره Ivanow، في مجلة كلية آداب القاهرة، ١٩٣٩، ٢/٤٠، ص ٩٣-١٠٧؛ انظر. Guide, p 12 .

فيها الأئمة إلى وقت ظهورهم في شمال إفريقيا؛ نتيجة لاضطهاد العباسيين؛
كتاب مهم لتناوله نشأة الدولة.

وكتاب مسكويه (ت ٤٢١/١٠٣٠)؛ تجارب الأمم^(١)؛ الذي نقل فيه أخ
عن أمم الإسلام وغيرهم، بما فيهم الفاطميون في أول حكمهم في مصر، و
بأخباره إلى سنة ٩٧٩/٣٦٩. وقد أعقبه الروزاوردي المعروف بأبي شجاع.
كتاب: ذيل تجارب الأمم، تحدث فيه عن أخبار المسلمين إلى سنة ٣٨٩/١
فأسهب في الكلام عن زمن العزيز، وأوائل حكم الحاكم. فأهمية هذين الكت
أنهما عاصرا الفاطميين، وإن كان المؤلفان من السنة.

وكتاب ناصر خسرو علوى (ت ٤٤٥/١٠٦٣)؛ سفرنامه^(٢)؛ وهو و
لرحلة المؤلف في بلاد الفاطميين وغيرها، بين سنة ٤٣٧/١٠٤٥ و
٤٤/١٠٥٢، ولا سيما في مصر؛ حيث أقام فيها أكثر من ثلاث سنوات؛ و
وصفه لمصر نحو ثلث الكتاب، الذي يعتبر مرجعاً للحياة الاجتماعية الزاهر
عهد الفاطميين بمصر.

وكتاب على بن منجب المعروف بابن الصيرفي (ت ٥٤٢/١١٤٧)؛ الإ
إلى من نال الوزارة^(٣)، يتتبع فيه تراجم وزراء مصر الفاطمية إلى عهد الأمر
كتاب قيم يشتمل على أخبار كثيرة.

وكتاب المؤيد في الدين الشيرازي (ت ٤٧٠/١٠٧٨)؛ سيرة المؤيد^(٤)؛
من كتب السيرة العظيمة المقدار؛ يتناول ترجمة المؤلف بقلمه. ففيه يتعرض
هامية في تاريخ الفاطميين، في المرحلة الوسطى منه، وفي الربع الثاني من ا

(١) الكتاب وذيله، تحقيق Amedroz.

(٢) قام بنقله من الفارسية إلى العربية يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٤ (له عدة

أخرى)، له ترجمة فرنسية من Schefer، ط. Paris، ١٨٨١.

(٣) قام بتحقيقه عبد الله مخلص، القاهرة ١٩٢٥، في؛

de l'Inst fr. du Caire]

وله تحقيق حديث من أيمن فؤاد، القاهرة ١٩٩٠ (لم يعتمد عليه).

(٤) نشرت بعنوان: سيرة المؤيد في الدين داعي الدعوة، تحقيق كامل حسين، القاهرة،
لدينا رسالة دكتوراه بجامعة لندن عن هذه السيرة سنة ١٩٥١، بعنوان:

ra of al-Muayyed fiddin ash- Shirāzī.

الخامس الهجرى، فى أيام المستنصر. ويزيد من أهميته أن المؤلف تنقل فى وظائف متعددة، ثم شغل وظيفة داعى الدعوة للمذهب. ولعل أهم عمل للمؤلف، هو قيامه على رأس المدد، الذى أرسل من الفاطميين إلى البساسيرى فى العراق؛ ليثور على الدولة العباسية والسلاجقة، أعداء الفاطميين الأكداء. يضاف إلى ذلك أن هذا الكتاب، يشتمل على رسائل كتبها المؤيد إلى بعض الوزراء والولاة والقواد الفاطميين، تعتبر من الوثائق الرسمية. ومن الجديد بالذكر، أن سيرة المؤيد لم تكن معروفة إلى عهد قريب جداً؛ بسبب أن كلام المؤيد عن أسرار تحييط بتصرفات أتباع الإمام، جعلت الشيعة تحرص على ستر سيرته؛ حتى لا يتطرق الشك فى الأئمة. بل ينسب للمؤيد- لاضطراب الدولة الفاطمية فى أيامه- أنه نقل جزءاً من تراث الدعوة إلى اليمن والهند^(١)، عند أتباع المذهب.

وكتاب ابن القلانسى (ت ٥٥٥/١١٦٠). ذيل تاريخ دمشق^(٢)، تناول فيه أخباراً كثيرة عن سياسة الفاطميين فى الشام، بدأها بعام ٣٦٠/٩٧٠؛ إذ هو كما يبدو من عنوانه تكملة لكتاب سابق.

وكتاب عمارة اليمنى (ت ٥٦٩/١١٧٤)؛ النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية^(٣)، الذى ألفه عن وزراء مصر، ويرسم فيه فى قصائده صورة شيقة لحياتهم ونفوذهم، وسيطرتهم التامة على الخلافة الفاطمية. وقد زار عمارة مصر فى آخر حكم الفاطميين فى سنة ٥٥٠/١١٥٥، وتشيع لهم حتى قتل فى سبيلهم على يد صلاح الدين الأيوبي.

ثم نهتم بكتب من الإنتاج الأصيل للمؤرخين، الذين عاصروا الدولة الأيوبية، التى قضت على الدولة الفاطمية؛ إذ كان مؤرخو الأيوبيين على علم بمجريات الأمور فى الدولة الفاطمية، وتحت أيديهم معلومات كثيرة، مثل:

(١) أنظر . Hamdānī. The History of the Isma'ili Da'wat and its Literature during the last phase of the fatimid empire. J.R.A.S 1932, pp. 126.136.

(٢) حقه Amedroz ، بيروت ١٩٠٨، وترجم أجزاء منه إلى الفرنسية Roger le Tourneau ، بعنوان: Damas de 1074 à 1154. Damas 1952. ومن الطريف أن نذكر أن ابن أبيك ذكر كتاباً اعتمد عليه فى تناول تاريخ الشام فى عهد الفاطميين. وإن لم يصلنا، وهو أخبار الشام لعلى بن محمد بن يحيى، السمسيساطى (ت ٤٥٢/١٠٦١). أنظر. الدرر المضية فى أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق المنجد، ٦ ص ٢٧٢.

(٣) تحقيق Derenbourg ، ط . Paris ، ١٨٩٧.

كتاب ابن حمّاد (أبو عبد الله محمد بن عليّ): أخبار ملوك بني عبّيد وسيرتهم^(١)، الذي يظهر من عنوانه أن مؤلفه يتعمد نسبة الفاطميين إلى مؤسس خلافتهم عبّيد الله المهديّ، وليس لأسرة فاطمة وعليّ، حيث يتناول بتفصيل تاريخهم من أول نشأة دولتهم إلى سقوطها.

وكتاب أسامة بن منقذ (١١٨٨/٥٨٤): الإعتبار^(٢) أو حياة أسامة، الذي عاصر خلفاء الفاطميين الأواخر، فوصف المكائد في القصور الفاطمية؛ كما أنه عاصر احتلال الصليبيين لبلاد الشام.

وكتاب عماد الدين الأصفهاني (ت١٢٠١/٥٩٧): تاريخ دولة آل سلجوق^(٣)، الذي تأتي أهميته من أن السلاجقة استولوا على أملاك الفاطميين في الشام، وقبوا من الخلافة العراقية عدوة الفاطميين؛ فيذكر حروبهم وأخبار الإسماعيلية في وقتهم وهم بقايا الشيعة. ويعتبر عماد الدين في كتب أخرى^(٤)، مؤرخ صلاح الدين الحربى؛ إذ كتب بإسهاب عن حروبه.

وكتاب ابن الجوزى- أبو الفرج- (ت١٢٠١/٥٩٧): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم^(٥). الذي يتناول فيه أخبارا كثيرة ونادرة تتناول علاقات الأمم والدول؛ فهو مثلاً يخصص دراسة عن القرامطة. كذلك كتاب سبط بن الجوزى- أبو المظفر- (ت١٢٥٧/٦٥٤): مرآة الزمان^(٦)، يتكلم فيه مثل سابقه عن أخبار الدول وعلاقاتها بعضها ببعض.

(١) نشره وحققه Vonderheyden، في ٣ أجزاء، ط. Paris، ١٩٢٧.

(٢) تحقيق Paris، Derenbourg، ١٨٨٩.

(٣) اختصار الفتح بن عليّ البندارى، مصر ١٣١٨هـ/١٩٠٠م. عن المؤلف: وفيات، ٢ ص ٤٩٥ وما بعدها؛ انظر. t2 p501 (art 'Imâd al-Dîn)) Ency, de l'Isl.

(٤) مثل: الفتح القسى في الفتح القدسى، مصر ١٣٢١هـ.

(٥) طبعة الهند ١٣٥٨هـ. وقد نشرت رسالته عن القرامطة في:

Rivista degli Studi Orientali. Vol. XIII

(٦) مخطوط مصور بدار الكتب، برقم ٥٥١ تاريخ، وقد نشر الجزء الثامن في Chicago،

وكتاب ابن الأثير - عز الدين - (ت ٦٣٠/١٢٣٢): الكامل في التاريخ^(١)، الذي هو من خيار التواريخ؛ كما يقول مؤرخ آخر اسمه ابن خلكان^(٢). ويزيد من أهمية هذا الكتاب، الذي يعرض التاريخ على حسب السنوات؛ أن مؤلفه كان شاهد عيان لسقوط الخلافة الفاطمية، وقيام دولة صلاح الدين؛ وهو من آل أثير الدين، الذين اشتهروا بالكتابة والتأليف.

وكتاب كمال الدين بن العديم (ت ٦٦٢/١٢٦٤): زبدة الحلب من تاريخ حلب^(٣)، الذي خصصه للكلام عن حلب بلده، ويتناول بسببها تاريخ الأمويين والعباسيين والحمدانيين والفاطميين. وقد أورد ابن العديم فيه وثيقة معاهدة الحمدانيين مع الروم؛ حيث لا توجد بتفصيل إلا عنده.

وكتاب أبي شامة (ت ٦٦٥/١٢٦٧): الروضتين في أخبار الدولتين^(٤). وهذا الكتاب يتناول تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، ولكنه يعرض كثيراً لأخبار الدولة الفاطمية. ومما يزيد من أهميته، أنه ينقل عن مؤرخين كثيرين عاصروا الفاطميين، ولا سيما القاضي الفاضل، الذي عمل في ديوان الإنشاء الفاطمي في عهد الوزير طلائع بن رزيق، ووزر لصلاح الدين.

وكتاب المؤرخ المصري ابن ميسر (ت ٦٧٧/١٢٧٨): تاريخ مصر^(٥)، الذي يحتوي على أخبار الخلفاء الفاطميين ووزرائهم بتطويل وتفصيل. ويبدو أن المؤلف صنف كتباً عدة، منها تذييل على تاريخ المسبّحي، وأنه لم يتبق منها غير هذا الكتاب.

(١) حققه النجار ونخبة من العلماء، مصر ١٣٥٣هـ. أجزاء: ٩، ٨، ٧، على الخصوص.

(٢) وفيهات، ١ ص ٤٩٤-٤٩٥.

(٣) حققه سامي الدهان، في جزأين، دمشق ١٩٥١، وله ترجمة من Blochet، بعنوان:

Histoire d'Alep. Paris, 1900.

الحلب هو ما يحلب من الناقة، والزبد هو خلاصة الحلبة؛ لأنه يستخلص من اللبن، فكان المعنى أن هذا الكتاب خلاصة نسمة لكل ما قيل عن حلب.

(٤) في جزئين، أشرف على نشره عبد الله بن مسعود، القاهرة ١٢٨٧-١٢٨٨هـ. عن المؤلف: وفيهات، ١ ص ٥٠٩-٥١٢.

(٥) نشره المستشرق Massé، القاهرة ١٩١٩. ويوجد كتاب بعنوان المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر من تأليف محمد بن علي (ت ٦٧٧/١٢٧٨) هو الجزء الثاني حققه أيمن فؤاد، نشر المعهد الفرنسي ١٩٨١.

وكتاب ابن واصل (ت ٦٩٧/١٢٩٧)؛ مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب^(١)، يتناول فيه تاريخ دولة الأيوبيين، إلا أن فيه أخباراً كثيرة عن الدولة الفاطمية في أخريات أيامها.

ولدينا إنتاج أصلى من مؤرخى العصر المملوكى، ينقلون فيه مادة غزيرة عن الفاطميين، أخذوها من مصادر معاصرة لهم كانت تحت أيديهم، وليست معروفة لنا إطلاقاً؛ مما جعل إنتاجهم من أهم مصادر التاريخ الفاطمى.

فنذكر مثلاً: ابن خلكان (ت ٦٨١/١٢٨١). فى قاموسه؛ وفيات الأعيان^(٢). يتناول فيه حياة كثير من الخلفاء والوزراء الفاطميين، وعبد الله بن أبيك (بعد ٧٣٦/١٢٣٥) فى الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية^(٣)، ذكر فيه الخلفاء الفاطميين والدول المنقطعة والمتصلة التى قامت فى أثناء دولتهم مثل القرامطة وبنى حمدان وملوك البويهيين والصلبيين وغيرهم، والذهبى (ت ٧٤٨/١٣٤٨)، فى تاريخ الإسلام^(٤)، الذى تعرض فيه للفاطميين، والقلقشندي (ت ٨٢١/١٤١٨) فى صبح الأعشى^(٥)، الذى أورد فيه سجلات عديدة للفاطميين ربما يكون نقلها عن أصولها؛ تعتبر وثائق هامة، والعينى (ت ٨٥٥/١٤٥١)، فى عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان^(٦)، وفى تاريخ دولة بنى

(١) قام بتحقيقه والتقديم له جمال الدين الشيبلى، فى ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٥٢ وما بعدها. الأجزاء من ٤-٥، تحقيق حسنين ربيع ١٩٧٢-١٩٧٧.
أنظر المقالة القيمة: Salah al-Beheiry:

Le décret de nomination de l'Historien Ibn Wásil au Poste de Professeur de la Mosquée al - Aqmar. Ann. Islamo. TXII, 1974, P.85 sqq.

(٢) طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ، فى ٣ أجزاء.

(٣) هو الجزء السادس، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١، من تاريخه العام؛ كنز الدرر وجامع الغرر، فى تسعة أجزاء، حيث توجد منه نسخة خطية بدار الكتب، برقم ٢٥٧٨ تاريخ (اعتمدنا عليها).

(٤) مخطوط بدار الكتب، برقم ٤٢ تاريخ.

(٥) ط. وزارة الثقافة بالقاهرة، ومن قبل دار الكتب، وترجمة لبعضه من Wustenfeld.

(٦) مخطوطة بدار الكتب، برقم ١٥٨١ تاريخ.

العباس والطولونيين والفاطميين^(١)، يعرض فيهما للفاطميين بإسهاب، وإدريس ابن الحسن عماد الدين (ت ١٤٦٨/٨٧٢) في عيون الأخبار^(٢)، الذى ينقل فيه عن كبار دعاة الفاطميين المعاصرين والمتأخرين أخباراً تاريخية مفصلة عن خلفاء الفاطميين وأحوالهم، مما لا نجده في المصادر السننية، وأبو المحاسن (ت ١٤٦٩/٨٧٤) في النجوم الزاهرة^(٣)، الذى يعرض فيه لتاريخ كل خليفة من الفاطميين، فضلاً عما يذكره عن أحوال مصر في عهدهم، وفيضان النيل في كل عام، والسيوطى (ت ١٥٠٥/٩١١) في حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة^(٤) الذى عقد فيه فصلاً عن الفاطميين؛ وإن أطلق عليهم العبيدين؛ كما أورد سجلات هامة، وغير هؤلاء.

ولكننا نختص بالذكر كتب المقرئى (ت ١٤٤٢/٨٤٥)، لما قدمه هذا المؤرخ عن الفترة الفاطمية بمصر، من مادة غزيرة، أتى بها من أنفس المصادر التاريخية التى عاصرتها، ولكنها ضاعت؛ مثل كتب: ابن زولاق، والمسبى، والقضاعى، وابن المأمون. فنذكر: كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء^(٥)، الذى يؤرخ فيه للأسرة العلوية ومشكلة النسب، ونشأة الدولة الفاطمية في المغرب، والخلفاء الأربعة: المهدي والقائم والمنصور والمعز؛ كما يتحدث عن الفتح الفاطمى لمصر وتأسيس مدينة القاهرة، ويعرض للخطر القرمطى ويذكر نص الخطاب الذى أرسله المعز الفاطمى للحسن الأعظم القرمطى. وكتاب: إغاثة الأمة بكشف الغمة^(٦)، الذى يحتوى على معلومات غير منتظرة من أنواع المعرفة الاقتصادية

(١) مخطوطة بالمكتبة الأهلية (B. N.)، برقم ٥٧٦١.

(٢) مخطوطة بمكتبة الهمداني الخاصة، اطلعت عليها، وعندي منها أجزاء مصورة.

(٣) طبعة دار الكتب في القاهرة، طبعة وزارة الثقافة، طبعة Juynboll و Popper.

(٤) في جزأين، القاهرة ١٣٢٧ هـ.

(٥) نشرها الشيال، القاهرة ١٩٤٨، وإن كانت له طبعة في بيت المقدس، ١٩٠٨. ولكن الشيال

حصل على نسخة أخرى أكثر اكتمالاً، تعرف باسم: نسخة طوب قبو سراى أحمد الثالث،

وهي برقم ٣٠١٣؛ حيث ينقل إلينا منها في كتابه وثائق الفاطميين، معلومات إضافية.

وقد حقق الجزء الأول منه الشيال في القاهرة ١٩٦٧، أما الجزأين الثانى والثالث، فقد

حققهما محمد حلمى، القاهرة ١٩٧١-١٩٧٣.

(٦) حقق مرتين في ١٩٤٠ و ١٩٧٥، على يد زيادة والشيال.

والاجتماعية والتاريخية الخاصة بالفاطميين وغيرهم في مصر، يندر أن توجد في كتاب غيره. وأخيراً كتاب: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار^(١)، الذي يتناول فيه تاريخ القاهرة عاصمة الفاطميين، وكل ما يتصل بها، بتفصيل لا يعرف له مثيل من قبل.

ويجب ألا نهمل كتب الفاطميين الخاصة بالمذهب، وأغلبها ألفها دعاة الفاطميين أنفسهم. فلا يغرب عن بالنا أن الدولة الفاطمية دولة ثيوقراطية أي دينية، مثل غيرها من الدول الإسلامية في العصور الوسطى، تركز في أساس بنائها على الدين؛ فقد كان الدين يشبه في وقتنا المذاهب الاقتصادية والسياسية. فكانت كتب العقائد الفاطمية بدفاعها عن المذهب وعرضه وشرحه، تدافع عن كيان الخلافة الفاطمية ذاته. والواقع أن التأليف في عقائد المذهب الفاطمي وفلسفته-وهذه الأخيرة تعرف عند الفاطميين بعلم الحقائق- أصبح موضوع دراسة مسهبة في كتبهم. وإلى وقت قريب، كانت أغلب هذه الكتب العقائدية الفاطمية في طي الكتمان، وكان ظهورها سبباً في معرفة كثير من أسرار المذهب الفاطمي. ومع ذلك؛ فيجب الاحتياط في قراءتها، دون محاولة تفسيرها بفكرنا؛ لأن الفكر الشيعي له خاصيته، ثم بالنسبة لهذه الكتب لا يجب التعميم؛ لأنه كان يوجد المغالون من الشيعة أيضاً.

فتذكر منها: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا^(٢)، وهي من تأليف جماعة من علماء البصرة، فيها عقائد كثيرة عن الإسماعيلية. وقد اختلف في مصدر

(١) هذا الكتاب له طبعتان مصريتان، إحداهما في جزئين، بولاق ١٨٥٣، والأخرى في أربعة أجزاء، مصر ١٣٢٤-١٣٢٦هـ، ولم ينشر في أوروبا إلا بعض نتف منه على يد Wiet، أو ترجمت على يد: Griveau, Casanova, Bouriant, Wüstenfeld.

(٢) انظر. الهمداني، بحث تاريخي في رسائل إخوان الصفا وعقائد الإسماعيلية فيها، بمباي ١٩٣٥/١٣٥٢.

قبل في سبب تأليفها؛ إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية... وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة، وسموها رسائل إخوان الصفا، وكتبوا فيها أسماءهم، وبنوها في الوراقين، ووهبوا للناس. وربما عاش مؤلفوها من ٢٢٠-٢٢٤/٩٢٢-١٠٢٢، ولعل أشهر من تنسب إليه هو أبو حيان التوحيدي. انظر. Abbas H: Abu Hayyân al-Tawhidî and the Brethren of Purity. d. Middle East stud, 9, 1978. p.p.345-357. ولها عدة طبعات في مصر آخرها سنة ١٩٢٨، وط. بمباي ١٨٨٨/١٣٠٥.

وفي بيروت، في أربعة أجزاء، ١٩٥٧. ولا شك أن المستشرق إيف ماركيه Yves Marquet هو المتخصص المتميز في هذه الدراسة. انظر. مقالاته الكثيرة بالفهرست.

هذه الرسائل؛ فقليل إنها من كلام بعض الأئمة من نسل علي بن أبي طالب، وتنسب إلى أحد الأئمة المستورين، وهو أحمد بن عبد الله محمد، في أيام المأمون العباسي.

ورسالة الرشد والهداية^(١) للداعي ابن حوشب (حوالي ٢٦٨/٨٨١)، الملقب منصور اليمن، وفيه يبين العقائد الفاطمية قبل أن تنتقل الخلافة الفاطمية إلى مصر؛ بقصد هداية الناس إليها، ومنه أيضاً؛ كتاب الفرائض وحدود الدين^(٢)، وهو على الخصوص في نسب الخلفاء الفاطميين.

وكتاب الكشف^(٣)، لجعفر الحاجب بن منصور اليمن-ابن حوشب- (نحو القرن الرابع الهجري)، وهو مجموعة تأويلات لعدة آيات من القرآن، هدفها إثبات حق الإمامة الفاطمية.

وكتب الفقيه النعمان بن حيّون (ت ٣٦٣/٩٧٤)، الذي كان ذا صلة شديدة بكل خلفاء الفاطميين في المغرب، من الخليفة عبيد الله المهدي، إلى الخليفة المعز لدين الله؛ فجعل هذا الخليفة النعمان كبير قضاة وحجته أي كبير دعاته. ومما يزيد من أهمية تأليف النعمان في العقيدة الفاطمية، أنها ألفت بناء على أمر الخليفة المعز الفاطمي، الذي راجعها بنفسه بعناية كبيرة، ومعنى هذا أن الخليفة المعز يعتبر مشاركاً للنعمان في تأليف هذه الكتب؛ بحيث إن المعز أخرج إليه كتب أجداده^(٤). ولحسن الحظ أنه يوجد تحت أعيننا أهم كتبه في العقائد، وهي:

دعائم الإسلام^(٥)، وأساس التأويل^(٦) (الباطن)، والهمة في آداب اتباع

(١) حققها كامل حسين في مجلة الجمعية الإسماعيلية بالهند "Collectanea"، المجلد الأول، ١٩٤٨.

(٢) تحقيق حسين الهمداني، القاهرة ١٩٥٨ (مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة).

(٣) تحقيق Strottmann، القاهرة ١٩٤٩. أنظر. Guide, p.40-49.: Ivanow.

(٤) مخطوطة المجالس والمسائرات، ٢ ورقة ١١٥، ٢٢٨.

(٥) تحقيق فيضى، في جزأين، القاهرة ١٩٥١-١٩٦٠، والعنوان الكامل: دعائم الإسلام، وذكر

الحلال والحرام، والقضايا والأحكام، عن أهل بيت رسول الله، عليه وعليهم أفضل السلام. أنظر. Guide p.37:Ivanow. Brockelmann: Gesch der litt. Suppl. Leiden,

SOAS، برقم ٢٥٢٤، في London؛ ويقوم

Stern بتحقيقها حالياً. أنظر. Ency de l'Islam, 2 éd t 1, p. 50.

ولأهميته ظهر له شرح من النعمان نفسه بعنوان: تأويل دعائم الإسلام، تحقيق محمد

حسن الأعظمي، القاهرة، دار المعارف.

(٦) تحقيق عارف تامر، بيروت ١٩٦٠. هو شرح باطن لما أثبتته في دعائم الإسلام.

الأئمة^(١)، وشرح الأخبار^(٢)، والمجالس والمسائرات^(٣)، والاقتصار^(٤)، والأرجوزة المختارة^(٥)، والرسالة الذهبية^(٦)، وتأويل الشريعة وحقائقها ومثولاتها وأسرارها^(٧)، والمناقب والمثالب^(٨)، وتربية المؤمنين على حدود باطن علم الدين^(٩)، والمنتخب فى فقه الأئمة^(١٠)، ومنهاج الفرائض^(١١).

ورسائل وكتب، لأحمد حميد الدين الكرمانى (ت فى القرن الخامس / الحادى عشر)، الذى لا نعرف عن حياته شيئاً كثيراً، غير أنه كان حجة العراقيين ، أى فارس والعراق فى المذهب الإسماعيلى؛ كما أنه رحل إلى مصر بناء على دعوة الخليفة الفاطمى الحاكم؛ ليصلح من أمور الدعوة التى اضطربت وقتذاك بمصر؛ بحيث وصف بأنه أساس الدعوة التى عليه عمادها، وبه علا ذكرها . فمن رسائله

(١) نشره محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٤٧. أنظر Guide, p. 39.

(٢) مخطوطة بدار الكتب برقم ٧٠٦٢ ح. العنوان الكامل؛ شرح الأخبار، فى فضائل النبى المختار وآله المصطفين الأخبار، من الأئمة الأطهار، عليهم السلام. انظر Guide, p. Ivanow, 38, Brock, Suppl I, 325, Ivanow. نشره بعض نتف منها فى كتابه، Rise, p. 1-34.

(٣) مخطوطة بجامعة القاهرة، برقم ٢٦٠٦٠، فى ثلاثة أجزاء ، والعنوان بالكامل؛ المجالس والمسائرات، والمواقف والتوقيعات، عن الإمام المعز لدين الله، وعن أبائه، صلوات الله عليهم. انظر Guide, P40. :Brock; Suppl. I, 325. قام بتحقيقها مؤخراً الحبيب الفقى وإبراهيم شيوخ ومحمد اليعلاوى، تونس ١٩٧٩.

(٤) تحقيق ميرزا، دمشق ١٩٥٧.

(٥) تحقيق إسماعيل بوناولا، بيروت ١٩٧١. تتناول كل ما يتعلق بالمذهب الفاطمى.

(٦) وهى رد على رسائل أحد الأتباع. انظر. Yves Marquet : Convegno Suy li khwân as-Sâfâ. Extratto. Roma 1981,p.69-96.

(٧) ميكروفيلم ٢١٢١، قائمة بالمخطوطات اليمينية ط. دار الكتب، ١٩٦٧، ص ٨.

(٨) ميكروفيلم ٢٢٤٦٢، قائمة، ص ٤٩.

(٩) ميكروفيلم ١٨٧، قائمة، ص ٢٠.

(١٠) ميكروفيلم ٢٢٤١، قائمة، ص ٤٩.

(١١) ميكروفيلم ٢٢٤٨، قائمة، ص ٥٠.

نخص بالذكر: الرسالة الواعظة في نفى دعوى الوهية الحاكم بأمر الله (١)، والمصابيح في إثبات الإمامة لمولانا أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله (٢)، وهي رسائل عرفت في أدب الإسماعيلية مع غيرها، باسم رسائل الكرمانى، يرد فيها على دعوى الأخرم الفرغانى فى تأليه الحاكم ويفندها، ويثبت عقيدة الإسماعيلية فى الله الذى لا إله إلا هو. وقد كان تأليف هذه الرسائل بناء على توجيه الحاكم، الذى استدعاه من العراق فى ١٠١٧/٤٠٨؛ ليزيل عن المذهب الزيف والاضطراب. ومن كتبه نخص بالذكر: راحة العقل (٣)، الذى ألفه فى سنة ١٠٢٠/٤١١، وهو فى كتب الفلسفة أو الحقائق الفاطمية، وفقى فيه بين آراء عصره وآراء فلاسفة المذاهب القدامى، مثل (٤): النخشبى (النسفى) فى كتابه: المحصول، والرازى فى كتابه: الإصلاح، والسجستانى أو السجزى فى كتابيه: النصر والينابيع، ومزج بين تعاليم المذهب الإسماعيلى والعلوم الإسلامية، وبين الفلسفة اليونانية. وبفضل هذا الكتاب اعتبر الكرمانى شيخ فلاسفة المذهب الإسماعيلى، الذى لا توجد فلسفة جديدة للمذهب بعد فلسفته (٥).

ونذكر من كتب العقائد: رسائل الحاكم أو ما يعرف برسائل الدروز أو حمزة، ألف أغلبها الداعية أحمد بن على، هادى المستجيبين؛ الذى قام بكتابتها ليبيّن الطريق أمام الموحدين، ويؤرخها من تاريخ ولاية الحاكم بأمر الله، القائم بأمر الزمان. ويوجد أكثرها مخطوطاً فى دار الكتب المصرية (٦). وفى المكتبة

(١) تحقيق محمد كامل حسين، فى مجلة أداب القاهرة، المجلد ١٤، الجزء الأول، مايو ١٩٥٢، انظر. Guid, P. 44 : Ivanow.

(٢) ميكروفيلم ٢٢٢٣، قائمة، ص ٤٦.

(٣) حقق نصه محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمى، فى سلسلة مخطوطات الفاطميين رقم ٩، القاهرة ١٩٥٢، وله تحقيق من غالب، ببيروت ١٩٦٧ (لم يعتمد عليه).

(٤) البغدائى، الفرق بين الفرق، القاهرة، ١٩١٠، ص ٢٦٧؛ انظر. Ivanow.

Studies in Early Persian Ismaelism. Leiden 1947, P. 115-120 . بعض كتب هؤلاء

الفلاسفة، لا تزال توجد خطية فى المكتبات الخاصة. انظر. الهمدانى، الصليبيحيون

القاهرة، ص ٢٥١ وما بعدها. حقق غالب كتاب «الينابيع» للسجستانى، بيروت ١٩٦٥.

(٥) انظر. Guide, P. 46.

(٦) برقم: ٢٠ و ٣٥ و ٣٧ و ٣٩ و ٥٤ و ١٣٣ و ١٣٨ عقائد تحل. منها مثلاً: الرسالة الدامغة للفاسق،

وهى فى الرد على أحد علماء النصيرية، ورسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين، يطلب منهم

التقرب إلى مولايم، ورسالة ذكر معرفة الإمام، وتتضمن ذكر الأقطاب الموحدين

والقريبين من الحاكم بأمر الله.

الأهلية (B.N.) بباريس^(١) وفي مكنتبات أخرى باسم مجموعة رسائل درزية؛ وإن كان التزييف يبدو واضحاً فيها^(٢).

ونذكر كتب ناصر خسرو، وهي بالفارسية، تتناول عقيدة المذهب الفاطمي وفلسفته، مثل: خوان الإخوان^(٣)، ووجه الدين، وزاد المسافرين^(٤)، وهذا الأخير كتاب فلسفي شامل. وكان ناصر خسرو قد زار مصر في أيام المستنصر بالله، وقام بنشر المذهب في فارس عند عودته من رحلته إلى مصر؛ بحيث إن ما كان يكتبه يعتبر بوحى من الخليفة المستنصر نفسه.

ونذكر مجالس المؤيد في الدين الشيرازي (ت ٤٧٠/١٠٧٨)، المسماة: المجالس المؤيدية^(٥)، وهي ثمانمائة مجلس، أقيمت باسم الإمام المستنصر في المسائل الفقهية الفاطمية. أما المجالس المستنصرية^(٦)، التي تتناول العقائد الفاطمية؛ فقد يكون مؤلفها هو المؤيد نفسه، أو الوزير الفاطمي بدر الجمالي.

والرسالة الموسومة بالهداية الأمرية في إبطال الدعوة النزارية^(٧)، التي ينسب تأليفها إلى الخليفة الفاطمي الأمر، ترمى إلى نقض أحقية نزار الابن الأكبر للمستنصر، وتميل إلى تأييد حق المستعلي الابن الأصغر، وهو أبو الأمر.

وكتاب: تاج العقائد ومعدن الفوائد^(٨)، ألفه علي بن محمد بن الوليد (ت ٦١٢/١٢١٥)، خصيصاً عن العقيدة الفاطمية.

(١) برقم: ٦١٢١ و٦٧٤٦ و٦٧٤٧ و٦٧٥١ و٦٧٥٢.

(٢) انظر. ماجد، الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه ط. القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٢٢-١٢٣.

(٣) قام بتحقيقه يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٠. أنظر. Guide, p.93.

(٤) وكلها توجد مجموعة في كتاب الخشاب؛

Nâsiri Husrâu. Le Caire, 1946.

وإن كان الأخير نشره محمد بذل الرحمن عام ١٢٤٠هـ، في برلين. أنظر.

Guide; p.91;92.

(٥) اطلعت عليها في مكتبة المرحوم كامل حسين الخاصة.

(٦) تحقيق كامل حسين، القاهرة ١٩٤٧. أنظر. Guide, p.43.

(٧) تذييل وتحقيق وترجمة فيظلي، ومعه رسالة أخرى لها المضمون ذاته.

(٨) لدينا منه ترجمة، Ivanow، بعنوان:

A Creed of the Fatmids. Bombay, 1936.

وأخيراً منتخبات من بعض كتب إسماعيلية، تشتمل على نتف من كتب، أو رسائل قصيرة خطية، موجودة في المكتبات العامة والخاصة، مثل: تلك^(١) التي جمعت من غاية المواليد للداعى الخطاب بن الحسن (ت ١١٣٨/٥٣٣-١١٣٩)، وزهر المعانى للداعى إدريس عماد الدين (ت ١٤١٨/٨٢١)، وتلك الرسائل الأربع^(٢)؛ رسالة مطالع الشموس في معرفة النفوس، للداعى أبى فراس (ت ٩٣٧/١٥٣٠)، وأسبوع درر الستر للداعى حميد الدين الكرمانى (ت فى القرن الخامس/ الحادى عشر)، والدستور ودعوة المؤمنين إلى الحضور، تأليف الداعى ابن أحمد الطيبي (حوالى ١٢٧٤/٦٧٣)، وقصيدة لشاعر لا يعرف عنه شىء. وتلك^(٣) التي جمعت من: كتاب تربية المؤمنين أو تأويل دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن حيون (ت ٩٧٤/٢٦٣)، ورسالة جلاء العقول وزيادة المحصول للداعى على بن محمد الوليد (ت ١٢١٥/٦١٢)، ورسالة زهر زبد الحقائق للداعى حاتم الحامدى (ت ١١٩٩/٥٩٦)، وكتاب الأزهار ومجمع الأنوار للداعى حسن بن نوح الهندى؛ وغير ذلك .

وعلى العكس، لدينا من الكتب الدينية عن مذهب الشيعة ما كتبه مؤلفو السنة، التي يبدو فيها التعصب ضد الفاطميين، وبيان عدم أحقيتهم فى الخلافة، واتهامهم بالخروج على الدين الإسلامى.

فنذكر كتاب: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة^(٤)، للحمادى اليمانى (حوالى القرن الخامس)، الذى هو فقيه سنى، دخل فى مذهب الفاطميين؛ ليطلع على عقائدهم وكتبهم؛ بقصد إظهار نقائص مذهبهم.

وكتاب: الفرق بين الفرق^(٥)، للبهفدادى (ت ١٠٣٧/٤٢٩)، وهو معاصر للدولة الفاطمية فى مصر، وكتب بتعصب شديد ضدها؛ فعقد فيه فصلاً عن

(١) نشرها Ivanow مع غيرها فى كتابه: Rise of the Fatimids، تحت عنوان: المنتخب من بعض كتب الإسماعيلية. أنظر. بعده وقبله.

(٢) نشرها عارف تامر، بعنوان: أربع رسائل إسماعيلية، سلمية سورية، ١٩٥٢.

(٣) تحقيق عادل العوا، بعنوان: منتخبات إسماعيلية، دمشق ١٣٧٨/١٩٥٨.

(٤) نشره وصححه وراجعته عزت العطار، ١٣٥٧/١٩٣٩.

(٥) ط. القاهرة ١٩١٠.

مذهب الباطنية، ويقصد به المذهب الشيعي، بعنوان: «فى ذكر الباطنية وبيان خروجهم عن جميع فرق الإسلام».

وكتاب: فضائح الباطنية^(١)، للفقير الإمام الغزالي (ت ١١١٢/٥٠٥)، الذى ينتقد فيه عقائد الشريعة بأقوال ساخرة؛ إذ دعاه خليفة العراق السنى المستظهر؛ ليرد على الدعوة الفاطمية، ولذا الكتاب يسمى أيضاً: «كتاب المستظهرى» أو «فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية».

وكتاب يحيى بن حمزة العلوى (٦٦٩-٧٤٥/١٢٧١-١٣٤٤)؛ الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام^(٢)، يظهر من عنوانه مقاصد المؤلف، فيه إفحامات خاصة برأيه فى عقائد الإسماعيلية وإن كانت تبين عدم فهمه لها.

وبعد ذلك نفرد مكاناً خاصاً لمصادر أصلية قلمية، ولكن من نوع آخر؛ إذ ليست من تأليف المسلمين الشيعة أو السنة، وإنما من تأليف غير مسلمين أغلبهم من القبط، الذين تناولوا تاريخ الدولة الفاطمية فى أثناء تعرضهم لتاريخ بنى ملتهم، وقد كتبوه بالعربية. ومن الجدير بالذكر أن عملية كتابة تاريخ الكنيسة القبطية بالعربية قد بدأت فى وقت الفاطميين.

فنذكر كتاب: تاريخ، أو صلة تاريخ أوتيوخا^(٣)، تأليف يحيى بن سعيد الأنطاكى (+ ١٠٦٦/٤٥٨)، الذى تناول تاريخ القبط وكنيستهم بإسهاب فى أيام الخلفاء الفاطميين الأوائل، وقصد به تكملة ما كتب قبله سعيد بن البطريق^(٤)، المعروف بأوتيوخا "Eutychius"، وهو أوقف تاريخه إلى ١٠٣١/٤٢٢. ولهذا الكتاب

(١) تحقيق Goldziher، ط. Leyden، ١٩١٦؛ وتحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوى، القاهرة ١٩٦٤.

(٢) حلقه عون، وراجعه النشار، ط دار المعارف.

(٣) تحقيق Vasiliev و Kratchkovsky (فى Pat.Or.XXIII) بعنوان:

Histoire de Yahya-ibn Saiid d'Antioche. Continueur de Saiid-ibn Bitriq

Paris, 1924؛ أو تحقيق شيخو، ط. بيروت.

(٤) كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق. فى جزأين، تحقيق شيخو، بيروت

١٩٠٥-١٩٠٩ (يشتمل على كتاب يحيى بن سعيد، ونعتمد عليه أحياناً).

ميزة في أنه يورد معلومات قيمة عن علاقة الروم بالفاطميين، ويعطى تواريخ هجرية مقابل تواريخ مسيحية.

وكتاب: « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، المعروف باسم: «سير البيعة المقدسة»^(١)، تأليف ساويرس "Severus"، أسقف الأشمونين، المعروف بأبن المقفع الذي عاش في أيام الخليفة الفاطمي المعز، وكان كاتباً في دواوين الفاطميين، ثم صار أسقفاً، وتميز بتأليفه العديدة عن الكنيسة القبطية وأحوالها، بلغت عشرين كتاباً^(٢). وقد استكمل هذا الكتاب بكتاب آخر باسم: ذيل سير الآباء البطاركة، مؤلفون قبط آخرون، مثل: الأنبا ميخائيل^(٣)، الذي تناول تاريخهم في عهدى الحاكم والظاهر، وقد كان شماساً، ثم قسيساً، ثم أسقفاً على تنيس^(٤)، وابن منصور بن مفرج الإسكندراني، الذي تناول تاريخهم في عهد المستنصر. فهذه الكتب لبطاركة الإسكندرية، تحتوي على تفاصيل كثيرة عن الأحوال الداخلية في الدولة الفاطمية وعلاقتها بالنوبة والحبشة والروم.

وكتاب: تاريخ كنائس وأديرة مصر^(٥): لأبي صالح الأرمني (١٢٠٨/٦٠٥+)، الذي زار مصر وقت سيطرة الأرمن على دولة الفاطميين؛ بتولية بدر الجمالي ووزارة المستنصر. وهو أرمني. كما أن أبا صالح عاصر زوال النفوذ الأرمني من مصر في آخر حكم الدولة، بعزل بهرام من وزارة الحافظ، وهو أرمني كذلك. فيذكر أبو صالح في كتابه تفاصيل كثيرة عن الفاطميين وأحوال البلاد.

ونذكر كتابين متأخرين، أحدهما: تاريخ العرب^(٦): للشيخ المكين جرجس ابن العميد (+ ١٢٧٢/٦٧٢)، الذي يتناول فيه تاريخ الدولة الفاطمية مع غيرها من

(١) حقق أجزاءه Evetts في (Pat. Or. Tv)، وكذا Seybold، ويسى عبد المسيح، وسوريال وهرمستمر Bermester. عن ابن المقفع، انظر.

Ency. de l'Isi, (art Ibn al-Mukaffa') t2, 429-430.

(٢) عن ذلك، انظر. ذيل سير الآباء البطاركة، مخطوطة بدار الكتب، برقم ٦٤٣٤ ح، الجزء الثالث، ورقات ٤٧ و ٤٨.

(٣) انظر. المخطوطة السابقة، ٣ ورقة ٦٩.

(٤) عن هذه المدينة، انظر. معجم البلدان، ٢ ص ٤١٩، جزيرة قرب دمياط.

(٥) تحقيق وترجمة Evetts، ط. Oxford، ١٨٩٥.

(٦) حققه وترجمه إلى اللاتينية Erpenius، بعنوان:

Historia Saracenicæ. Lugduni - Batavorum. 1625.

دول المسلمين، والآخر: تاريخ مختصر الدول^(١). للأب غريغوريوس أبني الفرج المعروف بابن العبري (١٢٨٦/٦٨٥+)، وللأوربيين باسم: "Barhebrnaeus"، الذي يتعرض فيه لأحوال الدول، بما فيها الدولة الفاطمية.

وإذا ذكرنا كتابات المسيحيين والقبط في مصادرنا الأصلية، فيجب أن نذكر أيضاً مجموعة من كتابات اليهود في مصر أيام الفاطميين، خاصة بهذه الطائفة، تفيد إلى حد بعيد في تقصى أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية في ذلك الوقت؛ تعرف باسم، الجنيزة^(٢) "Genîza"، وهي كلمة آرامية أو عبرية تعنى مكاناً دفنت فيه أوراق، حتى لا يدنس اسم الله الذي فيها؛ فلعل فيها معنى كلمة «جنازة» العربية؛ لتعنى الدفن. وقد وجدت هذه المجموعة في أحد معابد اليهود في الفسطاط، وكانت كنيسة في الأصل اشتراها اليهود، وأضيفت لها قاعة لحفظ هذه الأوراق في حوالي ١١٩٠ م. ولما هدم؛ بيعت لمكتبات أوروبا وأمريكا. ومن الجدير بالذكر أنها مكتوبة بالعربية في أغلبها، وأنها تحتوى على فتاوى "Responsa"، خاصة باليهود وعلاقتهم بالمسلمين.

ولدينا مصادر أصلية هامة من مؤرخين بيزنطيين، تبدو أهميتها في أنها تبين وجهة نظر العدو الأول غير المسلم للفاطميين، وهم الروم فنذكر:

(١) تحقيق صالحانى، بيروت ١٨٩٠، وتحقيق Kirsch و Bruns، بعنوان:

Chronicon.

(٢) عنها: Ency. de l'Isl, (art Geniza) 2^{éd}, t2, P. 1010-1012; (art Diplomatique) 2^{éd}, 1959; 2, p. 309 sqq;

The Cairo Geniza, 2 ed. 1959: Kahle.;

L'Etat actuel de la recherche sur les documents de la Geniza. R.E.J. : Goitein CXVIII, (1959-1960) 9-27;

The Cairo Geniza as a Source for the History of Muslim Civilization. S.I,III, 1955;

Letters of Medieval Jewish Traders. Translated from the Arabic. Princeton, 1973;

Fragments from the Cairo Genizah: London 1927.: Gottheil and William.

The importance of Cairo Geniza. Cambridge Univ. Oct, 1976 no 4 : Stillmann (Middle East Studies).

وكذا عطية القوصى نى: وثائق الجنيزة وأهميتها في دراسة تاريخ مصر الإسلامية، مستخرج من مجلة جامعة القاهرة للخرطوم، العدد ٥، ١٩٧٤.

يقال إن عدد الأوراق التي كانت في الجنيزة، بما يزيد عن الربع مليون ورقة. انظر.

A Tentative Bibliography of Geniza Documents. Paris. 1964. : Goitein

Leo Diaconus ، الذى كتب تاريخه "Historiae" إلى ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، و Michel Besellos ، الذى كتب تاريخه إلى ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ، و (Cedrenus) Georgiús ، الذى وصل بتاريخه Historiaum إلى بعد ذلك^(١) ، والأمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع بورفيرو چينيتوس Constantinus VII Porphrogenotus فى كتاب الإدارة^(٢) Adminstrando imperis Historiaum ، وكتاب الرسوم^(٣) De Cermonis Compendium . وفوق ذلك توجد وثائق دبلوماسية يونانية ، تبودلت بين الروم والفاطميين وغيرهم ، نشرت بعنوان: Regesten^(٤) .

كذلك كتب الحرب الصليبية الأولى ، التى عاصرت آخر أيام الفاطميين ، وهى حركة الإفرنج نحو الشرق الأوسط ، وقد ورد معظم ما كتب عنها فى الموسوعة الفرنسية المعروفة باسم: "Recueil"^(٥) ، التى جمعت منذ أواخر القرن السابع عشر . وهذه الموسوعة تشتمل على النصوص بما فيها العربية ، وهى مقسمة بين أصناف المؤرخين عنها على حسب جنسيتهم ، من يونان وأرمن وأوربيين وعرب ، ذكرنا بعضهم سابقاً ، فمن اليونان: Jean Phocas و Niketas ، ومن الأرمن: Mathieu d'Edesse^(٦) - متى الرهاوى - Heythoum ، ومن الأوربيين: وليام الصورى - وليام Willemer^(٧) و Baudri و Guibert و Albert و Fulcher ؛ وإن

(١) نشرها Haase فى Corpus Scriptorum, Historiae Byzantinae. (C.S.H.B.) ed. Bekker. Bonn. 1839.

(٢) له ترجمة عربية من عمران ، مأخوذة من ترجمة إنجليزية ، طبع فى الإسكندرية .

(٣) تحقيق Vogt ، فى خمسة أجزاء ، ط. Pairs ، ١٩٤٠ .

(٤) أنظر. Regesten von Kaiserurkunden des Osrömischen Reiches I., Berlin: Dölger - München, 1924.

Recueil des Historiens des Croisades. 16 Vols. Paris, 1841-1906: Documents arméniens. 2 Vols; Historiens grecs. 2 Vols; Histoeirens occidentaux. 5 Vols; Historiens orientaux. 5 Vols.

حيث أن النصوص العربية من تحقيق وترجمة De Slane ، وتضم النصف الأصيل والترجمة الفرنسية .

(٦) له ترجمة عربية فى بحث عمر كمال عن تزيمسكس .

(٧) عمل فى خدمة الملك عمورى ملك بيت المقدس ، وكتابه بعنوان: - Historia Rerum in Parti William of Tyre , : A History bus transmarini Gestarum of Deeds done beyond the Sea. Transl and annot by Babcoch and Krey, 2 Vols ، وظهرت له ترجمة عربية من حسن حبشى بعنوان: الحروب الصليبية، الجزء الأول، القاهرة ١٩٩١ . أنظر أيضاً. عمر كمال توفيق، وليام الصورى، مقالة كلية الآداب، الإسكندرية، المجلد ٢١، ١٩٦٧ .

كان ما ذكره الأوروبيون يتفق أغلبه مع ما كتبه مؤلف مجهول، باسم: Gesta Francorum^(١)، ومعظمها كتب من الشاهد العيان؛ كما توجد بتفاصيلها أيضاً في^(٢): Les Archives de l'Orient Latin و Bibliothèqne des Croisades^(٣).

وأخيراً يجب أن نلم بما كتبه المؤرخون الحديثون عن تاريخ الفاطميين، الذي جر إلى ظهور كثير ممن اهتموا به، سواء أكانوا متخصصين، Ex professo أم غير متخصصين، وبعضهم كتبوه من مصادر خطية، لم تنشر من قبل. فنذكر^(٤) من العرب: حسن إبراهيم، ومحمد كامل حسين، وحسين الهمداني، وعباس الهمداني، وزاهدى على، والشيال، وجمال سرور، وعبد الله عنان، وأيمن فؤاد. ومن الأوروبيين: De Sacy و Quatremère و Bekker و Guyard و O'Leary و Mamour و Massignon و Stern و Lewis و Canard و Cahen و Hodgson و Vatikiotis و Ivanow و Wüstenfeld و Betty و Müller و Strottmann و Bianquis.

هذه نظرة عامة على أهم المتابع التي يمكن أن ينهل منها الباحث في تاريخ خلافة الفاطميين في مصر، تناولت أهم المصادر والمراجع .

-
- (١) أنظر: Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum, ed. Brechier، وهي توجد في مجموعة: (R.H.C. occ 13)، وترجمة إلى الإنجليزية من Somerset de Chair، وإلى العربية من حسن حبشي، وكتبت في عام ١١٠٥ م.
- (٢) في ٢ أجزاء، ط. New York، ١٨٨١.
- (٣) في جزأين، ط. Paris، ١٨٨١ - ١٨٨٤.
- (٤) أنظر. ماجد، مساهم به المؤرخون العرب في المائة سنة الأخيرة من دراسات في التاريخ العربى وغيره، إشراف هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية، بيروت ١٩٥٩ (عن الفاطميين).

جدول بأسماء خلفاء الفاطميين في مصر

٩٥٢	معد أبو تميم	٣٤١	المعز لدين الله .
٩٧٥	نزار أبو منصور	٣٦٥	العزیز بالله
٩٩٦	المنصور أبو علي	٣٨٦	الحاكم بأمر الله
١٠٣٠	علي أبو الحسن	٤١١	الظاهر لإعزاز دين الله
١٠٣٥	معد أبو تميم	٤٢٧	المستنصر بالله
١٠٩٤	أحمد أبو القاسم	٤٨٧	المستعلي بالله
١١٠١	المنصور أبو علي	٤٩٥	الأمير بأحكام الله
١١٣٠	عبد المجيد أبو الميمون	٥٢٤	الحافظ لدين الله
١١٤٩	إسماعيل أبو المنصور	٥٤٤	الظافر بأمر الله
١١٥٤	عيسى أبو القاسم	٥٤٩	الفائز بنصر الله
١١٦٠	عبد الله أبو محمد	٥٥٥	العاقد لدين الله

سقوط الخلافة الفاطمية في سنة ١١٧١/٥٦٧.

الفصل الأول

أحوال مصر قبل مجيء
الفاطميين

انتشار المسيحية-
الفتح العربي- الولاة الراشدون-
الولاة الأمويون- الولاة العباسيون-
انتشار الإسلام- الإستعراب-
ولاية الطولونيين

أحوال مصر قبل مجيء الفاطميين

وقبل كل شيء يجب أن نعرف أحوال مصر، التي لم تكن عربية في الأصل أو مسلمة. فنعرف أن أهلها كانوا شعباً مسيحياً، تلقف المسيحية منذ ظهورها؛ وليس أدل على ذلك من قول الروايات المسيحية بأن أول من دعا لها في مصر هو القديس مرقس الرسول^(١)، أحد تلامذة المسيح، الذي جاءها في نحو منتصف القرن الأول الميلادي، ولكن الأسانيد التاريخية، مثل: مراسيم التعذيب- كما وردت في أوراق البردي^(٢) أيام الرومان- تدل على أن المسيحية انتشرت في مصر في عهد الامبراطور دسيوس "Decius"، الذي أصدر منشوراً في سنة ٢٥٠ م، يطلب فيه من كل مصري أن يأخذ شهادة اختبار للعقيدة «Libellus»؛ بأنه قدّم قرباناً للآلهة الوثنية، مصداقاً عليها من لجنة من الموظفين انتشرت في أنحاء البلاد؛ وذلك بقصد منع المصريين من اعتناق المسيحية. ويظهر أن المسيحية انتشرت بصفة مؤكدة انتشاراً كبيراً في كل أنحاء مصر، في أواخر القرن الثالث الميلادي وأوائل الرابع؛ وسمى عصر الامبراطور دقلديانوس "Dicletianus" في مصر بعصر الشهداء^(٣)؛ لكثرة من عذب من المسيحيين المصريين. ويدل على انتشار المسيحية المبكر في مصر، أن الإسكندرية كانت إحدى كراسي^(٤) المسيحية الأربعة الهامة فيما بعد؛ وأن رئيسها اختص بلقب البابا^(٥) (الحر الأعظم)، وهو اللقب الذي أخذه منه أسقف روما بعد ذلك.

(١) سعيد بن بطريق، تحقيق شيخو، ١ ص ٩٥-٦٠؛ الخطط، ٤ ص ٢٨٠ وما بعدها.

وهو المعروف للعرب باسم: مرقس الإنجيلي، وللأوربيين باسم سان مارك "Marcus"، قتل بالإسكندرية.

(٢) أنظر. Les plus anciens Monuments du Cristianisme. écrits sur Papyrus. Te-: Wessely. xtes, éd et trad P.O, t XVIII 2pt, P. 340 sqq.

(٣) الخطط، ٤ ص ٢٨٢ ص ٢٤ وما بعدها. يسميه دقلديانوس.

أيضاً A History of Egypt under Romen Rule. London, 1924, P. 128; 212 : Milne

(٤) الخطط، ٤ ص ٢٨٠ ص ١١.

(٥) صبح، ٥ ص ٤٧٢. يسميه: الباب، بهامين موحدين مفخمتين في اللفظ.

وقد اتخذت المسيحية في مصر منذ انتشارها شخصية خاصة؛ إذ كان التعذيب الذى تعرض له المصريون المسيحيون، سبباً فى أن أوجد نظام الرهبنة الفردى أو الديرى، وهو نظام أساسه مسيحى، ظهر فى مصر قبل أى مكان آخر. فكان المصريون يهربون بعقيدتهم المسيحية إلى الصحارى؛ بحيث أصبحت الرهبنة المثل الأعلى للمسيحية المصرية؛ وينسب المؤرخون إلى الأنبا أنطون^(١) (أنطونيوس الكبير) المصرى، أنه أول من بنى الديارات وجمع الرهبان بمصر. كذلك اعتقد المصريون فى الطبيعة^(٢) "Phusis" الواحدة للمسيح. وهو ما عرف بالأرثوذكسية أى العقيدة الصحيحة، وأيضاً اليعقوبية، نسبة إلى يعقوب البرازعى^(٣)، الذى بشر بها، وذلك على عكس غالبية المسيحيين فى ذلك الوقت، الذين قالوا بالطبعيتين الإلهية والبشرية للمسيح، وخلطوا العقيدة المسيحية بالفلسفة اليونانية السائدة.

، قد كانت الدولة البيزنطية، التى ورثت الرومان فى الشرق، وتحولت إلى ، حتى أن هذه العقيدة سميت البيزنطى. فحاولت هذه الدولة ، تقريب وجهات النظر بين أتباع يهود^(٥)، لكن دون جدوى. كذلك لجأت إلى الشدة مع المصريين؛ بحيث أنها اضطهدت الأرثوذكسية، واستحلت قتل

(١) سعيد بن بطريق، ١ ص ١٣٧ س ٢٠-٢١؛ الخطط، ٤ ص ٢٨٢ س ١٥-١٦

انظر The Coptic Churches and Egyptian, Monasticism. Oxford, 1941, P : O'Leary. 317 sqq.

(٢) بمعنى أن الله اختلط ببدن عيسى اختلاط الماء بالبن.

سعيد بن، بطريق، ١ ص ١٩٥ س ١٦، الرازى، اعتقادات فرق المسلمين والمشرى، ص ٨٤.

(٣) سمي هكذا لأنه كان يلبس البرازع والثياب البالية المخرقة، وهو قس من أهل نصيبين. تاريخ النسطوريين، لمؤلف مجهول، نشر ترجمة Scher، فى (P.O.) ٢/٧ من ص ١٣١ (٤٩)؛ سعيد بن بطريق، ١ ص ١٩٥.

(٤) سعيد بن طريى، ١ ص ١٨٣ ص ١٨؛ اعتقادات، ص ٨٤. الملك المقصود هو الإمبراطور مرتيان "Marcianus". صبح، ١٢ ص ٢٧٦. يقول مر كان.

(٥) عقد فى عام ٤٣١ م. سعيد بن طريى، ١ ص ١٥٥، ١٥٧.

المصريين وضربهم، وحتى إغراقهم في البحر^(١)، على يد قيرس "Cyrus"، الذي أرسلته بيزنطة إلى مصر، وسماه المصريون المقوقس سخرية^(٢). ومع ذلك بقي المصريون يعتقدون في الطبيعة الواحدة للمسيح، وظلت الكنيسة المصرية قلعة وطنية ثابتة الأركان في مقاومة المستعمر.

كذلك واكب انتشار المسيحية في مصر حركة قومية. فقد جعل المصريون لغة عقيدتهم المسيحية، لغتهم المصرية القديمة، التي كانت قد حاربها المستعمر اليوناني والروماني ثم البيزنطي، فيها كتب المصريون الأناجيل والتوراة، وذلك عكس المسيحيين الآخرين، الذين جعلوا لغتهم الدينية اليونانية أو اللاتينية. فكان انتشار المسيحية في مصر، معناه عودة اللغة المصرية القديمة، التي اتخذت مظهراً أكثر تبسيطاً من الديموطيقية القديمة، وعرفت بالقبطية، أخذة اسمها من اسم مصر "Aigptioi"، الذي هو تسمية يونانية الأصل؛ بحيث أن كلمة قبطي^(٣) كانت تدل على المصري عند العرب، ولا تزال تدل على مسيحي مصر إلى الآن. فكان المصريون منذ اعتناقهم المسيحية مدفوعين بروح قومي، يتمثل في ظهور اللغة القبطية^(٤)، وما ظهر بعد ذلك من آداب وفنون، متأثرة بطابع الدين الجديد، ومعبرة في جملتها عن شخصية مصر القديمة، وبرز مؤثرات جمالية جديدة في المعمار والنسيج، والأيقونة اختلفت عما يوجد في الحضارة البيزنطية، وحتى في الحضارة المصرية القديمة، فالأيقونة مثلاً فيها فن مبتكر يختلف عن رسوم مصر القديمة وتمثيلها. وبذلك يصدق قول المؤرخ "Saurat"^(٥)، في كتابه: «تاريخ الأديان»: بأن الشعوب قد تخلق الأديان.

فلما جاء العرب لفتح مصر في سنة ١٨هـ/٦٣٩، وكان المصريون يثنون من الاحتلال البيزنطي الأجنبي، والاضطهاد لعقيدتهم، فإنهم مع ذلك، لم يقبلوا

(١) ساويرس بن المقفع، سير البهجة المقدسة (في P.O.) ٢/١ ص ٤٩١-٤٩٢.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، تصديق Torrey، طبعة New Haven، ١٩٢٠، ص ٧٢ س ٧٢. ربما تعنى القوقازي، وإن كان أصل تسمية المقوقس غامضة. انظر. Ency de l'Isi, (art. Mukawkas) t3, P. 761 sqq.

(٣) انظر . Ency de l'Isi, (art. Egypte) t2 p.5;(art. Kibt) t2,p. 1048 qq.

يذكر المقرئزي وغيره أنه اسم جد للمصريين. الخطط، ١ ص ٢٨؛ صبح، ٣ ص ٤١٢.

(٤) انظر. بعده.

(٥) انظر. Saurat. Histoire des Religions, 2 éd. Paris, P. 14.:

كشعب أصيل أن ينتقلوا كسلعة من يد محتل إلى آخر. فقاوموا الفاتحين العرب في الفرما (١) وعين شمس (٢) وحصن بابلين (٣) والفيوم (٤) والإسكندرية العظمى (٥) - العاصمة وقتئذ - وحتى في القرى الكثيرة في منطقة الدلتا مثل (٦)؛ طوخ (٧) وسلطيس (٨) ودمسيس (٩) وقرطسا (١٠) وبكهيپ (١١) ودمياط (١٢) ودميرة وأشمون وتئيس (١٣)؛ بحيث إن العرب لم يستطيعوا فتح هذه القرى إلا بعد أن أحرقوا المزارع وسبوا أهلها (١٤)، واستمر جيش من سكان الدلتا يحارب سبع سنوات (١٥) أو اثني عشر عاما (١٦)؛ كما أن العرب كانوا يخافون من أن تنتفض مصر في أي وقت (١٧).

(١) عن هذه الفتوح؛ ابن إسحق، كتاب فتوح مصر وأعمالها، القاهرة ١٢٧٥هـ، ص ٤؛ Chroniques de Jean, p 23؛ ابن عبد الحكم، ص ٥٨؛ الخطط، ١ ص ٢٦٨-٢٦٩؛ معجم البلدان، ٦ ص ٣٦٧-٣٦٨. مدينة على الساحل.

(٢) انظر. Chronique de Jean, P.212؛ Ency de l'Isl, (art . 'Ayn- Shams) 2 éd, t I, P. 811؛

عنها؛ معجم البلدان، ٦ ص ٢٥٦.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، ١ ص ٥١ س ٢.

(٤) انظر. Chronique de Jean, P. 228:230:232؛ ياقوت، معجم البلدان، ٦ ص ٤١٤-٤١٦.

(٥) معجم البلدان، ١ ص ٢٣٤ وما بعدها.

(٦) بعامه، انظر. ابن إسحق، ص ٣٦؛ الكامل، ٢ ص ٣٩٧ س ٤؛ ابن عبد الحكم، ٢ ص ٨٢ س ٢-٤؛ معجم البلدان، ٢ ص ٢٨٢؛

Chronique de Jean, P. 236.

(٧) قرية بالحواف الغربي. معجم البلدان، ٦ ص ٦٧.

(٨) نفسه، ٢ ص ٢٨٢ س ٣.

(٩) قرية قرب سمندود. نفسه، ٤ ص ٧٢.

(١٠) نفسه، ٧ ص ٥٥.

(١١) نفسه، ٢ ص ٢٨٢.

(١٢) ابن إسحق، فتوح مصر، ص ٨٠-٨١.

(١٣) نفسه، ٨٨؛ معجم البلدان، ٢ ص ٤١٩ وما بعدها.

(١٤) معجم البلدان، ٢ ص ٢٨٢ س ٤. وذكر المصدر ذاته أن بعض السبى أرجعه عمر إلى أهله، بعد أن خرج الروم.

(١٥) الخطط، ١ ص ٢٧٢ س ١٣. لا تتصور وجود جيش للمصريين قبل الفتح العربي،

وربما أن الروم كانوا يجمعونهم وقت الخطر، مثلما كانوا يجمعون النوبيين «النوب»

[عن هؤلاء، انظر الكامل، ٢ ص ٣٩٥-٣٩٧؛ صبح الأعشى، ١٣ ص ٢١٤]، فلما جاء

الفتح العربي هب المصريون للدفاع عن وطنهم.

(١٦) انظر. Chronique de Jean, P. 236.

(١٧) ابن عبد الحكم، ص ١٧٥ س ١١.

ويظهر أن أغلب مؤرخى المسلمين لم يرضوا أن يذكروا هذه المقاومة إلا تلميحاً؛ حتى لا يظهر المصريون بمظهر المقاوم للمسلمين، وذلك لأن مصر فيما بعد تحول أهلها إلى الإسلام، واحتلت مركز الزعامة فيه. وعلى العكس ذكروا كثيراً أن المصريين عاونوا الفاتحين، بما كانوا يمدونهم مما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها^(١)، ويصلحون لهم الطرق ويقيمون الجسور، لتسهيل تنقلات جيوشهم. ولكننا ندرك مقاومة المصريين للفاتحين مما ذكره المؤرخون عن مقاومة قرى مصر ومدنها، ومما وقع فيه المؤرخون المسلمون من الاختلاف عند معالجتهم مسألة يحبون الخوض فيها، وهى مسألة فتح مصر: وهل كان يصلح أو عنوة^(٢)، أو حتى هل كان للمصريين عهد، أو أن بعضها فتح بالسيف، وبعضها صلحاً^(٣).

وعلى كل حال تمكن العرب من إتمام فتح مصر فى عام ٦٤٢/هـ، بسبب فتور مقاومة المصريين، وانسحاب البيزنطيين. وكرمز لفتح العرب لمصر، أنشأوا فيها معسكراً قرب حصن بابليون، سموه «الْفُسْطَاط»^(٤) - وهو اسم لعله من اللاتينية "Fossatum"، أو من العربية بمعنى الخيمة أو المدينة^(٥) - فسكنته قبائلهم من المهاجرين والأنصار فى خطط عرفت بخطط أهل الولاية أو قطائع^(٦)، وسموه أيضاً «مصر»^(٧)، وذلك لوقوعه على الحدود الصحراوية، مثل: البصرة

(١) نفسه، ص ٧٢ س ١٦-١٧، ٧٣ س ٤؛ الخطط، ١ ص ٢٦٣؛ حسن المحاضرة، ١ ص ٥٢.

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٨٤-٩٩؛ الخطط، ٢ ص ٧٢ وما بعدها؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ١ ص ٥٥ وما بعدها.

(٣) الخطط، ١ ص ٢٦٧؛ معجم البلدان، ٦ ص ٣٨٠؛ الذهبى، نول الإسلام، حيدرآباد ١٣٦٤ هـ، ١ ص ٤.

(٤) معجم البلدان، ٦ ص ٣٧٧ وما بعدها، هى تقراً أيضاً فسطاط وفساط وفسطاط وفسطاد. نفسه، ٦ ص ٣٨٠؛ الخطط، ٢ ص ٦٧. من معانيها أيضاً بيت من الشعر؛ الخطط، ٢ ص ٥٩.

(٥) ابن الحكم، ص ٩١ س ١٩؛ معجم البلدان، ٦ ص ٣٧٩؛ الخطط، ٢ ص ٧٦ س ١٢؛ صبح، ٣ ص ٣٣٩ وما بعدها؛ انظر. بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة فريد أبو حديد، ط ٢، القاهرة ١٩٤٦، ص ٢٥٠؛ الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ١ ص ٤١.

(٦) الخطط، ٢ ص ٧٦ وما بعدها؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ١ ص ٥٧.

(٧) الخطط، ٢ ص ٧٦ س ١٢، ١٢؛

أيضاً: Ency de l'Isl, (art Misr) t3, P. 590-591

عن هذه الكلمة : لسان، ٧ ص ٢٤.

والكوفة، وإن عرفت أيضاً «بفسطاط مصر»^(١)، أى بالاسمين معاً؛ ولقد أصبح هذا المعسكر مدينة عظيمة، حتى لما أقام الفاطميون عاصمتهم القاهرة^(٢)، فعرفت إلى وقتنا الحاضر بمصر القديمة. كذلك بنى العرب فى الفسطاط مسجدهم الأول، الذى عرف باسم قائد الفتح: عمرو بن العاص- ولا يزال يحمل اسمه إلى وقتنا- أو حتى باسم: تاج الجوامع، أو الجامع العتيق^(٣).

*

ولقد بقيت مصر بعد الفتح لمدة طويلة بعيدة عن حوليات مؤرخى المسلمين. فبعد الفتح لم تكن الخلافة الإسلامية فى الحجاز تهتم بمصر إلا من حيث إنها تنتج الحنطة أو القمح^(٤)، وورق البردى، الذى يكثر فى مستنقعات الدلتا والفيوم، وأنها تصنع النسيج، أو ما كان يعبر عنه وقتئذ بدق الطروز^(٥)، وهى الصناعة التى اشتهرت بها مصر منذ الفراعنة، وخصوصاً أن العرب قبل الإسلام، كانوا يستوردون منها النسيج المسمى القباطى^(٦)، نسبة للقط، لكسوة الكعبة، والديباج^(٧) وهو الحرير. وكذلك اعتبرت مصر عند العرب خزانة أمير المؤمنين^(٨)- أى الخليفة- التى يحمل منها القوات والمال إلى جنده. وليسهل نقل خيرات مصر الكثيرة إلى عرب الحجاز، أعادوا حفر القناة، التى كان الفراعنة قد حفروها بين النيل والبحر الأحمر فصفرت فى ستة أشهر، وعرفت بعد الفتح

(١) الخطط، ٢ ص ٦٢ س ١٢.

(٢) نفسه، ٢ ص ٥٩ س ١١-١٢. أحرقت الفسطاط فى عهد الفاطميين، نتيجة لمهاجمة

الصليبيين، أو حتى قبل ذلك وقت هرب مروان إلى مصر. انظر. بعده.

(٣) ابن عبد الحكم، ص ٩١-٩٢؛ ابن إسحق، فتوح مصر، ص ٥٢ س ٢٢.

(٤) سعيد بن بطريق، ٢ ص ٢٦-٢٧؛ انظر. Wiet؛

Geschichte der Chalifen. Mannheim, 1846, I, P. 130 sqq.

(٥) الثعالبي، لطائف المعارف، تحقيق Jong، ط. Leyden، ١٨٦٧، ص ١٧٦؛ انظر. Ser-

Material for History of Islamic Textiles. Ars. Islamica, vol, 1x, 1942, : jeant

p.65.

(٦) صبح الأعشى، ٤ ص ٢٧٩.

(٧) عن هذه الكلمة؛ انظر. Dozy، Suppl, I, P. 421.

(٨) معجم البلدان، ٨ ص ٧١.

العربي باسم خليج أمير المؤمنين^(١). وفي أخبار يوحنا النقيوسى يقول إن العرب أجبروا المصريين على حفر هذه القناة، وأن هؤلاء تعذبوا كثيراً^(٢). يضاف إلى ذلك أنه فرضت الجزية على الرعوس، والخراج على الأرض، وقرر على أهل القرى ضيافة العرب إذا مروا بهم^(٣). ومع ذلك، فكثيراً ما كان الخليفة عمر بن الخطاب يعيب على عمرو فى كتاباته إليه^(٤)، تراخيه فى إرسال مال مصر، ولما تولى عثمان بعد عمر، وعزل عمرو عن ولاية مصر، لم يهتم عثمان إلا بما يأتية من مال مصر، وقال لعمرو^(٥): «درت اللقحة بأكثر من درها الأول»، فأجابه عمرو: «أضررتم بولدها؛ إن لم يمت الفصيل». وكانت هذه الحالة— كما يظهر من وصف المؤرخين— أن جعلت شعب الحجاز، وكافة يعيش على حساب شعب مصر.

وعلى النقيض من ذلك، فإنه خلال حكم هؤلاء الخلفاء الأوائل، تمتع المصريون بحريتهم الدينية، التى كانوا قد افتقدوها فى ظل الحكم البيزنطى. وفى أول حكم العرب، كتب عمرو للبطريك بنيامين، الذى كان قد اختفى وسائر الأساقفة فى أثناء الحكم البيزنطى فى الصحراء والجزر^(٦)، فعاد بنيامين إلى الإسكندرية بعد ثلاث عشرة سنة، فأمره عمرو بضبط أحوال الكنيسة القبطية^(٧). كذلك لم يتدخل الخلفاء فى عقيدة المصريين الدينية، أو انتخاب بطاركتهم، بل انجازوا للأرثوذكسية، عقيدة غالبية المصريين؛ بحيث غلبت على كنائس مصر ودياراتها، وعاد كثير من القبط إليها بعد أن كانوا قد اضطروا إلى

(١) الكامل، ٢ ص ٣٩٥ س ١؛ الخطط، ١ ص ١١٤-١١٥، ٣ ص ٢٢٩ وما بعدها؛ حسن المحاضرة، ١ ص ٦٨.

(٢) انظر. Chronique de Jean, P. 254.

(٣) حسن المحاضرة، ١ ص ٦٣.

(٤) نفسه، ١ ص ٦٤-٦٥. لما قامت السفن من الحجاز، قال عمر للناس: سيروا بنا، ننظر إلى السفن التى سيرها الله إلينا من أرض فرعون حتى أتتنا. وكانت هذه السفن تحمل الحبوب إلى المدينة فى عشرين مركباً، وكانت حمولة المركب الواحد ثلاثة آلاف أردب. انظر. ابن سعيد الأندلسى، الاغتباط فى حلى مدينة القسطنطينية، مخطوط بنار الكتب، برقم ٢٧١٢، ورقة ١٥٣. الميناء هو ميناء الجار فى الحجاز.

(٥) الخطط، ١ ص ١٢٧ س ٥-٦.

(٦) صبح، ٩ ص ٣١٤؛ انظر. Chronique de Jean, P. 261.

(٧) انظر. ساويرس بن المقفع، سير البيعة، تصديق (P.O.) Evetts، ٢/١ ص

٤٩٦-٤٩٧؛ الخطط، ٤ ص ٣٩٤.

الخروج عنها نتيجة لتعذيب البيزنطيين. كما أن عمراً ومن خلفه من الولاة، لم يمسوا إطلاقاً أموال الكنيسة القبطية، ولم يأخذوا الجزية من الرهبان ورجال الدين. لذلك بنيت في هذا العهد كنائس كثيرة مثل: كنيسة القديس مرقس^(١) في الإسكندرية، ومارجرس في الفسطاط. كذلك، لما كان العرب خالي الوفاض من الحضارة، فإنهم أبقوا الكتاب القبط في الإدارة، وأحلوه مكان البيزنطيين.

*

ولكن انقلبت حالة المصريين إلى السوء بانتقال الخلافة من الراشدين، الذين كانوا يقيمون في الحجاز إلى أسرة بنى أمية، التي نقلت مركز الحكم إلى الشام، وأرادوا استغلال مصر في حروبهم ضد بنى هاشم، فأسرعوا بالاستيلاء على مصر من واليها الهاشمي، على يد عمرو بن العاص، الذي عاد للتعاون معهم، بعد أن كانوا قد نبذوه في أيام عثمان. ومنذ أن استولوا عليها، اعتبروها فتحت عنوة، وأن أهلها عبيدهم، لهم أن يزيدوا عليهم ما يشاءون من المال^(٢). بل إن معاوية أول خلفاء الأمويين، كان يعتبر الذين أسلموا من أهل مصر أشبه بالناس^(٣)، أما القبط فليسوا من الناس، والناس في رأيه هم العرب وحدهم. فكان يتولى حكم مصر من قبل الأمويين أولاد الخلفاء وإخوتهم والمقربون؛ حيث يعيشون فيها عيشة الخلفاء أنفسهم. ولم يعد يهتم ولاة الأمويين إلا بجمع المال، ومن يتولها، يعض إلى الإسكندرية عند بطريكها، ليحاسبه على المال الذي يفرضه على القبط، ويعتبره مستولاً عن جبايته^(٤). فعاد الحال إلى ما كان عليه أيام البيزنطيين، وأصبح الناس يهربون إلى الصحارى.

كذلك انتقلت إلى مصر قبائل العرب في عهد الأمويين، ولا سيما في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، الذي أسكن شرقي الدلتا في منطقة الحوف الشرقي بعض بيوت قيس^(٥)، التي انتزعت أراضيه من المصريين، ثم نزلت الصعيد

(١) الخطط، ٤ ص ٣٩٤ س ١٦-١٧.

(٢) الكامل، ٢ ص ٣٩٧ س ٢٦.

(٣) الخطط، ١ ص ٨٠ س ١٨-٢٠.

(٤) ساويرس، سير البيعة، تحقيق Seybold، ٢/١ ص ١٢٦.

(٥) الخطط ١ ص ١٢٨-١٢٩؛ الكندي، الولاة والقضاة، ص ٧٦.

والريف^(١). فكانت هذه القبائل العربية تقض مضاجع المصريين فى القرى، وأعادت لهم ذكرى غزوات البدو لمصر فى عصور الاضطراب فى أيام الفراعنة. فكان هؤلاء البدو يستولون على الأراضى، ويقومون بالزرع، وتربية الخيول والإبل، أما من كان يسكن منهم الجبال والبرارى، فكانوا يهاجمون الأديرة، ويقتلون الرهبان وحتى الراهبات^(٢). وعلى الرغم من أن أحد الخلفاء الأمويين الصالحين، وهو عمر بن عبد العزيز أراد أن يمنع الظلم عن المصريين؛ بحيث أرسل إلى عامله فى مصر يقول: فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هادياً، ولم يبعثه جابياً^(٣)، إلا أنه لما مات عمر عاد ولاة الأمويين إلى سيرتهم القديمة.

وزادت الأمور سوءاً للقبط؛ بسبب تدخل الولاة الأمويين فى حريرتهم الدينية، وذلك على عكس سياسة التسامح فى عهد الراشدين. ففى خلافة يزيد ابن معاوية، تمكن شخص من الملكانيين، لقاء دفع مبلغ من المال إلى الوالى، أن يأخذ تفويضاً بمقتضاه يتسلط على الأرثوذكسيين، وهم الغالبية؛ بحيث اضطرب بطيريك هؤلاء إلى الاختفاء^(٤). أما مروان بن الحكم، الذى تولى الخلافة بعد معاوية بن يزيد؛ فإنه كان فظاً مع المصريين، بسبب أنهم كانوا يميلون إلى ابن الزبير^(٥)، الذى قام بفتنة ضد الأمويين، كذلك أمر الوالى عبد العزيز أخو الخليفة عبد الملك، وكان يحكم فى مصر، بضرب البطريرك بالسياط^(٦)، وهو أول من فرض على الرهبان الجزية، وجمع المال من الكنائس^(٧)، وكانوا معفين منها، ومن بعده عبد الله بن عبد الملك طلب من البطريرك الكسندروس أن يدفع له ثلاثة آلاف

(١) ساويرس، سر البيعة، نشر يسى عبد المسيح وبر مستمر، القاهرة ١٩٤٣ ١/٣

ص ٣٦؛ الخطط، ١ ص ١٢٨، ١٣١.

(٢) ساويرس، نشر يسى عبد المسيح وغيره، ١/٢ ص ٣٢؛ الخطط، ٤ ص ٣٩٥.

(٣) الخطط، ١ ص ١٢٥ ص ١٦-١٧.

(٤) ساويرس (P.O.) ، ٢/٥ ص ٤-٥.

(٥) نفسه (P.O.) ، ٢/٥ ص ١٢-١٣.

(٦) نفسه (P.O.) ، ٢/٥ ص ٣٧.

(٧) الخطط ، ٤ ص ٣٩٤ س ٢٥.

دينار^(١)، وفي خلافة يزيد بن عبد الملك، كسرت الأصنام والتمثال في الكنائس^(٢)، وفي زمن هشام، كان الولاة يضعون حلقة من حديد في يد الرهبان^(٣)، وكل من وجد بغيرها تقطع يده.

وعلى العموم، في هذا العهد الطاغى، لم يستكن المصريون، ويذكر المقرئى أنهم كانوا متكبرين على عمالهم، ويعرضون^(٤) عنهم. كذلك قاموا بثورات عارمة، عبر عنها المؤرخ نفسه، بقوله: «انتفاض القبط»^(٥)، وكانت أولى ثوراتهم الكبرى في عهد هشام، بدأت في قرية اسمها بلهيب، عرفت من قبل بمقاومة أهلها للفاتحين العرب. وقد عمت هذه الثورة الدلتا والصعيد، واستمرت من سنة ١٠٧/٧٢٥ إلى سنة ١٢١/٧٣٩، كون فيها المصريون الجيوش، التي حاربوا بها جيوش الخلافة الأموية، وفي إحدى المرات، أجبر المصريون العرب على الخروج من الدلتا، والتراجع بكل فلولهم إلى دمياط. ولكن الخليفة هشاماً أرسل نحوهم حنظلة بن صفوان في سنة ١٢٢/٧٢٩، فتمكن من القضاء على ثورتهم، بعد أن استعمل القسوة الشديدة، وقتل أناساً كثيرين من القبط. ومع ذلك، لم تخمد ثورات المصريين، واستمرت إلى أن سقطت دولة الأمويين، ولما هرب مروان بن محمد آخر خليفة أموى، حاربه أهل مصر في سمنود ورشيد^(٦) وغيرها؛ فقبض على البطريرك^(٧)، وأحرق القرى والفسطاط عاصمة البلاد فيما عدا جامع عمرو^(٨)، ولقيت مصر منه الأمرين. وقد قتل مروان في مصر في ظروف غامضة، وربما يكون قتله على يد المصريين، وبذلك قضى على الخلافة الأموية في مصر.

*

(١) وردت في أوراق البردي، انظر. Cheira. Loc. Cit, P.51,113.: بردية برقم: P. London, IV,1363

(٢) الخطط، ٤ ص ٢٩٥ س ٦؛ ساويرس (P.O.)، ٢/٥ ص ٧٢. هي الحركة التي ذاعت في بيزنطة، باسم: الحركة اللايقونية، أي منع عبادة الصور المقدسة.

(٣) نفسه، ٤ ص ٢٩٥ س ٢/٦؛ نفسه (P.O.)، ٢/٥ ص ٦٧.

(٤) الخطط، ٢ ص ٨٤ س ١٦، ٤ ص ١٥١ س ١٠-١١.

(٥) نفسه، ١ ص ١٢٧ وما بعدها.

(٦) نفسه، ١ ص ١٢٨ س ١-٢، ٤ ص ٢٩٥

(٧) نفسه، ٤ ص ٢٩٥ س ٢٥

(٨) ابن المقفع، تاريخ، تحقيق Evetts في P.O. V, Fascit, P 168

ولما سقطت الخلافة الأموية، وجاءت الخلافة العباسية، حكمت مصر بالشدة ذاتها التي حكمتها بها الدولة الأموية، ولم تتحسن أحوالها على يد الخلافة الجديدة. ومع أن هذه الخلافة العباسية جاءت على أساس الحركة التي عرفت بالشعبوية^(١)، أى نصرة الشعوب واحترام حقوقها. وكان المصريون بين الشعبوية، وعرفوا فيها بالفراعنة؛ فقد بقى استغلال الولاة، وزادوا فى الخراج وضاعفوه، وأوجدوا ما يعرف بالالتزام أو قبالات الأرض، وذلك بالتزايد عليها لقاء ضمان الخراج، فى مدة معينة، ومن يقع عليهم التزايد يسمون: الضمان أو المتقبلين^(٢). كذلك نجد عاملاً للخراج فى مصر اسمه: أحمد بن المدبر، يبتدع فى مصر نظاماً مالياً عرف باسم الهلالى^(٣)، وهو غير ضريبة الخراج؛ لأنه كان يجبى على حسب الشهور القمرية، على عكس الخراج الذى يجبى على حسب السنة الشمسية، فكان يفرض على كل شىء فيما عدا الهواء. ولكى تتأكد سيطرة الخلافة العباسية فى مصر، بنيت بجوار الفسطاط مدينة (العسكر) أو (المعسكر)^(٤)؛ لتكون معسكراً للجند العباسية.

وليس أدل على سوء حالة مصر فى ظل الحكم العباسى الأول، من كثرة ثوراتهم التى تشابهت مع ثوراتهم فى عهد الأمويين، بعضها كان يكتب النصر فيه للقبط. ففى سنة ٧٦٧/١٥٠، أخرجوا العامل العباسى^(٥)، وقتلوا كثيراً من المسلمين. ولكن لما ثاروا ببكهيبي فى سنة ٧٧٣/١٥٦^(٦)، أرسل نحوهم عسكراً هزمهم. وكانت أكبر ثوراتهم، هى تلك التى كانت فى أيام المأمون، الذى أرسل فى أول الأمر قائده المشهور أفشين^(٧)، ثم أتى الخليفة بنفسه إلى مصر فى سنة

(١) عن هذه الحركة بتفصيل: ابن عبد ربه، العقد الفريد، القاهرة ١٢٩٣هـ، ٢ ص ٨٥ وما بعدها؛ لسان العرب، ١ ص ٤٨٣؛ انظر.

Ency de l'Isi, (art Shu' ūbfya) t 4, 410.

(٢) الخطط، ١ ص ١٣١-١٣٢.

(٣) نفسه، ١ ص ١٦٧ س ٨ وما بعدها.

(٤) نفسه، ٢ ص ٨٩.

(٥) نفسه، ١ ص ١٢٨ س ٦.

(٦) نفسه.

(٧) نفسه، ١ ص ١٢٨، ١٣٠.

٨٣٢/٢١٧، وعمل على إطفائها، فقتل عدداً كبيراً جداً من القبط، في الدلتا والصعيد، وحاربهم في أدنى قرانهم، وتبع ذلك اضطهاد كبير للقبط، وحولت كنائسهم إلى مساجد، والبسوا العلامات المميزة (الغيار).

ولما فقد العباسيون ثقتهم في الفرس منذ هرون الرشيد، مع أن دولتهم قامت على اكتافهم-بنكبة وزرائهم البرامكة- ثم إنهم أسقطوا حق العرب في الجندية منذ زمن المعتصم، واستخدموا عناصر الترك، التي يجلبونها من وسط القارة الآسيوية، وجعلوهم في الجيش والولايات^(١). فكان الولاة العباسيون، من الترك في مصر يعتمدون على الجيوش من غير العرب (العجم والموالي)^(٢)، وأوقفوا هجرة العرب إلى مصر، وحاربوهم^(٣)، وكتموا أنفاسهم^(٤). وعلى العكس، وجدنا بعض الولاة الترك يتحببون قليلاً للمصريين، فأعادوا لهم بعض ممتلكاتهم، وسمحوا لهم ببناء الكنائس.

*

والواقع بقى المصريون منذ الفتح العربى وقتاً طويلاً محتفظين بدينهم ولغتهم. ولكن منذ حكم الخلافة العباسية، وحتى قبل ذلك، حدثت ظروف كثيرة جعلت أهل مصر الأقباط يقبلون على الإسلام وتعلم العربية. فكان هذا التحول للإسلام والاستعراب حاسماً في تاريخ مصر، بدأت به فترة جديدة تختلف في طابعها عن الطابع الفرعوني والمسيحي السابق. والذي جعل هذا التحول هاماً، هو أنه وقع في وضع التاريخ، وأننا مازلنا نعيش فيه، في ظل الإسلام والعروبة. حقاً إن التحول لدين العرب ولغتهم، لم يكن في مصر وحدها، وإنما كان بالنسبة لبلاد أخرى، شملها الفتح العربى؛ مما كان سبباً في إيجاد تقارب بين مصر وبينها.

ومع ذلك، فإنه طوال العصور الوسطى بقى المصريون يعرفون باسم المصريين، وكلمة عربى تعنى بالخصوص سكان الجزيرة العربية والشام

(١) نفسه، ١ ص ١٥١ س ٢٠٢، ٢٦، وما بعدها.

(٢) نفسه، ١ ص ١٥٢ س ٦.

(٣) نفسه، ١ ص ١٢٩؛ الكامل، ٥ ص ١٠٧.

(٤) الكندى، الولاة، ص ٢٠١.

والعراق، ولاسيما البدو في مصر. وعلى العكس، فإن كلمة مسلم شملت المصريين والعرب، وحتى شعوب الفرس والترك؛ ممن كانوا يعيشون في ظل حكم الخلافة الإسلامية، ولو لم يكونوا من المسلمين. أما في وقتنا؛ فإن كلمة عربي، لا تعنى جنساً معيناً أو ديناً معيناً، وإنما بالأولى اتجاهها جغرافياً ولغوياً، تشمل البلاد التي كان فتحها العرب من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي، وتتكلم العربية.

وكان تحول المصريين إلى الإسلام هادئاً ذاتياً، وليس عن طريق إرسال الرسل والتلاميذ والمبشرين، ولم يتبعه تضحيات واستشهاد، كما حدث عند اعتناق المسيحية. كذلك كان دخول المصريين في الإسلام، أسرع من دخولهم في المسيحية؛ بحيث إن مصر، كانت من أكثر الأقاليم التي فتحها العرب إقبالا على اعتناق الإسلام. فيعترف يوحنا النقيوسي، وهو قبطي متعصب، عاصر فتح العرب لمصر، أن كثيراً من القبط تركوا المسيحية، ودخلوا في الإسلام، ويتهم من دخل منهم الإسلام بأبشع التهم^(١)؛ ويقول: من فرحة من دخل الإسلام منهم، وكانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار، إذا حلت رباطها، وأطلقت على البان أمهاتها، كذلك يقول ابن إسحق^(٢)، وهو من أوائل المؤرخين العرب، وصاحب كتاب: فتوح مصر، إن كثيراً من كبراء مصر دخلوا في الإسلام، وأن بعض الأساقفة- أي كبار رجال الدين المسيحي- اعتنقوه، بعد عكوف على النظر فيه. وحتى حيان، عامل عمر بن عبد العزيز في مصر، يكتب إلى خليفته يقول: إن أهل الذمة أسرعوا إلى الإسلام.^(٣) ومن الإحصائيات عن ضريبة الجزية، التي فرضت على القبط، نجد أنه بعد أن كان دخلها بالملايين في أيام الفتح الأولى^(٤)،

(١) انظر. Evêque, P. 233-234.

(٢) ابن إسحق، كتاب فتوح مصر وأعمالها، القاهرة ١٢٧٥هـ، ص ٥٢، ٥٨.

(٣) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبيرة، تحقيق Sachau، ط. Leiden، ص ٢٨٢ س

١٥؛ انظر. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وغيره، القاهرة ١٩٤٧، ص ٩٢؛

ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ط ٧، ٢، ص ٢٦٥. كذلك يقول المؤرخ التركي

الكافيجي (ت ٨٧٩/١٤٧٤) لا نعلم جماعة أسلموا أكثر من جماعة القبط. تاريخ،

تحقيق روزنتال، ص ٢٧.

(٤) الخطط، ١، ص ١٢٧.

تناقصت سريعاً؛ حتى لم تزد على مائة وثلاثين ألفاً في عهد الفاطميين^(١)، وأصبحت تسمى جوالى بدل جزية، لأن القبط في عهد هؤلاء أصبحت جالية صغيرة. بل لدينا برديات تفيد أن القبط اختلطت أنسابهم بأنساب المسلمين؛ وكما يقول المقرئى، لنكاحهم المسلمات^(٢). كذلك يوجد في المتحف القبطى سراج من البرونز، على قمته هلال يحتضن صليباً من القرن الثالث عشر الميلادى. بل يقول أبو صالح الأرمنى، وفي أعراس المسلمين وأفراحهم يحضرها النصراني ويمشون قدام العريس في أسواقها وشوارعها، وصار هذا عندهم عرفاً وعادة مستقره إلى عصرنا^(٣).

ومن الجديد بالذكر أن إسلام المصريين كان في أعلى درجاته. ولدينا كتب عن وفيات فقهاء مصر من ابن الحبال^(٤) (ت ٣٨٢/٩٩٢) بعنوان: وفيات المصريين، ومن ابن الطحان^(٥) (ت ٤١٦/١٠٣٥)؛ تاريخ علماء أهل مصر يتناول فيه علماء السنة الذين توافدوا على مصر وينتمون إلى جميع أقاليمها وقراها في البلاد المصرية في الوجهين البحرى والقبلى. فنجد من بينهم فقهاء من الطبقة الأولى من التابعين وربما من الصحابة^(٦). كذلك، جاء مصر ثلاثمائة ونيّف من الصحابة^(٧)؛ كما أنه من المعروف أن أصحاب الكتب الستة المشهورة في السنة وهم: البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه زاروا مصر. بل كان للمصريين أنفسهم باع كبير في رواية الحديث والفقه، وكان من الممكن أن يكون لهم مذهب خاص بهم هو المذهب الخامس؛ ليضاف إلى المذاهب الأربعة، لولا أن مصر لم تكن مهد الإسلام، فتحدثنا أوراق البردى^(٨) التى وجدت في

(١) نفسه، ١ ص ١٧٣ س ٨ وما بعدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ١١٩-١٢٠.

(٢) الخطط، ١ ص ٨٢.

(٣) الكنائس، ص ١٢٩.

(٤) نشر صلاح الدين المنجد، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٢، الجزء ٣، نوفمبر ١٩٥٦، ص ٢٨٦ ٢٢٨.

(٥) مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق، برقم ٧٨، مجاميع ٢١٢.

(٦) السيوطى، حسن المحاضرة، ١ ص ١١٨ وما بعدها. أبو رافع مولى رسول الله من القبط، شهد غزوة أحد توفى بالكوفة سنة ٤٠/٦٦٠. الذهبى، سير اعلام النبلاء، تحقيق الأنبارى، ٢ ص ٨-٩. كذلك روى عن ابن عباس خمسة عشر نفساً من أهل مصر، سير الاعلام، تحقيق أطلس، ٢ ص ٢٢٦.

(٧) السيوطى، حسن المحاضرة، ١ ص ١٦٦ وما بعدها.

(٨) انظر. خورى، الثقافة في القرون الثلاثة الهجرية، ندوة البردى الأولى في مصر عام ١٩٨٠.

مصر عن نتاج الفكر المتميز في الدين الإسلامي، الذي اعتبر أساس نتاج الفكر الإسلامي بعامة ورصيдаً له، اعتمد على العقل في استخراج الأحكام الشرعية على غير ما كان يوجد في أي بلد إسلامي آخر. فقد قال سفيان الثوري عن عبد الله بن لهيعة المصري، إن عنده الأصول وعنده الفروع، كما أن الشافعي نفسه (ت ٢٠٦/٨١٩) (١)، أحد الأئمة الأربعة الكبار، وواضع أصول علم الفقه الإسلامي، جاء إلى مصر ودفن فيها، ووجد له من بين المصريين أتباعاً كثيرين، وقال عن الليث بن سعد المصري: الليث أفقه من مالك؛ إلا أن أصحابه ضيعوه، لأنهم لم يدونوا فكره. وحتى عبد الله وهب المصري (٢) له كتاب: الجامع في الحديث، مكتوب على ورق البردي. بل كان للمصريين باع طويلة في القراءات، فظهرت طريقة ورش، أحد أصحاب القراءات السبعة. وقد تنبأ النبي العربي بقيمة مصر الإسلامية للمسلمين، فظهرت أحاديث نبوية كثيرة تدعو إلى معاملة المصريين بالحسنى (٣).

ونستبعد أن يكون تحول المصريين للإسلام جاء عن طريق الاندماج والتزاوج، واختلاط الأنساب؛ بحيث إن الشعب المصري ذاب في الجيش العربي، أو العرب الذين وردوا مع الفتح. فكل الدلائل تدل على أن الشعب المصري، لم يفقد كيانه بالفتح العربي؛ فالجيش العربي الذي غزا مصر كان عدده لا يزيد بعد أن جاءت الإمدادات على عدة آلاف (٤)، أما عدد رجال مصر وخدمهم -دون الصبيان والنساء- بناء على قول ابن عبد الحكم، فقد كانوا أكثر من ستة ملايين (٥). كذلك

(١) حسن المحاضرة، ص ١٢١ وما بعدها. عنه؛ انظر . وفيات ، ص ٢١٤؛ وما بعدها.

(٢) حسن المحاضرة، ص ١، ٤٨٥. نشره Weill ، القاهرة ١٩٢٩.

(٣) من أقواله (ﷺ) : « استوصوا بقبط مصر ، فإنكم تجدون منهم نعم الأعوان على عدوكم ، وأيضاً : القبط أكرم الأعاجم ، وأسمحهم بدأ ، وأفضلهم عنصراً ، وأقربهم رحماً للعرب عامة ، ولقريش خاصة » . انظر ، أبو صالح ٢٨ ب ، ص ٣٧ ما بعدها . وقال أيضاً : إذا دخلتم مصر ، فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لكم منها نسباً وصبراً ، واتخذوا بها جنداً كثيراً ؛ فإن ذلك خير جنود أهل الأرض ، وهي كنانة الله في أرضه ، من أراد بها سوءاً قصمه الله . وقال : من أذى نبياً كنت خصيمه يوم القيامة .

(٤) تبلغ أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف وخمسمائة . ابن الحكم ، ص ٥٦ س ٦ . وقد اختلف في عدد المدد الذي جاءه بعد ذلك ، فقليل أربعة آلاف ، وفي رواية أخرى اثنا عشر ألفاً ، وأنه جاء تبعاً . حسن المحاضرة ، ص ٥٦ س ٩ : معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٨ . من ذلك ، انظر . مساجد التاريخ السياسي ، ط ٧ ، ص ١ ، ٢١٨-٢١٩ وهامش .

(٥) ابن عبد الحكم ، أخبار فتوح مصر ، نشر Torry ، ص ٧٠ : الخطط ، ص ١٠ ، ١٢٢ .

يقول إن عدد القرى فى مصر فى عصر ولاة الأمويين عشرة آلاف قرية، فى أصفرها خمسمائة جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية^(١). حقاً لقد هاجرت إلى مصر قبائل عربية فى أيام الأمويين، على الأخص بعض بيوت قيس الكبيرة^(٢)؛ إلا أن هؤلاء كان أغلبهم يعيشون كطبقة أرستقراطية، لا تختلط بالمصريين؛ كما أن معظمهم سكنوا الصحارى التى تحيط بمصر، واحتفظوا بظروف معيشتهم الصحراوية. يضاف إلى ذلك أن المقرئى يذكر أن العرب فى نهاية حكم الأمويين لم يزد عددهم فى مصر على ثلاثة آلاف بيت^(٣). وقد كان من تقاليد العرب منع الزواج من الفلاحين فى مصر، وبقي ذلك إلى وقت قريب فى عصرنا الحديث.

ومن ناحية أخرى، لا نظن بأن المصريين أسلموا بسبب الرغبة فى تفادى المعاملة السيئة، التى عامل العرب بها غير المسلمين، أو رغبة فى التهرب من دفع الجزية، أو لاكتساب مركز أدبى معين^(٤)؛ حيث يحاول كثير من المؤرخين أن يجعلوا من هذه المنافع المادية العامل الأول فى تحول المصريين للإسلام. حقاً إن هذه الأمور، قد يكون لها أثرها فى بعض النفوس؛ ولكن لا يمكن أن تكون هى السبب فى تغيير إيمان أمة بأكملها. وقد رأينا فى العصر المسيحى، صورة واضحة تدل على تضحية المصرى فى سبيل العقيدة.

ولا ريب أن الذى دعا إلى تحول المصريين إلى الإسلام ظروف متعددة: فنعرف أن المصريين عاشوا بدينهم الفرعونى الأول فترة طويلة تبلغ آلاف السنين. ولما احتلهم اليونان ومن بعدهم الرومان، لم يكن المصريون راضين عن دينهم؛ لأن المحتل مسخه بإدخال عبادته فيه؛ فكان الإمبراطور الرومانى يجبر المصريين على عبادة آلهة الرومان. فلما ظهر المسيح أو يسوع - وهذه كلمة

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٦؛ حسن المحاضرة ، ص ٦٤ س ١-٢.

(٢) الخطط، ص ١٢٨؛ انظر قبله.

(٣) نفسه، ص ١٢٩ س ٨.

(٤) ساويرس (P.O.) ٢/٥ ص ٧١-٧٢.

سريانية تعنى المخلص- ودعا الشعوب التي تحت حكم الرومان إلى دين جديد،
أقبل المصريون عليه. ولعل سبب إقبالهم، هو أن المسيحية لم تكن غريبة عليهم
كلية؛ فكثير من تعاليمها معروفة لهم في دينهم القديم، مثل: التثليث والتعميد
والحساب والعقاب والآخرة. يضاف إلى ذلك، أن الدين الجديد كان يدعو إلى تأخي
الشعوب، وأن المصريين كانوا في حالة سيئة، بسبب سوء معاملة الرومان، الذين
حرموهم من حقوق المواطنين. ومع ذلك؛ فإن الدين الجديد كان مضطرباً في
إيمان معتنقيه المصريين من أول ظهوره، بسبب خلطه بالفلسفة الأفلاطونية
الحديثة؛ بقصد إيجاد تقارب بين الإيمان والعقل، يظهر ذلك من المناقشات العنيفة
التي وقعت في مجامع: خلقيدونية ونيقية وأفسس. لذلك لما جاء الإسلام بدعوة
إلى الإله الواحد المجرد، فإنها قربت عقيدة الدين إلى العقول المتعطشة للحقيقة.

وفوق ذلك، جاء الإسلام بمبادئ ساحرة خلافة، منها على الخصوص صلة
العبد بخالقه، بأن تكون مباشرة بدون وسيط؛ أي بدون رجل دين. وهذا المبدأ
-في رأينا- يعتبر نقطة تحول هامة في تاريخ الأديان؛ غيرت من تصور العقول
للأديان، لأن الأديان كلها تجعل من رجال الدين أساس القيام بطقوسه. فهو مبدأ
جديد؛ يحمل للإنسان حرية أكبر؛ وليس من الإسراف أن نقول إن الإسلام يشعر
دائماً الذي يعتنقه بالعزة والكرامة. ثم هو دين يتلاءم مع البيئات التي ينتشر
فيها، ويتناسب مع الأمزجة والأذواق؛ إذ الإسلام ليس بدين صرف، وإنما هو دين
وثقافة ومجتمع وسياسة، وهو ينص على ألا توجد تفرقة عنصرية بين البشر؛
فيتوجه في آياته الكريمة بالخطاب إلى الإنسان مباشرة، فيقول: إياها الناس؛ كما
حض على حسن العلاقة بين البشر جميعاً؛ «**وَجعلناكم شعوباً وقبائل
لتعارفوا**»؛ وحتى العلاقة بين الرجل وزوجته فيها مودة «**وَجعلنا بينكم
زوجات**».

أضف إلى ذلك أن العقيدة المسيحية في مصر لم تكن قد دخلت في قلوب
كثير من المصريين، بسبب هروب رجال الدين في الصحارى والجزر؛ مما جعلهم
يجهلون تفاصيلها، ولا يقومون بطقوسها، ولطول الاضطهاد في عصور الرومان
الوثنيين، والبيزنطيين الذين كانوا على عقيدة مسيحية مخالفة لعقيدة المصريين

المسيحيين؛ مما أضعف من الدين المسيحي في مصر، وجعل حياة المسيحيين في القرى- وهم غالبية سكان مصر- في غاية الفوضى. كذلك لم يتأكد الدين المسيحي في كل القلوب المصرية؛ إذ كان يحتاج إلى وقت كاف، وهذا لم يتيسر له؛ فالمسيحية انتشرت- كما ذكرنا- في أواخر القرن الثالث الميلادي وأوائل الرابع، والإسلام ظهر في أوائل القرن السابع، أي أن المدة التي بقى فيها المصريون نصارى، لم تتعد ثلاثة قرون، وهي غير كافية لترسيخ دين. فضلاً عن قلقه في خلال هذه المدة في قلوب الكثيرين، وجهلهم به.

وأخيراً، فإن الطبيعة الواحدة في النصرانية المصرية قد تتوافق في معناها الضيق مع الوحدانية الإسلامية. وفوق ذلك، فإن الإسلام يجد أن أقرب الناس إليه هم النصارى؛ فوجد المسيحيين في مصر أقرب الناس إليه. وفي الواقع أن الإسلام بعامة له ميزة بأنه لم يقطع صلته بالأديان السماوية الأخرى وجعلها جميعاً متصلة؛ بحيث اعتبر آخر الأديان السماوية، فهو يعترف باليهودية والمسيحية، بل بأديان أخرى غير سماوية مثل الهندوكية والكونفوشوسية والمجوسية، واعتبرها ديانات شبه سماوية، وذلك على عكس المسيحية التي كانت في صراع شديد واختلاف مع عقيدة الطبيعة الواحدة المصرية. هذا بالإضافة إلى أن المسيحية أساساً دين فيه بذور يونانية ولاتينية، على عكس الإسلام، الذي هو دين شرقي صميم، والمصريون منذ أن حكمهم البيزنطيون- وهم يونان في أغلبهم- أصبحوا يكرهون كل ما هو يوناني، أو على الأقل يبتعدون عنه.

*

وقد ترتب على تحول المصريين للإسلام تركهم لغتهم القبطية^(١)، وإقبالهم على لغة العرب؛ مع أنهم قاوموا كثيراً للاحتفاظ بلغتهم القومية طوال عهود الاحتلال؛ اليوناني والروماني والبيزنطي، ولا سيما هذا الأخير الذي كان يجبر الموظفين المصريين على تكلم اليونانية، التي جعلتها بيزنطة لغة البلاد

(١) أساسها اللغة الديموطيقية القديمة، وهي لغة التخاطب الدارجة السابقة عند المصريين؛ وكانت تستخدم في الكتابة الدينية في المعابد المصرية؛ ولكن القبطية تكتب بحروف يونانية بعد إضافة سبعة حروف أخذت من الديموطيقية، لتمثل النطق غير الموجود في اليونانية، ومجموعه ٣١ حرفاً، أي ٢٤ حرفاً من اللغة اليونانية.

الرسمية فى الدواوين الحكومية. بل كان تحول المصريين إلى المسيحية بالذات، سببها فى انتعاش اللغة القبطية، التى هى أكثر تبسيطاً من الديموطيقية، وإن دخلتها حروف يونانية، كما واكبتها نهضة أدبية، تمثلت فى ظهور أدب قبطى زادت بعد الفتح العربى، بسبب أن العرب لم يشجعوا استعمال اليونانية.

وكان العرب يسمون عموماً لغة المصريين وخطها بأسماء عديدة غامضة، مثل^(١)؛ قلفطيريات، مسند، بربابى، برباوية، قلم الطير، القلم المجهول، ولا نعرف سبب تعدد تسمياتها الذى قد يعنى عندهم تطورها على مدى الزمن، مثلما نقول هيروغليفية وهيراطيقية وديموطيقية، أو لعلها للدلالة على اللهجات القبطية التى منها الصعيدى والبحيرى والشمورى ودمياطى؛ وإن كان الأصل فيها هى لغة واحدة^(٢)؛ ولدينا عنها قاموس^(٣)، أو فى مخطوطات فى الأديرة. فبالأولى؛ فإن القبطية ليست لغة بقدر ما هى أدب وسياسة وفكر.

ومع أن العرب تركوا المصريين فى الدواوين-وهى الإدارة- يكتبون بلغتهم القبطية؛ حيث لدينا مجموعات بردية^(٤) كثيرة مكتوبة بها، وباليونانية لغة الحاكم البيزنطى السابق، تختص بالأموال وغيرها. ولكن من عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى، جعلت اللغة العربية بحكم أنها لغة القرآن المقدسة، ولغة الفاتح، اللغة الوحيدة فى الدواوين^(٥). وقد كان موقف المصريين فى أول الأمر موقف

(١) الخطط، ١ ص ١٢١؛ انظر. Quatremère.

Recherches critiques et historiques sur la langue et la littérature de l'Égypte. Paris, 1808, P. 269; 271; 283.

(٢) انظر Kasser : Les Dialectes Coptes. B.I.F.O. Le Caire 1973, P. 72 sqq.

(٣) مضمنة على الخصوص فى قاموس أسناسيوس القوصى، من القرن الحادى عشر

الميلادى، انظر. Quat. Recherches critique et historiques 1808 P. 20-21

وأيضاً؛ Kasser : Dictionnaire auxiliaire, étymologique et Complet de langue Copte. Genève 1967.

(٤) البردى هو المادة المستعملة قديماً للكتابة، ومنها اشتقت الكلمة الدالة على الورق فى

العصر الحديث فى أوربا. انظر. بخصوص المجموعات البردية Cheïra :

La documentation-papyrologique arabe. Catalogue des papyrus grecs publiés d'époque arabe concernant l'Égypte. Alexandria, 1948.

جروهمان، أوراق البردى العربية بدار الكتب، ترجمة حسن إبراهيم، القاهرة ١٩٥٣.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩٢.

المعارضة للتعريب في عهد هذا الخليفة؛ فاستمروا يكتبون بالقبطية، ولم يرضوا أن يكتبوا بالعربية، على الرغم من أوامر الخليفة. كما لم يستطع الوليد، الذي تولى الخلافة بعد عبد الملك، تعريب دواوين مصر؛ إلا بعد أن أتى بشخص من الشام^(١)؛ ولقد وصلنا من عهد الوليد أول بردية مكتوبة بالعربية.

ومنذ ذلك، أقبل القبط على تعلم العربية؛ بحيث نقرر أن انتشار الإسلام، كان هو العامل الأساسي في انتشارها؛ ولا سيما أن اللغة القبطية لم تكن غريبة عن اللغات السامية؛ فاللغة القبطية، التي هي اللغة المصرية، فيها أصول سامية في كلماتها؛ كما أن كثيراً من الحروف السامية توجد فيها، مثل: ح غ خ^(٢). ومع ذلك، فالى عصر المأمون العباسي، لم تكن اللغة العربية قد انتشرت على نطاق واسع، فهو حينما جاء مصر، كان يمشى في قرأها ومدنها والتراجمه بين يديه^(٣)؛ كما يقول المقرئ. ولكن بمضى الزمن اختفت اللغة القبطية، وأخذت العربية مكانها، ولم تقتصر على من أسلم، بل تعلمها القبط أنفسهم، الذين اضطروا إلى ترجمة الأناجيل والتوراة إلى العربية في زمن^(٤) مبكر، وإن لم يكن القبط قد فعلوا ذلك، ما كانت عقيدتهم لتبقى؛ حيث إن نشر الدين والاعتقاد فيه، لا يكون إلا بلغة مفهومة، ولا سيما أن اللغة القبطية بعد الفتح العربي أهملت. ومع ذلك، بقيت الصلوات بالقبطية؛ وإن شرحت بالعربية، وهو تقليد لا يزال يوجد حتى الآن في مصر^(٥)؛ وذلك مثلما يحدث في كنائس أوربا؛ فتكون الصلوات باللاتينية، والشرح بلغات أهلها. يضاف إلى ذلك، أن اللغة القبطية استمرت وقتاً طويلاً في الصعيد؛ كما أنها لم تنته منه إلى وقت المقرئ، أي

(١) الخطط، ١ ص ١٥٨ س ١٢-١٣؛ انظر . ماجد، التاريخ السياسي، ٢ ص ١٦٣ .

(٢) انظر : Polaik :

L'Arabisation de l'Orient Sémitique. R.E.I. 1936, P.I.

(٣) الخطط، ١ ص ١٣١ س ٢ .

(٤) لدينا في المتحف القبطي مخطوطات قبطية وعربية، ظهرت منذ أن حلت العربية محل اليونانية في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي؛ وإن كان الموجود فيه من الأناجيل من القرن العاشر الميلادي من القرن الرابع عشر الهجري، برقم ٩٢. انظر. دليل مختصر في المتحف القبطي عام ١٩٦٤ .

(٥) انظر. Recherches, P. 38 : Quat . اتخذ أحد بطاكية الأقباط العظام فيما بعد، وهو غبريال

(١١٣١ - ١١٤٥م)؛ قراراً تاريخياً بأن قرر أن تعم اللغة العربية كل المصريين.

القرن ٨هـ / ١٤م؛ حيث يقول إن نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا القبطية الصعيدية^(١)، ويطلق على قبط الوجه البحرى البيما، وقبط الوجه القبلى المريس^(٢)، وهما كلمتان غامضتان، ربما تعنيان اتجاهين جغرافيين. وتوجد فى المتحف القبطى مخطوطات عربية مكتوبة بحروف قبطية استعملها القبط ليتعلموا العربية؛ كما يكتب الأجانب عندما يكتبون العربية بحروف لاتينية للتمكن من نطقها^(٣).

وفى الواقع أن مصر لم تكن وحدها فى هذا التحول من لغتها القبطية إلى اللغة العربية، وأن التعريب شمل معظم البلاد التى فتحها العرب، من المحيط الأطلسى حتى سور الصين. بل أجبرت لغات لا علاقة لها بلغات الساميين، مثل الفارسية التى أصلها آرى، على الاختفاء فى أيام الفتح الأولى، وبالتدرج تغيرت أبجديتها إلى الأبجدية العربية. وهذا ولا ريب، يدل على قوة اللغة العربية، لغة المنتصر، ولغة الدين الذى ساد، فضلاً عن أنها اعتبرت وقتئذ أعظم اللغات حيوية وقوة.

فكانت اللغة العربية والدين الإسلامى هما سبب امتزاج شعوب المنطقة التى فيها مصر، وظهور الإحساس المبكر بالقومية العربية، لأن العرب أعطوا لغتهم ودينهم لمصر ولهذه الشعوب.

*

وعلى العموم، كان تحول المصريين للإسلام، سبباً فى دخولهم حوليات المؤرخين المسلمين، وقيامهم بدور هام فى تاريخ الإسلام، ولا سيما لما جاءها عامل اسمه: أحمد بن طولون^(٤)، فى رمضان سنة ٢٥٤/سبتمبر ٨٦٨، وهو مملوك تركى نشأ فى البلاط العباسى، أرسله باكباك (أوباك أو بقبقق)، صاحب

(١) الخطط، ٤ ص ٤١٧ س ١٨.

(٢) نفسه، ١ ص ٢٠٧.

(٣) دليل مختصر عن المتحف القبطى عام ١٩٦٢، برقم ٢٥٢١.

(٤) عنه: ابن الداية (أحمد بن يوسف)، سيرة أحمد بن طولون، نشر شوقى ضيف وآخرون، القاهرة ١٩٥٤؛ البلوى (أبو محمد عبد الله)، سيرة أحمد بن طولون، حققه محمد كرد على، دمشق ١٣٥٨هـ، الخطط، ٢ ص ١٠٤ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art Ahmed B. Túlún) TI, P. 195-196; 2 éd t I, P. 287-8.

إقطاع مصر ليحكمها بالنيابة عنه؛ إذ كان زوج أمه، فلما قتل آل الإقطاع لياركوج (أو يارجوخ)^(١)، الذي أبقى ابن طولون في ولاية مصر وزوجه ابنته. وقد كان كلاهما من المسيطرين على الخلافة العباسية؛ إذ كان الخليفة العباسي واقعا تحت سيطرة قواده الأتراك، الذين كانوا يتنافسون عليه، ويؤثرون البقاء على مقربة منه في سر من رأى (سامرا)، التي بنيت منذ المعتصم لتكون العاصمة بدل بغداد، خشية أن يدس لهم، بالإضافة إلى إمكان التنعم في بلاط الخليفة؛ فيرسلون نواباً عنهم في مصر أو في غيرها، ليحكموها لهم.

فلما توفي لياركوج في عام ٨٧٢/٢٥٨، طمع ابن طولون في أن يحكم مصر لحسابه الخاص. ولم يكن من الممكن أن يستقل بمصر نهائياً عن الخلافة العباسية، وهو في ذلك مثل أي والٍ آخر من ولاتها، وإلا اعتبر خارجاً على السلطة الشرعية، وإنما كان يستطيع أن يجعل إمارته في مصر إمارة استيلاء^(٢)، وبمقتضاها يصبح أميراً مستولاً، خرج عن طاعة الخليفة، واستأثر بالإقليم لنفسه، فيكون تقليده سورياً على كره من الخليفة، الذي يقلده إياه حفظاً لهيبته، وحتى لا تتعطل الأحكام الشرعية.

° وقد باشر ابن طولون إمارة الاستيلاء بأن بنى مدينة خاصة، عرفت باسم: القطائع^(٣)؛ في سنة ٨٧٠/٢٥٦- أي بعد مجيئه مصر بستين- وذلك لأن لكل طبقة في جيشه قطعة خاصة بها، وأنشأ فيها جامعاً عرف باسمه أو بالجامع الجديد^(٤)، أو حتى بالجامع العلواني، بينما جامع عمرو أصبح يعرف بالجامع السفلاني، بناه له مهندس قبطي في ٨٧٣/٢٥٩؛ وذلك لأن الجامع الكبير الوحيد الذي يوجد في مصر بناه عمرو بن العاص، لم يعد يستطيع أن يكفي جميع

(١) انظر. ابن الأثير، الكامل، ص ٣٦٧.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، تصحيح النعماني الحلبي، مصر ١٩٠٩/١٣٢٧ ص ٢٧ وما بعدها.

(٣) الخطط، ص ١٠٦ وما بعدها.

(٤) نفسه، ص ٣٦ وما بعدها. بناه على جبل يشكر.

المصلين، لكثرة من أسلم من المصريين. ثم إنه اعتمد على عناصر جديدة فى جيشه غير الترك من المصريين والسودانيين «النوبة»؛ حتى بلغ عدد هؤلاء وحدهم أربعين ألفاً^(١)، وأنشأ أسطولاً كبيراً بلغ عدده ما بين حربى وتجارى ألف مركب^(٢)، وعمد إلى سك العملة باسمه؛ ولدينا من عهده دنانير عرفت بالأحمدى^(٣).

كذلك أخذ يتقرب من المصريين، وإن كان هذا لا يعنى أنه شجع مبدا القومية المصرية، ولكن كان مثل بقية قواد الترك، يعمل لحسابه الخاص. فاتخذ منهم الوزراء، وأبقى القبط فى الدواوين^(٤)؛ كما أكثر من إقامة المآذب^(٥) فى المناسبات للشعب. وفوق ذلك، كان المصريون يكرهون عامل الخراج من قبل الخليفة العباسى، واسمه أحمد بن المدبر، وهو الذى كان قد فرض عليهم ضريبة جديدة سماها: الهلالى أو المكوس، تجبى على كل شىء، ووضع يده على كل ما يملكونه سواء أكانوا مسلمين أم نصارى أم يهوداً^(٦)، وكان من قبل فى فلسطين وأناق أهلها البلايا، فضاعف الخراج، وملا السجون، وزاد ضريبة النصارى، فتخلص ابن طولون منه، وأزال عن المصريين معظم المكوس، وكان يذهب إلى رهبان القبط فى أديرتهم، ومنع من أن تؤخذ الجزية على رؤوسهم^(٧).

(١) نفسه، ١ ص ١٥٢ س ٧-٨.

(٢) ابن أياس، تاريخ مصر، ط. بولاق، ١ ص ٤٠؛ انظر العدوى، الأساطيل العربية، ص ١١١.

(٣) الخطط، ١ ص ٦٦، انظر Oleg Graber :

The Coinage of the Tūlūnides. New York, 1957.

(٤) البلوى، سيرة أحمد، ص ١٠٦، ٢١. كان ابن طولون يرى أن الكاتب المصرى أكتب من العراقى.

(٥) كتاب المكافأة على الخصوص.

(٦) ساويرس، الكنيسة، نشر عبد المسيح وبرستمر، ١/٢ ص ٢٤ وما بعدها؛ الخطط، ٢ ص ١٠٧.

(٧) البلوى، سيرة أحمد، ص ١٠٩.

ولكن طموح بن طولون الذى شجعه شعب مصر أقلق الحكومة المركزية فى سر من رأى (سامرا). وخصوصاً أن ابن طولون سعى أيضاً إلى نقل الخليفة العباسى إلى مصر، ليكون تحت سيطرته، فاتصل بالخليفة المعتمد على الله الذى رحب بالخروج إلى مصر، ولما كان أخو الخليفة واسمه أبو أحمد الموفق، هو المسيطر على الحكم فى سامرا بمعاونة القواد الترك؛ فإنه منع الخليفة من الهروب، وأبقاه تحت سيطرته. كذلك عمد الموفق إلى تدبير مؤامرة ضد ابن طولون؛ فطلب منه المنول إلى سامرا، ولما رفض أغرى العباس، ابن طولون الأكبر، ضد أبيه، وإن استطاع ابن طولون قتل ابنه. ولكن ثورة الزنج من ٢٥٥ إلى ٢٧٠/٨٦٩-٨٨٤^(١)، وهم طائفة العبيد الكبيرة، الذين جلبوا إلى العراق، جعلت الموفق يرضى بصلح ابن طولون على مضض، وأن يعترف له بولايته على مصر والشام، فحكم ابن طولون فيهما إلى أن توفى فى ذى القعدة ٢٧٠/مايو ٨٨٤.

فجاء بعده ابنه المسمى خمارويه^(٢)، بالطموح ذاته، وأظهر عزمه على الاحتفاظ بمصر والشام كولايتى استيلاء، مثلما فعل أبوه من قبل. وقد لجأ خمارويه إلى الديبلوماسية، على غير ما كان أبوه الذى حارب الخلافة؛ فزوج ابنته قطر الندى أو أسماء من الخليفة المعتضد بالله وقتئذ، الذى جاء بعد المعتمد على الله؛ حيث اشتهرت هذه الأميرة بالجمال والحسن إلى جانب التعقل والأدب، ولقاء ذلك، منحه المعتضد حكم مصر والشام مدة ثلاثين عاماً. ويقول المؤرخون؛ إن الخليفة العباسى هذا عرف بالدهاء، وأنه لم يقبل هذا الزواج إلا بقصد إفقار مالية مصر^(٣)؛ حتى يسترد سيطرته عليها، وذلك لما يكلف هذا الزواج خمارويه من أموال. فيقال إن مهرها^(٤) وصل إلى مائة ألف أو مليون درهم، ومائة هون ذهب، إلى جانب أرطال الحناء، وهى التى شجعت استخدامها؛ حيث توجد الآن عند المصريين ليلة العرس تعرف بليلة الحناء؛ كما أرتدت الثوب الأبيض، وفى

(١) الكامل، ٥ ص ٢٤٦ وما بعدها.

(٢) عنه: النجوم الزاهرة، ٣ ص ٤٩ وما بعدها.

(٣) نفسه، ٣ ص ٥٢ س ٣. يوجد عنه كتاب ضاع باسم أخبار المعتضد بالله لابن أبى طاهرة. أنظر. هريدى، فهرست خطط مصر، ص ٦٩.

(٤) المقرئى، الخطط؛ المسعودى، مروج؛ ابن خلكان، وفيهات. ربطت الأغنية الشعبية بين الحناء وقطر الندى، فتقول: الحنة الحنة يا قطر الندى. شباك حبيبى يا عينى جلاب الهوى.

أصابها الخواتم؛ وفي معصمها سوار من ذهب، وزينت وجهها بالأصباغ المختلفة، بل أقيمت لها في الطريق مدينة سميت عباسية على اسم أخت خمارويه؛ نافست القسطنطين في أبعثها، ومكانها الآن الصالحية، وقد بقيت المدينة عباسية إلى وقت المماليك^(١).

ولم يلبث خمارويه أن قتل على يد جاريته في سنة ٢٨٢/٨٩٥، التي دست له السم، فانتهز الخليفة العباسي المكتفي بالله، الذي تولى بعد المعتضد بالله اضطراب الأمور في مصر، وأرسل جيشه إلى مصر بقيادة محمد بن سليمان، الذي هدم القطن عاصمة الطولونيين ودمرها في ٢٩٢/٩٠٥^(٢)، وحمل بقية أسرة ابن طولون كأسرى إلى بغداد^(٣). وبذلك انتهى حكم الطولونيين في مصر، الذي دام اثنتين وثلاثين سنة، بعدها عادت مصر ولاية خاضعة للخلافة العراقية. وفي كل هذا كان المصريون يعضدون الأسرة الطولونية، لما لمسوه على يديها من استقرار، ولهذا عمدت الخلافة العباسية إلى الانتقام من المصريين، فيقول ابن تغرى بردى إن القائد محمد بن سليمان أمر بقطع أيدي وأرجل الناس من المصريين، وقبض على كتاب الدواوين^(٤). وقد حاول المصريون الثورة، بقيادة أحدهم وهو محمد بن علي الخلنجي المصري^(٥)، ولكن الخليفة العباسي المكتفي بالله أرسل جيشاً في البر والبحر في سنة ٢٩٣/٩٠٦؛ للقضاء على حركته، التي استمرت ثمانية شهور.

هذه أحوال مصر، التي أسلمت واستعربت، وبدأت تدخل حويليات مؤرخي الإسلام، حينما بدأ الفاطميون يتطلعون إلى غزوها، وجعلها قاعدة لهم.

(١) عنها بتفصيل، انظر:

Ency of Isl, (art. ' Abbása) 26d, t I, P. 14.

(٢) نفسه، ٢ من ١٣٦-١٣٧.

(٣) نفسه، ٢ من ١٣٩.

(٤) نفسه، ٣ من ١٣٩.

(٥) نفسه، ٢ من ١٥٣-١٥٥.

الفصل الثاني

تظهور خلافة الفاطميين بالمغرب

ضعف الخلافة العباسية-
ظهور التشيع- فرقة الإسماعيلية-
قيام خلافة الفاطميين في المغرب

ظهور خلافة الفاطميين بالمغرب

يرتبط ظهور الفاطميين في المغرب، وهي الخلافة المعادية للعباسيين، والتي غزت مصر وغيرها من بلدان الشرق، بماملين أساسيين؛ ضعف الخلافة العباسية، ونجاح التشيع.

فمنذ مدة كانت الخلافة العباسية في دار الإسلام ممزقة خارجياً وداخلياً. فقد انقسمت أملاكها الواسعة بين حكام مستقلين. فقامت الأموية في الأندلس، والأدارسة والأغالبة في شمال إفريقيا، والطولونية في مصر وجنوب الشام، والحمدانية في شمال الشام وبلاد الجزيرة، والزيادية في اليمن، والقرامطة في البحرين، والطاهرية والصفارية في خراسان، والسامانية في بلاد ما وراء النهر.

وحتى في بغداد والعراق، التي بقيت لها، أصبح الخليفة نفسه أشبه بشعب لا سلطان له، تحت وصاية المتغلب عليه من قواده الترك الأقوياء، الذين أصبحوا يسيطرون عليه منذ المعتصم، فظهرت لهم وظيفة إمرة الأمراء^(١)، التي أبطلت الوزارة والدواوين، وأصبح لتوليها كل السلطة من دون الخليفة. ولهذا الضعف من قبل خلفاء العباسيين، أطلق المؤرخون عليهم؛ الخلفاء المستضعفين^(٢)؛ كما أطلق المؤرخون الحديثون على خليفة تركيا في وقت ضعفها الرجل المريض، فقال الشاعر يصف ضعف الخليفة العباسي؛

خليفة في قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قاله كما تقول الببغا^(٣)

ولم يقف ضعف الخليفة العباسي عند حد أن يسيطر عليه رجل أقوى منه، ولكن تطور الأمر إلى أن سيطرت عليه أسرة تحكم معه وارثاً عن وارث. ففي أثناء تنازع القواد الترك المتغلبين عليه في بغداد، تمكنت أسرة بني بويه^(١) - على اسم

(١) ابن الأثير، الكامل، ٦ ص ٢٥٤، ظهرت إمرة الأمراء لأول مرة في عهد الخليفة العباسي الراضي (٢٢٢-٢٢٩/٩٣٤-٩٤١).

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨ س ٢.

(٣) نفسه ص ١٩.

جدها أبى شجاع بويه- من دخول العراق. وقد كانت هذه الأسرة من عنصر فارسي، من قبائل الديلم البديوية، تقيم في الجنوب من بحر قزوين، ويعيش أفرادها كجند مرتزقة، أو على صيد السمك. ولم يكن الأمويون ومن بعدهم العباسيون قد تمكنوا من فتح بلاد الديلم، وإن كان الإسلام قد انتشر فيها في أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)^(٢)، ومنذ إسلامها بدأت تظهر للديلم أطماع في أملاك الخلافة العباسية. وعلى أيدي زعمائهم من بنى بويه، كونوا دويلات قوية في إيران ونواحيها، وارثين الدولة الطاهرية فيها، بل طمعوا أيضا في السيطرة على الخلافة العباسية، ودخل أحمد بن بويه إلى بغداد في سنة ٩٤٥/٣٣٤، وهو المعروف بالأقطع^(٣)، لإصابته بجراح أطارت أصابع يده اليسرى، وتلقب بمعز الدولة، وعزل الخليفة المستكفي بالله (٣٣٣-٣٣٤/٩٤٤-٩٤٦)، وولى بدله المطيع (٣٣٤-٣٦٣/٩٤٦-٩٧٤)؛ حتى يطيعه. فكان بنو بويه مع الخلفاء العباسيين، أكثر استبدادا من القواد الترك السابقين؛ فكانوا يعزلونهم ويسلمون عيونهم أو يقتلونهم. كذلك أصبح الواحد منهم يسك العملة باسم شاهنشاه أي ملك الملوك، وهو اللقب الفارسي القديم، ويخطب له على المنابر في المساجد، ويقرن اسمه باسم الخليفة العباسي في خطب المساجد، وتضرب له الدفوف- الطبول- أمام قصره في الضحى والعشى، وهذا تكريم لم يكن يحظى به غير الخليفة من قبل. ولم يبق على حد قول المؤرخين لبنى العباس من الخلافة إلا اسمها؛ بحيث صار الخليفة العباسي، وكأنه فقط رئيس الإسلام^(٤).

*

أما التشيع، فهو العامل المباشر؛ إذ أن الفاطميين شيعة، وهي لفظة في اللغة أصلها من المشايعة، وهي المتابعة والمطاوعة، والشيعه هم الفرقة من الناس الذين

(١) الكامل ٦ ص ٢٣٠ وما بعدها؛ ابن خلكان، وفیات ١ ص ٩٧-٩٩، ٢ ص ٦٥؛ المقرئى، السلوك، ط ٢، ١/١ ص ٢٣ وما بعدها؛ انظر:

Ency- de l'IsI, (art,Bûyides) t I, P. 827-828, 26d t I, P. 1390 sqq

ويعدده.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥٨.

(٣) النجوم، ٤ ص ١٤-١٥.

(٤) المقرئى، النزاع والتخاصم، ص ٦٤؛ البيروني، الآثار الباقية، ص ١٣٢.

تابعوا علياً وأهل بيته، حتى صار هذا اللفظ اسماً خاصاً بهم^(١)، وهذا الاسم له سند في القرآن بقوله: ﴿... هذا من شيعته، وهذا من عدوه. السورة رقم ٢٨ القصص من الآية رقم ١٥﴾.

والشيعة كفرقة دينية سياسية اختلف المؤرخون في وقت ظهورها. فيقول النوبختي (القرن الثالث الهجري)، في كتابه فرق الشيعة: إنهم فرقة علي بن أبي طالب، المسمون بشيعة علي، ظهوروا في زمان النبي وبعده، وعرفوا بانقطاعهم لعلي، والقول بإمامته^(٢). وعلى النقيض يقول ابن النديم (ت ٩٩٣/٣٨٣)، في كتابه الفهرست: إن هذه التسمية ظهرت لأول مرة، عندما حارب علي طلحة والزبير، اللذين أبيا إلا الطلب بدم عثمان بن عفان واتهما علياً به، فتسمى من اتبع علياً في قتالهما بالشيعة، وكان علي يقول: شيعتي^(٣). وعلى أي الرأيين؛ فإن المحن التي حلت بعلي بقتاله طلحة والزبير، وبقتاله معاوية بن أبي سفيان من بعدهما، وهو الذي طالب بدم عثمان كذلك، لقربته لعثمان، زادت الشيعة تضامناً؛ بحيث إن أغلب أهل الكوفة أصبحوا من شيعة علي، كما يذكر المؤرخون^(٤) بالتخصيص.

ولقد أصبحت الشيعة موضع نقمة الخلافة الأموية، التي قامت بعد مقتل علي سنة ٤٠/٦٦١، مستندة إلى عصبية البيت الأموي، عدو بيت بنى هاشم الذي ينتمي إليه علي، إذ تمتد عداوة البيتين إلى أيام الجاهلية^(٥). فأعلن الأمويون سب

(١) لسان العرب، ١٠ ص ٥٤ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isl., (art Shi'a) t 4, P. 362 sqq.

(٢) فرق الشيعة، ص ٢، ١٧-١٨. يعدد أسماء الشيعة الأوائل، وهم: المقداد بن الأسود

الكندي (ت ٦٥٢/٣٢)، وسلمان الفارسي (ت ٣٦٦ أو ٦٥٦/٣٧-٧) وأبو ذر الغفاري (ت ٣١

أو ٣٢/٦٥١-٦٥٢)، وعمار بن ياسر (ت ٧٠٨/٨٧).

(٣) الفهرست، ١ ص ١٧٥.

(٤) الكامل، ٢ ص ٢١٢ وما بعدها؛ انظر. ما أوردهنا في كتابنا: التاريخ السياسي، ٢ ص ٦٨

وما بعدها؛ طه حسين، علي وبنوه. ص ١٩٠ س ١-٢.

(٥) المقرئ، النزاع والتخاصم، ص ١١.

على ولعنه في الخطب على منابر المساجد، واختاروا له اسم أبي تراب، وحقروا الشيعة وسموهم الترابية^(١)؛ وكانوا يرمون بذلك إلى جعل على كقاطع طريق؛ مع أن الشيعة لم يكونوا يعرفون هذا الاسم من قبل. كذلك قتلوا كل من فكر في الخروج عليهم من بني علي، ودوننا كتاب: مقاتل الطالبين^(٢)، يحتوي على أسماء من قتل منهم، ولا سيما الحسين بن علي، الذي اعتبر سفك دمه عند الشيعة في سهل كربلاء بالعراق، ذا قيمة في التضحية تشبه سفك دم المسيح عند المسيحيين. فكانت كل فتنة شيعية ضد الأمويين يتبعها اضطهاد للشيعة، وسجن وتقتيل.

وقد استفاد بنو العباس من هذه الحالة - وهم سلالة العباس عم النبي، ومن بيت بني هاشم أيضاً - ودعوا إلى الرضا من آل البيت أي إلى بني هاشم؛ بقصد القضاء على خلافة أعدائهم من الأمويين، وتولى الخلافة من دونهم. ولم يكن بنو العباس الأوائل يسعون إطلافاً إلى الخلافة، مع علو مركزهم كسادة لبني هاشم، وإنما كان كل منهم تعضيد على وأبنائه في المطالبة بها. ولعل ظهور طموح بني العباس في آخر عهد الخلافة الأموية، كان بسبب أن الطريق قد خلت لهم؛ لكثرة من قتل من بني علي، ومع أن بني العباس لم ينكروا في أول الأمر المقصود بالدعوة إلى الرضا من آل البيت؛ أهو فرع آل علي أو آل العباس؛ فإنهم لما تمكنوا من القضاء على الخلافة الأموية، تولوها من دون بني علي^(٣).

وكان المفروض أن يكون بنو العباس أخف وطأة على بني علي من الأمويين، لأنهم من بيت واحد، ولكن هذه القرابة بالذات، جعلتهم أشد قسوة عليهم؛ خوفاً من أن تضيق الخلافة من أيديهم، وكما قال خلفاؤهم إن العم وارث النبي، وأولى

(١) الأصفهاني، كتاب الأغاني، ١٣ من ١٦٨، ٢٢، ١٦، ٦-٧؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art.

Abû Turâb) t I, P. 114. ماجد، التاريخ السياسي، ٢، من ٦٩-٧٠. ومن ناحية أخرى،

يذكر المؤلف نفسه، في كتاب مقاتل الطالبين، أن هذه تسمية النبي لعلي؛ لأنه وجده في

المسجد راقداً وقد زال رداؤه عنه، وأصابه التراب، وأنها كانت أحب التسميات لعلي!

(٢) الأصفهاني، مقاتل الطالبين، النصف ١٣٥٢ هـ؛ انظر.

(٣) عن ذلك بتفصيل، انظر. كتابنا: التاريخ السياسي، ٢ من ٣٢٣ وما بعدها.

الناس به، وأحق من ابن العم، وأن كل من دخل الخلافة بعده متوثبون^(١)، فسموا بنى عليّ الطالبيين، ليميّزوه عن أنفسهم، على اسم أبي طالب أبي عليّ، وأظهروا أن أبا طالب مات كافراً^(٢). وقد لعن العباسيون عليّاً^(٣)، مثلما فعل الأمويون، وعلى العكس لم يسبوا معاوية، فكان يقال: رحم الله معاوية، ولعن الله عليّ بن أبي طالب^(٤). ثم تتبعوا الذراري العلوية فقتلوه: فتظاهر المأمون بالرغبة في رضاهم، فأمر بالنداء في البلدان أن من كان من نسل عليّ فليصل إلى المأمون، فوصل إليه جماعة منهم، فقتلهم^(٥). كذلك أتى محمد المنتصر بالله بن المتوكل، بشيء لم يسمع به، وهو أنه كتب إلى الأتاق، بأن لا يملك علويّ أرضاً، ولا يركب فرساً، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد، ومن كان بينه وبين أحد الطالبيين خصومة، قبل قول خصمه ولم يطالب ببيته^(٦)؛ على حسب ما أورده المؤرخون.

ولكن الشيعة في ظل العباسيين ثابروا على الدعوة لآل عليّ، وإن كثروا وقتئذ، لكثرة أفراد آل عليّ، وكانت كل فرقة تدعو إلى إمام منهم، حتى بلغت

(١) النوبختي، ص ٤٨؛ الخطط، ٤ ص ١٧٣ س ١٠-١١.

(٢) انظر. كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، ص ٨٨. يرد كاشف الغطاء على ذلك، بالاستشهاد بشعر أبي طالب في قوله:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً.

(٣) النزاع والتخاصم، ص ٦٤.

(٤) الطبري ٣: ١٠٩٨، ٢١٦٤؛ انظر. Pellat :

Le Culte de Mu'awiya au IIIe siècle de l'hégire. Studia Islamica, IX, Paris, 1958, P.

53 sqq.

(٥) عيون الأخبار (مخطوطة بمكتبة الهمداني الخاصة)، ٤ ورقة ٢٢٩؛ انظر. الهمداني، بحث في تاريخ رسائل إخوان الصفا، ص ١٥ وما بعدها.

(٦) النزاع والتخاصم، ص ٦٤؛ الخطط، ٤ ص ١٥٤. حكم الخليفة محمد المنتصر بين ٢٤٧-٢٤٨/٨٦١-٢٤٧.

فرقهم ثلاثمائة فرقة^(١)، وإن بقى اسم الشيعة يدل على طوائفهم المختلفة. وفي ظل دولة العباسيين تكونت للشيعة أيضاً آراؤها الدينية وعقائدها^(٢)، ولا سيما أنها كسبت أعواناً من رجال الفكر يضعون قواعدها، من حيث الأحاديث والتفسير والفقه، وأصبحت كلمة الشيعة تقابل كلمة سنة، التي ظهرت لأول مرة في عهد العباسيين، لتعنى العقيدة الإسلامية عند العباسيين، فكانت بعض فرق الشيعة تتميز عن السنة، والبعض الآخر يميل إليها.

*

وكانت أهم فرق الشيعة في عهد العباسيين وأكثرها تطوراً في العقائد الدينية، هي الفرقة التي قالت بإمامة إسماعيل^(٣) بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زيد بن عليّ زين العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب. فهذه الفرقة تؤمن مثل غيرها من فرق الشيعة إيماناً لا حد له، بوصاية النبي لعليّ في غدِيرُ حَمٍّ - مكان بين مكة والمدينة^(٤) - لتبقى الإمامة وهي حكم المسلمين في بيت عليّ إلى يوم الدين^(٥)، فكانت عقيدتها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليّ وليّ الله^(٦). ولكنها تميّزت عن غيرها بأن الإمامة تكون بالنص أو التنصيب^(٧) أي

(١) الخطط، ٤ ص ١٧٣ س ١٢. يقول: المشهور منها عشرون فرقة.

(٢) مثلاً: رسائل إخوان الصفا، اعتبرت من تأليف أئمة الشيعة الإسلامية، وهي تحتوي على عقائد كثيرة، عيون الأخبار، ٤ ورقة ٣٣٩، انظر. الهمداني، رسائل إخوان الصفا، ص ٣١ وما بعدها.

(٣) الملل، ص ١٠٢.

(٤) النعمان، شرح الأخبار، مخطوطة بدار الكتب، برقم ٧٠٦٢، ورقات ٣-٥. ففي أثناء حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة؛ بالقرب من غدِيرِ حَمٍّ، قام محمد خليطياً في الصجاج، فقال لهم: «أست أولى بالمؤمنين من أنفسهم»، قالوا: «بلى يا رسول الله»، قال: «من كنت مولاه فعلىّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله». كذلك وتردد الكتب رواية أخرى، مؤداها أن محمداً، في أثناء غزوة تبوك، قال لعليّ: «أنت مني بمنزلة هرون من موسى». عن ذلك، انظر. دعائم الإسلام، ١ ص ٢٥؛ وانظر ما أورده بالتفصيل، بفصل الإمامة من كتابنا: نظم الفاطميين، الجزء الأول.

(٥) دعائم، ١ ص ٥٤؛ الداهي إدريس، زهر المعاني (الباب السابع عشر)، نشر Ivanow في كتاب Rise (المنتخب من بعض كتب الإسماعيلية)، ص ٥٢.

(٦) مثلاً: الخطط، ٢ ص ٢٤٨.

(٧) الملل، ص ١٠٩.

بوجوب تعيين الإمام لخلفه، وأن الإمامة في، الأعقاب لا ترجع القهقري^(١)، فلا تنتقل من أخ إلى أخ؛ بعد الحسن والحسين^(٢)، ولا بد أن تكون من أب إلى ابن. فإن موت إسماعيل (ت ٧٦٢/١٤٥-٣)، في حياة أبيه جعفر الصادق^(٣) (ت ٧٦٥/١٤٨)، يجعل النص ينتقل لابنه محمد الذي جعلت له مكانة خاصة، فاطلق عليه من دون الأئمة المبارك، وليس لأخيه موسى الكاظم^(٤)، لذلك عرفت بالفرقة الإسماعيلية، على اسم إسماعيل هذا^(٥)، ولما كان إسماعيل سابع إمام منذ عليّ، عرفت هذه الفرقة بالسبعية أيضاً^(٦)؛ بينما عرفت سلالة موسى الكاظم بالجعفرية، وبخاصة الاثني عشرية؛ بسبب استكمال عدد الأئمة إلى اثني عشر إماماً، أو حتى بالإمامية.

وكان أتباع هذه الفرقة يعتقدون بأن الأئمة منهم، يتوارثون طبيعة روحية فإن النبي ﷺ، نقل إلى عليّ بعض علومه الإلهية مباشرة؛ ليتوارثها الأئمة من نسله بعده^(٧)؛ وهي علوم تتمثل على الخصوص في تفسير القرآن، أو ما عرف بالتأويل أو المعنى الباطن^(٨)؛ إذ لكل تنزيل تأويل، فقد قال الرسول: «أنا صاحب التنزيل وعليّ صاحب التأويل». وكل كتب الدعوة الإسماعيلية تشير إلى تأويل القرآن، كما ردوا كل الأحاديث النبوية إلى أئمتهم؛ وهي ما عرفت عندهم بالأخبار^(٩). وقد جعلهم ذلك يثبتون لأئمتهم صفة العصمة عن الكبائر

- (١) نفسه، ص ١٤٦.
(٢) النعمان، المجالس والمسائرات، تحقيق، ص ١٢٤.
(٣) عنه؛ وفيات، ص ١٨٥.
(٤) الملل، ص ١٤٥-١٤٦؛ زهر المعاني (من المنتخب) الباب السابع عشر، ص ٥٠؛ الخطاب، غاية المواليد (من المنتخب)، ص ٣٦-٣٧؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥٨-١٥٩.
(٥) الملل، ص ١٤٥-١٤٦، وكتابنا؛ نظم الفاطميين، ص ٩.
Ency de l'IsI, (art Ismâ'îlîya) t2 P. 585 sqq.
كذلك سميت الخالصة (النوبختي، ص ٥٧-٥٨) أو حتى الواقعة (الشهرستاني) ص ١٤٩.
(٦) الملل، ص ١٤٦، سيرة جوزر، مقدمة، ص ٢٤.
(٧) أنظر في هذا الصدد ما قاله الأمر عن أبيه؛
«وأطلعني من العلوم على السر المكنون، وأفضى إليّ من الحكمة بالغامض المصون».
حسن المحاضرة، ص ٢، ص ١٥، وما أوردها في النظم، ص ٥٩-٦٠.
(٨) المؤيد، سيرة، تحقيق كامل حسين، ص ١٧؛ تاج العقائد، ص ٤٧. ويسميهام أعداؤهم بالباطنية، وإن لم نعرف أن الشيعة سمووا أنفسهم بذلك، ولا سيما أن أعداءهم كانوا يطلقونها أيضاً على فرق من الزنادقة مثل الخرمية والمزدكية، انظر. ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥٩ س ٩. يقول ابن خلدون؛ نسبة إلى الإمام الباطن، أي المستور.
انظر.. Ency. de l'IsI, (art. Bâtin^ya) t I, P. 697.
(٩) دعائم، ص ٦١.

والصغائر^(١)، واعتبروا أن نور الله حل فيهم^(٢). ولذلك كانت معرفة الإمام واجبة على المسلمين؛ بحيث إن من مات لا يعرف إمام دهره حياً، مات ميتة جاهلية^(٣). ومع ذلك، فعقائد الإسماعيلية كانت متطورة في كل بيئة وزمن؛ مما زاد من أهميتها بين الفرق الشيعية.

ولكن أمام اضطهاد العباسيين اضطرت هذه الفرقة إلى الدعوة السرية، واضطر أئمتها إلى التستر الكثيف، أو التكتم أو الكتمان، وهو ما عرف بالتقية^(٤)، وهي ليست الغيبة، المعروفة عند الشيعة الإمامية، حتى أن محمد بن إسماعيل، سمي بالمكتوم- وهو أول من تكتم وجوده- سمته بذلك شيعته لما اتفقوا عليه من إخفائه، حذراً من العباسيين^(٥). أما خلفه فيقال لهم: المستورون في ذات الله^(٦)، أي الذين استتروا خوفاً على نفوسهم، لأنهم كانوا مطلوبين من جهة الخلفاء العباسيين. وعلى النقيض كان الأئمة يظهرون دعواتهم، الذين عرفوا غالباً بالحجج^(٧)، لينقلوا عقائدهم وينشروها بين الناس، وإن لم يكشفوا إطلاقاً عن شخصية الإمام^(٨). وكان الأئمة الإسماعيلية في تسترهم يلجأون إلى وسائل

(١) الملل، ص ١٠٩.

(٢) نظرية المثل والمثول. انظر. بعده.

(٣) دعائم، ١ ص ٣١.

(٤) النويختي، ص ٦٤-٦٥؛ جعفر بن منصور، كتاب الفرائض وحدود الدين، تحقيق الهمداني، ص ٩؛ انظر.

Ency de l'Isi, (art Taktya) t 4, P. 659 sqq.

يقول جعفر الصادق: «التقية ديني ودين آباءي، ومن لا تقية له، فلا دين له».

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨ س ١-٢؛ الملل، ص ١٤٦. قيل أنه انتقل إلى الحجاز، ولم يسمع عنه شيء بعد ذلك.. انظر. كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٤.

(٦) ابن أبيهك، الدرر المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق المنجد، ٦ ص ٤.

(٧) زهر المعاني (المنتخب) ص ٥٣، ٦٠، ٦٣. مفردتها حجة، انظر.

Ency. de l'Isi, (art. Hudjdja) 2 éd, t 3, P. 562 sqq;

Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis. Paris, 1874, pp. 188-9 : Guyard

(٨) زهر المعاني (المنتخب)، ص ٥٩؛ انظر. Ivanow.

Alleged Founder of Ismâ'ilism. Bombay, 1946, P. 7-8 .

متعددة؛ فأربعة من ولد جعفر الصادق ادعوا الإمامة لنفسهم بقصد ستر الإمام الحقيقي، بحيث إن بعض الروايات تقول: إن إسماعيل نفسه إمام ظاهر، ولم يكن غير صورة للإمام الحقيقي عبد الله، الأخ الأكبر^(١)، أو خلطوا أنفسهم بغيرهم، فمحمد بن إسماعيل المكتوم اختفى مع شخص اسمه ميمون الفداح وابنه عبد الله^(٢) للتليس، أو تسموا بغير أسمائهم كمحمد وعبد الله، أو بأسماء حججهم الذين يعتبرونهم لواحق لهم، الحقههم الله بهم؛ كسعيد ومبارك وميمون^(٣)، أو أن دعواتهم سموهم بأسماء مختلفة لم يتفق منها في ذلك اثنان^(٤).



وقد وجد التشيع مرتعاً خصباً لآمال الشعوب التي كانت تئن تحت حكم الخلافة العباسية، مثل الشعوبية التي كانت من قبل وسيلة من وسائل تصرد الشعوب، إذ أصبح ليس فقط عقيدة مذهبية، وإنما سياسية وحتى اجتماعية. وقد مهد ضعف العباسيين، إلى نجاح التشيع، ولا سيما أن الإسماعيلية. منذ أن تستر محمد بن إسماعيل، أرسلت دعواتها إلى كل مكان^(٥)، في البحرين ومصر واليمن والهند والمغرب^(٦)، أي إلى أطراف الخلافة العباسية، لتكون سهلة الانتشار.

ولم يكتب للإسماعيلية الفوز الباهر كما كتب لها بالمغرب، وهو النجاح الذي توج بإنشاء خلافتهم فيها. فقد كانت هذه البلاد بعيدة عن مركز الخلافة العباسية، تسكنها قبائل من البربر متمردة، بحيث إن العرب الأوائل لم يتمكنوا من فتحها، إلا بعد حروب استمرت من ٦٤٦/٢٦ إلى ٧٠٢/٨٢. ولكن بعد إسلام

(١) كتاب الفرائض، ص ٩-١٠. الأربعة، هم: موسى وإسماعيل ومحمد وعبد الله.

(٢) زهر للمعاني (المنتخب) ص ٤٧، ٤٩؛ الفرائض، ص ٦٠، ٦٢؛ ويحده.

(٣) الفرائض، ص ٩-١٠.

(٤) زهر للمعاني (من المنتخب)، ص ٥٤. يكفي أن نطلع مما قليل في نسب عبيد الله، إلى

علي، أول الأئمة الظاهريين بعد نور السمر؛ فهو عبيد الله بن الحسين، وقيل عبيد الله ابن

محمد، وقيل هو علي بن الحسين، وقيل هو عبيد الله بن القاسم. ونهاية، ص ١٠٧. ولعل

التصميم على تسميته عبيد الله؛ ربما تصغيراً لعبد الله أنظر قبله.

(٥) زهر للمعاني، ورقة ٥٢؛ انظر. De Sacy. Recherches sur l'initiation à la secte Isaelienne. J. A. 1824, P. 302.

(٦) النعمان، افتتاح الدعوة (بمكتبة الهمداني)، ورقات ١٨-١٩.

البربر، ومشاركتهم للعرب في الجهاد، أساءت الخلافة الأموية إلى البربر، كما أساءت إلى غيرهم من الشعوب المفتوحة؛ وفرقت بينهم وبين العرب في المعاملة. فمنذ ذلك والمغرب ملجأ للخارجيين على الخلافة في الشرق، فأنته الخوارج بفرقها من الإباضية والصفورية^(١)، كما أتاه الأدارسة العلويون الذين ساعدتهم البربر من زينات وغيرهم على إنشاء دولة لهم في المغرب الأقصى، طابعها سني؛ وإن حكمها الأدارسة^(٢) العلويون وذلك في سنة ١٧٢/٧٨٩.

ولكن الدعوة الإسماعيلية اختصت من قبائل البربر قبيلة كتامة^(٣)، التي عرفت بأنها أكثر القبائل عدداً وأصعبها مراساً؛ إذ كانت تسكن جبل أوراس^(٤) الوعر في جنوب إفريقية، وهي البلاد الممتدة من طرابلس الغرب إلى طنجة. وقد بدأت الدعوة الإسماعيلية بينهم على يد دعاة مثل: الحلواني وأبي نشقيان^(٥)، وبعد موتهما على يد أبي عبد الله المحتسب^(٦)، المشهور بالشيعي الصنعاني، أي أنه جاء

(١) أخبار مجموعة، ص ٢٨؛ انظر: ماجد، التاريخ السياسي، ص ٢٨٨ وما بعدها.
(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق ص، ١٨٨. وما بعدها؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨، ٢٤١ (آخر الصفحة). مؤسسها إدريس بن عبد الله حسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب. انظر.

Ency. de l'Isi, (art Idrîs); (Idrisides) t2, P. 478-480.

(٣) البيان، ١ ص ١٢٤ وما بعدها؛ إتماظ، ص ٧٤ وما بعدها؛ ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد، ص ٧ وما بعدها؛ افتتاح، ورقة ٢٢ وما بعدها؛ أيضاً نص وترجمة Dachroui، Contribution à l'Histoire des Fatimides en Ifrîliya. Arabica, 1961, P. 189 sqq;

Ency. de l'Isi (art Ketâma) t 2, P. 909.

عن كتامة: السمعاني، كتاب الأنساب، تحقيق Sybold، London، ١٩١٢، العبر، ٦ ص ١٤٨ وما بعدها.

(٤) معجم البلدان، ١ ص ٣٧٠، انظر.

Ency. de l'Isi, (art Awrâs) t 1, 528 sqq.

(٥) إتماظ، ص ٥٣-٥٤، ٦٧ وما بعدها (٣).

(٦) نفسه، ص ٧٤ وما بعدها؛ الخطط، ٣ ص ١٥ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isi; (art Abû, Abd Allâh) t I, P. 76.

سعى المحتسب لأنه كان ولي النيسية، وهي مراقبة الأسواق، كما عرف باسم الصوفي، لأنه كان يلبس خرقه الصوفية، وهي الملابس الملهلة، أو حتى المعلم، لعلمه بأحوال المذهب. ونسب إرسال الحلواني وأبي سفيان إلى جعفر الصادق (ت ٧٦٥/١٤٨)، الذي قال لهما: إن المغرب أرض بور فأحبرنا؛ حتى يجرى صاحب البذر. ومع ذلك، فليس من المعقول أن يكون الفاصل الزمني بينهما وبين أبي عبد الله الشيعي ١٢٥ عاماً أو أقل.

من اليمن، وذلك في سنة ٨٩٣/٢٨٠. فوجد أبو عبد الله الأرض موطأة مهدة له؛ حيث استقر في مكان اسمه فج الأخيار^(١) -ولغله جبل- فأقام فيه ما يعرف بدار الهجرة. وبدأ يجمع الأتباع من الكتاميين، وسماهم الإخوان أو المؤمنين^(٢)، كناية عن أنهم قبلوا الدعوة الإسماعيلية ودخلت في قلوبهم؛ أما هو، فإنه كان ينادى عليه: «يا أخانا». ومن أرض كتامة الوعرة، أخذ أبو عبد الله يهاجم دولة الأغالبة^(٣)، وهي التي قامت بتشجيع العباسيين في خلافة هرون الرشيد، لتقف في وجه الأدارسة العلويين، وغيرهم من الخوارج. وكانت هذه الدولة تعتمد أساساً على عنصر العرب، الذين يكرهم البربر منذ أن فتحت بلادهم على يد الأمويين؛ مما جعل البربر تنضم للفاطميين. فكان أبو عبد الله يكتب على راياته: «سيهزم الجميع»، وعلى أفضان الخيل «الملك لله». وقد استطاع أبو عبد الله أن يتغلب على الأغالبة، ويدخل دار ملكهم في رقادة^(٤) في سنة ٩٠٨/٢٩٦-٩٠٩.

أدركت الخلافة العباسية الخطر من نجاح دعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب، فأرسلت الكتب إلى ولايتها في أنصاء الخلافة بالقبض على إمام الإسماعيلية، وذلك بصفته وهيئته؛ إذ يبدو أنه أصبح معروفاً لها، على الرغم من

(١) هو مكان قرب قسنطينة، لعله كان مركزاً لتجمع الحجاج. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق De Slane، ط ٢، Paris، ١٩١١، ص ٦٣-٦٤؛ انظر. حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٤٨، ٤٩.

(٢) مقالة Dachroui (افتتاح الدعوة). انظر. Op. Cit, P. 189 sqq.

(٣) ابن حنّاد، ص ٧.

(٤) عنها، انظر. معجم البلدان، ٤ ص ٢٦٧-٢٦٨.

بناها إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب في سنة ٨٧٦/٢٦٣، في جنوب القيروان، ولم تزل بعد ذلك دار ملك لبني الأغلب. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق العبادي والكتاني، ص ٢٧، ٤٥. عن الأغالبة بتفصيل وبمصادر و مراجع عديدة، انظر. Ency of Isl, (art Aghlabides) 2ed, t I, P. 247 sqq.

أنه كان مستوراً إلى وقتئذ. فخرج الإمام الإسماعيلي متخفياً في زىّ التجار^(١)، من سلمية^(٢)، من أرض حماة بالشام (ومن مكان آخر من الأهواز (خوزستان))؛ حتى انتهى إلى مصر، التي كان له فيها دعاة وشيعة^(٣). فبقى الإمام مستتراً في مصر؛ ليرحل منها إلى المغرب. ولعل الإمام قد فكر في أن يذهب إلى اليمن، لما وجد البحث جارياً وراءه؛ إلا أن دعاة اليمن كانوا مختلفين^(٤)، ولا سيما أن أبا عبد الله الشيعي كان يستحثه على المجئ إلى المغرب، وسير إليه في سلمية رجالاً من كتامة، ليخبره بما فتح الله عليه^(٥)، وكان يرسل إليه كتبه تطلبه حيثما نزل^(٦). فلما قرر الدخول إلى المغرب، خرج في زىّ التجار، وإن دهمه اللصوص وسرقوا كتبه، بما فيها من علوم الأئمة^(٧). وكان مع الإمام في صحبته، أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي، وجعفر الحاجب الذي ترك لنا تاريخ سيرته مع الأئمة، فسبقهم أبو العباس إلى القيروان، فقبض الأغالبة عليه. وكان الإمام قد وصل إلى طرابلس الغرب، فلم يذهب مباشرة إلى أبي عبد الله، حتى لا يقتل

(١) اتعاظ، ص ٨١ وما بعدها؛ ابن حماد، ص ٦ وما بعدها؛ الهماني، سيرة جعفر الحاجب، تحقيق Ivanow، مجلة كلية الآداب ١٩٣٦، ص ٨٩ وما بعدها؛ زهر المعاني (الجزء السابع عشر- المنتخب)، ص ٦٧ وما بعدها؛ حسن إبراهيم، عبید الله المهدي، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٢٤ وما بعدها.

(٢) عنها، انظر. معجم البلدان، ص ١١٢-١١٣. اختلف في مقر سكنه، فيذكر المقرئزي أنه كان يسكن عسكر مكرم، بلدة في نواحي خوزستان، ثم انتقل إلى الشام. اتعاظ، ص ٦٩. عن هذه البلدة، انظر. معجم البلدان، ص ١٧٦-١٧٧.

(٣) سيرة جعفر، ص ١١٣.

(٤) نفسه، ص ١١٠، انظر. الهمداني، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص ٣٩-٤٠.

(٥) الخطط، ص ٣، ص ١٧، ص ٧.

(٦) النيسابوري، استتار الإمام، تحقيق Ivanow، مجلة كلية الآداب، ص ١٠٦.

(٧) سيرة جعفر، ص ١١٥.

الأغلبية أبا العباس، وقصد سِجْلَمَاسَةَ^(١) في جنوب بلاد المغرب؛ إلا أنه ما لبث أن قبض عليه ومن معه. فلما انتصر أبو عبد الله في رقادة عاصمة الأغلبية - أسرع إلى سِجْلَمَاسَةَ، واستنقذ الإمام. فلعل كل هذه التفاصيل تبرز المشقات، التي لقيها المهدي في هجرته، وأن الله حماه لما يريد له من تمام أمره^(٢). فسار الإمام من سِجْلَمَاسَةَ، ونزل في رقادة في ربيع الآخر ٢٩٧/١٥ يناير ٩١٠، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين^(٣)، وأقام خلافته التي اشتهرت بالعلوية والفاطمية أو القواطم، منتسبة إلى بيت علي وفاطمة^(٤)، أو حتى باسمه: بنى عبيد^(٥) أو العبيدية^(٦).

وعلى كل حال، كان اتخاذ عبيد الله (عبد الله) لقب المهدي، دليلاً على أنه هو الشخص الذي أظهره الله بالحق، ليملك الأئمة الفاطميين الأرض بأسرها^(٧).

(١) عنها، انظر. معجم البلدان، ٥ ص ٤١؛

Ency. de l'Isi, (art Sidjilmása) t 4, P. 419-421.

(٢) مقدمة، تحقيق افتتاح الدعوة، بعناية و داد القاضي، ١٩٤٥، ص ١٩.

(٣) اتعاظ، ص ٩٢.

(٤) المقصود بها فاطمة الزهراء بنت النبي، أيضاً المسماة من قبل الشيعة (فاطم)، وذلك تحريزاً عن دعواتها بالأنوثة. انظر. النشار، نشأة التشيع وتطوره، ط ٤، القاهرة ١٩٦٩، ص ٨. كذلك قيل أيضاً فاطمة بنت الحسين. عن هذا، انظر.

Fâtîma bint al- Husayn,; et l'Origine du nom dynastique Fâtimites. Aken : Massignon des XXIV intern. Orientalisten - Kongresses. Munich, 1957, P. 368.

أو حتى من اسم أم عليّ وهي فاطمة بنت أسد: انظر. ابن حجر، إصابه، القاهرة ١٣٢٨ هـ، ٤ ص ٢٨٠؛ انظر.

Ency. de l'Islam, 2éd. (art Fâtimids) t 2, P. 870-884.

ويقول الطبري، إن أول ما ذكر تسمية الفاطميين هم بدو سوريا من أتباع يحيى ابن زكرويه القرمطي، فقد ذكروها للإسماعيلية. انظر. Annales III: 2219. وعلى العكس يذكر ابن عبد ربه أن هذه التسمية سمعت لأول مرة حينما ثار بالمدينة محمد النفس الزكية، في أيام المنصور العباسي. العقد، القاهرة ١٢٩٣، ص ٣٤.

(٥) هو أبو محمد عبيد الله. انظر. مثلاً: كتاب، ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد. لعله هو عبد الله وليس عبيد الله، وإنما عبيد الله هي تصغير لاسمه. انظر. قبله.

(٦) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٣٩ س ١٠. هي تسمية أعدائهم.

(٧) اتعاظ، ص ٨٠؛ الفرائض، ص ١٢-١٣؛ انظر. Guyard.

Fragments (نص عربي) P. 24 sqq.

ولعل فكرة المهدي^(١)، أخذها المسلمون من النصارى أو اليهود، الذين ردوا في كتبهم المقدسة، مجئ المهدي في آخر الزمان، ليصلح حال الناس، ويملا الدنيا عدلاً. وليس لدينا روايات شيعية أو سنية تبين أن هذه التسمية منحت عبيد الله صفة خارقة، وإن اعتبر الفقهاء السنة فكرة المهدي جزءاً من النبوة، لما فيها من الهدى الصالح. ولقد أطلقت تسمية المهدي من قبل على الخلفاء الراشدين، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، لأنهم مهديون من قبل الله للسير على سنة الحق؛ كما أطلقتها الشيعة على أئمتهم مثل محمد بن الحنفية^(٢)، وتسمى بها عمر ابن عبد العزيز^(٣)، بل تسمى بها أحد الخلفاء العباسيين^(٤).

* * *

والخلاصة أن التشيع الإسماعيلي نجح في إقامة خلافة له في المغرب، على يد عبيد الله المهدي.

(١) عن هذا اللقب؛ انظر، لسان، ٢٠ ص ٢٢٨ وما بعدها؛ عبد النعيم، المهدي، المجلد ١٩، صفر ١٢٧٤ هـ، ص ١٠ وما بعدها؛

Ivanow : Rise, P. 50-51 ; 103 ;

Ency. de l'Isl, (art al-Mahdhf) t 3, P. 116 sqq.

وهي تعتبر جزءاً من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة.

(٢) الكامل، ٣ ص ٣٤١ س ١٧-١٨؛ النوبختي، ص ٣٧.

(٣) ابن سعد، ٥ ص ٢٤٥ س ٥.

(٤) هو الخليفة العباسي المهدي.

الفصل الثالث

فتح الفاراطميين لمصر

حملات المهدي على
مصر- تمرد القبائل
المغربية- ولاية الإخشيديين-
دخول المسلمون مصر-
تهديد القرامطة

فتح الفاطميين لمصر

ومن الثابت المحقق أن نجاح الإسماعيلية في تكوين دولة بالمغرب، حدث هام في الإسلام غير من نظمه، إذ أن عبید الله أعلن الخلافة لنفسه، فهو لم يكتف بالسلطة الزمنية، ولكنه نال أيضاً السلطة الدينية الملازمة لمنصب الخلافة. فإلى الوقت، كان الأمير المستقل عن الخلافة العباسية، لا يستطيع أن يدعى لقب الخلافة، لأن العقلية الإسلامية لم تكن تقبل تعدد الخلفاء. وحفظاً لهيبة منصب الخلافة، وحتى لا تتعطل الأحكام الشرعية، لما صاحب الخلافة من سلطة دينية وشرعية، سمي الأمير المستقل بالأمير المسئول، أي أنه استأثر بالإقليم لنفسه، فيقلده الخليفة تقليداً صورياً على كُرهِ منه^(١). فنجد الأمراء الأمويين، الذين التجأوا إلى الأندلس، وكونوا فيها إمارة مستقلة بعد سقوط دولتهم في دمشق على يد العباسيين، ومع عداوتهم الشديدة للعباسيين، لم يأخذوا لقب خليفة، وتسموا بالأمراء أو أبناء الخلائف^(٢).

ولكن الفاطميين منذ عبید الله، خرجوا على هذه القاعدة، وتلقبوا بالخلفاء، لاعتقادهم بأن الإمامة لا تخرج من أولاد علي، وإن خرجت فيظلم^(٣). فكان اتخاذ عبید الله لقب الخلفاء فاتحة ظهور خلافتهم الأخرى، ففي الأندلس أعلن الأمويون الخلافة لعبد الرحمن في سنة ٢١٧/٩٢٩، الذي اتخذ لقبها، فتسمى بالناصر لدين الله أميراً للمؤمنين^(٤). كذلك كان تعدد الخلافة سبباً في أن جعل الفقهاء من السنة، يقدرون إمكان عقد بيعة لأكثر من خليفة^(٥)؛ بحجة اتساع رقعة الإسلام، أي أنهم أقرّوا الأمر الواقع.

ومع ذلك؛ فإن خلافة الفاطميين لم تكن تؤمن برأي فقهاء السنة في إمكان تعدد الخلفاء، وأن طاعة المسلمين لهم جزئية، وهو ما عبروا عنه بالولاية، أي الولاء المطلق لهم. ففي اعتقادهم أن خلافتهم وحدها، هي التي يجب أن تكون لها

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٧-٢٩.

(٢) الكامل، ٦، ص ٣٦٠ من ٣.

(٣) الملل، ص ١٠٨-١٠٩.

(٤) الكامل، ٦، ص ٣٦٠.

(٥) الأحكام، ص ٦.

الولاية في دار الإسلام^(١)؛ فالولاية فرض على المسلمين من فروض الدين، وأول دعامة فيه^(٢). فكان لابد للفاطميين إذن من أن يخضعوا جميع المسلمين لخلافتهم، وفي سبيل ذلك عملوا على التوسع غرباً في أملاك الأمويين، وشرقاً في أملاك العباسيين، فهم كانوا أيضاً من دعاة الوحدة.

ومع أن الفاطميين لم ينسوا العداوة الذي كان بين بني هاشم وبني أمية، وهو عداوة أصيل يرجع إلى أيام الجاهلية؛ فإنهم لم يستعجلوا القضاء على أمويي الأندلس كما يبدو. وقد يكون هذا التراخي راجعاً إلى أن الأندلس رقعة محدودة من دار الإسلام، يفصلها البحر عن بقية أممه الكثيرة؛ بحيث شبهها الجغرافيون بالكم من ثوب الإسلام^(٣)، كما أن أمويي الأندلس أنفسهم كانوا نشيطين في حربهم ضد النصاري^(٤)؛ فلم يكن يُضاف على المسلمين في هذه الأنحاء. ومع ذلك؛ فإن الفاطميين غزوا أجزاء كثيرة من أملاك الأمويين بالمغرب واستولوا عليها^(٥).

وعلى خلاف ذلك، وجه الفاطميون همهم نحو العباسيين، الذين كانوا أشد عداوة لهم من الأمويين، وقاسوا على أيديهم الأمرين، ولا سيما أنه كان يخضع لهم الشرق؛ مجال الإسلام بأومه الكثيرة. فقد كان المهدي يرى أنه إذا لم يستول على المشرق؛ فكانه لم يستول على شيء^(٦). يضاف إلى ذلك، ضعف العباسيين، مما جراً أعداء الإسلام من اليونان أو ما عرف بالروم، على أن يصلوا ويجولوا في أراضي الشام وبلاد الجزيرة، فكان لابد من وجود خلافتهم الفتية في الشرق، لتدفع عن المسلمين، ويتبين عزم الفاطميين ورغبتهم الأكيدة في سحق العباسيين

(١) ابن النعمان، المجالس والمسائرات. مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة، ٢ ورقة ٤٧٨؛ انظر.

L'impérialisme des Fatimids. Annales de l'Instid'Et,Or, 6, 1942-7,P.158. CANARD

يقول كنفار عن هذا الاعتقاد إنه انتهى من الدين، الذي أدى إلى الفتوح الأولى، ومن مطامع

الأمويين الشخصية، ومن استغلال العباسيين الاستياء ضد الأمويين... إلخ

(٢) دعائم، ١ ص ٣؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين. ١ ص ٦٢.

(٣) الأصبغري، المسالك، تحقيق. de Goeje. ط (B.G.A) ١٨٧٠، ص ١٢.

(٤) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب، ط Leyden، ١٩٤٨، ٢ ص ١٦٩.

(٥) انظر. بعده.

(٦) المجالس والمسائرات، ٢ ورقات ٢٤-٢٥.

من قول المهدي: « لنملكنا أنا وولدي ولد العباس، ولتدوسن خيولى بطونهم(١)»،
ومن قول وليّ عهده أبى القاسم: « والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه- إن
قدرت- وإلا أهلك دونه(٢)»، ويقصد بذلك الخلافة العباسية وأملاكها فى المشرق.

وكان الفاطميون يقدرّون عدم إمكان تحقيق الأمانى فى القضاء على
العباسيين، ووراثتهم فى دار الإسلام الواسعة، ببقائهم فى ركنهم المنعزل فى
المغرب. وكخطوة أولى نحو تحقيق أهدافهم، وضعوا نصب أعينهم غزو مصر؛ إذ
لم يغب عنهم أن فتحها معناه فتح الشام، والسيطرة على الحجاز، وأنها طريق
العراق؛ فضلاً عن أن غناها وثروتها يساعدهم فى تحقيق أهدافهم فى دار
الإسلام. وإن كنا لا نستطيع أن نتلمس قصد الفاطميين الأول من فتح مصر،
وهل هو بقصد البقاء فيها، أو بقصد اتخاذها قنطرة لتحقيق مشروعاتهم ضد
العباسيين. ولا نزاع فى أن الفاطميين لم يرحلوا إلى المغرب إلا ليعودوا فى قوة
إلى المشرق.

*

ومع ذلك؛ فقد تأخر فتح مصر والمشرق، بسبب أن المغرب ذاته لم يسلس
لهم قيادته. فالمغرب الأقصى، كان يخضع لدولة علوية، عرفت بالأدارسة، اتخذت
فأس(٣) أو تلمسان عاصمة لها، والمغرب الأوسط كان يخضع لدولة خارجية،
عرفت بالرسّمية، اتخذت تأهرت(٤) عاصمة لها، وحتى فى جنوب المغرب ظهر
بنو مدرار وهم دولة خارجية أخرى، اتخذت سجلماسة(٥) عاصمة لها. يضاف إلى
ذلك، وجود قبائل بربرية، عرفت بضرأوتها، تتمتع أبداً بحريتها، مثل؛ زِنانة فى
أقصى المغرب، ومصمودة حول جبال نرن(٦)-وهو الأطلس- والطوارق أو
صنهاجة أو الملتمون فى الجنوب قرب السودان. ووراء كل هؤلاء توجد الخلافة

(١) سيرة جعفر الحاجب، ص ١١٢.

(٢) إعتاظ، ص ٩٩.

(٣) عنها؛ معجم البلدان، ٦ ص ٣٢٩.

(٤) عنها؛ نفسه، ٢ ص ٣٥٤-٣٥٧.

(٥) انظر. قبله.

(٦) عنها؛ معجم البلدان، ٤ ص ٥٥.

الأموية في الأندلس، التي لها قواعد على ساحل المغرب المقابل للأندلس، وأنها تساند هذه الدول أو القبائل على حسب مقتضى الأحوال.

وفي إفريقية أو تونس ذاتها - التي ظهر فيها التشيع الإسماعيلي - لقي الفاطميون في أول أمرهم صعوبات عديدة؛ أتى بعضها من أقرب أتباعهم. فأبو عبد الله الشيعي وأخوه أبو العباس، وكلاهما كان السبب في نشأة دولة الفاطميين، ما لبثا أن تأمرا على المهدي؛ مما جعل هذا الأخير يسعى إلى التخلص منهما^(١)، وفعل معهما ما فعله أبو جعفر المنصور مع أبي مسلم الخراساني، الذي كان هو الآخر السبب في ظهور دولته العباسية؛ وولى المهدي بدله في الدعوة جعفر بن منصور اليمن، وفي القضاء النعمان بن حيون. وقد ترتب على التخلص من أبي عبد الله الشيعي ثورة قبيلة كتامة، التي عاونت الفاطميين على إنشاء دولتهم في إفريقية، وإن تمكن ولي عهد المهدي وهو أبو القاسم، من محاصرتهم وهزيمتهم في ٢٩٨/٩١٠-٩١١^(٢). ويبدو أن فتناً أخرى قامت بعد ذلك، حتى قيل إن المهدي لم يزم طوال عشر سنوات، إلا على صهوة جواده.

وخوفاً من أعدائه شرع المهدي في إنشاء عاصمة حصينة ٣٠٣/٩١٥. سماها باسمه: المهديّة^(٣)، وإن لم ينتقل إليها إلا في ٣٠٨/٩٢٠، واختار شبه جزيرة صخرية منعزلة على الساحل، أشبه بالكف المتصل بالذراع؛ فأشاد فيها المباني من الصخر، وأمر أن تنقردار صناعة في الجبل المحيط بها، تسع مائتي سفينة وعليها باب مغلق، وأنشأ في باطن الأرض الأهرام لخرن الغلال، وأقام

(١) إتعاظ، ص ٩٢ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص ٩٧؛ الكامل، ص ٦، ص ١٣٥.

(٣) نفسه، ص ١٠١ وما بعدها؛ نفسه، ص ٦، ص ١٥١-١٥٢؛ معجم البلدان، ص ٨، ص ٢٠٥ وما بعدها. هي غير مهديّة الموحدين. التي كانت مكان الرباط في المغرب الأقصى، على اسم المهدي بن تومرت، وأما هذه فتقع جنوبي القيروان، وقد بنى المهدي الفاطمي بجوارها مدينة أخرى اسمها زويلة، وهي إحدى المهديتين. أيضاً: ابن عذاري، البيان، ص ١، ص ٢٢٤؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art al-Mahdiyya) t 3, P. 127-128;

Mahdiyya, recherches d'archéologie Islamique. Paris, 1965 : Lézine و

Mahdiyya. Quelques Précisions sur la " Ville" des Premiers Faimides. Revue des Etudes. Islamiques XXXV, 1967, P 82 sqq.

مصانع الماء، وأحاط المدينة بالأسوار والأبواب الضخمة، وقال: «اليوم آمنت على الفاطميات»، أى أن الفاطميين فى مكان حصين. وتزيد الكشوف الأثرية الحديثة وجود حصون كثيرة من عهدهم، كانت تخدم العسكرية الفاطمية.

ومع أن المهدي كان يعلم أنه لا يستطيع - والفتن الكثيرة حوله - فتح المشرق إلا أنه أحب ألا يضيع العزم، ويضيع أصول السياسة لدولته الناشئة^(١)، فوجه أولى الحملات إلى مصر، بقيادة وليّ عهده أبى القاسم فى سنة ٣٠١-٩١٣^(٢)، فملك الإسكندرية والفيوم، وبعض الصعيد؛ مما جعل فى يده أكثر بلاد مصر. ولكن هذه الحملة فشلت بسبب أن الخلافة العباسية، التى كانت استعادت مصر بعد الطولونيين؛ عملت كل ما فى مقدورها للإبقاء على سيطرتها عليها. فقد أرسل الخليفة، العباسى المقتدر بالله أكبر قواده الأتراك، وهو مؤنس الفتى أو الخادم، الذى عرف بالفحل^(٣)، فى جيش كثيف نجح فى إرغام الفاطميين على التقهقر؛ بحيث لما نزل مؤنس مصر رحل أبو القاسم.

هذه الهزيمة لم تقض على أمل المهدي فى تحقيق مشروعاته فى غزو مصر، فأرسل فى العام التالى فى سنة ٣٠٢/٩١٤^(٤)، حملة ثانية بقيادة قائد مغربى اسمه: حباسة، بلغ عددها مائة ألف أو زيادة، بطريق البحر، فاستولت على الإسكندرية، ثم سارت إلى مصر أو الفسطاط؛ ولكن المقتدر بالله العباسى أرسل مؤنس الخادم من جديد، الذى أجبر أهل الفسطاط على محاربة جيش الفاطميين^(٥). وبعد معركة عنيفة قتل فيها عشرة آلاف من أهل مصر، تمكن مؤنس من هزيمة جيش حباسة، الذى نجا بجلده بهروبه إلى المغرب، فقتله المهدي لفشله.

وبعد خمس سنوات فى ٣٠٦/٩١٨^(٦)، جهز المهدي جيشاً كثيفاً حشد له عرب إفريقية وبربرها، عقد لواءه لأبى القاسم، وهى المرة الثانية التى يذهب فيها

(١) المجالس والمسائر، ٢ ورقات ٢٤-٢٥.

(٢) إتعاظ، ص ٩٨-٩٩.

(٣) ابن حماد، ص ١٢.

(٤) عريب بن سعيد، صلة تاريخ الطبرى، ص ٥٣؛ إتعاظ، ص ٩٩-١٠٠؛ الكامل، ٦ ص ١٤٩-١٥٠.

(٥) الخطط، ١ ص ٢٨١.

(٦) نفسه، ١ ص ٢٨١؛ البهان، ١ ص ١٨١. إتعاظ، ص ١٠٣-١٠٤؛ العبر، ٤ ص ٣٩؛ مسكويه،

تجارب، ١ ص ٧٢.

ولى العهد لغزو مصر، وقد صحبه جوذر^(١)، الذى يتلقب بالأستاذ، وترك لنا وصف سيرته مع الخلفاء الفاطميين. فوصل أبو القاسم إلى الإسكندرية فى أسطول من ثمانين مركباً، واستولى عليها فى ٣٠٧/٩١٩، ثم استولى على الجيزة والفيوم. ولكن مؤنس الخادم، سار من جديد فى أسطول الشام ومعه النفط، فقابل أسطول الفاطميين قرب رشيد، وأسر قائد الأسطول الفاطمى. ثم ما لبث أن انتشر الوباء بين جند الفاطميين، وأجبرت الحملة على الانسحاب، وبسبب هذا الانتصار على الفاطميين، أصبح مؤنس يعرف بمؤنس المظفر.

*

ثم توقفت هذه الحملات الكبيرة على مصر؛ بسبب عودة القبائل البربرية إلى التمرد، بحيث إنه عند موت المهدي، اضطر ولى العهد أبو القاسم نزار الذى تلقب بالقائم بأمر الله^(٢) أن يخفى موته وقتاً. فقد كانت القبائل المغربية لا تنظر لحكم الفاطميين بارتياح، وهى التى تعودت على التمتع بحريتها، فضلاً عن الدسائس الكثيرة التى كان يثيرها أمويو الأندلس بين هذه القبائل ضد الفاطميين. فاستمر التمرد من عهد أبى القاسم نزار (٢٢٢-٣٣٤/٨٣٤-٩٤٥)، إلى عهد أبى الطاهر أسماعيل، الملقب بالمنصور بن نصر الله^(٣) (٣٣٤-٣٤١/٩٤٥-٩٥٢).

وبلغ الخطر أقصاه بثورة رجل اسمه: أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتى^(٤)، الذى عرف أيضاً بصاحب الحمار؛ لأنه كان أهدي حماراً فى أول حركته ضد الفاطميين. وكان أبو يزيد على مذهب الأباضية النكارية^(٥)، سموها هكذا لأنهم أنكروا إمامة عبد الوهاب حفيد رستم، مؤسس دولتهم بالمغرب، أو النكاث لأنكثهم

(١) انظر. سيرته، قبله.

(٢) عنه: وفيات، ٣ ص ٤٠٨ وما بعدها.

(٣) انظر، وفيات، 3، P. 272، Ency. de l'Isl, (art. al-Mansûr Ismâ'îl)

(٤) عنه: سيرة جوذر، ٢ ص ٤٤ وما بعدها، ١٥٨، ١٦٥، ١٧٠ وهامش؛ إتعاظ، ص ١٠/٩ وما بعدها؛ ابن حماد، ص ١٨ وما بعدها؛

انظر. Documents inédits sur l'herétique Abû Yezid... J.A. t 20 1852 P. : Cherbonneau 470-510;

Ency. de l'Isl, (art Abû Yazîd) t I, P 115-116.; 2 éd t I, P. 167-68.

(٥) الدرجينى، طبقات المشايخ بالمغرب، ١ ص ٥١.

البيعة له، أو حتى الشغبية لأنهم ادخلوا شغباً -وهى إحدى فرق الخوارج- ولا يزال مذهب الخوارج منتشرراً إلى الآن في الجزائر. ومع أن أبا يزيد عارض الفاطميين منذ ظهور دعوة أبي عبد الله الشيعي، إلا أنه لم يجاهر الفاطميين بالعداء إلا عقب موت المهدي؛ كما اعتمد على تأييد عبد الرحمن الثالث، خليفة الأندلس الأموي، وكان يرسل إليه بأخباره أولاً بأول^(١)، فضلاً عن اعتماده على قبيلة زناتة التي ينتمي لها. وكادت فتنة أبي يزيد تقضى قضاء مبرماً على دولة الفاطميين ووصف لهم باللعين^(٢)؛ بحيث إنه في وقت من الأوقات لم يتبق لهم إلا المهديّة. وتصف لنا سيرة الأستاذ جودر هذه الفترة العصيبة، التي انتهت بفضل مثابرة الفاطميين وأتباعهم بالانتصار على مخلد بن كيداد في وقعة يوم الجمعة^(٣). فقد جاء للفاطميين مدد على غير انتظار من قبائل بربرية جنوبية، وهي قبائل الطوارق أو صنهاجة أو الملتمين القوية، التي كانت في عداء ضد زناتة، التي تؤيد الأمويين وأنصارهم. وقد توفي أبو يزيد متأثراً بجراحه في ١٧ المحرم ٣٣٥/١٩ أغسطس ٩٤٧، وهرب أولاده إلى بلاط قرطبة عند الأمويين.

ومع ذلك، فإن الدولة الفاطمية، لم تغفل خطتها في غزو مصر خلال هذه الفترة، ولم تكن ثورات القبائل البربرية ضدها قد اشتدت بعد. ففي أوائل عهد القائم، يذكر المؤرخون أن القائم كان يخاطب جماعة من المصريين، وأنه أرسل حملة دخلت الإسكندرية في ٩٣٦/٣٢٤، ربما كمدد لحملة كانت أرسلت في آخر أيام المهدي بقيادة حبشى بن أحمد المغربي في ٩٣٣/٣٢١، ومكثت في مصر بعد وفاته. ولكن الخليفة العباسي الراضي بالله وقتئذ، أنفذ إلى مصر أحد قواده الأشداء، وهو محمد بن طغج، الذي كان قد اشترك من قبل مع جيش مؤسس الخادم ضد الفاطميين؛ فيرسل الخليفة العباسي معه جيشاً وأسطولاً، وتهزم حملة القائم^(٤)، الذي ما لبث أن أنشغل وخلفه في إخماد ثورة القبائل البربرية

(١) ابن عذاري، البيان، ٣ ص ٢٢٨ وما بعدها؛ انظر. Hist. Esp. Mus, II, : Lévi Provençal, 10-4.

(٢) إفتتاح الدعوة، تحقيق Dachroui، تونس ١٩٧٥، ص ٦٦.

(٣) انظر. سيرة الأستاذ جودر، ٤٤ وما بعدها.

(٤) البيان، ١ ص ١٨٢.

(٥) الكندي، الولاة، ص ٢٨٤-٢٨٧؛ البيان، ١ ص ٢٠٩، اتعاط، ص ١٠٨. لعلها في ٣٣٣-٣٣٤.

المتمردة، فلم يجدد حملاته على مصر. وقد كان هذا النصر سبباً في أن الراضى منح ولاية مصر لمحمد بن طفج، وأضاف إليها أعمال الشام والحجاز، ولقبه بالإخشيد^(١)، باسم ملوك؛ فرغانة في منطقة ما وراء النهر؛ حيث كان محمد ابن طفج أصلاً من هذه البلاد

*

والواقع إن وقف الحملات على مصر، راجع أيضاً إلى وجود هذا الرجل القوي المعروف بالإخشيد^(٢)، الذي أراد أن يستفيد من مركزه في مصر بين الفاطميين الطامحين في المغرب، والعباسيين الضعاف في المشرق، بزيادة سلطانه في مصر، وجعلها إمارة استيلاء له ولولده من بعده، مثلما فعل ابن طولون من قبل. إلا أن الخليفة الراضى بالله، تيقظ لحقيقة أهداف الإخشيد، فأرسل إليه من قبله، وفي أول الأمر، وزيراً هو جعفر بن القرات؛ ليستطلع الأحوال، ثم أرسل إليه القائد التركي ابن رائق، أقوى شخصية في خلافة العباسيين والمسيطر عليها، فهو أول من اتخذ لقب أمير الأمراء، وهو اللقب الذي أبطل الوزارة^(٣)، وجعل صاحبه المشرف على كل ما في الدولة العباسية. ولكن الإخشيد منح ابن رائق من دخول مصر، وهزمه عند العريش، وأفلت ابن رائق في عدد قليل^(٤)، وقبل صلحاً من الأخشيد، بمقتضاه يصبح الإخشيد في ولاية مصر والشام، وخصوصاً أنه قد ظهر لابن رائق منافسون في منصبه الجديد، مثل: البريديين^(٥)، والحمدانيين^(٦).

وبعد موت الراضى، ومجى المتقى بالله، سعى الإخشيد - وقد قوى مركزه في مصر - إلى نقل الخلافة العباسية إلى مصر؛ فقد أراد أن يقوم بما قام به ابن طولون من قبل. وقد أتت الفرصة للإخشيد الفرصة لما سمع بوصول الخليفة العباسي إلى بلاد الجزيرة، هارباً من القائد التركي توزون^(٧) عند بنى حمدان

(١) البيان، ١، ص ٢٠٩.

(٢) عنه: النجوم، الجزء الثالث؛ cf. Ency. de l'Islam (art. Ikhshidides)

(٣) انظر. قبله.

(٤) يحيى الأنطاكي، (P.O.) ص ٢٧٠ [٢٢].

(٥) انظر. 6-675، I، (art Al-Barfidi) t 1، P. 675-6.

(٦) انظر. 263 sqq، (art Hamdânides) t 2، P. 263.

(٧) يحيى (P.O.) ص ٧٢٢ [٣٥].

بالموصل، وهو القائد الذي كان قد قتل ابن رائق، واستولى على بغداد، واتخذ لقب إمرة الأمراء. فجدد المتقى بالله ولاية مصر والشام للإخشيد ولولده بعده مدة ثلاثين سنة^(١)؛ وإن رفض المسير معه إلى مصر خوفاً من توزون، الذي ما لبث أن قتل الخليفة، لما عاد به من بلاد الجزيرة إلى بغداد، وولى بدله المستكفي، واستمر الحال هكذا إلى أن دخل البويهيون^(٢) بغداد.

وحينما استولى البويهيون على بغداد، وتمكنوا من قتل توزون، وكانوا أسرة فارسية قوية، واتخذوا لقب الملوك، ولم يكتفوا بلقب أمير الأمراء السابق؛ فإن مركز الإخشيد في مصر أصبح في خطر، ولا سيما أن البويهيين كانوا على مذهب الشيعة مثل الفاطميين. فنجد أن الإخشيد يسعى إلى تحسين علاقته بالفاطميين في المغرب؛ فكاتبهم^(٣)، وكان على وشك إلغاء الخطبة للعباسيين، والدعوة للفاطميين، بل وكان سيزوج ابنته من ولي العهد المنصور^(٤). ولكن اضطراب شئون الخلافة في المغرب، بثورة القبائل عليها، جعله يتخذ سياسة الحياد بين الخلافتين؛ فكان يذعن بالطاعة للعباسيين، ويداري الفاطميين، واستمر يحكم مصر إلى أن توفي في سنة ٩٤٦/٣٣٤.

ويبدو أن سياسة الحياد بين الفاطميين والعباسيين نجحت واستمرت بعد الإخشيد. فحينما تولى عبد أسود من بلاد النوبة اسمه كافور^(٥)، الوصاية على ابني الإخشيد، وهما؛ أبو القاسم أنوجور وأبو الحسن علي؛ فإن كافوراً فعل مثلما فعل الإخشيد من قبل؛ فسعى إلى مهادنة العباسيين والفاطميين، ولا سيما أن العباسيين لم يكن يهمهم غير حصولهم على مال مصر^(٦)، وتنعوا بخضوعهم للبويهيين الشيعة. فكان كافور يهادي المعز الفاطمي صاحب المغرب،

(١) نفسه (P.O.) ص ٧٣٥ [٢٧].

(٢) عنهم، انظر. بعده.

(٣) ابن سعيد، المغرب، ط Leyde، ص ٢٥-٢٦؛ انظر. سرور، مصر في عصر الدولة الفاطمية، ص ٢٩-٣٠.

(٤) ابن سعيد، ص ٣٧.

(٥) يحيى (P.O.) ص ٧٧٠ وما بعدها. عنه، انظر. وفيات، ص ٢١٨ وما بعدها. كان أسود اللون، اشتراه الأخشيد بـ ١٨ ديناراً.

(٦) النجوم، ص ٤١ س ١٥.

الذى تولى الخلافة منذ ٩٥٢/٤٥١، ويظهر ميله إليه^(١). بل وجدت في مصر دنانير تذكارية باسم المعز^(٢)؛ وحتى منسوجات^(٣) باسمه أيضاً، وذلك قبل دخول الفاطميين مصر، ولا يمنع الحجاج المغاربة أو دعاة الفاطميين من دخول مصر، وفي أيامه حجت أم المعز الفاطمي، وحضر إليها كافور بنفسه، وبعث في خدمتها أجناده^(٤). وقد جعلته هذه السياسة الحيادية، مسيطراً على شئون مصر، من دون ولدى الإخشيد، بالاتفاق مع أعيان مصر وجندهم^(٥). وبعد موت أبى القاسم وأبى الحسن، الأول في ٩٦٠/٣٤٩، والآخر في ٩٦٦/٣٥٥؛ فإن الخليفة المطيع، الذى كان البويهيون قد ولوه الخلافة بعد المستكفي، أرسل إليه تقليد حكم مصر والشام، ولقبه بلقب الأستاذ، الذى أصبح يوافق لقب أمير. ولكن موت كافور في سنة ٩٦٨/٣٥٧^(٦)، جعل مصر تضيع نهائياً من الإخشيديين، وبالتالي من العباسيين، لتقع في أيدي الفاطميين.

*

وعلى العموم تجددت آمال الفاطميين في فتح مصر في عهد الخليفة الفاطمي الرابع أبى تميم معدّ المعزّ لدين الله^(٧)، الذى تولى بعد المنصور بالله، وخصوصاً أن المعزّ كان ذكياً يتقن لغات متعددة كاللاتينية واليونانية والسودانية، فضلاً عما تمتع به من صفات السياسة والبساطة؛ فهو يوصف بجبار بيت الشيعة^(٨). وأما القائد الذى كفلت له الحملة على مصر، فهو جوهر بن عبد الله^(٩)، المعروف بالرومى أو الصقلى، مما يدل على أن أصله من صقلية، ربما من

(١) نفسه، ٤ ص ٦ س ٥.

(٢) في سنوات ٩٥٢/٣٤١ و ٩٦٢/٣٥١ و ٩٦٦/٣٥٦؛ انظر Lane-Poole: Catalogue, P. 152 no 856.

(٣) دليل المتحف الإسلامي، رقم سجل ١٢٦٥ و ١٦٢٢. في ٩٥٦/٣٤٥ و ٩٦٥ / ٣٥٥.

(٤) نفسه، ٤ ص ٧١ س ١٤.

(٥) نفسه، ٣ ص ٣٢٧.

(٦) نفسه، ٤ ص ١٠. قيل سنة ٢٥٥ و ٢٥٦ أو ٢٥٧ و ٢٥٨١ أو حتى ٢٥٩. وفيات، ٢ ص ١٨٨. بعد موته تولى آخر الإخشيديين أبو الفوارس أحمد بن على بن محمد بن طنج الأخشيدى، وذلك بناء على تقليد ورد نصه في كتاب (الكفاة) وهو مخطوط. عن ذلك: L'Acte de succession de Káfûr d'après Maqrîzî. Annales Islamologiques.: Bianquis T.XII, 1934, P. 263 sqq.,

(٧) عنه وفيات، ٢ ص ٤٤٧ وما بعدها.

(٨) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق العبادى وغيره، ص ٦١.

(٩) مثلاً، على إبراهيم، تاريخ جوهر الصقلى، القاهرة ١٣٥١/١٩٣٢؛

Ency. de l'IsI, (art Djawhar) t I, P. 1058; 2, 6d t2, P. 507-8;

Die Slaven im Dienste der Fâtimiden. Aro, XXI- 1957, 560-71. :Herbek

مكان كان لا يزال فى أيدي الروم، أو أنه عاش وهو طفل فى صقلية فى بيئة رومية. وقد عمل فى بلاط الفاطميين. وعمل فى دواوينهم، وصار فى مرتبة الوزير^(١)، حتى عرف بالكاتب، مما يبين طموحه إلى تحسين مركزه؛ كما عرف بالقائد بسبب أن الفاطميين لم يكن لهم قائد فى مثل كفاءته، وحينما تم فتح مصر لقبه المعزّ بلقب: مولى أمير المؤمنين^(٢)، أى أن المعزّ شديد التمسك به. وكانت هالة النصر تحيط بجوهر منذ أن أرسله المعزّ مرتين ضد قبائل البربر فى سنتى ٩٥٨/٣٤٧ و٩٦٠/٣٤٩^(٣)، واستطاع أن يدين المغرب كله لطاعة المعزّ، حتى أنه اصطاد من المحيط سمكاً، حمله فى قلال؛ بحيث أن ما قام به جوهر لم يكن له مثل منذ أيام عقبة بن نافع، الذى وصل أيضاً فى غزواته إلى المحيط. وفى مرة مرض جوهر، فعاده المعزّ، وقال: هذا لا يموت، وستفتح مصر؛ على يده^(٤).

ولما أطمأن المعزّ إلى سيطرته فى المغرب، حتى أنه قام بنفسه بحملة فى جبال إفريقية، وقضى على عصيان قبائلها المتمردة^(٥)، ووجه نحو الأندلس دعواته، حتى كون الأتباع فيها^(٦)؛ حشد جوهر قائده المظفر المال والعدة^(٧)، وأرسله فى جيش معظمه من المغاربة من قبيلة كتامة ونحوها من طوائف البربر، من العنصر عينه الذى كان يهدد مصر فى أيام الفراعنة، بلغ أكثر من ألف فارس، وهذا العدد لم تر له مصر مثيلاً من قبل، منذ عهد الإسكندر ذى القرنين. كذلك صاحب الجيش أسطول بحرى، ليقضى على أى خطر، قد يأتى من تدخل الروم أى البيزنطيين، الذين كانوا قد بدأوا يطمعون فى استعادة مستعمراتهم التى فقدوها بظهور الإسلام، وتحركهم الأطماع فى أمة الإسلام المنقسمة. وقد قال الشاعر المعروف محمد بن هانىء فى رحيل جوهر، قصيدته المشهورة، ومطلعها:

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع وقد راعنى يوم من الحشر أروع

(١) إتعاظ، ص ١٣٤-١٣٥.

(٢) سيرة جولد، ص ١٣٥.

(٣) الاستقضاء، ص ١٨٢.

(٤) إتعاظ، ص ١٦٢.

(٥) نفسه، ص ١٣٤.

(٦) أنظر. مقالة مكى، التشيع فى الأندلس، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية

بمدريد، عدد ١٩.

(٧) الخطط، ١ ص ١٥٢؛ إتعاظ؛ ص ١٣٤ وما بعدها؛ النجوم، ٤ ص ٤١.

وكان خروج هذا الجيش من القيروان في ربيع الآخر ٣٥٨ / فبراير ٩٦٩، وهي القاعدة الحربية -المصر- التي كان العرب قد اتخذوها من قبل لفتح المغرب، ولكنها الآن تستخدم لفتح المشرق. فخرج الخليفة المعزّ لوداع جوهر. فوقف جوهر أمام خليفته، ليقبل يده وحافر فرسه، فأمره المعزّ، وقال له: إركب، فركب. وقد أصبح خروج الخليفة الفاطمي لتوديع الجيش من تقاليد الفاطميين؛ بقصد منحه البركة^(١)، والدعوة له بالنصر؛ بحكم أن الأئمة الفاطميين مقربون من الله. وعلى العكس، فإن الخليفة طلب من جميع رجال الدولة النزول لجوهر، بما فيهم أولاد المعزّ، كما أن المعزّ بعد رجوعه إلى قصره، أنفذ لجوهر ملبوسه وما كان عليه سوى خاتمه وسراويله؛ وذلك على سهيل البركة أيضاً. فكان هذا الاهتمام الكبير من قبل خليفة الفاطميين؛ يدل على الآمال الكبار، التي عقدها بفتح مصر.

ولم يكن المصريون سعداء في حكم ولاة العباسيين، وكانوا يرغبون في تحسين مركزهم بمجيء الفاطميين، بحيث إن كثيراً من المؤرخين يذكرون أن مجيء الفاطميين إلى مصر كان بناء على دعوة المصريين. فيذكر المقرئ^(٢) أن من أسباب مجيئهم الضنك الاقتصادي الذي ساد مصر بعد موت كافور، مما جعل كثيراً من المصريين يكتبون للمعزّ. فقد وقعت مجاعات، وتعذر وجود الأقوات، وكان جند العباسيين الترك يتحاربون فيما بينهم، فقتل خلق كثيرون وانتهبت الأسواق والبيوت وأحرقت، وضاعت أموال الناس. كما أن شيعة المعزّ بمصر وجدوا الفرصة سانحة، فطلبوا منه إنفاذ العسكر، وقالوا له: وإذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها^(٣)، ويقصدون بالحجر الأسود كافوراً.

ولما وصل جيش المعزّ إلى نواحي الإسكندرية، سارع المصريون بإرسال وفد منهم إلى جوهر، باتفاق جميع طبقاتهم، كالقائد والكاتب والقاضي والتاجر

(١) وفيات، ١ ص ٢١٠.

(٢) إغاثة الأمة، الطبعة الثانية، ص ١٢.

(٣) إتعاظ، ص ١٤٦-١٤٧؛ النجوم، ٤ ص ٧٢ س ١٥-١٧ (يقول الدنيا كلها).

والمسلم والقبلي، وذلك بتروجة^(١) بلدة قرب الإسكندرية. فكتب لهم جوهر كتاباً طويلاً^(٢)، التزم فيه بأن يحترم ملة أهل مصر- يقصد المذهب السنّي^(٣)- إذ الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، والأ يتعرض لأملاكهم، وأن يعتنى بأحوال بلادهم الاقتصادية بتجويد العملة، وأن يجاهد الروم الذين غزوا في الشام وبلاد الجزيرة، وأن يؤمن الحج، الذي انقطع بسبب الفوضى التي كان الحجاز يعيشها.

ولكن أتباع الدولة العباسية من الإخشيديين صمموا على المقاومة، وكان يقودهم رجل اسمه فاتك، الذي تلقب هو الآخر بالأستاذ^(٤)؛ مما يدل على أنه كان في مركز الرئاسة في مصر مثل كافور، وقالوا: ما بيننا وبين جوهر إلا السيف- فقطعوا جسور الجزيرة، وانتظروا جوهرأ وجيشه بمنية شلقان، شرق القناطر الخيرية. فعبر البربر إليهم بقيادة جعفر بن فلاح^(٥)، أحد رجال جوهر، ومن أكبر قواد المعزّ. وقد سهل المصريون لجيش جوهر التغلب على بقايا الإخشيدية والكافورية- ومعظمهم من الترك- في ناحية الجزيرة، فجعلهم يحرسون له شاطئ النيل من ناحيته^(٦)؛ بحيث اضطرت الإخشيدية والكافورية إلى الهروب إلى الشام.

وحيثما دخل جوهر الفسطاط عاصمة البلاد بطبولة وجنوده في منتصف شعبان ٣٥٨/٥ يوليو ٩٦٩، نشر كل من كان عنده بند من المصريين بنداً، عليه اسم المعزّ لدين الله. ولما طالب المصريون جوهرأ بتجديد الأمان جده^(٧) لهم؛ كما

(١) معجم البلدان، ٢ ص ٢٨٤.

هذه القرية، كانت موجودة لغاية القرن التاسع الهجري، حيث ورد اسمها في كتاب التحفة السنّية لابن الجيعان (طبعة بولاق، ص ١٢٤)؛ وقد جعلها بقرب أبي المطامير بالبحيرة.

(٢) إتعاظ، ٢ ص ١٤٨ وما بعدها.

(٣) يعتبر المعزّ نفسه محبباً سنة محمد، الذي هو من سلالة، إذ لدينا عملة سكّت في عام ٩٥٢/٣٤٢، منقوش على أحد وجهيها: محبب سنة محمد. انظر. Launois :

Catalogue. B.E.O. t XXIV. Damas, 1971, P. 30.

(٤) سير الأباء، ٣ ورقة ٢٨ ب.

(٥) إتعاظ، ص ١٥٥ وهامش (٢). عنه: وفيات، ١ ص ٢٠٠.

(٦) وفيات، ١ ص ٢١١.

(٧) إتعاظ، ص ١٥٦.

كتب لأهل الريف والصعيد أماناً ثالثاً^(١)، ونص على إجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه. وبذلك أخذ جوهر مصر بلا معانعة كما لاحظ السيوطي^(٢)، وانتهى الحكم العباسي في مصر بعد أن استمر حوالي ٢٣٥ سنة^(٣)، وقال ابن هاني؛ للشاعر في هذه المناسبة:

يقول بنو العباس هل فتحت مصرٌ فقل لبني العباس قد قضى الأمر^(٤)
 باتِ المصريين في أمان، فلما أصبحوا وحضروا للتهنئة في المكان، الذي
 نزل فيه جوهر وجنوده، وهو ما عرف بالمناخ السعيد، وجدوا أنه وضع أساس
 عاصمة جديدة^(٥)، بما فيها الجامع والقصر، وأنه حفر الخندق، وأدار سوراً
 سمياً من اللبن - الطوب - كما اختطت كل قبيلة من القبائل المغربية التي جاءت
 معه حارة أو مكاناً لها، عرفت باسمها. هذه المدينة التي أنشئت خلف الفسطاط،
 بجوار جبل المقطم، سماها جوهر أول الأمر المنصورية، ربما تقرباً إلى سيده
 وخليفته المعز، بإحياء ذكرى والده المنصور، فظلت تعرف بذلك حتى قدم المعز،
 فسماها القاهرة، تفاؤلاً بأنها ستقهر الأعداء^(٦)، ولا سيما أن المؤرخين نسبوا
 تسمية القاهرة إلى ظواهر فلكية. فكثير من المدن الإسلامية نشأت إثر تعويذات
 فلكية، وهي المدينة التي سماها الأوربيون بالأحرف الأولى: "Cairo" أو "Le
 Caire"؛ كما نسبت إلى المعز نفسه، فسميت أيضاً: القاهرة المعزية، أو حتى

(١) ابن حماد، ص ٤١.

(٢) حسن المحاضرة، ٢ ص ١١.

(٣) النجوم، ٤ ص ٢٥ س ٤-٥.

(٤) ديوان ابن هاني، تحقيق زاهد علي، بيروت ١٣٢٦ هـ، من ٨٦-٨٧.

(٥) نفسه، ٤ ص ٢٤ وما بعدها؛ إتعاظ ص ١٥٨ وما بعدها؛ الخطط، ٢ ص ٢٠٤-٢٠٥؛ انظر. كرزويل، تأسيس القاهرة، الترجمة للسيد محمد رجب، المكتف ١٩٢٤ (نوفمبر وديسمبر)؛

Ency. de l'Isi, (art. le Caire) t I, P. 841 sqq.

(٦) ينفي المعز بشدة في حديث له فائدة التنجيم إلا في العلم؛ مما يدل على بطلان هذا الرأي، فقد نقل عن المعز: « من نظر في علم التنجيم ليعلم عبد الستين والحساب، ومواقبت الليل والنهار، ويعتبر بذلك؛ عظيم قدرة الله عز وجل، وما في ذلك من الدليل على توحيده جل ذكره ولا شريك له؛ فقد أحسن وأصاب، ومن تعاطى بذلك علم الغيب والقضاء بما يكون، فقد أساء وأخطأ». وقوله: « إن أباه - المنصور - عانى من الصروب كثيراً، فما كان ذلك باختيار من علوم التنجيم، ولا التفت إليه، وإنما علم التنجيم هو القدرة على خلق الله». عيون الأخبار، ٧/٦ ورفات ٢٦٦-٢٦٨؛ وفيات، ٣ ص ٦-٥.

مدينة^(١) المعز، كما تظهر في نقوش العملة. فكانت القاهرة رابع عواصم مصر منذ الفتح العربي، وهي: الفسطاط والقطائع والعسكر (المعسكر)، ثم القاهرة. وكلها توجد تقريباً في مكان عاصمة مصر القديمة منف عند رأس الدلتا؛ وإن قامت جميعها في شرقي النيل وليس في غربه كمنف؛ حيث شبهت القاهرة بزر مروحة الدلتا "Bouton de l'éventail"؛ لوقوعها عند ملتقى فروع النيل وقنواته^(٢)، أو حصر للنيل الرشيق. ومع ذلك؛ فإن القاهرة على عكس العواصم الإسلامية المصرية نشأت من أول أمرها لتكون مدينة، وليست معسكراً. وقد كان بناء عاصمة جديدة دائماً يعني قيام دولة جديدة؛ فكان بناء القاهرة في مصر يعني قيام خلافة الفاطميين في مصر.

*

ولكن انتصار جوهر في مصر، وإنشاء القاهرة، لم يكن يعني أن الفاطميين أخذوا مصر نهائياً. فبقايا الإخشيديين الذين انهزموا في مصر، قد انتقلوا إلى الشام بقيادة الحسن بن طنج، أخى الإخشيد، وعرف بالأستاذ أيضاً. ومع ذلك؛ فإن خطر هؤلاء لم يكن كبيراً؛ بحيث إن الحملة التي أرسلت خلفهم، بقيادة جعفر بن فلاح، هزمتهم في بلدة الرملة^(٣)، وأسر الحسن بن طنج، ودخل جعفر دمشق في ٩٧٠/٣٥٩.

ولكن الخطر الذي أصبح يهدد انتصار الفاطميين في مصر، وسيطرتهم الأولى في الشام، أتى من قبل قبائل عربية كثيرة خرجت من البحرين بتحريض العباسيين، الذين هالهم انتصار الفاطميين في مصر، وزحفهم إلى الشام، وكان عرب البحرين أول أمرهم قد اعتنقوا مذهب الإسماعيلية؛ فنعرف أن الدعوة الإسماعيلية الأولى خرجت من الكوفة المجاورة للبحرين، وأنه أرسل منها الدعوة إلى كل الأقاليم الإسلامية، وهي ما كانت تعرف للأتباع بالجزائر، مفردتها جزيرة، أي إقليم تقام فيه الدعوة الإسماعيلية. وقد كانت هذه الدعوة في الأقاليم تتكيف على حسب كل بيئة، وتتسمى فيها بأسماء متعددة، أو حتى على اسم دعائها^(٤)، كما في البحرين. فانتشرت الدعوة الإسماعيلية في البحرين على يد

(١) انظر. Miles: Fatimid Coins. Amer Num. Soc New York L I (1951) P.15.

(٢) انظر. Casanova. La Citadelle du Caire. M.M.A. F. T.VI, Fasc 4,5. Paris, 1894, P. 524.

(٣) إتعاظ، ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٤) الملل، ص ١٤٧.

دعاة منهم: الحسين الأهوازي، ومهرويه، وعبادان^(١)، وعلى الأخص حمدان ابن الأشعث^(٢)، وهو أخو عبادان الذي قتل، وعرف بقرمط، وذلك في حوالي سنة ٢٧٧/٨٩٠؛ بحيث عرف أتباعه في البحرين بالقرامطة نسبة إليه، وعرفت الدعوة بالقرمطية. وقيل إنه عرف بقرمط لقصر قامته أو قصر رجله، أو لأنه في سيره كان يقرمط أى يقارب بين خطواته، أو لأن بشرته وجهه كانت حمراء تشبه القرمذ، وهو الطوب الأحمر (الأجر). ويقول المستشرق "Ivanow"، إن كلمة قرمط كانت معروفة عند أهالي بلاد البحرين، ومعناها فلاح، كناية عن أن دعوة الإسماعيلية كانت بين الفلاحين في السواد أي العراق. وكان حمدان قرمط يدعو للأئمة الفاطميين، ويجمع باسمهم الضرائب المذهبية، مثل: الفطرة لأخذها في عيد الفطر، والنجوى أو النجاوى^(٣) كناية عن السرية، والهجرة بمعنى هجرة الأتباع له، ويرسلها إليهم. ولكننا لا نعرف شيئاً مفصلاً عن تطور الدعوة الفاطمية على يد حمدان قرمط هذا؛ إلا أنه أقام في كل قرية من قرى البحرين داعية؛ مما يدل على نشاطه الزائد.

ولما خلفه في الدعوة أبو سعيد الحسن بهرام الجنابي^(٤)، الذي هو من أصل فارسي، وينسب إلى جنابة على الخليج العربي، وكان قد أخذ الدعوة من قرمط هذا، بذل هو الآخر مجهوداً كبيراً للدعوة. وقد أوجد أبو سعيد نظاماً حربياً بجانب الدعوة بمقتضاه كون جيشاً قوياً، فكان يجمع الرجال وحتى الأطفال، ويدريبهم على ركوب الخيل والقتال. ولما شعر أبو سعيد الجنابي بقوته، استولى على هَجَرَ^(٥)، عاصمة البحرين، وهي بين البصرة وعمان، وبنى مدينة بالقرب منها عرفت بالأخساء^(٦) في ٢٨٦/٨٩٩. وبذلك أنشأ أبو سعيد أول دولة للفاطميين، قبل أن تظهر خلافتهم بالمغرب، وكان وقوع هذه الدولة الجديدة على

(١) إتمام، ص ٣٠-٣١، ٢٠٤ وما بعدها، ٢٢٤.

(٢) نفسه؛ الكامل، ٦ ص ٦٩-٧١؛ انظر.

Ency. del'Isl, (art. Karmates) t 2 P. 813 sqq. ; (art. Hamdan Karmat) 2, 6d t 3. P. 126.

(٣) إتمام، ص ٢١٠؛ ابن أبيك، الدرر، ٦ ص ٤٨.

(٤) نفسه، ص ٢١٤؛ نفسه، ٦ ص ٥٥ وما بعدها وهامش. عن جنابة، انظر. معجم البلدان، ٣ ص ١٤٢-١٤٣.

(٥) عنها؛ معجم البلدان، ٨ ص ٤٤٥-٤٤٦.

(٦) عنها، نفسه، ١ ص ١٣٦-١٣٧. يقول إن الذي جعلها عاصمة، هو أبو طاهر.

طريق التجارة إلى الهند، سبباً في أن تمكنت من الاحتفاظ بكيانها. وقد استطاع أبو سعيد أن يقضى على جيوش العباسيين، التي أرسلت نحوه في ٢٨٩/٩٠٢، كما أرسل جيوشه إلى الشام^(١) في أواخر أيام الطولونيين، ربما لتسهيل خروج المهدي إلى المغرب^(٢)؛ وذلك بقيادة الحسين بن زكرويه بن مهرويه في ٢٩٠/٩٠٣، الذي اعتمد على البدو بصفة خاصة. ولكن جيوش الخلافة العباسية، بقيادة محمد بن سليمان الخادم، تمكنت من قهر القرامطة في الشام، والقبض على زعيمهم الحسين بن زكرويه في ٢٩١/٩٠٤^(٣).

ولما قتل أبو سعيد على يد خادمه بالأحساء في ٣٠١/٩١٤، وربما بتحريض من المهدي، إذ أن أبا سعيد كان قد تقرب من العباسيين؛ فإنه تولى بعده ابنه أبو طاهر سليمان^(٤)، بناء على رأى المهدي، الذي كان قد أقام خلافته بالمغرب^(٥)، فأرسل المهدي إليه تقليد التولية من المهدية، وبهذا تأكد خضوع القرامطة من جديد للدعوة الفاطمية. وفي خلال المدة التي وليها أبو طاهر (٣٠٥-٣٣٦/٩١٤-٩٤٣)، عمل أشياء تؤيد إخلاصه هو الآخر للفاطميين. فسار نحو الكوفة^(٦)، سنة ٣١٥/٩٢٧، وتوغل في العراق وهدد بغداد، ووصل إلى الشام حتى حدود مصر، التي كان الفاطميون من ناحيتهم يعملون على إرسال الحملات عليها. ولكن الخليفة العباسي، أرسل قائده مؤنس الخادم؛ كما استعان بالحمدانيين وغيرهم في طرد جيش أبي طاهر من الشام.

كذلك كان أبو طاهر يعمل على التقليل من هيبة الخلافة العباسية بالإغارة على قوافل الحجاج والفتك بها، ويعامل من يخطفهم من الحجاج كأسرى^(٧)؛ بحيث امتنع الناس عن الحج. وقد بلغت الجراءة بأبي طاهر أنه استلب الحجر

(١) إتعاظ، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) انظر. Rise, P. 75 sqq.

(٣) إتعاظ، ص ٢٢٩ وما بعدها.

(٤) نفسه، ص ٢٢١؛ المبر، ص ٨٨-٨٩؛ انظر . حسن ابراهيم، عبید الله، ص ٢١٧ وما بعدها؛ Carmathes t 2, P 69. : de Goeje

(٥) النويري، نهاية الأدب، ٢٢ وقرات ٧٤-٧٥.

(٦) الكامل، ٦ ص ١٧٧.

(٧) نفسه.

الأسود من الكعبة فى سنة ٣١٧/٩٢٩^(١)، وقلع بابها وحتى الميزاب^(٢)، وخلع كسوتها وقسمها على أصحابه؛ وذلك ليظهر أن الخليفة السنى لم يعد يستطيع شيئاً، وأنه لا جدوى من بقائه. وقد حاولت الخلافة العباسية إغراء أبى طاهر بالمال لرد الحجر الأسود^(٣)؛ إلا أنه رفض، وقال: إنا حملناه بأمر من الإمام، وإنما نرده بأمره أو أمر وليه^(٤)، لعله يقصد ولى العهد. ولدينا رده على الخليفة العباسى بقوله: أنت أمير الفاسقين، أولى بك من أمير المؤمنين. وعلى العكس، لدينا نص آخر، يبين امتعاض المهدي من تصرف أبى طاهر بأخذ الحجر الأسود، حتى أنه أرسل إليه رسالة يلومه على أخذه، ويدعوه إلى رده إلى مكانه^(٥). وفعلاً رد أبو طاهر الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة، بعد أن كان قد احتفظ به فى جامع الكوفة. وعلى كل حال، بفضل أبى طاهر، نجد أن الدعوة الفاطمية ذاعت فى جميع أنحاء الجزيرة العربية. وبعد موت المهدي اعترف أبو طاهر بخليفته القائم، واستمر على ولائه للدعوة الفاطمية.

ولكن بعد موت أبى طاهر، نجد أن الدعوة فى البحرين، لا تسير بذات التضامن السابق مع الدعوة الفاطمية. فقد وجد فى البحرين فريق مناهض للفاطميين، وهو الفريق الذى تزعمه أبناء أبى سعيد مؤسس دولتهم - إخوة أبى طاهر - ولا سيما أن أبى طاهر لم يترك إلا أبناء صغاراً. يضاف إلى ذلك أن الظروف السياسية كانت قد تغيرت، بظهور البويهيين فى العراق، وهم شيعة أيضاً، وإن كانوا على مذهب مخالف للمذهب الفاطمى، فطمح أبناء أبى سعيد فى تخفيف ولائهم للفاطميين. فنجد أحمد بن أبى سعيد يتولى الوصاية على سابور بن أبى طاهر، الذى ربما قد أوقف الخطبة للفاطميين، وجعلها للعباسيين^(٦). وقد استمرت هذه الأحوال العدائية من قبل القرامطة للدعوة الفاطمية قائمة إلى

(١) قطب الدين، كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق Wust، ص ١٦٢.

(٢) عريب بن سعيد، ص ٩٥.

(٣) العبر، ٤ ص ٨٩.

(٤) نفسه، ٤ ص ٢٢٤-٢٢٥؛ الكامل، ٦ ص ٢٣٥.

(٥) الكامل، ٦ ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٦) صبح، ص ٢٦٨.

سنة ٣٥٨/٩٦٨، وهى السنة التى غزا فيها الفاطميون مصر. ومع ذلك، فإن أحمد لم يقطع صلته نهائياً بالفاطميين، بحيث كان يرسل المنصور والمعز^(١).

ولكن بعد موت أحمد بن أبى سعيد، ظهر ابنه الحسن^(٢)، المعروف بالأعصم أو الأعظم، الذى تولى أيضاً وصاية سابور؛ فإن الدعوة القرمطية فى عهده كشرت نهائياً عن أنيابها للفاطميين، وعادتهم معاداة شديدة. فبدأ الحسن الأعصم بقتل سابور بن أبى طاهر، والإيقاع بأتباعه، وتولى بنفسه حكم القرامطة، وسمى أنصاره باسم: «السادة الراجعين إلى الحق»، أى أنهم لم يعودوا من شيعة الفاطميين. وتحت تحريض العباسيين، خرج فى جمع كبير من أعراب البحرين، ومعهم بنو هلال وبنو سليم^(٣)، وهى قبائل رحالة على أطراف العراق والشام، يدفعهم فى الغالب الفقر للاستيلاء على مصر الغنية، والرغبة فى الحصول عليها من المغاربة، بعد أن نقل الفاطميون خلافتهم إليها، واستولوا على الشام. ويقول المؤرخ ابن القلانسي^(٤): إن القرامطة انزعجوا من استيلاء المغاربة على الشام، وخصوصاً أن الحسن بن طفج، كان قد قرر لهم بعض ما لها؛ كما اتفق الحسن الأعصم مع البويهيين^(٥)، الذين استقروا فى بغداد، ومع الحمدانيين^(٦) فى شمال الجزيرة والشام، إذ أنهم جميعاً كانوا يخافون من الفاطميين. وفوق ذلك انضم إليهم بقايا الإخشيديين، وكثير من عرب الشام. ويظهر حماس الأعصم فى قتال الفاطميين من أنه أرسل أيضاً المراكب، التى لعلها جاءت فى البحر الأحمر؛ حيث كان القرامطة يسيطرون على الجزيرة العربية من أيام أبى طاهر.

فخرج هذا الجمع الكبير، المتعدد الأغراض، يحمل رايات الخليفة العباسى المطيع لله. وفعلاً نجح الأعصم فى طرد جيش الفاطميين من الشام، وقتل قائده

(١) إتعاظ، ص ٢٥٠.

(٢) ابن حماد، ص ٤٦.

(٣) إتعاظ، ص ١٨١؛ العبر، ٦ ص ١٣، ٧٢، ٧٣؛ أنظر.

Ency. de l'Isi, (art. Hilâl) t 2. P. 35-6; (art. Soulaïm) t4, P. 542.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ١.

(٥) النويرى، نهاية، ٢٣ ورقة ٩٥، وبمعه.

(٦) النجوم، ٤ ص ٣٢٦.

جعفر بن فلاح الكتامي بدمشق في ٣٦٠/٩٧١^(١)، وأمر بلعن المعز وأظهر التشكيك في نسب الفاطميين إلى بيت علي وفاطمة. ثم تقدم إلى مصر، واحتل الفرما، مفتاح الديار المصرية، ووصل أمام القاهرة في أوائل ٣٦١/٩٧٢. ولكن أنقذ الفاطميين سور القاهرة السميكة، وخذلها الذي كان جوهر حفره حولها، ومساعدة أبناء مصر بالذات. فيقول المقرئزي^(٢) إن جوهر فرق السلاح على المصريين، مما يدل على تمسك المصريين بخلفاء الفاطميين، وهم الذين دعواهم للمجيء إلى مصر؛ كما ذكرنا. ويبدو أن الفاطميين تمكنوا من إشعال ثورة ضد الأعصم في البحرين؛ بحيث اضطرت القرمطي إلى الانسحاب من مصر، يلاحقه جوهر إلى يافا^(٣)، التي كانت قد بقيت فيها حامية فاطمية قاومت الأعصم وقت زحفه على مصر؛ وإن بقي القرامطة في دمشق.

فأسرع المعز بإرسال المدد إلى جوهر، ولم يلبث أن جاء بنفسه إلى مصر في ٧ رمضان ٣٦٢/١٢ يونية ٩٧٣^(٤)، -أي بعد حوالي أربع سنوات من فتح الفاطميين لمصر- حاملاً معه توابع آباءه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله، دلالة على عزيمته النهائية على نقل الخلافة لمصر، وذلك على الرغم من أن خطر القرامطة لم يقض عليه نهائياً. وقد سعى المعز عن طريق الدبلوماسية، من أن يمنع محاولة ثانية للحسن الأعصم من غزو مصر، وكان يسميه اللعين^(٥) القرمطي؛ فقد أرسل إليه كتاباً يبين فيه أن أبا سعيد وأبا طاهر كانا يدينان بالطاعة للأئمة الفاطميين؛ وأن أصل الدعوة الفاطمية والقرمطية واحد، وليس من السياسة في شيء أن ينضم إلى أعداء الفاطميين، ودعاه إلى طاعته^(٦). ولكن القرمطي كان مصمماً على القتال وإخراج الفاطميين من مصر؛ فجاءها في جحافل كثيرة في ٣٦٣/٩٧٤، ومعها هذه المرة كثير من عرب الشام من قبائل الطائيين؛ حيث كان

(١) وفيات، ١ ص ٢٠٠؛ إتعاظ، ص ٢٤٨-٢٤٩؛ انظر أيضاً؛ حسن إبراهيم وطه شرف، المعز، ص ١١٥ وما بعدها؛ Fatimiden und Bahrain- Qarmaten. Islam, XXXIV, Madelung, ص 62 sqq. 1959.

(٢) إتعاظ، ١٨٠. يقول: المغاربة والمصريين.

(٣) نفسه، ص ٢٥٠.

(٤) ابن أبيك، الدرر، ٦ ص ١٤٠. يقال أيضاً في شوال سنة ٣٦٠/ أغسطس ٩٧٢.

(٥) المجالس المسائرات، تحقيق، ١ ص ٢٢٠.

(٦) إتعاظ، ص ٢٥١ وما بعدها.

العداء بين عرب الشام والبربر- كما نعرف- متأسلاً منذ أيام الأمويين، الذين حاربوا البربر بقسوة. فأرسل المعزّ لحرب القرمطى ابنه عبد الله، ومعهم المظلة شعار الخلافة الفاطمية وإحدى آلاتها الملوكية؛ كما أرسل في الوقت ذاته إلى حسان بن الجراح زعيم الطائيين، لإغرائه على ترك مساندة القرمطى، مائة ألف دينار، مصنوعة من النحاس، جعلها في أسفلها الأكياس، بعد أن وضع في رؤوسها الدنانير الذهب الخالص^(١). فلما نشب القتال انسحب حسان على حسب الإتفاق، فقوى جيش المعزّ على القرمطى، الذي انسحب من جديد إلى الشام. ومنذ ذلك الوقت، توقف خطر القرامطة على مصر، وإن لم يتوقف خطرهم على الشام.

* * *

وبذلك خلصت مصر للفاطميين، واستقرت خلافتهم ثابتة الأركان بالقاهرة قاعدة ملكهم، وأخذوا يتتابعون فيها إماماً بعد إمام.

(١) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٢؛ ابن أبيك، الدرّة، ٦ ص ١٥٩؛ ابن الفلانسى، ذيل، ص ٣؛ النجوم، ٤ ص ٧٥.

الفصل الرابع

السياسة الجربية

أهدافها-

الشام- العراق-

اليمن وهر العرب من

الخليج الفارسى والحجاز-

السودان- المغرب-

صقلية

السياسة الحربية

بعد أن اطمان الفاطميون على خلافتهم، بدأوا في تنفيذ أهداف سياستهم الحربية، باتخاذ مصر بالذات قاعدة لتحقيق هذه السياسة. فمصر منذ الفتح العربي إلى وقت مجئ الفاطميين، كانت ولاية تابعة للخلافة الإسلامية تنفذ ما تولى عليها المدينة، ومن بعدها دمشق، ومن بعدها بغداد. ولكن الفاطميين جعلوا من مصر خلافة مستقلة استقلالاً تاماً، تقف على قدم المساواة مع أية خلافة أخرى؛ مما جعل لمصر في عهدهم سياسة حربية إسلامية خاصة بها. وبذلك عادت لمصر روح الفراعنة القدامى، حينما كانت مصر مركزاً قوياً لتوجيه السياسة الدولية.

ولم يكن قصد الفاطميين في سياستهم الحربية فرض سيطرة عنصر معين، كما فعل الأمويون حينما كان هدفهم فرض سيطرة العنصر العربي، أو العباسيون الذين قاموا بتأييد الفرس، وغيرهم من الشعوبية، ففي الوقت الذي ظهر فيه الفاطميون، كانت حركة الشعوبية أو القوميات قد اختلفت والروح الإسلامية قد تمكنت من شعوبتها، وجعلتهم إخوة، لا فرق بين عربي وأعجمي؛ بحيث إنه لما ظهرت عناصر جديدة مسلمة، مثل الديلم والترك اندمجت حالاً في هذه الروح الإسلامية. ولكن قصد الفاطميين في مصر، كان اتخاذ مصر الغنية بمالها ورجالها، قاعدة أصيلة في الدفاع عن الكيان الإسلامي.

وكانت الخلافة الفاطمية تعتقد بأن الله قد اختارها لتحكم الأرض كلها، أو على الأقل تكون سيطرتها على دار الإسلام، ويتبين هذا الاتجاه من قول الشاعر ابن هانئ عند مدحه للمعزة^(١): «وأنت معدّ وارث الأرض كلها». كذلك ورد في

(١) انظر. البيت الشعري:

وأنت معدّ وارث الأرض كلها فقد حتمّ مقدور وقد خطّ مكتوب

ويقول ابن هانئ أيضاً:

الا تلطم الأرض العريضة أصبحت وما لبني العباس في عرضها قطر.

ديوان ابن هانئ، تحقيق زاهد علي، بيروت ١٣٥٦ هـ.

خطبة خطيب الجامع العتيق في الفسطاط عند فتح الفاطميين لمصر: (وورثه مشارق الأرض ومغاربها)^(١). فكانت الخلافة الفاطمية تعتقد أن الولاية أي الطاعة في دار الإسلام لا يجب أن تكون إلا للإمام الفاطمي؛ فوجود خليفتين أو أكثر ليس له مكان في عقيدة الفاطميين. فيرى ناصر خسرو^(٢)، الفيلسوف الشيعي، أن حكم الأمة الإسلامية ملك للإمام وليس لغيره أي حق فيه. فهذه الخلافة الفاطمية إذن لا تعترف بالخلافة العباسية في العراق، أو الخلافة الأموية في الأندلس؛ مما كان له أثره في توجيه سياستها الحربية، التي وجدت حتى قبل مجيئها مصر.

كذلك كان الجهاد عنصراً من عناصر السياسة الفاطمية الحربية وهو بطبيعة الحال يكون ضد دولة غير مسلمة. فهذا المبدأ الذي اعتبرته السنة ضرورة؛ فإن الشيعة اعتبرته دعامة من دعائم الإسلام، وركناً من أركانه^(٣). والدولة الإسلامية بصفة عامة، تمنع العلاقات السلمية مع شعب لا يؤمن بعقيدتها^(٤). وكان هذا المبدأ مطلقاً؛ بحيث إن الشريعة الإسلامية تميّز بجلاء بين

(١) اتعاظ، ص ١٦٢؛ انظر، حسن إبراهيم، الدولة الفاطمية، ص ٢٧٤-٢٧٥.

من الطريف أن نورد نص هذه الخطبة التي تدل في كل كلماتها على أهمية مجيئ الفاطميين في إنقاذ المسلمين؛ اللهم صل على عبدك ووليّك، فمرة النبوة، وسليل العزة الهادية المهديّة، عبد الله معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على أبائك الطاهرين وأسلافه الراشدين. اللهم ارفع درجته، وأعل كلمته، وأوضح حجته، واجمع الأمة على طاعته، والقلوب على موالاته، واجعل الرشاد في موافقته، وورثه مشارق الأرض ومغاربها، وأحمد مبادئ الأمور وعواقبها؛ فإنك تقول وقولك الحق ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾. فقد امتعض لدينك، ولما انتفك من حرمتك، ودرس من الجهاد في سبيلك، وانقطع عن الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك ﷺ، فأعد للجهاد عدته، وأخذ لكل خطب أهبتة، فسير الجيوش لنصرتك، وأنفق الأموال في طاعتك، وبذل المجهود في رضاك، فارتدع الجاهل؛ وقصر المتطاول، وظهر الحق، وزهق الباطل؛ فانصر اللهم جهوشه التي سيرها، وسراياه التي ندبها لقتال المشركين، وجهاد الملحدين، والذب عن المسلمين، وعمارة الثغور والحرام، وأزالة الظلم، وبسط العدل في الأمم. اللهم اجعل رايته عالية مشهورة، وعساكره غالبة منصوره، وأصلح به وعلى يديه، واجعل لنا منك واقية عليه.

(٢) انظر، الخشاب وفي كتابه؛

Khachâb : Naciri Khusrâu. Le Caire, P. 256.

(٣) النعمان، دعائم الإسلام، تحقيق أصغر فيضى، القاهرة ١٩٥١، ص ١، ٢٩٩.

(٤) المحقق، شرائع الإسلام، ترجمة Query، كلكتا ١٨٩٩، ص ٢٠ وما بعدها.

نوعين من البلاد: بلاد الأعداء وتسمى دار الحرب، وبلاد المسلمين وتسمى دار الإسلام^(١). والذي جعل الفاطميين يتمسكون بالجهاد هو أن خلفاء المشرق كانوا قد أهلكوا، فكان الخلفاء العباسيون يلجأون إلى الهدنة مع أعداء الإسلام، يتقربون منهم، ولا سيما مع بيزنطة أو الروم، عدوة الإسلام الأولى في ذلك الوقت؛ حيث عرف ملكهم^(٢) طاغية الروم. بل إن ضعف العباسيين، جعل هؤلاء يقيمون بينهم وبين الروم دولة حاجزة (Etat Tampon) (Buffer State)؛ تقوم بالجهاد لحسابهم، وهي دولة الحمدانيين، التي قامت في منطقة الثغور الشامية والجزرية، وهي أسيرة كانت تولت إمرة الأمراء في بغداد. وقد استفاد الروم من ضعف العباسيين، وعملوا على استعادة أملاكهم التي كانت لهم في الشرق قبل الفتح العربي؛ فقد كانوا يعتبرون أنفسهم الحراس للمسيحية في الشرق، بل إن هذه الدولة منذ نشأتها، كانت تعتبر إمبراطورها هو البابا Casarapapiso. وخصوصاً أن الروم كانوا قد سبوا مشاكلهم مع جيرانهم من الروس والبلغار، بحيث إن غارات الروم في بلاد الإسلام وقت ظهور الفاطميين، أصبحت تمثل خطراً شديداً على بلاد الإسلام، واتخذت مظهر نزاع ديني بين المسيحية والإسلام، وهو الذي تطور إلى الحروب المعروفة بالحروب الصليبية. معنى هذا أن الثغور الإسلامية، لم يعد فيها عاصم غير أسيرة الحمدانيين، وهذه كانت وسائلها محدودة في المقاومة. ولذلك كان من أسباب مجيء الفاطميين في الشرق، على حسب قول المؤرخ ابن تفرى بردي^(٣)، هو استيلاء الروم على الشام، وكان المعز نفسه لما جاء إلى الإسكندرية، يلحج بالكلام عن الحرب المقدسة، مع جماعة من سكان الفسطاط أتت لاستقباله، فقال^(٤)؛ إنه لم يسر لزيادة في ملك ولا رجال، ولكن سار للجهاد، ويقصد بالجهاد ضد الروم. وحينما كان المعز في المغرب، قبل أن يأتي إلى

(١) أنظر . باسهاب ما قاله: Van Berchem La Propriété Territoriale et l'impôt foncier (Thèse de Leipzig, 1861), P. 8,

(٢) المجالس والمسائرات، تحقيق، ١ ص ١٦٦ .

(٣) النجوم، ٤ ص ٧٢ س ٧؛ أنظر. Canard .

L'Impérialisme des Fatimides et leur Propagande. Annales de l'Inst. d'Et. Or, 6, P. 180.

(٤) وفيات، ط. بولاق، ٢ ص ١٢٤ .

مصر، حث الإخشيد على الجهاد ضد الروم، الذين استولوا على إقريطش -كريت- وحولوها من مسلمة إلى مسيحية، من يومئذ إلى الآن. ولدينا وثيقة^(١) بالعربية؛ تبين تبادل المراسلات بين ملك الروم رومانوس والأخشيد؛ بقصد تصريف التجارة؛ وحتى قبل الأخشيد كان ملوك الروم يرسلون خماوريه^(٢). فضلاً عن أن الفاطميين قاموا بالجهاد ضد الروم وهم في المغرب، بما كانوا يرسلون من أساطيلهم في البحر الأبيض.

وكان عصب الجهاد عند الفاطميين، مثلما كان عند جميع حكام مصر المستقلة، هو جعل قاعدته مصر والشام. ويعتبر الفاطميون أول من عملوا على الوحدة بين القطرين في تاريخ مصر الإسلامية، وذلك على الرغم من دسائس أعداء هذه الوحدة من العباسيين في العراق، أو من عرب الشام أنفسهم، أو حتى من عرب الحجاز؛ بحيث إن جميع خلفاء الفاطميين قاتلوا في سبيل الإبقاء على وحدة مصر والشام. والدليل على تمسك الفاطميين بوحدة القطرين، توحيد العملة، وجعل ميزانيتها واحدة، وتوحيد نظام القضاء وغيره من نظم الدولة. وأكثر من ذلك، نشر دعوتهم في الشام على نطاق واسع، وهي الدعوة التي لا تزال باقية للآن، على الرغم من زوالها نهائياً من مصر. فقد كانت وحدة مصر والشام، هي الأساس لما يجب أن يكون عليه الحال، كلما دق ناقوس الخطر، من قبل أعداء الإسلام.

ولنا أن نقول بوجه عام أيضاً، إن موقع مصر الجغرافي كان يتدخل بالضرورة لرسم سياسة الفاطميين العربية. حقاً إن العالم الذي كان يحيط بمصر قد تغير، فهو لم يعد عالماً بابلياً أو آشورياً أو مسيحياً، وإنما هو عالم إسلامي يرتبط بعضه ببعض بدين واحد ولغة واحدة، ومع ذلك؛ فإن موقع مصر المحوري كان يتدخل دائماً في السياسة العربية لحكام مصر؛ بصرف النظر عن التغيير الذي يحيط بمصر. فهو يجعلهم يتجهون دائماً إلى الشرق، أكثر من اتجاههم إلى المغرب، وذلك لوجود صحارى واسعة في غرب مصر. ونلمس هذا الاتجاه في

(١) ليس لدينا نص رسالة ملك الروم للإخشيد، وعلى العكس لدينا رسالة الأخشيد لملك الروم. انظر. الوثائق السياسية والإنارية، بيروت ١٩٧٨، ص ٥ وما بعدها.

(٢) صبح الأمشى، ٧ ص ١٦.

سياسة حكام مصر المسلمين، أنصاف المستقلين، من الطولونيين والإخشيديين، وذلك قبل مجئ الفاطميين من المغرب. وعلى العكس؛ فإن حكام مصر الإسلامية، لم يهتموا اهتماماً كبيراً بجنوب مصر في السودان مع أنه كان الشغل الشاغل لحكام مصر القدامى، وذلك لأن السودان بقى مسيحياً في العصور الوسطى، ولم يشارك المنطقة في إسلامها واستعراؤها. ولكن اهتمام حكام مصر الإسلامية، اتجه على الخصوص نحو الجزيرة العربية؛ في جنوب شرق مصر، لأنها كانت أرض الإسلام الأولى، وأصبحت الخلافة لا تأخذ صفتها الشرعية؛ إلا إذا ذكرت في الحرمين؛ مكة والمدينة.

ونستطيع أن نلمس القوة في تحقيق أهداف السياسة الحربية الفاطمية إلى النصف الأول من حكم الفاطميين في مصر، وبالتحديد إلى عصر الخليفة المستنصر بالله، وهو الخامس من خلفائهم فيها. ولكن لما ضعفت الخلافة الفاطمية، منذ هذا الخليفة وبعده -نتيجة لمعاناتها مشاكل داخلية- لم نعد نميز في تاريخها هذه الأهداف الحربية، التي أصبحت بالأولى مهنية فقط على الدفاع عن كيان الدولة.

*

وكان الشّام أو سُورية أهم مكان ظهرت فيه سياسة الفاطميين، إذ أنه بالنسبة لحكام مصر المسلمين، منطقة أمان لملاصقته أرض مصر، وميدان لجهاد أعداء الإسلام، لوجود الثغور الإسلامية على حدوده الشمالية، التي تلامس أرض الروم أو بيزنطة، عدوة الإسلام الأولى وقتئذ، ثم لأهمية الساحل الشامي في أي سيطرة بحرية.

وقد واجه الفاطميون كثيراً من الصعاب في الشام، أتت أغلبها من قبل أهل الشام أنفسهم، وهم من سلالة عربية في أغلبها، تتوزعهم قبائل كثيرة، سكنت الشام قبل الفتح العربي الأول؛ وإن تغيرت وضعيتها هذه القبائل قبل الفاطميين، مثل: الطائيين الذين جاءوا إلى الشام^(١) قبيل مجئ الفاطميين بقليل وسكنوا بين

(١) انظر.. Van Oppeheim : Die Beduinen vol 1, Leipzig, 1939

معان وعقبة، وحلوا محل لحم وجذام، وكانت الرملة مركزاً لآل الجراح الذين دمروا في فلسطين حتى هاجر منها بنو عقيل إلى بلاد الجزيرة، والكلبيين وهي قبيلة كثيرة العدد، وبنى كلاب التي لم تكن في غنى الكلبيين، وكانوا امتدوا منذ الأمويين إلى الشمال. الأولى في فلسطين والأردن، والثانية في وسط الشام، والثالثة في شمالها حتى حلب، وقبائل من قيس جاءت مع الفتح العربي من الحجاز، وأقامت في الشمال أيضاً، وقبائل من قيس جاءت مع القرامطة من البحرين، حينما غزوا الشام ومصر، مثل بنو سليم وبنو هلال. ونعرف أن عرب الشام لم يكونوا يرحبون بالفاطميين؛ بسبب أن معظمهم كان على المذهب السني المعادي للمذهب الفاطمي، ولأنهم كانوا من قبل سندن الخلافة الأموية، عدوة بنو هاشم، الذين ينتسب الفاطميون إليهم. وفوق ذلك؛ فإن الفاطميين في أيامهم الأولى، اعتمدوا في فتحهم للشام على عسكر من المغاربة، الذين اعتبروا أعداء تقليديين لعرب الشام وقت الفتوحات الأموية؛ حيث أرسل الأمويون نحو المغرب جيوشاً عربية كبيرة مدة أربعين سنة أو أكثر إلى أن تم لهم فتح المغرب والسيطرة عليه. لذلك وجدنا قبائل الشام تتحالف مع القرامطة، لما غزوا الشام في سنة ٢٥٩/٩٧٠^(١)؛ بل ساعدوهم في غزو مصر أيضاً.

ثم أن هناك بقية الحمدانيين^(٢)، في شمال الشام وبلاد الجزيرة المجاورة، وهم أسرة أرستقراطية من قبيلة تغلب- أعظم قبائل ربيعة- ولم تكن معروفة أيام الأمويين، ولكن ظهرت أطماعهم بضعف العباسيين، فسعوا إلى الحصول على إمرة الأمراء- وهو الحكم المطلق- في بغداد، ثم أقطعتهم الخلافة العباسية نواحي حلب^(٣) في شمال الشام، وبعض بلاد الجزيرة، للتخلص منهم، على أن يحموا ثغور المسلمين فيها، وسعى الحمدانيون إلى الاستيلاء على دمشق أيضاً، وإن فضل أهل دمشق بقاءهم مع حكام مصر^(٤). ومع أن الحمدانيين من العرب،

(١) انظر. قبله.

(٢) عنهم؛ وفيات، ٢، ص ٦٦-٧٠؛ انظر. Canard.

Historie de la dynastie des H'amd'anides de Jazîra et de Syrie cf.

(٣) حلب مدينة قديمة من بناء السلوقيين، ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق سركييس، بيروت ١٩٠٩، ص ٤٨ وما بعدها.

(٤) ابن العميد، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

وتحيط بهم قبيلة بنى كلاب العربية؛ فإنهم اعتمدوا في حكمهم على الترك، كما يفعل خلفاء بغداد.

وفي وقت ظهور الفاطميين، كان الحممانيون في حالة سيئة، فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن ثغور الإسلام كما يجب، بسبب التنازع فيما بينهم. ففي الجزيرة كان النزاع بين ناصر الدولة بن حمدان، وابنه أبي تغلب، وفي الشام بعد موت سيف الدولة بن حمدان في ٩٦٧/٣٥٦ - مؤسس دولتهم بالشام - الذي اشتهر بفروسيته، وحروبه مع الإخشيد حاكم مصر، تولى ابنه أبو المعالي سعد الدولة، وكان صغير السن، فعمل قائدان من الترك، وهما: قرغوية، وبكجور، في السيطرة على الدولة من دونه، فعين الأول نفسه وصياً على الأمير، والآخر قائداً للجنود^(١)؛ حيث عمل قرغوية على إخراج سعد الدولة من حلب في ٩٦٩/٣٥٨^(٢)، كما أخرج بكجور بعد حروب بينهما؛ وإن اصطلحا بعد ذلك، وحكما معاً بدون إخلاص كل منهما للآخر. هذا فضلاً عن أطماع أبي تغلب عم سعد الدولة في ضم أملاك ابن أخيه.

ثم إن الحممانيين انغمسوا في حياة الترف، فكانوا يبنون قصوراً فخمة، مثلما فعل سيف الدولة، الذي حول نهر قُوبُق^(٣) - نهر مدينة حلب - وأطافه بقصره، وكانوا يتخذون الجوارى الجميلات من بنات الروم^(٤)، ويجتمع بهابهم الشعراء وشيوخ العصر ونجومه^(٥) مثل: المتنبى والوأياء وابن جن وابن نباتة وغيرهم، ولذلك وجدنا المعزَّ الفاطمي حينما سير جوهراً لفتح مصر والشام، حذره من بنى حمدان، ولا يتحالف معهم أو حتى يرأسلهم؛ ففي رأيه^(٦)؛ يتظاهرون بثلاثة أشياء. وليس لهم فيها نصيب؛ يتظاهرون بالدين وليس لهم

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) الكامل، ٧ ص ٣٤؛ انظر. Canard, H'amd, I, P. 655 sqq.

(٣) تصغير قاق. ابن الشحنة، ص ٦٠، ١٢٤، وما بعدها؛ معجم البلدان، ٧ ص ١٨٨ .

(٤) وفيات، ٢ ص ٦٧ .

(٥) النجوم، ٤ ص ١٦ س ١٠ - ١٢ .

(٦) إتمام، ص ١٤١ - ١٤٢؛ الخط، ٢ ص ١٦٥؛ انظر. Quat .

فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للأخرة. ولا ريب أن عداء الفاطميين للحمدانيين على الخصوص راجع إلى أن الحمدانيين ساعدوا القرامطة في غزوهم للشام ومصر^(١)، لطرد الفاطميين.

وراء كل هؤلاء دولة بيزنطة اليونانية النصرانية، أو ما كان يسميه المسلمون بالروم. فهذه الدولة كانت قد ضعفت بسبب أن المسلمين في أيام الراشدين والأمويين، نفوها إلى أقصى بلادها في آسيا الصغرى، وسيطروا على مستعمراتها في الشرق، بل كادت تمحى من الوجود تماماً على يد العرب ثلاث مرات على الأقل، ولا سيما في عهد الأمويين، كما أن حدودها في الغرب كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلافية، مثل: البلغار والروس^(٢)، وهي أمم عظيمة. ولكن بيزنطة قويت بالأسرة المقدونية النشيطة، وبضعف الخلافة العباسية نتيجة لغزوات القرامطة في العراق والشام، فبدأت تحركها الأطماع في استرداد مستعمراتها في الشرق^(٣)؛ بحيث اعتبرت محاولاتها في سبيل استرداد بيت المقدس، المرتبط بذكرىات المسيحية، المحاولات المسيحية الأولى لغزو الأراضي المقدسة، تمهيداً للغزو اللاتيني بعد ذلك. ولا مراء، فقد كانت دولة بيزنطة تتزعم النصرانية إلى وقتئذ، إذ كانت تعتبر المسيح إمبراطورها "Christos Basileus"^(٤)، وأنه نصّب ملكها الأول قسطنطين الأكبر، وأرسل مع ملك أرومية وضعت في

(١) إتحاظ، ص ١٨٧ س ١٠ .

(٢) عنهم؛ معجم البلدان، ٤ ص ٣٢٨؛ ابن العميد، ص ٢٥٦ ويعدده. وأيضاً D'Ohsson :

Des peuples du Caucaise. Paris, 1828 P. 123 .

(٣) لدينا نص خطاب مكتوب بالعربية، يعرف بالقصيدة الأرمينية؛ لأنه على شكل قصيدة، وربما لأن كاتبه أرميني يعرف العربية، موجه من إمبراطور الروم نقفور فوقاس إلى الخليفة العباسي المطيع؛ يأمر فيه الخليفة بالرجوع إلى الحجاز وأرض صنعاء، وإخلاء البلاد التي استولى العرب عليها من الروم، مثل الشام وشمال العراق. ابن كثير، البداية والنهاية، ١١ ص ٢٤٤ - ٢٤٧؛ السبكي، طبقات الشافعية. ط. الحسينية، ٢ ص ١٧٩ - ١٨١. ومن ناحية أخرى رد ابن حزم الأندلسي (ت ١٠٦٤/٤٥٦) على هذه القصيدة بقصيدة إسلامية، عرفت باسم: الفريدة الإسلامية، بين فيها مثابرة المسلمين أمام الروم؛ وتذكير بأجسادهم، وبهجومهم السابق على القسطنطينية. ابن كثير، البداية والنهاية، ١١ ص ٢٤٧ - ٢٥٢؛ السبكي، طبقات الشافعية، ٢ ص ١٨٤ - ١٨٩؛ انظر. عمر كمال، يوحنا تزييمسكس، ص ١٧٨ وما بعدها، الملحق الثالث.

(٤) انظر. Vie Grandeurs et Byzance. Paris, 1954. P. 3 . sqq.، Guerdron .

كنيسة آيا صوفيا بالقسطنطينية العاصمة ليرتديها الأباطرة في حفلات توليتهم^(١).

فإن نقفور فوكاس^(٢) "Nichephoros Phokas" - وكان أكبر ملوك الأسرة المقدونية- ويسمى طاغية الروم؛ لأنه قتل الإمبراطور رومانوس الثاني "Romanos II"، وتزوج زوجته ثيوفانو "Theophano"، وتولى الملك، مع أنه لم يكن من البيت الملكي، ولكن كان حاكماً في آسيا الصغرى، ووجه كل همه لحرب المسلمين. فغزا الشام غزوات متتالية منذ ٩٦٢/٣٥١: فاستولى على أهم مدن الثغور، ثم فتح حلب واضطر سيف الدولة بن حمدان إلى تركها، والهروب أمامه، وطلب الهدنة^(٣)؛ حتى أن المعز الفاطمي نعى على سيف الدولة تخاذه. وكان ما فعله نقفور في حلب جعل هذه المدينة الزاهرة حطاماً إلى وقت طويل، فدمرها وأحرقها ونهبها، وقتل معظم أهلها أو أخذهم أسرى، حتى أن سيف الدولة تركها نهائياً إلى ميفارقين. وبعد موت سيف الدولة في ٩٦٧/٣٥٦، انتهز نقفور فرصة تنازع قواد الترك الوصاية على أبي المعالي سعد الدولة، ودخل الشام من جديد، ووصل فيه حتى طرابلس، التي أحرقها أهلها، فانصرف إلى جبلة (جبيل حالياً)، وأقام شهرين ثم رجع، بعد أن أخذ أسرى كثيرين بلغوا مائة ألف رأس، فكان يأخذ الصبيان والصبايا، أما الكهول والمشايخ فيقتلهم^(٤)، وأجبر خلقاً كثيرين على التنصر^(٥)، كما استولى على أنطاكية^(٦) وضمها إلى ملكه وهي التي كانت مفتاح عواصم المسلمين أيام الأمويين والعباسيين، وسبى من نساءها وأطفالها نحواً من

(١) بورفير وجنيثوس، الإدارة De Administrando، ترجمة عمران، ص ٦٦ وما بعدها.

(٢) عنه؛ الكامل، ص ٧، ص ٣٧ - ٣٨؛ النجوم، ص ٤، ص ١٨ - ١٩، ص ٥٥ - ٥٧.

Synopsis Historiae. Corpus Scriptorum, Historiae Byzantinae (CSHB).: Cedrenus 18338-9, éd. Bekker, P. 507 sqq;

Léon Diacre, ed Hase (CSHB.) 1828, P. 204 . ;

Un empereur byzantin , au X siècle. Nicephore Phocas. Paris, 1890. : Schlumberger.;

أسد رستم، الروم، ص ٢، ص ٣٩، وما بعدها؛ عمر كمال، الإمبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضي المقدسة، الإسكندرية ١٩٥٩.

(٣) ابن الشحنة، ص ٣٣.

(٤) ابن العديم، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٥) العيني، تاريخ، ورقات ١٦٧ - ١٦٨.

(٦) عنها؛ معجم البلدان، ص ٣٥٢ وما بعدها؛. Cedrenus, P. 513 -4.

عشرين الفاً. ويقول ابن الأثير عن هذه الغزوة: « دخل ملك الروم الشام ولم يمنعه أحد ولا قاتله». ولم ينقذ دولة الحمدانيين في الشام، إلا حينما عقد قرغوية مع نقفور هدنة في ٩٧٠/٣٥٩، نص فيها على التعاون مع الروم، حتى ضد المسلمين، وأن يدفع جزية كبيرة. وقد أورد ابن العديم (ت ١٢٦٤/٦٦٢)، مؤرخ كتاب: زبدة الحلب من تاريخ حلب، نصوص هذه الهدنة^(١) المخجلة للمسلمين. ولحسن حظ المسلمين أن نقفور لم يلبث أن لقي حتفه على يد أقرب الناس إليه، وهي زوجته ثيوفانو، التي كانت تكره زوجها الشرس، فهدرت مؤامرة لقتله بالاشتراك مع شخص ارمنى اسمه "Tchemeschagugig"، وإن عرف باسم تزيمسكس "Tzimiskes"، وسماه العرب: ابن الشميشقيق^(٢)، فقتل تزيمسكس نقفور وهو يقرأ في الإنجيل، بسيف أعطته له ثيوفانو، فقطعه ثلاث قطع، وتولى الملك بعده، وإن رفض التزوج من ثيوفانو، فأرسلها إلى الدير.

هذه حال الشام حينما جاء المعزّ الفاطمي مصر، وصد القرامطة، فقد كان أهل الشام في عداة مع الفاطميين، وكانت دولة الحمدانيين عاجزة عن الدفاع عن ثغور الإسلام؛ بحيث إن الروم صالوا وجالوا في الشام. ومع أن الفاطميين وجهوا جيوشهم بعد طرد القرامطة من مصر نحو فلسطين واستولوا عليها، ودخلوا دمشق في ٩٧٣/٣٦٣^(٣)، بل ذهبوا لحصار أنطاكية للقيام بالجهاد

(١) ابن العديم، ص ١٦٣ - ١٦٧. شرطوا أن يحمل الجزية عن كل صغير وكبير وأن الأمر بعد قرغويه يكون لبكجور، وعندما ينصب ملك الروم أميراً يختاره من سكان حلب، وليس للمسلمين أن ينصبوا أحداً، ولا يؤخذ من نصراني جزية، وأي مسلم دخل دين النصرانية فلا سبيل للمسلمين عليه، ويمنع أي مسلم من الغزو في بلاد الروم، وإن لم يسمح له قاتله، وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم لينقذ إليه من يدفعه، ومتى وقفوا على حال عسكر كبير كتبوا للروم، وإذا رغب الملك في غزو بلد إسلامي يتلقاه بكجور؛ وإن غزا الروم غير ملة الإسلام سار إليه الأمير بعسكره.

(٢) ذيل، ص ١٢ - ١٤؛ الكامل، ص ٧، ص ٣٨؛ Cedrenus, P. 518-9; Doc. Arm. (R.H.C) 1, P. 5 sqq; Mathieu; Léon Le Diacre. P. 238.

: أسد رستم، الروم، ص ٣، ص ٤٥ وما بعدها؛ Schlumberger; L'épopée byzantine à la fin du xe siècle, 1959 (Jean Tzimiscés).

وأيضاً: عمر كمال، الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية، الإسكندرية، ١٩٦٦، اختلف في نطق اسمه قديماً وحديثاً؛ كما يظهر.

(٣) ذيل، ص ٤.

فهزمهم قائد بيزنطى اسمه نيكولاس Nikoloas ، إلا أنهم ما لبثوا أن ارتدوا إلى فلسطين^(١)، بعد أن ثارت عليهم العناصر السنية من عرب دمشق، وأخرجوهم منها. وقد انتهز رجل تركى مغامر، اسمه: أفتكين أو ألنتكين أو هفتكين^(٢)، وكان فى نزاع مع سادته البويهيين فى بغداد؛ إذ كان الخليفة العباسى يستعين به ضدهم، وكاد يحصل على السيادة فى بغداد دون البويهيين، فعرض عليه الخليفة العباسى الطائع لقب إمرة الأمراء؛ إلا أن أفتكين فضل أن يخرج بفرقة من الجيش التركى، ويمم شطر دمشق؛ حيث أدخله أهلها المدينة، لمنع الفاطميين من العودة إليها. وقد تمكن أفتكين من أن يحتفظ بمركزه فى دمشق؛ بأن تعصب لأهل السنة، وفى الوقت ذاته كاتب المعز بأنه فى طاعته^(٣).

وزاد الأمور تعقيداً للفاطميين فى الشام أن تزيمسكس، خلف نقفور، وكان مثل سلفه، تحركه الأطماع فى حرب المسلمين. ولكى ينفذ خططه، قبل مارفضه نقفور مع منافسه فى السيطرة على المسيحيين، أوتو الثانى "Otto II"^(٤)، إمبراطور الغرب المسيحى، حتى يتفرغ فيكيل الضربات للمسلمين، كذلك عمل على التحالف مع الأرمن^(٥)، ولا سيما أنه كان من أصل أرمنى، وهم الذين خضعوا للأمويين ثم العباسيين، فلما ضعف هؤلاء عاد الأرمن إلى استقلالهم، فى مناطق جبال وأغوار تمتد فى آسيا الصغرى من جهة ساحل البحر الأبيض إلى الفرات. فاجتمع له ملوكهم، وخصوصاً اقوامهم الملك أشد (أشوط) الثالث "Aschod III"، الذى تلقب بشاهنشاه أى ملك الملوك؛ حيث إن هذا اللقب منحه إياه العباسيون، فكانوا يسمونه شاه الأرمن^(٦). فأرسل الأرمن عشرة آلاف مقاتل بأسلحتهم غير

(١) انظر. Cedrenus, 383. انظر رأى مخالف فى مقالة، Walker: A. Byzantine Victory over the Fatimids at Alexandretta . Byzantium, TXLII, 1972, Fasc2, P. 431 - 440.

(٢) النجوم ، ٤ ص ١٠٨؛ ابن أبيهك، الدرر، ٦ ص ١٦٧ .

(٣) ذيل، ص ١٢ .

(٤) انظر. Cambridge Medieval History IV, P. 81.

؛ عمر كمال، تزيمسكس، ص ٤٤ .

(٥) انظر. Doc. Arm. I, P. 7 sqq. ، Mathieu

عن أحوال أرمينية؛ Ency. de l'Isl, (art Arménie) t I, P. 441 sqq.

(٦) انظر. Ibid, I, P. 13; ni

الازواد. ولكن السريان وهم سكان بلاد الجزيرة، وكانوا على مذهب مخالف لبيزنطة، غير متحمسين للقتال مع الروم الذين سعوا إلى استمالتهم؛ وكان نقفور حاربههم من قبل.

فبدأ تزيمسكس تحركه في بلاد الجزيرة في عام ٣٦٣/٩٧٢^(١)، فسار فيها في كل اتجاه، واستباح وقتل وخرّب؛ بحيث هرب معظم أهل الجزيرة إلى العراق، وكان سيفه يقتلع المسلمين مثل إقتلاع الحشائش، ودمر كنائس السريان وأديرتهم^(٢). وقد بلغ ما هدمه فيها أكثر من ثلاثمائة قلعة أو مدينة، ووصل إلى نصيبين، قرب بغداد. لكن الخلافة العباسية لم تفعل شيئاً؛ لانشغالها مع البويهيين في نزاع شديد؛ بحيث عزل البويهيون المطيع وولوا الطائع؛ كما أن حمداني الجزيرة كانوا في نزاع فيما بينهم، وكانت الروم قد عقدت معهم هدنة كما ذكرنا، ولقد نعى مسلمو بلاد الجزيرة على الخليفة العباسي تخاذله، ورموه بالعجز^(٣)، ولدينا خطب ابن نباتة^(٤) (ت ٣٧٤/٩٨٤) الملتهبة التي تدعو مسلمي العراق إلى الجهاد ضد الروم، والدفاع عن بلاد الإسلام. وقد فسر عدم استمرار تزيمسكس في الغزو في هذه المنطقة، واكتفاؤه بالسلب والنهب فيها، بأن هدفه الأساسي كان غزو بلاد الشام.

ثم إن تزيمسكس أغار على الشام في عام ٢٦٣/٩٧٣، منتهزاً اضطراب أحواله، وخصوصاً أنه كان يعتقد باستحالة بقاء الحياة بينه وبين الفاطميين. وكان هدفه ليس فقط بالإغارة فيه، وإنما الوصول إلى بيت المقدس، الذي يرتبط بذكرىات المسيح، ومزار النصراني. وقد سهل له السير فيه سعد الدولة، وهو الذي استعاد حلب من قرغوية ويكجور^(٥)، وقبل الحلف الذي عقد سابقاً بين

(١) عن تاريخ هذه الحملة والاختلاف فيه؛ انظر. Canard.

La date de expéditions mésopotamiennes de Jean Tzimiscès. Mélanges Grégoire I (1950).

؛ عمر كمال، يوحنا تزيمسكس، ص ١٠٥. المهم عندنا هو أنه بدأ بإقليم الجزيرة.

(٢) يحيى الأنطاكي (P.O. 23) ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٣) مسكويه، تجارب الأمم، نشر Amedroz، القاهرة ١٩١٤ - ١٩١٥، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٤) ديوان خطب ابن نباتة، ط. بيروت ١٣١١ هـ.

(٥) ابن العديم، ص ١٦٩.

قرغوية ونقفور. فاستولى تزيمسكس على حمص وبعليك، ثم لما تقدم نحو دمشق أسرع أفتكين التركي، الذي عرف للروم باسم: "Phatgan"، بتقديم خضوعه، وتذلل له، وسلمه دمشق، ولعب أمامه بالسيف. وعلى العكس، قاومت مدن عديدة بمساعدة الفاطميين، مثل: طرابلس التي خربها تماماً، وجبيل وبيروت وصيدا. ثم توجه إلى فلسطين حيث يوجد الجيش الفاطمي، الذي تحصن في القدس، مدافعاً عنها، ومانعاً الروم من الاستيلاء عليها. ولدينا نص خطاب^(١) تزيمسكس إلى أشد (أشوط) الثالث، يبين فيه انتصاراته في الشام. ولحسن حظ المسلمين أن تزيمسكس ما لبث أن عاد إلى القسطنطينية؛ حيث أقيمت له فيها احتفالات كبيرة، ربما بسبب الاضطراب الداخلي، أو لأنه زهد في الحكم، وذهب إلى الدير وترهب، لتأنيب ضميره له على قتل نقفور، أو لأنه دس له السم ومات^(٢) ولولا رجوعه؛ لكان قد تمكن من دخول القدس.

هذه الغزوة البيزنطية المفاجئة أهتمت العزيز الذي تولى بعد المعز، بضرورة القضاء على العناصر المقاومة للفاطميين في الشام، حتى يمنع عدو الإسلام من العودة إليه، بالاستفادة من انقسام أهله. فأرسل إلى أفتكين يطلب منه الدخول في طاعته، ولكن أفتكين رد على العزيز قائلاً: إنه أخذ دمشق بحد السيف «وما أدين فيه لأحد بطاعة، ولا أقبل منه أمراً»^(٣). فأرسل العزيز جوهرًا ضد أفتكين، الذي استدعى الحسن الأعصم زعيم القرامطة، وهزما جوهرًا في ٩٧٤/٣٦٤^(٤)، الذي بقي في فلسطين، وعقد صلحاً مع أفتكين، بقصد كسب الوقت حتى تأتيه الإمدادات، وإن كان أفتكين لم يقبل مصالحة جوهر؛ إلا بعد أن علق سيفه، ورمح الحسن الأعصم، على باب عسقلان، ويخرج جوهر وأصحابه من تحتها، ولكن

(١) انظر. Mathieu : Op. Cit, P. 13 - 14 . له ترجمة عربية من عمر كمال في كتاب: الأمباطور تزيمسكس، انظر، ملحق (١).

(٢) ذيل، ص ١٤ س ١٤ ؛

Cedrenus, P. 535. ; Doc. Arm,I, P. 22 : Mathieu

(٣) ذيل، ص ١٥ .

(٤) نفسه .

بعد موت الحسن الأعصم ذهب العزيز بنفسه لقتال أفتكين في ٣٦٨/٩٧٩^(١)، فدارت الدائرة هذه المرة على أفتكين، ودخل العزيز دمشق، ولما ظهر مغامر جديد اسمه قسّام التراب^(٢)، لعله من رجال أفتكين، وعمد إلى الاستيلاء على دمشق، ووضع أعلاماً وطوارق -أي تروساً- عليها صفة تحف، وهي ما تصل فيه الزبالة، فقد كان من قبل يعمل على الدواب زبالاً فلم ينكر فقره؛ مما حبب الناس فيه، وإذا رأوه في المسجد التفوا حوله، فإن العزيز تمكن من هزيمته أيضاً. والواقع أنه يرجع إلى العزيز الفضل في توطيد سيطرة الفاطميين في جنوب الشام حتى دمشق.

ثم وجه العزيز همه إلى القضاء على الحمدانيين، الذين قبلوا حماية بيزنطة وأن يكونوا ماجورين لهم، متبعاً في ذلك سياسة أبيه المعز. وكان أميرهم سعد الدولة قد انتمى للفاطميين، ودعا للعزيز^(٣)، حتى أنه زاد في الأذان حتى على خير العمل، محمد وعلى خير البشر^(٤)، ويظهر أن سعد الدولة منذ أن دخل حلب استفاد من النزاع بين قرغوية وبكجور^(٥)، ليزيد من سلطته في حلب، فقتل الأول، واضطر الثاني إلى الهروب إلى العزيز. ومع أن سعد الدولة كان قد رفض^(٦) الهدنة التي عقدها قرغويه مع الروم حتى أن هؤلاء أرسلوا إليه جيشاً بقيادة بردس الفقاس "Bardas Phokas"؛ إلا أنه ما لبث أن قبلها، وإن عدل فيها.

ولما توفي سعد الدولة، وخلفه ابنه أبو الفضائل سعيد الدولة، ووصيه التركي لؤلؤ الكبير^(٧)؛ فإنهما كانا يحملان المال المقرر والهدايا إلى الروم،^(٨) لذلك

(١) نفسه، ص ١٥-٢١.

(٢) ابن أبيك، الدرّة، ٦ ص ١٩٥-١٩٦. عاد أفتكين مع العزيز إلى مصر؛ حيث عاش فيها إلى أن مات. ومن قبل كان قد استأذن المعز في الذهاب إلى مصر، قبل إقراء أهل دمشق له.

انظر. يحيى الأنطاكي، بيروت ١٩٠٩، ص ١٤٥؛ ذهل، ص ١٢.

(٣) ابن العديم، ١ ص ١٦٩، ١٧٨.

(٤) نفسه، ١ ص ١٧٢.

(٥) نفسه، ١ ص ١٦٩-١٧٠.

(٦) نفسه، ١ ص ١٦٩ وما بعدها، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٦.

(٧) نفسه، ١ ص ١٨٥؛ انظر. Ency. de l'Isi, (art. Lu'lu') ٤3, P. 42.

(٨) ابن القلانسي، ص ٤١؛ البرودراوي، ص ٣٢؛ ابن العديم، ص ٢٤٨.

قرر العزيز أن يرسل قائده التركي منجوتكين في ٩٩٣/٣٨٢^(١)، على رأس العسكر المصري؛ ليثير غلمان الأتراك في حلب، فهاجم منجوتكين حلب، وأحاطها بالمانات والحمامات، وصمم على الاستيلاء عليها؛ بحيث اشتد الحصار بالحمدانيين. عندئذ استنجد لؤلؤ بالروم^(٢)، وتوسل لهم بالمعاهدة التي بينهم وبين الحمدانيين، وكتب إلى ملكهم: «متى أخذت حلب، أخذت أنطاكية، ومتى أخذت أنطاكية، أخذت قسطنطينية».

أخافت هذه الأحوال الروم، فقام حاكم أنطاكية الرومي "Bourtze" ويسميه العرب البرجي^(٣) لاستنقاذ حلب إلا أن منجوتكين هزمه وأجبره على الهروب، وعاد لحصار حلب، فما كان من باسيل الثاني "Basilos II" عظيم الروم، الذي تولى بعد تزيتمسكس - إلا أن همد بنفسه إلى القيام بحملة كبيرة ضد الفاطميين، وخصوصاً أنه انتهت هروبه مع الروس، وعاصمتهم كانت كيف "Kiev" وقد اعتنق ملكهم النصرانية في ٩٨٥/٣٧٥^(٤)؛ كما استولى على أرمينية وهزم البلغار، وهم قوم توالدوا بين الترك والمقالبية في آسيا وأوربا، وكانوا وثنيين فأسلم بعضهم^(٥)، وذلك بعد حروب استمرت خمساً وثلاثين سنة ضد قيصرهم سموييل Samuel^(٦)؛ بحيث سمي باسيل بقاتل البلغار "Bulgaroktnos"^(٧)، وأصبح يملكون البلقان. فأسرع باسيل إلى دخول الشام، في جيش كبير عدده مائة ألف، يساعده أسطول كبير من الشلنديات^(٨)، وهي

(١) ابن العميد، ص ١٨٦.

(٢) ابن القلانسي، ص ٤١، ٤٢؛ النجوم، ص ٤، ١١٨ وما بعدها؛ انظر.

H'amdaniada, 1, p. 856 sqq. : Canard

Epopé By. T1, P. 58 sqq. : Schlamberger

(٣) ابن أبيهك، الدرر، ص ٢٢٤-٢٣٥.

(٤) ابن العميد، ص ٢٥١.

(٥) الكامل، ص ٨، ٢٢.

(٦) الرونراودي، ليل كتاب تجارب الأمم، تحقيق Amedroz، ص ١١٦-١١٧؛ ابن العميد، ص ٢١٥.

(٧) أنظر، Runciman، La Civilisation Byzantine 330-1453, trad Lévy. Paris, 1952, P. 50 [Kimbaluyon].

(٨) في موقعة كميليون Kimbaluyon، ص ٥-٦؛ ماجد، نظم الفاطميين، ص ٢٢٢؛

(٨) عن نوعها، انظر. عبادة، سفن الأسطول، ص ٥-٦؛ ماجد، نظم الفاطميين، ص ٢٢٢؛
Suppl, 1, 783 : Dozy . مفريها، شلندي.

مراكب حربية كبيرة. فاضطر منجوتكين^(١)، الذي كان يحاصر حلب ، ويفصل بينه وبين الروم نهر العاصى أو المقلوب، أن يحرق آلاته^(٢)، ويرسل أمامه بأثقاله إلى دمشق؛ فيسرع باسئيل بالسير فى أعقابه. فسلمت له حلب وحمص، التى سبى منها عشرة آلاف، ونزل طرابلس، ولم يستطع فتحها؛ إذ أرسل العزيز إليها المدد من البحر. ولكن باسئيل اضطر هو الآخر إلى ترك الشام، لظروف داخلية، ربما بسبب ثورة بردس فوقاس Bardas Phokas .

فلما سمع العزيز الفاطمى زحف ملك الروم جهز أسطولاً كبيراً فى ميناء القاهرة المسمى «المقس»^(٣)، وهو الأسطول الذى بناه المعز من ستمائة مركب. ولكن فى ظروف غامضة احترقت بعض مراكبه ومعها عدة الأسطول وسلاحه، واتهم به جماعة من الروم فى مصر؛ فاستعجل العزيز بناء أسطول غيره. كذلك نادى العزيز بالتغيير^(٤) فى المصريين «الناس»، وجمع منهم أعداداً هائلة؛ كما كتب إلى أهل الشام بالسير نحو ملك الروم، حتى اجتمع بدمشق من العساكر ما لم يجمع من قبل. ولكن العزيز الذى ذهب على رأس عسكر المصريين إلى بلبيس^(٥)، شرقى الدلتا فى طريق الشام، وكأنه فرعون مصر، توفى فجأة قبل تحرك العساكر فى ٩٩٦/٣٨٦، وإن كان باسئيل -كما ذكرنا- هو الآخر قد اضطر إلى ترك الشام.

وفى أول عهد الحاكم، الذى تولى بعد العزيز استغل هذا الاستعداد الضخم للجيش والأسطول الفاطمى فى محاربة الروم؛ بحيث أحرز انتصارات هائلة عليهم، مما لم يقع مثله قبلاً منذ مجئ الفاطميين فى الشرق. وفى عام ٩٩٨/٣٨٨^(٦)، أفسد الجيش الفاطمى تدخلاً من باسئيل فى صور، وهى مدينة

(١) النجوم، ٤ ص ١١٦ وما بعدها.

(٢) ابن العديم، ١ ص ١٩١.

(٣) الخطط، ٢ ص ٣١٧-٣١٨.

(٤) النجوم، ٤ ص ١٢١ س ٥.

(٥) عنها : معجم البلدان، ٣ ص ٢٦٣.

(٦) يحيى، تمقيق شيخو، ص ١٨١-١٨٢؛ الكامل، ٧ ص ١٧٨-١٧٩؛ العبر، ٤ ص ٥٧. عن

صور، انظر. معجم البلدان، ٥ ص ٣٩٧-٤٠٨.

بساحل البحر الأبيض، تقع غربي صيدا، كانت أشبه بالكف في البحر، لها طريق ضيقة إلى البر، وسورها من كل جهاتها، ولها مرسى. فقد ثار بها رجل ملاح مغامر اسمه علاقة، فأرسل إليه باسيل أسطولاً لمساعدته. فقبض علاقة على الأمور في صور، وضرب العملة، ونقش عليها: «عزاً بعد فاقه للأمير علاقة». فأرسل برجوان، وصنى الحاكم وقتذاك، جيشاً حاصر صور؛ كما أرسل الأسطول، الذي استطاع هزيمة أسطول الروم، وأخذ علاقة أسيراً، وأرسل إلى مصر، فسلخ وصلب بها. وفي العام ذاته توغل جيش الحاكم في أرض الروم في منطقة الثغور، وقابل جيشاً بيزنطياً بقيادة الدوق داميانوس الدلاسنوس^(١) "Ducas Damianos Dalassenos" - ويسميه العرب الدوقس - فقتلوا منه ستة آلاف، كما قتل الدوقس، وأسر أبناؤه.

ويبدو أن سياسة الفاطميين وقتئذ، كانت ترى أنه لا يمكن محاربة الروم، إلا إذا توحد الشام مع مصر، وعملوا على السيطرة فيه. وشجع على ذلك أن باسيل في آخر أيام العزيز، كان قد بعث برسله بعد رجوعه إلى بلاده، يطلب الصلح. ومن قبل، كان ابن كلس وزير العزيز المشهور، قد نصح خليفته وهو على فراش الموت، بعقد السلام مع الروم^(٢). وكانت قد بذلت محاولة سابقة للصلح في ١٩٨٧/٣٧٧^(٣)، فعقدت هدنة، لم ينقضها غير هجوم باسيل الأخير في الشام. ولذلك جرت بين برجوان وصنى الحاكم، مراسلات وملاطفات، وأرسل برجوان إلى القسطنطينية أريسطس بطريرك بيت المقدس، وهو خال ست الملك أخت الحاكم من أم أخرى مسيحية، مع رسول الروم، وتم عقد هدنة لمدة عشر سنوات في ١٠٠١/٣٩١، بعد موت برجوان، الذي كان سعى لعقدها. وكان من شروط الصلح أن يتمتع الروم في بلاد الفاطميين بالحرية الدينية، ويسمح لهم بتجديد كنائسهم^(٤)، وحتى بعد أن قبض الحاكم على صولجان السلطة من وصيه؛ فإنه بقي متمسكاً بالهدنة مع باسيل. فحينما أرسل ملك

(١) عن ذلك، انظر ترجمة L. Canard لـ أورده ابن القلانسي في:

Revue des Etudes Byzantines. Paris XIX, 1961, P. 297 sqq.

(٢) الروذراوى، ذيل، ص ١٨٥.

(٣) النجوم، ٤، ص ١٥١-١٥٢.

(٤) يحيى (شيوخو) ص ١٤٨.

الروم للحاكم رسولاً في ١٤١/٤٠٥ (٢١٠١٤١) أحسن الحاكم استقباله في قصره، فاصطلت العساكر بعددها وأسلحتها، وفرش الإيوان - القاعة ذات الأعمدة للاستقبالات الكبرى- وعلق على حيطانه ستائر الحرير (الديباج) مكللة بالذهب، حتى صار يتلألأ بالذهب؛ كما علق في صدره شبه ترس (درقة)، مكللة بفاخر الجواهر. يضى لها ما حولها، وإذا وقعت عليها الشمس لا تطيق العيون النظر إليها.

ولعل بأسيل فكر في أن ينقض الهدنة، حينما هدم جامع المسلمين في القسطنطينية^(٢)، فما كان من الحاكم إلا أن أصدر أمره بهدم كنيسة القيامة المقدسة في بيت المقدس في سنة ١٠٠٩-١٠١٠. مزار النصارى، الذي صلب فيه المسيح برأيهم وذلك على سبيل الانتقام. ولدينا نص الأمر بذلك؛ فقد أصدر سجلاً إلى واليه على القدس؛ كتبه أحد الأقباط في مصر، جاء فيه^(٣) «أمر الإمامة إليك بهدم قمامة^(٤) -تسمية عربية لكنيسة القيامة- فأجعل سماها (١) النجوم، ٤ من ١٩٢؛ اتعاط، ورفقات ١٦٦-١٦٩؛ انظر. مجموعة الوثائق، ١ ص ٥٩ وهامش.

(٢) الخطط، ٢ من ١٦٩ ص ٩. هكذا يفهم من النص.

(٣) الكامل، ٧ من ٢٤٠؛ يحيى، ص ٢٢٠-٢٢١؛ انظر. عنان، الحاكم من ٦٩؛ Lane Poole : Egypt, P. 128. : ماجد، الحاكم، ص ١٠٠، قيل أيضاً في سبب هدمها؛ إن نصارى كنيسة القيامة، عملوا على فتنة المسلمين عن دينهم؛ فكانوا أثناء صلاتهم، وترديدهم كيرياليسون "Kyrie elison"، يطلقون فجأة في السماء نارا، ويعطونها عطراً خاصاً، مظهرين أنها نور ينزل من السماء، لكي يقنعوا المسلمين بحقيقة دينهم، ولا سيما أن تسامح العزيز -والد الحاكم - الذي ساهم بطويريك بيت المقدس، جعل النصارى يتعمدون في إظهار شعائر دينهم. ويقوى من هذا السبب، أن الحاكم في الواقع لم يهدم غير هذه الكنيسة، فلدينا سجل يمنح الأمان لبقية كنائس بيت المقدس. عن ذلك؛ ذيل، ص ٦٧. عن هذه النار، انظر. Krackovski :

Le feu béni, d'après le récit d'al-Birûnf et d'autres auteurs musulmans des Xe- XIIe Siècles. Khristjansky Vostak, III/3 (1915) 226-42.

(٤) هذه التسمية أتت مما يرويه العرب من أن هيلانة Helena، أم قسطنطين الأكبر "Constantinus"، أول إمبراطور لدولة البيزنطة ارتحلت إلى القدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح، فأخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبته على الأرض وألقيت عليها القمامات والقنادورات، فأستخرجت الخشبة وبقيت مكانها كنيسة، عرفت باسم؛ كنيسة القيامة كأنها على قبره، أو كنيسة القمامة لوجود هذه القمامة. ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٢.

أرضاً، وطولها عرضاً، فهدمت بعض أجزائها. ومع ذلك؛ فنرجح أن السبب الرئيسي في هدمها هو إزالتها حتى لا تتخذ حجة يتحرك الروم من جديد بسببها إلى بيت المقدس؛ بقصد حمايتها وحماية ذكريات المسيحية الأخرى، إذ أصبحت أمنية الروم الأولى الوصول إلى بيت المقدس. وفي الوقت ذاته أرغم الحاكم جالية الروم في مصر على الخروج منها، وكانت لهم حارة خاصة في القاهرة^(١)؛ كما أن نصارى بيت المقدس، من غير العرب، هاجروا أيضاً إلى بلاد الروم^(٢).

كذلك سعى الحاكم إلى التقرب من جماعة تعرف بالأبخاز أو الأفاذ^(٣) - لا يعرف أصلهم، ولعل عروقهم سامية عربية؛ إذ لغتهم خليط من الآرامية والفارسية - وملكهم يسمى بالأبخازي، وهم سكنوا في إقليم جورجيا الحالي، وكانوا يحاربون باسيل الثاني، الذي أرسل نحوهم أسطولاً فكاتب جرجس ملكهم الحاكم في أن يتعاقد معه على حرب باسيل الثاني، وأن يقصده كل واحد من جهته. ويبدو أن خطوات الحاكم الانتقامية جعلت باسيل لا يتحرك، وإن أمر باسيل بقطع العلاقات التجارية مع مصر والشام، ثم عمل على التودد للحاكم بعد ذلك^(٤).

هذه السياسة السلمية القائمة على اليقظة مع بيزنطة، هيأت الفرصة للحاكم ليسيطر على الشام سيطرة تامة، وهذا لم يحدث قبلاً. فنعرف أن عرب الشام كانوا في عداء مع الفاطميين، حتى بعد استيلاء العزيز على بلادهم. وفي أول عهد الحاكم، ثاروا بزعامة المفرج بن دغفل بن الجراح كبير قبيلة طيى. ولكن برجوان وصى الحاكم أرسل نحو المفرج جيشاً طارده وأسره، وحمله إلى القاهرة^(٥)، ثم أطلق سراحه، مع أن ابن كلث وهو على فراش الموت كان قد نصح بقتله^(٦).

(١) الخطط، ٢ من ١٢.

(٢) يحيى، (P.O.) ص ٥١٩ (٢١١)؛ انظر. أسد رستم، الروم، ٢ من ٦٤.

(٣) يحيى، (شيخو) ص ٢٢٩-٢٤٢؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٢٣-١٣٤؛

Ency. del'Isl, (art. Abkhâz) 2éd, II, P.103

نصرانياتهم تظهر على الإطلاق، بينما تؤكد إسلامهم، حتى أنهم أرسلوا وفدًا منهم للخليفة العباسي يتوسلون إليه إلى الدعوة إلى الجهاد ضد أعدائهم، وظهرت لهم أسرة الأباطيما، التي استمرت تحكمهم قرناً من ٨٥٠ إلى ٩٥٠م. واتخذت سخم (سقوم) عاصمة لها.

(٤) النجوم، ٤ من ١٩٢؛ انظر. ماجد الحاكم، ص ١٣٣؛

Ency. de l'Isl, (art. al-Hâkim Bi-Amr Allah) 2 éd, t 3, P. 79.

(٥) الخطط، ٤ من ٦٨؛ الكامل، ٧ من ١٧٨.

(٦) الروذراوى، ذيل، ص ١٨٥.

ولكن عرب الشام عادوا للثورة من جديد؛ بحيث إنهم احتلوا على معظم جنوب الشام إلى القرم، أي مدخل الدلتا المصرية، كما أنهم هاجموا حصون السواحل، التي فيها عساكر فاطمية. وقد أصبح حكم العرب في الشام رهيباً، حتى أن عدداً كبيراً من سكانه غير المسلمين خرجوا إلى بلاد الروم. وقد استمرت ثورتهم مدة سنتين ونصف من ١٠١١/٤٠٢ إلى ١٠١٣/٤٠٤، دون أن يرسل الحاكم نحوهم جيشاً. ولما استفحل خطرهم، بدعوتهم عرب الحجاز- وكانوا خاضعين للفاطميين كذلك- إلى التضامن معهم، أرسل الحاكم نحوهم جيشاً مغريباً قوياً، بقيادة علي بن جعفر بن فلاح؛ كما أمر بقية الجيوش التي كانت بدمشق والسواحل، بالاشتراك في قتالهم. ويبدو أن الحاكم تمكن من قتل المفرج زعيمهم؛ بأن دس له السم، فتمكنت جيوش الحاكم من مهاجمة العرب في كل مكان؛ بحيث هرب أولاده، وخصوصاً حسان بن مفرج، الذي بقى شريداً وقتاً طويلاً، إلى أن جاء إلى مصر في ثياب كان الحاكم منحها لأم حسان، وهو راكب حماراً، طالباً صفح الحاكم^(١). وبذلك قضى الحاكم على أكبر خطر قام به عرب الشام ضد الدولة الفاطمية.

وكذلك نجد الحاكم قد تمكن من أخذ حلب أيضاً^(٢)، وهذا لم يحدث قبلاً، مع أن حملات أبيه العزيز فشلت في أخذها. وكان لؤلؤ الكبير قد استولى على حلب بعد موت سعيد الدولة في ١٠٠٢/٣٩٢، الذي يبدو أنه مات مسموماً، وضيق على أسرة الحمدانيين، فهرب ابن سعيد الدولة وهما: أبو الحسن علي وأبو المعالي شريف إلى الحاكم في ١٠٠٤/٣٩٤، كما هرب أخو أبي الفضائل سعيد المسمى أبا الهيجاء إلى باسيل؛ بحيث لم يبق من ذرية الحمدانيين أحد في حلب، وانفرد ابنته المنصور بها. ويبدو أن لؤلؤاً قدّر صعوبة موقفه من دولة الفاطميين، بعد عقدها الصلح مع الروم؛ فأعلن الطاعة للفاطميين، وليبين صدق خضوعه، أرسل أولاده إلى مصر، وأعلن الدعوة الفاطمية في دولته.

(١) يحيى (شيخو)، ص ٢٩١-٢٠٢، ٢٠٧، الكامل، ص ٧، ١٨٠.

(٢) نفسه، ص ٢١٠ وما بعدها؛ نفسه، ص ٢٦١-٢٦٢؛ ابن العميد، ص ٢٥٦؛ النجوم،

ص ٤، ٢٣٥؛ العيني، تاريخ، ورفقات ١٨٤-١٨٥.

ومع أن الحاكم كان قد أرسل جيوشه لمساعدة لؤلؤ في القضاء على أبي الهيجاء؛ الذي حاول استعادة حلب بموافقة باسيل، فإن لؤلؤاً عاد إلى موقف الخصومة، وقطع الدعوة الفاطمية، بل إنه حارب والى طرابلس من قبل الحاكم. لذلك شجع الحاكم ضد لؤلؤ زعماء قبائل بني كلاب المحيطين بحلب، وهم المرदाسيون، وكان الحمدانيون قد سيطروا عليهم لما أقاموا دولتهم. فأخذ بنو كلاب بقيادة صالح بن مرداس الكلابي، يغربون في بلاد لؤلؤ، بتحريض الحاكم. وبعد موت لؤلؤ في ١٠٠٨/٣٩٩، خلفه ابنه منصور^(١) - مرتضى الدولة - فحاربه الكلابيون، كما حاربوا أباه، بحيث استولوا على نصف بلاده، وجعلوه مقر إلى الروم في ١٠١٣/٤٠٤، وبذلك زال ملك بني حمدان على حسب ملاحظة ابن تغرى بردى^(٢)، وقد منح الحاكم صالح بن مرداس بهذه المناسبة، لقب: أسد الدولة. ولكن فتحاً أحد غلمان لؤلؤ، احتفظ بالقلعة في حلب، ولم يرض أن يسلمها لصالح، واتصل بجيش الحاكم؛ فمنح الحاكم فتحاً لقب: مبارك الدولة. ولما دخل جيش الحاكم حلب بالاتفاق مع فتح هذا، واستولى على القلعة والمدينة، زاد الحاكم في لقب فتح، فأصبح يلقب: مبارك الدولة وسعدها وعزها. فأصبحت حلب لأول مرة خاضعة لنواب الحاكم، الذي ولاها غلاماً منجوتكين - القائد الفاطمي السابق - بدلاً من فتح، وهو عزيز الملك (الدولة) فاتك^(٣)، الذي لقبه الحاكم بأمير الأمراء؛ فحكمها فاتك من ١٠١٦/٤٠٧، إلى نهاية حكم الحاكم. وبهذه المناسبة أخرج الحاكم لأهل حلب سجلاً^(٤)، يعفيهم فيه من المكوس - وهي ضريبة الإنتاج - والخراج - وهي ضريبة الأرض - ختمه بقوله: « لتعلموا أن ضياء الدولة النبوية قد لمع وظهر، وأن حنوس الظلام قد انجاب وأندثر ».

(١) ابن العديم، ١ ص ١٩٧.

(٢) النجوم، ٤ ص ٢٣٥.

(٣) ابن العديم، ١ ص ٢١٨.

(٤) نفسه، ١ ص ٢١٤.

وما كاد يتم هذا الانتصار الفاطمي على كل أجزاء الشام، حتى وجدنا الشام ينتفض فجأة في ثورة عارمة جديدة^(١)؛ بقصد الاستقلال عن نفوذ الفاطميين في مصر، وذلك بعد موت الحاكم. فاتحد ضدهم صالح بن مرداس زعيم الكلابيين في حلب، وسنان بن عليان زعيم الكلبيين في دمشق، وحسان بن مفرج زعيم الطائيين في فلسطين؛ بحيث خرج كل الشام عن طاعتهم من جديد^(٢). ولحسن حظ الخلافة الفاطمية وقتئذ؛ أنها وجدت قائداً ماهراً من الترك، تدرس بحرب العرب من قبل في عهد الحاكم، وهو أنوشتكين، الذي اشتهر بالذبيرى أو التزبيرى^(٣)، لأنه كان في خدمة أحد قواد الحاكم الديالمة - وهم من طوائف المشاركة في الجيش الفاطمي - واسمه تيزير أو ديزير وقد تمكن الذبيرى من أن يهزم العرب مجتمعين على شاطئ نهر الأردن في موضع يعرف بالأقحوانة (أو القحوانة)، في ربيع الآخر ٤٢٠/١٠٢٩، فقتل صالحاً وولده الأصغر، وأرسل رأسيهما إلى القاهرة، وهرب حسان إلى بلاد الروم - بيزنطة - أما سنان فكان قد توفى في العام ذاته، وإن أسرع ابن آخر لصالح وهو أبو كامل نصر، وأعلن خضوعه في حلب للظاهر، ولقب بشهب الدولة.

ومع هذه الظروف السيئة للفاطميين، فإن البيزنطيين أبقوا على علاقتهم السلمية مع الفاطميين « Statu quo »، ورفضوا باسئيل أن يستمع لزعماء الشام الذين طلبوا معاونته^(٤). ومن ناحية أخرى؛ فإن أخت الحاكم ست الملك، التي أشرفت على خلافة أخيها، خافت أن ينقض البيزنطيون الهدنة، فأرسلت من قبلها بطريق بيت المقدس إلى باسئيل (بسيل)؛ ليطالبه مشافهة بعودة الكنائس إلى النصراني - لعلهم الملكانية، وهم على مذهب بيزنطة - وتجديد كنيسة القيامة المقدسة وسائر البيوع في جميع أرجاء مصر والشام، ورجوع أوقافها إليها،

(١) عن ذلك بتفصيل؛ يحيى، تاريخ، ص ٢٤٤ وما بعدها؛ أبو الفداء، المختصر، ص ١٤١،

١٦٠-١٦١؛ ابن العميد، ص ٢٦٩؛ وغير ذلك.

(٢) وفيات، ص ٧٠-٧١.

(٣) ابن العديم، ص ٢٢٤ وما بعدها.

(٤) يحيى، تاريخ. (P.O.) ص ٤٥١-٤٥٢ (٢٤٤-٢٤٥).

واستقامة أمور النصارى بعمامة^(١). كذلك جدد الظاهر الهدنة مع قسطنطين الثامن (Constantinus VIII) فى ١٠٢٧/٤١٨، ونص على أن يخطب لهذا الخليفة فى المسجد الكائن بالقسطنطينية لقاء إعادة بناء كنيسة القيامة، التى هدمها الحاكم^(٢).

ولكن استمرار اضطراب أحوال عرب الشام مدة طويلة كما ذكرنا، جعل الملك رومانوس الثالث "Romanus III Argyrus" (أرمانوس) فى ١٠٣٠/٤٢١؛ يخرج فى ثلثمائة ألف مقاتل، ويفكر فى الاستيلاء على حلب، التى تنازعها الفاطميون والمرداسيون. ولكنه عمل على الاستيلاء على الرها من بلاد الجزيرة، وأخذ يغير فى أرض الشام، لذلك نادى الظاهر فى الناس بالسجلات فى مصر وسائر الشام بالنفير العام- وهو التعبئة العامة- إلى صد العدو. ولكن رومانوس الذى كان مهتماً أيضاً بتوطيد نفوذه فى إيطاليا، لم يقم بغزو حقيقى ضد الفاطميين، وإن جعل يؤيد ضدهم نصر بن صالح المرداسى، وبقية العرب فى حلب، وخصوصاً أن نصراً أعلن خضوعه للبيزنطيين؛ كما رفض رومانوس عقد معاهدة سلم مع الظاهر^(٣).

وفى أول عهد المستنصر أصبحت قبضة الدولة الفاطمية فى الشام أكثر قوة بفضل الدزيرى، الذى ذهب وحارب نصر بن صالح وقتله عند حمّاه، ودخل حلب فى ١٠٣٧/٤٢٩؛ حيث سكت العملة فيها باسم المستنصر^(٤). وبسبب هذا الانتصار الشامل على العرب فى الشام، لقب الدزيرى باللقاب رنانة، هى: الأمير، سيف الإمام، عدة الخلافة، مصطفى الملك، منتخب الدولة؛ كما عين نائباً عن المستنصر فى حكم الشام.

(١) نفسه (شيخو)، ص ٢٤٢.

(٢) Regesten der kaiserurkunden des Ostromischen Reiches. I, Berlin-Munich; Dölger 1924. 824.

: أسد رستم، الروم، ٢ ص ٦٤؛ Zananiri: L'Egypte et l'équilibre, du Levant au Moyen; Age Marseille, 1936. P. 40.

(٣) يحيى، تاريخ (شيخو)، ص ٢٥٤ وما بعدها، ٢٦٨-٢٧١. ولعل ظروفنا قاسية سيئة أصابت جنده، قبل أن يهاجم؛ مما جعله يحجم عن الهجوم. العيني، تاريخ، ورقة ١٨٥.

(٤) أنظر. Lavoix. Cat, P. 106 (208).

ولكن الجرجرائي، وهو الوزير القائم للمستنصر، خاف من الدزبري على نفوذه، ولا سيما أن هذا الأخير كان محبوباً من المستنصر، فسعى في الدس ضده حتى أن المستنصر -بتحريض من الجرجرائي- كتب إلى الدزبري سجلاً يؤنبه فيه ويعظه. وأخيراً نجح الجرجرائي في أن يثير ضد الدزبري جماعة الأجناد في دمشق؛ كما قرئ سجل بإسقاط القاب الدزبري، ونعته بالخائن للإمام، وإهدار دمه، فاضطر الدزبري إلى الهروب من دمشق، والسير إلى حلب والاعتصام بها. وفي خلال اعتصام الدزبري بحلب، حاول توضيح الحقيقة للمستنصر، والتلطف، وطلب العفو، ولكن عداة الجرجرائي له كان مستحكما. وكان نتيجة هذا التحامل ضد الدزبري - وهو القائد المنتصر المخلص - أن أدمن الشراب، وأصيب بمرض تسبب في موته في ١٠٤٤/٤٣٦ (أو ١٠٤١/٤٣٣).

ولما شب المستنصر، وعرف تحامل الجرجرائي، الذي كان قد توفى أيضاً؛ قرر أن يكرم قائده المخلص ميتاً، وذلك بعد خمس عشرة سنة في ١٠٥٦/٤٤٨. فأمر برد القاب الدزبري، ونقل جسده من حلب، ليدفن في بيت المقدس، وكان وصوله إلى كل بلد يوماً مشهوداً.

وكان الشام قد خضع بجميع أجزائه للفاطميين؛ بفضل الدزبري حتى وقت وفاته، إلا أنه بعد ذلك، كان ولاية الفاطميين يتغيرون باستمرار في دمشق^(١)؛ كما أن بعضهم كان يتولاها عدة مرات. كذلك أصبح هم الولاية جمع المال والمكايمة لأشباع سابقينهم من الولاية. وجر عدم استقرار الولاية، وسوء اختيارهم إلى قيام ثورات ضدهم في دمشق، تنتهي بكارث للبلد وسكانه، حتى أن الثوار في إحدى المرات أحرقوا المسجد الأموي الكبير وذلك في عام ١٠٦٩/٤٦١^(٢)، الذي هو أروع الجوامع في دمشق. وقد كانت الخلافة الفاطمية تحرص على بقاء نفوذها في دمشق، بإرسال عساكرها من طوائف المغاربة^(٣)، فكان سوء تصرف هؤلاء.

(١) مثلاً: ذيل، ص ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٩١، ٩٢؛ انظر. ماجد، الإمام المستنصر بالله، ص ٧١؛
 Ency. de l'Isi, (art Dimashk) 2 éd, t 2, P. 290.

(٢) ذيل، ص ٩٦.

(٣) نفسه، ص ١٠٨.

ومعاداتهم للعرب سبباً في أغلب هذه الفتن. ومن الطريف أن تذكر أن الدعاء لوالى الفاطميين في دمشق في المراسلات أو في الجوامع كان: «سَلِّمِ اللهُ وحفظه، أو «سَلِّمِ اللهُ ووفقه»^(١).

وقد ترتب على ضعف الولاة الفاطميين في دمشق أن طمعت قبائل بني كلاب في الاستقلال بحلب عن نفوذ الفاطميين، بزعامة المراداسيين. فبعد موت الدزبري تمكن أبو علوان شمال بن صالح^(٢) - وهو أخو نصر- الذي لقبه: معز الدولة، من الاستيلاء على حلب، بمساعدة بني كلاب. فكان المستنصر يرسل ضده جيوشاً بقيادة ولاته في دمشق، وخاصة من أسرة الحمدانيين العربية، التي سيطرت على حلب قبل المراداسيين، بفضل عبيدهم الترك، ثم غادروها إلى مصر بعد سيطرة الفاطميين عليها. ولكن أهل حلب- الذين كرهوا حكم الحمدانيين وعبيدهم الترك- كانوا يساعدون شمالاً في هزيمة الولاة الحمدانيين من قبل الفاطميين. ومع ذلك يبدو أن قوادماً آخرين غير الحمدانيين، تمكنوا من هزيمة شمال، ودخول حلب عدة مرات.

ولذلك؛ فإن شمالاً الذي رأى تصميم الفاطميين على توحيد مصر والشام قرر حفظ حلب عن طريق الدبلوماسية. فأرسل إلى مصر ابنه وهو في السابعة من عمره وزوجته السيدة العلوية في ٤٤٣/١٠٥١، ومعها كثير من التحف والهدايا فأعطتها للمستنصر ومعها أربعون ألف دينار، على أن يكتب لها إجازة أملت بها بنفسها، لتثبث زوجها شمال في إمارة حلب وما يتبعها^(٣)، كما سكت العملة باسم المستنصر^(٤). وفي سنة ٤٤٩/١٠١٧. قرر شمال أن يتنازل عن حلب

(١) نفسه، ص ٨٢، ٨٥، ٩٥.

(٢) عن ذلك بتفصيل، ص ٨، ٣٢، ٤٩، ٥٣؛ ابن العميد، ص ٢٧٢ وما بعدها؛ أبو الفدا، المختصر، ط. الحسينية، ص ٢، ١٤١، ١٤٢، ١٨٦؛ انظر. جمال سرور، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، القاهرة ١٩٥٥؛ ماجد، المستنصر بالله، ص ٧١؛

Ency de l'Isl, (art. Halab) t 2, P. 245.

(٣) سفرنامه، ص ٦٩ وهامش. ينكر المترجم معلومات بالهامش منقولة عن مخطوط بالملكية الأهلية B. N. برقم ٧٢٨، وورقات ٧٢ - ٧٣.

(٤) انظر Catalogue, P. 196(269).: Lavoix

نهائياً، بقصد أن يذهب إلى مصر ليعيش فيها، أو أن يأخذ بدلاً منها جبيل وبيروت وعكا. فأسرع الخليفة بإرسال قائده مكين الدولة بن ملهم والياً على حلب، فتوحد الشام كله مع مصر من جديد. وربما أن قلعة حلب وقتئذ قد أضيفت إليها مبان جديدة أو أنها دعت، لتبقى سيطرة الفاطميين قوية في حلب^(١).

ولكن المراداسيين من فرع آخر بقيادة محمود، الملقب عز الدولة، وهو ابن نصر بن صالح، الذي قتله الدزبزي قائد الفاطميين، عمل على أخذ حلب لأسرته بمساعدة الكلابيين. فثاروا على ابن ملهم وأخرجوه من حلب في ٤٥٢/١٠٦٠؛ كما انتصروا على الجيش الذي أرسل لنصرة ابن ملهم. فوجه المستنصر شمالاً - وهو عم محمود، الذي كان يعيش في مصر - فتمكن من هزيمة محمود. وربما يكون شمال فكر في الاستقلال بحلب، ولكن المستنصر أسرع وأرسل إليه المؤيد في الدين الشيرازي داعي الدعوة - المسئول عن المذهب ونشره بين أتباعه - الذي ذهب لمقابلة شمال في عسكر الفاطميين، وخرج شمال في بنى كلاب، فضرب العسكران مصافهم، وتلاقى الرجلان، وكانت النتيجة تجديد البيعة للمستنصر^(٢). وقد استمر شمال خاضعاً للفاطميين حتى وفاته في ٤٥٤/١٠٦٢^(٣)، وأوصى من بعده لأخيه عطية الملقب أسد الدولة، ليقوم مقامه.

ولكن محموداً عاد إلى حلب بجند مرتزقة من الترك ومال بيزنطي وهزم عطية، الذي سار إلى الروم، وأقام بالقسطنطينية حتى وفاته. فبقى محمود يحكم في حلب حكماً مستقلاً عن بقية الشام الفاطمية. ويبدو أن الذي مكن محمود من ذلك، هو ضعف الخلافة في مصر، وظهور الترك السلاجقة أو الفرز^(٤)، الذين جاءوا في هجرات كثيرة من وسط آسيا، وسيطروا على البلاد في طريقهم إلى العراق، وقبوا من الخلافة العباسية، عدوة الخلافة الفاطمية، ولا سيما أن

(١) سفرنامه، ص ١٠. يقول: وبها قلعة عظيمة مشيدة كلها على الصخر.

(٢) السيرة المؤيدية، ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) قيل قتل على يد محمود في ٤٥٢/١٠٦٠. (الكامل، ٨ ص ٩٠)، أو توفى في

٤٥٥/١٠٦٣. المصدر ذاته، ٨ ص ٩٤.

(٤) أنظر. بعده.

السلالفة لما أسلموا اعتنقوا المذهب السني، وهو مذهب العباسيين. ويبدو أن محموداً سعى إلى الإبقاء على استقلاله بحفظ التوازن بين جبهة مصر الفاطمية وجبهة العراق السلجوقية. وقد قطع الخطبة للمستنصر، ونخطب للقائم في بغداد خوفاً من السلاجقة، وإن وجد مقاومة من رعاياه الشيعة^(١). بعد وفاة محمود في ١٠٧٠/٤٦٣، حاول ابنه المسمى نصر أن يسير على سياسة حفظ التوازن وكانت أمه السيدة العلوية قد ذهبت بنفسها إلى السلطان السلجوقي مثلما فعلت من قبل لزوجها مع المستنصر الفاطمي، ولكن الأتراك السلاجقة زاد طمعهم في حلب، وما زالوا بها حتى سقطت في أيديهم في ١٠٦٦-١٠٦٧.

وعلى كل حال، كان استيلاء الفاطميين على كل الشام على يد الديزيري في أوائل حكم المستنصر، أن جعل ملك بيزنطة ميخائيل الرابع البفلاجوني "Michael IV Paphlagoni" يسعى إلى العودة إلى السلام. فعقد هدنة مع المستنصر في عام ١٠٣٨/٤٢٩، على أن يرسل مهندسيه لإصلاح كنيسة القيامة، التي يبدو أنها لم تكن قد أصلحت بعد، لقاء فك أسر خمسة آلاف أسير^(٢). ويذكر الرحالون^(٣)، أن التجارة بين الفاطميين والبيزنطيين نشطت حينئذ، فكانت سفن الروم تحمل من مصر الملح المستخرج من وادي النطرون، وتورد بدله الخشب المستعمل في بناء السفن؛ كما أن سفن مصر والشام كانت تسافر إلى موانئ الروم. وحينما تأتي مراكب إلى موانئ مصر في الإسكندرية ودمياط، أو موانئ الشام في طرابلس، تدفع ضريبة الخمس أو العشر^(٤)؛ وذلك على حسب الاتفاق. كذلك كانت قوافل الروم أو المسلمين تمر بالطريق البري عن طريق حلب.

(١) لما لبس المؤمنون السواد - شعار العباسيين - للدعوة لهؤلاء، رفع المسلمون الحصر من المسجد، وقالوا: هذه حصر على بن أبي طالب، فليأت أبو بكر بحصر يحل على عليها الناس. الكامل، ٨ ص ١٠٨.

(٢) نفسه، ٨ ص ١٦؛ المعنى، تاريخ، ورقة ١٨٥؛ Dölger, 834-843؛ انظر - أسد رستم الروم، ٢ ص ٦٥؛ ماجد، المستنصر، ص ٧٥.

(٣) سفرنامه، ص ١٠، ١٢؛ الكامل، ٨ ص ٢١؛ انظر Heyd

Histoire du Commerce du Levant, 1, 1 (5:124)

(٤) صبح الأعشى، ٣ ص ٤٦٣-٤٦٤ (ط. وزارة الثقافة ٢ ص ٤٥٩-٤٦٠).

ثم إن الموقف الدولي كان قد تغير، نتيجة لوجود الترك السلاجقة أو الغز في العراق^(١). وفي أول الأمر خافت بيزنطة من هذه القوة الجديدة؟ فحاولت أن تتقرب من الفاطميين، فعملت بيزنطة على تجديد الهدنة مع الفاطميين في سنة ٤٣٩/١٠٤٧^(٢)، وحمل كل من ملك بيزنطة وخليفة مصر لصاحبه هدية عظيمة. كذلك كان قد اتفق الوزير الفاطمي اليازوري في ٤٤٦/١٠٥٤؛ عن طريق رسوله أبي عبد الله القضاعي، مع الملك قسطنطين التاسع "Constantine IX Monomachus"، على إرسال بيزنطة لمصر ما مقداره أربعمئة ألف أردب من الحبوب؛ حيث إن مصر كانت تعاني مجاعة عارمة، وهذا دليل على التفاهم التام. ولكن ثيودورا "Theodora" -ابنة قسطنطين الثامن الصغرى التي تولت الملك- رفضت إرسال الحبوب، إلا إذا وافقت مصر على عقد معاهدة دفاعية هجومية، وأن ينجدها المستنصر بعساكر مصر، إذا هوجمت. ولكن الفاطميين الذين يعتبرون السننيين معارضين لمذهبهم لم يكونوا -في رأينا- يتفقون مع البيزنطيين ضد طائفة إسلامية، حتى ولو كانت معارضة لمذهبهم.

عندئذ سعت بيزنطة إلى التقرب من الترك السلاجقة في العراق، ولا سيما أن السلاجقة كانوا راغبين في ذلك، وأرسلوا سفارة إلى القسطنطينية؛ بحيث ألغيت الخطبة للخليفة المستنصر في جامع القسطنطينية في عهد الملك ميخائيل السادس "Michael VI Strotioticus"، وأعلنت الخطبة للخليفة القائم العباسي، على الرغم من محاولة المستنصر منع ذلك، بإرسال سفارة له إلى القسطنطينية على رأسها أبو عبد الله القضاعي المذكور، بل واتفق السلاجقة مع الروم على أخذ الدولة الفاطمية^(٣). فكان هذا التصرف العدائي من قبل بيزنطة نحو الفاطميين، سبباً في فساد العلاقة بينهما، واستمر العداء بمجى الحروب الصليبية. كذلك

(١) انظر. بعده.

(٢) الكامل، الخطط، ٢ ص ١٢٧؛ العيني. تاريخ، ورقة ٩٨٦؛ ابن ميسر، ص ٦ وما يليها؛

وفيات، ٢ ص ٢٤٣؛ Wust؛ 250. : Dölger, P. 881; 912; Gesch. der Fat, Khalifen

؛ أسد رستم، ٢ ص ٧٩، ٧٨، ٦٩.

(٣) السيرة المؤيدية، ص ٩٤-٩٥. وهامش؛ العيني، تاريخ، ورقة ١٨٦؛ ابن الجوزي، عجائب

البدائع، مخطوطة بالمكتبة الأهلية، برقم ١٥٦٧، ورقة ١٨٦.

عمل البيزنطيون على مهاجمة الفاطميين؛ بحيث أرسلوا اسطولاً مكوناً من ثمانين قطعة لمهاجمة مدن الساحل الشامى. ولما عرف المستنصر بنيات بيزنطة، استولى على كل ما فى كنيسة القيامة، ومنع وصول الحجاج النصارى إلى القدس، واضطهد الروم، ونادى فى بلاد الشام بالغزو. وقد حاول المستنصر أن يتفق مع محمود المرداسى-- الذى كان قد استولى على حلب واستقل بها كما ذكرنا-- على غزو بيزنطة؛ إلا أن محموداً كان قد اتفق مع البيزنطيين، واعتذر بمهادنتهم، وإعطائه ولده رهينة لهم^(١)، فضلاً عن عداوة المرداسيين للفاطميين. وفى الواقع كان بعض أمراء المرداسيين مثل بعض أمراء الحمدانيين مترفين بشربون الخمر، وأن بعضهم كانوا خونة مع الروم ضد المسلمين.

يتبين من كل هذا أن خلفاء الفاطميين سيطروا فى الشام حتى الفرات، وعملوا على توحيد مصر، إلا أن العقبات قامت فى سبيل هذه الوحدة، بسبب المطامع الشخصية لبعض القادة فى الشام، وانقسام عرب الشام؛ مما أضعف جبهة الفاطميين أمام البيزنطيين، مع أن هذه الوحدة كانت كفيلاً دائماً لوقفت خطرهم.

*

كذلك كان هدف الفاطميين منذ تكوين دولتهم بالمغرب، تدمير خلافة العباسيين فى العراق. ولكن حين انتقالهم إلى مصر وفتحهم الشام، أحجموا عن ذلك؛ بسبب هجمات الروم فى الشام، ولأن العباسيين كانوا قد سيطرت عليهم أسرة فتية هى الأسرة البويهية. فقد كان العباسيون فى فترة احتضار، وأصبح الخليفة تحت وصاية المتغلب عليه من قواده الترك الأتقوياء. ومنذ ٢٣٤/٩٤٥، لم يقف ضعف الخليفة العباسى عند استيلاء رجل أقوى منه على السلطة، ولكن تطور الأمر إلى أن سيطرت عليه أسرة بنى بويه^(٢)، التى أصلها من عنصر الديلم

(١) النجوم، ٥ ص ٧٩.

(٢) عنهم؛ الكامل، ٦ ص ٢٣٠ وما بعدها؛ وفيات، ١ ص ٩٧-٩٩، ٣ ص ٦٥؛ المقرئى،

السلوك (الطبعة الثانية)، ١/١ ص ٢٣ وما بعدها؛

انظر. Ency. de l'Isi, (art Buyides) ; I P. 827-828 ; 2 6d ; I P. 1930. sqq.

الفارسي، وتمكنت من تكوين دويلات بزعامة أفرادها في فارس؛ بسبب ضعف الخلفاء العباسيين، ثم استولت على بغداد من الأتراك المتغلبين عليها، وأصبحت تحكم في بلاد الخليفة العباسي وارثاً عن وارث، معتمدة أساساً على القومية الفارسية.

يضاف إلى ذلك أن بنى بويه على عكس قواد الأتراك السنة، كانوا متشيعين؛ فقد كانت القومية الفارسية منذ زمن قد تحولت إلى الشيعة^(١)؛ بسبب أن الحسين بن عليّ كان قد تزوج جهانشاه ابنة يزيدجرد^(٢)، آخر ملوك الفرس، ثم إنه بمجرى بنى بويه إلى العراق، أصبح العراق ذاته موطناً هاماً للشيعة^(٣). ولكن تشيع البويهيين، كان على أساس المبدأ الزيدي، نسبة إلى زيد بن عليّ السجاد ابن الحسين بن عليّ، الذي قتل في أيام هشام الأموي. فكان الزيديون لا يعترفون بخلافة العباسيين؛ إلا أنهم كانوا يقبلون خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وقالوا بجواز إمامة المفضل مع وجود الأفضل^(٤)؛ كما قالوا أن الإمامة غير واجبة شرعاً، وأنها تقليد يمكن الاستغناء عنه، وأن الفقهاء يكونون عوضاً عنها. ومع ذلك يجب أن نقرر أن البويهيين لم يكن لهم إمام حاضر؛ وإن فقه مذهبهم لم يصل إلى درجة الفقه الإسماعيلي والفاطمي في مصر.

معنى هذا أن الفواطم حينما نقلوا خلافتهم من المغرب إلى مصر، وامتد ملكهم نحو العراق بالاستيلاء على الشام، وجدوا تشيعاً في بغداد، مركز الخلافة العباسية والأرض الخاضعة لها في العراق والمشرق، وأن صاحب هذا التشيع-وهم البويهيون- هو صاحب الأمر والنهي. فكان هذا من شأنه ولا ريب ألا يدفع كلا

(١) النجوم ٤٠ ص ١٤٢.

(٢) النويختي، ص ٥٣؛ انظر. R.M.M. vol. Aubin. Le chiisme et la Nationalité perasne. 4. Mars, 908, n. 3, P. 457 sqq; Essai sur l'Histoire des Ismaéliens de, : Defrémy; la Perse, P. 12.

(٣) رسائل الخوارزمي، طبعة القسطنطينية ١٢٩٧هـ، ص ٤٩؛ انظر. متن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ط ٢، ١ ص ٧٧.

(٤) الخطط، ٤ ص ١٧٣، ١٧٥. عن عقيدتهم؛ النويختي، فرق الشيعة، ص ٥٨.

من الفاطميين أو البويهيين إلى أن يقضى الواحد منهما على الآخر، ولكن على العكس عمل على التقريب بينهما. وتلمس هذه الروح والميل الصريح نحو الفواطم من قبل البويهيين مما حاول معز الدولة أول البويهيين في بغداد بالكشف عما في قلبه بالبيعة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله لما جاء مصر، لولا أن أشار إليه أصحاب النظرة البعيدة من أتباعه^(١) بترك هذا الأمر خوفاً على سلطانه وسلطانهم، ونفوذه ونفوذهم. ودليل آخر على رفضهم خلافة العباسيين هو إهانتهم للخلفاء العباسيين؛ فمعز الدولة أمان المستكفي بالله، واقتاده إلى داره واعتقله فيها، ثم أمر بنهب دار الخليفة^(٢)، وولى بدله المطيع، ليطيعه. فالخوف على سلطانهم كان الحائل الوحيد في سبيل إعلان الفاطميين أئمة عليهم، وتوحيد الخلافة في دار الإسلام؛ وهو الحائل ذاته الذي جر القرامطة إلى مقاومة الفاطميين وحربهم، بل جعل بخختيار الذي تولى بعد أبيه معز الدولة، يمد القرامطة بالمال والسلاح، لوقف تقدم الفاطميين. ومع ذلك، فالولاء لأئمة الفاطميين من البويهيين أصحاب الأمر والنهي في بغداد، كان يعلمه الملأ في كل مكان، وتحت سمع الخلافة العباسية.

ولعل العلاقات الحسنة بين البويهيين والفاطميين لم تكن من القوة والصفاء، مثلما كانت بين عضد الدولة^(٣) البويهى والعزيز الفاطمي. وقد احتفظ لنا أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) برسالة بين العزيز الفاطمي رداً على رسالة عضد الدولة، فيها يشكر العزيز عضد الدولة على ولائه وخضوعه؛ كما انتهز عضد الدولة وصول رسول العزيز بهذا المكتوب ليذلل الخلافة السنوية عدوة الفواطم، فقرأ الرسالة مع ما تضمنه من خضوع سافر وولاء ظاهر للفواطم في حضرة المطيع العباسي، حتى دهش أبو المحاسن وتعجب، وإن كان ليس هناك ما يدعو للعجب لاجتماع البويهيين والفواطم في رمز واحد، وإمام واحد، وهو «على». ويجمال بنا أن نعرض بعض ما جاء في هذه الرسالة الهامة^(٤)؛ «وبعد،

(١) السلوك، ١/١ من ٢٧ من ٨-١٩.

(٢) مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، نشر Amedroz، ١٩١٤، ٢ ص ٨٦.

(٣) عنه، انظر. Ency. de l'Isl, (art. Adud al-Dawla) t I, P. 217-219.

(٤) النجوم، ٤ ص ١٢٤-١٢٥.

فإن رسولك، وصل إلى حضرة أمير المؤمنين، مع الرسول المنفذ إليك، فأدى ما تحمله من إخلاصك في ولاء أمير المؤمنين ومودتك، ومعرفتك بحق إمامته، ومحبتك لأبائه الطائعين الهادين المهديين...، ثم ذكر كلاماً طويلاً في المعنى. أما بقيه الكتاب، فيستدل منها على أن العلاقة لم تقف عند تبادل الرأي والمشورة، فيما يحيط بهما في العالم الإسلامي من خطر الروم، وضعف الحمدانيين في منطقة الثغور، وهي حدود الشام الشمالية؛ فكتب ابن كلس، الوزير الفاطمي، لعضد الدولة يقول: « وقد علمت ما جرى على ثغور المسلمين من المشركين، وخراب الشام وضعف أهله.... فتأهب إلى الجهاد في سبيل الله ».

ولقد شارك عضد الدولة العزيز في كرهه للحمدانيين، فكما عمل العزيز على محاربة حمداني الشام، عمل عضد الدولة على القضاء على حمداني الجزيرة، ولا سيما أنهم كانوا أيضاً في منازعات داخلية؛ فقد كان أبو تغلب قد قبض على أبيه ناصر الدولة، واستولى على السلطة منذ ٩٧٧/٣٥٦. فغزا عضد الدولة دولة أبي تغلب واستولى عليها، فهرب أبو تغلب إلى الشام، وقتل فيها في ٩٧٩/٢٦٩^(١). وكذلك لما حدث نزاع بين باسيل الثاني ورجل اسمه برديس سكليروس "Bardas Skléros"؛ فكر عضد الدولة في مشاركة العزيز في جهاده ضد الروم، بالمساومة ببرديس الذي التجأ إليه، لاسترداد المدن التي فتحها الروم في منطقة الثغور. ولكن^(٢) صمصام الدولة، الذي تولى بعد أبيه عضد الدولة، عقد معاهدة مع الروم في ٩٨٦/٣٧٦^(٣)، مثلما فعل العزيز في السنة التالية في ٩٨٧/٣٧٧.

هذه هي مظاهر العلاقة الرسمية الطيبة بين بغداد والقاهرة. وهناك مظاهر أخرى لهذا التوافق، تتمثل في اشتراك أهل مصر والعراق من الشيعة في بعض الأعياد المذهبية، التي تحيي ذكريات الشيعة الأولى، مثل عيد عاشوراء، الذي

(١) الكامل، ٧ ص ٢٣-٢٤، ٩٥-٩٩.

(٢) عن وعود برديس لصمصام الدولة. انظر. صبح، ١٤ ص ٢٠-٢٤.

(٣) ابن العميد، ص ٢٤٤-٢٥٢، انظر. Canard.

سمى هكذا قتل الحسين بن عليّ في العاشر من المحرم، وهذا العيد كان يحتفل به في بغداد منذ أن استقر البويهيون في العراق، أما في محصر فدخل بدخول الفاطميين، وحتى قبل ذلك. وفي هذه الفترة أنشئت الأضرحة الخاصة بعليّ والحسين في العراق، الأولى في النجف، والثانية في كربلاء.

ولكن بعد موت عضد الدولة في ٩٨٦/٣٧٦، ضعف البويهيون في العراق، وتغير الموقف بين الفاطميين والعباسيين؛ بسبب ما ترتب عليه من تقوية هؤلاء. وقد كان ضعف الدويلات البويهية يرجع إلى عدم تماسكها فهي مثلاً لم تكن لها عاصمة واحدة، وإنما تعددت عواصمها بين أعضاء الأسرة البويهية، وأصبحت تبريز والرئ وأصفهان وبغداد عواصم كل أمير بويهى، ينزع إلى الاستقلال؛ بحيث إن الخليفة الطائع السنّى بعد المطيع كان يجلس للمصالحة بينهم، ويجمعهم على الائتلاف^(١). وزاد من ضعف البويهيين اعتمادهم على عناصر غريبة عنهم، طمعت فيهم، مثل: العرب الذين كانوا في العراق وديار الجزيرة، والأكراد^(٢) بجوار الجزيرة، وبخاصة عنصر الترك في بغداد مع أن استيلاء البويهيين على السلطة في بغداد، كان بطرد الترك، وأنصار العنصر الفارسي. يضاف إلى ذلك، أن المذهب الزيدى كان يبيع الحرية المذهبية، ويجيز المهادنة بين أهل الملتين، فكان هذا من شأنه أيضاً تقوية أمر السنة المتبعة على حساب الشيعة.

وكان مظهر ضعف البويهيين في العراق، هو أن السنّيين في خلافة القادر بالله الذي تولى بعد الطائع في ٩٩١/٣٨١؛ أقاموا أعياداً تقابل أعياد الشيعة مثل يوم الغار—وهو المكان الذي اختفى فيه النبي وأبو بكر— وجعلوه بعد ثمانية أيام من يوم الغدير، في السادس والعشرين من ذي الحجة، وهو اليوم الذي أوصى فيه النبي لعليّ بإمامة المسلمين بعده، لتبقى في أسرته إلى يوم القيامة، وقد جعلوا بإزاء يوم عاشوراء، يوم مصرع مصعب بن الزبير، بسبب أنه أحد حوارى

(١) الروندروارى، ذيل، ص ١٢٥-١٢٦.

(٢) الكامل، ٧ ص ١٩٢ س ١٥.

الرسول، ولا يقل في منزلته عن علي بن أبي طالب، وعملوه لأول مرة في
٣٨٩/٩٩٩(١).

كذلك تدخل الخليفة العباسي القادر بالله في أمور السياسة في بغداد،
فأظهر ما يمكنه من بغض وحقد نحو الشيعة عموماً ولعنهم. وأوجد ما يسمى
بالاعتقاد القادري، واعتبر من خالفه فاسقاً، ومنع تدريس علم الكلام؛ إذ حارب
الفكر بعامة بدليل أنه هاجم فكر المعتزلة ولعنهم أيضاً. فقد عمل على منع الشيعة
في أحياء الكرخ والطائفة ببغداد من الاحتفال بيوم عاشوراء، والنوح على الحسين
في ٣٨٢/٩٩٢(٢)، مع أنه عمل منذ نحو ثلاثين سنة(٣). ولما حدثت فتنة بين أهل
السنة والشيعة، وصاحت الشيعة؛ (حاكم يا منصور)، إشارة إلى خليفة مصر
الحاكم بأمر الله، أنفذ القادر الحراس لنصرة السنة(٤). بل تمكن أحد قواد الترك
في بغداد من حبس بهاء الدولة(٥) البويهى بن عضد الدولة، وأصبح الخليفة
والقواد الأتراك هم المسيطرون في بغداد.

ولما تولى الخليفة العباسي القائم بالله بعد القادر بالله، كان أشد عداوة
للبويهيين والشيعة. فبعد موت جلال الدولة(ت ٤٣٥/١٠٤٤)، ابن بهاء الدولة،
الذي كان ضعيفاً(٦)، ومجئ أبي كاليجار - وهو ملك بويهى آخر - ليسيطر في
بغداد والعراق من دون جلال الدولة؛ فإن الخليفة القائم وجد الشجاعة في الامتناع
عن استقبال أبي كاليجار(٧)، الذي دخل بغداد بعد انتصاره على ولد جلال الدولة.
ولكن لسوء حظ الخليفة القائم أن أبا كاليجار كان من دون أواخر البويهيين قوياً؛
بحيث كان يضرب الطبل على يابه في الصلوات الخمس لتكريمه، بينما عضد

بن العماد، شذرات، القاهرة ١٣٥٠هـ، ص ٣، ١٣٠؛ انظر. متز، الحضارة، ص ١ ص ٩١.

كر ابن العماد أن أيام الفار كانت في صفر وبيع الأول.

كامل، ص ٧، ١٤٨.

نجوم، ص ١٦٢ س ٩-١١.

نظر. متز، الحضارة، ص ٩١-٩٢ (ينقل عن مصادر مخطوطة).

نجوم، ص ١٦٣.

كامل، ص ٣٧ س ١٢.

نجوم، ص ٣٧، س ١٨. عن هذا الملك، انظر. مثلاً؛ العبر، ص ٢، ٤٥٢. وما بعدها؛

آة الزمان، ٢/١١ ودرقات ٥٠٥ وما بعدها؛

Ency. de l'Isl, (art. Abu Kālidajār), t Ip. 96-7.

الدولة نفسه ضربها ثلاث نوب^(١)، فقد كان ضرب الطبل من علامات السيطرة والحكم. ولما توفي أبو كاليجار في سنة ١٠٤٨/٤٤٠، ملك ابنه الملك الرحيم خسرو فيروز، رفض الخليفة القائم الاعتراف بتلقيبه بالملك الرحيم؛ بحجة أن هذا اللقب أخص صفات الله تعالى^(٢). وقد بقي الملك الرحيم ضعيفاً، بسبب أنه كان في حروب مستمرة ضد أعدائه البويهيين؛ بحيث أصبحت بغداد بدون ملك بويهى. بل زاد الأمور سوءاً للشيعية في العراق بمهاجمتهم في أحيائهم، حتى إن مشاهد الشيعة أحرقت، واتهم الخليفة بذلك^(٣). وقد تطاير الشرر بين الشيعة والسنة في بغداد ولا سيما في سنة ١٠٤٩/٤٤١؛ بحيث إن كلا منهما أخذ يبني الأسوار حول نفسه، وجرت بينهما فتن كثيرة^(٤)، وزال كل صفاء بينهما، وقد عظمت الفتنة بينهما أضعاف ما كانت عليه قديماً في ١٠٥١/٤٤٣^(٥)، فنبشت قبور الأولياء، وأحرقت قبور ملوك بني بويه ووزرائهم. ومع أن نقبى العلويين والعباسيين حاولا مصالحة الطرفين في هذه الفتن المذهبية؛ إلا أن الاتفاق بين الطرفين أصبح غير ممكن استمراره.

كذلك هذا الضعف البويهى كان مشجعاً للخلافة العباسية على أن تهاجم عدوتها الفاطمية في مصر. فنجد الخليفتين؛ القادر بالله ومن بعده القائم بالله، يطعن كلاهما في محضر رسمى في نسب الفاطميين—أصحاب مصر— قرئ على المنابر، وأرسل إلى جميع ولايات الخلافة العباسية، وسُيِّر إلى الأناق، وهو النسب الذى يجعلهم ينتسبون إلى فاطمة وعلى، وتركز سلطة خلافتهم عليه. فظهر المحضر الأول من قبل القادر بالله ضد الحاكم بأمر الله في شهر ربيع الآخر من سنة ١٠١١/٤٠٢^(٦)، والثانى من قبل القائم بالله ضد المستنصر بالله في ١٠٥٢/٤٤٤^(٧). وقد حرص الخليفتان العباسيان على أن يأخذوا توقيعات كبار

(١) ابن الجوزى، المنتظم، الطبعة الأولى، حيدرآباد ١٣٥٩هـ، ص ٨١١.

(٢) الكامل، ص ٤٨ (في أواخر الصفحة).

(٣) العبر، ص ٤٥٥.

(٤) الكامل، ص ٥٣.

(٥) نفسه، ص ٥٩-٦٠؛ شذرات، ص ٢٧٠؛ المنتظم، ص ١٤٩.

(٦) ابن الجوزى، المنتظم، ص ٧؛ النجوم، ص ٤؛ شذرات، ص ١٦٢-١٦٣، بعده.

(٧) الخطط، ص ٢؛ الكامل، ص ٨؛ النجوم، ص ٥٣. وقيل في سنة ١٠٥٠/٤٤٢. العيني، تاريخ ورقة ١٨٦ب؛ انظر، ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمى، ص ٨٢.

الأشراف والفقهاء والقضاة والعلماء في بغداد، وذلك حتى يحوز الطعن الأهمية، ولا يتسرب الشك إلى الناس. فأخذت فيه توقيعات الأتية أسماؤهم^(١)؛ الشريف الرضى، وأخوه المرتضى نقيب الطالبين، والأبيوردي والاسفرائيني وأبو جعفر النسفى من العلماء، أبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة، من أسرة النعمان في مصر. حقاً إن الخلافة العباسية أو الأموية بالأندلس^(٢)، كانت تشكك في نسب الفاطميين منذ ظهورهم؛ ولكن لم يحدث أن ظهر طعن رسمي قبل ذلك.

ومع أن صيغة المحضر^(٣) ضد الحاكم الفاطمي قد وصلتنا، فإن صيغته ضد المستنصر بالله لم تصلنا، وتشابها في نسبتها على الخصوص إلى أصل مجوسى، وبالذات إلى شخص غامض اسمه ديسان. ولدينا معلومات أخرى عن

(١) عن المرتضى، انظر: وفيات، ٢ ص ١٤ وما بعدها. عن الأسفرائيني. وفيات، ١ ص ٢٣؛

انظر. ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٤٢.

(٢) كذلك كتب الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله إلى العزيز كتاباً يسبه فيه ويهجو، ورد فيه: «أما بعد؛ فإنك قد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبتك والسلام». انظر. وفيات، ٣ ص ٥٣.

(٣) هاهي صيغة المحضر؛ هذا ما شهد به الشهود، أن سعد بن إسماعيل المستولى على مصر، هو معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد، وأنهم منتسبون إلى ديسان ابن سعد الدين، ينتسب إلى الديصانية، وأن سعيداً المذكور سار إلى المغرب، ويسمى عبيد الله، ويلقب بالمهدي، وأن هذا الناجم الحاكم بمصر هو منصور، الملقب بالحاكم - حكم الله عليه بالبور والدمار - ابن نزار بن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد، وأن من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس - عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين - أدمياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب - رضوان الله - ولا يعلقون منه بنسب، وأن ما اتهموه من الانتساب إليه باطل وزور، ولم يتوقف أحد من أهل بيوتات الظالمين من إطلاق القول في هؤلاء، لأنهم خوارج أدمياء، وأن هذا الإنكار لنسبهم كان سابقاً بالحرمين، وفي أول أمرهم بالمغرب انتشر انتشاراً عظيماً، وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق وزنادقة ملحدون معطلون، وللإسلام حاجزون، ولذهب الوثنية والمجوسية معتقدون، عطلوا الحنود، وأباحوا الفروج، وأحلوا الخمر، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، وأدعوا الربوبية. وكتب ذلك في ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمئة، وشهد بذلك من العلويين الشرفاء؛ المرتضى والرضى المسويان، بجماعة منهم، وشهد من الفقهاء المعتبرين الشيخ أبو حامد الأسفرائيني، وأبو الحسن القدي، وقاضى القضاة محمد ابن أحمد، وأبو عبد الله البيضاوى.

هذه الصيغة نجدها تختلف من مصدر لآخر، فضلاً عن الاختلاف في إيراد أسماء الشهود.

هذا الشخص من مصادر أخرى غير محضر الطعن، ولا سيما مما كتبه الشريف العابد أبو الحسين المعروف بأخي محسن في أصل الفاطميين، الذي نقل عنه كثير من المؤرخين السنة؛ طعناً في الفاطميين. والسبب في أهمية ما كتبه أخو محسن - وقد وصلنا في كتابات آخرين - أنه كان من العلويين محققاً لأنساب أهل بيته، حتى يتحقق أمر نسبهم. فقد كان يرى أنه كان لديصان ابن اسمه ميمون، اشتهر بالقنّاح^(١)، الذي كان مولى جعفر بن محمد الصادق - جد الفاطميين - والقنّاح هو كحال يقده العين، إذا نزل فيها الماء، أو من يشد السهام. وقد أسس القنّاح فرقة تنسب إليه ربما للغلو في العلويين والدعوة لهم، وأن ميمون كان له ولد هو عبد الله^(٢)، عرف بتفقه في المذهب الشيعي. وربما يكون الطعن محققاً بنسبتهم إلى هذا الأصل بالذات، لأن القرامطة في البحرين - وكانوا فرعاً من الفاطميين - لما انقلبوا على هؤلاء وحاربوهم في الشام ومصر، قد نسبوهم إلى ميمون القنّاح^(٣). بل إن الفاطميين أنفسهم ذكروا القنّاح في كتبهم؛ فقد تناقلوا أن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، اختلف مع شخص اسمه ميمون القنّاح وابنه عبد الله، وربما كان ميمون بذلك أول حجة للإمام المكتوم^(٤). ومما زاد الاضطراب حول أصل الفاطميين، هو أن الفاطميين أنفسهم لم يتكلموا عن أئمتهم في دور الستر، وهي الفترة التي اختلفوا فيها أيام العباسيين، واستمر ذلك حتى فترة الظهور، بتكوين دولتهم بالمغرب ومصر. وربما لأنه كان في اعتقادهم أن فترة الستر موحى بها؛ فكان إذا سألهم أحد عن هؤلاء الأئمة المستورين لم يجيبوا وقالوا: «هم أئمة قهروا، فاستتروا، ولم

(١) عنه: ابن أبيه، كنز الدرر، ٦ ص ٦ وما بعدها؛ الخطط، ٢ ص ١٥٨؛ الحماد اليماني، كشف أسرار الباطنية، ص ١٦-١٨؛ الفهرست، ص ١٨٨؛ البغدادي، الفرق بين الفرق (ط. مصر)، ص ٢٦٦؛ الجويني، كتاب تاريخ جها نكشاي، ص ٨٦ وما بعدها؛ انظر: Ivanow, Rise, P. 127 sqq;

Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs London, 1834, P. 43 sqq.: Mamour;

(٢) زهر المعاني (من المنتخب)، ص ٤٧، ٤٩؛ انماظ، تحقيق الشيبان، طبعة طوب قبو سراي، ص ٢٤-٢٦؛ انظر.

Ency, de l'Isi, (art Abd Allah b. Maymûn) 2 ed t I, P. 49-50.

(٣) النجوم، ٤ ص ٧٤ س ١٨.

(٤) انظر: Lewis, The Origin of Isma' ilism, P. 63-4.

يؤمروا بإظهارهم ولا نكرهم لأحد^(١)، حتى أن علماء كباراً من الفاطميين مثل الرزاي والنعمان والمؤيد لا ينكرونهم. كما أن بعضهم تحدث عن هذه الفترة بما يحلو له؛ بحيث جاء حديثهم مضطرباً؛ فاختلف في أسماء الأئمة المستورين أو حتى عددهم، وإن قيل إن عددهم ثلاثة، وهم أحمد والحسين ومحمد. ويزيد الأمر غموضاً أن بعض الكتب بما فيها الشيعية، تردد أن عبيد الله المهدي لم يكن الإمام الحقيقي، وإنما هو سعيد الخير، وأن الإمام الحقيقي هو ابن عمه عليّ ابن محمد، الذي مات وهو يتأهب للسفر إلى المغرب، فجعل سعيد الخير هذا ستاراً لابنه أبي قاسم، وأبا روحياً له؛ حيث اصطحبه معه؛ واعتبر أبو القاسم بعد موت عبيد الله الإمام الظاهر الأول، بعد فترة التقية^(٢). كما أن كتاباً سنوية أخرى ترى الوصي على سعيد الخير - وهو عبيد الله - في رأيهم كان عمه محمد المعروف بالشلعلع (أو الشلغلغ)^(٣)، وإن كليهما ليسا من نسل الفاطميين، وإنما من سلالة عبد الله بن ميمون القدّاح. ويذكر ابن حمّاد السنّي، أن أبا القاسم، كان يركب في أيام المهدي بالمظلة - شعار أئمة الفاطميين - وباسمه كانت تنفذ الكتب والعهود^(٤)؛ مما يؤيد ما ورد في الكتب الشيعية والسنية. فيبدو أن العباسيين استغلوا فترة الستر، وروايات الشيعة خاصة بالمهدي ووليّ عهده، لكي يظهرها الفاطميين بمظهر المدعين للنسب الشريف.

والواقع أن نظرة واحدة إلى ما ورد في محضر الطعن العباسي أيام الحاكم أو أيام المستنصر تكشف عن اضطرابه؛ إذ ليس فيه براهين، وإنما قدح وترهات ملؤها التعصب؛ بحيث لم يخرجوا الفاطميين فقط من النسب الشريف، بل راحوا يخرجونهم من الإسلام قاطبة. ومن رأى المؤرخ الحصيف ابن خلدون في

(١) كشف، ص ١٩ س ٨-٩؛ انظر. Ivanow،

Alleged Founder of Isma' iliam, PP. 7-8

؛ كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٥.

(٢) غاية الموليد (من المنتخب)، س ٣٦-٣٧؛ زهر المعاني (من المنتخب)، ص ٦٧، وأيضاً؛ الفرائض، (من المنتخب) ص ١١-١٢؛ اتماظ، تحقيق جديد، ص ٢٦، انظر. حسن إبراهيم، عبيد الله، ص ٨٠ وما بعدها.

(٣) ابن أبيهك، الدر، ص ١٩؛ نهاية الأرب، ٢٦ ورقة ٢٤؛ الخطط، بولاق، ص ١، ٣٤٨.

(٤) ابن حمّاد، ص ١٤.

مقدمته^(١). أن العباسيين طعنوا في نسب الفاطميين؛ بسبب أن هؤلاء شاركوهم النسب إلى النبي ثم هو يتعجب من أن رجلاً مثل أبي عبد الله الشيعي، الذي أنشأ للفاطميين خلافتهم بالمغرب، يضع نفسه وحياته في خدمة مدح-أبي المهدي- ويرى أن إرسال الخليفة العباسي كتبه لولاته وراء المهدي للقبض عليه، دليل صحيح على صحة نسب المهدي إلى النبي. أما من وافق على هذا الطعن-من الفقهاء وغيرهم- فهو من باب التزلف، وأن شهادتهم كانت على السماع؛ تصديقاً لأحاديث ملفقة. وكذلك المقرئ في كتابه: الخطط^(٢)، يقدم الحجج ذاتها التي تجعله يرفض ما جاء في مخضر الطعن، ويرى أن سبب القدح بالأحرى جاء نتيجة لضعف العباسيين؛ بينما ملك الفاطميون من بني العباس بلاد المغرب ومصر والشام واليمن واليمن، فلذا العباسيون بتفسير الكافة عنهم بإشاعة الطعن في نسبهم. ولدينا مقالة شقيقة من الأمير الهولندي مامور "Mamour"، يناقش فيها سبب ظهور الطعن في عهد الحاكم الفاطمي، وهي تصح أيضاً لمناقشة الطعن في عهد المستنصر، في كتابه: "Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs"، نلخصها في البنود الآتية^(٣):

- ١- الكراهية المتأصلة في العباسيين لنسل علي وفاطمة، وذلك حينما هددوا سلطانهم.
- ٢- المرارة من مقاسمة الفاطميين أملاكهم.
- ٣- الحقد الذي تولد من منافسة القاهرة قاعدة الفواطم لبغداد قاعدة العباسيين، كمركز للعلم والأدب والفن الإسلامي.
- ٤- الخوف من امتداد سلطان الفاطميين لما بقي في أيديهم.
- ٥- الفرصة مواتية لاختلاف الشيعة وتفرقهم بين فرق مختلفة.

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٦-١٨؛ انظر. Quat.

Mém. Hist. sur la dyn des kh Fat. Paris, 1838, pp. 10-13

(٢) الخطط، ٢ ص ١٥٨-١٦٠.

(٣) انظر. Polemics, P. 16 sqq.

٦- إمكان التأثير على بعض العلويين في بغداد، وضمهم لجانبيهم.

٧- كذلك البويهيون وإن كانوا شيعة، لا يمانعون؛ لأنه قد نالهم الضعف، فقدروا الخطر الفاطمي حق قدره.

٨- إمكان إثارة العناصر السننية، التي توجد في البلاد، التي امتلكها الفاطميون.

٩- إعلان هذا المخسر من شأنه أن يضعف نفوذ الفواطم، ولا ضرر منه على العباسيين.

ومهما يكن، فقد ظهر أثر هذا الطعن الرسمي بين سكان أملاك الفاطميين ففي مصر يقول أبو المحاسن: إن الحاكم هان في أعين الناس؛ لكتابة العلماء في المخسر، وأنه قامت قيامته. وقد يكون هذا القول صحيحاً؛ بحيث إنه لما شاع عن الحاكم دعوى الألوهية، ازداد بعض الناس سخرية منه. فنجد الحاكم يرد ذلك، بأنه كان يذكر نسبه في كل جمعة وهو على المنبر يخطب، ولا سيما أن الناس من أعداء خلافتهم كانوا يدسون له رقاعاً مختومة بالدعاء عليه، والسب لأسلافه^(١). بل ظهر أثر الطعن في أن حاكم مكة كان يدعو للفاطميين، فألقى الخطبة لهم. كذلك كان الحاكم قد أباح للسننيين تدريس مذهبهم؛ فإنه لما سمع بالطعن، حظر ما كان قد أباحه. وعلى العكس، لا نسمع مثل هذه الأقوال بالنسبة للخليفة المستنصر؛ مما يبين أن دعوى العباسيين لم تعد تجد لها صدى بين رعايا الفاطميين؛ ربما إدراكاً لتلفيقها وزيفها.

وفي الوقت عينه، لم تقف الخلافة الفاطمية مكتوفة الأيدي أمام هذا النشاط السنني في العراق، الذي ظهر نتيجة لضعف البويهيين، بل نشطت في استمالة الأنصار، وذلك عن طريق إرسال رجال متخصصين في الدعوة للمذهب؛ كما أرسلت الأموال الكثيرة إلى من في العراق لاجتذابهم^(٢). فعين في العراق والجزيرة في زمن الحاكم؛ حميد الدين الكرمانى، الذي وصف على أنه حجة

(١) ابن إياس، ١ ص ٥٦؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٤٥.

(٢) يحيى، (شيخو) ص ٢٠٦.

العراق. وفي زمن الظاهر، أكثروا من إرسال الدعاة إلى العراق ويثثم في بغداد^(١). وفي زمن المستنصر، كان الدعاة في العراق، يقيمون الاجتماعات للتشاور في رد الوهن، والتكليف بين كلمة الديلم^(٢). وقد أحس ملوك البويهيين بحالتهم التي ساءت؛ فكانوا يعملون على قبول دعاة مصر علانية، وأظهروا تقربهم من الفاطميين كوسيلة لإرهاب العباسيين.

ولعل أشهر من أرسل إلى ملوك البويهيين بالعراق، هو هبة الله المؤيد في الدين^(٣)، الذي عرف بالشيرازي نسبة إلى شيراز بفارس، عند الملك أبي كاليجار، أكبر ملوك البويهيين في العراق. وقد نجح المؤيد في استمالة أبي كاليجار، الذي قال للمؤيد^(٤): «إني أسلمت نفسي وديني إليك، وإنني راضٍ بجملة ما أنت عليه»، كما أن أبا كاليجار تقرب من المستنصر عن طريق المؤيد، وأعلن إيمانه الصريح بإمامة الخليفة الفاطمي^(٥). كذلك نجح المؤيد في إعلان الخطبة للخليفة المستنصر في شيراز ذاتها؛ حيث صعد معه عشرون نقيباً من رجال الدعوة إلى سطح المسجد، وأذنوا: «بحي على خير العمل^(٦)». ولكن الخليفة العباسي القائم-الذي هاله نجاح دعوة أعدائه- أرسل إلى أبي كاليجار جماعة من الترك لإخافته؛ بحيث اضطر أبو كاليجار إلى وقف دعوة المؤيد والتملص منها^(٧)، وأجبر المؤيد على الخروج من شيراز، والرجوع إلى مصر. وقد اعتذر أبو كاليجار فيما بعد للمؤيد

(١) الخطط، ٣، ص ١٦٩ س ١٩-٢٠.

(٢) السيرة المؤيدية، ص ٦ س ١٩-٢٩، ص ٩ س ٢١.

(٣) عنه؛ إدريس عماد الدين، عيون الأخبار، مخطوطه بمكتبة الهمداني، ٦ ورقة ٢٩٨؛ انظر. غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية منذ القدم المصور حتى عصرنا الحاضر، دمشق، ص ١٧٨-١٨٠؛ Hamdani:

Some unknown Isma'eli authors and their Works. J. R. A. S. Jan, 1933, P. 361-2

وعلى الخصوص؛ تقديم، ديوان المؤيد، تحقيق كامل حسين، ص ١٧ وما بعدها؛ انظر. كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص ٥٩ وما بعدها. من شهرزاد، انظر. معجم البلدان، ٥، ص ٢٢٠-٢٢٢.

(٤) السيرة المؤيدية، ص ٤٣.

(٥) نفسه، ص ٧٦. انظر. نص خطاب أبي كاليجار إلى المؤيد، نفسه، ص ٧٦ وما بعدها.

(٦) نفسه، ص ٥٥.

(٧) نفسه، ص ٦٤ وما بعدها.

عن تصرفه، بأنه قصد إبعاد الشر عنه^(١). ولما جاء الملك الرحيم بعد أبي كاليجار، سلّم نهائياً للخليفة العباسي والترك في بغداد، ولم يعد له إلا مجرد الاسم^(٢).

ولما يئس الدعاة الفاطميون من البويهيين وضعفهم، وجهوا نشاطهم إلى استمالة طوائف الترك في بغداد^(٣)، وهي التي أصبحت بيدها السيطرة الحقيقية فيها. وقد تكلل نجاح الدعوة الفاطمية باستمالة مقدم الترك وعسكره البغدادي، واسمه أبو الحارث (الحرث) أرسلان بن عبد الله البساسيري أو الفساسيري^(٤)، نسبة إلى بلد في فارس اسمها بساً أو فساً. وكان البساسيري شخصية رائعة، فتمكن من إقرار الأمن المضطرب في بغداد، ولا سيما في الجانب الغربي منها، الذي انتشر فيه العياريون وهم اللصوص؛ وذلك بعد أن عجز كل الحكام عن قمعهم. كذلك كان يدافع عن بغداد وحدود الخلافة ضد العرب والكرد، حتى لُقّب بالمظفر. وقد قرّبه القائم، وقتلده الأمور، ولم يكن يأتي أمراً إلا بعد استشارته، وخطب له على المنابر في الأعمال العراقية والأهواز^(٥) - وهي خوزستان في أيام الفرس - لذلك ذاع اسم البساسيري، وعظمت هيئته.

ويذكر المؤرخون أن استمالة الفاطميين للبساسيري؛ جاءت عن طريق المؤيد في الدين، الذي كاتبه من مصر بالنيابة عن الخليفة المستنصر^(٦). ويبدو أن البساسيري كان مهياً لذلك؛ فهو نفسه من موالى الديلم الشيعة؛ فكان مولى لعضد الدولة ولهباء الدولة بن عضد الدولة. فلما ملك جلال الدولة بن بهاء الدولة، ثم أبو كاليجار وابنه الملك الرحيم، شاركهم جميعاً كل حروبهم، وأبلى معهم بلاء

(١) نفسه، ص ٧٨.

(٢) ابن العميد، ص ٢٧١.

(٣) الخطط، ٢ ص ١٦٩ س ٢٠.

(٤) عنه؛ وفيها ١ ص ١٠٧-١٠٨؛ نهاية الأرب، ٢٦ ورفقات ٦٤ وما بعدها؛ ابن العميد، ص

٦٧١ وما بعدها؛ مرآة، الزمان، ١/١٢، ورقة ٤٤ وما بعدها؛ الكامل، ٨ ص ٨٣-٨٧؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art. al-Basāsiri) I, P. 686; 26d 1, P. 1105-7.

يقال إن نسبته إلى هذه البلدة، نسبة شاذة، عن هذه البلدة؛ انظر. معجم البلدان، ٢ ص

١٦٧، ٦ ص ٣٧٥-٣٧٧.

(٥) عنها؛ معجم البلدان، ١ ص ٢٨٠ وما بعدها. تقع بين البحيرة وفارس.

(٦) السيرة المؤيدية، مقدمة، ص ٢٣-٩٦.

حسناً، وإن انفصل عن الملك الرحيم، بسبب ضعف هذا الملك. وقد جر تشجيع البساسيرى إلى انقلابه على الخلافة العباسية التي قريته، وإن ذكر المؤرخون أن سبب الفساد بينهما راجع إلى جفوته مع الخليفة العباسى؛ وعلى الخصوص إلى دس الوزير ابن المسلمة^(١)، الملقب برئيس الرؤساء، وذلك حسداً للبساسيرى، فضلاً عن عداوة رئيس الرؤساء الطبيعى للشيعة؛ بحكم أنه حنبلى سنى المذهب^(٢). لذلك عمل البساسيرى على معاداة الخليفة العباسى وبطانته، فاسقط مشاهراته، ومشاهرة حواشيه، ومشاهرة رئيس الرؤساء؛ كما جعل الترك يثورون فى بغداد؛ بحيث عزم الخليفة على الخروج من بغداد.

وعلى كل حال وجدت الخلافة الفاطمية فى نجاح دعوتها بين ترك بغداد فرصتها السانحة، للعمل على تقويض ملك العباسيين، أعداء الفاطميين الألداء، فعشت الرسل بينها وبين البساسيرى، الذى كتب إلى المستنصر يعلن طاعته، وعزمه على إقامة الدعوة الفاطمية فى العراق، وأنه قادر على ذلك^(٣). وقد كان اليازورى وزير المستنصر وقتئذ، الذى اختار المؤيد فى الدين الشيرازى-الداعية الذى أرسل إلى العراق- فجهزه، بحمل المساعدة إلى البساسيرى من خزائن الأموال والسلاح والثياب؛ بحيث لم يبق شيئاً فى بيوت المال المصرية. فكان المؤيد- الذى وصف لنا رحلته إلى البساسيرى^(٤)- يستميل جند البساسيرى وغيرهم؛ بالأموال والخلع المصرية، التى تفوق الخلع العراقية السانحة، وكان يستحلفهم بإيمان الطاعة؛ كما خلع على البساسيرى وقراً عهد المستنصر له فى يوم مشهود، وذلك فى صفر سنة ٤٤٨/أبريل-مايو ١٠٥٦؛ وهذا بعض ماورد فيه^(٥).

ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره فى ديار العراق، والمبرزين بفضيلة السبق على أوليائه فى فضائل الأفاق، المشعرين عن ساق الجد

(١) اسمه؛ أبو القاسم على بن الحسن بن مسلمة. الكامل، ٨ ص ٤٢ س ١٤-١٥.

(٢) نفسه، ٨ ص ٥٩ س ١٢. يقول النص لميله إلى الحنابلة.

(٣) ذيل، ص ٨٧.

(٤) السيرة المؤيدية، ص ٩٧ وما بعدها؛ ابن ميسر، ص ٨.

(٥) السيرة المؤيدية، ص ١٢٢-١٢٤؛ انظر. حسن إبراهيم، تاريخ الفاطميين، ص ٢٢٢.

فيما يجعل عرصاتها بفيض عدله مشرقة بأنجم السعود، ويعيد أعواد منابرها بذكر آل الرسول ﷺ ناخرة العود، مفسولة درجها من وطء أقدام الأنجاس بماء الإيمان، مقصورة فروقها على الثناء منها على أهل العدل والإحسان، رأى أمير المؤمنين- وبالله توفيقه- أن يطوقك طوق ولاية رجالها، ويقيم على رأسك لمزية التقدم راية جمالها، وينوط بك أمورها كلها، ويكل إليك عقدها وحلها. وفي كتاب النجوم الزاهرة نص يؤيد وصول هذه المساعدة^(١)، «إن الذي وصل إلى البساسيري من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك، وخمسمائة فرس، وعشرة آلاف قوس، ومن السيوف ألوف، ومن الرماح والنشآب شئ كثير». ومن قيمة هذه المساعدة، وإرسالها على يد المؤيد، يتبين مقدار حماس الفواطم؛ كما يفسر قبول البساسيري لهذه المساعدة ورغبته في الانتقام من أعدائه.

ولما كسبت الدعوة الفاطمية أترك بغداد ومقدمهم، سعت إلى كسب قبائل العراق وبلاد الجزيرة وأمراهم، لا سيما وقد قوى العرب نتيجة لضعف البويهيين. فوجهت الدعوة الفاطمية نشاطها بين عرب بلاد الجزيرة في شمال العراق، ومعظمهم من بطون بني عامر، مثل بني عقيل^(٢)، الذين كانوا قد هاجروا من البحرين واستقروا في بلاد الجزيرة عند الموصل والمدائن، وأصبحوا من رعايا دولة بني حمدان. ولما استولى البويهيون على دولة بني حمدان في الموصل، تمكن بنو عقيل من الاستقرار مكانهم^(٣)، وكانوا يحاربون البويهيين، والأكراد المجاورين لهم. وقد ظهرت الدعوة الفاطمية بين العقيليين أيام العزيز

(١) النجوم، ص ١١-١٢.

(٢) عنهم: العبر، ص ٢٥٤-٢٦٣؛ الكامل، ص ٧، ص ١٨١-١٨٢؛ شذرات، ص ٣، ص ١٦٠؛ ابن العميد، ص ٢٥٧؛ الرونراوى، نيل، ص ٢٣٩ وما بعدها؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art. Okailides), t 3 P. 1939.

(٣) قامت دولة بني عقيل في ٢٨٠/٩٩٠، بزعامة أميرهم أبي النواد محمد بن المسيب العقيلي، وكلمة «عقيل» ربما تكون اسما لبطن من الطالبين في مكة، أو أنها أطلقت على مجموعة من الأعراب ممن كانوا يعملون في رعاية الإبل، وهم الذين يربطون البعير عند إناخته، وحتى الآن بعض القبائل يعرفون في الوقت الحاضر بهذا الاسم. خاشع المعاضبي، دولة بني عقيل في الموصل، رسالة ماجستير لجامعة القاهرة ١٩٦٦، ص ١٦، ١٧ (نشرت عام ١٩٦٨). ومنه: من بعض أنساب العرب، بغداد ١٩٦٨، ص ٢٠٧.

الفاطمي^(١)، وعلى الخصوص أيام الحاكم؛ بحيث لما تولى قرواش بن المقلد أمير عقيل الملقب بمعتمد الدولة، أعلن الخطبة للحاكم في الموصل والمدائن والأنبار وغيرها سنة ٤٠١/١٠١١؛ كما ضرب اسم الحاكم على السكة والبنود. وقد احتفظ لنا أبو المحاسن بنص الخطبة، وهي اعتراف صريح بالحاكم وأسلافه، وختمها بقوله^(٢): «اللهم واجعل نواصي صلواتك، وزواصي بركاتك، على سيدنا ومولانا إمام الزمان، وحصن الإيمان، وصاحب الدعوة العلوية، والملة النبوية، عبدك ووليّك المنصور أبي عليّ الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الراشدين، وأكرمت أجداده المهديين. اللهم وفقنا لطاعته، واجمعنا على كلمته ودعوته، واحشرنا في حزبه وزمرته، اللهم وأعنه على ما وليته، واحفظه فيما استرعيت، وبارك له فيما آتيت، وانصر جيوشه، وأعل أعلامه في مشارق الأرض ومغاربها، إنك على كل شيء قدير». فلما علم القادر بالله -الخليفة العباسي وقتئذ- بذلك، حرض الترك في بغداد على مهاجمة العقيليين؛ وأراد أن يسير نحوهم بنفسه، مما اضطر قرواش أن يلغى الخطبة للحاكم. كذلك عرب نمير في حرّان والرّقة خطبوا للظاهر، وإن قطعت الخطبة لما تولى المستنصر، وخطب للقائم. ولكن العقيليين والنميريين عادوا إلى الخطبة للمستنصر^(٣)، ربما بسبب سيطرة الفاطميين التامة في الشام، أيام ولاية الدّيزري القوي. أما عرب بني أسد وخفاجة، وأشهرهم بنو مزّيد وهم في الحلة، مدينة كهيرة جنوبي الفرات بين الكوفة وبغداد، فإن أميرهم نور الدين ديبس بن مزّيد^(٤) كان يميل إلى الفاطميين؛ فنسمع أنه كان يتلقى الخلع من خليفة مصر، وخطب للمستنصر، وكتبه بالطاعة ٤٤٨/١٠٥٦. وأما عرب ديار بكر المجاورون للکرد، وكان يحكمهم بنو مروان من الكرد^(٥)، فإنهم كانوا على صلة بالفاطميين. ولما قامت حركة

(١) النجوم، ٤ ص ١٢١-١٢٢. خطب له المقلد العقيلي.

(٢) عن الخطبة؛ نفسه، ٤ ص ٢٢٤-٢٢٧. عن قرواش؛ فوات الوفيات ٢ ص ١٢١.

(٣) الكامل، ٨ ص ١٨.

(٤) نفسه، ٨ ص ٧٧. عنه؛ فوات، ١ ص ٤١٠-٤١١. بتفصيل؛ أبو البقاء، كتاب المناقب المؤيدية

في أخبار الملوك الأسدية، تحقيق درابكة وخريسات، عمّان ١٩٨٤.

(٥) عنهم، انظر. Ency. de l'Isl, (art. Marwānides) t 3 P. 356-7.

البساسيري، نجد المؤيد في الدين يذهب إلى العرب ويحرضهم ضد العباسيين، فيتبادل مع أمرائهم الكتب^(١)، مثل شبيب بن وثاب النميري، وابن أمزيد الأسدي، وابن مروان من ديار بكر، وحتى مع العقيليين، وتقابل مع أمرائهم ومنحهم الخلع والعهد، مثل عهد المستنصر لابن مزيد^(٢)، الذي لقبه فيه: «بالأمير، سلطان ملوك العرب، سيف الخلافة، صفي أمير المؤمنين». كذلك أعلنت الخطبة للمستنصر في مناطق متفرقة يسكنها عرب، مثل واسط وأعمالها في ١٠٥٦/٤٤٨، ولدينا رسالة المؤيد الميازوري عن اعلان الخطبة بها للمستنصر، على يد شخص اسمه ابن قنائد^(٣)، وفي الكوفة على يد محمود بن الأخرم في ١٠٠٧/٤٤٩^(٤)؛ حيث خطب للمستنصر، ونقش اسمه على الدنانير والدراهم، وأزيل اسم القائم من الجامع، وكتب مكانه اسم صاحب مصر.

وعلى كل حال، أثمرت الدعوة الفاطمية بين ترك بغداد والعرب في العراق وديار الجزيرة، وفي قيام ثوره فعلييه ضد العباسيين، لصالح الفاطميين. فنجد البساسيري، الذي كان قد اضطر إلى ترك بغداد نتيجة لدسائس رئيس الرؤساء الذي استعدى الترك الغز، وهم من السنة، واستقر في بلاد الجزيرة مع العرب منذ ١٠٥٥/٤٤٧، حتى عام ١٠٥٨/٤٥٠، يقوم بمساعدة العرب على الأخص العقيليين بقيادة قريش بن بدران، الذي أصبح زعيم العقيليين بعد قرواش، ومعه أكراد وإيرانيين وأتراك من أنصار الدعوة^(٥)، في مهاجمة بغداد، مقر الخلافة العباسية في أواخر سنة ١٠٥٨/٤٥٠^(٦). ومع أن السنين في بغداد كانوا قد

(١) السيرة المؤيدية، ص ١٠٣ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص ١٢٧-١٢٨.

(٣) نفسه، ص ١٣٦-١٣٧؛ الكامل، ص ٨، ٧٦-٧٧. لا يذكر ابن الأثير هذا الاسم، وإنما يذكر ابن الحلبان، وابن فساجس.

(٤) السيرة، ص ١٣٥-١٣٦. في مرآة الزمان أن الذي أرسل بذلك هو بدر بن الأسدي أخو دبيس. مرآة الزمان، ١/١٢ ورقة ١٨.

(٥) السيرة المؤيدية، ص ١٢١.

(٦) لا يعرف التاريخ بالتحقيق، فقد خطب: للمستنصر في بغداد في ١٣ من ذي القعدة. النجوم، ص ٦. ويقول ابن الأثير يوم عيد النحر. الكامل، ص ٨، ٨٤؛ انظر. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ص ٩، ٣٩٩-٤٠٤.

قطعوا الجسر بين بغداد الغربية وبغداد الشرقية؛ فإن البساسيرى بعد استيلائه على الجانب الغربى تمكن من دخول الجانب الشرقى بمساعدة الشيعة من سكان الكرخ والطّاق، واضرم النار فى الأسواق^(١). فخرج الخليفة السنّى ومعه وزيره وحوله العباسيون للحرب، وقد لبس السواد، وعلى كتفه البردة، وبيده سيف، وعلى رأسه لواء، ولكن البساسيرى تمكن من أسر الخليفة العباسى، وكان البساسيرى يريد قتل الخليفة العباسى، أو إرساله أسيراً إلى مصر^(٢)؛ إلا أن قريشاً العقيلي حمى الخليفة وأجاره فى خيمته، ومنع البساسيرى عنه، حتى أن هذا الأخير اتهم قريشاً بمخالفة ما استقر بينهما، على ألا يستبد أحدهما بون الآخر بشىء، فقال له: «أتخالف ما استقر بيننا، وتنقض ما تعاهدنا عليه». كذلك أسر البساسيرى أم الخليفة وهى أرمينية اسمها قطر الندى-وقيل بدر الدجى- كما أسر زوجة الخليفة السلوقية، المسماة أرسلان خاتون^(٣). وقبض البساسيرى على رئيس الرؤساء، وتذكر المصادر السنّية تشفية فيه. فقد أركب جملاً، وألبس جبة صوف، وطُرتوراً أحمر، وجعل فى رقبته جلوداً، ووراءه من يصفعه، وطوف به فى مجال بغداد، وكان أهل الكرخ الشيعة ييصقون فى وجهه، ثم خيط عليه جلد ثور قد سلخ، وجعلت قروونه على رأسه، وعلق بكلاليب، ولم يزل يضرب حتى مات. وفى أثناء ذلك وقعت مجزرة كبرى فى بغداد بين الشيعة والسنة، إذ استمروا أربعة أيام يتقاتلون.

وحيثما دخل جيش البساسيرى بغداد، دخلها بالرايات المصرية، وعليها القاب المستنصر، صاحب مصر، وقد جرت فى بغداد مراسم خلع الخليفة العراقى

(١) ذيل، ص ٨٨-٨٩.

(٢) يستبعد المؤرخون الرواية، التى ردها بعض المؤرخين من أن المستنصر بنى فى القاهرة قصرأ، ليحبس فيه الخليفة العباسى عدوه اللدود، وهو القصر الغربى، أو أنه هو القصر، الذى كان يسمى أيضاً قصر البحر فى أيام العزيز؛ ليكون خاصاً بخت الملك، أخت الحاكم. عن ذلك: الخطط، ٢ ص ٣٣٢؛ انظر. *Essai sur l'histoire et sur la topographie*, Ravaisse du Caire, M.M.A.F. et.; *Ency. de l'Isl*, (art. Caire) t I, P. 838-9.

ثم لماذا يبني للخليفة العباسى قصرأ، مع عداوته له!! ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمى، ص ٢٣٣ وهامش ٩٢.

(٣) الكامل، ص ٨٤. هى ابنة أخى السلطان طغرلبيك.

« القائم » ومبايعة الخليفة المصرى « المستنصر » . فاستكتب البساسيرى الخليفة القائم قبل رحيله مع أحد أتباع قريش إلى منفاه كتاباً أشهد عليه العدول - وهم شهود القاضى - أنه لاحق لبنى العباس ولائه من جملتهم فى الخلافة ، وأرسل البساسيرى هذا الإشهاد إلى مصر^(١) . كذلك جمع البساسيرى قاضى القضاة والخطباء والأشراف من بنى هاشم - الذين كتبوا فى المحضر ضد الفاطميين - وأخذ منهم البيعة للمستنصر ، رغم أنفهم^(٢) ؛ وقد خطب للمستنصر صاحب مصر فى يوم الجمعة الثالث من دخول البساسيرى إلى بغداد بسائر الجوامع ، وعلى الأخص بجامع المنصور ، وقطعت الخطبة لبنى العباس ؛ حيث لبس المؤذنون العراقيون البياض - وهو شعار الفاطميين - وأذنوا بحى على خير العمل^(٣) . ولدينا عملة من دار السلام (بغداد) باسم المستنصر فى ٤٥٠/١٠٥٨-٩ ، سميت : المستنصرية ، ونقشت عليها عقيدة الفاطميين : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، محمد رسول الله ، على ولى الله » ، ومن الجانب الآخر : « عبد الله ووليه ، الإمام ، أبو تميم معد ، المستنصر بالله ، أمير المؤمنين^(٤) » .

وقد أجمع المؤرخون على أنه بسبب إعلان الخطبة للمستنصر فى بغداد قاعدة العراق ، كان ما حدث للمستنصر هو تمام سعيه^(٥) . والحقيقة أن ما وقع للمستنصر لم يقع لفاطمى قبله ولا بعده ، فقد تحقق هدف الفاطميين فى عهده ؛ فى جعل خلافتهم وحدها فى الشرق الإسلامى . وقرح المستنصر بنجاح فتنة البساسيرى فرحاً شديداً ، حتى أنه لما غنته إحدى القيان أغنية بهذه المناسبة ، وهبها هبة عظيمة ، جاء فيها .

يا بنى العباس صدوا ملك الأرض معدّ

ملككم كان معاراً والعوارى تسترد

(١) الخطط ، ٢ ، ٣٠٣ س ٢٢-٢٤ .

(٢) ابن العميد ، ص ٢٧٣ .

(٣) مثلاً : النجوم ، ص ٥ ، ٦ س ٨ . وذلك فى ١٣ من ذى القعدة .

(٤) المنتظم ، ٨ ، ص ١٩٦ ؛ انظر . Lane-Poole .

Hist of Eg, P. 138' n (3) (Inedita Asiat, Mus. 1847).

(٥) مثلاً : النجوم ، ص ٥ ، ١٢ .

وقد أرسل البساسيري إلى المستنصر البردة والقضيب والمنبر والشباك^(١)؛ من آلات خلفاء العباسيين؛ حيث كان الخليفة العباسي يلبس البردة، ويمسك القضيب-وهي عصا- في البيعة، ويخطب من على المنبر، ويجلس في الشباك. وأرسل إليه أيضا طيلسان القائم-وهو أشبه بالطرحة- ورداءه وعمامته «منديله»، حيث وضعت هذه الأخيرة في قالب من رخام، حتى لا تتغير شدتها. وأرسل كثيرا من التحف، منها؛ ثلاثون ألف قطعة كبيرة من البللور، وخمسة وسبعون ألف ثوب من الحرير الخسرواني أو الكسرواني أي الملكي، وعشرون ألف سيف محلى بالذهب. فبقيت هذه الأشياء في خزائن الفاطميين بمصر، إلى أن انتهت من قصر الخليفة المستنصر في إحدى ثورات الجند؛ كما أن صلاح الدين الأيوبي -السلطان- رد ما تبقى منها، حينما أعاد الخطبة للخليفة العباسي السنّي في مصر، بعد قضائه على خلافة الفاطميين. وقد سر المستنصر من البساسيري، حتى أنه أمر أن يدعى له في الضرمين^(٢)، وكان البساسيري يعرف بالمستنصري^(٣)؛ مما يدل على ولاء البساسيري التام لقضية الفاطميين.

ولكن هذا النجاح في العراق لفاطمي مصر، وقد استمر أربعين أسبوعا^(٤)، قضى عليه الأتراك الغز^(٥). ومع أن هؤلاء ليسوا أول من عرفهم المسلمون من عنصر الترك، لأن المسلمين عرفوا الترك بشعوبها منذ عهد الدولة الأموية، حينما امتدت دار الإسلام إلى بلاد التركستان^(٦)، أي ناحية الترك؛ كما دخل الترك بلاط الأمويين كمبيد. كذلك دخلوا الجيش في أيام العباسيين؛ فقد أسقط الخليفة المعتصم حق العرب في أخذ العطاء^(٧)، مع أنهم منذ عمر بن الخطاب اعتبروا مادة الإسلام، وأهل الترك وغيرهم محلهم في الجيش. وأكثر من هذا أن الترك استخدموا في حكم بلاد الخلافة العباسية؛ فأصبحوا المسيطرين على وظائفها

(١) الخطط، ٢ ص ٢٠٢.

(٢) الدول المنقطعة، ورقة ٦٨.

(٣) السيرة المؤيدية، ص ١٥١.

(٤) الخطط، ٢ ص ٢٠٢ س ١٢؛ انظر. Mém. t 2, P. 328, Quat.

(٥) عنهم؛ بعده في الهامش.

(٦) صبح، ٤ ص ٤٢٩، معجم البلدان، ٢ ص ٢٧٨ وما بعدها.

(٧) ابن عذاري، البيان؛

الكبرى. وقد مهد هذا التغلغل التركي، لسيطرة الأتراك على الخليفة فى بغداد بحيث منح المستبدين منهم وظيفة إمرة الأمراء^(١)، التى تسيطر على كل شىء فى الخلافة. وقد كانت السيطرة التركية المتصاعدة، سبباً فى إثارة حقد العنصر الفارسى، الذى سعى إلى تكوين دول تقف أمامها، مثل: الطاهرية فى فارس والصفارية والسامانية فيما وراء النهر^(٢)، وأخيراً البويهية فى إيران والعراق.

ولعل الترك الغُزُّ أو الأوغوز فى الأصل من قبائل الطُغُزُّ غز أو التُغُزُّغز^(٣) - أى القبائل التسعة - حيث ذكرهم الجغرافيون، وتحد بلادهم ببلاد الصين والتبت. ويبدو أن الغُزُّ انفصلوا عن بقية القبائل التركية لظروف خاصة - لعلها القحط - بحيث أصبح اسم الغُزُّ يطلق بخاصة على قبائل الترك المجاورين لبحر قزوين، بجوار الخزر والبُلغار؛ وإن كان اسم التركمان حل بالتدريج محل اسم الغُزُّ، ليعنى بالفارسية أنهم أصبحوا تركاً مسلمين؛ وأصبح عندهم منابذة لمن لا يسلم من الترك. وكان الغُزُّ من البدو لا يعرفون من الحضارة شيئاً، ولا يدخلون تحت طاعة سلطان، وإذا قصدهم سلطان هربوا إلى المفاوز فى الصحارى. كذلك يبدو أنهم كانوا وثنيين أو مسيحيين؛ حيث عرفوا فى أول الأمر بالغُزُّ الكفار.

وقد تزعمت الغُزُّ أسرة عرفت بالسلاجقة أو السلجوقية^(٤)، منذ القرن الرابع الهجرى، وهو الاسم الذى غلب على الغُزُّ فى بلاد الإسلام، وهو على اسم

(١) الكامل، ٦ ص ٢٥٤، ظهرت إمرة الأمراء فى عهد الخليفة العباسى الرضاى (٣٢٢-٣٢٩/٩٣٤-٩٤١).

(٢) عنها: معجم البلدان ٧ ص ٣٧٠ وما بعدها. المقصود بالنهر جيحون.

(٣) عنهم: معجم البلدان، ٢ ص ٣٧٨ وما بعدها؛ الأستخرى، الملك، تحقيق de Coeje، ص ٢٧٤ وما بعدها.

Ency de l'Isi, (art Ghuzz) t2, P. 178; (art Turkmènes) t4, P. 943 sqq;

A propos du nom Turkman, : Ibrahim Kafesogulu;

Oriens. vol 2. Leiden, 1958, PP.146-150.

(٤) عنهم : صدر الدين، أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق إقبال، لاهور ١٩٣٣؛ عماد الدين، تاريخ دولة آل سلجوق، مصر ١٣١٨/١٩٠٠، السلوك، ١/١ ص ٣٠ وما بعدها؛ المنتظم، ط. ١، حيدرآباد ١٣٥٩هـ، ٨ ص ١٠٧ وما بعدها؛

Ency de l'Isi, (art Seljukides) t 4, P 216 sqq;

Le Malik. Nameh et l'Histoire des origines Seljukides. Oriens vol 2, no . I, : Cahen 1949, P. 31 sqq;

، عبد النعيم، سلاجقة إيران فى العراق، القاهرة .

سلجوق بن يقاق أو دقاق أو تقاق، بمعنى القوس من الحديد. يبدو أن سلجوق هو الذى جمع شمل الغز، وأول من أدخلهم فى الإسلام. على أساس المذهب السنى الحنفى، الذى كان منتشرأ بين الأتراك المسلمين؛ حيث إن المذهب السنى هو مذهب الخلافة العباسية. وقد بدأ ظهور السلاجفة السياسى فى عهد سلجوق هذا، الذى تداخل مع بقايا السامانيين -إحدى الدول الفارسية فى بلاد ما وراء النهر- إذ أن السامانيين كانوا يطلبون عون سلجوق هذا ضد أعدائهم من القبائل المجاورة، وبخاصة ضد ترك وسط آسيا، الذين لم يتحولوا بعد إلى الإسلام. ولما ساءت علاقة الغز بالسامانيين، انتقل الغز بقيادة طغرل بك^(١) (طغرل بك) حفيد سلجوق إلى خراسان، وهى بلاد واسعة كانت تخضع لدولة مجاهدة تقوم على حدود الهند فى شرقى إيران نتيجة لضعف البويهيين هى الدولة الغزنوية^(٢)، من عنصر تركى فارسى. ولكن حدث نزاع جديد بين الغزنوية والغز، فحاربت الغزنوية الغز بشدة، حتى أجلوهم عن خراسان فى ١٠٣٩/٤٣١. ولكن الغز ما لبثوا فى ١٠٤٠/٤٣٢، أن عادوا وقتلوا مسعود بن محمود ملك الغزنوية؛ كما أن بقية أفراد هذه الأسرة تقاتلوا فيما بينهم، وعندئذ قامت دولة السلاجفة، التى اعترف بها الخليفة العباسى. وبعد ذلك انتشر الغز فى نواح متعددة، حتى إن طغرل بك رأى أن البلاد لا مانع له عنها، فاستولى على بلاد ما وراء النهر، وبلاد بحر قزوين، وانتشروا فى خراسان، ودقوا أبواب العراق، حيث توجد الدولة البويهية الضعيفة.

وفى أول الأمر اتخذ الخليفة العباسى ظهور هذه القوة التركية السنية الفتية؛ لتهديد البويهيين الشيعة المسيطرين عليه^(٣). فنشأ عداة بين البويهيين والسلاجفة؛ فحسلاً عن العداة التقليدى بين العنصر الفارسى والتركى؛ بحيث أن أبا كاليجار ملك البويهيين حارب السلاجفة؛ وكان يعتبر وجوده دعماً للشيعة فى

(١) عنه، وفيات، ٢ ص ٤٢٨ وما بعدها؛ آل سلجوق، ص ١٤. هو اسم مركب من طغرل وبك،

وطغرل اسم علم معروف، وبك معناه أمير. آل سلجوق، ص ٦ وما بعدها.

(٢) عنها؛ حميد الله القزوينى، تاريخ كزنده، نشر Browne، ط. Leiden، ١٩١٠/١٢٢٨، ص ٣٩٦.

(٣) السيرة المؤيدية، ص ٦٤ س ١٧. يتوعد الخليفة أبا كاليجار بطغرل بك التركمانى.

العراق ومصر^(١). ولكن البويهيين ضعفوا بحيث إن أبا كاليجار نفسه صالح طغرلبيك وزوجه ابنته^(٢)، أما الملك الرحيم، فقد كان يطلب ودهم، ورضى أن يكون تابعاً للسلاجقة، حتى أنه قبل أن يذكر اسم طغرلبيك في الخطبة. ولما أعلن البساسيري نيته في خلع الخلافة العباسية والدعوة للمستنصر الفاطمي، استنجد القائم العباسي بطغرلبيك، الذي أسرع إلى نجده. فأعلن طغرلبيك وهو في طريقه إلى بغداد، عزمه على المسير إلى الشام ومصر، وإزالة المستنصر^(٣)؛ كما وصف نفسه بأنه خادم أمير المؤمنين- الخليفة العباسي- وعنده، ومتصرف على أمره ونهيه^(٤). وحينما وصل طغرلبيك إلى بغداد في ١٠٥٥/٤٤٧، هرب البساسيري إلى العرب في الجزيرة- ولم تكن فتنته قد أعلنت بعد- وعزم الملك الرحيم على الهروب أيضاً مع البساسيري، لولا أن الخليفة القائم كتب إليه يدعوه أن ينبذ البساسيري؛ مما جعل الملك الرحيم يحترف النظر عن الهروب، ويقول ومن معه: نحن لأوامر الديوان متبعون، وعنه منفصلون^(٥)، أي عن البساسيري وعلى العكس خرج رئيس الرؤساء لمقابلة طغرلبيك؛ حيث كان يكتبه بالنيابة عن القائم. وكان أول ما عمله طغرلبيك بعد دخول بغداد، هو تضامنه على الدولة البويهية، فسجن الملك الرحيم البويهي، الذي بقى في سجنه بالرى إلى أن مات في ١٠٥٨/٤٥٠، مع أنه كان قد استقر الرأي على التعاون بين الاثنين، وأن تكون الخطبة للملك الرحيم بعد طغرلبيك. كذلك عمل طغرلبيك على القضاء على مظاهر المذهب الشيعي، فأمر أهل الكرخ أن يؤذنوا في مساجدهم؛ الصلاة خير من النوم، وترك الأذان؛ «بحي على خير العمل». وقد اتخذ طغرلبيك لقب السلطان^(٦)، وعُرف بالسلطان

(١) نفسه، ص ٧٧. انظر. نص خطاب أبي كاليجار إلى المؤيد.

(٢) الكامل، ٨ ص ٤٤؛ المعبر، ٣ ص ٤٥٢؛ انظر. حسين أمين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، بغداد ١٩٦٥، ص ٥٩.

(٣) الكامل، ٨ ص ٧٠ وما بعدها.

(٤) المنتظم، ٨ ص ١٨٢.

(٥) الكامل، ٨ ص ٧١.

(٦) أخبار الدول النقطية، ورقة ٦٨؛ المختصر، ٢ ص ٣٢١؛ انظر.

Catalogue of Oriental Coins, cf.: Lane Poole;

Ency de l'Is, (art. Sultân) t 4, P. 568 sqq.

الأعظم، ونقشه على العملة الإسلامية لأول مرة، وهو اللقب -أي السلطان- الذي ورد في القرآن بمعنى القوة والنفوذ، وكان يطلق على الخلفاء وحدهم^(١)، ومع ذلك يبدو أن اللقب نودي به طغرلبيك وهو في خراسان سنة ٤٣٢/١٠٤١^(٢). وبذلك غير الخلفاء العباسيون المسيطر عليهم، فجعلوه من السلاجقة بدلاً من البويهيين: "Changer de maître"^(٣)؛ مما جعل كثيراً من جنود الملك الرحيم الديلمية يتوجهون للبساسيرى في الجزيرة، وينضمون إليه^(٤).

في ذلك الوقت، كانت الدعوة الفاطمية قد نشطت بين العسكر البغدادي بقيادة البساسيرى في الجزيرة، وأرسل المؤيد في الدين الشيرازي بالأموال والسلاح. وقد تمكن المؤيد من جمع العرب الذين التجأ إليهم البساسيرى، ولا سيما أن الغز لما جاءوا بغداد، انتشروا نحو الجزيرة وقاتلوا العرب، ودخلوا الموصل. ومع أن قريشاً بن بدران العقيلي كان يدعو لطغرلبيك منذ دخل بغداد، فإنه لما انتصر البساسيرى على الغز في موقعة سنجان^(٥)، في أرض الجزيرة انضم إليه، ولدينا كتب الانتصار المرسله إلى مصر. وقد دعا قريش العقيلي للمستنصر، كما دعا له بقية العرب. ولكن كان أكبر نصر للفاطميين، هو استمالة ينال، الأخ الصغير لطغرلبيك من أمه، الذي كان من أنشط إخوته في غزوات الغز، ولأنه عرف بسوء تفاهم سابق مع أخيه طغرلبيك^(٦). وقد قيل إن المؤيد هو الذي استمال ينال، أو أن ينال هو الذي بدأ الصلة بالفاطميين عن طريق المؤيد^(٧) أو أن البساسيرى هو الذي راسل ينال^(٨). وعلى كل حال، عرضت على ينال القاب الخلافة الفاطمية والخلع، وأن يكون المشرق في يده، على أن تكون

(١) الطبري، Annales، ٤٢٦، ٣.

(٢) الكامل، ٨، ص ٢٥.

(٣) انظر. ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمي، ص ٩٦.

(٤) الكامل، ٨، ص ٧٢ س ٢٠.

(٥) نفسه، ٨، ص ٧٧؛ السيرة المؤيدية، ص ١٢١-١٢٤.

(٦) الكامل، ٨، ص ٥١-٥٢.

(٧) السيرة المؤيدية، ص ١٧٥.

(٨) ابن العميد، ص ٢٧٢؛ نيل، ص ٨٧ (آخر الصفحة).

الخطبة للمستنصر قبله، فكان ذلك داعياً إلى وقوع الفتنة في أسرة آل سلجوق - فانفصل بنال عن أخيه بجيش عظيم وقصد ناحية فارس؛ بحيث إن أخاه طغرل بك خرج وراءه من بغداد، مما سهّل للبساسيرى والمعرب دخول بغداد، وإعلانات الخطبة للمستنصر، التي دامت أربعين جمعة؛ كما ذكرنا.

ولسوء حظ خلافة الفاطميين ظهر سوء تصرف من قبل وزرائها، وخيانتها في معالجة الخطة التي يجب اتباعها نحو الثورة في العراق؛ مما قضى على هذا النجاح. فنسمع أن اليازورى وزير المستنصر، أصبح يكاتب طغرل بك، وأعلن أنه في طاعته، وأن البلاد بحكمه، وأنه لا يتكلف في قتال؛ بحيث إن المستنصر قبض على اليازورى وقتله^(١). بل لما طلب البساسيرى الحضور بشخصه إلى مصر، للاتفاق على تدبير أمر الثورة، رفض الوزير طلبه. كذلك الوزير الذي جاء بعد اليازورى - وهو أبو الفرج المغربي؛ فإنه بدلاً من إرسال الأموال للمصرف على ثورة البساسيرى، منع الأموال عن البساسيرى، وترك أجوبته^(٢).

وكان طغرل بك قد انتصر على أخيه وخنقه بوتر قوسه^(٣)، وعاد إلى بغداد في جمادى الآخرة سنة ١٠٥٩/٤٥١؛ مما اضطر البساسيرى إلى الخروج منها - واحتترقت الكرخ حى الشيعة فيها^(٤). واستمال طغرل بك العرب^(٥)، مثل: إيهو مروان سيد ديار بكر، ودهيس، في الحلة؛ كما اتصل بقريش العقيلي، حليف البساسيرى. وقد أصبح هم طغرل بك بعد عودته إلى بغداد، تخليص الخليفة القائم من أسره، وإحضاره إلى بغداد. فقد كان الخليفة القائم لما اختلف على مصيره البساسيرى وقريش، نقل إلى بلدة حديثة عمارة على الفرات - وهي جزيرة وسط

(١) ابن حجر العسقلاني، رفع الأصر عن قنصاة مصر، مخطوطة بدار الكتب، برقم ١٠٠٥ تاريخ، ورقة ٨٥؛ انظر. ماجد، المستنصر، ص ٢٩-٣١.

(٢) النجوم، ص ١١.

(٣) الكامل ص ٨٥ ص ٨٥.

(٤) نفسه، ص ٨٨.

(٥) نفسه ص ٨٦.

النهر كانت فيها قلعة- وسلم إلى أحد أمراء العقيليين واسمه مهارش العقيلي، إلى أن يتقرر لهما عزم^(١)، ويبدو أنه من هناك أرسل الخليفة العباسي ورقة، لتعلق على الكعبة مستعديا فيها الله على البساسيري، عنوانها: «إلى الله العظيم، من المسكين عبده»، فبقيت الورقة هناك إلى أن خرج القائم من الاعتقال^(٢). فساوم قريش بالخليفة القائم، وصالح طغرلبيك، وسلم إليه الخليفة. وحينما وصل الخليفة إلى بغداد، خرج طغرلبيك بنفسه لاستقباله، وأخذ بلجام بغلة الخليفة، وأجلس الخليفة على سرير الخلافة الذي بقي في منفاه مدة عام، وكان ذلك في اليوم عينه الذي خرج فيه الخليفة، وعد ذلك من غرائب الاتفاق^(٣). وبعد ذلك خرج طغرلبيك وراء البساسيري؛ حيث قال: «أنا أمضى خلف هذا الكلب»، فسار وراءه إلى واسط، وتمكن من قتله هناك، وحمل رأسه إلى بغداد، وطيف به فيها، وعلقها بإزاء دار الخلافة، وكان ذلك في ذي الحجة ٤٥١/١٠٦٠^(٤). واعتراضاً بجميل طغرلبيك على الخلافة العباسية لقبه القائم «ركن الدين»^(٥)؛ كما إنكحه ابنته^(٦).

ثم عمد طغرلبيك إلى الانتقام من الفاطميين لسوء فعلهم بالخلافة العباسية، بحيث قال: «وأفعل في حق صاحب مصر ما أجازي به فعله»^(٧). بل يبدو أن السلاجقة في عهد طغرلبيك اتفقوا مع البيزنطيين على أخذ دولة الفاطميين^(٨)، حتى أن البيزنطيين قطعوا خطبة الجمعة للفاطميين في مسجد القسطنطينية، وأعلنوها للعباسيين، كما ذكرنا. ولكن ألب أرسلان^(٩)، الذي خلف طغرلبيك، اتبع

(١) السيرة المؤيدية ص ١٨٢؛ انظر، ماجد، المستنصر، ص ٩٨.

(٢) ذيل، ص ١٠٧؛ المنتظم، ص ٨، ١٩٥. لدينا نص تاريخي للاستفتاء، انظر.

(٣) وفيات، ص ١٠٨. عن ذلك؛ خاضع للماضيدى بعض أنساب العرب، بغداد ١٩٦٨، ص ٢٠٧.

(٤) نفسه. قيل في ١٥ أو ١١ من ذي الحجة.

(٥) راحة الصدور، ص ١٧٥.

(٦) الكامل، ص ٨، ٩٢-٩٤.

(٧) نفسه، ص ٨، ٨٦ ص ٨-٩.

(٨) السيرة المؤيدية ص ٩٥، تقدمه ص ٢٣؛ انظر. قبله.

(٩) عنه، التفصيل؛ وفيات، ص ٢، ٤٤٢ وما بعدها؛ انظر.

سياسة أخرى هي الاستحواذ أولاً على ثقة الشعوب الإسلامية بمهاجمة البيزنطيين، ثم محاربة الفاطميين. فقد انساح السلاجقة. في عهد ألب أرسلان من العراق إلى شمال الجزيرة. وواصلوا الزحف إلى أبواب آسيا الصغرى بجيش عدده أكثر من ستمائة ألف فارس سوى أتباعهم، فحاربوا ملك بيزنطة رومانوس ديوجنيس "Romanos Diogenes" - يسميه العرب أرماتوس - في موقعة ملاذ كرد أومناز كرد في ٤٦٣/١٠٧١^(١) - بلدة على الفرات الأعلى في مدخل آسيا الصغرى - الذي جاء في ثمانين وخمسمائة ألف بطريق، مع كل بطريق أكثر من ألفي فارس، ومائة ألف نقاب وحفار، ومعهم العرادات والمسامير والمجانيق، منها منجنيق عليه ألف ومائتا رجل، وأقطع البطارقة حتى بغداد، وبعد حرب شديدة في يوم الجمعة، تمكن أحد أتباع ألب أرسلان - واسمه شادي - من أسر الإمبراطور، وهو أول إمبراطور بيزنطي يؤسر، الذي وقع بين يدي ألب أرسلان ورمى به على الأرض، مكبلاً في الحديد، ضربه هذا الأخير بيده بالمقارع، ورفسه، وقال له: «الم أرسل لك في السلام، فأبيت». وقد كان هذا النصر السلجوقي من المعارك الحاسمة؛ سبباً في فتح أبواب آسيا الصغرى أمام شعوب الترك، الذين بقوا فيها إلى وقتنا الحاضر، وقضى نهائياً على خطر بيزنطة على الشرق الإسلامي.

وفي عهد ملكشاه^(٢) الذي خلف ألب أرسلان، أصبح هم السلاجقة التالي هو القضاء على الفاطميين. فقبضوا على سيطرة القبائل العربية في بلاد (١) مثلاً: آل سلجوق، ص ٣٥ وما بعدها؛ الكامل، ص ٨، ١٠٩-١١٠؛ المعين، تاريخ، وفيات ١٨٨-١٨٩؛ ابن العديم، زبدة، ص ٢، ٢٤؛ انظر.

Ency de l'Isi, (art. Malâzgerd) t 3, P. 214-215;

Byzance et les Seljoucides, P. 65. : Laurent;

La Campagne de Mantzikert. Byzantion, 1934, 636-639. : Cahen

Decisive Moments in the history of Islam, 3 ed Cairo, 1948, P. 98-105.: Enan

، أسد رستم، الروم، ص ١٠٨ وما بعدها؛ وأيضاً من فايز إسكندر، البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاز كرد (٤٦٣/١٠٧٨) في مصنف نفقود برينيوس، دراسة مقارنة للمصادر، الإسكندرية ١٩٨٤، أيضاً معركة ملاز كرد وصفها في القسطنطينية، الإسكندرية ١٩٨٨.

(٢) عنه؛ وفيات، ص ٢، ٥٨٦ وما بعدها.

الجزيرة^(١)، وهي القبائل التي كانت تساند الفاطميين في ثورة العراق، واستولوا على الموصل من العقيليين، ووصلوا إلى حدود الشام. وزاد الخطر على الدولة الفاطمية بتولية ملكشاه لأخيه تتش بن ألب أرسلان؛ حيث قرر له فتح الشام وديار مصر وبلاد المغرب^(٢). فكان أتسز- المعروف بالأتسيس- وهو أحد قواد الترك الفاطميين سابقاً، يعمل لحساب تتش هذا. فاستولى أتسز على دمشق، وخطب فيها للخليفة العباسي في ٤٦٧ أو ٤٦٨/١٠٧٥-١٠٧٦^(٣)، ولم يخطب فيها للمصريين بعد ذلك أبداً، وقد منع فيها الأذان بحى على خير العمل، وفرح أهل دمشق فرحاً عظيماً لرجوع السنة إليها، ولتخلصهم من تصرف الولاة الفاطميين. ولدينا نقوش منذ ذلك التاريخ باسم الخلفاء العباسيين^(٤)؛ كما أنه لم يظهر للفاطميين عملة فيها^(٥). كذلك سقط بيت المقدس في يد أتسز في ٤٦٩/١٠٧٦^(٦)، وهو الذي كان في أيدي الفاطميين منذ مجيئهم إلى مصر، كما سقطت حلب التي كانت في أيدي المردياسيين في أيدي السلاجقة في ٤٧٩/١٠٨٦^(٧)، وهي التي هوجمت من قبلهم في عهد ألب أرسلان. ويذكر المؤرخون أن مملكة الفاطميين اضطربت بفتح السلاجقة بلاد الشام الفوقاني^(٨)، بل ما لبث أتسز أن تغلب على أكثر الشام وأصبح على حدود مصر.

ومجمل القول: أن الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر، أتاحت لها الفرصة في ضم العراق إلى ملكها، والقضاء على الخلافة العباسية عدوتها اللدود، وتوحيد

(١) ابن الأثير، الدولة الأتابكية، ص ١٢، ١٧.

(٢) آل سلجوق، ص ٦٥؛ الكامل، ص ٨، ١٢٦. (هذا الأخير يقول أنطمة الشام).

(٣) الكامل، ص ٨، ١٢٢.

(٤) أنظر. Répertoire t 7, P. 214.

: Inscr. Arabes de Syrie, P. 12 Suiv, 90 Suiv. : Van Berchem

Ency. de Isl, (art. Damas) t I, P. 930.

(٥) أنظر. Hist. of Eg. P. 161, n(1); Lane-Poole.

(٦) الكامل، ص ٨، ١١٠، ١٢٣.

(٧) نفسه، ص ٨، ١٢٦. ربما استولى عليها ألب أرسلان في ٤٦٣/١٠٧٠.

(٨) سير الأباء، ٢ ورقة ٩٣.

جبهة المسلمين تحت قيادتها. ولكن ظهور المارد السلجوقي قضى على نجاحها في العراق، فكان هذا النجاح الفاطمي أشبه بالسراج، الذي يلتهب عند إطفائه^(١)، بل إن هذا المارد السلجوقي ما لبث أن استولى على أكثر أجزاء الشام، التي تعب الفاطميون في توحيدها مع مصر، وأصبح يهدد خلافة الفاطميين في مصر.

*

أما سياسة الفاطميين نحو بلاد الجزيرة العربية، فقد اتسمت هي الأخرى بالنشاط والنجاح؛ وإن كان يبدو أن نجاحها لا يرجع إلى المجهود الحربي، بقدر ما يرجع إلى شخصيات قوية من الدعاة الفاطميين في الجزيرة العربية، الذين أعلوا من شأن الدعوة الفاطمية فيها. ولا ريب؛ فإن ثورة الشيعة كانت محفورة في أذهان الجزيرة العربية منذ مقتل الحسين وغيره من أبناء علي؛ فضلاً عن وجود الكوفة-مركز التشيع- على حدودها؛ مما كان سبباً في أن غمرتها الدعوة الشيعية في جميع أنحاءها.

فعمد وقت مبكر انتشر التشيع الإسماعيلي في اليمن حوالي سنة ٨٨١/٢٦٨ على يد دعائه الأوائل^(٢)، وهما؛ أبو القاسم بن حوشب، الذي هو من نسل الحميريين، نزل جنوبي صنعاء، وعلى بن الفضل الجندى (أو فضل)، الذي نزل قرب البحر الأحمر. فزحفا بالجيوش وفتحا المدن، فاشتهر ابن حوشب بالمنصور أو منصور اليمن؛ ربما لسيطرته فيها، كما أطلق الشيعة عليه فجر الدعوة المتنافس. فكان الدعاة^(٣) معهما يخرجون من اليمن إلى كل مكان في السند والهند ومصر والمغرب^(٤) معهما؛ فأبو عبد الله الشيعي الصنعائي مثلاً، خرج من اليمن إلى المغرب، وهذا يدل على أهمية اليمن في الدعوة الإسماعيلية. وكان

(١) الدول المنقطعة، ورقة ٦٨.

(٢) كشف أسرار الهلطنية، ص ٢١ وما بعدها؛ افتتاح الدعوة، ورقة ٢ وما بعدها؛ انظر الهمداني، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، (من سنة ٢٦٨هـ إلى سنة ٦٢٦ هـ)،

ص ٢٩ وما بعدها. وهو أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زاذان الكوفي.

(٣) الكرماني، الرشد والهداية، تعليق كامل حسين؛ انظر.

(٤) افتتاح، ورقة ١٩؛ قبله.

الخلفاء الفاطميون في وقت ما يفكرون أيضاً في الاستقرار باليمن؛ وأن تكون خلافتهم فيها، بدلاً من إنشائها بالمغرب^(١).

وقد كان بعد اليمن عن مركز الخلافة العباسية، ووعورة طرقها من أهم الأسباب التي حالت بين الخلفاء العباسيين وبين توجيه الجيوش لإنقاذها من دعاة الفاطميين. يُضاف إلى ذلك، أن بعد اليمن عن مركز الخلافة في بغداد، كان سبباً في أنها قسمت إلى مقاطعات صغيرة، موزعة بين حكام عديدين كانوا في منازعات داخلية دائمة، يشبهون الأذواء والأقبال السابقين، حتى أن المأمون العباسي في ٢٠٣/٨١٨، أرسل قائده محمد بن زياد^(٢)، وشجعه على إنشاء دولة، اتخذت زبيد عاصمة لها، عرفت بالزبديّة، أخذت تمد نفوذها تدريجياً على المخاليف وهي الأقطار الواسعة، فمدت سيطرتها على كل جنوب الجزيرة مثل حضرموت وشهر وعدن، وحتى نجران شمالاً، وأذن لها القبائل والملوك. وكان وقوع اليمن على طريق التجارة الهندية والصينية سبباً في تمكنها من الاستقلال عن الخلافة العباسية. وقد انتعشت اليمن بوجود هذه الدولة، فاشتهرت عدة مدن مثل: المَخَا^(٣)، وعَدَن التي سماها المؤرخون فيهما بعد دهليز الصين^(٤). وقد استقلت هذه الدولة في عهد محمد بن زياد استقلالاً نصفياً إلا أنها في عهد ابنته أبي الجيش إسحاق، أصبحت استقلالها حقيقياً؛ بسبب اضطراب أحوال العباسيين، بقيام ثورة الزنج؛ مما جعل العباسيين يشجعون رجلاً اسمه جعفر بن يعفر، يقوم في صنعاء وينشئ دولة عرفت باسم اليعفرية. فكان هذا الاضطراب السياسي عاملاً على نجاح الدعوة الإسماعيلية في اليمن.

(١) سيرة جعفر الحاجب، ص ١١٠؛ انظر. الهمداني، الصلوحيون، ص ٣٩؛ وقبله.

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن عبيد الله بن زياد. ابن الوردي، تاريخ، ١ ص ٢١٣؛ ابن أبي

مخرمة، كتاب ثغر عدن، ١ ص ٩.

(٣) معجم البلدان، ٧ ص ٢-٤. بين زبيد وعدن.

(٤) نفسه، ٦ ص ١٢٦ وما بعدها.

ولكن الدعوة الشيعية باليمن لم تستمر في نجاحها، فعلى بن فضل خرج على ابن حوشب ودعا لنفسه^(١)، فحاربه ابن حوشب وانتصر عليه. ومع أن ابن الفضل مات مسموماً، ولم يلبث ابن حوشب هو الآخر أن مات حوالي ٣٠٣/٩١٥؛ فإن أولاد ابن حوشب هم الآخرون انقسموا على أنفسهم، ومنهم من دعا للعباسيين؛ بحيث إن جعفر بن منصور اليمن-الذي ترك لنا سيرته- هرب إلى المهدي أول خلفاء الفاطميين بالمغرب، نتيجة لسوء سياسة إخوته، وخرجهم على الدعوة الفاطمية^(٢).

حقاً إن الدعوة الإسماعيلية ما لبثت أن عادت إلى اليمن على يد القرامطة، الذين نشأوا في البحرين، وسيطروا على معظم الجزيرة العربية كما ذكرنا. ولكن انقسامها السابق كان قد أعاد الدولتين السنتين المؤيدتين من قبل العباسيين، وهما: الزيدية في زبيد، واليعفرية في صنعاء؛ حتى أنهما تعارفتا على المعاوضة والمنافرة في القضاء على بقايا القرامطة وأذيالهم من الشيعة؛ وإن كان كلاهما ضعيفاً، وخصوصاً أن ملوك بني زياد كانوا قد خضعوا لعبيدهم من الحبش، فاستطاع أحد العبيد واسمه نجاح، تكوين أسرة حاكمة في زبيد ١٠٢١/٤١٢، عرفت ببني نجاح، أن تقوم على أنقاض بني زياد؛ حيث منحهم الخليفة العباسي التقليد، كما كان يفعل مع بني زياد؛ وإن كان بنو نجاح ما لبثوا أن ضعفوا بدورهم، فانتقل الملك إلى عبيد عبيدهم^(٣).

ولا يعني هذا أن الدعوة الإسماعيلية زالت من اليمن، نتيجة لخروجها من بيت ابن حوشب، ومن انسحاب القرامطة، وإنما تحولت سرية في مناطق الجبال. حقاً إنه لم يعد في اليمن دولة شيعية؛ إلا أنه طوال عهد الخلفاء الفاطميين بالمغرب ومصر، كان كل داعية لهم باليمن، يحافظ على حسن العلاقة بيته وبين الإمام الفاطمي الحاضر، ويحرص على أن يأتيه التعيين الرسمي منه، كما يرسل له مال

(١) كشف ، ص ٣٢ وما بعدها؛ انظر. الهمداني، الصليحيون، ص ٤١ وما بعدها.

(٢) سلوك (تاريخ اليمن) ، مختصر كاي Kay ، ص ١٥١ ؛ انظر. الهمداني، الصليحيون. ص ٥٢.

(٣) ابن الوردي، تاريخ، ص ٢١٤.

المستجيبين لدعوته. وربما قويت الدعوة الإسماعيلية في اليمن عن ذى قبل، لما انتقل الخلفاء الفاطميون من المغرب إلى مصر؛ حيث نسمع أنه خطب للعزیز^(١) الفاطمي باليمن، على يد قحطان اليعفری. ولدينا أسماء بعض الدعاة زمن الحاكم والظاهر، وأشهرهم: هرون بن محمد بن رحيم، الذي تولى الدعوة زمن العزيز والحاكم. ولدينا سجل إلى هرون^(٢)، يبلغه الحاكم فيه بوصول مال الدعوة من ذهب وقرابين، وينقل إليه أوامره إلى الدعاة الآخرين، ويعلمه بإرسال رسول من قبله إليه. وبعد موت هرون خلفه داعية آخر اسمه: يوسف بن أحمد بن الأشج (أو الأمشج)، ثم خلفه عامر بن عبد الله الزواحي^(٣)، وقد استمر هذا الأخير يدعو للحاكم وابنه الظاهر.

ولكن الدعوة الفاطمية عادت إلى أوج قوتها من جديد في عهد المستنصر، مما ترتب عليه إنشاء دولة فاطمية في اليمن؛ وقد تم ذلك على يد داعية كبير اسمه: أبو الحسن علي بن محمد الصليحي^(٤)، الذي وصف بأنه شاب أشقر اللحية أزرق العينين، وليس باليمن أشقر أزرق غيره. وكان أبوه قاضياً سنياً في حرّاز^(٥) من بلاد همدان اليمانية، قرب زبيد، ولكن عامر بن عبد الله الزواحي - الداعي السابق - تمكن من استمالة علي الصليحي إلى المذهب الفاطمي وهو دون سن البلوغ، وجعل منه أحد دعاة. وقد سلّم سليمان قبل موته إلى علي الصليحي مالاً كثيراً كان قد جمعه من أهل المذهب، وأوصى بكتبه إليه، وجعله خليفته؛ بحيث أصبح علي الصليحي زعيم المذهب الفاطمي في اليمن بعده. فتمكن

(١) النجوم، ٤ ص ١٢٢ س ١-٢.

(٢) عيون الأخبار، ٦ ورقات ٣٧٢-٣٧٣؛ انظر. الهمداني، الصليحيون، ص ٥٦ وملحق ص ٢٠١؛ ماجد، الحاكم، ص ١٤٨، وملحق ص ٢٢٩-٢٤٠.

(٣) كشف الأسرار الباطنية، ص ٤٢؛ انظر. الصليحيون، ص ٥٧-٥٨ وهامش (٢).

(٤) عن حياته: وفيات، ٢ ص ٧٣ وما بعدها؛ عيون، ٧ ورقة ٧ وما بعدها؛ انظر. الصليحيون، ص ٦٤ وما بعدها؛

Ency de l'Isrl, (art Sulaihides) t 4, P. 540 sqq.

(٥) عنها: انظر معجم البلدان، ٢ ص ٢٤٠؛ انظر.

Ency (art Hamdānides) 2 éd, t 3. P. 128.

على الصليحي بعد أن كثر أتباعه- حيث كانت طليعته ٩٥٠ رجلاً- من رفع راية العصيان على جبل مسار- أعلى جبال اليمن- في أرض حَرَّاز؛ فألقى فيهم خطبة يحضهم على العصيان، وذلك في ٤٢٩/١٠٣٧^(١). وقد جاءه أعوانه من كثير من البقاع التي فيها شيعة من أتباع المذهب؛ كما اجتمع إليه خلق كبير من العرب الجائعين، ولا سيما أن العرب أخذتهم الحمية إلى عدم الخضوع للعبيد من دولة بنى نجاح السنية. فلما استقر على الصليحي بالجبل، كتب إلى المستنصر وأرسل إليه الهدايا، فوجه إليه المستنصر الرايات والألقاب وأذن له بعلنية الدعوة. وقد استمرت دعوة على الصليحي مدة في الجبال، فلما ظهرت كلمته، أرسل إلى المستنصر يعلمه ما هو عليه من ظهور الكلمة، ويستأذنه في النزول بالعساكر إلى تهامة ومقاتلة أهلها، وهي أرض سهول تجاور ساحل البحر الأحمر؛ فأذن له، وذلك في أيام وزارة البازوبى^(٢).

وفي أول الأمر أخذ على الصليحي يلاطف نجاحاً، فأرسل إليه جارية جميلة قتلتها بالسهم في ٤٥٢/١٠٦٠^(٣)، فهرب أولاد نجاح إلى جزيرة نَعْلُك^(٤) في البحر الأحمر- وهي المكان الذي كان ينفي الأمويون فيه أسماءهم. قوى ذلك من مركز على الصليحي، الذي استولى على التهائم والنجود وهي المناطق الجبلية. ولم تخرج سنة ٤٥٥/١٠٦٤؛ إلا وقد ملك اليمن كله، سهله ووعره، وهره وبحره، وهذا ما لم ير مثله في الجاهلية ولا في الإسلام^(٥). وقد استقر في صنعاء، واتخذها حاضرة له، ومعه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم، حيث وأى في الحصون غيرهم. كذلك زاعت الدعوة الفاطمية في كافة أرجاء اليمن، وعادت بالقوة السابقة

(١) ميون، ٧ ورسائل ٧-٨؛ انظر. الهمداني، الصليحيون، ص ٧٦-٧٨. يقول الحمادي سنة ١٠٤٧/٣٣٩. كشف، ص ٤٢-٤٣.

(٢) ابن حجر، رفع الإصر، ورقة ٨٥ ب.

(٣) مثلاً: العبر، ٤ ص ٢١٤؛ عمارة / كاي، ص ١٦. أما إدريس عماد الدين فلم يذكر شيئاً عن هذه الحيلة. انظر. الهمداني، الصليحيون ٨٤ هامش.

(٤) عنها، انظر. معجم البلدان، ٤ ص ١١٤-١١٥.

(٥) أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٧٠؛ عمارة / كاي، ص ١٨؛ وفيات، ٢ ص ٧٤.

ذاتها، وبقيت من وقتئذ إلى يومنا الحاضر. وكان يخطب في اليمن للمستنصر خليفة مصر، ثم لعلّ الصليحي، ثم لزوجة عليّ الصليحي - وهب ابنة عمه - أسماء بنت شهاب، فيقال لها: اللهم وأدم أيام الحرّة، الكاملة، السديدة، كافلة المؤمنين^(١). وقد بلغ من تعلق عليّ الصليحي بالإمام المنتصر أن أرسل إلى المستنصر هدية عظيمة القدر في ١٠٦٢/٤٥٤، لم يسمع بمثليها؛ فشحنت في المراكب ثلاثين يوماً، وفيها فنون كثيرة من الذهب والفضة والسلاح والوشى والمسك والعنبر، والكافور والعود الهندي الرطب والأستاذين والجواري وكثير من الأمتعة، يبعد حصرها، ويعظم أمرها^(٢). كذلك كتب إليه يستأذنه في السفر إلى مصر ليحظى بلقائه، فأرسل إليه المستنصر كتاباً^(٣)، يأذن له بالمجيء إلى مصر، في جمادى الآخرة من سنة ٤٥٩ / أبريل سنة ١٠٦٧.

وكان المستنصر يشجع داعيته المظفر، الذي أخضع له اليمن. فكان يمنحه الألقاب الفخمة، التي لم تعرف قبلاً؛ فأصبح عليّ الصليحي يلقّب: بالأمير، الأجل، الأوحد، أمير الأمراء، تاج الدولة، سيف الإمام، المظفر في الدين، نظام المؤمنين^(٤). ثم زاد في ألقابه ألقاباً أخرى أكثر فخامة، مع احتفاظه بألقابه القديمة، فصار يعرف: الأمير، الأجل، الأوحد، أمير الأمراء، عمدة الخلافة، شرف المعالي، تاج الدولة، سيف الإمام، المظفر في الدين، نظام المؤمنين^(٥)، وكان المستنصر يلقّب كل أفراد أسرة الصليحي، فلقب عقيلة الصليحي، بلقب الحرّة، التقية، كافلة المؤمنين، الساعية في مصالح الدين؛ ولقّب ابنته، بالفاضلة، ولقّب ابنه واحداً

(١) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٧ ورقة ٨٨ ب؛ انظر. الهمداني، الصليحيون، ٦٧.

(٢) هيون، ٧ وورقات ٦٦-٧٢؛ الصليحيون، ص ٢١٨. يقول الهمداني سنة ١٠٤٧/٤٣٩. ووجه إليه بهديا سيمين سيفاً، مقابلتها عتيق، واثني عشر سكيناً عتيق. كشف، ص ٤٢.

(٣) سجل ويد في هيون الأخبار، ٧ وورقات ٨٢-٨٦؛ انظر. الهمداني، الصليحيون، ص ٩٧، الملحق رقم رقم ٥ ص ٣٠٧-٣٠٥.

(٤) السجلات المصرية، سجل رقم ٤ ص ٢٢٥. وهامش

(٥) سجل ٨ ص ٢٢٠. وهامش

واحداً^(١). وكان المستنصر يرسل لعلی الصليحي رايات الخلافة والويتها، وملابسه الخاصة كبركة له ولأبنائه، ويكتب لهم تعويذات، ويدعولهم^(٢). بل كان يرسل لهم باللحوم بعد النحر. حيث كانت ترسل لهم مقدّدة^(٣)، فتفرّق من وزن نصف درهم، إلى ربع درهم، على سبيل البركة. ولما رغب علی الصليحي في ولاية عهده لابنه محمد في ٤٥٦/١٠٦٤، وافق المستنصر، وأرسل إليه سجل التولية^(٤)؛ ونصحه أن يعتمد دائماً على إخوته. وبعد أن كان لقب محمد؛ منتجب الدولة وصفوتها، ذا المجدين، أضاف المستنصر إليه لقب: الأمير، الأعز، شمس المعالي، ولكن محمداً توفى بالحمى، فأسرع المستنصر بالموافقة على تولية الابن الأوسط أحمد المكرم، وورد سجل التولية من قبله^(٥).

ومن ناحية أخرى، نجد أن المستنصر لم يتردد في أن يستغل علياً الصليحي؛ ليهبط نفوذ خلافته في أنحاء الجزيرة العربية، وبخاصة في الحجاز، الذي سادته الفوضى، بسبب منافسة العباسيين لهم عليه كما سنرى؛ بحيث إن نفوذ الخليفة العباسي عاد إليه، وخطب له فيه على منابرها. فجميع السجلات، التي وجهت من المستنصر إلى علی الصليحي، تبين الأهمية الكبرى للأماكن المقدسة عند فاطميين مصر، وإن المستنصر يريد ألا تراق الدماء في مكة، حرصاً على قداستها^(٦). وقد خرج علی الصليحي بجيش إلى الحجاز، وتمكن من إخضاعها للفاطميين؛ إلا أن أعداءه من العبيد أتباع دولة بني نجاح المهزومة بقيادة سعيد بن نجاح الأحول، يساعدهم بنو يعفر، تربصوا بالصليحي، وقتلوه في

(١) سجل رقم ٤، ٣، ٢.

(٢) سجل رقم ٦١ ص ٢٠٢. وردت في صدر كتاب للمكرم.

(٣) صبح، ٣ ص ٥١٥-٥١٦.

(٤) سجل رقم ٢ ص ٣٢-٣٣؛ وسجل رقم ١٠ ص ٥٣-٤٤؛ وسجل ورد في عيون الأخبار، ٧

ورقة ٨٦؛ انظر. الهمداني، الصليحيون، ملحق رقم ٣ ص ٣٠٢.

(٥) عيون الأخبار، ٧ وقرات ٧٩-٨٠؛ انظر. الصليحيون، ملحق رقم ٣ ص ٣٠٣، وملحق رقم

٥ ص ٢٠٥-٢٠٧.

(٦) سجل رقم ٧.

١٠٦٦/٤٥٩^(١)؛ وأسروا زوجته. ولدينا وصف قتله في رسالة من ابنه أحمد المكرم إلى المستنصر^(٢). وقد حزن المستنصر على قتل علي الصليحي، فسمح بإقامة عزائه في حضرته^(٣).

ومع أن الدعوة الفاطمية كادت تزول من اليمن بقتل علي الصليحي، فإنه يجب أن نقرر أن تسامح علي الصليحي مع السنين-شأنه في ذلك شأن الخلافة الفاطمية- سمح بإظهار المذهب السني؛ إلا أن تصرف المستنصر السريع كان من عوامل بقاء الدعوة في اليمن. فحينما وصل خبر قتل علي الصليحي، أسرع المستنصر بتعيين أحمد المكرم مكانه، فأرسل إليه التشاريف والأعلام^(٤). ولدينا سجلات تبادلها المستنصر مع أحمد المكرم، يظهر فيها ماثرة أحمد المكرم للأخذ بثأر أبيه. فقد تمكن من قتل قاتل أبيه سعيد الأحوال^(٥)، كبير بنى نجاح، وإن هرب جياش أخو سعيد إلى الهند، ليعود من جديد للمقاومة في تهامة، كما فتح المكرم زبيد وخلص أمه من الأسر، وأقام لعلّي في زبيد مشهداً؛ ومشهداً له آخر في صنعاء^(٦). ويبدو أن أهل حراز من رجال الدعوة الأول، وآل زريع من قبيلة همدان في ناحية عدن^(٧)، كانوا أكبر عون له في هزيمة أعداء الصليحيين.

وقد استمر المستنصر في تشجيع أحمد المكرم بكل الوسائل كما فعل مع علي الصليحي من قبل؛ فكان يرسل إليه السفارات والتشاريف وملابسه الخاصة، على سبيل البركة. كذلك لقبه بالقباب^(٨)، منها؛ الأمير، الأجل، المكرم، شرف

(١) سجل رقم ٤٠، انظر. مقدمة السجلات، ص ١٩. يؤيد كثير من المؤرخين موته في هذا التاريخ. عيون، ٧ ورقة ٩٠؛ الكامل، ٨، ص ١١٠٦؛ عمارة/ كاي، نص ص ٢٢، ترجمة ص ٣٠. هذا الأخير يقول في رواية صحيحة، بينما يجعلها أبو الفدا (المختصر، ط الحسينية، ٢ ص ١٨٢) في ٤٧٣/١٠٨٠.

انظر الهمداني، الصليحيون، ص ١٠٣.

(٢) القمى، رسائل، مخطوطة، بمكتبة الهمداني الخاصة، ورقات ٣٦-٧٢، انظر. ملحق، (الصليحيون)، برقم ٦ ص ٢٠٨ وما بعدها؛ ابن أبي مخرمة، كتاب تاريخ ثغر عدن، تحقيق Leyden، ١٩٣٦، ٢ ص ٩-١٠. وهي على لسان الملك أحمد المكرم، وموجهة للمستنصر.

(٣) عيون ٧ ورقة ١٠٣؛ انظر. الهمداني، الصليحيون، ص ٢١٦.

(٤) سجل رقم ٤٠، ٤٢.

(٥) على الخصوص، سجل ٦٠ ص ٩٨؛ أبو الفدا، المختصر، ٢ ص ١٥٤.

(٦) عمارة/ كاي، ص ٢٩.

(٧) عيون، ٧ ورقة ٩٦؛ ابن أبي مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ١ ص ٤٠.

(٨) سجل رقم ٣٩.

الأمراء، عز الملك، منجب الدولة وغرسها، ذو السيفين. ثم بعد ذلك لقبه باللقاب كثيرة، حتى زادت عن القاب أبيه، منها^(١) : الملك، الأجل، الأوحده، المنصور، العادل، المكرم، عمدة الخلافة، تاج الدولة، سيف الإمام، المظفر في الدين، نظام المؤمنين، عماد الملة، وغياث الأمة، شرف الإيمان، مؤيد الإسلام، عظيم العرب، سلطان أمير المؤمنين وعميد جيوشه. كما لقب المستنصر زوجة المكرم، وهي سيدة أروى. بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي - التي ولدت عام ١٠٤٨/٤٤٠، وربتها أسماء بنت شهاب - أم المكرم - باللقاب^(٢) منها: الحرة، السيدة، السديدة، المكينة، ذخيرة الدين، عمدة المؤمنين، كهف المستجيبين، صنيعة أمير المؤمنين. بل كان المستنصر يكتب أسماء أم المكرم، بالألقاب التي كان قد خلعها عليها^(٣).

ولكن أحمد المكرم نفسه لم يلبث أن زهد في الحكم ربما بسبب مرضه بالشلل، نتيجة لجراح كان قد أصيب بها في محاولة إنقاذ أمه، وإن قيل اشتغل بالأكل والشراب؛ فكانت زوجته سيدة أروى تحكم معه. فيذكر عمارة المؤرخ أن أحمد المكرم فوض زوجته في الحكم، فاستبدت بالأمر، واستعفتت في نفسها، وقالت لزوجها: «إن امرأة تراك للفرش، لا تصلح لتدبير أمر، فدعني وما أنا بصدده»^(٤). وقد يكون استقلالها بالحكم ابتداءً من سنة ١٠٧٨/٤٧١؛ حيث إن المستنصر يوجه إليها السجلات رأساً، ويبيِّن^(٥) لها وسائل الحكم المثالية^(٦)، ويعتبرها مثلاً أعلى للمرأة لتقلدها قلائد التقوى، ولكفائتها في إدارة شئون البلاد، وليقتلها في أمور الدعوة، ولذلك لا يعدها من ضمن زمرة ربات الحجاب^(٧). كذلك ترأسها أم المستنصر، وتخطبها بقولها: «فاقمت للسياسة عمادها، وسلّمت إليك الكفاة قيادها»^(٨). ومع ذلك كان المستنصر يرسل إلى الملكة أروى برأيه في الأمور، يطالبها بأن تسلك مسلك أسماء والدة المكرم^(٩).

(١) سجلات: ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٢٩، ٤١، ٤٤، ٥٤، ٥٦، ٥٨، ٥٩.

(٢) سجل رقم ٤١، ص ١٤٢.

(٣) سجل رقم ٥٥، ص ١٨٠-١٨١.

(٤) عمارة/ كافي، ص ٢٥؛ عيون الأخبار، ٧ ورقة ٨٢٢؛ انظر.

Dal Hâtim. Oriens. 1974, P. 863. : Abbâs Hamdani,

(٥) عمارة / كافي، ص ٢٩؛ انظر. الصليحيون، ص ١٤٨.

(٦) سجل ٤٤، ص ١٥٢-١٥٤.

(٧) سجل ٢٠، ص ٧٦.

(٨) سجل ٥١، ص ١٧٠.

(٩) سجل ٢٠، ص ٧٦-٧٨.

وحيثما مات أحمد المكرم في ٤٧٨/١٠٨٥؛ اختلفت آراء الأمراء والسلاطين في اليمن، فيمن يتولى الحكم بعد المكرم. ولكن المستنصر كان يريد أن يؤثر بالولاية في اليمن سلالة علي الصليحي، وذلك لأنه رأى في السيدة الحرّة من القوة والكفاية لتنفيذ رغباته ما يرضيه. لذلك أرسل إليها سجلاً بإقامة ولدها أبي الحسن علي بن المكرم^(١)، الذي تسمى باسم: عبد المستنصر، وذلك تودداً إلى المستنصر. وعلى الرغم من صغر سن عبد المستنصر؛ فإن المستنصر لقبه بالقباب أبيه، بما فيها: عمدة الخلافة، وأرسل إليه ملابسه الخاصة والويته وسيوفه ودواة لمسها، وذلك ليعلى من شأنه^(٢). وبعث المستنصر إلى الصليحيين، وغيرهم من الزواحيين - وهم سلالة دعاة اليمن قبل الصليحيين - برسالة يدعوهم فيها إلى الائتلاف، ويخوفهم من ضياع الملك من أيديهم إذا تفرقت كلمتهم، ويحضهم بشدة في الوقت ذاته على طاعة السيدة الحرّة وابنتها عبد المستنصر؛ حيث إن سنة الصغيرة لا اثر لها، لأن أمير المؤمنين يراعاه فضلاً عن رعاية أمه له^(٣). وأرسل المستنصر إلى أخيه محمد بن المكرم، الذي تسمى هو الآخر بعبد الإمام، كتاباً يطالبه فيه بالتعاقد مع أخيه^(٤) وإن كان عبد الإمام ما لبث أن توفي^(٥). وقد نجح المستنصر في حفظ الملك في البيت الصليحي، حتى إن السيدة الحرّة نقلت إلى الإمام قبول السلاطين خضوعهم لها ولابتها عبد المستنصر^(٦). حتى بعد موت ابنتها، الذي لم يعمر طويلاً، ظلت السيدة الحرّة تحكم في اليمن، فهي في رأى المستنصر بيدها الحل والعقد والإبرام والقضاء والإعطاء.

ولكن يبدو أن السلطان أبا حمير سبأ بن أحمد بن المظفر بن علي الصليحي كان يتوقى إلى حكم اليمن عن طريق الزواج من السيدة الحرّة. وقد كانت العقبه

(١) سجل ١٤، من ٢٦، ٦١ من ٤٦، ٩١، من ٤٨، ١٥٩ من ١٦١-١٦٥.

(٢) سجل ٣٧ من ١٢٧.

(٣) سجل ٢٨ من ١٢٨-١٣٤.

(٤) سجل ١٧ من ٦٩-٧١.

(٥) سجل ٢٤ من ٨٦-٨٧.

(٦) سجل ٣٦، ٢٢.

أمامه في وجود سليمان بن عامر الزواحي، الذي أخذ يناقسه؛ إلا أنه تصالح معه^(١)، ممّا مهّد لأبي حمير تحقيق أطماعه. ويبدو أن السيدة الحرّة هي الأخرى كانت تميل إلى أبي حمير^(٢)؛ بحيث إنها أبلغت المستنصر، أن أبا حمير كان أول السلاطين إسراعاً للطاعة، وأنه يمكنه أن يعتمد عليه. وقد فهم المستنصر ميل الإثنين إلى بعضهما البعض، فعمل على تزويجهما عن طريق رسوله، الذي قال للسيدة الحرّة: « وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحده، المنصور، المظفر، عمدة الخلافة، أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي، على ما حضر من المال، وهو مائة ألف دينار عينا، وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف ولطائف وطيب وكساوي^(٣). لذلك يعتبر المؤرخون سبأ آخر ملوك الصليحيين^(٤)؛ فقد ظل يحكم مع السيدة الحرّة من ٤٨٤/١٠٩١ إلى ٤٩٢/١٠٩٨-٩، أما السيدة الحرّة، فقد عاشت بعد سنة ٥٣٢/١١٣٧. ولا ريب أن هذا الزواج كان كفيلاً ببقاء الدعوة الفاطمية طوال أيام المستنصر، وحتى بعد موته.

ولكن بعد موت زوجها، أرسلت الخلافة في مصر زمن الخليفة الأمر الفاطمي داعياً مصرياً اسمه: أبو الحسن عليّ بن إبراهيم بن نجيب الدولة المصري في ٥١٣/١١١٩^(٥)؛ ليقيم بجانبها، بعد أن أرسلت معه جماعة من السودان، أي فرقة من الجيش المصري؛ بحيث عادت الأمور إلى حالها، والطاعة لها. فكان ابن نجيب الدولة بمثابة الوزير لها، وقويت شوكته، وكان يغزو في بلاد اليمن بجيش مصر، وانقمع أهل اليمن المتمردون. ولكن ابن نجيب الدولة تكبر على أهل اليمن^(٦)، حتى أنه رمى السيدة الحرّة بالخبل، وقال: « قد خرفت، واستحق عندي أن يحجر عليها^(٧)؛ مما جلب عليه كره اليمنيين له، وغضبت عليه الخلافة

(١) سجل ٢٦ ص ١٢٠، ٢٢ ص ٨١-٨٢.

(٢) نفسه ص ١٢٠-١٢١.

(٣) عيون، ٧ ورقة ١٤٣؛ عمارة/ كاي، ص ٣٥؛ انظر. الصليحيون، ص ١٥٧-١٥٨.

(٤) أبو الفدا، المختصر، ٢ ص ١٨٢.

(٥) عمارة/ كاي، ص ٤٣-٤٤، اسمه بالكامل؛ علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة.

(٦) عمارة/ كاي، ص ٤٦-٤٧.

(٧) نفسه، ص ٤٣-٤٤؛ انظر. الهمداني، الصليحيون، ص ١٧١.

الفاطمية أيضاً، وسعت إلى قتله. ويبدو أن السيدة الحرّة بعد هذه الحوادث، انفصلت عن نفوذ خلفاء الفاطميين في مصر وقت وفاتها^(١).

ومن ناحية أخرى، عادت اليمن إلى فوضاها السياسية والدينية، نتيجة لضعف الصليحيين وانفصالهم عن نفوذ مصر، فتوزعت مدن اليمن بين حكام عديدين، وفتحت الطريق أمام المخاطرين، الذي أصبح كل واحد منهم يسعى إلى السيطرة على اليمن. فظهر في زبيد من أرض تهامة، رجل اسمه على ابن مهدي^(٢) (ت ١١٥٩/٥٥٤)، يبدو أنه كان يعتنق دعوة الفاطميين في مصر، وظهر المذهب الزيدي في صعدة شمال صنعاء في ١١٣٧/٥٢٢-٨، على يد رجل أو مصلح، اسمه الإمام المتوكل أحمد، من نسل الهادي إلى الحق يحيى مؤسس المذهب الزيدي في اليمن، وهو المذهب الشيعي الذي كان لا يتعارض كثيراً مع المذهب السني، وكان اعتنقه البويهيون في العراق كما ذكرنا، أما صنعاء ذاتها، التي كانت عاصمة الصليحيين إلى سنة ١٠٨٨/٤٨١-٩، ثم بعد ضعفهم نقلوا العاصمة إلى ذي جبلة، فقد سيطرت عليها قبيلة همدان الكبيرة^(٣)، التي كان منها الصليحيون، إذ كانت هذه القبيلة منذ أيام الإسلام الأولى أكبر مناصرة لعلى وخلفه في العراق، حينما انتقل فرع منها إلى الكوفة^(٤)، وأل زريع ظهروا في عدن، الذين أصبحوا دعاة لخلافة الحافظ في مصر، ليقاوموا بها الدعوة الطيبية نسبة إلى ابن الأمر، حتى أن أحدهم وهو محمد بن سبأ الزريعي لقبه الحافظ؛ الداعي المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين^(٥)، الذي كان يسعى إلى شراء قلاع الصليحيين، أما الصليحيون أنفسهم، فلم نعد نسمع عن سلالتهم إلا نادراً بعد السيدة الحرّة.

وقد بقي الحال هكذا في اليمن من الفوضى السياسية والدينية إلى أن أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه بعد أن كان قد قضى على الخلافة الفاطمية في مصر

(١) لا تزال تذكر في اليمن الآن باسمها أروى، وليس بلقبها السيدة الحرّة، ولها جامع على

اسمها، وحتى طريق باسمها؛ طريق الملكة أروى.

(٢) عمارة، ص ٢٩-٣٠؛ أبو الفدا، المختصر، ٢ ص ١٥٤.

(٣) انظر. Ency. de l'Isl, (Hamdanides) 2 ed t 3, P. 128.

(٤) انظر Ibid, (art. Hamdan) 2 ed, t 3, P. 125-6.

(٥) العبر، ٤ ص ١٩.

فدخل توران شاه اليمن بناء على دعوة من شيوخ قبيلة همدان؛ كما أزال على بن مهدي؛ وبذلك قضى على كل أثر للمذهب الفاطمي، وبالتالي فتحت الطريق أمام المذهب الزيدي.

ومن المحقق أن أفراد أسرة على الصليحي جميعاً، كانوا الدعاة المخلصين للفاطميين في اليمن فكانوا يحرصون على إظهار ولائهم الذي لا يتزعزع للخليفة الفاطمي كإمام روى لهم، فكانوا يرسلون أموال الدعوة من أتباع المذهب من نجاوى وقرايين وفطر، كذلك كانوا يرسلون باستمرار سفارات دينية إلى القصر الفاطمي بالقاهرة، فقد ذهب لك بن مالك الحميري^(١) - وهو قاضى قضاة اليمن وداعيته- وغيره إلى مصر، واتصلوا بالإمام وداعيته المؤيد في الدين أبى نصر هبة الله بن موسى، وأقام ملك بمصر خمس سنوات في دار العلم، مركز الدعوة الفاطمية، وكان المستنصر يعتبر ملك ضمن حاكمى اليمن^(٢)، وسبب انتشار دعوة الفاطميين فيها، فسمى في عهد المكرم: «داعى القلم»^(٣)، واستقبله قبل رجوعه، ومنحه ٢٧^(٤) خلعة؛ كما أن يحيى بن ملك استمر في الدعوة بعد أبيه. ولعل لك والمؤيد في الدين، وقد رأيا اضطراب أحوال مصر الداخلية، بتغيير وراثتها وتضعف الدولة^(٥)، فحولوا التراث المذهبي الفاطمي إلى اليمن، وهذا يفسر انتقال الكتب الفاطمية إلى هناك.

(١) سجل ٤٢، من ١٤٤، ٥٥ من ١٨١، ٦١، ٢٠٢، عيون الأخبار، ٧ ورقة ١٠٢-١٠٤؛ أنظر.

The history of the Ismaili Dawa and its Literature, during the last phase of:-Hamdanī the fatimid empire J.R.A.S. Jan, 1923, P. 135;

Some unknown Isma'ili authors and their works J.R.A.S. Jan, 1933, cf.

(٢) سجل ٥٥ من ١٨١.

(٣) عيون، ٧ ورقة ١٨٢؛ أنظر. الصليحيون، من ١٧٩؛ عيون، من ١٠٢٧-١٠٤.

(٤) نفسه، ٧ ورقة ١٤٤؛ أنظر. نفسه، من ١٨١.

(٥) أنظر بعده.

ومن الأهمية أن ندرك أنه بفضل الصليحيين وارتباطهم بدعوة الفاطميين أصبح اليمن جزءاً من دولة الفاطميين في مصر. كذلك توثقت العلاقات التجارية بين مصر واليمن، تلك العلاقات التي تمتد إلى أيام الفراعنة، فأصبح التجار يرحلون من مصر إلى اليمن، فاستقر كثير من كبار تجار مصر في مدن اليمن، واتخذوها وطناً ثانياً لهم، كبنى الخطاب، وهم تجار من أهل مصر، وكان ثغر عدن^(١)، وهو مكان محاط بالجبال، ولا يدخل إليه إلا من البحر، أهم موانئ التجارة اليمنية للمصريين. أما مصر فقد كان عيذاب وهو على البحر الأحمر، «القلزم»، مرسى للتجارة الواردة من عدن، حتى أن ناصر خسرو ذكر أنه كان تابعاً لليمن^(٢).

وأخيراً نذكر أنه منذ نشأة الدعوة الفاطمية، فإن دعواتها في اليمن يعتبرون عناصر رئيسية لنشرها في الهند، ويقتصد بها السند أو المنطقة الغربية من الهند، التي يجرى فيها نهر السند. فقد كان الفاطميون يرسلون إلى الهند الدعاء منذ أيام ابن حوشب^(٣)؛ بحيث كوّن الشيعة في الهند دويلات أشهرها الملتان^(٤)، فكان حكامها يرسلون الهدايا وأموال الدعوة إلى أئمة الفاطميين بمصر. ولكن لما قامت دولة الغزنويين السنية على حدود الهند (أفغانستان)، ثم توسعت باستيلائها على إقليم ما وراء النهر من السامانيين^(٥)، غزت دولة الغزنويين دويلات الشيعة، بما فيها الملتان في ١٠٠٥/٣٩٦^(٦)، وعمدت إلى قتل الشيعة؛ بحيث أصبحت غزنة عاصمة الغزنويين، مصيدة لكل شيعي من الهند أو غيرها. وقد حاول الفاطميون في عهد الحاكم والظاهر استمالة الغزنويين للتخفيف عن أنصارهم، ولا سيما

(١) ابن أبي مخرمة، ثغر عدن، ص ١٠٩، ٧، ٤.

سميت عدن من العدون وهي الإقامة، أو من عدنان مما يدل أصلها العربي، أو حتى من المعدن. نفسه، ص ٢٩٤، ٢، وأيضاً؛ معجم البلدان، ٦ ص ١٢٦ وما بعدها.

(٢) سفرنامه، ص ٧٢؛ معجم البلدان، ص ٢٤٦.

(٣) إفتتاح، ورقة ١٨-١٩، عيون، ٦ ورقات ٢٨-١١٤-١٧؛ انظر.

Isma'ili Propaganda and the Fatimid rule in Sind Ic. oct 1949, PP. 298-307.: Stern
The beginnings of the Isma'ili da' wa in Northern India. Cairo, : Ahbās al-Hamadānī
1959.

(٤) المقدسي، أمن التقاسيم، ط. Leiden، ص ٤٨١؛ انظر.

Ency. de l'Ial, (art. Multān) t 3, P. 771; (art Hind) 2 6d, t 3, P. 447.

(٥) الكامل، ٧، ص ١٩٧.

(٦) الفرق بين الفرق، ص ٢٧٧.

محمود الغزنوى، فيقول ابن كثير^(١) : « وكانت رسل الفاطميين فى مصر تفد إليه بالكتب والهدايا لأجل أن تكون فى جهتهم، فيحرقهم ويحرق كتبهم وهداياهم ». ولكن بسبب ظهور الصليحيين فى اليمن فى عهد المستنصر، فإن الدعوة الفاطمية عادت إلى الهند من جديد؛ حيث خول المستنصر الصليحيين تعيين الدعاء فيها. فكثير من السجلات^(٢)، تبين سيطرة الفاطميين على شئون الدعوة فى الهند، بفضل المكرم الصليحي والسيدة الحرّة.

*

كذلك نجحت الدعوة الفاطمية منذ وقت مبكر- مثلما فى اليمن- فى البلاد الواقعة عند بر العرب من الخليج الفارسى؛ حيث بلغت غاية نجاحها فى البحرين^(٣) بين عرب القيسية. وقد بلغت الدعوة غاية نجاحها على يد القرامطة الأوائل، مثل أبى سعيد الجنابى، وابنه أبى طاهر، بتأسيسها دولة إسماعيلية قوية؛ كما ذكرنا^(٤). ولكن كان قد ظهر بين القرامطة منذ أيام أبى طاهر فريق مناهض للفاطميين، وقوى بعد موت أبى طاهر، الذى لم يترك إلا عشرة أبناء صفار. فقام أحمد بن أبى سعيد الجنابى، المسمى أباً منصور، بالوصاية على سابور بن أبى طاهر، حيث ظلت علاقة القرامطة بالفاطميين غير واضحة زمن وصايته إلى سنة ٣٥٨/٩٦٩، وهى السنة التى فتح فيها المعزّ مصر. فقبض سابور على عمه أحمد، غير أن أحمد توفى بتدبير شيعة سابور. ولكن الحسن ابن أحمد -المعروف بالأعصم أو الأعظم- قتل سابور فى ٣٥٩/٩٧٠، وأوقع بأتباع الفاطميين، وخرج فى حملة على الشام ومصر؛ حيث صدّ المعزّ الفاطمى. ومع أن هذا الأخير كتب إلى الأعصم كتاباً طويلاً يدعوه فيه للموادة والطاعة لإمامه؛ فإن الأعصم استمر فى عداوته^(٥).

(١) ابن كثير، النهاية، ٢ ص ٢٩؛ النجوم ٤ ص ٢٥١؛ انظر. نص الكتاب من محمود الغزنوى للخليفة القادر فى ١٠٢٩/٤٢٠.

(٢) انظر. السجلات، ٥٠ ص ١٦٨، ٦٣.

(٣) عن البحرين؛ معجم البلدان، ٢ ص ٧٢ وما بعدها.

(٤) العبر، ٥ ص ٨٨ وما بعدها؛ انظر.

(٥) Ency de Isl, (art Karmates) t 2, P. 8/2 sqq. قبله.

(٥) إتعاظ، ص ٢٥١ وما بعدها؛ تحقيق جديد، ص ١٨٩ وما بعدها.

ولكن لما حارب العزيز أفتكين استنجد أفتكين بالأعصم القرمطى ضد جوهر، وهزموه؛ فلما مات الأعصم خرج العزيز بنفسه وهزم أفتكين وجعفر ابن الأعصم القرمطى، الذي هرب إلى الرملة بأرض فلسطين. فأرسل العزيز- الذي صالح أفتكين واستماله إليه- يعرض الصلح على القرمطى بمبلغ ثلاثين ألف دينار، تحمل له ولأصحابه كل سنة، ويعدده بالصفح. فقبل القرمطى شروط العزيز، وذهب جوهر بنفسه، إليه، واستحلفه بالطاعة للعزيز. فعاد الأعصم إلى الأحساء بالبحرين^(١)، فكان المال يحمل إلى القرمطى كل سنة إلى وقت وفاته، التي ذكر بعض المؤرخين أنها عام ٩٧٧/٣٦٦^(٢). وقد قام العزيز بعد أن ترك الأعصم الشام بنقل أشياع القرامطة من بنى سُلَيم وهلال من الشام إلى الصعيد^(٣).

وبعد موت الأعصم، قام عرب البحرين بثورة ضد بيت أبي سعيد الجنابي بسبب أنه لم يعجبهم تصرف أفراده بالدعاء للخليفة العباسي، فأخرجوا الأمر منهم، وأرسلوهم إلى المنفى في جزائر الخليج العربي (الفارسي)، وأقاموا لحكمهم نظام السادة، أي زعماء القبيلة، وهم من قبيلة سُلَيم، فاخترتوا ستة منهم، جعلوا لهم ستة وزراء^(٤). وقد تمكن هؤلاء السادة من إعادة علاقة الود مع الخلفاء الفاطميين؛ كما كانوا يتدخلون في منازعات أمراء البويهيين؛ بحيث كان لهم نائب في بغداد. وحينما ضعف البويهيون، كانوا يهاجمون مدن العراق، فهاجموا البصرة في ٩٨٤/٣٧٤، والكوفة في ٩٨٥/٣٧٥، ولم يهج أحد من العراق؛ خوفاً من القرامطة في ٩٩٥/٣٨٤، وعادوا إلى مهاجمة البصرة في ٩٩٦/٣٨٥^(٥).

ولكن في حوالي سنة ١٠٠٧/٣٩٨^(٦)، تمكن الأصغر بن الحسن الثعلبي من قبيلة ثعلب القوية، أن يقضى على نفوذ السادة، الذين ربما كان معظمهم من

(١) ذيل، ص ٢٠-٢١.

(٢) النجوم، ص ١٢٨.

(٣) ذيل، ص ٢٠-٢١؛ ويعدده.

(٤) العبر، ص ١٠١؛ الرونراوى، ص ١٠٩ س ٣-٤.

(٥) الرونراوى، ص ١٠٩؛ النجوم، ص ١٤٥، ١٦٧، ١٦٩.

(٦) العبر، ص ٩١-٩٢، ص ٧٢.

قبيلة بنى سليم، وأعلن الدعوة للعباسيين بدل الفاطميين، كذلك طرد الثعلبي بطون بنى سليم من البحرين، ومنها عشيرة بنى عقيل، الذين ساروا إلى الجزيرة، وتغلبوا على بقايا الحمدانيين، وأعلنوا الدعوة الفاطمية لخلفاء مصر كما ذكرنا، ويبدو أن السادة قد عادوا إلى حكم البحرين؛ فيذكر الرحالة ناصر خسرو^(١)، الذي زار مدينة، لحسا أو الأحساء في ٤٤٣/١٠٥١؛ أن حكم السادة كان قائماً، وأنهم يعتمدون على الزنوج والحبس، وأن مذهبهم الديني قد اختلط بعقائد باطلة، فهم يعتقدون برجعة أبي سعيد الجنابي - مؤسس دولتهم - ويسمون أنفسهم أبا سعيديين، وأنهم لا يصلون ولا يصومون.

كذلك بلاد عُمان المجاورة للبحرين، ومعظم سكانها من قبائل الأزد، استقلت عن سلطة العباسيين، مثلما كانت أيام الأمويين؛ حيث كانت ملجأ لدعوة الخوارج النجدية، ومن بعدهم الخوارج الأباضية. ومع أن الأمويين تغلبوا على هؤلاء؛ إلا أنهم عادوا إلى السيطرة في أيام العباسيين^(٢). وقد حاولت الخلافة العباسية استرداد عُمان، وأرسل هارون الرشيد أسطولاً، وحاول الخلفاء العباسيون ذلك بعده. ويبدو أن أسرة بنى شامة كونت فيها مع البحرين واليهامة المجاورة عملاً واحداً، يخضع للعباسيين. ولكن اختلاف بنى شامة مهّد لسيطرة قرامطة البحرين عليهم، فاستولى على بلادهم أبو طاهر في ٣١٧/٩٢٩؛ حيث ملكها القرامطة إلى سنة ٣٧٥/٩٨٥. وبعد ذلك سيطرت على عُمان أسرة بنى مكرم، الذين حكموا باسم الشيعة البويهيين، ولكن فساد أسرة بنى مكرم بتغلب النساء والعبيد عليها؛ جعل الملك البويعي أبا كاليجار يرسل عسكرياً من البحر، استولى على عُمان في ٤٣٣/١٠٤١^(٣). ويضعف البويهيين تمكن أحد الخوارج واسمه ابن راشد من الاستيلاء على عُمان في ٤٤٢/١٠٥٠، والقضاء على أسرة بنى مكرم، وتسمى بالراشد بالله، وربما سيطر على البحرين

(١) سفرنامه، ص ٩٢-٩٥.

(٢) عن ذلك بتفصيل: العبر، ٤ ص ٩١-٩٢؛ الكامل، ٨ ص ٥٥؛ معجم البلدان، ٢ ص ٧٣. عن عُمان؛ انظر. معجم البلدان، ٦ ص ٢١٥-٢١٦.

(٣) الكامل، ٨ ص ٣٢، ٥٥.

أيضاً^(١)، وذلك كما يظهر من أحد السجلات المستنصرية بتاريخ ٤٥٦/١٠٦٤،
التي تبين استيلاء الخارجي على هجر.

ومعنى هذا أن الدعوة الفاطمية التي قامت في البر العربي من الخليج
الفارسي قضى عليها عن طريق السنة أو الخوارج؛ إلا أنها عادت من جديد في زمن
المستنصر بالله بالذات^(٢). ويبدو أن عودة الدعوة الفاطمية يرجع إلى الظروف
القلقة في هذه البلاد؛ وبخاصة إلى قيام أسرة الصليحيين القوية في اليمن. فنجد
أن المستنصر بناء على طلب أهالي البحرين وعمان، يعين الدعاة فيهما، ويجعل
الإشراف على الدعوة للمكرم الصليحي؛ (ولاية تلك الأعمال-الأحساء وعمان-
جميعها؛ دانيها وقاصيها، مطيعها وعاصيها^(٣))، وعلى أن يعتبر دعاة القطرين
نواباً عن المكرم. وكان انشغال المكرم بظروف دولته؛ مما منعه من الاهتمام
بأحوال الدعوة في القطرين؛ فكان المستنصر يستحثه على بذل الجهد لنشر
الدعوة الهادية المستنصرية فيهما. ونعرف من شخصيات الدعوة الفاطمية في
البحرين عبد الله بن علي العلوي في الأحساء، الذي لقبه المستنصر؛ بالأمير،
مستخلص الدولة العلوية وعدتها، وفي عمان يوسف بن حسين الصدايواري
وابنه، اللذين لقبهما المستنصر بلقب غرس الدين. وربما يكون هؤلاء الدعاة قد
حكموا القطرين باسم الفاطميين، فنسمع أن رئيس الدعوة في البحرين كان
يحارب الخوارج وغيرهم؛ كما قد يكون المكرم الصليحي أشرف إشرافاً تاماً على
عمان؛ حتى من ناحية إدارتها.

ولكن بعد ذلك سقطت البحرين في أيدي السلاجقة في سنة
٤٧٠/١٠٧٧^(٤)، الذين سيطروا في العراق والشرق الإسلامي أيضاً؛ كما أنه لما
طرد السلاجقة بني عقيل من الجزيرة، عاد بنو عقيل إلى البحرين بلدهم
الأصلي^(٥). أما عمان؛ فإنها بقيت تحت إشراف المكرم، الذي عين لها داعية جديداً
في ٤٧٦/١٠٨٣، اسمه إسماعيل بن إبراهيم بن جابر^(٦). ولما انصرف هذا الداعي
عن الدعوة باحترافه التجارة، اقترحت الملكة الحرّة التي تولت الحكم في اليمن بعد

(١) سجل ٤ س ٣٩.

(٢) انظر. ماجد، الإمام المستنصر، ص ١١٢.

(٣) سجل ٥٤ ص ١٧٩.

(٤) النجوم، ٥ ص ١٠٦ س ١.

(٥) العبر، ٤ ص ٩٢.

(٦) سجل ٩٢ ص ٢٠٥.

المكرم تعيين حمزة بن سبط حميد الدين، فجاء سجل إلى الملكة بتعيينه في ١٠٨٨/٤٨١^(١)؛ وشكرها المستنصر على تبنيها لمصالح الدعوة في هذه البلاد.

والخلاصة أن الدعوة الفاطمية عادت إلى البَحْرين وِعُمان في عهد المستنصر، ولكن النفوذ الفاطمي ضاع منها بظهور السلاجقة، الذين استولوا على البَحْرين؛ كما أصبحت الدعوة في عُمان للمذهب وحده، وليس من ناحية الإشراف عليها، ولا سيما أن الصليحيين انقسموا بموت المكرم.

*

أما في الحجاز وسط الجزيرة العربية، فقد كان همّ الفاطميين أن يدعى لهم في الحرمين، بسبب أن أمير المؤمنين الحقيقي هو من كان ملكاً للحرمين^(٢)؛ وذلك لأن الحجاز هو قبلة المسلمين جميعاً. ثم بالنسبة للفاطميين على الخصوص لوجود قبر فاطمة الزهراء بالمدينة^(٣)، التي تنتسب إليها خلافتهم.

ولكن التشيع لم يلق في الحجاز مثل النجاح الذي لقيه في اليمن أو البر العربي من الخليج الفارسي؛ بسبب تمسك الخلفاء السنيين بالسيطرة الاسمية عليه. وكان الحجاز قد فقد مركزه السياسي بقيام الأمويين، الذين نقلوا مركز الحكم من المدينة إلى دمشق، فعادت إليه المنازعات القبلية، التي كان الإسلام قد انقذها منها، وقد استغل الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون ذلك؛ بالإبقاء على سيطرتهم فيه. وهذه البلاد كانت تحظى بزيارة الخلفاء إليها للحج، وإن امتنعوا منذ هرون الرشيد، وكانوا يكتفون بإرسال الكسوة (الشمسية) للكعبة، التي لوثها أسود، شعار العباسيين، وكذلك إرسال الهبات والأموال.

ومع ذلك؛ فإنه ظهرت في الحجاز أسرة علوية غير فاطمية. فظهر بنو الحسن أو الحسينيون أو الطالبيون بمكة^(٤)، من نسل الحسن بن علي في أيام الخليفة العباسي المأمون، حيث كونوا فيها دولة السليمانيين، نسبة إلى بنى سليمان بن داود بن حسن (الحسن) المثنى بن الحسن السبط بن علي، وهي

(١) سجل ٥٠ من ١٦٨.

(٢) المسعودي، مروج الذهب (التحقيق الأودي) ١ ص ٣٦٢؛ انظر حتز، الحضارة الإسلامية، ترجمة أبي رينة، ط ١، ٢، ص ٤.

(٣) سفرنامه، ص ٦٦ (في آخر الصفحة).

(٤) عنهم. العبر، ٤ ص ٩٩، ١١ وما بعدها؛ صبح، ٤ ص ٢٦٧ وما بعدها؛ انظر.

Ency de l'Isi, (art Mekka) t 3, P. 512 sqq.

شيعة إمامية؛ وإن كانوا خطبوا لأنفسهم في خلافة المقتدر العباسي في ٩١٣/٣٠١. ثم استولى أبو طاهر القرمطي على مكة من السليمانيين باسم الخليفة المهدي الفاطمي، أول خلفاء الفاطميين بالمغرب في ٩٢٩/٣١٧. ولكن خروج القرامطة على دعوة الفاطميين بعد موت أبي طاهر مهدّ لعودة العباسيين، عن طريق ضمها إلى ولاية العباسيين في مصر، ولا سيما الإخشيديين^(١)، الذين كانوا يرسلون للأشراف فيها المال والقمح، وإلا فالويل للحجاج^(٢) وما لبثت دولة السليمانيين أو الأشراف أن عادت إلى سيطرتها في أيام كافور، وكانوا يدعون للعباسيين، وإن أصبحوا يعرفون بالموسويين^(٣)، نسبة إلى موسى بن عبد الله، فرع من السليمانيين، وأيضاً بالأشراف.

أما في المدينة، فقد كان يقيم أفراد من بنى الحسين بن عليّ، الذين عملوا على تأسيس دولة لهم بزعامة طاهر بن مسلم من أحفاد الحسن بن عليّ زين العابدين بن الحسين بن عليّ في ٩٧٠/٣٦٠^(٤)، وكانت إسماعيلية. وقد كان لمحاولة الخلافة العباسية السيطرة على هذه البلاد من ناحية، والنزاع بين الحسينيين والحسينيين، وبين بعضهم البعض من ناحية أخرى، أثره مما جعل الحج فوضى.

مهما يكن نجد المعزّ في الوقت ذاته-الذي كان يستعد فيه لغزو مصر- يتدخل بطريق مباشر في وقف فوضى الحج؛ نتيجة لنزاع في مكة بين السليمانيين وجماعة أخرى من النحسينيين من نسل جعفر بن أبي طالب، فأرسل إليهما الأموال الطائلة، لشراء ديّات المقتولين من الطرفين في ٩٥٩/٣٤٨^(٥)؛ مما مهدّ إلى عقد السلام بينهما، ولا ريب أنه كان من أسباب سير الفاطميين إلى الشرق، عزم المعزّ تأمين الحج^(٦)، الذي هو فريضة دينية، ويعتبر في تلك العصور تذكرة الجنة. وحينما تم لجوهر فتح مصر في ٩٦٨/٣٥٨، أعلن أمير

(١) الخطط، ٤ ص ١٥٥.

(٢) ابن جبير، رحلة، ص ٥٢.

(٣) هو موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب.

(٤) العبر، ٤ ص ١٢؛ انظر. سرور؛ النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ١٤، ص ١٤. هو

طاهر بن محمد بن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن عليّ

ابن الحسين بن عليّ بن أبي طالب.

(٥) اتعاظ، ص ١٤٥-١٤٦، ط جديده، ص ١٠١، العبر، ٢ ص ١٠١.

(٦) انظر. صيغة أمان جوهر للمصريين. اتعاظ، ص ١٤٩.

مكة الخطبة للمعز على منابرها، وأرسل إليه المعز التقليد من المغرب؛ كما أقيمت الخطبة لهذا الخليفة في المدينة^(١). ولما انتقل المعز من المغرب إلى مصر، عمل على إرسال الكسوة إلى البيت -وتسمى شمسية^(٢) بعد أن كان يرسلها العباسيون من العراق. ويصف لنا المقرئزي أول كسوة فاطمية أرسلت إلى البيت، وهي من الحرير الأحمر، ثبتت فيها الأهلة من الذهب، وكتبت فيها آيات الحج بزمرد أخضر، ورسعت بالدر كبيض الحمام، وبالهاقوت الأحمر والأصفر والأزرق، وبخرت بالمسك، وقبل إرسالها نصبت في أعلى مكان في قصر المعز بالقاهرة.

ويبدو أن دعوة الفاطميين وقفت في الحرمين في آخر أيام المعز، وأول حكم العزيز؛ بسبب هجوم القرامطة في مصر والشام؛ وإن ذكر بعد ذلك أن العزيز استولى على مكة من الخلفاء العباسيين. فقد أرسل أحد قواده المغاربة وهو إدريس بن زيري الصنهاجي أميراً للحاج في ٩٧٧/٣٦٧، فاستولى على الحرمين، وأقام الخطبة للعزيز^(٣). ولا ريب أن الذي ساعده على الدعوة للعزيز في الحرمين، أن البويهيين المسيطرين في العراق -وهم شيعة- اعترفوا بإمامته، ولا سيما عضد الدولة البويهى. وقد مهد التفاهم بين الفاطميين والبويهيين أنه كان يحج العراقيون أيضاً^(٤). ونحن نعرف في عهد عضد الدولة الطريق التي كانت تسلكها قوافل حجاج العراق، وهي من بغداد إلى الكوفة والنجف والقادسية، ومحاذة نجد حتى الحجاز، حيث مكة.

ولكن الحجاز خرج عن السيطرة الفاطمية في عهد الحاكم حوالى سنة ١٠٠٩/٤٠٠^(٥)، حينما أعلن أمير مكة أبو الفتوح الحسنى الخطبة لنفسه، وتلقب بأمر المؤمنين الراشد بالله، ونزع ما كان بالكعبة من ذهب وفضة،
(١) من الخطبة في هذه الأخيرة؛ عبد القادر الأنصارى، در الفرائد المنظمة، مخطوطة بنار الكتب، ورقة ٢٠٢ (ينقله سرور). انظر. سرور، النفوذ، ص ١٥.
(٢) إتعاظ، ص ١٩٣؛ انظر.

؛ Vie du Calife Moézz, P. 172-3 : Quat

؛ Mekka. Le Haye, 1888-89, P. 53 sqq.: Snouck Hungronje,

ماجد، نظم الفاطميين، ص ٢٠١-١٣١.

(٣) المعبر، ص ١٠١.

(٤) الروندراوى، ص ٥٧.

(٥) عيون الأخبار، ٧/٦ ورقة ٢٤٥، وما بعدها؛ الروندراوى، ص ٢٣٦ وما بعدها؛ الخطط،

ص ٢٥٥-٢٥٦، ص ٧٢؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٥٢-١٥٣.

وضرب نقوداً باسمه؛ كما استولى على المدينة من الحسينيين. وربما يكون سبب ذلك تحريض الوزير على بن الحسين المغربي، الذي غضب عليه الحاكم لسوء تصرفه، فهرب إلى مكة واجتمع بأبي الفتوح، فحملة على الخلاف. وكذلك نجد أبا الفتوح يذهب إلى الشام للانضمام لعربها النصارى بقصد غزو مصر، مثلما فعل عرب البحرين من قبل أيام المعز. فلما وصل إلى الشام، أجابته طيبي، وخلق عظيم من عرب الشام، وخطبوا له. وقد استخدم أبو الفتوح ما كان يدفعه من أموال لمساعدة عرب الحجاز. وفي استمالة العرب في الشام؛ كما أنشأ كتاباً قرئ على الناس بالأقرب له أحد الأرض، وخطب في الناس خطبة وصف فيها الحاكم بأنه فرعون علا في الأرض.

ولكن الحاكم - وكان داهية في سياسته - أسرع إلى العمل، فاستمال عرب الشام، ولا سيما أن مال أبي الفتوح كان قد نفذ، ففرق العرب عنه. كذلك دس بين أفراد أسرة بني الحسن، وأنفذ لشيوخها مالاً وثياباً، وكاتب أبا الطيب ابن عم أبي الفتوح. فلما رجع هذا الأخير من الشام - بعد أن تخالط عنه عربها - اجتمع الناس وأشهد بخلع نفسه، وأن الإمامة للحاكم؛ متنصلاً مما اقترب طالباً العفو. فصنع الحاكم عنه، وما لبث أن جاء أبو الفتوح بنفسه إلى مصر متذللاً، وهو راكب حماراً، فأمر له الحاكم، بالكساء وأنعم عليه. أما الوزير على المغربي؛ فإنه هرب إلى العراق، وأرسل هو الآخر قصيدة يطلب فيها الصفيح؛ فصنع الحاكم عنه، ودعاه إلى الحضور، إلا أنه مات قبل أن يحضر.

ومع ذلك، بقي إحساس أبي الفتوح عدائياً نحو الفاطميين طوال مدة حكمه التي امتدت إلى ١٠٢٨/٤٣٠، وإن لم يعلنه صراحة. كذلك فسدت أحوال عرب مكة^(١)، وتحاربوا مع حسينيين المدينة من نسل طاهر - من أحفاد الحسن -، مما أدى إلى عودة الفوضى في مكة، وتوقف الحج إليها. فتعطلت قوافل الحج في أواخر حكم الحاكم وأوائل حكم الظاهر^(٢)، حرصاً على سلامة الحجاج، كما انقطع

(١) حسن المحاضرة، ٢ من ١٥٢-١٥٣ س ٢٤.

(٢) ابن الجوزي، عجائب البنائع، ورقة ١٤٨.

إرسال الكسوة، وإن نسب أمداءالحاكم تعطل توافل الحج إلى انحراف الحاكم عن الدين^(١). وحينما ضرب أحد غلاة الحجاج الحجر الأسود بدهوس- أى عصا- اعتقاداً أنه لا يجب تقبيله، ثار العرب بحجاج مصر، ولكن الخليفة الظاهر الفاطمي أسرع بالتملص من هذا الفعل، ونفى حدوثه من حجاج مصر، واتهم به الحجاج من العراق^(٢)، أو من فرقة النصيرية الغلاة^(٣)، وهي فرقة غير فاطمية. ومع ذلك لم يقطع أبو الفتوح الخطبة لخلفاء مصر من الحاكم إلى المستنصر.

ولكن في أول عهد المستنصر؛ تغيرت الأحوال في الحجاز لصالح الخلافة الفاطمية عن ذي قبل. فبعد وفاة أبي الفتوح، تولى ابنه أبو عبد الله شكر في ١٠٣٨/٤٣٠، الذي جمع الحرمين مثل أبيه، بمحاربة الحسينيين بالمدينة^(٤)، وقد ظهر شكر بأنه أقل عداوة من أبيه للخلفاء الفاطميين؛ فبايع المستنصر وخطب له طول مدة ولايته في مكة. فكانت استمالة المستنصر لشكر عن طريق المال الكثير، الذي يدفعه له، فيدفع له ثلاثة آلاف دينار في الشهر، ويرسل إليه الخيول والخلع مرتين في السنة في سفينة^(٥).

وقد هياً ذلك تنظيم شؤون الحج بشكل لم يحدث قبلاً. فكان المستنصر يرسل الكسوة مرتين كل سنة^(٦)، مع أنها كانت ترسل مرة في السنة، ويذكر الرحالة ناصر خسرو. أن الفاطميين كانوا يقومون بدعوة واسعة إلى الحج، فإذا أهل موسم الحج قرئت في المساجد مراسيمه، ويكون ذلك في منتصف رجب وفي رمضان وهي^(٧) : (يا معشر المسلمين حل موسم الحج، وسيجهز ركب

(١) يحيى، ص ٢٢٤؛ انظر، ماجد، الحاكم، ص ١٥٣.

(٢) العبر، ٤ ص ١٠٢. يقول العيني: «... طاف هذا الرجل بالبيت، وانتهى إلى الحجر الأسود ليقبه، فضربه بدهوس، وقال: إلى متى يعبد الحجر ولا محمد ولا علي، فمن يمنعني عما أفعل؛ فإني أهدم اليوم هذا البيت، وجعل يرتعد، فأتقاه أكثر الحاضرين، وتأخروا عنه، وكان رجلاً طويلاً، أسمر اللون أشقر الشعر، وكان جماعة من الفرسان وقولاً ليمتنعوه... فقتله رجل بخنجر، وتبته أصحابه». العيني، تاريخ، ورقة ١٨٢.

(٣) يحيى (شيوخ)، ص ٢٢٦.

(٤) نفسه، صبح، ٤ ص ٢٦٩.

(٥) سفرنامه، ص ٦٨.

(٦) نفسه، ص ٦٦. ربما كانت الكسوة تصنع في شطا مدينة عند مدياط، اشتهرت بصناعتها أيام سيطرة العباسيين في مصر. الخطط، ١ ص ٣٦٤-٣٦٥؛ معجم البلدان، ٥ ص ٢٦٤.

(٧) سفرنامه، ص ٦٥.

السلطان كالمعتاد، وسيكون معه الجنود والخيول والجمال والزاد. وقد بلغت النفقة على قافلة الحج في عهد المستنصر ووزيره اليازورى مائتي ألف دينار^(١)، مع أنها قبل ذلك كانت مائة ألف وعشرون ألفاً، ولم تبلغ هذه النفقة مثل ذلك في دولة من الدول؛ حيث كانت تشمل ثمن الطيب والشمع، والحماية، والصدقة، وأجرة الجمال، ومعونة خدم القافلة، ومن يسير معها من العسكر، الذين بلغت نفقاتهم في عهد المستنصر ستين ألف دينار في اليوم^(٢). والواقع أن الفاطميين كانوا يبالغون في تجهيز قوافل الحج؛ حتى أنهم كانوا يرسلون كل شيء يحتاجه الحجاج، بما فيه الثلج.

وكان الحجاج ينزلون قبل مسيرة القافلة، في منطقة بقرب القاهرة عرفت من أجل نزولهم بها: «ببركة الحجاج»، فلا تسير قوافلهم منها إلا في حضرة الخليفة^(٣). ويبدو أن هذا المكان كان موضع نزهة أو عبارة عن بركة ماء وحدائق، حيث بنى فيه قنطرة. فكان الخليفة المستنصر في هذه المناسبة يتجه في زيّه الرسمي، وعلى رأسه عمامته بالجواهر، والمظلة - من شعار الأئمة - منشورة عليه، فيجلس في توديع الحجاج على دكة، تسمى: دكة الوقار^(٤). وقد كان الحجاج إذا ساروا في الطريق البرى، يبالغون مكّة في خمسة وعشرين يوماً، ويمكنون بها عشرة أيام، ثم عيذاب، ثم يعودون إلى مصر في خمسة وعشرين يوماً^(٥).

(١) الخطط، ٢ ص ٢٨٨؛ انظر. الإمام المستنصر، ص ١١٩.

(٢) سفرنامه، ص ٥٦.

(٣) الخطط، ٢ ص ٢٨٢، ٢ ص ٢٦٥-٢٦٦؛ انظر. ملحد، نظم الفاطميين، ٢ ص ١٣٠-١٣١. عرفت هذه البركة أولاً؛ بحب عميرة؛ لأنها كانت ممسكراً لعميرة من قبيلة تميم، ثم قيل لها: «أرض الحب»؛ ثم عرفت في العصر الفاطمي: «ببركة الحجاج» من أجل نزول الحجاج فيها.

(٤) أبو صالح، تاريخ الكنائس، ٢٤ ص ٣٢. يظهر مما ينقله المقرئى عن ابن ميسرة أنه جرت عادة الخليفة المستنصر باله أن يركب في كل سنة مع نسائه وحاشيته إلى بركة الحجاج، فيحمل معه الخمر في روابيا كهبيرة على الجمال، ليسقيها لمن حوله. ولكننا نشك في صحة هذه الرواية لأننا لا نعرف عن المستنصر أنه كان ماجناً فاسقاً، ولكن تعصب المؤرخين السننيين، جعلهم يبتدعون حكاية مثل هذه الرواية. كذلك يذكر أبو صالح أن الخليفة في هذا المكان، كان يحب أن يأكل السمك، الذي يبعده له أحد الأقباط، وأسمه منصور.

(٥) سفرنامه، ص ٦٦.

ولما حدثت مجاعات بمصر، كان الحجاج يركبون في النيل من الفسطاط إلى قُوص-مدينة بأقصى الصعيد- ثم الإبل من قُوص في الصحراء المسماة عَيْذاب، ومن ميناء عيذاب إلى جدة في البحر؛ حيث يركبون الجلاب^(١)، وهي نوع خفيف من المراكب الشراعية. ومن الطريف أن تذكر أنه لم يحج أحد من خلفاء الفاطميين؛ كما لم يحج أحد من العباسيين منذ هرون الرشيد، وإن كنا نقر بأننا لا نعرف السبب في ذلك بالنسبة للخلافتين^(٢).

ويبدو أن القحط في بلاد الإسلام في الحجاز بالذات، كان أيضاً العامل الأساسي على وقف الحج واختلاله. فمثلاً لم يحج أحد من مصر في ١٠٣٦/٤٢٨، وفي ١٠٣٨/٤٣٠؛ كما تعطل الحج من الأقاليم بأسرها، فلم يحج أحد من الشام ولا من العراق ولا من خراسان. وفي سنة ١٠٣٩/٤٣١ التي تليها، تفرد أهل مصر بالحج، ربما لقرب مصر وغناها^(٣). وقد بلغ القحط في الحجاز مداه في سنتي ١٠٤٧/٤٣٩ و١٠٤٠/٤٤٠^(٤)، حتى أنه قرئ في كل منهما على الناس في مصر المرسوم التالي بمنع الحج: «يقول أمير المؤمنين؛ إنه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هذا العام، فإن به قحطاً وضيقاً، وقد هلك به خلق كثير، وإنى أقول هذا شفقة بالمسلمين». وقد بلغ الأمر بأهل الحجاز أنفسهم أن هاجر منهم إلى مصر خمسة وثلاثون ألف آدمي، فأجرى المستنصر عليهم الرزق سنة كاملة، ولما أمطرت السماء في بلادهم وكثر الطعام كساهم صغبرهم وكبيرهم، وأفدق عليهم الصلوات، ثم رحلهم إلى الحجاز.

(١) القحط، ١ ص ٣٢٦-٣٢٨. عن نوع هذه المراكب؛ رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، ص ٤٤؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ٢٢٥.

(٢) المقرئ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من خلفاء الملوك، تحقيق الشيبان، القاهرة ١٩٥٥، ص ١٢-١٣، مقدمة، ص ٥٨.

(٣) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٥٣.

(٤) سفرنامه، ص ٦٦-٦٧.

بيد أن موت أبي عبد الله شكر عقد الأمور للخليفة المستنصر في الحجاز، فحدثت فترة اضطرب فيها حبل الولاة لبيته، واستمر ذلك إلى آخر عهده. فقد توفى شكر ولم يعقب، فانتهى بيت الموسويين، وألت الزعامة في مكة إلى بيت الهواشم - وهم زيدية - بزعامة محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد (محمد بن أبي هاشم)، وهو زوج ابنة شكر. فقام محمد بن جعفر^(١) بطرد بنى سليمان من الحجاز، فهاجروا إلى اليمن؛ وأخذوا معهم الذهب، الذي كسيت به الكعبة، وذلك في ١٠٦٢/٤٥٤. كذلك يبدو أن بنى مهني وهم من الحسينيين أيضاً، ظهرُوا في المدينة، وتمكنوا من الاستقلال بها. ومع أن ابن أبي هاشم بدأ حكمه بإعلان الخطبة للمستنصر؛ إلا أنه مال إلى أن عاد وخطب للعباسيين، وأظهر عداوة التام للفاطميين؛ كما فعل أمير المدينة من بنى مهني^(٢).

ولكن لحسن حظ المستنصر - في ذلك الوقت - ظهور الصليحيين الأقوياء في اليمن^(٣)، الذين كان لهم فضل إرجاع الدعوة للمستنصر في الحرمين. فنجد أن المستنصر طلب من علي الصليحي إزالة هذه الأسرة المعادية من مكة. وقد أطاع علي الصليحي أمر الخليفة، فتوجه في ذي الحجة من سنة ١٠٦٢/٤٥٤^(٤)، ودخل مكة هو وزوجته أسماء، التي اصطحبت معها مائتي جارية. ولما دخلها علي الصليحي كسا البيت بثياب بيض - شعار الفاطميين - كما رد حلى البيت التي

(١) العبر، ٤ ص ١١، ١٠٢، ٢-١٢٢؛ صبح، ٤ ص ٢٧٠. هو محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن أبي الكرام بن موسى الجوني بن عبد ابن حسن بن الحسن السبط. العبر، ٤ ص ١١-١٢؛ صبح، ٤ ص ٢٧٠.

(٢) صبح، ٤ ص ٢٧٠؛ العبر، ٤ ص ١٠٢.

(٣) أنظر. قبله.

(٤) العبر، ٤ ص ٢١٥؛ أبو الفداء، المختصر، ٢ ص ١٥٤؛ الكامل، ٨ ص ١٠٦، ٩٦؛ النجوم ٥ ص ١١٢؛ عيون، ٧ ورقة ١٩؛ أنظر. الهمداني، الصليحيون، ص ٩٠ وهاشمي (٢). يذكر المؤرخون خروج علي الصليحي في ١٠٦٣/٤٥٥، ولكن إدريس يذكر تاريخ ١٠٦٢/٤٥٤. وقد استنتج صديقنا المؤرخ المرحوم الهمداني صحة هذا التاريخ من سجل ورد في عيون الاخبار، ومن سجل من السجلات المستنصرية، برقم ٧ ص ٤٧-٥٠؛ حيث ورد فيه عودة علي الصليحي من مكة، في شهر ربيع الآخر سنة ١٠٦٣/٤٥٥؛ مما يؤكد نهابه إلى مكة في ذي الحجة.. ويؤيد ذلك أيضاً السجل رقم ٤ ص ٢٩، الذي جاء فيه رجوع علي الصليحي، ووصول خطابين منه للمستنصر، أحدهما صدر من صنعاء في شهر شعبان سنة ١٠٦٣/٤٥٥، والآخر صدر من الهجر في شوال من السنة ذاتها.

كان بنو سليمان قد أخذوها، فابتاعها منهم، وهي قناديل الكعبة وستورها، وصفائح باب الكعبة والميزاب^(١). ويذكر المؤرخون أن علياً الصليحي لما ملك مكة جلب إليها الأتوات ورفع الظلم، فأدب القبائل التي تعتدى على الحجاج، وظهرت له أفعال جيدة. ومع أن علياً الصليحي لم يستطع إزالة الهواشم من مكة؛ إلا أنه أخضعهم على ما يبدو وفعلاً يكتب محمد بن جعفر إلى المستنصر، يشيد بما فعله على الصليحي^(٢)؛ كما أن المستنصر شكر علياً الصليحي. كذلك يبدو أن وجود الصليحي في مكة جعل الدعوة الفاطمية تعود إلى المدينة. وقد أراد المستنصر كعادته استمالة الأمير الهاشمي الجديد في مكة؛ فشجعه بمنحه الألقاب والتشريف، فلقبه بلقب: الشريف، الأجل، نسيب الدولة وعزها، مجد المعالي، ذي الفخرين^(٣).

ولكن محمد بن جعفر أراد أن يستفيد لصالحه من وجود الخلافتين المتنافستين- العباسية والفاطمية- بالاستقلال عن أي نفوذ، ويجمع المال الوفير، وقد وصفه أبو المحاسن بأنه كان خبيثاً متلوناً تارة مع العباسيين، وتارة أخرى مع الفاطميين^(٤). وكان علي الصليحي يريد العودة إلى حربه لتأديبه، ولكن بسبب رغبة المستنصر في عدم إراقة الدماء بالحرم، والإخلال بشعائر الحج، والخوف من تدخل العباسيين؛ اضطر إلى الرجوع دون قتال^(٥). ولكن محمداً نفسه لم يلبث أن هاجم مدينة حكي^(٦) من مدن اليمن على البحر الأحمر، مع أنه كان للصليحي بها أموال ومتاع، كما خطب للعباسيين. ولما قرر الصليحي الذهاب إلى مكة، قتل كما ذكرنا، على يد عبيد بنى نجاح^(٧).

(١) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١/١٢ ورقة ٨٨.

(٢) سجل ٣ ص ٣٧.

(٣) سجل ٤٠ ص ١٣٩.

(٤) النجوم، ٥ ص ١٤٠ س ٧-٨.

(٥) سجل ٧ ص ٤٨-٤٩.

(٦) سجل ٤ ص ٤٠. عنها؛ انظر. معجم البلدان، ٣ ص ٣٣٢.

(٧) انظر. قبله.

وبمقتل عليّ الصليحي قطع كل ولاء للفاطميين، فاستولى محبداً بن جعفر على الأموال التي كان الصليحي قد تركها للإنفاق على الحرم، وذلك في ١٠٦٧/٤٦٠^(١). ولم يلبث أن أرسل محمد بن جعفر ابنه إلى السلطان السلجوقي ألب أرسلان في ١٠٦٩/٤٦٣^(٢)، ليسأومه في إعلان الخطبة للقائم العباسي، وقطعها للمستنصر الفاطمي. فأرسل إليه السلطان مبلغ ثلاثين ألف دينار وقلعة، وأجرى له في كل سنة عشرة آلاف دينار، ووعد أمير المدينة مثل ذلك إن فعل ذلك، فيأخذ عشرين ألف دينار، وفي كل سنة خمسة آلاف دينار. ويبدو أن أمير المدينة لم يقبل؛ فما كان من محمد بن جعفر إلا أن زحف بمساعدة الأتراك السلاجقة إلى المدينة، وأخرج منها بنى الحسين^(٣). ويذكر المؤرخون أن الخطبة للقائم استمرت حوالي أربع سنوات أو خمسة^(٤)، وإن استمر الأذان في مكة؛ حتى على خير العمل - وهو أذان الفاطميين - واعتبره محمد بن جعفر أذان عليّ ابن أبي طالب^(٥).

ولكن لما توفى القائم العباسي، وتولى المقتدى العباسي، سعى المستنصر من جديد لإعادة الخطبة باسمه في الحرمين. فأراد استمالة محمد بن جعفر؛ بأن أرسل إليه هدية جلييلة، وكتب إليه في ١٠٧٤/٤٦٨: «إن إيمانك وعهودك كانت للقائم والمسلطان ألب أرسلان، وقد ماتا^(٦)». كذلك أمر المكرم - واليه على اليمن - بحمل عشرة آلاف دينار كدفعة أولى إلى محمد بن جعفر في ١٠٧٥/٤٦٨: «تلمظهم بنفقة من عندك يتمززون بها^(٧)»، وذلك مع الوعد بإرسال المقررات إليهم. وقد دعا ذلك ابن جعفر إلى أن يقطع الخطبة للعباسيين، ويعيدها للمستنصر^(٨). وفي ذلك الوقت كان المكرم قد تمكن من تنظيم أحوال اليمن، التي

(١) سجل ٤٠ ص ١٣٩.

(٢) الكامل، ٨ ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) العبر، ٤ ص ١٠٢؛ صبح، ٤ ص ٢٧٠.

(٤) ابن ميسر، ص ٢٤.

(٥) النجوم ٥ ص ٨٩؛ انظر. سرور، النفوذ الفاطمي، ص ٢١.

(٦) الكامل، ٨ ص ١٢١.

(٧) سجل ٦٢ ص ٢٠٣.

(٨) سجل ٥٧ ص ١٨٧-١٨٨.

اضطربت بسبب مقتل عليّ الصليحي، فاستولى المكرم على المدينة وخطب فيها للمستنصر، في ١٠٧٦/٤٦٩^(١). ويبدو أن السيطرة الفاطمية على الحرمين عادت- كما كانت أيام عليّ الصليحي- حتى أن المستنصر في سجل صدر عام ١٠٧٦/٤٦٩؛ جعل الأعمال الحجازية واليمانية واحدة^(٢).

ولكن محمد بن جعفر عاد إلى قطع الخطبة للفاطميين في سنة ١٠٧٧/٤٧٠، وعاد إلى التلون والمساومة^(٣). فخلع الصفائح التي كانت باسم الخليفة المستنصر على باب الكعبة، وكتب عليها اسم المقتدى بالله العباسي. فأرسل المقتدى بالله أميراً للحج من الترك، فكان هذا تقليداً جديداً. ثم أعاد ابن جعفر الخطبة للمستنصر، ثم عاد للخطبة للمقتدى العباسي، ولما بويع للمستظهر العباسي بن المقتدى خطب له أيضاً. ويبدو أن شجعه على ذلك ضعف الصليحيين، ولا سيما بعد موت المكرم. ومع ذلك؛ فإن مشايخ اليمن وعلى رأسهم عبد المستنصر بن المكرم، قرروا مهاجمة الحجاز^(٤)، ولكنهم كانوا أضعف من أن يفعلوا ذلك. وقد ترتب على إطلاق يد محمد بن جعفر في شئون الحج أن ساءت أحواله، ولا سيما أنه كان لا يتردد في سلب الحجاج وقتلهم. وقد بقي محمد بن جعفر مثلوناً سفاكاً لصاً إلى وقت وفاته في ١٠٩٤/٤٧٨؛ بحيث فرح المسلمون بموته^(٥)، وإن توقف نفوذ الفاطميين فيها بعد ذلك إلا من فترات قصيرة^(٦).

من هذا يتبين أنه كانت هناك منافسة شديدة بين خلافتي العباسيين والفاطميين للخطبة لهما في الحرمين، ولتوطيد نفوذهما في دار الإسلام، ولكن حكام مكة الخصم الثالث، استفادوا من هذه المنافسة للاستحواذ على المال والنفوذ.

*

(١) المختزم، ٨ من ٣٠٤.

(٢) سجل ٥٤ ص ١٧٧.

(٣) العبر، ٣ ص ١٠٣.

(٤) سجل ٢٢ ص ٨٢.

(٥) النجوم، ٥ ص ١٤٠؛ ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢/١٢ ورقة ٣١٤.

(٦) صبح، ٤ ص ٢٧٠.

أما سياسة الفاطميين الحربية نحو جنوب الوادي، فهي امتداد لسياسة
مصرية ترجع إلى عهد المصريين القدماء. فقد كانت هذه المنطقة قديماً يطلق
عليها تا-نحسو^(١) أى أرض السود، ثم أطلقت ووات على الجزء الشمالى، وكوش
على الجزء الجنوبى منها، مثلما أن شمال مصر عرف بمصر السفلى، وجنوبها
بمصر العليا، وهذه المنطقة استوطنها المصريون القدماء منذ الأسرة السادسة، ثم
نقلوا إلى سكانها لغتهم وديانتهم وحضارتهم^(٢).

ويبدو أنه بعد العصر الفرعونى، انتقلت إلى هذه المنطقة هجرات من داخل
أفريقيا، يسميهم العرب: «أساود»^(٣) أو «النوبة»^(٤) أو «البرابرة». مجهولة
الأصل، تجرى فى عروقهم الدماء الزنجية، وتتكلم لغة خاصة، استطاعت أن تكون
فى جنوب مصر عدة ممالك ذكرها الرحالون العرب وغيرهم منها: «النوبة»^(٥)
"Nobatae"، ومقرّة Makoritae، وعلوة، أو علوا "Alodiaie"، أما شرقى النوبة،
بين النيل والبحر الأحمر فكان يسكنه عنصر بدوى أسود يعرف بالبجة أو البجاة،
وهم البليميون "Blemonyes". وكما فى العهد الفرعونى حرص المصريون
المسيحيون على نشر عقيدتهم الأرثوذكسية أو اليهقوبية بينهم^(٦)، وذلك على

(١) انظر. L'Egypte, P. 3. : Drioton et Vandier.

يذكر الإريسي أنه وجد بالسودان بلدة اسمها كوشة. انظر. المغرب وأرض السودان
ومصر والأنلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق de Coeje و Dozy، ط Leyde،
١٩٦٦، ص ١٤.

(٢) انظر. Driot et Vand. Op, Cit. P. 208; 377-378.

(٣) معجم البلدان، ص ٨٢ و ٩. يطلق العرب على سكانها.

(٤) نفسه، ص ٨، ٢٢٢ انظر أيضاً: Mac Michael.

A History of the Arabs in the Sudan. Cambridge, 1923, P. 14 sqq;

Islam In the Sudan. London, 1949, P. 39. : Trimmingham;

Ency. de Isl. (art Nôba) t3, P. 1008 sqq.

يقول ياقوت إن ملوكهم من حمير.

(٥) معجم البلدان، ص ٨، ٢٢٢؛ الخطط، ص ١، ٣١٣، ٣١٨، ٣٢٠؛ الأريسي، المغرب وأرض
السودان، ص ١٢-١٤ و ٢٠-٢١ و ٢٦؛ انظر.

Ency de l'IsI, (art Alwa) 2 ed t I, P. 425; (art Bedja) I ed, t I, P. 705;

ومصطفى سعيد، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠، ص ٥٦-٥٧ [يذكر
مصادر قديمة].

(٦) سعيد بن بطريق ص ٢٤٦؛ انظر. Bonet-Maurg.

Le Christiansme en Afrique, P. 46.

الرغم من أن البيزنطيين كانوا يعملون من جانبهم على نشر عقيدتهم الملكانية^(١)، ويعارضون انتشار العقيدة المصرية. ولكن بقيت أغلبية سكان جنوب الوادي تعيش عيشة بدائية، فهم عراة لا يلبسون شيئاً، ولا ديانة لهم إلا الاعتقاد في السحر، وفي بعض عقائد الأجداد الفطرية^(٢).

بعد ذلك تأتي مرحلة الفتح العربي، ويستحسن أن نعرض لها بشيء من التفصيل، نظراً لأهمية الشروط التي وضعها العرب لتنظيم العلاقة بين الشمال والجنوب، وهي الشروط التي حددت العلاقة بينهما طوال العصور الوسطى، ومع أن معلوماتنا عن غزوات العرب الأولى للجنوب مضطربة؛ إلا أنه من المؤكد أن عمرو بن العاص، أرسل حملته بعد فتح مصر في ٦٤٢/٢١^(٣). ولكن النوبيين قاوموا هذه الحملة؛ بحيث اضطر العرب إلى التقهقر بعد أن لحقت بأغليبيتهم الجراحات وفقدوا حديقهم من سهام النوبيين، حتى أنهم سموهم: «رماة الحدق»^(٤). وفي عهد الخليفة عثمان، توجه عامل مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح بحملة قوية نحو النوبة في سنة ٦٥٢/٣١^(٥)، استطاعت أن تصل إلى دنقلة أو دُمقلة^(٦)، التي على ما يظهر كانت وقتئذ عاصمة النوبة ومقره متحدتين^(٧)، فوضع أمامها المنجنقيات، ودمر الكاتدرائية. لذلك سعى الملك المسمى قليدوروث (قليدوز) إلى طلب الصلح^(٨)، وقيل ابن أبي سرح -الذي أنهك القتال جيوشه-

(١) انظر. Ency de l'Isi, t3, P. 1009.

(٢) انظر. Ency. de l'Isi, (art Sudan) t4, P. 519.

(٣) الخطط، ١ ص ٣٢٢٣ هـ.

(٤) فتوح البلدان، ص ٢٢٧؛ انظر. Quatremere.

Mém, Sur l'Eg. et sur quelques Contrées Voisines. Paris, 1811, 2, P. 42 Suiv

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ١٨٨.

(٦) مدينة كبيرة على شاطئ النيل. معجم البلدان، ص ٨٢، ٨٣ ص ٣٢٢٣.

(٧) لقب ملك النوبة يدل على ذلك. نفسه، ص ٣٢٢٣.

(٨) الخطط، ١ ص ٣٢٢٣ س ١١.

عقد الهدنة. فاتفق الطرفان على ما عرف بالكلمة المبهمة، «بقط»^(١)، وهي أن يكون بينهما هدنة وأمان، وأن تحمل النوبة كل سنة إلى ولاية مصر ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق غير المعيب المتوسط العمر. ويبدو أن النوبة تعودت من جانبها- وإن لم تذكر المعاهدة ذلك- أن تأخذ من مصر قمحاً وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلاً عند دفع البقط.^(٢) ومثل هذا الاتفاق جعل أهل النوبة في نظر العرب: «مصالحين»^(٣). وهو ما عرّفه الفقهاء باسم: «أهل العهد»^(٤). فكانت هذه أول مرة يوافق فيها العرب على التحالف مع دولة غير إسلامية، والسبب في هذا أن النوبة لم تهزم.

وقد ترتب على عقد هذه الهدنة أن زاد نفوذ الكنيسة المصرية في النوبة، وهي التي أصبحت وحدها مسيطرة في مصر بسبب زوال الدولة البيزنطية؛ بحيث إنه لما طلبت النوبة إرسال أساقفة، أرسل إليهم البطريرك المصري أساقفة من اليعاقبة^(٥)؛ كما امتد نفوذ هذه الكنيسة حتى عكوة (علوا) في الجنوب^(٦).

وفوق ذلك تحولت الحبشة التي كانت حليفة بيزنطة، وعلى عقيدتها إلى اليعاقبية (١) نفسه، ١ من ٣٢٢ وما بعدها؛ فتوح البلدان، من ٢٢٧-٢٢٨، ابن عبد الحكم، من ١٨٨؛ أنظر. حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة ١٩٤١، من ٢٧٨-٢٧٩؛ سيده كاشف، مصر في فجر الإسلام، من ١٥ وهامش (٥)؛

Ency. de l'Isl, (art. Bakt) t I, P. 621.

أصل هذه الكلمة غير واضح؛ فلعلها من العربية «بقط»؛ بمعنى البقل والعشب (الخطط، ١ من ٣٢٢)، أو من اللاتينية: (Pactium) أي اتفاق. أنظر. L'Islam in the Su- Trimmingham. أنظر. (dan. London 1949 P. 62.).

أو من الكلمة المصرية القديمة «باك» بمعنى عهد (أنظر. Ency. de l'Isl, II, P. 621.) وهذا العهد لا يشمل علوة، وإنما النوبة إلى حدود علوة فقط (الخطط، ١ من ٢٣٤)؛ وإن كتب عهد مشابه مع البجة. المصدر السابق، ١ من ٣١٦.

(٢) الخطط، ١ من ٣٣٤ س ٧-٨.

(٣) نفسه، ١ من ٢٢٤ س ٢٦.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، من ١٢٢؛ أنظر Cheira :

Les Statuts des Pays des Ahd, aux 7 e et 8 e Siècles. Annals of the Fac of arts. Ibra-him Univ Vol 1. 1951, P. 43 sqq.

(٥) الخطط، ٤ من ٣٩٥-٣٩٦.

(٦) سعيد بن بطريق، ٢ من ٤٦ س ٢-٣.

المصرية، فكانت مصر ترسل إليها أساقفتها أيضاً، وكان ملكها يلقب: « بأوحد ملوك اليعقوبية»^(١)، وما زالت الحبشة تخضع روحياً للكنيسة القبطية حتى الآن. ولا ريب أن بقاء النوبة مسيحية فترة طويلة، كان سبباً في أن الإسلام لم ينتشر في أعماق قارة أفريقيا؛ بحيث إن بعض سكانها مازالوا وثنيين إلى الآن.

وقد كان من نتائج تحول النوبة، وما حولها إلى مذهب اليعقابة المصري، أن أصبح أهلها سندا لانتفاضات المصريين ضد ولاتهم المستبدين. فكان ملك النوبة يأتي لمحاربة الولاة، أو يقوم بتأخير البقط؛ ففي مرة، في أيام الأمويين، جاء ملك النوبة إلى مصر على رأس مائة ألف، بسبب أن الوالي عبيد الله (عبد) ابن الحباب^(٢)، كان سجن البطريرك المصري بسبب جباية الجزية؛ مما اضطر الوالي إلى إطلاق سراح البطريرك. ولكن لما بدأ الإسلام ينتشر بين المصريين؛ فإن الولاة في مصر كانوا يهاجمون في النوبة؛ كما كان ملك النوبة يغازو في مصر في وقت الضعف. ومن ناحية أخرى؛ فإن الإسلام انتشر بين البجة في وقت مبكر منذ عهد الأمويين^(٣)، وهم^(٤) نوع من بدو السودان يقيمون بين النيل والبحر الأحمر، ومن أهم قبائلهم الإسلامية، العباددة والبشاريون والهندودة... وقد أصبح انتشار الإسلام بينهم تاماً؛ حينما أرسل ابن طولون-والى مصر من قبل العباسيين- قبائل بدوية من ربيعة وجهينة^(٥)، كانت انتقلت من الفرات إلى مصر؛ كما أن ابن طولون نفسه استخدم كثيراً من السود في جيشه^(٦).

وحينما جاء الفاطميون مصر، كان من المنتظر، وهي دولة جاءت للجهاد، أن تحارب النوبة المسيحية؛ لكن هذا الجهاد لم يوجه ضد النوبة؛ لوجود اتفاقية البقط السابقة. ثم إنه لم يكن يوجد خوف من اتفاق النوبة مع الروم- الأعداء الألداء

(١) صبح الأعشى، ٦ ص ٨٥.

(٢) الخطط، ١ ص ١٢٧.

(٣) نفسه، ١ ص ٣١٥ س ٢٦.

(٤) ابن جبير، رحلة، ص ٣٣؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art Bedja) 2 ed t I, d, 1192-3.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨٥.

(٦) الخطط، ١ ص ١٥٢ س ٦ وما بعدها؛ وقبله.

للإسلام وقتئذ- بسبب اختلاف مذهب كل منهما عن الآخر، ولخضوع كنيسة النوبة وما حولها لبطريرك مصر القبطي. لذلك سادت علاقات طيبة بين مصر والنوبة بمجى الفاطميين؛ فقد أرسل جوهر- قائد الفاطميين- لما فتح مصر رسوله إلى جورج الثاني ملك النوبة، يطالبه بدفع البقظ^(١)، على أساس أن الفاطميين أصبحوا حكام مصر، فاستجاب له ملك النوبة. كذلك كان الآباء البطاركة المصريون يكتبون ملوك النوبة والحبشة دفعتين في السنة؛ بما يعنى استقامة أحوال الكنيسة في مصر، ويرسلون لهم أساقفة من مصر^(٢). واحتياطاً، نجد أن الفاطميين، يقيمون بصفة دائمة في ثغر أسوان من ناحية الشلال الأول رجالاً من العسكر^(٣)، مستعدين بالأسلحة، لحفظ الثغر، وكفالة حكمه لوالٍ مصرى أو لرئيس قبيلة ربيعة الذى لُقّب بكنز الدولة^(٤)، منذ عهد الحاكم؛ بحيث ما لبث أن ظهرت أسرة أو دولة داخل الدولة. عرفت بدولة الكنز أو الكنوز أو كنوز الدولة، اتخذت أسوان عاصمة لها.

ومع ذلك، ففى خلال خلافة الحاكم حدث سوء تفاهم مع ملك النوبة؛ بسبب أن هذا الخليفة طهّق الشروط العمرية^(٥)، التى وضعت لتحديد علاقة المسلمين بأهل الذمة، منذ أيام عمر بن الخطاب، فميّز القبط واليهود بعلامات خاصة (غيار)^(٦)، وهدم كنائس القبط الملكانية^(٧)، الذين هم على عقيدة بيزنطة،

(١) المقرئى، الملقى، مخطوط بدار الكتب برقم ٥٢٢٧ تاريخ، المجلد الرابع، ورقة ٢٢٧؛ انظر مصطفى مسعد، فجر الإسلام والنوبة، ص ١٢٢.

(٢) أبو صالح، الكنائس، ١٢٤ (١٠٦).

(٣) الخطط، ١ ص ٣٢١.

(٤) أبو صالح، كنائس، ص ١٢٨؛ انظر. عوض خليفات، مملكة ربيعة العربية في وادى النيل، عمان ١٩٨٢.

(٥) وفيات، ٣ ص ٥؛ ١٤؛ الكامل، ٧ ص ٢٤٠ وهامش؛ انظر. ماجد الحاكم، ص ٩٥ وما بعدها. عن الشروط العمرية، انظر بتفصيل؛ ابن قيم الجوزية، شرح الشروط العمرية، تحقيق صبحى الصالح، دمشق ١٩٦١.

(٦) من مصادر متعددة؛ يحيى (شيخو)، ص ٨٧، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٢-٢٠٣؛ سير الأباء، ٢ ورقات ٥٤-٥٥؛ ابن حماد، ص ٥٢؛ الخطط، ٤ ص ١٥٧-١٥٨. وذلك بوضع زناثير ملونة، ولبس العمائم السود، وتلفيعات سوداء. بتفصيل، انظر. ماجد، الحاكم، ص ٩٧.

(٧) الخطط، ٤ ص ٣٩٩ س ٢٥.

واستولى على أوقافها، وخيّرهم في الهجرة، إلى بلاد الروم أو الحبش أو النوبة^(١)، وهدم كنيسة القيامة؛ كما ذكرنا. وفوق ذلك، منع سفر الأساقفة المصريين إلى النوبة أو الحبشة، أو حتى مكاتبة ملوكها، حتى بلغ من قلة أساقفة هذه البلاد، أن اغلقت كنائسها أبوابها^(٢). فنجد ملك النوبة يتراسل مع ملك الحبشة بشأن قبض مصر^(٣)، ولا يبدو إطلاقاً أن هدم كنيسة القيامة أثار ثائرتهما، مثلما أثار ثائرة الروم ونصارى الفرنجة على الخصوص. ولكن الحاكم سرعان ما كف عن تطبيق هذه الشروط^(٤)، وأعاد للنصارى كنائسهم وأوقافها، بل وسمح لمن أسلم بالرجوع إلى دينه^(٥). وربما يكون تراجع الحاكم لخوفه من أن تساء معاملة المسلمين في البلاد النصرانية، حتى أن ملك الحبشة كان يجعل مسلمي بلاده يدفعون الجزية، ويضع حول أعناقهم الحديد، وعليه ختم الملك. فكان الحاكم إذا حضر كتاب من ملك الحبشة أو النوبة أمر البطريرك بمكاتبتهما بما للنصارى من الجلالة والإكرام في بلاده^(٦)، ويدعوها أن يستوصيا بالمسلمين تحت رعايتهما. ومن الجدير بالذكر أن الحاكم وضع سياسة نشر الإسلام في النوبة، وشجع أسرة الكنوز العمل على ذلك؛ بحيث أصبحت النوبة تُعرف باسم بلاد الكنوز^(٧).

وقد بلغت العلاقات الطيبة أوجها بين الفاطميين والنوبة في عهد المستنصر بالله الفاطمي؛ بسبب أن أمه كانت نوبية سوداء، وهو نفسه أسمر اللون، فاستكثر من جند السودان، الذين صار عددهم زيادة على خمسين ألفاً أو ستين ألفاً^(٨)، نصفهم من الزوج والنصف الآخر من عبيد الشراء أو الشرى^(٩)، أي

(١) الكامل، ٤ ص ٢٤٠، سير الأبياء، ٢ ورقة ٥٦.

(٢) أبو صالح، كنائس، ص ١٢٤ (١٠٧ ب).

(٣) سير الأبياء، ٣ ورقة ٥٠؛ انظر. ماجد، الحاكم، ١٠٤.

(٤) يحيى (شيخو)، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٥) نفسه، ص ٢٢٢ س ٥-٦.

(٦) أبو صالح، كنائس، ص ١٢٤ (١٠٦ ب).

(٧) ابن شاهين، زينة، ص ٣٣؛ النجوم، ٦ ص ٥٤؛ انظر القوصي، الكنوز، القاهرة ١٩٧٦.

(٨) الخطط، ٢ ص ١٣٨ س ٩-١٠.

(٩) سفر نامه، ص ٥٢؛ انظر. ماجد، نظم، ١ ص ١٩٩-٢٠٠.

الذين يشترون بالمال؛ فقد كان تجار الرقيق يسرقون أبناء البجة لبيعهم للفاطميين^(١). وقد سكنت طوائف السودان في وقت المستنصر حارات عديدة معروفة في القاهرة، مثل: الحسينية والفرحية والميمونية والريحانية، وكانت الريحانية وحدها عدة حارات^(٢). وقد سيطر السودان في دولة الفاطميين إلى وقت سقوطها، حتى أن الخليفة الفاطمي عرف بهم؛ صاحب السودان^(٣). وفي عهد الخليفة المستنصر؛ حينما ترك سلمون النوبى الملك لابن أخته جرجه؛ لينفرد هو للعبادة والنسك، دعى سلمون إلى مصر؛ حيث تلقاه رجال الدولة المصريون بالطبول والبوقات، وأكرم في مصر إلى وقت موته^(٤). وربما أن الدولة العباسية حرضت ملك النوبة على الامتناع عن دفع البقط، ولكن ملك النوبة لم يوافق، وعلى العكس أرسل الهدايا إلى سلطان مصر، وبالتالي لم يذهب جيش مصر إلى النوبة ليؤذى أهلها.

وقد استمرت علاقة النوبة بالفاطميين علاقة ودية؛ فكان ملك النوبة يرسل البقط، وحتى الهدايا، التي أرسلت إلى العاضد آخر الفاطميين. كذلك بقى تاريخ النوبة لا يتغير، حتى مجى المماليك، الذين عملوا على غزوها بإرسال القبائل العربية^(٥) نحوها؛ مما جعلها تتحول إلى الإسلام، وبذلك أصبح السودان جزءاً لا يتجزأ من العالم العربى المسلم، من وقت المماليك.

*

بقى أن نعرف سياسة الفاطميين نحو المغرب، الذى تركوه إلى مصر، ليتخذوها قاعدة لهم في تنفيذ خططهم في المشرق؛ إذ لم تكن بلاد المغرب إلا خطوة تمهيدية في البرنامج الذى وضعوه لأنفسهم. ولعل عدم تمسك الفاطميين بالبقاء في المغرب راجع للأسباب الآتية:

أولاً: انزواء المغرب في ركن قصى بعيد عن قلب العالم الإسلامى. وقبل الفاطميين نجد روما لا تتمسك باستعمار المغرب بقدر رغبتها في القضاء على

(١) سفرنامه، ص ٧٢.

(٢) الخطط، ٣ ص ٢٣-٢٤.

(٣) على الخصوص المصادر الصليبية؛ انظر.

(٤) سفرنامه، ص ٧١.

(٥) القرينى، البيان والإعراب، تحقيق عبد الحميد، القاهرة ١٩٧١ .

قرطاجنة، كما أن العرب أنفسهم تأخروا في فتح المغرب إلى عهد الأمويين، وحتى الفرنسيين بعد استيلائهم على الجزائر، لم يكونوا في أول الأمر متحمسين للبقاء فيه، وإن زادت أهمية المغرب بعد ذلك في أعينهم، حتى تمسكوا بالبقاء في كل أجزائه.

ثانياً: إن الفاطميين لم يسلس لهم حكم المغرب؛ بسبب وجود عناصر معادية لهم فيه. فهم أنفسهم لم ينشئوا خلافتهم فيه إلا بالاستفادة من عداة عنصرى بين سكانه، الذين يتكونون من البتر أى البدو، ومن البرانس أى الحضرة. ويظهر أن الفاطميين نجحوا في ضم البرانس من صنهاجة وكتامة فرعها على الخصوص إلى دعوتهم، وفشلوا في ضم البتر من زناتة وغيرهم، الذين يسكنون من أواسط المغرب إلى المحيط الأطلسي، وبقوا أعداء لدعوتهم. فلعل المعز لم يستطع أن يحكم المغرب، كما يجب، وليس أدل على ذلك من وصفه سكان المغرب بقوله: «الهمج الرعاع»^(١).

ثالثاً: أنه كانت توجد دول في المغرب، تقف موقفاً معادياً منهم، منها: دولة بنى مدرار أو بنى واسول الصفرية في سجلماسة، ودولة الرستمية الأباضية في تاهرت، وكتاهما من الخوارج، ودولة الأشرف الأندلسية في المغرب الأقصى حول فاس وتلمسان، وهي دولة علوية زيدية غير إسماعيلية، وإن كانت غير ثابتة على مبدأ واحد، وأن رعاياها كانوا من السنة ومن وراثتها توجد الدولة الأموية في الأندلس، التي تحولت إلى خلافة في عهد عبد الرحمن الثالث (٣٠٥-٣٥٠/٩١٧-٩٦١))، عقب إعلان الفاطميين خلافتهم في إفريقية؛ حيث كان عداؤها للفاطميين، امتداداً للعداء القديم بين بنى هاشم وبنى أمية. لذلك ما أن استقر الفاطميون في إفريقية؛ حتى أخذت الدولة الأموية في الأندلس تعاديهم، تارة بإثارة القبائل البتر من زناتة، وتارة بالتقرب من الأندلسية. ولقد أصبحت قرطبة مركزاً للدس ضد الفاطميين، الذين يلعنون^(٢) من على منابرها، بل سعى الأمويون إلى الاستيلاء على سبته، وهي مدينة ذات موقع استراتيجي هام في المغرب.

(١) نفسه، ص ١٠٧.

(٢) المجالس والمسائرات، تحقيق، ١ ص ١٧٦ وما بعدها. وهو ما يلزمه المعز عليهم.

فكان هؤلاء الأعداء جميعاً يجابهون الفاطميين منذ وصولهم إلى شمال إفريقيا، وكادوا ينجحون في القضاء عليهم بثورة يزيد بن مخلد بن كيداد، المعروف بصاحب الحمار، الذي تزعم قبائل البتر كما ذكرنا، وكان يرسل بأنباء نصره على الفاطميين إلى الأمويين أولاً بأول؛ بحيث أنه لم يبق للفاطميين في أثناء فتنته غير المهديّة، التي كانت قد بناها المهدي عبيد الله بعد فتحه إفريقية، وقد شغل هؤلاء الأعداء جميع خلفاء الفاطميين إلى وقت انتقالهم إلى مصر.

وقبل أن يرحل المعزّ إلى مصر ذهب بنفسه لمقاتلة الثائرين في جبل أورأس^(١)، التي تقع في جنوب بلاد إفريقية، وهي منطقة مملوءة بالأحراش؛ كما توجه قائده جوهر في ٣٤٧/٩٥٨^(٢)، ليهزم الخوارج في تاهرت، وليقتل ثائراً في سِجلماسة لَقِبَ نفسه بالشاكر بالله، ويناديه أصحابه بأمر المؤمنين، ووصل إلى المحيط الأطلسي؛ حيث اصطاد من سمكه، ووضع في قلال أرسلها إلى خليفته المعزّ، دلالة على سيادته على كل المغرب، وإن عاد إليه من جديد في ٣٤٩/٩٦٠. وبعد سفر جوهر إلى مصر، سار المعزّ بنفسه من جديد في ٣٥٨/٩٦٨^(٣)؛ لمحاربة شخص اسمه أبو خزز الزناتي، الذي لم يلبث أن دخل في طاعته.

ويظهر أن المعزّ تردد في كيفية حكم بلاد المغرب إذا ما تركها إلى مصر، وخير وسيلة للاحتفاظ بها. وقد ألتجرح عليه أن يترك أحد أولاده ليحكم في المغرب، ولكن المعزّ لم ير ذلك؛ فالمغرب لم يستقر بعد وهو فيه، فما باله بابه. كذلك فكر في أن يوليه لأسرة أندلسية مخلصّة لبيته، وهي أسرة على ابن حمدون الجذامي، الذي وفد إلى المغرب من الأندلس، واتصل بالمهدي ثم القائم، وقتل في فتنة يزيد عام ٣٣٤/٩٤٥، وكان لأولاده فيها جولات دفاعاً عن الفاطميين. فأراد أن يوليه لجعفر بن عليّ بن حمدان، أمير الزاب، وكان ابن هاني الأندلسي الشاعر^(٤) مدحه؛ مما يدل على قيمته، لولا أنه وجد معارضة من

(١) نفسه، ص ٨٤.

(٢) العبر، ص ٤٦.

(٣) سيرة جودر، ص ١٠٧-١٠٩؛ الكامل، ص ٧٠٣.

(٤) ابن الخطيب، المغرب العربي في العصر الوسيط، يشمل القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق العبادي والكناني، الدار البيضاء ١٩٦٤، ص ٦٦.

المغاربة في أن يتولى عليهم أحد الأندلسيين، فضلاً عن أن جعفر لم يوفق في رده على المعز لما اقترح عليه ولاية المغرب؛ إذ قال: اترك معي أحد أولادك أو إخوتك يجلس في القصر وأنا أدبر، ولا تسأل عن شيء من الأموال، لأن ما أجبنيه بإزاء ما أنفقه، وإذا أردت أمراً فعلته دون أن انتظر ورود أمرك فيه لبعده ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره لى...، ولقد غضب المعز وقال: «يا جعفر عزلتني عن ملكي، وأردت أن تجعل لى فيه شريكاً في أمرى، واستبددت بالأعمال والأموال دونى، قم فقد أخطأت حظك»^(١).

وفهم المعز نوايا أهل المغرب في أن يحكمه أبناؤه، ووجد في ذلك خير وسيلة للاحتفاظ به، وخصوصاً أن المغرب لم تحكمه أسرة مغربية على كثرة ثوراته منذ الفتح العربي، وإنما كانت تحكمه أسر تأتيه من الخارج من شيعة وخوارج. فأراد المعز قبل مفادته المغرب، أن يعبر عن جميله للمغاربة، الذين ساندوا دولته، بأن يترك شئون المغرب لأهله. ولم يول المعز حاكماً من قبله من كتامة، مع أنها أشد القبائل المغربية تعلقاً بالفاطميين - كما يظهر من وثائق «توقيعات» الخلفاء الأوائل بالمغرب - بحيث كانوا كالخراسانيين للعباسيين، حتى يقول المنصور أبو المعز: «أهل دعوتنا، يا أنصار دولتنا، يا كتامة»^(٢)، ذلك لأن المعز أخذ معظم كتامة معه إلى مصر. ولكن المعز أعطى المغرب لصنهاجة^(٣) بالذات، لأنها لم تكن مجرد قبيلة، وإنما كانت شعباً عظيماً يتألف من بطون بلغت السبعين، حيث كانت كتامة فرعاً منها، وهي قوة هائلة تملك المغرب حتى أواسطه، وتنقسم قسمين عظيمين، أحدهما قريب من الساحل، والآخر يسيطر على جنوب المغرب حتى السودان، وكانت منهم جماعات بترية أشهرها الطوارق، التي لا تزال باقية إلى الآن. يضاف إلى ذلك أن صنهاجة، أظهرت إخلاصاً في أيام نشأة دولة الفاطميين في المغرب، وإذا كان معظمها من الحضرة أو ما يعرف بالبرانس - ربما لتميزهم بزى البرنس - في عداة ضد البتر من قبيلة زناتة،

(١) العبر، ٤ ص ٣٢ و ٨٢-٨٣.

(٢) أبو علي منصور، سيرة الأستاذ جوزر، تحقيق كامل حسين وشعيرة، ص ٥٩. عنهم؛ العبر، ٦ ص ١٤٨ وما بعدها؛ قبله.

(٣) عنها؛ العبر، ٦ ص ١٥٢ وما بعدها؛ انظر.

انصار الأمويين بالأندلس أعداء الفاطميين؛ إذ يظهر أن عداء صنهاجة لزنانة يمتد إلى قديم الزمان^(١).

وقد وقع اختيار المعزّ على أبي الفتح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي^(٢)، ذلك لأن أباه زيري^(٣)، كان من زعماء صنهاجة مثل أبيه مناد، وأظهر إخلاصه في الساعات المخيفة وقت ثورة يزيد بن مخلد، كما أثبت ولاءه في حملاته في المغرب مع جوهر. واشتهر يوسف أيضاً باسم: بلّكين أو بلقين، كما منحه المعزّ لقب، أمير إفريقية ٩٧٣/٣٦١، وجعل خاتمه في يده^(٤)، فكان بلّكين مؤسساً للبيت الزيري. وقبل أن يترك المعزّ المغرب، وضع شروطاً على بلّكين، تكفل بقاءه وخلفه من بعده خاضعين للخلافة الفاطمية. فجعل المعزّ القضاء والخراج في بلاد المغرب تابعين لخلافته بالقاهرة؛ بحيث إن سجلات القضاء بمصر كانت تشمل المغرب، كما أنه عين عاملاً لجباية الأموال، وأن تكون العملة باسم خلفاء الفاطميين. وفي الوقت ذاته، فصل طرابلس وبرقة، وجعل عليهما ولاية من الكتاميين خاضعين له مباشرة. وكذلك رسم السياسة التي يجب أن يسير عليها بلّكين، وهي عدم رفع السيف أو الجباية عن البتر من أهل البادية - يقصد قبيلة زنانة بالذات - ومعاملة البرانس (أهل الحاضرة) معاملة خاصة، وكلفه بأن يقوم بحملة ضد البتر لإرهابهم، حتى لا ينتهزوا فرصة خروجه إلى مصر للاستيلاء على المغرب^(٥) وأخيراً أمره ألا يولى أحداً من إخوته وبنى عمه؛ فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منه.

بقي بلّكين على سياسة التبعية للمعزّ، بعد انتقال الخلافة إلى مصر، واستمر على إخلاصه للعزّ بن المعزّ؛ فأعلن بلّكين للعزّ الطاعة، وأرسل إليه

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٦٢.

(٢) العبر، ٦ ص ١٥٥-١٦٠. عنه: وفيات، ١ ص ١٦٤؛ حسن محمود، بنو زيري وسياستهم الداخلية؛ أنظر.

(٣) عنه: وفيات، ١ ص ٣٥١-٣٥٢؛ الكامل، ٧ ص ٤٧.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٥٩.

(٥) العبر، ٦ ص ١٥٥-١٥٦؛ إتعاظ، ص ١٤٣، ١٤٤-١٤٥؛ الكامل ٧ ص ٤٦؛ ابن الخطيب، أعمال، ص ٦٩.

هدايا صاحبها بنفسه إلى مسافة طويلة في ٩٧٦/٣٦٥. وكان بلكين يجمع المال ويرسله إلى العزيز، الذي كان يرده إلى أصحابه زيادة في استمالتة^(١). وفوق ذلك نفذ بلكين سياسة المعز، فكان يغزو البتر من زناته، وكانت سجلات العزيز تشجعه على ذلك وتصله بالهريريد^(٢)، فقد قابل بلكين بنى خزر من زناته، يساندهم جعفر بن علي بن حمدون، الذي كان قد رُشح لولاية المغرب، ولجأ هو وأخوه لبلاط الخليفة الأموي الحكم المستنصر^(٣)، فقتله بلكين، وشرذ زناته من ٩٨٧/٣٦٨ إلى ٩٨٣/٣٧٣. ولقد هيأت حملاته السيطرة على معظم المغرب؛ وإن لم يستول على سبته، التي بقيت تحت نفوذ الأمويين، وإن أخاف هؤلاء^(٤).

كذلك استمرت العلاقة ودية بين خلف بلكين وخلفاء الفاطميين. فبعد موت بلكين، وافق العزيز على تولية أبي الفتح المنصور بن بلكين في ٩٨٤/٣٧٤^(٥)؛ كما أنه وصل سجل بولاية العهد لأبي مناد باديس في ٩٩٢/٢٨٢، وأرسل العزيز للمنصور هدية قيمة، ومعها فيل عظيم، وبعض رعوس القتلى من الروم، لتعرض في بلاده^(٦). كما أرسل المنصور إلى العزيز هدية مقدارها مليون دينار^(٧). ويبدو أن نفوذ المنصور في المغرب الأقصى قد ضعف، فعادت زناته إلى قوتها؛ بعد أن نفذت عنها سيطرة الزيريين وحتى الأمويين، وخصوصاً أن الأمويين كانوا قد قضوا على الدولة الإدريسية؛ بحيث لم تتعد سيطرة الزيريين في عهده المغرب الأوسط.

ولما توفي المنصور في ٩٩٦/٢٨٦ - وهي السنة ذاتها التي توفي فيها العزيز - وصل سجل التولية من الحاكم بولاية أبي مناد باديس^(٨)، ولقبه الحاكم بنصير الدولة، وسجل ثان يخبره فيه بوفاة أبيه العزيز، وثالث لأخذ البيعة للحاكم؛ كما أرسل هدية عظيمة فجلس باديس ودعا وجوه الصنهاجيين،

(١) ابن عثاري، البيان، ط بيروت، ١ ص ٢٢٧-٢٢٩.

(٢) نفسه، ١ ص ٣٢٨.

(٣) العبر، ٤ ص ٢٢ و ٨٢-٨٣.

(٤) البيان، ١ ص ٢٤.

(٥) العبر، ٦ ص ١٥٦-١٥٧.

(٦) البيان، ١ ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٧) نفسه، ١ ص ٤٤٣-٢٤٤.

(٨) نفسه، ١ ص ٣٥٧؛ العبر، ٦ ص ١٥٧-١٥٨. عنه بتفصيل؛ وفيات، ١ ص ١٥٢-١٥٣؛ انظر.

ماجد الحاكم، ص ١٥٦.

وأخذ عليهم الطاعة للحاكم. ومن ناحية هذا الأخير، فإنه أهدق على الزيريين الألقاب، وبالغ في استقبال رسلهم، والاحتفال بالحجاج المغاربة؛ وذلك بقصد الإبقاء على خضوع المغرب، الذي يعتبر مستودع جنود الفاطميين منذ نشأة دولتهم .

ولكن ظهرت بوادر فتور بين الفاطميين والزيريين في عهد باديس هذا. فمن قبل لاحظ ابن الأثير وغيره أن الزيريين مستقلون؛ فحينما أتى أهل القيروان يهنئون المنصور بالولاية، قال لهم^(١) : « إن أبي يوسف وجدى زيرى كانا يأخذان الناس بالسيف، وأنا لا آخذهم إلا بالاحسان، ولست ممن يولى بكتاب، ويعزل بكتاب،، يعني أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب. بل إن بلكين ومن بعده المنصور كانا قد طمعا في ولاية طرابلس أو أطرابلس^(٢)، المجاورة لهم في إفريقية، والتي كان المعزُّ أخرجها هي وبرقة عن نفوذهم. والواقع أن هذه المنطقة خضعت دائما لمن يحكم في مصر منذ الفتح العربي، وسكنتها قبائل بربرية-مغاربة- معظمها من السنة، مثل: مِزَاته وِزَناة ومَغراوة ولا سيما لَوَاته، التي سكنت برقة منذ الفتح العربي وتفرقت منها في المغرب وبلغت أقصاه^(٣)؛ ولما جاء الفاطميون في إفريقية(تونس)، ضموا طرابلس، وملكها المهدي بسبب إهمال ولاية مصر من قبل العباسيين، فأرسل إليها ولي عهده أبا القاسم في ٩١٥/٣٠٣، وأبقى والياً عليها من قبله، ثم ضم برقة أيضاً^(٤). فكان والى برقة في أيام المعزُّ أفلح بن ناشب الصقلي، ووالى طرابلس عبد الله ابن يخلق الكتامي^(٥).

(١) الكامل، ٧ ص ١٢١؛ البيان، ١ ص ٣٤٣.

(٢) عنهما؛ معجم البلدان، ٢ ص ١٣٣ وما بعدها، ٦ ص ٣٤ وما بعدها.

(٣) الخطط، ٤ ص ٧٠؛ محمد بن هلبوم، التنكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق طاهر الزاوي، القاهرة ١٣٤٩ هـ، ص ١٢؛ انظر. Brémond :

Berbères et Arabes. Paris, 1942, P. 124.

(٤) التنكار، ص ١٦ وما بعدها؛ البيان، ١ ص ١٠٨.

(٥) وفيات، ١ ص ٢١٠؛ العبر، ٦ ص ١٥٥.

ولكن بلكين طلب من العزيز أن يضيف إليه ولاية طرابلس في ٩٧٧/٣٦٧^(١)، فأجابه العزيز إلى ملتمسه، فعين بلكين فيها عوصلة بن بكار نائباً عنه. فلما توفي بلكين وخلفه المنصور، أقر العزيز المنصور على ولايتها. ولكن الحاكم أحس بسعى الزيريين للاستقلال، فعمل على وضع حد لأطماعهم ووقف منهم موقف المناضل، وقد جاءت الفرصة حينما أراد عوصلة بن بكار تسليم طرابلس بدون علم باديس إلى الحاكم، فأذن الحاكم لعوصلة بالالتجاء إلى مصر، وأرسل يانساً العزيمي - وهو صقلبي - ليحكم طرابلس باسم الخلافة، كما كانت في أيام المعز، بحيث لم يشعر باديس، حتى قدم يانس من مصر. فحارب باديس يانساً وقتله في ٣٩٠/١٠٠٠، فأرسل الحاكم جيشاً آخر بقيادة يحيى ابن علي بن حمدون الأندلسي من الأسرة المنافسة للزيريين في ٣٩٣/١٠٠٣-٣، وإن كان هذا الجيش قد رجع^(٢)، وأكثر من هذا شجع الحاكم البتر من زناته، حتى أن أسرة زناتية تعرف ببني خزرون سادت بقيادة شخص اسمه فلفل بن سعيد في طرابلس، وحاربت باديس، ولكن قبيلة مفرارة المحالفة لصنهاجة أرادت أن تسترد طرابلس لباديس، وإن لم تنجح في أخذها من زناته، وعلى العكس، يبدو أن برقة استمرت دائماً خاضعة للفاطميين، فوليتها في عهد الحاكم صندل الأسود في ٣٩٤/١٠٠٤^(٣).

ويبدو أن باديس أراد الانتقام لما فعله الحاكم في طرابلس، فشجع أحد الثوار في برقة، وهو الوليد بن هشام (هاشم)^(٤)، الذي انتسب إلى بني أمية من بني

(١) العبر، ٦ ص ١٥٦؛ انظر. الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، القاهرة ١٩٥٤، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢) عن كل هذا: البيان، ١ ص ٣٦٨، ٣٧٢؛ العبر، ٤ ص ٥٩؛ الكامل ٧ ص ٢١٨؛ انظر. الزاوي، تاريخ الفتح، ص ١٧٨ - ١٨٢.

(٣) الخطط، ٤ ص ٦٩.

(٤) عن ثورته: عيون، ٦/٧ ورقات ٢٢١ وما بعدها؛ العبر، ٤ ص ٥٨-٥٩ يحيى (شيخو)، ص ١٨٨ وما بعدها؛ البيان، ١ ص ٣٧٠ وما بعدها؛ الكامل ٧ ص ٢٣٤-٢٣٧؛ النجوم، ٤ ص ٢١٧-٢١٥، ابن حماد، ص ٤٩؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٥٧-١٦٣؛

مروان، إذ لما قبض الوزير المستبد المنصور بن أبي عامر على السلطة في عهد المؤيد الخليفة الأموي الأندلسي، أخذ يتعصب ضد أهل المؤيد، فكان الوليد ممن هربوا من الأندلس. فجاء الوليد إلى مصر وسمع الحديث بها، ثم أقام بمكة، وسار إلى اليمن، وعاد إلى مصر قبل أن ينتقل إلى القيروان، ومنها إلى برقة. وقد عرف الوليد بأبي ركوة لأنه كان يظهر النسك، ويحتفظ بركوة معه وهو وعاء من الجلد للوضوء على عادة الصوفية، أو ربما تكون من تلقب أهل مصر إذ جروا على عادة السخرية من أعدائهم^(١).

واستطاع أبو ركوة أن يجمع عناصر غاضبة على الفاطميين بين البربر السنين القاطنين بها، وبين قبائل عربية كانت ببرقة. يضاف إلى ذلك أن قبائل زناتة من البتر، عدوة الفاطميين وأنصار الأمويين بالأندلس، كانت قد تسربت إلى برقة في أثناء النزاع بين يانس وبانيس. وساعد على ذلك أن أبا ركوة قد عمل معلماً لأولادهم، فأخذ يحرصهم على الحاكم، وأظهر أن غرضه ليس إلا نصرة الإسلام، والشار لأصحاب الشريعة، الذين يسبهم الحاكم - يعني أعداء الشيعة - بحيث أن أهل برقة انضموا معه في حرب عسكر وإلى الحاكم، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٣٩٠/مارس - أبريل ١٠٠٥.

وقد بدأ أبو ركوة حركته في برقة، بالاستيلاء على عدة بلاد فيها مثل مكة من أعمال برقة، التي قتل من فيها. ثم ذهب إلى قرنة - لعلاها قريني - مدينة عامرة، فحاول أهلها الدفاع عنها، ولكن القبائل البربرية الجائعة اقتحمتها، وقتلوا من فيها، وهدمها أبو ركوة. ثم سار نحو برقة ذاتها، فقاتله عسكرها قتالاً شديداً، ودفعوه أول الأمر. وفي أثناء ذلك جاء عسكر من البربر اللواتيين، فأسرع أبو ركوة لمقاتلتهم، ووقع قتال شديد بينهما، حتى اضطروهم إلى التفرق في الشعاب. ثم عاد بنفسه لمحاصر برقة بشدة، وكان أهلها قد بنوا السور الخندق، وقتلوه قتالاً شديداً، مع أنه ترقى العسكر على السور، ونصب عليه المنجنقات والعرادات لكسور. وقد ضيق على أهلها؛ واشتد بهم الجهد، وماتت الخيل، وبقيت برقة عدة شهور محاصرة.

(١) يحيى، (شيخو)، ص ١٨٩ س ٢٥.

وحاول الحاكم أن يستدرجه، فأمر بعض المغاربة بالكتابة إليه^(١)، ولكن دون جدوى، فجهز الحاكم لحربه جيشاً من المشاركة، أي الأتراك والمغاربة -أي البربر- بقيادة ينال أحد قواد الأتراك في مصر. فلما سمع أبو ركوة بأخبار وصول ينال ومن معه، أضرم النيران في المنجنيقات والعرادات، ونادى بالرحيل رافعا الحصار عن برقة قاصدا ينال. ولم يكن ينال على معرفة بطبوغرافية الأرض التي يحارب عليها، فضلله أتباع أبي ركوة، وساروا به بين التلال العالية؛ حيث هاجمه أبو ركوة في موضع يعرف بعيون النظر، بإلقاء الصخور من على التلال. ثم إن حماس المغاربة للقتال تحت راية أحد قواد الأتراك المشاركة كان ضعيفاً، وبخاصة أن الفاطميين منذ العزيز بدأوا يتحولون عن المغاربة وأحلوا المشاركة مكانهم؛ بحيث أن أحد وزراء الحاكم واسمه برجوان (أو أرجوان) عرف بعداوته الشديدة للبربر^(٢)؛ فضلاً عن أن جيش أبي ركوة كان معظمه من المغاربة، فتخاذل مغاربة ينال وفسروا. فوقع ينال أسيراً في يد أبي ركوة، الذي أمره بلعن الحاكم، فلما رفض بأن يصق في وجه أبي ركوة، أمر أبو ركوة فقطع إرباً إرباً.

وقد ترتب على هزيمة ينال أن أسلم أهل برقة المحاصرون إلى أبي ركوة في ذي الحجة من سنة ٣٩٥/ يوليو ١٠٠٥؛ كما خرج منها رجال الحاكم وواليه صندل عن طريق البحر، فتوجه بعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى المغرب. فلما دخل أبو ركوة برقة انتقم من الشيعة فيها، فقتلهم بالفتك؛ كما نهب كل ما في البلدة، بحيث أصبح أهل البادية الذين معه بعد فقرهم من أصحاب الجوارى والكساء والخيل. وقد أعلن أبو ركوة في برقة مذهب السنة، وتسمى بأمير المؤمنين الناصر للدين، ونقش ذلك على السكة (العملة). كذلك استخلف على برقة رجلاً بربرياً اسمه بن ماواس، الذي أساء الحكم؛ بحيث أكل الناس بعضهم بعضاً فيها، واضطر معظم أهلها إلى الخروج منها وأولادهم إلى الإسكندرية. فأرسل الحاكم إلى أبي ركوة جيشاً معظمه من المشاركة بقيادة فاتك؛ فلما سمع به أبو ركوة أرسل إليه جيشاً قاتله في جهة اسمها الحمام.

(١) البيان، ط Colin و Lévi، ص ١٠، ص ٢٥٨.

(٢) الخطط، ص ٢، ص ١٨ س ٢؛ انظر. ماجد. الحاكم، ص ٣١.

وبعد ذلك، نهض أبو ركووة إلى مصر في رمضان ٣٦٩/يونية ١٠٠٦، ومعه عساكر كثيرة من كل البقاع، وقبائل جائعة يجتذبها غنى مصر، غير أن أبا ركووة اعتبر أرض مصر دار حرب للكفار، ومنح جنده حتى نهبها واستباحة الحرمات فيها. فتوجه أبو ركووة لمحاصر الإسكندرية، فخرج إليهم عسكر الحاكم فيها وهزموه، فانتشر بجنده في قرى مصر ينهبونها ويسبون حريمها. ولكن استفحل أمر أبي ركووة، حينما انضمت إليه قبائل عربية عديدة من ريف مصر، مثل: بنى قُرّة^(١)، في نواحي الإسكندرية-الذين كان الحاكم قد حاربهم بعساكره، وحبس منهم جماعة من أعيانهم وقتل بعضهم في ٣٩٥/١٠٠٤-١٠٠٥، ربما بسبب كثرة اعتداءاتهم على الفلاحين. كما انضم إلى أبي ركووة عرب كانوا قد جاءوا مع القرامطة من بنى سليم وبنى هلال^(٢)، الذين نقلهم العزيز إلى الصعيد. وقد كان أبو ركووة يقطع من اجتمع إليه من الأعراب الضياع، ويكتب لهم السجلات، غير أن العرب جميعهم اتفقوا ضد الحاكم، بحيث اقتسموا ملكه، فياخذ أبو ركووة ومن معه مصر، والعرب يأخذون الشام^(٣).

فجهز الحاكم من جديد جيشاً كبيراً من عرب الشام أعداء البربر، وفيه كثير من الترك والديلم والسودان، بقيادة الفضل بن الحسن بن صالح (أو الفضل ابن عبد الله). وذكر المؤرخون أن الحاكم تنازل وقتئذ عن شدته مع المصريين في شئون الحسبة^(٤)، وهي مراقبة الأخلاق والأسواق. كذلك أقبل المصريون على الانضمام إلى جيشه، لما رأوا من تخريب جيش أبي ركووة الذي ذكرهم بتخريب القرامطة؛ كما وضعوا أموالهم كلها تحت تصرفه^(٥). ونجد من معاونة المصريين للحاكم لصد هذا الخطر، أن الأسعار توقفت عن الزيادة^(٦)؛ مما يدل على أنهم لم يزيديا الحالة سوءاً للحاكم. ولدينا روايات مفرضة تذكر أن الحاكم وقتئذ عزم

(١) الخطط، ٤ ص ٦٩ (في آخر الصفحة)؛ عيون ٧/٦ ورقة ٢٢٧.

(٢) العبر، ٦ ص ١٢؛ انظر.

Ency de l'Isi t 2, P. 325-6, 4 P. 542-3.

(٣) الكامل ١ ص ٢٢٦ س ٦.

(٤) يحيى (شيخو)، ص ١٩٢ س ١ وما بعدها.

(٥) عيون ٧/٦ ورقة ٢٢٩.

(٦) يحيى (شيخو) ص ١٩١ س ٦-٧.

على الفرار إلى الشام ونقل خزائنه إلى بلبيس، إلا أن أشير عليه بالعودة إلى مصر فعاد^(١). وعلى النقيض تذكر روايات أخرى أن الحاكم كان يتميِّز بالثبات والشجاعة، فكان يدعم الناس للجهاد، ويخطب على المنابر. ولا ريب، فالحاكم كان هو الخليفة الوحيد الذي كان يسير وحده في القرى والفلوات؛ مما يدل على شجاعته^(٢).

على العموم هزم جيش الحاكم أبا ركوة في الفيوم، فانسحب أبو ركوة إلى الجيزة بقصد أخذها؛ بحكم أن جنود الحاكم في الفيوم. فجاء إلى أبي ركوة عامل الجيزة فهزمه، فاضطر أبو ركوة إلى العودة إلى الصعيد، منتظراً أن يأتيه المدد من كل مكان، ولا سيما من عرب الصعيد. فرجع أبو ركوة بأكثر من سبعين ألفاً بين فارس وراجل لمقاتلة الفضل بن الحسن، الذي كان قد رجع إلى القاهرة، فحدثت موقعة فاصلة في مكان يعرف برأس البركة؛ حيث منع الفضل العرب من الاشتراك فيها. فانهزم أبو ركوة ومن معه، وقتل أكثر البربر، وتفرقت الطوائف التي انضمت إلى أبي ركوة وجاءت إلى الحاكم تائبة، ولم يفلت إلا نفر قليل من النساء والصبيان، حملوا أسرى إلى القاهرة، وأطلق سبيلهم، ولا سيما أنه قد تفشى فيهم الجدري والوباء.

ولكن أبا ركوة هرب إلى النوبة، وكان ملكها قد توفي، فسلمه ابنه واسمه روفائيل إلى الفضل^(٣)، وذلك بناء على هدنة البقط التي كانت قد عقدت منذ أيام عمرو بن العاص، ونصت على تسليم الهاربين، وديما حارب روفائيل أبا ركوة وهزمه، لما قصد بلاده، وذلك في مكان اسمه؛ بوسقلا^(٤)، وكان يوجد فيه دير، أو لعله حاربه في أسوان مع بني كنز بزعامة أبي المكارم المعروف بالأهوج المطاع. وكان الفضل يريد تقديم أبي ركوة حياً إلى الحاكم، فتركه يكتب إلى الحاكم يطلب منه العفو؛ كما أحسن معاملته. فلما وصل به أبو الفضل إلى القاهرة، احتفل الحاكم بهذا النصر المشهود من مكان مرتفع؛ فشهر بأبي ركوة على جمل، وقد

(١) النجوم، ٤ ص ٢١٢ س ٥-٦؛ انظر ماجد، الحاكم، ص ١٦٠.

(٢) عيون، ٧/٦ ورقة ٢٦٦؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٦١.

(٣) أبو صالح، ص ١٢١ (٩٥ب). أما عن معاهدة البقط؛ الخطط، ١ ص ٣٢٢ وما بعدها.

(٤) نيل تاريخ دمشق، ص ٦٤-٦٥؛ انظر عطية القوصي، تاريخ نولة الكنوز، ص ٥٤.

ألبس طرطوراً طويلاً، وخلفه قرد وبيده درة؛ فقد كان حماس المنتصر في أم الإسلام في العصور الوسطى، يفرّيه أحياناً بمسلك غير إنساني. ولكن حينما أنزل أبو ركوّة من على جملة كان ميتاً فقد روحه، وإن كانت رواية أخرى تذكر أن أبا ركوّة ضربت عنقه، ثم رفع على الأعواد وصلب، وأشعل العود الذي صلب عليه. وبسبب هذا النصر جاءت الوفود إلى الحاكم مهنتاً، كما أرسلت البشائر^(١) إلى سائر الأعمال، بقتل أبي ركوّة.

وبذلك تخلّص الحاكم من خطر أبي ركوّة، الذي كان مثل تهديد الحسن الأعظم القرمطي في عهد المعزّ. ولعل السبب في نجاحه هو ثباته، ومساعدة المصريين له، الذين كانوا ساعدوا المعزّ من قبل ضد القرمطي، ولأن الخلافة الأموية في الأندلس، التي كانت تؤيد أبا ركوّة أصبحت على وشك السقوط، وتقلّب عليها ملوك الطوائف^(٢)، الذين أصبح بعضهم على علاقة وثيقة بالفاطميين^(٣)؛ فضلاً عن أن قبائل بني قرة العربية، كانت قد اتفقت سراً مع قبائل عربية في جيش الحاكم.

وفي أثناء هذه الهجمات، تجد موقف الزيريين غامضاً؛ فلا نسمع عن مجيئهم لنصرة الحاكم، كأنهم يرغبون في ضياعه؛ وهذا ولا ريب يدل على أن دولتهم كانت تسعى للاستقلال. كذلك قد يكون عدم وقوفهم بجانب الحاكم؛ لأن الحاكم أساء معاملة المغاربة في جيشه، أو أنه توجس خوفاً منهم؛ بسبب أن جيش أبي ركوّة كان معظمه من المغاربة. وينقل إلينا المؤرخون أن باديس وصل القاهرة في طريقه للحج أثناء قيام ثورة أبي ركوّة في ١٠٠٥/٣٩٦؛ كأنه أراد أن يتخلص من الموقف الحرج، فسأل الحاكم باديس عن أبي ركوّة- وكان أبو ركوّة لا يزال في برقة- فعظّم باديس حاله، وذكر قوته وكثرة جموعه، والحاكم صامت. فلما رجع باديس إلى مصر بعد الحج، واستأذن الحاكم في المسير، أخره الحاكم الذي كان قد انتصر على أبي ركوّة، ليشهد احتفالات النصر. ولعل الحاكم قصد بتأخير باديس إرهابه بطريق غير مباشر، أو على الأقل عتابه^(٤).

(١) الخطط، ٤ ص ٧٠ س ٢٠.

(٢) الكامل، ٧ ص ٢٩٠.

(٣) تهودلت رسائل ودية بين علي بن مجاهد العامري صاحب دانية والخليفة المستنصر بالله

الفاطمي في سنة ٤٥٢/١٠٦٠. ابن الأبار، التكملة، ص ٦٢٢.

(٤) عيون، ٧/٦ ودرقات ٢٤٤-٢٤٥.

ومع ذلك بقي المغرب مرتبطاً برباط الود التقليدي بالحاكم، ففي سنة ١٠٠٩/٤٠٠، ذهب باديس إلى طرابلس واستولى عليها، ولا سيما أن بنى خزرون من زعماء زناتة، انشقوا على أنفسهم بعد موت زعيمهم لفل في ١٠٠٩/٤٠٠^(١). ولعل الخليفة الحاكم أخيراً لم يجد بداً من استمالة باديس بطريقة ودية-مثلما فعل المعزّ والعزیز من قبل- فأضاف إلى باديس أيضاً برقة وأعمالها في ١٠١٢/٤٠٣^(٢). ويبدو أن هذا التصرف جعل العلاقة ودية بين باديس والحاكم إلى حد ما. ففي سنة ١٠١٤/٤٠٥، أخرج باديس هدية للحاكم، كما وجهت أخت باديس هدية إلى أخت الحاكم^(٣).

ولكن لما تولى المعزّ بن باديس^(٤)، الذي يظهر من اسمه إخلاصه للفاطميين، إذ هو قد سمي على اسم المعزّ الفاطمي؛ فإنه مع ذلك زادت عوامل القطيعة، بسبب تحول المعزّ بن باديس ورعيته من المذهب الفاطمي، إلى المذهب السني، وانسفال الحاكم بالانشقاق المذهبي، الذي حدث في عهده^(٥). ولكي نستقصى التحول عن مذهب الفاطميين في عهد المعزّ بن باديس، يجب أن نجد في مذهب أهل إفريقية (تونس)، على الخصوص قبل مجيء الفاطميين. فقد كان أهل إفريقية على مذهب أبي حنيفة، ولكن سحنون بن سعيد^(٦) (١٦٠-٧٧٦/٢٤٠-٨٥٤)، الذي قدم القيروان في ٨٠٧/١٩١، وألف كتاباً في المذهب المالكي اسمه المدونة، عمل على نشر المذهب المالكي، الذي أصبح يتفق مع طبائع أهل إفريقية. والواقع أن أهل إفريقية أيدوا الخلافة الفاطمية، لرغبتهم في

(١) الكامل، ٧ ص ٢١٨؛ البيان، ٦ ص ٣٧٢.

(٢) البيان، ١ ص ٤٧٣-٤٧٥.

(٣) نفسه (ط. ل.)، ١ ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٤) عن توليته، الكامل، ٧ ص ٢٧٧-٢٧٩؛ وفيات، ٢ ص ٥٥٢ وما بعدها.

(٥) انظر. بعده.

(٦) عن ذلك بتفصيل، انظر. الدباغ، معالم الإيمان في طبقات فقهاء القيروان، تونس ١٣٢٠هـ وما بعدها؛ طبقات علماء إفريقية، ٤ ص ١٣٠ وما بعدها؛ الخطط ٤ ص ١٤٤؛ انظر.

التخلص من حكم ولاة الخلافة العباسية، ومن الفوضى الضاربة في بلادهم. ويبدو أنه بفضل الدعوة الفاطمية وحدها انتشر المذهب الفاطمي على الأقل رسمياً؛ ولذلك شدد المعزّ الفاطمي على أئمة المساجد والمؤذنين، أن يراعوا المذهب ونصوصه^(١). وبعد رحيل الفاطميين إلى مصر، أصبح الزيريون ولاة الفاطميين يمثلون وحدهم المذهب الشيعي في عاصمتهم المنصورية؛ أما في القيروان وغيرها من مدن إفريقية، فقد عادت السنة ممثلة في المذهب المالكي إلى قوتها. وتظهر قوة السنة المبكرة من أن العزيز لما طلب عزل أحد القضاة السنة وإرساله إلى مصر، عارض أهل القيروان ومنعوا إخراجه، فلما توفي العزيز، لم يرسل القاضي^(٢). ولا ريب؛ فإن ضعف مذهب الفاطميين بإفريقية، راجع إلى ما حدث من ضعف الفاطميين بغزوة أبي ركوة، وقد شد من أزر السنة، حتى في المنصورية- عاصمة الزيريين- أن المعزّ بن باديس لما تولى كان صغيراً، عمره حوالي ثمانى سنوات ونصف، فسيطر عليه فقيه سنى اسمه الحسن بن عليّ ابن أبي الرّجال^(٣) (ت ١٠٣٤/٤٢٥)، كان كافلاً للمعزّ بن باديس قبل ولايته، وأن الفاطميين لم يكونوا يعلمون ذلك عنه.

وكان مظهر التحول عن مذهب الفاطميين في عهد المعزّ بن باديس، وقوع مصادمات بين السنة والشيعية، ولا سيما في عام ١٠١٢/٤٠٧؛ بحيث أن ابن عذارى المؤرخ يذكر أن الدم جرى غزيراً في القيروان، فكانت السنة تهاجم الشيعة في الأسواق^(٤)؛ خصوصاً أن القيروان أضحت مركزاً علمياً قوياً للمالكية؛ بسبب

(١) البيان، ١ ص ٢١٧.

(٢) نفسه، ١ ص ٣٥٥-٣٥٦.

(٣) نفسه، ١ ص ٣٩٥، هذا مذهب الفقيه كان شاعراً ومؤلفاً عرفه الأوربيون باسم (Albenragal) وقد ترجمت بعض كتبه إلى اللغات الأروبية، مثل: البارع في أحكام النجوم، ترجمة إلى الأسبانية في ١٢٥٦م، وإلى اللاتينية في ١٤٨٠م، كما أهداه ابن رشيقي - المؤلف المعروف - كتابه المشهور: العمدة.

(٤) نفسه، ١ ص ٢٨٧-٢٨٨ (ط ليدن)، ص ٢٨٥؛ الكامل، ٧ ص ٢٩٤-٢٩٥؛ انظر. حسن محمود، محنة الشيعة بإفريقية في القرن الخامس الهجري، فصله من مجلة كلية الآداب بالقاهرة، مجلد ٢/١، ديسمبر ١٩٥٠، ص ٩٤-٩٥.

مرور العلماء الأندلسيين المالكيين، حتى أصبحت زعيمة المالكية^(١). وقد قلدت أغلب مدن إفريقية القيروان، مثل المهديّة عاصمة الفاطميين السابقة، فانسبطت أيدي العامة في الشيعة، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأحرقوا بالنار، ونهبوا ديارهم؛ بحيث حاول الشيعة الهروب إلى صقلية، وكان السنة يسمونهم المشاركة، نسبة إلى أبي عبد الله الشيعي، الذي كان من المشرق، أو أتباع بنى عبيد الله المهدي نسبة إلى عبيد الله المهدي -عبد الله- وحتى لا ينتسبوا للفاطميين. ويذكر المؤرخون أن المعزّ بن باديس هو الذي حمل أهل مملكته على مذهب مالك^(٢)، ويؤيد ذلك، أن العملة التي صدرت بالمهديّة، مكتوب عليها: «محمد رسول الله؛ أرسله بالهدى ودين الحق»، ولا تظهر عليها عقيدة الفاطميين؛ «علّى وليّ الله»^(٣).

ومع هذا الميل السنّي؛ فإن المعزّ بن باديس لم يقض على الولاء الاسمى للحاكم أو خلفه في أول الأمر. وكانت حجة المعزّ على حد قوله: «ما أبقيت السكة إلا مداراة لأجل حجاج بيت الله الحرام والمسافرين»^(٤). ومع ذلك؛ يبدو أن السبب الرئيسي هو انشغاله بانقسام في دولته؛ فلم يسع إلى القطيعة التامة، حتى لا يقع بين شقى الرجا. فمن قبل، كان أبوه باديس قد تناسى نصيحة الخليفة المعزّ لجدّه بلّكين، حينما كفل الدفاع عن المغرب الأوسط ضد البتر من زناتة لعمه حماد بن بلّكين (١٠٤٩/٤٤١). ولكن حماداً الذي كان يبني القلاع ومنها قلعة عظيمة أقيمت على قمة جبل عال، فخرج عن طاعة ابن أخيه في ١٠١٤/٤٠٥^(٥).

(١) عن مؤلف الفقهاء للملكية من المذهب الفاطمي، انظر. المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونسائهم وسير من أخبرهم، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥١؛ أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، تحقيق ابن شنب، الجزائر ١٩١٤.

(٢) النجوم، ص ٧١ س ١٣-١٤.

(٣) انظر. Lavoix. Cat, T I, P. 78-79 (92).

(٤) الديباغ، معالم الإيمان، ص ٢٠٩.

(٥) الكامل، ص ٧، ١٨٢، ١٩٨-١٩٩، ٢٧٦-٢٧٩، ٨، ص ١٠١؛ أبو الفدا، المختصر، ص ٢.

: انظر Beyliç: ١٣٢-١٣١

La Kal'a des Beni Hammâd: Une Capitale.

berbère de l'Afrique du Nord au XIe Siècle. Paris 1909;

La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Age. Paris, 1946, P. 163 sqq.:Marçais

عن القلعة؛ معجم البلبان، ص ٧، ١٤٩؛ انظر، ماجد والبنا، الأطلس التاريخي للقاهرة

١٩٦٧، الطبعة الثالثة، خريطة (١٠).

وكون دولة مستقلة، عُرِفَت بدولة بنى حماد. فنذهب باديس ليعاقبه، ولا سيما أن حماداً كان متوحشاً يقتل الأطفال والنساء والأسرى. وقد تمكن باديس من هزيمة حماد، إلا أن باديس توفى وهو يحاربه في عام ١٠١٥/٤٠٦. وقد كان حماد، ضد تولية المعز بن باديس، ويريد تولية أخ لهاديس؛ مما اضطر المعز ابن باديس إلى محاربتة، واضطره إلى الصلح في ١٠١٧/٤٠٨، على أن يقتصر حماد على ما في يديه. ومع ذلك بقي حماد سيفاً مصلتاً على دولة المعز بن باديس. كذلك قامت زناتة من البتر في طرابلس، بزعامة بنى خزرون يهاجمون بلاده، حتى أنهم هاجموا عاصمته المنصورية أيام المستنصر فيما بعد.

أما من ناحية الحاكم؛ فإنه كان قد شغل بشئون المذهب، فلم يتخذ إجراء حاسماً ضد المعز بن باديس. فاكتفى بأن يرسل إليه يستعلم عن سبب سفك دماء الشيعة، فأرسل المعز بن باديس يعتذر عما حدث، ويلقى اللوم على العامة الذين لم يستطع أن يكبح جماحهم^(١). وربما يكون الحاكم اضطهد المالكية في مصر من باب المعاملة بالمثل، ولكنه عدل عن ذلك لما طلب المعز بن باديس أن يعدل عن اضطهادهم^(٢). ونجد أن الحاكم قد ألغى الألقاب؛ إلا لقب المعز بن باديس، الذي تلقب بشرف الدولة في ١٠١٧/٤٠٨^(٣)؛ كما نجد أن المعز بن باديس يعلن للحاكم نهاية الخلافة الأموية بالأندلس، وأن الحاكم يرسل إليه سيفاً مكللاً بنفسيس الجواهر، وخلعة من لباسه. فلقى المعز بن باديس هدية الحاكم في أجل زى وأكمل هيئة، فقرئ على المعز بن باديس سجل التشريف، ورد المعز على الحاكم رداً هائلاً^(٤).

كذلك أبقى المعز بن باديس سياسة الولاء الاسمية ذاتها للظاهر بن الحاكم والمستنصر بن الظاهر من بعده. فلدينا عملة ضربت بالمهدية من زمن الظاهر^(٥). ولما زاد الظاهر لقب المعز بن باديس، فسماه شرف الدولة وعضدها،

(١) السلوى، الاستقصاء، ص ١٦٧؛ انظر. مجلة الشيعة، ص ٩٨.

(٢) النجوم، ٤ ص ١٧٨ وما بعدها؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٦٥.

(٣) يحيى، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٤) البهان، ١ ص ٢٨٩.

(٥) انظر. Cat, P. 98 (247): Lavoix. وذلك في ١٠٢٩/٤٢٠.

وأرسل إليه هدايا ثمينة، منها كسوة لبسها الخليفة نفسه، وأقراسا من خيله، وبنوداً مذهبة، مما لم ير له مثيل من قبل؛ فإِن المعزَّ بن باديس أحسن كعاداته استقبال التشريف الخلفى، وقرئت السجلات - بما فيها سجل التلقيب - بين يديه وفى كل مكان، بما فيها مسجد القيروان^(١). كذلك يذكر المؤرخون أنه كان للمعزَّ بن باديس بالقاهرة نائب، يتولى أموره أمام المستنصر^(٢)، وكانت العملة فى إفريقية تسك باسم المستنصر.

ولكن المعزَّ بن باديس قرر فجأة الانحراف فى سياسته، والقطيعة نهائياً بين مصر والمغرب، وذلك فى عهد المستنصر بالذات، أو ما يسميه المستشرق الفرنسى مارسىه "Marçais"؛ بالطلاق بين الشرق والغرب^(٣). ويبدو أنه اتخذ هذه الخطوة بناء على إجماع شعبه السنى؛ بحيث إن أهل القيروان امتنعوا عن صلاة الجمعة، بسبب إبقاء الدولة على المذهب الشيعى؛ فأقفرت المساجد، وكان الواحد منهم يصلى الظهر أربعاً فى بيته^(٤). ويبدو أيضاً أن الخلافة العباسية كانت تحرضه ضد أعدائها الفاطميين؛ إذ يذكر المؤرخون أنها كانت تهدى إليه الهدايا^(٥). وربما كان انحرافه بغية الإستقلال التام، ولا سيما أنه كان شخصية مغرورة؛ فقد كان يقتنى السباع وتخرج بين يديه، وأنه دفع إلى أحد الشعراء فى دفعة واحدة مائة ألف دينار^(٦). ويذكر المؤرخون أنه أخذ يعمل فكره فى ذلك^(٧)؛ فقضى على الشيعة فى بلاده، حتى أنه تهاهى بأنه يقتل المشاركة فى السر^(٨). ثم لأن صنهاجة أخلصت للفاطميين؛ فإنه عمل على التخلص من أكثرهم فى جيشه، فطلب منهم

(١) البيان، ١ من ٣٩٢. وذلك فى ٤١٤/١٠٢٣.

(٢) الدول المنقطعة، ورقة ٦٨؛ انظر. ماجد، المستنصر، ص ١٣٢.

(٣) انظر . كتاب: La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age. Paris, 1946, P 136

sqq.

(٤) البيان، ١ من ٤٠٠.

(٥) السيرة المؤيدة، ص ٥٦.

(٦) البيان، ١ من ٤٠٢، ٤٥٦.

(٧) نفسه، ١ من ٣٩٦ ص ٢.

(٨) الدباغ، ٣ من ٢٠٩.

الخروج من القيروان إلى المنصورية العاصمة^(١)، ربما ليكونوا تحت مراقبته،
وكون جيشاً خصوصياً من العبيد، بلغ ثلاثين ألف مملوك^(٢).

ولدينا تواريخ مختلفة لهذه القطيعة في ٤٣٣/١٠٤١^(٣)، وفي
٤٣٥/١٠٤٣^(٤)، وفي ٤٤٢/١٠٥٠^(٥)، وفي ٤٤٣/١٠٥١^(٦)، وفي
٤٤٨/١٠٥٧^(٧). ويذكر "Marçais" أن هذا الاختلاف في التواريخ معناه أن العداء
كان متجهاً إلى الشدة، ضد الفاطميين^(٨). ونحن نرجح تاريخ ٤٤٠/١٠٤٨ أو
بعده؛ لأنه يتوافق مع الاتساق التاريخي؛ لأن الرحالة ناصر خسرو الذي بلغ مصر
في ٤٣٩/١٠٤٧^(٩)، يذكر أن بلاد إفريقية كانت تابعة لخليفة مصر. وبعد ذلك
يكون المعز بن باديس قد قضى على كل صلة بين الفاطميين والمغرب، بعد مائة
وخمس وأربعين سنة ابتداء من ٢٩٦/٩٠٨.

وكان المظهر الأساسي لقطع العلاقة مع الفاطميين، هو إسقاط الخطبة
للخليفة المستنصر من منابر المساجد في بلاد المعز بن باديس. وقد لعن
الفاطميين وسبهم بأبشع السب، منه^(١٠): «اللهم والعن الفسقة الكفار، المارقين
الفجار، أعداء الدين، وأنصار الشيطان، المخالفين لأمرك، والناقضين لعهدك،
المتبعين غير سبيلك، والمبدلين لكتابك، اللهم والعنهم لعناً وبهلاً، وأخزهم خزيّاً
عريضاً طويلاً، اللهم وإن سيدنا أبا تميم المعز بن باديس بن المنصور، القائم
لدينا، والناصر لسنة نبيك، والرافع للواء أوليائك، يقول مصدقاً لكتابك، وتابعاً

(١) البيان، ١، ص ٣٧٦.

(٢) الكامل، ٨، ص ٥٥ (آخر الصفحة).

(٣) البيان، ١، ص ٣٩٧.

(٤) الكامل، ٨، ص ٣٩؛ أبو الفداء، المختصر، ٢، ص ١٦٧؛ وفيات، ص ٥٥٠.

(٥) البيان، ١، ص ٣٩٩؛ الكامل، ٨، ص ٥٥.

(٦) البيان، ١، ص ٤٠٥؛ النجوم، ص ٥٠-٥١.

(٧) البيان، ١، ص ٣٩٧؛ وفيات، ٢، ص ٥٥٠؛ أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٦٩.

(٨) أنظر. La Berbèrie P. 168. Marçais.

(٩) سفرنامه، ص ٤٤.

(١٠) البيان، ١، ص ٤٠١. هكذا نكر بإسقاط قل وأخرها، وهي ملاحظة ابن عذاري.

لأمرك؛ متدافعا لمن غير الذين، وسلك غير سبيل الراشدين. [يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون ١٠٩: ٦-٣]، كذلك ظهرت أقوال وقصص الفت لأهل إفريقية (تونس)، يرددها ابن عذارى عن خلفاء مصر وأصلهم^(١) مثل تلك التي قيلت عنهم في العراق؛ من أنهم ليسوا من أسرة النبي، وأنهم ميمونية نسبة إلى ميمون القداح، وأن مذهبهم يدعو إلى وضع الفرائض، وإعلان الزنا واللواط، والكذب وشرب الخمر؛ وأن جد المستنصر - وهو الحاكم - ادعى الربوبية.

ولما كان الحكام وقتذاك، لا يكون حكمهم شرعياً إلا باعتراف خليفة؛ فإن المعز بن باديس سعى إلى التقرب من خليفة العراق القائم بأمر الله، عدو الفاطميين. فدعا له من على المنابر؛ ودعا للعباس بن عبد المطلب، وللخلفاء الأربعة وبقية العشرة الذين وعدهم الرسول بالجنة^(٢)؛ وكلهم من المنافسين لآل علي والفاطميين. كذلك أرسل المعز بن باديس إلى القائم المنشور، الذي قطع فيه الخطبة للفاطميين، ومعه بعض الهدايا. فأسرع القائم بإرسال التقليد الشرعي - وهو طويل - وبه اعتراف بشرعية حكم المعز بن باديس في إفريقية وأيضاً ما يفتحه، كما أن التقليد الذي منحه له ورد فيه^(٣) «من عبد الله أبي جعفر القائم بأمر الله، أمير المؤمنين، إلى الملك، الأوحى، ثقة الإسلام، وشرف الإيمان، وعمدة الأنام، ناصر دين الله، قاهر أعداء الله، ومؤيد سنة رسول الله، ﷺ، أبي تميم المعز ابن باديس بن المنصور ولي أمير المؤمنين. بولاية جميع المغرب، وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين».

ولم يكن وصول التقليد - كما يبدو - ميسراً في أول الأمر؛ بسبب وجود الفاطميين بين العراق والمغرب، ووجود بيزنطة التي كانت على علاقة طيبة بالفاطميين؛ بحيث إن ملك الروم قبض على الرسول العباسي وأسعه غالب

(١) نفسه، ١ ص ٤٠٦ وما بعدها.

(٢) مثلاً؛ نفسه، ١ ص ٣٩٩؛ شذرات، ٢ ص ٢٦٤؛ العيني، تاريخ، ورقة ١٨٦

(٣) الكامل، ٨ ص ٣٩.

الشيرازي؛ الذي كان يحمل التقليد وبعض الهدايا للمعز بن باديس؛ وأرسله إلى المستنصر الفاطمي؛ فدخل الرسول غالب القاهرة على جمل؛ وأحرق التقليد وما معه من هدايا في حفرة في ميدان بين القصرين^(١). وهو براج واسع بين القصور الفاطمية- ومع ذلك؛ فقد ذكر المؤرخون أن التقليد ومعه الأعلام العباسية والخلع وصل بحراً عن طريق القسطنطينية في البحر^(٢)؛ وهذا يدل بوضوح على موافقة ملك الروم بعد ذلك؛ الذي كان يسره انقسام المسلمين.

ولما كانت الدولة الزيرية مثل غيرها من دول الإسلام في العصور الوسطى طابعها ديني؛ فقد قرر المعز بن باديس إزالة المظاهر الدينية الفاطمية من بلاده. وفي أول الأمر سأل فقيها عن شرعية الطرز مما يلبس أو يصلى فيه، وعليها اسم الفاطميين؛ فأفاته بخلعها^(٣). فأمر المعز بن باديس بلبس السواد شعار العباسيين، وخلع البياض شعار الفاطميين؛ كما أحضر جماعة من الصباغين، وأخرج لهم ثياباً بيضاً من الكتان، وأمرهم أن يصبغوها بالسواد، وكسا بها الفقهاء والمؤذنين والخطباء في المساجد^(٤). كذلك أمر بحرق أعلام الفاطميين بما عليها من أسماء المستنصر^(٥). ثم إنه أزال العملة الفاطمية «السكة»، على الرغم مما جره ذلك إلى اضطراب النقد في بلاده؛ بحيث كانت آخر عملة للمستنصر في سنة ٤٢٨/١٠٤٦-٧^(٦).

ومع ذلك كانت العملة الزيرية من قبل على يد المعز بن باديس، ترد أحياناً، كما حدث في أيام الحاكم؛ خالية من العقيدة الشيعية «على ولي الله»، ويكتفى في نقشها بالآتي: «محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق»^(٧). ولكن هذه المرة نقش في أحد وجهيها^(٨)؛ «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً، فلن يقبل منه، وهو

(١) المقرئزي، اتعاط، مخطوطة قهو سراي، لوحة ٨٨؛ انظر. مختار العبادي، السياسة الفاطمية، ص ٢٢٢-٢٢٣. عن ميدان بين القصرين؛ الخطط، ص ٤٤؛ انظر. Ravaisse, Essai sur l'Histoire et sur la Topographie du Caire M.M.A.F.I., 1. P. 439.

؛ ماجد، نظم الفاطميين، ص ٨٧-٨٨.

(٢) مثلاً؛ أبو الفدا، المختصر، ص ١٦٧.

(٣) ابن غلبون، التذكار، ص ٢٣.

(٤) البيان، ص ٤٠٥.

(٥) نفسه، ص ٤٠٢-٤٠٣.

(٦) انظر. Lane-Poole, Egypt, P. 138; n(I).

(٧) انظر. Lavoix, Cat, t I, P. 78-79(92)؛ ماجد، الحاكم، ص ١٦٥.

(٨) البيان، ص ٤٠٢؛ ابن الخطيب، أعمال، ص ٧٤.

فى الآخرة من الخاسرين»، وفى الوجه الآخر العقيدة السننية: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». كذلك أمر المعزّ بن باديس أن يسبك ما كان عنده من الدنانير الفاطمية، ونادى مناد بأن من تصرف بمال فاطمى نال عقوبة شديدة.

وفى أول الأمر؛ وقفت الخلافة المستنصرية مكتوفة اليدين، إزاء هذا الانفصال، بسبب مشاريعها فى العراق والشام، ولظروفها الداخلية من مجاعات وثورات جيشها، وفساد الحكم بتدخل أم المستنصر فى شئونته^(١). ولما تولى اليازورى الوزارة فى ٤٤٢/١٠٥٠، استخدم السياسة، لعل المعزّ بن باديس يرجع عن قصد. فبعث إلى المعزّ بن باديس سفارات، وكتب المستنصر إلى المعزّ ابن باديس، يقول له: «هل اقتفيت آثار آبائك فى الطاعة والولاء». ولكن المعزّ ابن باديس- الذى وجد أن رعيته ضد الشيعة- رد فى جوابه على المستنصر: «إن آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن يملكه أسلافك، ولهم عليهم من الضم اعظم من التقديم،^(٢) ولو آخروهم لتقدموا بأسيا فهم^(٣)؛ كما عمل تحقير الوزير، وبدلاً من أن يكتب إليه كما هو المعتاد: عبده، كان يكتب له: صنيعته، ووصفه: بالفلاح^(٤)؛ لأن اليازورى كان فى أصله فلاحاً. فوجد اليازورى لكى ينتقم يعمل على إرهاب المعزّ بن باديس، فيدس عليه من يأخذ نعله، كما تمكن من أخذ سكين دواته- التى يقطع بها الورق- وردها إليه قائلاً: إننا كما تطفنا فى أخذها، نتلطف فى ذبحه بها، وكان يسميه: البربرى الأحمق^(٥).

وأخيراً عولت الخلافة الفاطمية فى وزارة اليازورى هذا على حرب المعزّ ابن باديس. ولما كانت لا تستطيع إرسال جيشها ضده، بسبب انشغالها بمشروعاتها فى الشام والشرق، ولأن طوائف هامة فى جيشها كانت من المغاربة من نفس جنس جيش المعزّ بن باديس، ولا سيما أن الدولة أهملتهم منذ أيام

(١) نفسه، ١، ص ٤٠٢.

(٢) أنظر. بعده.

(٣) ابن خلكان، وفيات، (ترجمة المستنصر).

(٤) أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٦٨.

(٥) نفسه، ورقة ٦٩.

العزيرز^(١)؛ فإنها عملت على أن ترسل ضده قبائل عربية، من سلالة القبائل التي هاجرت إلى مصر مع الفتح العربي، أو جاءت مع القرامطة إلى الشام، ونقلها العزيرز إلى الصعيد، كما ذكرنا^(٢). وكانت هذه القبائل غير مرغوب فيها في مصر؛ لأنها كانت تضايق أهلها بفتنها^(٣)، وتستطيل بالأذى عليهم؛ بحيث أصبحت كلمة عربي أو عربان من أيام الأمويين تدل على الرجل غير المتدين، وغير صحيح الإيمان^(٤)؛ كما أن معظم هذه القبائل كانت تعاون أعداء الفاطميين مثل أبي ركوثة. فوجد اليازوري في إرسال عرب مصر نحو شمال إفريقيا، ضرب عصفورين بحجر؛ بقصد التخلص منهم، وإرجاع المرز بن باديس إلى الطاعة. وينسب للمستنصر قوله: «والله لأرمينه بجيوش لا اتحمل فيها مشقة»، فدعا العرب وأباح لها مجاز النيل إلى المغرب، وكان ممنوعاً عنها قبل ذلك. فعبر منهم خلق عظيم.

وقد اختلف في أسماء القبائل العربية الغازية، وعددها، ويبدو أن هذه القبائل كانت قد تكاثرت في مصر الغربية، وانتشرت في كل مكان فيها، ولا سيما في الصعيد؛ بحيث أصبحت تمثل معظم فروع شجرة النسب^(٥). العربية؛ فمثلاً الفيوم أصبح أكثر أهلها عربياً، وإن وجد بجوارهم القبط^(٦). ونعرف من السجلات المصرية المستنصرية وكتب المؤرخين، أسماء بعض القبائل التي أرسلت نحو المغرب مثل^(٧)، رياح وزغبة والأثبج (الأسبج) وعدى وصعصمة وسليم ومع ذلك، فإنه غلب على غزوة العرب للمغرب اسم الغزوة الهلالية؛ ربما بسبب أن هذه القبائل السابقة، من أحياء بني هلال^(٨). وقد قدر عدد الغازين بخمسين ألفاً، أو

(١) انظر. بعده.

(٢) العبر، ٥٦ ص ١٣ س ٩-١٠؛ انظر. هونس، الهلالية، القاهرة ١٩٥٦، ص ٧٤.

(٣) إفاتة، ط٢، ص ٢٤ س ٦.

(٤) الطبري، ٢ ص ٩٤.

(٥) أهم مصدر هو المقرئ، البيان والأعراب، انظر.

(٦) الصفي، تاريخ الفيوم وبلداه، القاهرة ١٨٩٨، ص ١٢-١٣، ٢٤.

(٧) سجل ٥، ص ٤٣ س ٢٠؛ العبر، ٦ ص ٥ وما بعدها، ١٤ وما بعدها؛ الكامل، ٨ ص ٥٥-٥٦، ١٠١؛ البيان، ١ ص ٤٢٥٤؛ ابن خلدون، التنكار، ص ٢٤؛ أبو الفدا، المختصر،

٢ ص ١٧٠؛ أعمال الأعلام، ص ٧٧؛ انظر؛

Les Arabes et Berbérie du XIVe Siècle. Constantine- Paris, 1913. P. 39 sqq.: Marçais

Ency de l'Isi, (art. Riyâh) t 3, P. 1242.

(٨) العبر، ٦ ص ١٢-١٣، ٢٤. عن هذه القبائل على الخصوص، انظر.

Ency de l'Isi, (art. Hilâl) t 2, P. 325-326; 2 éd t 3, P. 398-400;

؛ كحالة قبائل العرب (هلال)، ٢ ص ١٢٢١ وما بعدها؛ هونس، الهلالية، ص ٦٧-٦٨؛

Die Benf Hilâl. Geschichte das Zeitschrit Fur Afrika und Ocean Sprachen. Hartmann Iv, 289 sqq.

حتى بمليون نسمة، وهو رقم -على ما يبدو- مبالغ فيه؛ بدليل بقاء بعض الهلالية في مصر إلى أيام ابن خلدون^(١). ويحاول بعض المؤرخين القدامى والحديثين أن يحطوا من شأن عرب هذه القبائل، ويصفوهم بأنهم جماعات من المشردين^(٢)، الذين يشبهون الجراد، لأنهم كانوا يأتون على كل شيء في طريقهم. ولكن من السجلات المستنصرية وغيرها؛ يظهر أن هذه القبائل وإن كانت غير نظامية، إلا أن الخلافة أرسلتها بقصد غزو منظم؛ فقد زودت قبل ذهابها بالسلاح والعتاد والمال.

وقد داعت الأحمال جفون الخلافة الفاطمية، فحينما تحركت جموع العرب في ٤٤٢/١٠٥٠^(٣)، وأرسل اليازوري إلى المعز بن باديس قائلاً: «أما بعد، فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً، وحملنا عليها رجالاً كهولاً، ليقتضى الله أمراً كان مفعولاً». فسيطرت هذه القبائل في برقة، التي عرفت بثوراتها ضد الفاطميين أيام الحاكم، ولا سيما أنها أعلنت الطاعة للمعز بن باديس، وأحرقت المنابر التي كان يخطب فيها للفاطميين، وأحرقت راياتهم، وأعلنت دعوة القائم العباسي^(٤). ثم استولت هذه القبائل على طرابلس من زناتة، وقد بقيت فيها زُغبة. ثم دخلت إفريقية (تونس)؛ حيث أخذت مدنها تسقط الواحدة بعد الأخرى. ويذكر شاهد عيان أن العرب ما كانوا يملكون بقرية؛ إلا وقد سحقت وأكلت، وأهلها عراة أمام حيطانها^(٥). ولدينا وصف استيلاء العرب على القيروان -العاصمة العربية القديمة- فقد استولوا عليها بقيادة مؤسس بن يحيى الرياحي، بناء على خطة محكمة^(٦)؛ إذ كان العرب لا يبادرونها بالمهاجمة، وإنما يهاجمون ضواحيها، حتى

(١) للمبر، ٦ ص ٥. هو تقدير ابن ربيق. انظر. l'Afrique; Paris, 1977, l, Marmol Caravajal. Histoire et Description de l'Afrique; trad Pary. London, 1895, : Leon l'African P.275 ; Les Arabes, P. 113.: Marçais , I, P. 139

(٢) مثلاً، لبعض من القدامى؛ ابن خلدون؛ انظر.

Ency. de l'Is, (art. al-Mustansir) t 3 , P. 832.

(٣) مثلاً، الكامل، ٨ ص ٥٥ وما بعدها؛ البيان، ١ ص ١٧ وما بعدها .

(٤) البيان، ١ ص ٤١٦ .

(٥) نفسه، ص ٤٢٢ .

(٦) فقد أراد العرب أن يتقدموا لمحاصرة القيروان؛ فقال لهم مؤسس؛ ليست المبادرة عندي برأي، فقاتلوا؛ كيف تحب أن نصنع؟ فأخذ بساطاً فبسطه، ثم قال لهم؛ من يدخل وسط البساط من غير أن يمشي عليه؟ قالوا؛ لا يقدر على ذلك، قال؛ هكذا القيروان، خذوا شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى إلا القيروان فخذوها؛ فحينئذ قالوا؛ إنك شيخ العرب وأميرها.

اضطر أهلها إلى الفرار. ومع أن المعزّ بن باديس لم يهتم بالعرب في أول الأمر، إلا أنه عمل على أن يدخل ضدّهم في موقعة حاسمة دفاعاً عن القيروان. فخرج في ثلاثين ألف فارس ومثلها رجالة من عبّيده ومعهم عرب القيروان وصنهاجة وزنّانة، ولكن اتفق عرب القيروان مع عرب مصر بحكم ميل العرب بعضهم إلى بعض؛ كما أن صنهاجة انسحبت أو فرت بسبب أنها حليفة الفاطميين؛ مما مهّد إلى هزيمة المعزّ بن باديس. وقد سميت الموقعة بالعين؛ بسبب أن جند المعزّ كانت تلبس الكزّاغندات^(١) مفرداً كزّاغند - وهي سترات مبطنّة أي دروع، والمفافر - مفرداً مففر - وهي خوذة أو أردية، فلم يكن هناك مجال إلا بخسريهم في الأعين. ويبدو أن المعزّ بن باديس حاول من جديد صد العرب عن القيروان دون جدوى، وبعدها هرب المعزّ بن باديس إلى المنصورية - عاصمة الزيريين - فسار العرب إليها وحاصروها، وسقطت في أيديهم. فانتقل المعزّ بن باديس إلى المهديّة عاصمة الفاطميين الأولى بالمغرب، فحاصروه فيها سنة ٤٤٩/١٠٥٧.. وقد كان يتبع سقوط المدن في أيدي العرب، تعامل أهلها بالسكّة - أي العملة - المستنصرية، وإعلان الخطبة للمستنصر؛ كما كان يولى عليها ولاية من قبل الخلافة الفاطمية^(٢).

ولكن العرب اختلفوا وهم الذين كانوا دائمي الاختلاف فيما بينهم، حتى أنهم لم يرتحلوا من مصر، قبل أن يصلح اليازوردي زغبة ورياح^(٣)، وربما يكون المعزّ ابن باديس هو الذي دس بينهم. فأسرع المستنصر كما يظهر من سجل له صدر في ٤٥٥/١٠٦٣ (٤)، بإرسال مندوب عنه اسمه: الأمير أمين الدولة ومكينها

(١) الكزّاغند سترة مبطنّة بالقطن والحريير. عن الكزّاغندات؛ انظر.

Suppl, 2, P.462 : Dozy

Die Waffen. Leipzig, 1886, P. 334. : Schwarzlose

؛ ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ٣٢١ وهامش.

عن مفافر، انظر. Dozy. Suppl, 2, P. 21. هي كلمة تعني العمائم أو الأردية.

(٢) سجل، ٥ ص ٤٤.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ٣ ص ١٧٠ عن قبيلة رياح، انظر.

Ency de l'Isi, (art. Riyâh) t 2, P 1242.

(٤) سجل ٥ ص ٤٢-٤٥

-حسن بن علي بن ملهم- ليؤلف بين قلوب العرب على قتال المعز بن باديس. وقد نجح هذا الأمير في مهمته، وعادت قبائل العرب إلى الهجوم بقوة؛ فاستولت على مدن كثيرة، في حصون البحر وضواحي البر، منها قابس^(١) قرب المهديّة، بحيث منعت ابن باديس- ويسميه في السجل اللعين- أن يبل ريقاً، وسد لأنفاسه طريقاً. كذلك يذكر السجل ذاته، أن بعض أسرة المعز بن باديس أسرعوا إلى التسليم، بمن فيهم من شخصيات هامه مثل ابن بلكين صهر المعز وزوج أخته، وابن يلمو، وابن حماد من كبار القوم؛ كما أن عدداً كبيراً من شيوخ صنهاجة، وحجيجا كثيراً كانوا انقطعوا عن الحج منذ أن قطعت العلاقات وردوا مصر. كذلك يذكر المقرئ في مخطوطة طوب قهو سراي الموجودة بتركيا؛ أنه أرسلت إلى القاهرة تحف وأسلحة وعدد وآلات وخيام وغيرها؛ مما نهب من قصور بني باديس- مثلما حدث حينما نجحت ثورة البساسيري في العراق- حيث كان ليوم دخولها إلى القاهرة، أمر عظيم من اجتماع الناس^(٢).

ويبدو أن موقف المعز بن باديس صار حرجاً؛ بحيث إنه أصبح على وشك السقوط، كما يذكر السجل. ولم يقف الأمر عند هجوم العرب عليه، بل نافقت عليه المدن الخاضعة له مثل سوسة، على البحر بإفريقية^(٣). ومع ذلك لم تذهب دولته نهائياً، كما يذكر الإدريسي، بل لعله عاد إلى طاعة المستنصر وتاب^(٤). ولا يمكن أن يكون المعز بن باديس توفي في ١٠٦٠/٤٥٢ أو في ١٠٦١/٤٥٣ أو في ١٠٦٢/٤٥٤^(٥)؛ وإنما هو بعد سنة ١٠٦٣/٤٥٥، أو في هذه السنة، بتدليل السجل السابق ودوايات مؤرخين آخرين، وقيل إن موته كان بالبرص.

فتولى بعده ابنه تميم^(٦) (ت ١١٠٨/٥٠١)، الذي نكر عنه أنه كان عاصياً على أبيه. وقد كان في نزاع دائم مع بعض مدن دولته المتفرقة مثل

(١) عنها؛ معجم البلدان، ٧ ص ٢-٣؛ انظر. ماجد والينا، الأطلس، خريطة.
(٢) انظر. مختار، السياسة الفاطمية، ص ٢٢٤. يعتمد على نص مخطوط.
(٣) البيان، ١ ص ٤٢٨. عنها؛ معجم البلدان، ٥ ص ١٧٣؛ انظر. ماجد والينا، الأطلس، خريطة، رقم ١٠.

(٤) عيون الأخبار، ٧ ورقة ٧٥؛ انظر. H.R.Idris.

Sur le retour des Zirides à l'obédience fatimide, dans. AIEO. Alger 1934

(٥) الكامل، ٨ ص ١٥٨ س ٣٢؛ المختصر، ٢ ص ١٨٠؛ البيان، ١ ص ٤٢٧؛ شذرات، ٣ ص ٢٩٤.

(٦) عنه؛ وفيات، ١ ص ١٧٢-١٧٤؛ البيان، ١ ص ٤٣٥.

سفاقس^(١)، الواقعة على ضفة البحر بجوار المهديّة؛ حيث ثار فيها أحد أفراد أسرته، كما استولت قبيلة بربرية، اسمها هواره على بعض بلاده^(٢) بل كان تميم نفسه يطلب معاونة العرب، وأنكح بناته أمراءهم؛ إذ كان لديه أسرة كبيرة، له فيها مائة ولد^(٣) ويبدو أنه بقي في المهديّة كعاصمة له، إذ توفي بها في ١١٠٧/٥٠١؛ وإن كان العرب قد عادوا إلى حصارها في ١٠٨٣/٤٧٦^(٤)؛ ولكنهم هزموا، ولعله هو الآخر اعترف بالخلافة الفاطمية؛ حيث عادت العملة باسم المستنصر إلى الظهور في المهديّة من ١٠٦٢/٤٥٤ إلى ١٠٦٥/٤٥٧^(٥). ولكن لما ظهرت دولة بربرية عرفت بدولة المرابطين^(٦) أو الملثمين في جنوب المغرب ملاصقة للصحراء، من قبيلة صنهاجة في الجنوب في ١٠٥٥/٤٤٧ أو في ١٠٥٦/٤٤٨، خضع لها. ولما تولى بعده ابنه يحيى بن تميم اعترف بالفاطميين أيضاً، ووصلته هدية منهم؛ كما تسلم على بن يحيى هو الآخر هدية^(٧). أما ولده حسن؛ فإنه لما هاجم الفرنجة المهديّة -العاصمة- أراد الرحيل إلى مصر ليلتجئ إلى الحافظ الفاطمي^(٨)؛ وإن كان ما لبث أن خضع للموحدين الذين سيطروا في المغرب بعد المرابطون، وهلك في رحلته إلى مراكش عاصمتهم، وهو آخر من ملك إفريقية من أسرته، وعلى يده انقرضت دولة الزيريين. كل هذا يدل على أن الزيريين اضطروا أمام غزوة الهلاليين إلى العودة إلى طاعة الفاطميين والسعي إلى مودتهم.

(١) البيان ١ ص ٤٢٨؛ الكامل، ٨ ص ٩٥-٩٦. عنها، انظر. معجم البلدان ٥ ص ٨٧-٨٨.

(٢) الكامل، ٨ ص ١٤٧

(٣) العبر، ٦ ص ٢٩، ١٦، ١٥

(٤) البيان ١٠ ص ٤٢١

(٥) انظر Lane-Poole، Hist، P. 138 n(T).

في عملة زيرية، ليس عليها اسم الزيريين؛ وإن كانت باسم المستنصر بالله.

Catalogue .B.EO ؛ XXIV Damas، 1971، P 24.: Launois.

(٦) وهي نسبة إلى الرباط الذي أنشأه فقيه اسمه عبد الله بن ياسين، كان ينشر أحكام الشرع

بين القبائل، ونسبة إلى اللثام، الذي كان البربر يلبسونه في الصحراء من الحر والبرد

الكامل، ٨ ص ٧٤-٧٦. انظر حسن محمود قيام دولة المرابطيين القاهرة ١٩٥٧ انظر

(٧) البيان، ١ ص ٤٢١ ٤٤٢

(٨) العبر ٦ صفحة ١٦ البيان ١ ص ٣١٢ ابن القطان نظم الجمار ص ٢٤ وهامش

وفى الوقت الذى تمكن العرب فيه من القضاء على سلطان الزيريين، عملوا على السير نحو المغرب الأوسط ضد دولة بنى حمّاد، ولا سيما من ١٠٦٥/٤٥٧، وكان انسياحهم فيها يشبه انسياحهم فى دولة الزيريين؛ وإن كان أكثر صعوبة بسبب كون دولة بنى حمّاد جبالا وعرة، وتكثر فيها القلاع. ومع ذلك استولى العرب على هذه القلاع، ولا سيما قلعة حمّاد ذاتها؛ بحيث بنى الناصر بن علناس بن محمد بن حمّاد مدينة بجاية (باغاية) على البحر^(١)، وتعرف أيضا باسم الناصرية على اسم بانيتها كعاصمة. وكما لم يقض العرب على الدولة الزيرية، لم يقضوا على دولة بنى حمّاد؛ وكانت هى الأخرى تصالحهم، وتدفع لهم الإتاوة. بل إن دولة بنى حمّاد استفادت من كسر شوكة صنهاجة؛ بحيث أن تميماً سعى إلى مصالحتها فى ١٠٧٧/٤٧٠^(٢). ولكن لا يبدو أنه حدث اتفاق جدى بين الدولتين للقضاء على الخطر الفاطمى عليهما، بدليل استعانة الطرفين بالعرب فى منافستهما.

كذلك انتشر العرب فى المغرب الأقصى؛ حيث حدثت مصادمات عنيفة بين قبائل بنى هلال العربية وزناتة من البربر، خلّدتها قصة بنى هلال، التى وصفت لنا البطل أبا زيد الهلالي وعدوه خليفة الزناتى، وهذه القصة كبرها المصريون، بما أضافوه إليها من خيالهم^(٣). وربما يكون حكام الأندلس سعوا إلى الاستعانة ببنى هلال ضد الأسبان^(٤)، الذين كانوا يقومون بحركة الاسترداد "Reconquista"؛ إلا أنهم خافوا إذا وصلوا أن يخرّبوا البلاد، ويهاجموا سكانها من دون الفرنجة.

وعلى كل حال نجحت الدولة الفاطمية - بإرسال العرب - فى القضاء على نفوذ أعدائها الزيريين والحماديين. ولكن مثلما حدث فى العراق؛ لم تنتفع الدولة

(١) البهتان، ١ ص ٤٢٩-٤٣٠؛ الكامل، ٨ ص ١٠٢؛ المسبب، ٢ ص ٤٦؛ انظر. Op.Cit.P.198.Marçais؛ يونس، الهلالية، ص ١٠١ وما بعدها. عن بجاية؛ معجم البلدان، ٢ ص ٦٣.

(٢) الكامل، ٨ ص ١٢٤-١٢٥؛ البهتان، ١ ص ٤٣٠.

(٣) عنها بالتفاصيل، انظر يونس، الهلالية.

(٤) الكامل، ٨ ص ١٤١ س ٢٦-٢٧.

الفاطمية بهذه الانتصارات الباهرة. وقد كان السبب الأكبر هذه المرة - مثلما كان بالنسبة للعراق - سوء التصرف، ولا سيما ما حدث من كوارث للخلافة في مصر من فساد السلطة التنفيذية، وثورات للجند ومجاعات؛ مما كان يشغلها عن الاهتمام بالمغرب. يضاف إلى ذلك أن العرب لما بعدوا عن مصر، لم يعد يربطهم بها شيء؛ كما أن هذه القبائل نفسها لم تتحد في دولة؛ فأخذت كل قبيلة تعمل لحسابها، وتبيع المدن التي تستولى عليها للقواد المغاربة مثل القيروان^(١)؛ كما تحولت إلى قبائل يقاتل بعضها بعضاً، فمثلاً في ٤٦٧/١٠٧٤، قامت حرب شديدة بين بني رياح وزغبة^(٢)؛ إذ يبدو أن عداوتها لم تنته على الرغم من مصالحة الخلافة الفاطمية بينهما، ونتيجة لغوضى العرب تحولت البلاد التي نزلوا بها إلى أتون ملتهب من الاضطراب^(٣). ومع ذلك، فإن غزو العرب للمغرب يعتبر حدثاً هاماً في تاريخه "Tournant de l'histoire"؛ لما ترتب عليه من تغيير عنصرى. بحيث تحول الجزء الأكبر من أهله إلى عرب ومسلمين^(٤)، نلمس أثره حتى الآن^(٥)، حيث أثرت لغة التخاطب لقبائل بني هلال في اللسان البربري بالتدريج، الذي كان طاغياً على اللسان العربي، وسارت عملية الاستعراب بسير عملية المزج والاحتكاك من وقتذاك.

*

وإذا تكلمنا عن المغرب، يجب أن نذكر صِقلية، وهي جزيرة مثلثة الشكل، مقابلة لساحل المغرب. وقد سعى المسلمون إلى السيطرة عليها منذ أن فتحوا المغرب، وقدروا أهمية موقعها الجغرافي، لقربها منه، ولا سيما أن الروم كانوا قد

(١) نفسه، ٨ ص ١٠٤.

(٢) نفسه، ٨ ص ١٢١.

(٣) الدباغ، معالم الايمان، ٣ ص ٢٥٢.

(٤) أنظر. Coup d'oeil sur l'Islam en Berbérie. Paris, 1913, P. 24. Bel.

(٥) أنظر. Op. Cit, P. 205 sqq, Marçais.

انسحبوا إليها بجيوشهم من المغرب، واتخذوا من موانئها قواعد للقرصنة، وأنشأوا فيها مخابى لمراكبهم، فأغار العرب عليها منذ عهد معاوية.

ولكن لم يتيسر فتحها، إلا في عهد دولة الأغالبة، وهي التي كانت قد استقلت بإفريقية (تونس)، قبل مجئ الفاطميين، فقد انتهزت دولة الأغالبة وجود ثورة في صقلية ضد حكامها الروم؛ فقامت بغزوها في ٢١٢ / ٨٢٧^(١)؛ كما استولت على مالطة^(٢) في ٢٢١ / ٨٣٥ - ٣٦ أو في ٢٥٦ / ٨٦٩ - ٨٧٠. فضلاً عن أنها استولت على جنوب إيطاليا؛ وهي كالبريا التي سماها العرب قَلْبُورِيَّة^(٣)، فاستولوا عليها في غارات متعددة، ووصلوا إلى رومية (روما) في الأرض الكبيرة (أوربا) في سنة ٢٣١ / ٨٤٦، وبها يسكن البابا الذي هو رئيس النصرانية الغربية، فدخلوا نهر التيبر، وأحرقوا المدينة، ونهبوا كنائس القديس بطرس "Pietro" وبولص "Paolo"، واضطر البابا ليو الرابع "Leo IV" أن يهتبي^(٤). ويفضل توسع الأغالبة في الأرض الكبيرة، أصبح البحر الأبيض بحيرة إسلامية، فكانت لا تسبح للنصرانية فيه سفن^(٥).

ولما أسس الفاطميون خلافتهم في المغرب بعد قضائهم على الأغالبة، استولوا على صقلية ومالطة وقَلْبُورِيَّة، عن طريق مؤيديهم من البربر؛ كإرث عن دولة الأغالبة^(٦)، التي تغلبوا عليها. هذا فضلاً عن إدراك الفاطميين أهمية هذه الجزيرة في الجهاد، الذي جعلوه دعامة من دعائم العقيدة الإسلامية الشيعية.

(١) أمارى، المكتبة الصقلية، Biblioteca Arabo-Sicula، ص ٤٢٨؛ الكامل، ص ١٨٦ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isi, (art. Sicile) t 4, P. 414 sqq.;

إحسان عباس، العرب في صقلية، ط. دار المعارف، ص ٣١ وما بعدها. عن صقلية، انظر. معجم البلدان، ص ٣٧٣ وما بعدها.

(٢) عن مالطة؛ الكامل، ص ٨، ١٥٩ (يفهم ضمناً استيلاء المسلمين عليها)؛ انظر. Ency. de l'Isi, (art. Malte) t 3., P. 227 sqq.

(٣) الكامل ص ٢٥٢، ٢٦٧. عنها؛ معجم البلدان، ص ٧، ١٥٢ - ١٥٣.

(٤) لم يرد عن ذلك شيء في المصادر العربية القديمة. انظر. Le poème de la destruction de Rome Mélange de l'École de Rome, XIV, 1899, pp. 307-91. ، نقلاً عن زيادة،

صور من التاريخ العربي، ص ٤٨؛ Reinaud؛ P. 63. : Invasions. عن رومية، انظر. معجم البلدان، ص ٤، ٢٢١ وما بعدها.

(٥) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٠١.

(٦) نفسه.

وقد ترددت أحاديث نبوية، نقلت عن الأئمة الفاطميين أنفسهم عن أخذ روميّة، وهي غير الأحاديث النبوية التي تردت عن أخذ القسطنطينية، وأن أخذ روميّة يكون على يد المهدي أو الفاطمي المنتظر، ويقصد به مهدي الفاطميين؛ كما ورد في مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس (B.N)، بعنوان: شمس الغيوب من حناديس القلوب^(١). ولا ريب فقد احتلت روميّة مركزاً مهماً في أوربا؛ بسبب اعتمادها في نفوذها على الفرنجة، الذين أصبحوا منافسين أقوياء للروم، في ميدان الزعامة على المسيحية.

ولذلك نجد أن الفاطميين يستولون على صقلية إثر فتنة ضد واليها الأغلب، وهي فتنة تبدو مؤيدة من قبل البربر -المغاربة- الذين يكونون غالبية الغزاة في صقلية، إذ أيد البربر -كما نعرف- الفاطميين، وساعدوا على قيام دولتهم في إفريقية مكان الأغالبة. فولى المهدي - أول خلفاء الفاطميين - على صقلية والياً اسمه: الحسن بن أحمد بن أبي خنزير الكتامي^(٢)، مكافأة للكتاميين، الذين كانوا أول من عمل على قيام دولة الفاطميين. ولكن العرب من جند صقلية ثاروا على الوالي المغربي، وأقاموا والياً عليهم اسمه أبو الفوارس؛ وإن نجح البربر في أن يولوا والياً جديداً اسمه علي بن عمرو البلوي.

وكان من عدم استقرار ملك الفاطميين في أواخر حكم المهدي، أن جعل حكم صقلية من قبلهم أيضاً غير مستقر. فحدثت في صقلية فتن كثيرة، أهمها فتنة أحمد بن زيادة الله بن قرهب في سنة ٩١٢/٣٠٠، وهو من أقارب الأغالبة^(٣)، الذي رفض أن يتولى على أهل صقلية في أول الأمر، ولكن العرب عملوا على توليته. وكان ابن قرهب في أول ولايته، يخضع للمهدي الفاطمي، ولكنه انقلب عليه بعد ذلك، ولم يكتف بالاستقلال بصقلية؛ وإنما جعل الخطبة

(١) وهي برقم ٢٦٦٩، ورلة ١٤٨؛ انظر. Abel.

Un Hadît sur la prise de Rome dans la tradition eschatologique de l'Islam. Arabica, tv . Jan, 1958. Fase 1, P. 1 sqq.

حسّن إبراهيم، عبّيد الله المهدي، مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، بالاشتراك مع طه شرف، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٩٩؛ مساجد، العلاقات بين الشرق والمغرب في العصور الوسطى، ص ١٠٦. عن ذلك، انظر. مقدمة ابن خلدون، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٢) المكتبة الصقلية، ص ٢٥٠ وما بعدها. نقلاً عن الكامل لابن الأثير.

(٣) ابن الخطيب، أعمال، ص ١٢٠.

على المنابر للعباسيين أعداء الفاطميين، وأرسل ضد هؤلاء أساطيله نحو إفريقيا. ثم حدثت فتنة ضد ابن قرهب بتحريض من المهدي، فأراد ابن قرهب الهروب إلى الأندلس، ولكن جند صقلية من البربر سلموه للمهدي الذي قتله في ٩١٦/٣٠٤^(١)، ولم يلبث المهدي أن أرسل أسطوله ليحارب العرب في صقلية، وأخضع العرب للبربر.

ولما قلب البربر ظهر المجن للفاطميين في المغرب، في عهد القائم، ومن بعده المنصور- ولا سيما فتنة أبي يزيد، الملقب بصاحب الحمار- ضعف مركز الفاطميين في صقلية، فكان يتولاها الولاة المتغلبون. يضاف إلى ذلك، أن أهل المدن المسيحية في صقلية، انتهزوا الاضطراب بتنازع العرب والبربر للقيام بالثورة ضد الحكم الإسلامي، وبخاصة أن بعض مدن صقلية لم تكن قد فتحت بعد، فكانت تستعين في ثورتها بالروم. وكان المؤيدون للحكم الفاطمي في صقلية، يحاربون سكان المدن المسيحية النائرة. ويحاربون في الوقت عينه البربر، الذين أصبحوا أعداء الحكم الفاطمي.

ولكن في حوالى سنة ٩٤٥/٢٣٤، ولي المنصور الفاطمي الذي تغلب على فتنة مخلد بن كيداد، والياً على صقلية من أصل عربي أو عربي بالولاء، اسمه: حسن (الحسن) بن علي بن أبي الحسين الكلبي الكتامي^(٢)؛ حيث كان لأفراد أسرته مواقف جلية في خدمة الخلافة الفاطمية في أثناء فتنة أبي يزيد. وقد تمكن الحسن بنفوذ ودهائه أن يعيد السلام إلى ربوع الجزيرة بين العرب والبربر، وأن يعود إلى الجهاد الداخلي والخارجي.

وفي الواقع إن الفاطميين في ظل بنى أبي الحسين الكلبيين، استطاعوا أن يجاهدوا جهاداً لم يتهيا لهم مثله في أيام دولتهم. فكانوا يغزون مدناً رومية في صقلية؛ كما أرسلوا حملة بقيادة سالم بن راشد عبرت المجاز من مسيني، وثبتت سيادة المسلمين في قَلْبُورِيَّة^(٣). كذلك عادوا إلى غزو السواحل الإيطالية، ففتحوا

(١) نفسه، ص ١٩٦، ٢٥١ وما بعدها، ٣٦٤ وما بعدها. نقلاً عن يحيى بن سعيد الأنطاكي؛ ابن الأثير؛ وعن البهان المغرب. انظر. إحسان، العرب في صقلية ص ٤٠-٤١؛ Ency. of Isl. (art. Fâtîmids) 2ed. t3, P. 853.

(٢) العبر، ٢ من ٢٠٨. عن تتابع أسرته، انظر. زامباور، معجم الانساب، ترجمة عربية، ص ١٠٧.

(٣) المكتبة الصقلية، ص ٢٥٣. نقلاً عن الكامل لابن الأثير.

جنوا في ٣٣٢/٩٤٥^(١)، وأغاروا على قُورسقة وسَرْدَانِيَّة^(٢)؛ كما غزوا ساحل الريفيرا، وهو الذي عرفه العرب باسم: البحر الكبير من العدو الشمالية، والعدو هي المكان المتباعد. بل أرسل المعز الفاطمي - الذي ولّى بغداد المنصور من صقلية أسطولاً للمريّة - الميناء الأندلسي - أحرق جميع ما فيه من المراكب في ٣٤٤/٩٥٥^(٣)، للانتقام من الخلافة الأموية في الأندلس التي كانت تثير الفتن في المغرب، واختطفت مركباً فاطمياً، وتحالف مع الروم^(٤) ضدّهم، وعلى العكس من نجاح الفاطميين في جهادهم، نجد الروم الذي قوا بفضل الأسرة المقدونية التي تحكمهم، قد استولوا على الجزائر، التي كانت تخضع - ولو اسمياً - للعباسيين الضعاف، فاستولى الروم على أقريطش (كريت) في ٣٥٠/٩٦١. وبعد خمس سنين استولوا على قبرس^(٥)، حتى لم يعد للمسلمين سيطرة في شرقي البحر الأبيض، الذي عرف بالليفانت "Levant". ولعل الروم أرادوا استعانة صقلية، وكان من الممكن أن يغزوها؛ حيث بقيت فيها مدن مسيحية كثيرة، وبالفعل أنزلوا فيها جيوشهم، ولكن الخليفة المعز ثبت لهم^(٦). وتصف لنا سيرة جودر اهتمام المعز البالغ بالأسطول^(٧)، بإنشاء المراكب الحربية في المهديّة، وشراء حوائج الأسطول، وحمل الغدّة والسلاح والأطعمة إلى صقلية لنصرة العساكر. ويصف لنا ابن هاني الشاعر (ت ٣٦٢/٩٧٣)، الأسطول الفاطمي في غاراته، بقوله^(٨):

(١) المقدمة لابن خلدون، ص ٢٠١ من ٢؛ العبر، ٤ ص ٢٠٨؛ المكتبة الصقلية، ص ٤٦٢. نقلاً من كتاب العبر لابن خلدون.

(٢) المكتبة الصقلية، ص ٢١٧. نقلاً عن الكامل لابن الأثير. انظر.

Ency de l'Isi, t4, P. 167.

(٣) النعمان، المجالس والمسائرات، مخطوطة بجامعة القاهرة، برقم ٢١٦٦، ورفقت ٢٣٥-٢٣٩؛ تحقيق، ١ ص ١٦٥؛ المكتبة الصقلية، ص ٤٦٤؛ الكامل، ٦ ص ٢٤٩؛ انظر.

العدوي؛ الأساطيل المربية في البحر الأبيض المتوسط، القاهرة ١٩٥٧، ص ١١٦-١١٧.

(٤) دليل ذلك استقبال عبد الرحمن الناصر لرسول قسطنطين السابع، البيهقي، ٢ ص ٣١٩-٣٢٢.

(٥) معجم البلدان، ١ ص ٣١١-٣١٢، ٤ ص ٢٩٩-٣٠٠، ٧ ص ٣٦.

(٦) انظر. التفاصيل في: Ency de l'Isi, (art Sicile) ef.

(٧) سيرة جودر، ص ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١١٩.

(٨) تحقيق زاهد عليّ، بيروت ١٣٥٦ هـ، ص ٢٦.

لدينا شعر من الشاعر عليّ بن محمد الأيادي التونسي يصف فيه قوة الأسطول الفاطمي في عهد القائم. المقرئ، نفع الطيب، ٥ ص ١٩٩-٢٠٠؛ انظر. مختار العبادي، دراسات في

تاريخ المغرب والأندلس، ص ٦٨-٦٩.

عليها غمام، مكفهر صبيبره له بارقات جمّة ودرعود
إذا زفرت غيظاً، ترامت بمسارج كما شب من نار الجحيم وقود
فأفواههن الحاميات صواعق وأنفاسهن الزافرات حديد

ولما أنتقل الفاطميون من المغرب إلى مصر لم يرضوا التخلي عن حكم صقلية للمغاربة؛ كما فعلوا بالمغرب، وإنما فصلوا صقلية عن حكم المغرب، وجعلوها خاضعة لهم مباشرة، وذلك للاستمرار في الجهاد من ناحية، ولتكون قاعدة قد تهدد المغرب إذا حاول الانفصال. فأبقى المعزّ صقلية لأسرة بنى الحسين الكلبيين السابقة، فولاهما لأحمد بن حسن في ٩٦٣/٣٥٢؛ حيث جاء إلى المعزّ قبل مغادرته المغرب وحلف له يمين الولاء^(١). فكان حكم صقلية بهذه الأسرة، سبباً في استقرار أحوال الجزيرة، والاشتداد في الجهاد، فكان أفرادها يخرجون بأنفسهم للجهاد، حتى أن أبا القاسم بن حسن بن عليّ بن أبي الحسين، قتل في معركة مع الفرنجة في ٩٨٢/٣٧١^(٢)، وعرف بالشهيد لأنه استشهد في غزوته الخامسة بجنوب إيطاليا؛ وذلك بعد أن بقي في ولايتها اثنتي عشرة سنة، وهو الذي كان قد دوخ السواحل. ثم وليها من قبل العزيز يوسف بن عبد الله ابن محمد بن أبي الحسين، فلما أصابه فالج استناب ابنته جعفرأ في ٩٩٨/٣٨٨^(٣).

والذي جعل أمور الجهاد تسير بنشاط أيضاً، هو وجود دور صناعات السفن في مصر؛ حيث أن نواة الأسطول الفاطمي الكبير نشأت في مصر، على يد صناعها المصريين. والمعزّ نفسه أنشأ دار صناعة في مكان على النيل اسمه: المقس^(٤)، كان من أكبر دور الصناعات البحرية؛ إذ كان يتسع لستمائة سفينة، ولم

(١) الكامل، ٦ ص ٢٣٩؛ القريني، اتعاظ الحنفا، س ١٤٤ وهامش (٤)؛ ابن الخطيب، أعمال، ص ١٢٣.

(٢) المكتبة الصقلية، ص ٢٦٩. نقلاً عن ابن الأثير. الكامل، ٧ ص ١٠٩؛ البيان، ط. بيروت، ١ ص ٢٣٨. يقول ٩٨٢/٣٧٢. وايضاً ابن الخطيب، أعمال، ص ١٢٤.

(٣) الكامل، ٨ ص ١٥٧؛ انظر. Amari،

Storia dei Musulmani di Sicilia. Firenze, 1858, 2, P. 360 sqq.

(٤) الخطط، ٣ ص ٣١٧-٣١٨؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين الجزء الأول، فصل الأسطول.

تر مصر مثل هذا العدد من السفن من قبل. وكان لهذا الأسطول ديوان يسمى: «ديوان الجهاد»، ورجاله يسمون: «المجاهدين في سبيل الله»، وكان الخليفة الفاطمي يقوم بموادعة الأسطول، وتقام لذلك حفلة وداع توزع فيها النفقة والخلع والألقاب على رجال الأسطول. ولكن هذا الأسطول الضخم، أحرق في أيام العزيز، واتهمت به جالية الروم في مصر؛ وإن كان العزيز قد أمر بإعادة بنائه، وجمع الأخشاب من سائر أنحاء البلاد؛ حيث كانت مصر تزرع الغابات^(١)، كما طرد جزءاً كبيراً من جالية الروم في مصر. فكان أسطول الفاطميين في مصر هو الحارس لصقلية العربية.

وقد بقيت صقلية خاضعة للحاكم بعد العزيز؛ بالأخص بفضل أساليب الحاكم الماهرة. فلما بقي على ولاء يوسف وابنه جعفر، منح يوسف لقب ثقة الدولة وولده جعفر؛ تاج الدولة^(٢). ولما اسقط الحاكم الألقاب جميعها، لم يسقط لقب صاحب صقلية وولده، كما لم يسقط لقب صاحب إفريقية كما ذكرنا. وقد كانت صقلية تذكر في سجل قاضي القضاة. فقد ذكرت في سجل ابن أبي العوام سنة ١٠١٤/٤٠٥^(٣)؛ ولدينا من صقلية عملة مسكوكة باسم الحاكم^(٤).

وقد بقي جعفر -نيابة عن أبيه- ضابطاً للبلاد تخضع للخلافة الفاطمية. وذلك على الرغم من ثورات المغاربة، الذين كانوا قد قلبوا للفاطميين ظهر المجن في كل مكان. فلما قام المغاربة بفتنة كبرى في صقلية عام ١٠١٤/٤٠٥. تغلب عليهم جعفر، ونفاهم إلى إفريقية. ولكن المغاربة ما لبثوا أن أجبروا يوسف على نفي ابنه جعفر إلى مصر في ١٠١٩/٤١٠، فأرسله يوسف إلى الحاكم ومعه أموال كثيرة، وولى بدله ابناً آخر هو أحمد المعروف بالأكحل، الذي بقي على ولائه للفاطميين. على الرغم من استمرار ثورات المغاربة ضده مما مهد إلى ضعف سيطرة الفاطميين على صقلية.

(١) الخطط، ١، ١١٨، ٣، من ٣١٥؛ انظر. Bahgat

Les Forêts en Egypte. Mém de l'Inst. Eg. Le Cairo, 1900, P. 141 sqq

(٢) يحيى، ص ٢٢٢-٢٢٣؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٦٧.

(٣) ولاة، ص ٦١١.

(٤) انظر. Lavoix: Catalogue, P. 65; 67 (156-160).

وفى عهد الظاهر زادت المنازعات فى الجزيرة بين المغاربة من ناحية وجند نائب الفاطميين من ناحية أخرى. فقد ترك يوسف صقلية، وذهب إلى مصر ومات بها؛ وإن بقى فيها الأكل وحده يحاول إبقاء الخيط الواهى، الذى يربط الجزيرة بالفاطميين؛ فوصلتنا عملة باسم الظاهر^(١). وفوق ذلك؛ انتهز الروم هذه المنازعات؛ فأرادوا تحقيق مغانم خاصة، وتهديد السيطرة الفاطمية. فنجد ملك الروم باسيلوس الثانى "Basilius II Bulgaroctonos" (بسيل) فى ١٠٢٥/٤١٦ الذى كان يعادى الظاهر- يملك ما كان للمسلمين فى جزيرة قَلُورِيَّة^(٢) (كالبريا). ولما كان الظاهر منشغلاً بمشاكله الداخلية- فى الشام على الخصوص- فإن المعزُ بن باديس والى المغرب جهز أسطولاً عدده أربعمئة قطعة من المتطوعين. ولكن هذا الأسطول لما قرب من جزيرة قُوصرة المجاورة لساحل إفريقية؛ هبت عليه ريح شديدة ونوء عظيم. فغرق أكثره. وكذلك فعل رومانوس "Romanus III Argyrus" (أرمانوس) بمشروعاته فى غزو صقلية، وكان يحارب الظاهر فى الشام^(٣). وقد كانت صقلية هى السبب فى بقاء العداء قائماً بين رومانوس والظاهر- حتى بعد توقف العداء فى الشام- فقد رفض الملك الرومى أن يعقد مع الظاهر هدنة. إلا إذا تركه حراً فى محاربة صاحب صقلية. ولكن الظاهر- الذى كان شديد الرغبة فى مصالحة الروم- رفض الموافقة على ذلك^(٤).

وبعد ذلك، عقدت أرملة الظاهر- وهى أم المستنصر- حلفاً مع ميخائيل الرابع "Michael IV" فى ١٠٢٨/٤٢٩، فقد كان ميخائيل يسعى للمصالحة، لإعادة بناء كنيسة القيامة، كما عقد الأكل أمير صقلية حلفاً معه^(٥). ولكن ساءت الأحوال نهائياً، بالنسبة لسيطرة الفاطميين فى الجزيرة، بسبب تدخل المعزُ ابن باديس، الذى كان يسعى إلى الانفصال، فكان يدس فيها ضد الفاطميين، حتى

(١) انظر : Ibid, P. 87(217); 89(222); P. 93 (234-235).

.Storia, II, 276-7: Amari

(٢) الكامل، ٧ ص ٢٢٢.

(٣) انظر. قبله.

(٤) يحيى، ص ٢٧٠-٢٧١. وهذا ينفى قول "Cahen" إن إتفاقاً بين الظاهر والروم كان ممكناً.

انظر. Ency, (art. Fatimides) t 2, P. 872.

(٥) انظر. Regesten, 841, Dölger؛ أسد رستم، ٢ ص ٦٦؛ ماجد، الإمام المستنصر، ص

حدث بين الأكلح نائب الفاطميين وأهل صقلية وحشة، فأرسلوا إلى المعز ابن باديس يستعدونه على الأكلح^(١)، فأرسل جيشاً عليه ابنه عبد الله في ١٠٣٥/٤٢٧، فحصروا الأكلح وقتلوه، وحملوا رأسه إلى المعز بن باديس. ولكن أهل صقلية كرهوا عسكر المعز بن باديس فقاتلوه، وأرجعوهم بالمراكب، ولوا أخوا الأكلح الصمام بن يوسف.

ولم تلبث الأحوال أن اضطربت في الجزيرة نهائياً، وانفرد كل إنسان بهلد، وأصبحوا أشبه بملوك الطوائف في الأندلس. وقد كان أشهرهم هو ابن الثمثة^(٢)، الذي حكم سرقوسة-عاصمة الحاكم الرومي السابق- وغيرها من مدن كثيرة، وتلقب بالقادر بالله، وأصبح يعرف بصاحب صقلية. ولكي يحتفظ هؤلاء الحكام بأملاكهم من طمع المعز بن باديس، الذي انفصل نهائياً عن سيطرة الفاطميين، كانوا يبتقون على الخيط الواهي الذي يربطهم بالفاطميين، فيصدرون عملة باسم المستنصر، واستمر ذلك إلى آخر سنة ١٠٦٤/٤٥٦^(٣). كذلك كان بعضهم يحمل المال إلى المستنصر؛ فكانت تغادر صقلية كل سنة سفينة تحمل المال إلى مصر؛ كما كان يجلب منها كتان رقيق وثياب منقوشة^(٤). وقد استغل الفاطميون من جانبهم هؤلاء الحكام بالتحريض ضد المعز بن باديس في إفريقية؛ فقد حرض اليازوري أهل صقلية ضد المعز بن باديس^(٥).

وبسبب تطاحن أهل صقلية من ناحية؛ ودس المعز باديس من ناحية أخرى، تشجع أعداء المسلمين بالهجوم على الجزيرة. فقد غزا الروم صقلية من جديد بقيادة منياكس "Maniakēs" في أوائل عهد المستنصر في ٤٣٠ إلى ١٠٣٨/٤٣٢-١٠٤٠^(٦). ولكنه فشل وقوى المسلمون الذين طردوا كل رومي من

(١) العبر، ٤ ص ٢١٠.

(٢) نفسه، ٤ ص ٢١١.

(٣) أنظر . Lavoix . Cat, P. 122(320). قيل إلى آخر سنة ١٠٥٧/٤٤٨. أنظر. Lane-Poole Hist, P. 138n (2).

(٤) سفر نامه، ص ٤٥. كانت صقلية على بعد عشرين يوماً بالسفن من مصر.

(٥) ابن حجر، رفع الإصر، ورقة ٨٥.

(٦) العيني، تاريخ، ورقة ١٨ ب؛ أنظر. Michel Psellos.

Chronographia, ed et trad. Reinaud. Paris, 1828, 11, P. 31-46;

L'épopée byzantine à la fin du Xe siècle, t3, 1905 P. 227 sqq. :Schlumberger

: أسد رستم، الروم، ٢ ص ٦٦؛

Le Monde Oriental, t 3, P. 545. : Diehl et Marçais

الجزيرة، وكان ذلك بمساعدة الزيريين، وليس الفاطميين؛ فقد كان جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن المعز بن باديس. وما لبث أن هدد صقلية عنصر قوى من أهل أوروبا عرف بالنورمان وسماهم العرب بالتسمية العامة بالفرنج^(١). وقد ظهر النورمان في الوقت الذي ظهر فيه السويديون، وغزوا إنجلترا في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي وتحولوا فيها إلى النصرانية، ثم انتقلوا إلى فرنسا واستقروا فيها بالمنطقة الشمالية، التي عرفت باسم نورمانديا (أرمنديا)، ثم هجموا على سواحل الأندلس، التي بها المسلمون في سنة ٢٢٩/٩٤٤^(٢)، وعرفوا باسم المجوس؛ كما هجموا على سواحل المغرب في مدينة أصيلا (أرزيلة)^(٣)، وذلك في أيام الأدارسة قبل مجيء الفاطميين. وبعد ذلك دخلوا البحر الأبيض، وركزوا هجومهم على سواحل الأندلس ضد مملكة الروم بقيادة زعيمهم روبرت جيسكارد "Robert Guiscard" وحاولوا أن يقضوا على نفوذها في هذه الناحية ولكن الروم بقيادة قسطنطين التاسع "Cosantinus Monomachus" المعاصر للمستنصر -وقفوا تقدم النورمان نحو القسطنطينية^(٤)، لذلك ركز النورمان جهودهم ضد صقلية، ابتداء من سنة ١٠٥٢/٤٤٤، فأخذوا يستولون عليها، ويهجروا أهلها المسلمون.

وقد تطوع ابن الثمثة -أحد الولاة^(٥) المستقلين أن يملك النورمان صقلية. ولعل السبب في ذلك أن ابن الثمثة بعث يطلب مالا من المستنصر، وكان المستنصر عاجزاً عما طلب منه للأزمة الاقتصادية في مصرفي في ذلك الوقت؛ فبعث ابن الثمثة إلى الفرنج، وفتح لهم الأبواب. وقد حاول المعز بن باديس أن ينقذ صقلية بأسطول كبير شحنته بالرجال؛ إلا أن الأسطول غرق^(٦)، فكان غرقه مما

(١) ابن جبير، رحلة، ص ٣٢٢.

(٢) الكامل، ص ٢٧٢.

(٣) البيان، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٤) انظر. Byzance. P 278-9 Bréhier . Alexiade II, 17-57, Anne Comnène

رستم، الروم، ص ٢، ٩، ١٢٢

(٥) النجوم، ص ٨٧

(٦) الكامل، ص ٨، ١٥٨ انظر Amani

أضعف المعز بن باديس أمام العرب؛ بحيث سهل انشغاله عن صقلية غزو النورمان. كذلك حاول تميم بن المعز أن ينقذ الجزيرة من النورمان، فأرسل أسطولاً بقيادة ابنه أيوب وعلى؛ ومع أن المسلمين في صقلية سرّوا بمقدم هذه المعونة؛ ولكن بسبب وجود العبيد في جيش تميم، كرههم على صقلية، ورجع الأسطول في ١٠٦٨/٤٦١؛ بحيث تركت صقلية للنورمان يتوغلون فيها، ولم يبق للنورمان مانع. فاستولى ملكهم رجار الأول (Rogerol) على الجزيرة بأجمعها في سنة ١٠٩١/٤٨٤^(١)، وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين؛ كما أنه استولى على مالطة في ١٠٩٠/٤٨٣. ولم يكتف النورمان بأخذ صقلية من المسلمين؛ وإنما هاجموا ساحل المغرب^(٢) ومعهم الروم والجنوبيون والبيزيون؛ فكان الجنوبيون^(٣) يقومون بمعارك بحرية مستمرة مع الفاطميين. فاستولوا على طرابلس الغرب في ١١٤٦/٥٤١؛ والمهدية عاصمة الفاطميين السابقة في ١١٤٨/٥٤٣، ووصلوا حتى زويلة في الجنوب. وقد استمرت طرابلس والمهدية في أيدي النورمان إلى أن طردتهم منهما دولة الموحدين المغربية، التي نشأت في المغرب الأقصى، وقد كان أخذ النورمان هاتين المدينتين، وإغارتهم على غيرهما من مدن المغرب، سبباً في جعل حدود الدولة الفاطمية تقف عند برقة.

وعلى العكس لم يحاول الفاطميون العمل على محاربة النورمان أو التعاضد مع الزيريين في سبيل ذلك؛ بسبب سوء أحوال دولتهم في آخر أيام المستنصر وبعده. بل وجدنا الخلفاء الفاطميين بعد المستنصر يقيمون علاقات سلمية مع النورمان وكذا تجارية. ولدينا خطاب مرسل من الحافظ إلى روجر الثاني "Roger II"^(٤)، يتبين منه العلاقات السلمية بين الفاطميين والنورمان، وخصوصاً أن

(١) الكامل، ٨ ص ١٢٩.

(٢) البيان، ١ ص ٤٣٤؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٠١؛ الكامل، ٨ ص ١٤٧، ١٥٠؛ العبر، ٦ ص ١٦٢؛ انظر.

Storia, 2, P. 170. Amari

Ency de l'Isl, (art. Tripoli) t 4, P 858;

Histoire de l'Afrique du Nord. Paris, 1952, P. 107; Julien;

Krusger: Genoese Trade with, north west Africa in the Twelfth Century Spec- (٢) انظر. ulum, VIII, 3, July, 1933, P. 377 sqq.

(٤) صبح، ٦ ص ٤٥٨-٤٦٢؛ انظر. Canard.

Une lettre du Calife Fatimite al-Hâfiz (524-542-II30/II49) à Roger II, Palerme, 1955,

P. 125-146;

La Politique arabe des Normands de Sicile. Sividia Islamica.IX, Paris,: Gabrieli 1958,P. 86.

؛ ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ١٢٦.

هؤلاء بسبب وجود رعاياهم المسلمين، عملوا من ناحيتهم على تحسين علاقاتهم بالمسلمين خارج مِصْرَ، ولكن ظهور ملوك متعصبين منهم، ومشاركتهم الصليبيين الذين هددوا الشرق الأوسط؛ جعلتهم يغيرون من سياستهم نحو الفاطميين، حتى أنهم اغاروا على موانئ مصر، مثل: تنيس ودمياط والإسكندرية^(١)، في آخر أيام الدولة الفاطمية.

* * *

وبالإجمال؛ فإن الأملاك الواسعة التي ورثتها الخلافة الفاطمية بدأت تتقلص، وإن كان مجهودها في الاحتفاظ بها كان كبيراً.

(٢) أنظر. Storia Index, cf. Amari

Ency.(art. Fatimides) tp 875.

وذلك في سنة ١١٥٣/٥٤٨ و ١١٥٥/٥٥٠ و ١١٦٩/٥٦٥ و ١١٧٤/٥٦٩

الفصل الخامس

السياسة الداخلية

أهدافها-

- الإدارة- التنظيم المالي-
- التجارة والصناعة- رخاء الدولة
- والناس- إحلال التشريع الشيعي
- وخصائص المذهب- الأعياد المذهبية-
- الدعوة الفاطمية- الغلو في ذات
- الإمام- معاملة أهل السنة-
- معاملة أهل الذمة

السياسة الداخلية

بعد ذلك نلقى نظرة شاملة على سياسة الفاطميين في مصر، التي اتخذوها قاعدة لحكمهم، ومركزاً لتحقيق أهدافهم، وخصوصاً أن المعزّ الفاطمي حينما دخل مصر، دخلها ومعه توابيت آبائه^(١)، الذين ماتوا بالمغرب؛ مما يدل على أنه كان يستهدف الاستقرار نهائياً في مصر.

ولا ريب أن المصريين قبلوا حكم الفاطميين عن رضاء تام، فنعرف أن هؤلاء جاءوا إلى مصر بناء على دعوة أهلها^(٢)، ولم يكن العصر عصر القوميات، حتى يظهر مصري، يحصل لبلاده على حكم مصري خالص. فهذه الأفكار في الوطنية لم يكن لها وجود في ذلك العصر؛ لأن الفكرة المسيطرة على الناس وقتئذ، هي أن تضمهم الخلافة الإسلامية، التي ينضوي تحت لوائها جميع المسلمين في دار الإسلام، ومن المفروض أن تكون عصبيتها في قریش، على حسب ما سن في سقيفة بنى ساعدة، بعد وفاة النبي. لذلك لم يطمع المصريون في حكم أنفسهم بأنفسهم بقدر ما يطمعون في أن تحكمهم أسرة من سلالة النبي من قریش. ولو لم يقبلوا ذلك، لاعتبروا خارجين على مبدأ الخلافة، أو بمعنى آخر على المبدأ الدستوري القائم، الذي كان يحكم بلاد الإسلام، طوال العصور الوسطى.

ومن ناحية الفاطميين أنفسهم؛ فقد كان همهم استمالة المصريين، حتى يتفرغوا لأهدافهم الثورية في توحيد الإسلام تحت رايتهم، وفي نشر مذهبهم الشيعي، وهي الأهداف التي من أجلها انتقلوا من المغرب إلى مصر. لذلك حينما دخلوا مصر لم يدخلوها بخول الغزاة المنتقمين، وإنما كان همهم اكتساب أهل مصر إلى جانبهم، فأعلنوا لأهلها الأمان بمجرد أن طلبوه^(٣)، وجددوه لهم عدة مرات، بقصد إظهار نياتهم الأكيدة في التقرب إليهم. وحتى لا يتضايق المصريون، فإنهم لم يسمحوا للمغاربة الذين يكونون معظم جيشهم، بالسكن في مدينة

(١) أنظر. قبله.

(٢) إتعاظ، ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) أنظر. قبله.

الفُسطاط فكان منادى جوهر^(١) -قائد الجيش- ينادى كل عشية، لا يبقى في المدينة أحد من المغاربة، ووجد بعض المغاربة، الذين ضابطوا المصريين. وقد أثار المغاربة بعض الاضطراب بمجرى المعزّ، ولكن الخليفة أقر سكناهم خارج مصر، وأسكنهم القاهرة^(٢)، المدينة التي بناها جوهر. ولما نزل بعضهم في دور المصريين، أنكر المعزّ ذلك، ونقلهم إلى عين شمس بعيداً، وركب بنفسه، حتى يشاهد المواضع التي ينزلون فيها^(٣). ولا يعنى هذا أن الفاطميين كانوا يريدون تدليل أهل مصر؛ فقد كانوا يحكمونهم كما يحكم أغلب الملوك شعوبهم في العصور الوسطى، وهو الحكم الذى يتلخص فى هذه العبارة: أنا الملك الزوج، والشعب زوجتى الشرعية، كناية عن تصرف الحاكم بالشعب على حسب هواه.

*

فهم وإن جعلوا الدواوين -وهى المصالح الحكومية- فى القصر الفاطمى^(٤)؛ لتكون تحت إشرافهم المباشر؛ إلا أنهم أبقوها فى أيدي الموظفين المصريين، كما كان الحال قبلهم، وبخاصة فى أيدي القبط، الذين يكونون نحو ثلث سكان مصر؛ حيث لم يكن الإسلام قد انتشر بعد على نطاق واسع، فكانت معظم مصالح الدولة فى أيدي القبط. ولدينا أمثلة كثيرة، تشير إلى استخدام القبط فى مختلف الدواوين، وفى أعلى المناصب الإدارية، وأنه زاد عددهم عن ذى قبل^(٥).

حقاً إن جوهرًا عند وصوله مصر، عين بعض المغاربة من أتباع الدولة المخلصين فى المراكز الرئيسية فى الإدارة؛ بحيث يقول المقرئى؛ إنه لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه^(٦)؛ إلا أن المغاربة، الذين كانوا يجهلون شئون الإدارة المصرية، لم يبقوا فيها إلا فى أوائل حكم الدولة، حينما لم تكن الدولة قد استقرت بعد، بقصد زيادة قبضتها على البلاد. وخصوصاً أن تحول المغاربة عن الإخلاص للدولة الفاطمية فيما بعد؛ جعل الخلافة تبعدهم عن كل سيطرة؛ لذلك بقيت الإدارة فى مصر يعمل فيها المصريون.

(١) إتعاظ، مخطوطة، نقلًا عن الوثائق الفاطمية، جمع الشيال، ص ١٩٥.

(٢) نفسه، ص ٢٠٣.

(٣) نفسه، ص ١٩٧؛ ابن ميسر، ص ٤٥.

(٤) الخطط، ٢ ص ٢٣٦؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ص ٩٥.

(٥) يحيى (P.O.)، ص ٩٠٥-٥١٠؛ حسن المحاضرة، ٢ ص ١١٦ ص ٧.

(٦) إتعاظ، ص ٨٧.

وكان هم الفاطميين أن يشعروا المصريين بأن طريقة حكمهم صالحة، تختلف عن طريقة حكم ولاة الخلافة العباسية قبلهم. فنجد جوهرًا والمعزَّ وخلفه يهتمون بالمظالم، وهو نظام قضائي معروف؛ بقصد تطهير أداة الحكم من فساد الموظفين في العاصمة والولايات، وكان القيام به وسيلة ناجحة للمحافظة على سمعة الدولة، بسعيها إلى إقامة العدل بين الرعية. فكان الخليفة الفاطمي يقوم به في قصره؛ حيث خصص له فيه مكانًا يعرف بالسقيفة - أي موضع له سقف - بباب الذهب^(١)، فضلاً عن أنه عين له قاضياً متخصصاً يعرف بقاضي المظالم^(٢)، أو كان يكفله لأحد كبار موظفيه، وإن كان لا بد أن يكون معه ممثلان عن الخليفة؛ أحدهما صاحب القلم الدقيق والآخر صاحب القلم الجليل، وذلك للتوقيع نيابة عن الخليفة. فكان المتظلمون من أبناء الشعب المصري يأتون إلى القاهرة، ومن جميع أنحاء البلاد المصرية؛ يتظلمون من تعسف الإدارة، وظلم الموظفين.

وكان خلفاء الفاطميين في أول أمرهم يشرفون بأنفسهم على الحكم^(٣)؛ حتى أن جوهرًا رفض أن يعترف بالوزير ابن الفرات، الذي كان وزيراً في عهد الإخشيديين، ولما جاء المعزُّ لم يتخذ وزيراً، وإنما اعتمد على كبار كتّاب الدواوين من المصريين، ولقبهم بالقباب منها؛ الموقع أو المدير^(٤)؛ بمعنى أنهم يتصرفون في الأمور بعد الرجوع إلى الخليفة. ومنذ العزيز ظهرت رتبة الواسطة أو الوساطة^(٥)؛ أي من يتوسط بين الخليفة والرعية، ومن يتولاها يتسمى بالوسيط أو السفير، كما ظهرت أيضاً رتبة الوزير^(٦)، بمعنى الذي يتحمل عبء الحاكم. وقد فكر الخليفة الحاكم في أن يسير في حكمه على أسس إسلامية؛ فجمع مجلساً للشورى من أعيان الدولة والمصريين، ولكن ما لبث أن أبطله^(٧)، وعاد إلى الاعتماد

(١) الخطط، ٢ ص ٢٤٥.

(٢) ولاة، ص ٥٨٤.

(٣) انظر. الفصل الخاص بالوزارة في كتابنا: نظم الفاطميين، ١ ص ٧٨ وما بعدها.

(٤) ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، ص ٢٦، ٢٧، ٢٩.

(٥) نفسه، ص ٢٩، ٣٠، ٣٤؛ صبح، ٣ ص ٤٨٩، ٢ ص ١٤٩.

(٦) حسن المحاضرة، ٢ ص ١١٦.

(٧) الخطط، ٤ ص ٦٨ (في آخر الصفحة)؛ انظر. ماجد، الحاكم ص ٤٦.

على الوسيط أو الوزير، وهذا المنصب الأخير استمر إلى وقت سقوط الدولة الفاطمية.

ومع أن منصب الوزير هو المنصب التالي للخليفة الفاطمي؛ فإنه كان يتولاها المصريون من المسلمين أو القبط^(١)؛ بحيث أن أغلب وزراء مصر من هؤلاء في العهد الأول من حكم الفاطميين. ولا ريب؛ فإن المصريين أدركوا بحكم أنفسهم من غيرهم، وإن لم يمنع ذلك من أن يبحث الفاطميون عن كفاءات أخرى بين أفراد ليسوا من المصريين. وفي واقع الأمر؛ فإن المصريين كانوا هم الذين يحكمون في دولة الفاطميين بوجودهم في الإدارة وفي منصب الوزارة.

ومن الطريف أن نذكر أن دولة الفاطميين كانت تمنح الألقاب لسائر موظفيها بجميع طبقاتهم؛ للقبط والمسلمين على السواء؛ بجميع أنحاء ولايات الخلافة؛ فكانت بعض الألقاب تميز كل منصب عن الآخر. والواقع أن الألقاب في عهد الفاطميين انتشرت بشكل لم يحدث من قبل، وأن بعضها كان يصل إلى عشرة ألقاب أو أكثر. وحينما فكر الخليفة الحاكم بأمر الله في إسقاط الألقاب، بقصد المساواة بين الجميع، وجد أن ذلك يفقده نفوذه فأعادها، وإن كان الحاكم كان يعاقب بسلب لقب الشخص، فيصير الرجل في حزن وبكاء حتى يرد عليه لقبه، فيكون عيداً عند الرجل.

*

بالإضافة إلى ذلك، اهتمت الخلافة الفاطمية بكل ما يتعلق بشئون المال فعملت على تنظيم ضريبة الأرض، وإن جعل هذا التنظيم الأرض في ملك الدولة، مثلما كان الحال في عهد الأمويين أو العباسيين، والفراعة من قبل. وقد استحدثت الخلافة قسبة لقياس مساحة الأرض، عرفت بالقسبة الحاكمة^(٢)، أصبحت المقياس المعترف به، حتى بعد سقوط دولتهم. فكانت الأرض في عهد الخلافة الفاطمية تؤجر إلى كبار المزارعين المسلمين والقبط على السواء، بصفتهن

(١) الإشارة؛ انظر.

(٢) صبح، ٢، ص ٤٤٦؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٦٣.

مُتَقَبِّلِينَ أَوْ ضَمَّانًا^(١)، يتعهدون بدفع ما عليها من ضريبة لقاء استغلالها. وكانت قبالات الأرض -مفردتها قبالة- تتم بطريقة التزايد عليها، وذلك لمدة أربع سنين، حتى تتاح الفرصة للمتقبل أن يعرض النقص في حالة المحصول السيئ. أما بقية سكان مصر من غير كبار المزارعين؛ فإنهم في الواقع كانوا أشبه برقيق الأرض، وإلى عهد الفاطميين كان الصراع جارياً ضد الهاربين من المزارعين. وكان المال على الأراضي يؤخذ على حسب السنة الخراجية أو الشمسية؛ إلا أنه قرئ مرسوم في سنة ٤٩٧/٣-١١٠^(٢)، يفرض الجباية على حسب السنة الهلالية بدلاً من الشمسية؛ وإن لم يتجاوز هذا القرار غير قراءته. وفوق ذلك لا نسمع بوجود إقطاعات كثيرة في عهد الخلافة الفاطمية، مثلما حدث في العهود التالية لهم من الأيوبيين والمماليك. ويلاحظ أن هذه الإقطاعات كانت قليلة جداً في عهد الدولة الفاطمية؛ إلا أنها تضاعفت في آخرها^(٣)؛ بسبب سيطرة رجال الجيش وقت ضعفها؛ وإن حددت مدتها إلى ثلاثين سنة^(٤).

كذلك نظمت الخلافة الفاطمية الضرائب على الإنتاج من الوارد والصادر^(٥)، وغلب عليها في عهدها أسماء عديدة، منها: المكوس^(٦) التي فرضت على البضائع في المدن والسواحل على البضائع الواردة إلى الموانئ؛ والعشعر على بضائع المسلمين، والخمس على بضائع الأجنبي. وكانت هذه الضرائب تأتي بحصيلة

(١) الخطط، ١ ص ١٢٨؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ص ١١٤.

(٢) سير الآباء، ٢ ورقة ١٠٦؛ انظر. بهجت، مقدمة قانون ديوان الرسائل، ص ١٥ وما بعدها. نقلاً عن المقرئ.

(٣) الخطط، ١ ص ١٢٨ س ٣-٤.

(٤) نفسه. (بولاق)، ١ ص ١٣٣ س ٢٧.

(٥) بتفصيل، انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ص ١١٧-١١٩.

(٦) الخطط، ١ ص ١٦٦-١٦٧. كلمة «مكس» بمعنى ضريبة أسواق، كانت معروفة من قبل، في العصر الجاهلي. انظر. Dozy : Suppl. 2, P. 806. وقبل مجي الفاطميين، كانت تعرف باسم: «الهلالي»؛ لأنها تستأدى على حكم الشهور الهلالية، وأيضاً باسم: «الموافق»، والمعادن. ولعل اسم قرية «مقس» على النيل، وهي تحريف لكلمة «مكس»، لأن الماكس كان يقعد بها ليستخرج «المكس». عن هذه القرية، انظر. المقرئ، الخطط، ص ١٦٩.

واقرة من المال؛ إذ كانت تفرض على كل شئ بملاحظة المقرئى، وفيما عدا الهواء الذى أطلق سراحه، وترك حراً. لذلك وجدنا الخليفة التقى الحاكم بأمر الله، يعمل على تخفيفها، فألغى منها المكوس^(١).

وعلى العكس؛ وجدنا أن الضريبية، التى كانت تفرض على أهل الذمة، واعتبرت من أهم مصادر المال فى عهد الخلافة الإسلامية الأولى، لم تعد كذلك فى عهد الفاطميين فى مصر، وذلك بسبب تحول معظم المصريين للإسلام، حتى أنها أصبحت تسمى: «الجوالى» فى عهدهم، بدلاً من اسمها القرأى الجزية؛ مما يدل على قلة عدد أهل الذمة، ويذكر القلقشندى أنه كان لها ديوان اسمه: «ديوان الجوالى»^(٢).

ومن ناحية أخرى، تدفق المال على خلفاء مصر الفاطميين من كنوز مصر الدفائن، إذ كان أغلب حكام مصر الإسلامية يسعون إلى التنقيب عنها. ومنذ عهد الفاطميين، نظمت عملية التنقيب عن الآثار المصرية القديمة. ويبدو أن ذلك كان فى عهد الحاكم بأمر الله^(٣)؛ وإن وجد البحث عن آثار مصر وكنوزها من أيام الطولونيين؛ بحيث كون الباحثون لها نقابة حقيقية أصبحت من نقابات الحرف، كما سعى بعض المصريين إلى فك رموز اللغة المصرية القديمة مثل المتصوف الكبير ذا النون المصرى^(٤) (ت ٨٥٩/٢٤٥)، وهو من أبناء أخميم فى الصعيد. فكان الخليفة يأخذ الخمس منها، يدفعه له شيخ الباحثين، وهو أمير تابع له، تحت يده الحفارون، أو ماكان يسمى بالمطالبيين. وفى سبيل ذلك، كان الخليفة يأتى برجال من المغاربة والمصريين وأهل الشام، ينفقون المال الكثير، ويتحملون المشاق فى تلال مصر ومحاجرها، فأحياناً يجدون الدفائن والكنوز، وأحياناً لا يهتدون. ومن كثرة ما جمعه منقوب الآثار فى عهد الخليفة المستنصر؛ فإنه لما نقلت ثروة أحد زعماء الحفريين إلى خزائنه، استمر النقل مدة شهرين^(٥).

(١) نفسه، ٢ ص ١٩٦ وما بعدها؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٦٢.

(٢) صبح، ٢ ص ٤٦٩.

(٣) نقلاً عن ابن حماد. انظر. توفيق اسكندر، بحوث فى التاريخ الاقتصادى. ترجمة، القاهرة، ١٩٦١، ص ٦٩.

(٤) عنه؛ الشعرانى، الطبقات الكبرى، القاهرة ١٢٩٦هـ. ١ ص ٤٩، ٧.

(٥) سفر نامه، ص ٦٩؛ انظر. ماجد، المستنصر، ١٥٤.

وكان المبدأ السائد في هذا العصر، هو ألا تذهب إيرادات الدولة بأنواعها المختلفة إلى بيت المال لتخزن؛ وإنما يخصص كل إيراد لنفقه معينة، وأن بيت المال لا يستعمل إلا في تخزين الفائض أو الاحتياطي. وكان الفاطميون مثل غيرهم من حكام الدول الإسلامية المتقدمة، يحرصون على تقديم الميزانية كتابة؛ لإحصاء قدر الارتفاع في النفقات. وفي سبيل ذلك، أقاموا ديوانين؛ ديوان النظر للإشراف، وديوان التحقيق^(١) للمراجعة. فكان ربط الميزانية يتم على حسب السنة الشمسية؛ لأن الخراج الذي يكون الجزء الأكبر من الدخل، كان يجبي على حكم السنة القبطية أو الشمسية.

وأخيراً؛ فإن الفاطميين عملوا على تجويد العملة في التداول، وكانوا قد وعدوا بها المصريين في الأمان، الذي أصدره لهم. ولم يلجأوا في أول الأمر إلى منع العملة السنية، حتى لا يحدثوا اضطراباً في التعامل، أو خسائر فادحة لمن يملكونها، وإنما أبقوا عليها مثل؛ الدينار «الراضي»^(٢)، نسبة للخليفة الراضي العباسي، والدرهم «الرياضي»^(٣)، المضروب في عهد المأمون، العباسي، والدينار «الأبيض»^(٤)، أي النقي، الذي سك في عهد الأمويين^(٥)، وبقي حتى مجئ الفاطميين. ولكنهم منعوا العملة ذات الفئة الصغيرة، مثل؛ «المثقال» و«القطع»^(٦)، التي لم تعد لها قيمة بسبب ارتفاع الأسعار. ولما كان إصدار العملة يدل على سيادة الدولة^(٧) السياسية؛ فإن الفاطميين عملوا على إصدار عملة خاصة بهم، تحمل بالضرورة عقيدتهم الشيعية، وأسماء خلفائهم والقابهم، وتواريخ الإصدار، ولفظة عالي أو عالي غاية^(٨) - وهو ما يعرف بالعلامة أو الرمز - الذي يبين صرفها على المعيار الرسمي.

(١) صبح، ٢ ص ٤٩٢، ١ ص ٤٠١؛ الخطط، ٢ ص ٢٤٢، أنظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص

١١٢، ١١٣-١٤٥.

(٢) الخطط، ٢ ص ٨ ص ٢.

(٣) نفسه، ٢ ص ٣٣٧ ص ٨؛ ١٣ ص ٣٢١؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٤٠.

(٤) الخطط، ٢ ص ٨ ص ٤٥.

(٥) أنظر. أنستاس ماري، النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩، ص ٤٢-٤٣. سك الحجاج هذا الدينار.

(٦) المقدسي، أحسن، ص ٣٠٤.

(٧) أنظر. ما كتبناه عن العملة الفاطمية في كتابنا: نظم الفاطميين، ١ ص ١٣٦ ما بعدها.

(٨) أنظر. Catalogue des monnaies de la Bibliothèque, : Laviox.

Nationale, continué par Casanova, t 3, P. 154; 156; 162; 169.

وكانت عملتهم ثنائية جيدة، لا تضرب إلا من المعدنين القيمين الذهب والفضة؛ كما حددوا مقادير كل منهما، ونسبة الواحد منهما إلى الآخر. فنعرف من عملتهم الجديدة؛ الدينار «المغربى»^(١) الذى أدخله الفاطميون من المغرب، والدينار «المعزى»^(٢) نسبة إلى المعز الفاطمى. ويبدو أن الصيارفة لم يعجبهم تحديد الدولة مقادير كل عملة، فقاموا بثورة إلا أن جوهراً هدد بحرق مكان الصيارفة^(٣)؛ مما جعلهم يخضعون للأمر الواقع. ثم إن العزيز عمل على سيادة العملة الفاطمية وحدها فى التداول؛ فاشتراط أن تكون جباية الخراج بالدنانير والدرهم الفاطمية^(٤)؛ فكان هذا عاملاً على تضعف العملة السنية، وتمول المصريين عنها. وقد ترتب على ذلك أن سادت العملة الفاطمية فى جميع أنحاء مصر والإمبراطورية؛ بحيث إنها كانت تسك فى دور السكة التى أقيمت فى طول البلاد أو عرضها بشكل لم يعرف قبلاً؛ فى القاهرة ومصر والإسكندرية وتونس؛ فضلاً عن سكتها فى كافة أرجاء دولتهم؛ فى صور وعسقلان وطبرية ودمشق والمهدية والمنصورة وصقلية^(٥). ويذكر الخزومى أن دار الضرب بثغر الإسكندرية كان يرد إليها الذهب الرومى على اختلاف أصنافه من الدنانير وغيرها، والسبائك، والدنانير الطرابلسية، والرباعية، والمهدوية، والصقلية القديم، والدنانير المرابطية، والمكسرة، و«المصاغ». فيعقد عليها فى الأتون، وتصير ذهباً نقياً، أو فضة ماء واحداً، وتسبك سبيكة واحدة، أو تقلب قضباناً، ويكون المعيار بالميزان، ثم تفتح بفتح السكة^(٦).

وكانت الخلافة الفاطمية تستهدف الاهتمام بالتجارة والصناعة، وكان مجهودها فى هذا المجال كبيراً؛ مما يدل على فهم واسع لمسائل الاقتصاد فى عصرها؛ كما كان بناء عاصمة جديدة، وهى القاهرة، بجوار مصر أو القسطنطينية، العاصمة القديمة، أثر فى نهضة البلاد الاقتصادية فى أيام الفاطميين، ونمت

(١) سفرنامه، أنظر.

(٢) ابن ميسر، ص ٤٥؛ الخطط، ٣ ص ٨ س ٢.

(٣) إتعاظ، ص ٩٢.

(٤) الخطط، ٢ ص ٨.

(٥) أنظر. Op. Cit. Lavoix.

(٦) الخزومى، المنهاج، تحقيق، ٢٠-٢١.

المدينتان معاً. وأصبحتا مركزاً اقتصادياً لإمبراطورية واسعة؛ يشهد بذلك الرحالون وقتئذ. فيروى ناصر خسرو أن القاهرة، كانت مدينة كبيرة. قل نظيرها من المدن، فكان فيها أكثر من عشرين ألف دكان^(١)، ملكاً خاصاً للخليفة، كل منها يؤجر بعشرة دنانير. وليس فيها من تقل أجرته عن دينارين، ويشير الرحالة نفسه إلى مصر أو الفسطاط^(٢)، وتمييزها بتوافر جميع وسائل الحياة فيها، وجميع ما هو جيد وجميل، ويضيف بأن أسواقها مملوءة بكل ما في العالم من المنتجات، حتى النادرة منها والثمينة؛ فهي تفيض بالبضائع، التي تأتيها من جميع أجزاء العالم.

ومن المحقق أنه كان يوجد غير القاهرة ومصر مدن أخرى كثيرة في طول البلاد وعرضها، تعتبر مراكز اقتصادية نشيطة، مثل: الإسكندرية ودمياط، اللتين اشتهرتا بتصدير المنتجات منها إلى بلاد الروم والفرنجة، وعيذاب^(٣) على بحر القلزم أو الأحمر، وهي من أهم الموانئ، التي تتلقى تجارة الهند والصين، وتتنيس^(٤) التي كان فيها على حسب ما يروى ناصر خسرو ما يزيد على عشرة آلاف دكان عطار؛ مما يدل على اتساع تجارة التوابل الهامة في العصور الوسطى، وقوص في أقصى الصعيد، التي أصبحت مركزاً هاماً للتجارة في جنوب مصر؛ وبنيت فيها دار للسكة الذهبية، إذ كانت قريبة من مناجم الذهب في النوبة^(٥).

يهد أنه يرجع إلى الفاطميين الفضل في خلق مركز مصر الدواى الاقتصادية المتفوق في العصور الوسطى. إذ أنهم عرفوا مزايا الموقع الجغرافي لمصر في مفترق القارات بين أفريقيا وآسيا وأوروبا. ولكي يسهلوا نقل التجارة بين الشرق والغرب؛ فتحوا القنال بين النيل والبحر الأحمر، وهو الذي كان يوجد منذ الفراعنة، وأعاد حفره البطلمة، ثم حفره المسلمون في عهد عمر بن الخطاب، وعرف بلقبه؛ خليج أمير المؤمنين، ثم أعيد حفره في عهد الحاكم بأمر الله، فعرف

(١) سفرنامه، ص ٤٨.

(٢) نفسه، ص ٥٩ وما بعدها.

(٣) الخطط، ١ ص ٣٢٧-٣٢٨.

(٤) سفرنامه، ص ٣٨.

(٥) ابن بكرة، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق عبد الرحمن فهمي،

١٩٦٦، ص ٤٩-٥٠.

باسمه: الخليج الحاكم^(١)، أو باسم: خليج مصر. كما أن الفاطميين أشرفوا على باب المندب منذ عهد المستنصر، لخضوع اليمن للصليبيين كما ذكرنا. وللفرض ذاته أعاد الفاطميون حفر خليج الإسكندرية، بعد أن طُم الجزء الأول عند خروجه من فرع رشيد. كذلك أنشأوا أساطيل تجارية كبيرة؛ بقصد التجارة العالمية، بنيت في مصر وفي أماكن أخرى في دولتهم الواسعة في دوره الصناعة^(٢)، تجوب في كل البحار. فكان في تنيس وحدها ألف مركب منها ما هو للتجار، وكثير منها للخليفة^(٣).

ويبدو ازدهار التجارة في مصر في عصر الفاطميين، من التعابير المختلفة التي ظهرت في أيامهم، لتدل على أماكنها، مثل: فندق، وخانه، ورياح، وبازار، ودار الوكالة، وقيسارية، فمثلاً: «الفنادق»؛ تعنى مكان التجار الأجانب، وتتكون من غرف مختلفة وصحن مكشوف ومخازن، وقد انتشرت انتشاراً كبيراً في كل مكان في مصر. فكانت توجد من الإسكندرية إلى أسوان، التي يذكر الرحالة ابن جبير أنه يوجد فيها فندق كبير^(٤). كما أن الخانات توصف بأنها عبارة عن ساحات واسعة^(٥)، والقيسارية^(٦) أو القيصارية، ولعلها محرقة من اللاتينية "Caesares"؛ حيث كان الرومان يقيمونها في المدن كمستودع لِبضائعهم، وتكثر حجراتها، وكثرت بمصر حتى أن المقرئى يذكر أسماء قياسر كثيرة.

ولعل أهم أنواع التجارة في عهد الفاطميين بمصر: التوابل، التي كانت تنقلها مصر من الهند^(٧) أو الصين التي استقرت فيها طائفة من العلويين تعلمت

(١) الخطط، ٣ من ٢٢٧؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٣ من ١٠٧ وما بعدها. يقال إنه احتقر بعد أن طُم.

(٢) الخطط، ٣ من ٣٠٦ وما بعدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ من ٢١٨ وما بعدها.

(٣) سفر نامه، ص ٣٩.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٣٧.

(٥) الخطط، ٣ من ١٤٩.

(٦) نفسه، ٣ من ١٤٠ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isi, (art. Kaisâriya) t 2, P. 700-701. ;

Suppl, 2, P. 32. : Dozy

(٧) انظر. Lewis. The Fatimids and the route to India. Rev. : Lewis
de la Fac. des Sc. Econom. de l'Univ. de Istanbul. 1953, P. 53.

لسان الصين واشتغلت بتجارة التوابل^(١)؛ كما إن طبقة من التجار ظهرت في مصر تخصصت لها؛ عرفت من أيامهم باسم^(٢)؛ تجار الكارم أو الكاريمي أو الأكارم أو الكارمية؛ ربما نسبة إلى تجار من كأنم، جماعة سودانية الأصل، كانت تعيش في مصر، وأصبحت التسمية تطلق على كل من يتاجر في التوابل. فلعل ظهور هذه الطبقة في عهد الفاطميين أو حتى قبلهم؛ إذ شارك الخلفاء الفاطميون في الاتجار بالتوابل؛ حتى أنه أصبح لا يفرق بين الدعاة والتجار، فكانوا يطلقون عليهم في الهند اسم «بوهرا»، وهي كلمة معناها تاجر البهار. وقد كانت عيذاب على البحر الأحمر، وقوص البلدة الهامة في الصعيد، طريق التجارة الواردة من الهند، لكي تصعد في النيل إلى الموانئ، لتبحر بعدها إلى أوروبا، ولا سيما إلى المدن الإيطالية النشيطة^(٣) مثل: بيزة وجنوة والبندقية، التي بدورها تورد لمصر منتجات أوروبا ومحصولاتها، ولا سيما الأخشاب التي كانت مصر تفتقر إليها في صناعة المراكب؛ إذ كانت غابات مصر لا توجد فيها إلا غابات خشب السنط^(٤)، في البهنساوية والأشمونية والأسبوطية والأخميمية والقوصية.

وكانت معظم أسواق القاهرة أو مصر مبلطة^(٥)، ويكون في جانبها إفريزان، يمشى عليها الناس في زمن الشتاء، كما أن أغلبها مغطى بالسقائف وبعضها يضاء ليلاً ونهاراً بالقناديل، لأن الضوء لا يصل إلى داخلها^(٦). والواقع أن القاهرة لم تضأ ليلاً^(٧)؛ إلا زمن الفاطميين، في وقت الحاكم بأمر الله، الذي أمر

(١) شرفاء الزمان (حوالي ٥٤١ هـ) طباع الحيوان، تحقيق Minorsky، ط. London، ١٩٤٢، ص ٥-٦.

(٢) وردت هذه اللقطة في وثائق الجنيزة، التي ترجع إلى العهد الفاطمي. عطية القوصي، أضواء جديدة على تجارة الكارم من واقع وثائق الجنيزة، المجلة التاريخية المصرية، ٢٢، ١٩٧٥، ص ١٧ وما بعدها؛

صبيح، ٢، ص ٤٦١، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤، ص ٣٢، ٥، ص ٢٨٠-٢٨١؛ ماجد، نظم الفاطميين، ١، ص ٧٤، ١٢٥؛ انظر. Goitein.

New light on the Beginnings of the karimi Merchants. J.E.S.H.O.I, 1958. P. 175-185.

(٣) انظر. Heyd، Commerce du Levant I, P. 99, 104.

(٤) الخطط، ١، ص ١٧٨ س ٢١؛ انظر. Alf Bahgat.

Les forêts en Egypt et leur administration au Moyen Age. Bull. de l'Inst. d'Egypte, 4 Serie 1901, P. 141-58.

(٥) الشيزري، نهاية الرتب، تحقيق الباز، ص ١١.

(٦) سفرنامه، ص ٥٨.

(٧) الخطط، ٢، ص ١٥٧-١٧٦؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٩٢.

بإضاءة الشوارع والأسواق والحوانيت والمحال بمصر والقاهرة ليلاً، وكان ذلك لا يعمل قبل ذلك، بحيث كان الناس يدعون له، لاتساع أرزاقهم. ولتسهيل الانتقال في أسواق مصر والقاهرة، وجدت على نواصيها الحمر المسرجة، عليها برادع مزينة، لتكون في خدمة من يريد الركوب^(١). يذكر الرحالة ناصر خسرو^(٢)، أن دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجوهر والفضة والأمتعة المختلفة، وأنه يجتمع في الأسواق كل ما هو متصور من خريفى وربيعى وصيفى وشتوى.

ولزيادة الرخاء الاقتصادى اهتمت الدولة الفاطمية أيضاً بالصناعة، ويشير الرحالة ناصر خسرو إلى أن حالة الصناع في عهدها في مصر أحسن من حالتهم في البلاد الأخرى؛ حيث لا توجد سفرة^(٣)؛ فقد اشتهرت في عهدها صناعة النسيج، في المصانع المسماة «طراناً» مثل^(٤)؛ القماش الحريرى الموشح «ديباج»^(٥)؛ حيث كانت له دار كبيرى في القاهرة، تعرف بدار الديباج، وقماش كتانى رقيق «شرب»^(٦)، وقماش مزركش مصنوع في نابق من قرى دمياط «ديبقيه»^(٧)، أصبح يطلق على أنواع له تصنع في مدن أخرى وبلاد غير مصر و«قصب»^(٨) ملون ينسج في تنيس، يستخدم في لبس عمائم رجال الجيش، ولا ينسج في جهة أخرى غيرها؛ وإن كان الأبيض منه ينسج في دمياط،

(١) سفرنامه، ص ٦١-٦٢.

(٢) نفسه، ص ٦٠-٦٢.

(٣) نفسه، ص ٤٠.

(٤) عن ذلك بتفصيل؛ انظر. ماجد، نظم، ص ١٥-١٦، وأيضاً؛

Les Manufactures d'étoffes en Egypte au: Alf Bahgat

Moyen Age. Mém. de l'Isal, Egyptien. cf.

(٥) الخطط، ص ٣، ٣٤٢-٤؛ انظر. Dozy، Suppl, I, P. 421.

Ency. de l'Isal, (art. Dfbâj) t I, P. 993.

هو حرير رقيق يعتبر تقليداً للحرير الصينى، وهى كلمة فارسية تعنى لباس الروح.

(٦) انظر. Dozy، Suppl, I, P. 740. تدخله خيوط حريرية أو مذهبة.

(٧) الخطط، ص ١، ٣٦٥، معجم البلدان، ص ٤، ٢٤؛ انظر.

Ency. de l'Isal, (art. Dâbik) 2 éd, t 2, P. 74.

(٨) سفرنامه، ص ٢٨. لم تعد توجد على الخريطة، ولعلها هى وشطا وتيس، كانت توجد

في جزر في بحيرة المنزلة، واختلفت.

والبوقلمون^(١)؛ الذى لا ينسج فى أى مكان آخر غير مصر، وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار، والسقلاطون^(٢)، وهو موشع بالذهب.

ومن الصناعات الأخرى، التى اشتهرت بها مصر فى عهد الفاطميين؛ صناعة الزجاج^(٣)، الذى يوجد منه نوع شفاف جداً، يشبه الزمرد فى نقاوته، وقد دخلته لأول مرة الزخرفة بالكتابة والرسوم، ويموه بالمينا وهى مادة كالزجاج. وصناعة الفخار، التى اتخذت أساليب مختلفة، ودخلها البريق، وتلون بألوان متعددة، وبلغ من لطفها أنه إذا وضعت يدك من الخارج ظهرت من الداخل، ومن جمالها تباع بالوزن^(٤). وصناعة الصينى التى وصلت إلى درجة متقنة جداً؛ فنسمع بصناعة أجاجين- وهى أوان لغسل الثياب- لها أرجل على صورة الوحوش، ومرابا من الصينى، وأزيار، وجماجم أى قوارير^(٥). وصناعة التحف البللورية، وهذه على ما يظهر تقدمت تقدماً كبيراً على أيدي الفاطميين، الذين خصصوا لها خزانة خاصة تسمى: خزانة البللور^(٦)، إذ البللور يوجد فى مصر عند بحر القلزم، أو أنهم يأتون به من المغرب^(٧)، فكان البللور يخرج من أيدي صناعة فى غاية الصفاء؛ فضلاً عن أنه كان ينقش ويلون. بل وجدنا من خلفاء الفاطميين مثل العزيز^(٨)، من كانوا يتذوقون هذا الفن ويقدرونه، بحيث اعتبر هذا الخليفة خبيراً فى هذه الصناعة.

ومن الصناعات صناعة المعادن والجواهر، وهى لا تقف عند صنع الأواني والثريات والشمعدانات ولكن صنعوا منها تحفاً وزخرفوها بالحز- وهو أبسطها- أو بتنزيل الذهب والفضة والمعادن الثمينة، وذلك بإصاقها أو تلبيسها، وهو ما

(١) نفسه. أو الأبوقلمون.

(٢) الخطط، ٢، ص ٣١٥ س ١٢. نسبة إلى بلد بالروم DOZY : Suppl, I, P. 663 . كان يصنع فى أماكن متعددة فى العالم الإسلامى، وخارج العالم الإسلامى، فهو بالألماني "Cicalt" ، وبالفرنسية والإنجليزية "Siglaton" ، بالأسبانية "Ciclaton" . انظر. ماجد، الحضارة الإسلامية، ص ١١٣.

(٣) توجد منه نماذج فى المتحف الإسلامى.

(٤) سفرنامه (ترجمة عربية)، ص ٦٠.

(٥) الخطط، ٢، ص ٢٦٤ س ٦؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢، ص ١٩.

(٦) نفسه، ٢، ص ٢٦٣؛ انظر. نفسه، ٢، ص ١٨-١٩.

(٧) سفرنامه، ص ٦٠.

(٨) الخطط، ٢، ص ٢٦٣ س ١٩.

أطلق عليه التزميك أو التكفيت^(١)، أى التطعيم. وقد وجدت فى القصر الفاطمى تحف معدنية؛ يبدو أنها كانت فى غاية الروعة مثل^(٢)؛ تمثال الطاووس من الذهب المرصع بنفيس الجواهر، وعيناه من الياقوت الأحمر، وريشه بالذهب على ألوان ريش الطواويس، وديك من الذهب ذى عرف كبير مفروق من الياقوت، وغزال مرصع بنفيس الجواهر ذى بطن أبيض منظوم بالدر، وسفينة نيلية من الفضة، وبستان من الفضة، مزروع بأنواع الشجر، كله من المعدن. ويبدو أن القاهرة استمر لها أسلوب خاص فى صنع النحاس، الذى صنعوا منه تحفاً مختلفة؛ بحيث إن أى بيت لا يخلو من قطع نحاس مكفت، منها: الأبارق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج والأواني والموائد^(٣) وحتى صناعات حديدية، منها المقراض والسكين وغيره^(٤)؛ فضلاً عن الصناعات الحربية^(٥)، بكافة أنواعها.

*

هذا المال المتدفق نتيجة التنظيم الدقيق، والفهم الواعى لمسائل الاقتصاد فى ذلك الوقت، مهد للرخاء. فبنيت المباني الفخمة ولا سيما القصور المسماة القصور الزهراء^(٦)، وإن أطلق على مجموعها القصر؛ بحيث عرفت دولتهم بسبب كثرة القصور بالدولة العلوية القصرية^(٧). وكانت عبارة عن اثنى عشر قصراً متصلاً بعضها ببعض، فشبهت بالجبل لكثرة ما فيها من الأبنية المرتفعة منها؛ القصر الكبير الشرقى، الذى بناه جواهر، والقصر الصغير الغربى أو البحرى الذى بناه العزيز وأتمه المستنصر، وقصر الزمرد، وقصر القرافة، وقصر الحرير، وقصر الشجرة... إلخ، فضلاً عن بناء منازل العز، وهو قصر على شاطئ النيل، وقصر

(١) نفسه، ٣ ص ١٧٠.

(٢) نفسه، ٦ ص ٢٦٦، انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ ص ١٩.

(٣) الخطط، ٢ ص ١٧١.

(٤) سفرنامه، ص ٤٠.

(٥) لدينا رسالة من أول عصر صلاح الدين، من مؤلف مجهول، يبدو أنه من أيام الفاطميين، وذلك عن صنع الأسلحة بأنواعها، وقد نشرها وترجمها Cahen بعنوان:

Un traité d'armurerie. B.E. O. t XII. années, 1947-8, P. 1(3-163)

(٦) الخطط، ٢ ص ٢١٤ وما بعدها، سفرنامه، ص ٤٨، ٦٣؛ انظر.

Essai sur l'Histoire et sur la topographie du Caire, d'après Maqrîzi (Palais :Ravaisse des Califes Fatimides) M.M.A.F. t I, I. III, 2. Paris, 1887-90.

لينبول، سيرة القاهرة، ترجمة حسن وعلى إبراهيم، ط ٣، ص ١٣٥ وما بعدها.

(٧) القفطى، أنباء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق أبو الفضل، القاهرة ١٣٦٩/١٩٥٠، ص ٢٠٧.

٧٣ ص ٨، ص ٩٥ ص ٧

آخر في جزيرة الروضة. والمناظر العديدة التي بداخلها الطيور^(١). هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الجوامع، لا تزال توجد تحت نظرنا إلى الآن، بلغت ستاً وثلاثين ف جامع في عهد المستنصر؛ كما بنى الفاطميون البيوت الشعبية—وهذا أول ما حدث في تاريخ الدول— ليسكن فيها الناس بأثمان زهيدة. فيقول ناصر خسرو إنه بنيت في مصر والقاهرة ثمانية آلاف بيت^(٢)، تؤجر للناس برغبتهم، ويحصل الخليفة على أجرتها كل شهر. كذلك اهتمت الدولة بالمشروعات العامة؛ كالجسور والقنوات وبناء المقاييس؛ حيث لا يزال مقياس الروضة باقياً يذكر بعهدهم. ويكفي أن نذكر أن الخلافة الفاطمية قد خصصت في ميزانية الدولة حوالي مائة ألف دينار^(٣)، للإنشاء والتعمير.

*

وحتى في حياة الخلفاء المعيشية ظهر فيها الرخاء. حقاً إن الخلفاء الفاطميين في المغرب في أول الأمر كانوا يعيشون بتقشف، فكان المعزّ مثل سلفه يمقت حياة الترف، ويقيم في حجرة متواضعة^(٤)، فرشت بالصوف والشعر «اللبود»، ويلزم الواحدة من النساء. ولكن المعزّ وخلفه لما نقلوا خلافتهم إلى مصر، تغيروا تغيراً كبيراً، ومالوا إلى البذخ ولين الحياة؛ بحيث إن بلاطهم في القاهرة نافس بلاط بغداد، وزود بكل ما يحتاج إليه من قاعات واسعة أو خزائن، استخدمت في خزن البضائع أو في صنع الأشياء، وقد تأكد ثراؤها من وصف المؤرخين المسهب لمحتوياتها من الكنوز الثمينة^(٥)، التي جلبت من جميع بقاع الدنيا، أو صنعت في مصر. ولم يقف هذا الغنى عند الخلفاء وحدهم؛ بل تعداهم إلى سائر أهلهم من

(١) الخطط، ٢ ص ٢٧٩؛ ابن دقمان، الانتصار لواسطة، عقد الأمصار، القاهرة ١٣٠٩/١٨٩٢، ص ١٠٩، ١١٤، ١١٦.

(٢) سفر نامه، ص ٤٨.

(٣) الخطط، ١ ص ١٣٣ س ٨؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ١٥٧. يدخل فيها ما يقام الضيوف الواصلين.

(٤) الخطط، ٢ ص ١٦٤.

(٥) نفسه، ٢ ص ٢٥٢ وما بعدها؛ القاضي الرشيد بن الزبير، كتاب الذخائر والتحف، تحقيق حميد الله، الكويت ١٩٥٩: Ouatremère.

Mém. geogr et hist sur l'Egypte II, 366 sqq;

; Torzestvennig vezd fatimidskhalifov. St. Pétersburg, 1905, 92 sqq. : Inostrantsev;

Die Schätze der Fatimiden, Z.D.M.C. XIV (1935) 329 sqq. :Kahle.

، ماجد، نظم الفاطميين، الجزء الثاني؛ انظر.

رجال ونساء على السواء، وإلى كبار رجال دولتهم؛ بحيث إن خزائن ابن كلس^(١) وزير العزيز، وخزائن الأفضل^(٢) وزير الأمر، شابهت خزائن الخلفاء.

وقد أصبح من يقومون بأعمال قصورهم المختلفة، فرقة هائلة من الناس، بلغت في عهد المستنصر ثلاثين ألف نسمة^(٣)، لم تعرف لها مصر مثيلاً من قبل، يعرفون بالأستاذين^(٤)، جمع أستاذ، وهي كلمة من أصل فارسي، تعنى عبید القصر الذين يقومون بأعماله المختلفة. وكان يشرف على هذا الجهاز الضخم في القصر رؤساء لهم، يعرفون بالأستاذين المحنكين، لتمييزهم عن غيرهم بزى الحنك، وهو أن يمر طرف العمامة تحت الحنك؛ ليصعد من الجهة المقابلة ويلتف من جديد حول الرأس. فكان هؤلاء يكونون الخاصة للخليفة، ولهم نفوذ كبير، إذ كان الواحد منهم له حق التلقب بلقب الأمير؛ كما أن الخليفة والوزير يشتركان معهم - أحياناً - في لبس زيهم المميز؛ مما يدل على خطورة مناصبهم. هذا بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الجوارى والنساء، بعضهن لهن وظائف محددة.

وقد انتشرت في عهد الفاطميين الحفلات الرسمية، بشكل لم يعرف في أي بلاط إسلامي سابق أو لاحق، وهي المعروفة باسم: الرسوم، التي هي مأخوذة من تقاليد حكام مصر منذ الفراعنة، أو من رسوم العباسيين^(٥)، أو حتى من رسوم الفرس والروم، وذلك بأن يشترك فيها الخليفة وخاصته ورجال الدولة والجيش، في أيام مشهودة، في أثناء العام. ويقول المؤرخ ابن تغرى بردى عن هذه الرسوم: إن المعز هو أول من أستسنها^(٦). وهذه الرسوم تختص بأعياد قومية مصرية، وحتى بأعياد قبطية، وأخرى مذهبية. وقد كانت هذه الأعياد

(١) الخطط، ٣ ص ٨.

(٢) ابن ميسر، ص ٥٧ وما بعدها.

(٣) سفرنامه، ص ٤٧.

(٤) صبح، ٢ ص ٤٨١؛ انظر ماجد، نظم الفاطميين، ٢ ص ١١-١٢.

(٥) انظر. Question de Cérémonial Abbaside. Revue des Etudes Isalmiques: Sourdel.

1960, P 121-148.

(٦) النجوم، ٤ ص ٧٩ ص ٦.

فرصة للإعلان عن عظمة دولتهم؛ بما يظهرونه فيها من بذخ، وبما يوزعونه من الملابس على موظفيهم، من السروال إلى العمامة، مما لم يحدث له مثيل من قبل، بحيث إنهم أنشأوا داراً خاصة بتوزيع الكسوة، سموها دار الكسوة^(١)؛ حتى أن عيد الفطر بسبب كثرة ما يوزع فيه من ملابس على رجال الدولة وغيرهم سمي: عيد الحلل، أما الخليفة نفسه فكانت له كسوة خاصة تصنع له في الاحتفالات والأعياد، وتختلف في كل مناسبة، أو حتى يغيرها في المناسبة الواحدة عدة مرات؛ فيلبسها بمساعدة سيدة يعاونها ثلاثون خادمة^(٢).

وكانت المواكب العظام أهم هذه الرسوم، وتسمى أيضاً المواسم والركوب^(٣)، وهي خروج الخليفة ورجال البلاط وطوائف الجيش والأسطول والموظفين أمام الشعب. فتخرج من خزائن القصر، شارات الخلافة، أو ما عرفت بالآلات الملوكية^(٤)، لتعرض على أنظار الناس في الشارع، وهي: أسلحة من كل نوع مذهبة أو مفضضة أو مغطاة بالجلد الكيمخت^(٥)، وأعلام كثيرة من الحرير المخطط بالذهب، وملبسة أعوادها بأنابيب الذهب، وهوادج أو ما يسمى عماريات، تحيط بها ستائر حمراء أو صفراء، مرصعة بالذهب والجوهر، وموشاة باللؤلؤ، يحملها الخدم أو الجمال أو البغال لنقل الأشخاص، وأطقم أو ما يسمى مركبات برسم الدواب الكثيرة، التي تعد بالآلاف، قد تبلغ عشرة آلاف، ليس بينها ما لونه أسود وهو اللون الذي يرمز لأعدائهم العباسيين، من سروج محلاة بالفضة والذهب، وأطواق وألجم من الذهب وقلائد من عنبر، وجلاجل من ذهب وفضة، ودروع للخيل عبارة عن صدر بغير ظهر أسماها «جواشن»^(٦)، وخوذ للخيل لعلها لرأسها، وأيضاً نقارات وصفافير وصنوج وأبواق ومباخر بأعداد كثيرة.

(١) الخطط، ٢ ص ٢٥٥.

(٢) نفسه، ٢ ص ٣٦٣.

(٣) بتفصيل: النجوم، ٤ ص ٧٩ وما بعدها؛ صبح، ٣ ص ٥٠٣ وما بعدها؛ الخطط، ٢ ص ٢١٢ وما بعدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ ص ٤٥ وما بعدها.

(٤) مثلاً: صبح، ٣ ص ٤٧٢، وما بعدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ ص ٧٤ وما بعدها.

(٥) هي كلمة فارسية، تعني نوعاً من الجلد يشبه ما كان يصنع في خوارزم؛ كما كان يصنع في مصر جلد مثله. انظر. هامش (٢) من كتابنا: نظم الفاطميين، ٢ ص ٧٥، ومصادر كثيرة منها: المقدسي، أحسن التقاسيم، B.G.A.، ص ٣٢٥ س ٣.

(٦) هي كلمة فارسية. ابن هذيل، حلية الفرسان، تحقيق عبد الغني، ص ٣٣٧؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ٣١١ وهامش (٦).

فيجتمع موظفو الدولة وطوائف جيشها ورجال الأسطول، وقد تأنق الجميع، فلبسوا أغلى الملابس وأروعها، يشملها زئى مصرى عام هو أكمام واسعة^(١)، فى ميدان بين القصرين الكبير والصغير، وهو ميدان واسع. فيخرج معهم الخليفة على رأس الموكب. وهو راكب على فرس قد عود أنه لا يبول ولا يتغوط، وقد اعتم بالعمامة الجوهرة أو التاج، عبارة عن عمامة عظيمة، شددت بترتيب خاص على حسب الموكب، مثل: شدة الوقار أو الشدة العربية أو الشدة الدانية غير العربية؛ فهذه الأخيرة يبدو أنها أقل حجماً وتكون للمواكب المختصرة، وقد أسدل من ورائه ذؤابة، ووضع فى أمام العمامة بين عينيه جوهرة تعرف باليتيمة لا تقدر بثمن، وحولها جواهر أخرى فى شكل حافر، وإن كان منذ عهد المستنصر استبدلت الجواهر بلؤلؤة كبيرة^(٢)، وأمسك بيده سوطاً ثميناً^(٣)، أو ما يعرف بقضيب الملك عبارة عن عصا مرصعة بالدر والجواهر وملبسة بالذهب، وكأنه أهد فراغته مصر، وأحاط به حرسه المسمى «الركابية»، كالجناحين، وقد لبسوا ثياباً مذهبة، وحزموا خصورهم، وعصبوا سيقانهم^(٤)، وأمامه جملة من آلاته الخاصة، مثل: المظلة المرصعة بالأحجار الكريمة، والمذبتين العظيمتين كالنخلتين، والسيف الخاص المرصعة قبضته بالجواهر، والرمح الخاص فى غلاف منظوم باللؤلؤ، والدرقة المزينة بالذهب، التى كانت لحمزة عم النبى، والدواة من خالص الذهب.

فيتهجه الجميع إلى مسجد أو مصلى يصلون فيه؛ حيث كان من رسم الصلاة فى المواكب الكبرى، أن يقوم الخليفة بالخطبة والصلاة بنفسه، فكانوا بهذا على عكس الحكام فى وقتهم، الذين انفصلوا عن شعوبهم فى المقاصير المقفولة؛ مما حجب المصريين فيهم. كذلك كانوا يدمون كبار شخصيات الدولة للصعود معهم على المنبر، بقصد تشريفهم^(٥)، فكان قاضى القضاة -أى كبير القضاة- هو القارئ الذى يعلن اسم من يصعد، مع نعوته المقررة ودعائه. وبعد هذه القراءات كان يأخذ كل من صعد على المنبر بجزء من لواء مركز فى جانبى

(١) سفرنامه، ص ٥٤ س ١٧.

(٢) ابن القطان، نظم الجمال، ص ٣٥٢.

(٣) سفرنامه؛ صبح، ٢ ص ٣٧٤؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين ٢ ص ٦٥-٦٧.

(٤) سفرنامه، ص ٥٤.

(٥) صبح، ٣ ص ٥١٢ وما بعدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ ص ٩٩-١٠٠.

المنبر، فيستر الخليفة ويستترون. فيخطب الخليفة، فإذا فرغ الخليفة من الخطبة،لقى كل واحد بجزء من اللواء الذى بيده خارج المنبر، فينكشفون وينزلون القهقري أولاً بأول، فإذا خلا المنبر منهم هبط الخليفة، وكان التجار يزينون الطرق التى يمر منها موكب الخليفة، بأشياء من تجارتهم لطلب البركة من نظرته^(١)؛ كما يسجد الناس، ويدعون له كلما قرب منهم^(٢).

ويجمع الرحالة والمؤرخون على أن الموكب لفتح الخليج^(٣)، كان من أعظم الأعياد الرسمية فى مصر، وهو النهر الآخذ من النيل غربى القاهرة «فم الخليج»، الذى عرف من وقت الحاكم باسم: الخليج الحاكم، فيكون فتحه إيذاناً بفتح السدود التى تكون مقفولة لإرواء أرض مصر. وقبل الاحتفال بأيام كان يطوف منادون فى القاهرة ينادون بأن الله تعالى قد زاد فى النيل كذا أصبعاً، ويذكرون مقدار الزيادة كل يوم، حتى تبلغ الزيادة المعهودة، وهى ثمانى عشر ذراعاً^(٤).

فكان فى هذه المناسبة ينصب على حافة الخليج للخليفة ولرجال الدولة سرادق عظيم التكاليف من القماش الموشح «ديباج»، موشى بالذهب، ومكلى بالجواهر، فيوضع فيه العرش «سرير الملك»، وتوضع عليه مرتبة عظيمة ليجلس عليها، ويوضع للوزير كرسي، أما كبار رجال الدولة فيقفون صفين من سرير الملك إلى باب الخيمة. وكان الاحتفال يبدأ بالاستماع إلى القرآن الكريم من قراء مخصوصين بالقصر؛ فإذا فرغوا لقي شعراء الدولة قصائدهم العصماء، بترتيب درجاتهم واحداً واحداً، فكان الحاضرون ينقدون لكل شاعر، ويحسنون ما حسن، أو يعيبون ما يعاب.

(١) الخطط، ٢ ص ٣١٤ س ١٢؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ٦٩. قبل ذلك فى عهد الأمر.

(٢) سفر نامه، ص ٥٥. يذكر فقهاء الفاطميين أن هذا السجود هو سجود الطاعة، ويكون بالأيام؛ إذ لا ينبغي لأحد أن يضع جبهته على الأرض إلا لله تعالى، وهو أشبه بسجود الملائكة لأنهم. السيرة المؤيدية، ص ٣٣.

(٣) بتفصيل: سفر نامه، ص ٥١ وما بعدها؛ صبح، ٢ ص ٥١٩-٥٢٠؛ الخطط، ٢ ص ٢٥٢ وما بعدها؛ انظر. نظم الفاطميين، ٢ ص ١٠٧-١٠٩.

(٤) مثلاً: الخطط، ١ ص ٩٥ (أسفل الصفحة).

بعد ذلك؛ ينتقل الخليفة إلى الخليج ويديه حربة، ليضرب بها السد، ثم يعجل الرجال بهدم السد بالمعاول والفؤوس، حتى ينساب الماء في الخليج. وعندئذ تضرب من البحرين الطبول والأبواق الكثيرة، وتدخل في الخليج العشاريات^(١) -مفردها عشاري- وهي مراكب مزينة بالاستور الملونة، وتلبي بالأهله الذهبية، ويقلائد العنبر والخرز الأزرق والفوانيس، طول كل منها خمسون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً، ذات ألوان مختلفة أحمر وأصفر وأخضر ولازوردي، وقد بلغ عددها إحدى وعشرين، أوستاً وثلاثين؛ وإن كان أهمها الذهبي، الذي كان يوضع في وسطه بناء «بيت»^(٢)، مئمن من العاج، سقفه على شكل قبة من خشب ملبس بصفائح الفضة والذهب. فيذهب الخليفة بصحبة الوزير إلى منظره قريبة على رأس الخليج، وهي قصر فخم؛ بينما يقام لرجال الدولة خيام مختلفة الأشكال والألوان على قدر مراتبهم. فيقدم لهم طعام خفيف حضره صاحب المائدة الملكية في موكب يتكون من مائة رجل، ومعهم الطعام محمولاً في صوان «طيافير» كبيرة مذهبة، وهي مغطاة بالطرح النفيسة، وريح المسك والتوابل تفوح منها، فيوزع الطعام على رجال الدولة على قدر مراتبهم، كذلك يقدم للحاضرين تماثيل -لعلها من الحلوى- على أشكال مختلفة من الغزلان والسباع والفيلة والزراف. فإذا انتهى الاحتفال، وصلى الخليفة صلاة العصر، لبس ثياباً جديدة غير التي عليه أول النهار، وغير المظلة لتكون مناسبة لثيابه فيركب إلى قصره.

كذلك، كانت الدولة الفاطمية تقيم المآدب الفخمة في العيدين وفي شهر رمضان المسماة: السماط^(٣)، حيث يجلس الخليفة في إحدى القاعات الكبرى بالقصر ذات الأعمدة: «الإيوان الكبير»، أمام مائدة يقال لها المدورة، ثم يمد حولها موائد أخرى واطئة أشبه بالدكك. فيفرش الموائد بالأزهار، وترص عليها أوانٍ عديدة من الفضيّات والذهبيّات والصينيّ والخزف، وتملأ بالأطعمة الممتازة،

(١) سفرنامه، ص ٥٥؛ الخطط، ٢ ص ٣٦١ وما بعدها. كان لها حوض خاص واسع قرب القصر

(٢) الخطط، ٢ ص ٣٦٢-٣٦٣.

(٣) نفسه، ٢ ص ٢٢٠-٢٢١؛ سفرنامه، ص ٦٣-٦٤؛ ماجد، نظم الفاطميين، ٢ ص

الفائحة الرائحة من فراخ ومشويات، في أطباق تبلغ قامة الرجل، أما الخبز فيحرص على حافتي الموائد، كل واحد بوزن ثلاثة أرطال، وله بريق. وكانت أصناف الحلوى متعددة، على الصور والتماثيل، بعضها يمثل الأشجار بكل غصونها وأوراقها وثمارها، وكان يوزع على الحاضرين الماء المبخر، أو الماء المثلج في الصيف؛ حيث كان معروفاً لهم، ويجلبونه من الشام. ويحملونه معهم في مواكب الحج، وحتى في ساحات القتال. ولقد ضرب بمطبخ الخليفة المستنصر الأمثال، وهو يقع خارج القصر، ويتصل به بنفق تحت الأرض، ويعمل فيه دواماً خمسون طاهياً.

وبالإضافة إلى السعاط في عيد الفطر؛ فإنه كانت تعمل الفطرة العامة. وهي حلوى من دقيق وفستق ولوز وبندق وتمر وزبيب وعسل، وكان العزيز أول من رتب صنعها في دار خاصة عرفت بدار الفطر^(١)؛ لتحضر إلى القصر يوم هذا العيد. وتنتشر كالجبل الشاهق على مائدة طويلة بإحدى القاعات الكبرى (الإيوان الكبير). فكان الخليفة يجلس في شباك ومعه الوزير؛ لتشاهد العامة وهي تأكل الفطرة. وتأخذ منها على سبيل البركة.

وكذا بالإضافة إلى السعاط في عيد الأضحى، كان الخليفة إذا صلى صلاة العيد، يذهب إلى المنصر؛ الذي يقع بجوار القصر الكبير^(٢). فيخرج إليه، وقد توشح بدلة حمراء خاصة بهذا العيد، وتبعه رجال الدولة والجيش والقصر والجزائرون، وأمامه تسير بعض الأضاحى التي يقوم بذبحها بيده، والبقية التي تبلغ الآلاف يذبحها القصابون. فيطلع الخليفة والوزير وقاضى القضاة وكابري الدولة على المصطبة، فيناول قاضى القضاة إلى الخليفة حربة، مشحونة السنان. وفي كل مرة يرغب الخليفة في استعمالها يمسك قاضى القضاة بسنان الحربة، التي يجعلها في نحر الأضحية؛ فيطمن الاثنان معا عنق الضحية؛ فيرفع المؤمنون أصواتهم بالتكبير، كلما نحر الخليفة شيئاً. وقد جرت المراسم أن توزع لحوم ما يذبحه الخليفة للبركة على الموظفين، وطلبة دار العلم التي أنشأها الخليفة الحاكم.

(١) الخطط، ٢، ص ٢٨١-٢٨٢.

(٢) بتفصيل؛ صبح، ٢، ص ٥١٥-٥١٦؛ انظر. نظم الفاطميين، ٢، ص ١٠٢-١٠٤.

والقائمين بشئون الجوامع. كما كانت ترسل أول ضحية ينحرها الخليفة بعد تقديمها إلى سلاطين الصليبيين للبركة.

كذلك كانت الجلوسات من أهم رسوم القصر الفاطمي^(١)؛ وتعنى استقبالات الخليفة، التى تقام أسبوعياً فى القصر، ويحضرها أهل مصر بسائر طبقاتهم: والوزراء، والقضاة، والفقهاء، والقواد، والأجناد، والكتّاب وأعيان العامة، وبطريك القبط، ورئيس اليهود؛ إذ كان من عادة أهل مصر أن يسلموا على الخليفة يومى الاثنين والخميس، وهو ما عرف بالجلوس العام. فكان ينصب للخليفة سرير الملك، خلف ستر يحجبه -إذا أراد- عن أعين الحاضرين، الذين يقفون أمامه أو يجلسون فى أماكنهم المقررة - وهو الإيمان كما ذكرنا- فكان الحاضرون يسلمون عليه بتقبيل الأرض بين يديه، أو الإحناء بالسجود إلى الأرض - أى الإيمان- ويكون السلام على الخليفة مقصوراً على قولهم فقط: «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»، ويخاطب بكلمة مولانا، وبالضمير الثالث.

كذلك جرى العرف أن تحتفل الدولة الفاطمية بأربع ليالٍ مباركة مشهورة، هى ليالٍ: أول رجب ونصفه، وأول شعبان ونصفه^(٢). فإذا أقيمت صلاة المغرب خرج موكب مكون من قاضى القضاة والشهود، وقراء القرآن ومؤذنى الجوامع، وحجاب القصر، وبين أيديهم الشموع المنيرة زنة بعضها ستة أرتال إلى المنطرة، التى يجلس فيها الخليفة. فتفتح إحدى الطاقات، فيظهر منها رأس الخليفة ووجهه على ضوء الشموع، وحواليه خواصه الأستانون المحنكون وغيرهم. فيستمع

(١) صبح، ٣ ص ٤٩٨ وما بعدها؛ الخطط، ٢ ص ٢١٨ وما بعدها؛ ابن حماد، أخبار بنى عبيد، ص ٦١؛ انظر. نظم الفاطميين، ٢ ص ١١١ وما بعدها.

(٢) يرجع أصل الاحتفال بليالى الوقود- كما يبين المقرئى- إلى زمن عمر بن الخطاب، الذى كان يصبح فى أهل مكة ليوقدوا النار ليلة هلال المحرم، حتى يوضحوا الطريق لحجاج بيت الله. وقد استمر الأمر على ذلك بمكة فى هذه الليلة، حتى كانت ولاية عبد الله بن داود؛ فقد أمر أهل مكة أن يوقدوا فى ليلة هلال رجب، ففعلوا ذلك فى ولايته ثم تركوه. عن هذه الاحتفالات، انظر. صبح الأعشى، ٢ ص ٥٠١؛ الخطط، ٢ ص ٢٤٥-٢٤٨؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ ص ١٢٠-١٢٢.

الخليفة إلى قراء القرآن، وإلى خطبة ائمة جوامع القاهرة ومصر الكبرى، عن فضائل هذه الأيام. فإذا انتهت خطابة الخطباء أخرج الأستاذ نفسه يده من تلك الطاقة، فيرد على الجميع السلام وبذلك ينتهي الجلوس.

واهتم الفاطميون كذلك برسوم أخرى، مثل: عرض الخيل^(١)، الذي أصبح من رسوم الخلافة في مصر، فكان يخصص يوم قبل الموكب الرسمي لعرض الخيل، التي تكون كلها بيضاء، يحضره الخليفة وكبار رجال الدولة. وكانوا يهتمون بالخروج للصيد والقنص، فكان العزيز يخرج ومعه عشرون جملا عليها محامل فيها كلاب الصيد، ولواعه بالصيد عرف بالخليفة الصياد^(٢). وقد بلغت كلاب الصيد في آخر عهد الدولة، خمسين جوقة من الكلاب السلوقية^(٣). بل إن الخليفة الحاكم، الذي كان يحرص على صحة سكان البلاد، أمر بقتل جميع الكلاب؛ فيما عدا كلاب الصيد^(٤). كما أن العزيز كان يصطاد أيضا بالجوارح، ولدينا رسالة تفصيلية من بازيار العزيز بالله، الذي كان يشرف على ترويض الباز أو الصقور في مواكب الصيد^(٥) وحتى السباق اهتموا به، مثلما فعل الخليفة نفسه، الذي سابق بحمامه حمام وزيره ابن كلس^(٦).

وأخيراً، فإن الرخاء ظهر في حياة الناس في عهد الفاطميين، وبدأوا ينعمون بالحياة. ويكفي أن نذكر قول العزيز^(٧) «أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر، ولهم الخبز والتبأس والتضيخ والعقار، وأن يكون ذلك كله من عندي»، وقال المسبهي -ناقل هذه الرواية- وهذا لم يسمع بمثله قط من ملك. فيذكر الرحالة ناصر خسرو^(٨)، أن المصريين كانوا في غنى عظيم، وأنه رأى أموالا يملكها بعضهم، ولو ذكرها أو وصفها لما صدقه أحد؛ فهي لا تقع تحت تصديد أو حصر، وهي للنصارى والمسلمين على السواء. فمثلاً كان

(١) صبح، ٢، ص ٥٠٤-٥٠٥؛ انظر. ملحد، نظم الفاطميين، ٢، ص ٨١.

(٢) ابن الحسين، كتاب البيزة، تحقيق محمد كرد علي، دمشق ١٩٥٢، ص ٢٤٩، ٧.

(٣) الخطط، ٤، ص ١٢٤.

(٤) يحيى بن سعيد، ص ١٨٨.

(٥) كتاب البيزة؛ انظر

(٦) مروج الذهب، ط. مصر، ٣، ص ١٤٩.

(٧) النجوم، ٤، ص ١٢٥؛ اتعاط، تحقيق جديد، ص ٢٤٥.

(٨) سفرنامه، ص ٦٢.

أحد سرقة مصر عنده من الغلال ما يمكنه من إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات. كذلك تحسن مستوى سكنهم، فالرحالة نفسه يذكر أن البيوت الخاصة تحولت إلى عمارات ضخمة، حتى أن إحدى العمارات في القاهرة تسع خمسين وثلاث مائة ساكن، وأنه رأى بيوتاً مكونة من أربعة عشر طابقاً، وإن كانت غالبيتها من خمس أو ست طبقات، وأن البيوت كانت من النظافة والبهاء؛ بحيث يقال إنها بنيت من الجواهر الثمين، لا من الحجارة والطوب، وأنها بعيدة عن بعضها البعض، تفصلها الحدائق، ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغي لبيته في كل وقت، من هدم وإصلاح، دون أن يضايق جاره. وقد أصبح من عادات أهل القاهرة وضع الزهور في الأصص، يضعونها فوق الأسطح^(١)؛ ويقول أيضاً أنه سمع أن شخصاً غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار، وحمل إليها عجلًا رباها فيها حتى كبر ونصب ساقية، فكان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر، ويزرع على هذا السطح شجر النارج والموز وغيرها، وقد أثمرت كلها، كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى^(٢).

*

وعن المذهب الفاطمي نعلم أن الخلافة الفاطمية، لم تكن فقط ثيوقراطية أساسها الدين، ولكنها أيضاً متمهبة لها عقائدها الخاصة، التي تغلغت في كل مظاهر حياتها؛ حيث كانت العقائد في ذلك الوقت هي التي تسيّر السياسة والنظم، وليست الآراء الاقتصادية أو غيرها، كما في وقتنا الحاضر. فقد كان من أهداف ظهور هذه الخلافة نشر عقائدها الشيعية، بحكم أنها الدين الإسلامي الصحيح، لا في البلاد التي تسيطر عليها فحسب، وإنما أيضاً في بلاد أعدائها السنيين أو غيرهم^(٣)، تمهيداً لتحويل أهلها إلى المذهب الشيعي.

ولكن اهتمام الخلافة الفاطمية كان أكبر بتحويل أهل مصر إلى المذهب الشيعي، بسبب أن مصر هي مقر الخلافة الشيعية. فقد كان إسلام المصريين في

(١) نفسه، ص ٧٠.

(٢) نفسه، ص ٥٨.

(٣) انظر ما أورده الخشاب نقلاً عن ناصر خسرو في كتابه:

Naçiri Khusrau. Le Caire, 1946, P. 145. ويعدده .

أول الأمر على مذهب الخلافة العباسية المسيطرة آنذاك، وهو المذهب السني، الذي يتمثل في اعتناق المصريين فروعه المختلفة. وكان أول مذاهب السنة التي انتشرت بين المصريين، مذهب مالك بن أنس^(١)، وذلك بسبب توافر أصحابه الذين جاءوا إلى مصر، ولدينا أسماء فقهاء مالكيين كثيرين من بين المصريين. فلما جاء مصر محمد بن إدريس الشافعي في ١٩٨/٨١٢-٨١٤، واستقر بالفسطاط، ودفن بالقرب من المقطم في ٢٠٤/٨١٩، خص بعلمه أهل مصر، وصحب جماعة من أعيانهم، وكتبوا بأنفسهم عنه؛ بحيث تفرق مذهبه من مصر في سائر البلدان، وأصبحت غالبية مسلمي مصر من أتباعه، وطفى في انتشاره على مذهب مالك^(٢)؛ أما مذهب أبي حنيفة وابن حنبل؛ فمع انتشارهما في المشرق، لم ينتشر في مصر، انتشار مذهبي مالك والشافعي.

ومع ذلك، فقد شق التشيع طريقه بأرض مصر منذ زمن مبكر، وقبل انتشار المذاهب السنية^(٣). فقد جاء التشيع مصر أيام الخليفة عثمان بن عفان على يد رجل اسمه عبد الله بن سبأ، ويتلقب بابن السوداء^(٤)، كان يتكلم عن وصاية النبي لعلي، وأحقيقته في الخلافة عن عثمان. فانتشرت آراؤه بين المصريين، واعتنقها كثير منهم. ثم قوى التشيع، حينما تولى على الخلافة بعد مقتل عثمان، وأرسل إليها والياً من قبله. هو محمد بن أبي بكر-ابن الخليفة الراشد- بحيث وصفت مصر حينذاك بأنها دار تشيع وعلى الرغم من أن معاوية وخلفه استولوا على مصر بالقوة؛ فقد كانت غالبية المصريين المسلمين تتشيع. فلما قامت فتنة الثائر ابن الزبير ضد الأمويين لحق به كثير منهم. وظل المصريون طوال حكم الأمويين وإلى وقت مجئ العباسيين يعملون بفتاوى أهل الشيعة، وبخاصة فتاوى جعفر بن محمد، جد الفاطميين^(٥)

(١) حسن المحاضرة، ١ ص ١٨٩ وما بعدها؛ الخطط، ٤ ص ١٤٥ ص ١٦ وما بعدها. عنه؛ وفيات، ٢ ص ٢٠٠ وما بعدها.

(٢) نفسه، ١ ص ١٢١ وما بعدها؛ نفسه، ٤ ص ١٤٥٨-١٤٦٠. عنه؛ وفيات، ٢ ص ٢١٤ وما بعدها.

(٣) عن ذلك بالتفصيل؛ الخطط، ٤ ص ١٤٦ وما بعدها.

(٤) عنه على الخصوص؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art. Abd Allah B. Saba) t I, P. 30.

(٥) فضائل مصر، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بهاريس، برقم ٤٧٣٧، ورقة رقم ١١٢.

ثم ضعف التشيع زمن حكم العباسيين، الذين حاربوا آل أبي طالب وشيعتهم، فعملوا على إخراج آل أبي طالب من مصر إلى العراق، واضطر من كان على رأى الشيعة من المصريين إلى التستر، يضاف إلى ذلك أن المذاهب السنية من مالكية وشافعية، انتشرت بين المصريين، بسبب حاجة هؤلاء إلى فقهاء يعلمونهم الدين، ولم يكن يسمح وقتئذ بوجود غير فقهاء السنة. لذلك تحول تشيع المصريين، إلى نوع من الحب والتقدير لآل عليّ، فكانوا يتبركون بمن دفن منهم من الرجال والنساء، وما زالت مشاهد عليّ من أيام الإسلام الأولى، موضع بركة للمصريين إلى وقتنا الحاضر، نذكر منها: مشهد السيدة نفيسة^(١)، ومشهد السيدة زينب^(٢)، ومشهد السيدة كلثوم (كلثم)^(٣)، ومشهد زين العابدين^(٤).

ثم عاد التشيع إلى الظهور بمصر من جديد، منذ استقل بحكمها عن نفوذ الخلافة العباسية السنية أمراء أقوياء من الترك، فشجع ذلك بعض المصريين على إظهار تشيعهم. ففي أيام الطولونيين ظهر رجل من أهل مصر، وأنكر أن يكون أحد خيراً من أهل البيت^(٥)، ويقصد بهم آل عليّ. ولما جاء المهدي من الشام في طريقه إلى المغرب، نزل عند بعض شيعته في مصر^(٦). وحينما قامت خلافة الفاطميين بإفريقية عملت على نشر مذهبها بين المصريين، ويبدو أنها نجحت في تحويل بعضهم إلى الشيعة، فهذا هو المؤرخون أن القائم الذي أتى بعد المهدي،

(١) هي السيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ، توفيت بمصر في ٨٢٤/٢٠٨، وكان زوجها يريد دفنها بالمنية، فسأله أهل مصر أن يدفنها عندهم، لأجل البركة. عنها: رفيات، ٢ ص ٨٦؛ الخطط، ٤ ص ٣١٣ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isl. (art. al-Saiyda Nafisa) t 3, P. 883.

(٢) هي السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد بن عليّ بن الحسن بن عليّ. عنها: ابن جبير، ص ١٦.

(٣) هي السيدة كلثوم (كلثم) بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق. عنها: ابن جبير، ص ١٦؛ الخطط، ٤ ص ٣١٦.

(٤) يحتوي قبره على رأس زيد بن عليّ بن الحسين، وقد دفن بمصر أيام هشام بن عبدالمك. الخطط، ٤ ص ٣٠٦ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isl. (art. Zaid b. Alf) t 4, P. 1260.

(٥) الخطط، ٤ ص ١٥٥ س ٨-٩.

(٦) انظر. قبله.

(٧) البيان، ١ ص ١٨٢.

كان يخاطب جماعة من المصريين، الذين استجابوا إلى الدعوة^(٧)، وقد زاد عدد المتشيعين في مصر، حتى أنهم كاتبوا المعز، وقالوا له: «إذا زال الحجر الأسود، ملك مولانا المعز الدنيا كلها»، وهم يعنون بالحجر الأسود كافورا^(١). ولا يعني هذا أن المصريين قد غيروا مذهبهم مرة أخرى، فقد بقيت غالبيتهم سنية، لأن السنة كانت قد تأصلت في نفوسهم، بانتشار مذهبى مالك والشافعى، حتى إنهم طالبوا جوهرًا لما أرسله المعز لفتح مصر، أن ينص في أمانته على احترامه لمذهبهم السننى، فنص جوهر لهم على ذلك، على الرغم من أنه في رأيه لا فائدة لذكره، بحكم أن الإسلام سنة واحدة، وشريعة متبعة^(٢).

بيد أنه منذ أن أقام الفاطميون خلافتهم بمصر، فإنهم عملوا على تحويل جهاز الدولة الرسمى إلى مذهبهم الشيعى. فعملوا على إحلال التشريع الشيعى مكان التشريع السننى فى القضاء والفتيا، وإنكار ما خالفه^(٣). والواقع أنه لم يكن يوجد فرق بين التشريعين، إلا فى الفقه أو تفسير الأصول؛ إذ جعلوا هذا الأخير وفقًا على الإمام وحده، بحكم أنه وارث العلم الإلهى، فهو لذلك اعتبر: المجتهد المطلق، فإذا سمح به لغيره فهو مجتهد مقيد. كذلك غيروا فى نظام المواريث، وجعلوه أساس رأى أهل البيت^(٤)، فيجيز أن ترث البنت كل ما تركه أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود نوى العصبية، وهذا يخالف مذهب السنة، الذى يقضى بالأ ترث البنت أكثر من نصف الثروة. فلما ثار فقهاء السنة ضد هذا التغيير فى التشريع، اتخذ محمد بن النعمان كبير القضاة فى ذلك الوقت، بعض العقوبات ضدهم، ووطد حكم التشريع الشيعى^(٥).

ثم إنهم قبلهم لم يكن يوجد غير قاضٍ بسيط، يعين من قبل الخليفة السننى فى بغداد. ولكن للمرة الأولى فى مصر، ظهرت وظيفة قاضى القضاة، الذى صارت رتبته أعلى من جميع القضاة الآخرين، ليس فقط فى أنحاء مصر، بل فى أنحاء البلاد التى يحكمها الفاطميون، وهى التى امتدت من المحيط إلى الفرات، مما يدل على سيطرة القاهرة القضائية. ومع ذلك، لم يظهر هذا اللقب أول مجيئهم،

(١) انظر قبله.

(٢) إتماظ، ص ١٤٨ وما بعدها، وبخاصة، ص ١٥١.

(٣) الخطط، ٤ ص ١٤٦ س ١٠.

(٤) نفسه، ٤ ص ١٥٦ س ١٦-٢١.

(٥) ولاة، ص ٥٩٤. وذلك فى سنة ٢٨٢ / ٩٩٢.

وإنما أبقوا على القاضى المعين من قبل بغداد، لقدمه فى منصبه، وهو القاضى أبو الطاهر الدهلى، رغبة منهم فى تحاشى إغضب الشعب المصرى السنى. ولكن بعد مرض هذا القاضى وموته فى عهد العزيز^(١)، جعلوا هذا المنصب الكبير مقصوراً على قضاة الشيعة وحدهم، بقصد تنفيذ أحكام الشرع الشيعى، وقد كان على ابن النعمان، هو أول من خوطب بقاضى القضاة. فكان هذا المنصب يختص بأسر معينة، عرفت بتفقهها فى التشريع الشيعى، أخصها أسرنا: النعمان والفارقى^(٢). وإن كان بعض قضاة المصريين قد تولوه، على أساس تفقهم فى التشريع الشيعى.

وفوق ذلك، عمل الفاطميون على إدخال خصائص المذهب الفاطمى^(٣) فى الجوامع الرسمية، وهى خصائص لا تختلف عن خصائص المذهب السنى، من حيث تناولها الدين الإسلامى، ولكن بوجهة نظر خاصة. فمنذ اليوم الأول، الذى دخل فيه الفاطميون مصر، جعلوا الأذان فى المساجد الجامعة وهى الكبرى-بمى على خير العمل، بدلا من حى على الفلاح، وذلك لأنهم يرون أن عمر بن الخطاب قد غير فى الصيغة التى تنوقلت عن النبى، فقد كان عمر يرى أن الناس إذا سمعوا أن الصلاة خير من العمل، تهاوتوا فى الجهاد، وتخلفوا عنه^(٤)، وكان الجهاد هو أهم عمل فى وقته. وفى صلاة الجمعة جهروا بصوت عال بالبسملة^(٥)، وزادوا صيغة القنوت فى الركعة الثانية، التى مؤداها: «اللهم نحن إليك قانتون»، وعلى النقيض أنالوا ما زاده السنيون فى هذه الصلاة من قراءة: «سبح اسم ربك»، و«التكبير بعد الصلاة»^(٦). وفى الصيام، جعله الفاطميون على حساب لهم^(٧). ثلاثين يوماً، ولا يكون على الرؤية بطلب الهلال، حتى لا يحدث اضطراب فى إقطار المسلمين فى أرجاء دولتهم الواسعة، نتيجة الاختلاف الزمنى فى رؤية الهلال. ولا شك أن تقدم علم الفلك فى وقتهم؛ بظهور الزيج الحاكى الذى نسب

(١) نفسه، ٥٩٧ س ٢٠-٢١، ٥٨٩-٥٩٠؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ٢ ص ١١؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ١٤١-١٤٢.

(٢) ابن حجر العسقلانى، رفع الإصر؛ الكندى، ولاة؛ انظر. ماجد، نظم، ١ ص ١٥٣.

(٣) عن هذه الخصائص الشيعية؛ الخطط، ٤ ص ١٥٦-١٥٧.

(٤) النعمان، دعائم، ١ ص ١٢٢.

(٥) الخطط، ٤ ص ١٤٥-١٤٦. كان المصريون يجهرون بها قبلاً فى أيام إسلامهم أيام تشيعهم، وقطعت فى عهد العباسيين منذ ٨٦٧/٢٥٣.

(٦) إتعاظ، ص ١٦٨ س ٥-٦.

(٧) الخطط، ٢ ص ٢٨٨، ٤ ص ١٥٦.

إلى الخليفة الفاطمي؛ كان سببها في حسم رؤية الهلال بالنسبة لشهر رمضان، فهذا العلم اعتبر سناً لها؛ كما أنه كان مقبولاً شرعاً بوجود الآية الكريمة ﴿فَالْبَاقِيَاتُ مِنَ الْأَهْلِ الْوَالِدِ وَالْأَهْلِ الْوَالِدِ﴾؛ ولا سيما أنه يوجد حديث نبوي أيضاً بالنسبة لهذه الرؤية؛ فلو غم عليكم، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً، كما الغوا صلاة التراويح^(١)؛ لأنهم لا يرونها مشروعة الجماعة، إذ لا جماعة إلا في فرض. وكانوا مثل بقية المسلمين، يعرفون أوقات الصلاة عن طريق المزولة^(٢)؛ حيث نشاهد واحدة، منها على جدران صحن جامع الأزهر.

بالإضافة إلى هذا، أخذ الفاطميون في الاحتفال بأعياد تتعلق بالمذهب الشيعي وذكرياته؛ وإن اجتهدوا أن تكون في أوساطهم الخاصة، تحاشياً لإغضاب عناصر السنة، غالبية شعبيهم المصري. فاحتفلوا لأول مرة في مصر في سنة ٩٧٢/٣٦٢، بعيد غدِيرُخَم^(٣)؛ وهو اليوم الذي أوصى فيه النبي بالخلافة من بعده لعلی، بمكان بين مكة والمدينة عرف بهذا الاسم، وذلك في ١٨ من ذي الحجة. فكانوا يحتفلون بهذا العيد في القاهرة دون الخروج عنها، فيخرج موكب رسمي من قصر الخليفة إلى مكان مجاور عرف بالإيوان الكبير، للاستماع إلى خطبة قاضي القضاة، الذي يقرأ نص وصية النبي لعلی بن أبي طالب. وبعد انقضائها يصلي الحاضرون ركعتين، ويتوجه الخليفة على رأس الحاضرين لنزح الأضاحي الكثيرة، ثم يقام سماط فخم؛ كما يحدث في عيد الأضحى، بل وبمظاهر أكثر أبهة منها في أي عيد آخر.

وكذلك كانوا يحتفلون بيوم نكزي مقتل الحسين بن علی، في العاشر من محرم -عاشوراء^(٤)- سنة ١٠/٦١ أكتوبر ٦٨٠، باحتفال رسمي وشعبي كبير

(١) نفسه، ٤ ص ١٥٧ س ٦؛ انظر. كاشف الغطاء، ص ١٥٤. يعرض وجهة نظر الشيعة بصفة عامة.

(٢) انظر. ملاحظة حسن إبراهيم، الدولة الفاطمية، الطبعة الثانية.

(٣) الخطط، ٢ ص ٢٣٢ وما بعدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ ص ١٢٦-١٢٨. اختلفت في تاريخ وصاية النبي لعلی، فقبل عام ٧ هـ (٦٢٨م)، في أثناء عودة النبي من الحديبية، وقبل في سنة ١٠ هـ (٦٣٢م)، في آخر حجة للنبي، وذلك في غدِيرُخَم، وهو مكان بين مكة والمدينة.

(٤) نفسه، ٢ ص ٢٨٩ وما بعدها؛ انظر. نفسه، ٢ ص ١٢٨-١٢٩. عن مقتل الحسين بالتفصيل؛ أبو مخنف، في مقتل الحسين، تحقيق الشيرازي، بمبای ١٣٦١ هـ؛ انظر ماجد، الدولة العربية، ط ٧، ٢ ص ٦٧ وما بعدها. اختلف في أصل تسمية «عاشوراء»، فلعلها تعني عيداً يهودياً أو عيداً من أعياد الجاهلية؛ وإن كان يبدو أنها تعني هنا العاشر من شهر المحرم.

انظر. Ency, de l'Isl, (art. 'Ashûra) tI, P. 463.

إذ كان المصريون الشيعة يحتفلون به قبل مجئ الفاطميين في أيام حكامهم الإخشيديين، وقد استمر الفاطميون يحتفلون به من ٩٧٠/٣٦٦، إلى وقت انقراض دولتهم في ١١٧١/٥٦٧^(١)؛ وذلك باظهار الحزن الشديد. ففي هذا اليوم تعطل الأسواق، وتغلق الدكاكين وأبواب الدور، ويخرج موكب كبير إلى الجامع الأزهر، فيه رجال الدولة وأشياخ المذهب، ليستمعوا لقراءة القرآن ومرثبات الشعراء، وبعض الأناشيد الدينية، ثم يذهبون إلى القصر، وقد فرش بالحصر بدل البسط، ووضع في بعض نواحيه دكك خشبية للجلوس، فيستمع الحاضرون إلى القراء من جديد، وتلقى كلمات مناسبة لهذه الذكرى، ثم يفرش سماط الحزن، الذي يتكون من العدس الأسود، والخبز المغبر لونه، والأجبان والمخللات، والألبان، وعسل النحل الأسود، فكان البعض يأكل منه، والبعض الآخر يمتنع، وإن كان الحزن يظهر على وجوه جميع الحاضرين.

وكانوا يحتفلون أيضاً بالموالد الستة^(٢)، وهي: مولد النبي، وعلى، وفاطمة، والحسن، والحسين، والإمام القائم، وذلك برسوم متشابهة. فبعد صلاة العصر يخرج قاضي القضاة في موكبه إلى جامع الأزهر وحواليه الشهود وداعى الدعاة-أي القائم بالدعوة للمذهب- وقرأ الحاضرة، والخطباء، وأئمة الجوامع بالقاهرة ومصر، وقومة المشاهد وغيرهم، ومعهم أرباب حملة أصناف الحلوى، معبأة في ثلاثمائة صينية من نحاس. فيجلسون جميعاً في الجامع لسماع القرآن، ويأكلون الحلوى. ثم يستدعون إلى المنظرة التي بها الخليفة حيث كان يمنع المرور من الطرق المؤدية إليها، ويكنس تحتها ويفرش بالرمل الأصفر. فإذا وصل هذا الجمع إلى المنظرة، فتح الخليفة إحدى الطاقات، فيظهر منها رأسه ووجهه، فيفتح أحد الأستانيين-وهو من رجال القصر- طاقة أخرى، ويشير إلى

(١) النجوم، ص ١٢٦٤ س ١-٣.

(٢) الخطط، ص ٢٩٣-٢٩٤؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ص ١٢٣-١٢٣.

هذا الجمع بكمه بالسلام نيابة عن الخليفة، ثم يقرأ القرآن، ويخطب بكلام مناسب للذكرى، ثم يخرج الأستاذ يده مشيراً برد السلام، ثم تغلق الطاقتان، وينصرف الناس إلى بيوتهم.

ولما شعر الفاطميون بتوطيد مركز خلافتهم في مصر، عمدوا حثيثاً إلى نشر عقائدهم بين المصريين؛ بقصد تحويلهم إليها، وسرعان ما تأقلمت مع روح مصر؛ فلم نعد نسمع إلا عن المذهب الفاطمي وليس عن المذهب الإسماعيلي، الذي كان تسميته في أول ظهور الفاطميين. وينسب تنظيم نشر المذهب الفاطمي، وهو ما عرف بالدعوة فقط أو الدعوة الهادية^(١)، إلى وزير العزيز بالذات، وهو يهودي كان أسلم وحسن إسلامه، وتفقه في المذهب الفاطمي بتميز، هو يعقوب ابن كلس (ت ٢٨٠/٩٩١)، الذي عمل على عقد حلقات لشرح المذهب ابتداء من ٣٦٥/٩٧٥، في المسجد الذي بنى في عهد المعز في جمادى الأولى ٣٥٩/أبريل ٩٦٩، وتم في عهد العزيز في رمضان ٣٦٧/يونيو ٩٧٢، وعرف في أيام الفاطميين باسم جامع القاهرة نسبة إلى العاصمة، وعلى الخصوص بعد ذلك، وإلى وقتنا الحاضر باسم الجامع الأزهر^(٢)، نسبة إلى فاطمة الزهراء التي تنتسب إليها الدولة، وهو أول مسجد فاطمي في مصر. فأقام فيه الوزير ابن كلس خمساً وثلاثين رجلاً، تنفق عليهم الدولة، ويقيمون في سكن بجوار هذا الجامع؛ ليقوموا بشرح المذهب للناس. كذلك كان كبار رجال الدولة^(٣) الفاطمية، يقومون بقراءة علوم أهل البيت؛ فقرأ علي بن النعمان مختصراً في الفقه ألفه أبوه بعنوان الاقتصار، ومن بعده قرأ محمد بن النعمان علوم أهل البيت؛ كما جلس ابن كلس بنفسه لقراءة رسالة^(٤) في الفقه الشيعي أسماها: الرسالة الوزيرية، تتضمن ما سمعه من المعز وابنه العزيز، وبين يديه خواص الناس، وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء. فكان المصريون يقبلون على سماع هذه الدعوة، ويحضرونها بكل

(١) مثلاً: صبح الأعشى، ١٠ ص ٤٢٤-٤٣٩.

(٢) عنه: للخط، ٢ ص ١٨١، ٤ ص ٤٩ وما بعدها؛ انظر.

Ency, de l'Isi, (art. Azhar) t I, P. 541 sqq; 2 6d t 1, P. 837 sqq,

(٣) انظر. Abbas H: Evolution of the organisational Structure of the Fatimi Da' wah.

The Yemeni and Persian Contribution. Arabian Studis. Cambridge Univ. 111, 1976,

P. 85.

(٤) الخطط، ٤ ص ١٥٦-١٥٧، ٢ ص ٢٢٦؛ ابن منجب، إشارة، ص ٢٢.

طبقاتهم، حتى مات منهم أحد عشر شخصاً في الزحام، من دفع الناس بعضهم لبعض، للاستماع لمحمد بن النعمان^(١).

ولكن التحمس البالغ للدعوة في مصر وخارجها، بلغ أشده في عهد الحاكم، الذي اعتبره رسالة كلف بها، واتخذ في سبيلها خطوات جرئية فاقت سابقه من الأئمة منذ إنشاء المذهب، وبقيت نمطاً يحتذى خلفه من بعده؛ بل لم يعرف لتنظيمه إيها تنظيم سابق في أي مكان في العالم. ولا ريب؛ فإن الخلافة الفاطمية في عهده كانت قد وطدت أقدامها في مصر والشرق نهائياً، وكان لابد من نشر عقائدها. فجعل الحاكم للدعوة - لأول مرة - رئيساً يتلقب بداعي الدعاء، حيث تلقب به الحسين بن النعمان، فكان يقال له: قاضي القضاة، وداعي الدعاء^(٢). وقد كان للشيعة الإسماعيلية أو لغيرها من الفرق الدينية دعاة؛ إلا أن هذا اللقب لم يعرف إطلاقاً من قبل وحتى في المغرب، حينما أسس الفاطميون خلافتهم؛ لم يوجد هذا اللقب، وإنما كان كبير الدعاء يعرف بالحجة^(٣). كما أنه في أثناء فترة الستر، كان يسمى أيضاً حاجباً أو حتى مستودعاً. لذلك نعتقد أن لقب داعي الدعاء لم يظهر إلا في عهد الحاكم، وفي مصر بالذات.

ولأهمية الدعوة جعل منصب داعي الدعاء^(٤) يلي منصب قاضي القضاة، وجهازه يشبه الجهاز القضائي، وله مثله نواب في سائر الأقاليم المصرية وغيرها، وفي القاهرة ذاتها، ولكانت الهامة يتلقب: «بالشيخ الأجل». يضاف إلى ذلك؛ أنه جعل لداعي الدعاء مجلس مال من الرؤساء يعرفون بالناقباء، يتكون من اثني عشر نقيباً وحجة؛ وإن كنا لا نعرف سرا لإختيار العدد اثني عشر؛ فلعله على

(١) له كتب أخرى ضاعت مثل: كتاب أدب رسول الله ﷺ، وكتاب في الأديان، وكتاب في القرامات، وكتاب في الفقه، ومختصر كتاب في الفقه، ومختصر الوزير.

انظر: مريدي، فهرست، 1983، 2، Ann Islamo xx.

(٢) الخطط، ٤ ص ٦٩ س ٢١؛ انظر ماجد، الحاكم، ص ٧٨ وما بعدها؛ art. Ency de l'Isl, (art. Dg'f) 2 6d, t 2, P. 99-100.

(٣) الباب السابع عشر من كتاب زهر المعاني (المنتخب)، ص ٥٤؛ انظر .

Ency de l'Isl, (art. Hudjdja) 2ed t 3, P. 562 sqq.

(٤) من ذلك بتفصيل: الخطط، ٢ ص ٢٢٦ س ٤ وما بعدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ١٨١ وما بعدها.

نسق عدد رؤساء الدعوة العباسية، أو عدد الاثنى عشر رجلاً من الأوس والخزرج، الذين عاهدوا النبي على الولاء في بيعة العقبة، أو مثل عدد الحروف الاثنى عشر حرفاً في عبارة الرحمن الرحيم^(١)، ومع ذلك، فلم يكن هؤلاء الدعاة والنقباء هيئة كهنوتية، وإنما جماعة من الموظفين استخدمتهم الدولة الفاطمية، لتعريف الناس بمذهبها.

ويدل على مدى الاهتمام بالدعوة، أننا سمعنا عن دعاة في جميع أنحاء البلاد المصرية، حتى في القلزم على البحر الأحمر^(٢). أما في خارج مصر، فكان ميدان نشاط الدعاة واسع المدى، ينقسم إلى أقاليم، تسمى جزائر - جمع جزيرة - تشتمل على أملاك الفاطميين، وبلاد الأعداء في المذهب، وفي بلاد خارج دار الإسلام. ولدينا أسماء هذه الجزائر أو الأقاليم، التي يبلغ عددها هي الأخرى اثني عشر، تبدو موزعة على أساس جغرافي أو جنسي، وهي: العرب، والترك والبربر، والزنج، والحبشة، والخزر، والصين، والديلم (أي الفرس)، والروم، والهند (أفغانستان الحالية)، والسند، والصقالبة^(٣). فكان على رأس الجزيرة الحجة وجمعها الحجج أو صاحب الجزيرة، يتبعه ثلاثون داعياً على مثال الشهر، وهم اكابر الدعاة، ولكل منهم أربعة وعشرون داعياً مأنوناً، على عدد ساعات الليل والنهار، وهؤلاء يتصلون بالمستجيبين أي الأتباع.

واتخذت الدعوة بمصر أهمية خاصة، وأصبح يطلق عليها؛ مجالس الدعوة أو مجالس الحكمة^(٤). وقد كان همها تمويل كبار موظفي الدولة (شيوخ الدولة)

(١) المجالس المستنصرية، ص ٣٥، انظر. Frag, P. 30: Guyard (نص عربي)؛ ماجد، نظم الفاطميين، ص ١، ١٨٤ هامش (٤)؛ عارف تامر، أربع رسائل اسماعيلية، ص ١٢ وما بعدها.

(٢) الخطط، ١ ص ٢٤٤ س ٢.

(٣) انظر. Ivanow (1) Rise, P. 20-21.n. يعتمد على رسالة أحد الدعاة، واسمه علي الحسن أحمد بن الوليد (أواخر القرن السادس / ١٢ م). انظر أيضاً من نفس Ivanow مقالة:

The organization of the fatimid Propaganda J.B.B.R.A.S. 15 1939, P. 10.

(٤) الخطط، ٣ ص ٢٢٧ س ١-٢.

إلى المذهب الشيعي، إذ كان لابد لكى يبقوا فى وظائفهم أن يكون لهم على الأقل ميول شيعية، ولم تقتصر الدعوة على الرسميين وحدهم، بل تعدت إلى خاصة الناس وعامتهم من الرجال والنساء على السواء^(١). ولدينا رسائل كثيرة معظمها القيت فى مجالس النساء؛ كما ذهب مؤلف كتاب غاية المواليد إلى القول بأن المرأة الشيعية قد تصبح داعية^(٢). ويضاف إلى ذلك أنه يدعى إلى مجالس الدعوة فى مصر من بلاد الأعداء رجال معروفون، أو من يمر بها من الطارئين، بقصد جعلهم دعاة للعقيدة الفاطمية فى بلادهم، وأدوات طيعة لخدمة أغراض السياسة الفاطمية العالمية، وإن كانوا فى الوقت ذاته من الشيعة المخلصين.

فكانت هذه الدعوة الواسعة تحتاج إلى عقد مجالس عديدة، لتغذية هذا العدد الكبير من الراغبين فيها بعقائدها. فيذكر المقرئى أنه قد خصص للدعوة زمن الحاكم، فى أول الأمر يومان فى الأسبوع، ثم أصبحت ثلاثة أيام؛ فكانت لعامة الرجال يوم الأحد، وللنساء يوم الأربعاء، وللأشراف ونوى الأندلس يوم الثلاثاء^(٣). ولكن يبدو أن الدعوة أصبحت تعقد كل يوم فكان مجلس للخاصة، ومجلس للموظفين ورجال القصر، ومجلس لعامة الناس، ومجلس للطارئين على البلد، ومجلس لعامة النساء، ومجلس لحريم القصر.

كذلك كانت الدعوة تقرا فى أماكن متعددة لا فى مكان واحد مثلما كان الحال فى عهد العزيز. فكانت تقرا فى مكانين بقصر الخليفة؛ واحد للرجال فى الصالة ذات الأعمدة «الإيوان» والثانى للنساء فى رواق خاص اسمه «المحول»، الذى وصف على أنه أعظم المباني وأوسعها، كما خصص فى الأزهر، وهو أول مكان القيت فيه الدعوة زمن العزيز، مجلس آخر للنساء^(٤) كذلك بنى الحاكم مكاناً تلقى فيه الدعوة، عرف بدار الحكمة أو دار العلم^(٥)، أنشئ فى سنة ١٠٠٥/٣٩٥، وزوده بالكتب من كل نوع فى العلوم والآداب والعقائد؛ كما زوده

(١) نفسه، ٢ ص ٢٢٦ س ٢٤-٢٧.

(٢) من ذلك؛ انظر Rise, P. 21.

(٣) الخطط، ٤ ص ٧٠ س ١٥٨، ٢ س ١٦.

(٤) نفسه، ٢ ص ٢٢٦.

(٥) نفسه، ص ٢٢٤-٢٢٧؛ يحيى، ص ١٨٨ س ٤-٧.

بالمحابر والأقلام^(١) والأوراق، وجعل له البوابين والفراشين والخزّان. وقد اتخذت دار الحكمة في أول الأمر طابعا حراً، فدعى إليها الفقهاء من المذهبين الشيعي والسني، وإن أشرف عليها داعي الدعوة، يعاونه فقهاء اسمهم فقهاء الدولة أو المعلمون، لهم أرزاق خاصة؛ مما يدل على طابعها المذهبي. فكان الطلاب يقدون إليها من شتى الأقطار، بدون تفرقة في الجنس أو المذهب، يتلقون فيها أصول الدعوة الشيعية وعلومها أخرى مثل اللغة والمنطق والجبر والحساب والأخبار والطب، وينسخون أو يقرءون، فكان أشبه بجامعة تتكون من عدة كليات. ومن المشاهير الذين وفدوا لهذه الدار حميد الدين الكرمانى، الذى شبه فى علمه وفقهه بالمؤيد فى الدين الشيرازى داعي الدعوة؛ كما ورد إليها الحسن بن الصباح، الذى ينسب إليه نشر المذهب فى نواحى بحر قزوين. ويبدو أن مثلها تعددت فى عهد الحاكم فى الفسطاط وغيرها من الأقاليم، حتى بلغت ثمانمائة مكان، كل منها يسمى دار العلم. يضاف إلى ذلك أن خزائن كتب^(٢) بالقصر- التى أنشئت فى عهد العزيز- لم يكن فى جميع بلاد الإسلام داراً لكتب أعظم منها، فكانت تتكون من أربعين خزائن، فيها أكثر من مليون (الف ألف) وستمائة ألف كتاب منها ٢٤٠٠ نسخة من القرآن الكريم، تعتبر أجمل وأبدع ما كتبه الخطاطون محلاة بالزخرفة والذهب والفضة، وعدد كبير من النسخ، ويشرف عليها داعي الدعوة، وكان الخليفة نفسه يأتى إليها، ويجلس فيها. وفوق ذلك، كانت الدعوة تقام فى معظم المساجد فى طول دولتهم وعرضها، وقد أحصيت فى مصر وحدها، فوجد عددها ستة وثلاثين ألف مسجد^(٣). ويذكر الرحالة ناصر خسرو، أنه كان لكل مسجد فى جميع المدن والقرى من الشام إلى القيروان نفقات يقدمها الخليفة، من زيت وحصير وسجاجيد للصلاة ورواتب للقوام والفراشين والمؤذنين وغيرهم.

حقاً إن الدولة الفاطمية كانت تتكفل بنفقة الدعوة، وتنفق عليها الأموال الطائلة، إلا أنها كانت تلجأ إلى مصادر اختيارية يدفعها المنضمون، ترمز إلى

(١) من الطريف أن نذكر أن الفاطميين هم أول من اخترعوا القلم النباح « القلم الأبنوس، وهو قلم يملأ بالحرير، ويكتب به، دون أن يسقط الحبر منه. عن ذلك بتفصيل؛ انظر. نظم الفاطميين، الجزء الأول.

(٢) عنها بتفصيل؛ الخطط، ٣ ص ٢٥٣-٢٥٥.

(٣) نفسه، ٤ ص ٢٦٤ س ٧.

الطاعة للمذهب. وبلغ من اتساع الدعوة أن كفل الإشراف على جبايتها لداعى الدعوة ومساعديه. فكانت هذه المصادر الاختيارية تأتي بمبالغ طائلة، يحملها داعى الدعوة للخليفة بيده، بينه وبينه، لوضعها أولاً بأول فى بيت المال. ويلوح أنها نفس المبالغ التى فرضها القرامطة على أتباعهم، ونستطيع أن نَمَيِّز من هذه المبالغ النجوى أو النجاوى التى تعنى السر، ربما ليكون الدليل المادى على قبول التسטר على عقائد المذهب، وهى تبلغ ثلاثة داهم وثلاثا، ولكن أغنياء الشيعة كانوا يدفعون ثلاثة وثلاثين درهماً. فكان من يدفع هذا المبلغ الأخير، يتميِّز فى مجلس الدعوة، ويخرج له بخط الخليفة الحاكم ورقة مكتوب عليها الجملة الآتية: «بارك الله فيك، وفى مالك، وولدك ودينك». وكذلك توجد الفطرة، التى كانت تدفع فى مناسبة عيد الفطر، والخمس والزكاة، والقرايين^(١)، التى يبدو أنها أصناف وعين.

وكانت الدعوة نوعين: دعوة ظاهرة تتعلق بشرح التشريع الشيعى، أو تفسير القرآن والحديث—وهذا الأخير يسمى عندهم بالأخبار— وذلك بمعنى مبسط (ظاهر). وقد شجعت هذه الدعوة الظاهرة، فجعلت الدولة مالاً لمن يحفظ كتاب دعائم الإسلام، للقاضى النعمان بن حيون، ومختصر الوزير للوزير ابن كلس^(٢)، وكلاهما يشتمل على العقائد الظاهرة للمصادر التشريعية والشعائر الفاطمية الخاصة بالعقيدة.

ولكن منذ عهد الحاكم، تميَّزت الدعوة—كما ظهر— فى الكتب التى بين أيدينا؛ للذين لا يقنعون بالقليل من الظاهر، ويرغبون فى معرفة حقيقة الدين والمذهب، وهو ما عرف بالتأويل، وهذه الكلمة تفعيل من أول يؤول، كذلك أطلقوا عليها علم الباطن؛ لأنهم كانوا يرون لكل ظاهر باطناً^(٣)، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَنَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۗ إِنَّهُمْ كَانَوَ يُرَوْنَ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا﴾^(٤)، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَنَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۗ إِنَّهُمْ كَانَوَ يُرَوْنَ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا﴾^(٤)؛ كما سمووا هذا الباطن ممثلاً والظاهر مثلاً^(٤)؛ لأن الظاهر يرمز إلى الباطن، وقد اعتبر التأويل أو علم الباطن ملكاً

(١) نفسه، ٢ ص ١٢٩، ٢٢٦-٢٢٧؛ انظر . ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ١٨٨.

(٢) الفسط، ٤ ص ١٥٧.

(٣) الحمادى، كشف أسرار الباطنية، ١٩٣٩، ص ١٢؛ تاج العقائد؛ ص ٤٧، انظر. Guyard، Frag. P. 32-33-36.

(٤) قال المؤيد فى المجلس الثامن من المائة الثانية؛ خلق الله أمثالا ومثولات، فجسم الإنسان مثل ونفسه ممثل، والدنيا مثل والأخرة ممثل. أيضاً المجالس المستنصرية، ص ٩٨-٩٩.

لأسرة عليٍّ ومعجزته، فهو العلم اللدني قرين القرآن، الذي نقله النبي إلى عليٍّ؛ ليتوارثه الأئمة من بعده. فنقلوا عن النبي قوله^(١)؛ (أنا صاحب التنزيل، وعليٌّ صاحب التأويل)، وقوله^(٢)؛ (أنا مدينة العلم، وعليٌّ بابها، فمن أراد العلم، فليأت إلى الباب)، وقوله؛ (إني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا). فكان هذا العلم - في رأيهم - يزداد من إمام لآخر، حتى أنه يتضاعف كل مرة ست مرات^(٣)، وربما يكون بسبب علم الباطن، أن تسمية أعدائهم لهم بالباطنية، ظناً منهم أنهم أحلوا هذا الباطن محل الشريعة. ولكن الفاطميين طول عهدهم في مصر، جعلوا التأويل - وهو الباطن - بقصد تأييد الدين والمذهب، والوقوف على دعائم من الإيمان قوية؛ بحيث يقول المؤيد في الدين؛ إنه في حالة الشبهة، يجب أن يرجع إلى التأويل في القرآن^(٤)، فكان هذا التأويل أو الباطن أشبه بالاجتهاد، والتفسير، والقياس، والرأي عند السنة. يضاف إلى ذلك أن علم الباطن، كان يتم تحت إشراف الإمام نفسه، خوفاً من التغيير فيه، فقبل قراءته على الناس، كان داعي الدعاة يتلوها على الإمام، ويأخذ علامته بظاهرة^(٥).

وبجانب ذلك، كان هدف الدعوة الباطنية تأييد حق الإمامة الفاطمية، حتى يتوطد بطريقة إيمانية في النفوس، غير قابلة للنقاش^(٦). ومع أن القرآن مصدر الإسلام الأول، لا يشير مباشرة للإمامة الفاطمية؛ إلا أنه بفضل التأويل، فإنه

(١) سيرة المؤيد في الدين، تحقيق محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩، ص ١٧.

(٢) المجالس المؤيدية، مخطوطة بمكتبة كامل حسين، وردت في ملحق بالمجالس المستنصرية، ص ١٤٩.

(٣) النعمان، المجالس والمسائرات، ١ ورقة ١٧٨؛ ماجد، نظم الفاطميين، ص ٦٠.

(٤) ففي رأي البغدادي - وهو سني - أن الفاطميين تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلاً، يورث تضليلاً؛ بقصد عبادة الإمام، فهم يعنون بالصلاة - دون القيام بها - موالاة الأمام، والحج زيارته وإدمان خدمته، والصوم والإمساك عن انشاء سر الأمام، دون الامسك عن الطعام... عن ذلك؛ الفرق، ص ٢٨٦. عن مثل هذه الأقوال؛ انظر. ما أورده الحماد اليماني في كتابه كشف أسرار الباطنية.

(٥) الكتب الشيعية؛ انظر. Rise, P. 124.

(٦) الخط، ص ٢٢٦ ص ١٠ - ١٢.

يؤيدها؛ بحيث يظهر الإمام في جوهر الدعوة والعقيدة. فمثلاً اتخذ اللفظ في إثبات التأويلات الباطنية، مثل مقابلة أدوار الأئمة بأدوار الأنبياء، كذلك جعل العدد أصلاً للمناقشات، وهم في ذلك مثل الفيثاغوريين الذين جعلوا للعدد معنى. فمثلاً الإمام المستنصر بين الأئمة، هو التاسع عشر بعد وفاة النبي، وهذا العدد إشارة من الله إليه في عبارة: بسم الله الرحمن الرحيم، التي فيها تسعة عشر حرفاً، كما أن: الرحمن الرحيم، فيها اثنا عشر حرفاً، لتدل على الحجج في جزائر الأرض^(١).

كذلك تميّزت الدعوة في عهد الفاطميين بتوسّعها في العلوم الفلسفية، أو ما عرف بالتعبير الاصطلاحي «علم الحقائق»^(٢)، وتعنى الحقائق المختلفة في الباطن، وهي خالدة، وتعتبر العبادة العلمية. فكان هذا من شأنه أن يهيب الدارس قوة في الجدل والاستقلال، وقدرة على البحث والنقاش في العقيدة الشيعية. ولا ريب؛ فالفلسفة الإسلامية وقتئذ؛ كانت في أوجها على يد الفيلسوف الشيخ الرئيس ابن سينا (٢٧٠-٤٢٨ / ٩٨٠-١٠٣٧)، الذي قيل إنه نفسه من دعاة الإسماعيلية، وقبله مباشرة الفارابي المعلم الثاني (ت ٣٣٩ / ٩٥٠)، والكندي فيلسوف العرب^(٣) (القرن الثالث/ التاسع)، وكل من هؤلاء نقل عن الفلسفة اليونانية وتناولها بالشرح والتعليق، وحاول التوفيق بينها وبين العقائد الإسلامية، فلم يكن من الممكن، والعصر الذهبي للفلسفة الإسلامية، أن يقف مفكرو الإسماعيلية عند ظاهرها العقائدية، وإنما عملوا هم الآخرون على المزج بين عقائدهم، وبين الأفكار الفلسفية، مجارة لتيار العصر. ويكفي أن نتصفح الكتابات التأويلية، مثل كتاب: راحة العقل^(٤)، لشيخ فلاسفة الإسماعيلية زمن الحاكم، المسمى حميد الدين الكزيماني (ت ٤١١ / ١٠٢٠). فنجد أن له فلسفته في العقائد الدينية والمذهبية؛ لا تختلف عن نظرة غيره من فلاسفة المسلمين؛ مع بقاء

(١) المجالس المستنصرية ص ١٧، ٣٥؛ ديوان المؤيد، تحقيق كامل حسين؛ انظر. كامل حسين، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٦٧، ٧٠-١٦٨.

(٢) الملل، ص ١٤٧؛ انظر.

Ency. de l'Isi, (art. Haklik) 2 6d t 3, P. 74.

(٣) عن هؤلاء، انظر. Ency de l'Isi, t2, cf.

(٤) تحقيق كامل حسين وغيره، انظر:

طابعها الشيعي المميز، وأنه وجد لعقائد المذهب حلولاً ليس فقط في أقوال فلاسفة المسلمين السنة، بل وفي أقوال فلاسفة اليونان، أمثال: أفلطون وأرسطوطا ليس وأفلوطين؛ كما تكلم هو الآخر في العقل الأول والسماء والنفس والوحي والمعجزة. والواقع أنه كان للنشاط الفلسفي عند الإسماعيلية سابقة عريقة، ظهرت من قبل في رسائل إخوان الصفا^(١)، التي اعتبرت من تأليف أئمة الشيعة وعلمائها، وحاولت التوفيق بين عقائد الإسماعيلية والفلسفة، وفيما كتبه الدعاة الأوائل للمذهب الإسماعيلي، أمثال: أبي حاتم الرازي (٩٣٤/٣٢٢) في كتابه: الإصلاح، والسجستاني (السجزي) (٩٤١/٣٣١) في كتابه النصر^(٢)، والنخشبي (النسفي) (٩٤٣/٣٣٢-٤) في كتابه الموصول. ولكن ما حدث من نشاط فلسفي زمن الفاطميين في مصر، لم يعرف له مثيل من قبل أو من بعد؛ بسبب أن فلاسفة الفاطميين وفقوا بين فلاسفة المذهب وآراء العصر^(٣).

فالفاطميون تكلموا في كل شيء؛ في مشيئة الله، ووصفوه^(٤) بالعقل الأول والعقل المكتسب، والعقل بالفعل، والعقل بالقوة، فهو عقل ومعقول وعاقِل، وفي الوحي. فكان تعويلهم على العقل في معاملة النص أن أدى إلى ترك باب الاجتهاد مفتوحاً على مضراعيه، وذلك على عكس ما كانت تفعله السنة من وقت لآخر، وإن جعلوا أساس كلامهم الارتباط بالسياسة أكثر. وقد ترتب على التعمق في دراسة المذهب أن الدعوة لم تعد محاضرات أو دروساً مبسطة علنية، وإنما أصبحت عدة دعوات متدرجة، عددها سبع أو تسع^(٥)، دعوة بعد دعوة، تتسم بالسرية، خوفاً من اختلاطها أو التغيير فيها. ولم يكن المستجيبون لها ينتقلون إلى الدرجة السادسة منها إلا إذا درسوا كل نواحيها ومعانيها الباطنية والفلسفية.

(١) الهمداني، بحث تاريخي في رسائل إخوان الصفا وعقائد الإسماعيلية فيها، بومباي ١٩٢٥.

انظر الرسائل ذاتها، ط زنتيار ١٣٠٦ هـ.
(٢) مفرق بين الفرق ص ٢٤٦؛ انظر Ivanow

Studies in Early Persian Ismailism, P. 115-120.

بعض كتب هؤلاء الفلاسفة، لا تزال توجد خطية في المكتبات الخاصة. انظر الهمداني، الصليحيون، ص ٢٥١ وما بعدها.

(٣) الرسالة الواعظة، ص ٤، انظر. Guide, P. 46.

(٤) الكرمانى، حميد الدين، رسائل تحقيق كامل حسين، مثل: رسائل النظم في مقابل العوام، ص ٤٦.

(٥) الخطط، ٢ ص ١٥٨ س ١٤، ص ٢٣٠ - ٢٣١؛ انظر Casanova

Dectrine Secrète des Fatimides cf;

؛ ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ١٨١.

كذلك جعل لهذه الدعوة عهد خاص على المستجيبين يأخذه داعى الدعوة بنفسه، وهو^(١)؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسوله، والإيمان بالبعث والساعة، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والجهاد فى سبيل الله، ولا سيما ستر المستجيب لكل ما سمعه، وألا يقول إلا الصدق عنه، وألا يتفق مع أعداء المذهب، وأنه إذا خالف عهده هذا، فنسأؤه طوائق، وكل ما يملك حرام، وأن يحج ثلاثين حجة ماشياً حافياً، ثم تقبل توبته.

وقد آتت هذه الدعوة للمذهب الفاطمى المبنية على التخطيط الدقيق ثمرتها بما لم يسبق إليه؛ بحيث يبين المؤرخون نجاحها بقولهم إن المصريين أقبلوا عليها رجالاً ونساء، وأصبح المذهب السننى غريباً فى رأى المؤرخ المصرى أبى المحاسن^(٢). كذلك كانت نتائجها السياسية هائلة، فقد كان هدفها العمل على الطعن فى أعدائها السننيين^(٣) - ولا سيما فى العراق - وإلى استمالة رعاياهم بالانضمام إليهم، ليقودوا الصراع فى بلادهم، تمهيداً لسيادة الخليفة الفاطمى على جميع المسلمين. وقد جر ذلك إلى قيام فقهاء للعراق السننيين بالرد على الدعوة الفاطمية، أظهرهم الفقيه الغزالى (ت ١١١٢/٥٠٥)، الذى ألف كتاباً سماه: فضائح الباطنية، اتهم فيه الفاطميين بابطال الشرائع، وأيد شرعية الخليفة العراقى السننى.

*

هذه الدعوة كانت تجر فى بعض الأحيان إلى الغلو فى صفة الإمام والجهل بالمذهب والدين. ولعل أشهر اضطراب حدث هو فى عهد الحاكم بأمر الله، حتى اصطلح على تسميته «بالمحنة»^(٤)، وهى كلمة تعنى حدوث اختلاف فى عقائد فرقة دينية إسلامية^(٥). جفا إنه قبل الحاكم أو بعده حدث اضطراب فى المذهب، ولكن ما حدث فى عهد الحاكم لم يعرف له مثيل من قبل؛ إذ لم يقف أثره عند الدعاة المختصين بالدعوة، بل امتد أيضاً إلى الرعية.

(١) الخطط، ٢ ص ٩٤ - ٢٣٥؛ الفرق بين الفرق، ص ١٨٨ - ٢٩٠.

(٢) النجوم، ص ٢ س ٣.

(٣) فضائح الباطنية، ص ٤ و ٦٥؛ انظر Canard.

L'impérialisme des Fatimides et leur Propagande. Ann. de l'Inst d'Et Or t 6, années, 1942-1947, P. 156 - 193.

(٤) رسائل الدرر رقم ٦٧٥٢ (B.N.)، ورقة؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٠٥ وما بعدها.

(٥) ابن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٢١هـ، ص ٤ ص ١٧٩ وما بعدها (شنع الشيعة) ..

فنعرف أن الشيعة تعتقد أن الإمامه منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، كذلك يختار من يشاء للإمامة، ومع أن الإمام لا يوحى إليه، إلا أنه يتلقى التسديد الإلهي، إذ هو وارث العلم اللدني. فكان الإمام في نظر الشيعة في مرتبة دون النبي وفوق البشر^(١)، ولذا اعتبر معصوماً عن الكبائر والصغائر، وإلا زالت الثقة فيه^(٢). فكان الاضطراب المذهبي يأتي غالباً من الغلو في عصمة الإمام، والخروج عن هذه الدرجة الوسطى، بين النبوة والبشر. وكان قيام الحاكم في الدعوة الفاطمية بما لم يقم به أحد من قبله، وعمله على إنجاحها؛ مما جعل أتباعه يبالغون في تقديرهم لشخصه. فظهرت أقوال كثيرة بين أتباع المذهب، تبين أن الحاكم ليس بإمام مثل الأئمة، إنما بشرت به الأنبياء، وأشير إليه بالرمز في التوراة، ليأتي بأعمال باهرة^(٣). وزاد الطين بلة أن الغلو في ذات الحاكم، وصل إلى حد التآليه، وأن الغلو جاء من بعض المقربين إليه، بحيث انفرد عقد مبادئ المذهب، واختلطت عقائده. ويعبر أحد الدعاة عن هذه الحالة في زمن الحاكم، بقوله^(٤): «فغلا فيه صلى الله عليه من غلا، وسفل بذلك من حيث ظن أنه علا، ووقع في أهل الدعوة والمملكة الاختباط، وكثر الزيف والاختلاط».

ولعل أشهر الدعاة الذين غلوا في الحاكم وجعل اسمه محمد بن إسماعيل، (في ١٠١٧/٤٠٨، أو قبل ذلك)، يبدو أنه أعجمي فارسي، أو ربما تركي بدليل أن اسمه أنوشكين أو هشتكين، وإن لقب بالدرزي^(٥)، التي لا يعرف لها أصل. وهذا الداعية، كان قرّبه الحاكم في أول الأمر، حتى عرف على أنه غلام للحاكم، وارتفع مركزه في الدولة، فكان القواد والعلماء يقفون على بابيه، ولا ينقضى لهم شغل إلا على يده. وينقل المؤرخون أن الدرزي ربما كان يرى أن يعيد الدعوه إلى ماكانت عليه قبل قيام الدولة الفاطمية؛ كما كان يرى أن روح آدم جاءت علياً، وأن روح علي انتقلت إلى أبي الحاكم، ثم انتقلت إلى الحاكم، ووضع في ذلك كتاباً سماه:

(١) المجالس والمسائرات، ١ ورقة ١١٢.

(٢) الملل والنحل، ص ١٠٩؛ انظر. كاشف الغطاء، الشيعة، ط ١٠، ص ١٢٨.

(٣) هيوز، ٧/٦ ورقة ٢٢٢-٢٢٣.

(٤) نفسه، ٧/٦ ورقة، ٢٢٥ ص ١٢-١٥.

(٥) يحيى، (شيخو) ص ٢٢٠-٢٢٤؛ النجوم، ٤ ص ١٨٤؛ العيني، تاريخ، ورقات ١٧٥، ١٨٤؛

انظر. Druzes. CCCLXXIII sqq. بعده.

الدستور^(١)، وجعل له أتباعاً سُموا: الدرّوز^(٢). وقد اختلف في نهاية الدرّزي، وأنه قتل وهو في موكب الحاكم، أو أنه هرب إلى الشام، أو أنه قتل في إحدى المعارك في سنة ١٠٦٩/٤١٠ (٣).

بل امتد هذا الاختلاف في شأن الحاكم إلى عامة الناس؛ فقد كان مجيء هذا الخليفة بسيرة مثالية، لم يسمع لها مثيل منذ عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز^(٤)، أن جعلت الناس يعتقدون أن الحاكم قد يكون المسيح، الذي يأتي في آخر الزمان لإقامة العدل، ومثل هذه المعتقدات كانت منتشرة بين المسلمين وقتئذ. فقد كان يعتبر نفسه مسئولاً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقرر من الأوامر الرادعة ما يصون الأخلاق المهتدة. فمنع شرب الخمر، ونظم دخول الحمامات؛ كما نسمع لأول مرة في التاريخ أموراً ترمى إلى وضع حد لسفور النساء، حتى قبعن في بيوتهن سنوات. بل كان يقسو على الموظفين الذين فسدوا، فكان يقتل ويسفك دماءهم، حتى بلغ من قتله عشرة آلاف؛ على حسب الروايات؛ كما أنه حرّم نفسه مباحج الحياة، ولبس رداء عادياً غير مذهب، وعمامة ليس بها جواهر، ومنع الحرس من الدوران والطواف بالقصر كما كان الرسم، ومنع السجود أمامه، ومن أن يذكر لفظ مولانا عند مخاطبته. يضاف إلى ذلك أن شخصية الحاكم كانت تضيف حولها الرهبة والعظمة^(٥) بشكله المنصوف، وعينه الواسعتين، حتى شبه بالأسد، وصوته الجهير، وجسمه الفارع؛ بحيث إن جماعة يتعمدون لقاءه في أمور تضطروهم إلى ذلك، فإذا أشرف عليهم سقطوا على الأرض وجلالاً^(٦). فكان جهال الناس وأوباشهم إذ لقوا الحاكم، سجدوا أمامه، وقالوا له: «السلام عليك يا واحد يا أحد، يا محيي يا مميت». كما أن بعض الناس المسلمين كانوا يشتمون الحاكم ويكفرونه ونسبوا إليه إدعاء الإلهية، ولقى الحاكم عننا من سكان مصر، الذين تجرعوا على سبه وسب أهل الدعوة، حتى في أعماق القرى^(٧).

(١) يحيى، (شيخو) ص ٢٢٤ س ١٢.

(٢) نفسه، ٢٢٢ س ٧.

(٣) عن هذه الرواية الأخيرة؛ انظر. Druzes. CCCLXXXV. يعتمد على كتب الدرّوز.

(٤) انظر كتابنا؛ الحاكم بأمر الله، الخليفة المقتدى عليه.

(٥) سير الأباء، ٣ ورقة ٥٤.

(٦) يحيى (شيخو)، ص ٢٢١ س ٥.

(٧) عيون، ٧/٦ ورقات ٢٢٤ - ٢٢٥.

وزاد في الطنبور نغمة، أن أعداء الفاطميين، وجدوا في هذا الاضطراب المذهبي وشائعات الناس، فرصة لإثبات ادعاء الحاكم الألوهية، بقصد التشهير به والقضاء على دولته الناجحة. فقالوا إن مصر لم تر فرعوناً شراً من الحاكم، رام أن يدعى الألوهية كما ادعاها فرعون، وأنه أمر الرعية إذ ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم صقوفاً إعظاماً لذكره واحتراماً لاسمه، فكان يفعل ذلك في سائر مملكته، وحتى في الحرمين الشريفين^(١).

بل وافق أغلب العلماء الحديثين، ممن اهتموا بالدراسات الفاطمية، مثل: de Sacy، وعنان، و Betty، وكامل حسين، على ما تناقله المؤرخون السابقون في دعوى ألوهية الحاكم، وأنه في رأيهم استمدتها من عقائد الإسماعيلية، وإن كان كامل حسين انفرد بالقول بأن الحاكم مال إلى تأليه نفسه غروراً وكبراً، ولكن دون أن يستمد عقيدة التأليه من عقائد الإسماعيلية، التي هي براء من ذلك^(٢).

وعلى النقيض من كل هذه الروايات المفتعلة؛ فإن الحاكم لم يدع الألوهية إطلاقاً، وذلك بالاعتماد على أوثق المصادر التاريخية، فضلاً عن أنه لم ينقل إلينا نص واحد، أن الحاكم نفسه. قال؛ إنه هو الإله. بل عظم الأمر على الحاكم^(٣)، وفي أول الأمر، استخدم الحاكم الشدة وقتل دعائه، الذين غالوا فيه أو لم يدفعا عنه تهمة التآله^(٤)، ويؤيد ذلك ما تداوله أيضاً مؤرخو السنة، الذين قالوا إنه قتل العلماء^(٥)، كذلك كان يذهب لمجالس الدعوة، ويقرأ بنفسه على الشيعة في كل أسبوع من علوم أهل البيت^(٦). وفوق ذلك، كان يشرح المذهب لرعاياه المسلمين، ويدفع عن المذهب الشيعي كل التباس لصق به^(٧)، كلما أتاحت له الفرصة.

ولكى يبعد الحاكم عن علوم أهل البيت كل شبهة، ولما أذاعه الناس عنه وعن آباءه من إدعائهم علم الغيب^(٨)، أمر ألا ينجم أحد، ولا يتكلم في صناعة النجوم بل

(١) حسن المحاضرة، ٢ من ١٢.

(٢) أنظر. الرسالة الواعظة، مقدمة، ص ١٠.

(٣) عيون، ٧/٦ ورقة ٢٢٦ ص ٢-٣.

(٤) نفسه، ٧/٦ ورقة ٢٥٢ ص ١٥.

(٥) مثلاً: النجوم، ٤ ص ١٧٦ ص ١٨-١٩.

(٦) يحيى (شيخو)، ص ٢٠٩ ص ٢١.

(٧) عيون، ٧/٦ ورقة ٢٦١ وما بعدها.

(٨) ابن إياس، ١ ص ٥٦ ص ١١-١٢.

أمر بنفى المنجمين؛ إلا أنه لما أكدوا أنهم لن يشتغلوا بالتنجيم، عقدت عليهم التوبة، وأعفوا من النفى^(١). حقا إن أئمة الفاطميين اهتموا بعلم التنجيم؛ إلا أنهم لم ينظروا إليه - كما يظهر من كتبهم - إلا على أساس أنه علم مفيد، لمعرفة الحساب والسنين والأوقات، ووسيلة للاهتداء به في البحر والبر. فقد عرف عن الحاكم اهتمامه بهذا العلم؛ بحيث أهداه الفلكي علي بن عبد الرحمن بن يونس المصري كتابه: زيجه في الحساب وعلم النجوم، وعرف بزيج الحاكم أو الحاكمي أو زيج ابن يونس، وفاق ما عمل بأمر المأمون العباسي، فأصبح زيج الحاكم عمدة العلماء من الفلكيين في استخراج التقاويم والنبوءات الجوية، ومعرفة الكسوف والحداثات. كذلك نقل عن المعز قوله: «من نظر في علم النجوم ليعلم عدد السنين والحساب، ومواقيت الليل والنهار، وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله عز وجل، وما في ذلك من الدليل على توحيده جل ذكره ولا شريك له، فقد أحسن وأصاب، ومن تعاطى بذلك علم الغيب والقضاء معا يكون؛ فقد أساء وأخطأ»^(٢).

وقد دفع الغضب الحاكم إلى أن يعزف عن أهل دعوته، ورجال دولته والناس جميعا؛ لتجاسرهم على مثل هذه الدعوى، بالوهيته. فأمر ألا يدخل عليه في قصره من رؤساء دولته سوى أحد عشر رجلاً سماهم، وأن يدخل الكتاب والقراءون - قراء القرآن - والأطباء والمؤذنون وخدم القصر، من غير أن يختلط بهم غيرهم من الناس^(٣). وكذلك ألغى ما جرى به الرسم من مواكب الصلاة في الجوامع في أيام الجمع من شهر رمضان وفي العيدين^(٤) بل ألغى كل ما يتعلق بالمذهب من الأحتفال بأعياده، مثل عيد الفدير^(٥)، وأبطل مجالس الدعوة العامة والخاصة، وما كان يؤخذ لها من مال الخمس والزكاة والفطرة والنجاوى. ويفسر الداعية إدريس^(٦) تصرف الحاكم هذا ليميز المؤمنون بالإخلاص، ويبقى المنافقون في الحيرة. أما أعداء الفاطميين، فقد فسروه على أنه دليل على مروءة الحاكم

(١) يحيى، ص ٢٠٦ س ١٨ - ٢٠.

(٢) عيون، ٧/٦ ورقات ٢٦٦-٢٦٨؛ وفيات، ص ٢-٥.

(٣) يحيى (شيخو)، ص ٢٢٣ س ١٦-١٧.

(٤) رسائل الدعاء، مخطوط برقم ٦٧٥١ (B.N.)، ورقة ٦.

(٥) الخطط، ص ٧١ س ٢٢.

(٦) عيون، ٧/٦ ورقة ٢٥٤.

عن الدين والمذهب^(١) وإن كان مؤرخ منصف هو ابن خلدون يعترض على مثل هذا القول الأخير فيقول^(٢)؛ «إنه زعم لا يقبله ذو عقل، ولو صدر من الحاكم شئ منه لقتل لوقته».

ولكن ما لبث الحاكم أن دفع اليأس، وشمر عن ساق الجد في سبيل إنقاذ المذهب ودعائه، وأصبح ذلك شغله الشاغل، ولم يعد يهتم بأى شئ غيره. ولكن يعيد الأمور إلى نصابها، عمل على استدعاء رجال من أتباع المذهب، موثوق في عقيدتهم وتمذهبهم السليم، لكي يساعده في عودة الأمور إلى نصابها. فمن الرجال الذين استدعاهم، فيلسوف المذهب المعروف حميد الدين الكرمانى^(٣)، الذى عينه رئيساً لدار الحكمة، فكتب الكرمانى رسائل عديدة، بلغ عددها تسعا وعشرين، منها رسالة: «مباسم البشارات، التى يبين فيها الكرمانى ظروف المحنة، وسوء حالة الدعاة، وظهور المنافقين، وصدق إمامة الحاكم وحقيقتها، ولعل أهم ما وصلنا منه، هو الرسالة التى بعنوان: «الرسالة الواعظة فى نفى الوهية الحاكم بأمر الله، التى هى رد على دعوى الفرغانى الأجدع أو الأخرم» (حوالى ١٠١٧/٤٠٨)، الذى قال بأن الحاكم هو المعبود، ويدعو إلى إبطال النبوة. فحاول الكرمانى بالمنطق وهيبه أن يثبت عقيدة الإسماعيلية فى الله الذى لا إله إلا هو، وإظهار الحاكم كشيء مثالى يعبد الله، ويساعد الناس على فهم دينهم، فيقول موجهاً الكلام للأخرم^(٤)؛ «ولما قول اصحابك: إن المعبود تعالى هو أمير المؤمنين سلام الله عليه، قول كفر، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هنأ، أن دعوا للاله المعبود فهراً.. فما أمير المؤمنين عليه السلام إلا عبد الله خاضع، وله طائع، يسجد لوجهه الكريم...».

وبعد ذلك قام الحاكم بحركة إصلاحية فى عقائد المذهب؛ مما أدى إلى ظهور مذهب جديد، وجعل الحاكم من أصحاب النحل. فى سبيل ذلك استعان بداعية

(١) شذرات، ٢ ص ١٥٨.

(٢) العبر، ٤ ص ٦٠ س ٤.

(٣) عيون، ٧/٦ ورقة ٢٥٢-٢٥٣؛ انظر. Guide, P. 43; 134، الهمنانى، الصليحيون، ص ٣٦٠-٣٥٨.

(٤) انظر. نص الرسالة الواعظة، ص ٢٧-٢٨.

اسمه: حمزة بن علي بن أحمد^(١)، الذي اشتهر بالزوزاني، نسبة إلى مقاطعة زوزن بفارس، الذي كان يكتب للدعاة. ونجح حمزة في تكوين مذهب جديد، فنسمع عن طبقات جديدة للدعاة في مصر، تشبه ما كان عليه الحال عند بدء الدعوة الإسماعيلية، على رأسهم الإمام الذي يأمر لهم، والناطق الذي ينطق في كل عصر وزمان بالحق، والداعي الجَد، لأنه جد في طلب العلم من الإمام، والمأذون لأنه يفتح باب العهد، والمكاسر الخيال الذي يلوح بعلمه^(٢)، وقد سعى المذهب الجديد إلى إظهار الإيمان المطلق أو ما عرف بالتوحيد^(٣)، الذي اضطربت حقيقته بين الدعاة، ولا سيما بظهور دعوى الدرزي. يضاف إلى ذلك، أن التوحيد عند الشيعة هو أصل الدين الإسلامي وأن الإخلاص فيه يكون بثبوت مرتبة الوصاية، وهي تولية النبي لعلي، والإمامة، التي تبقى في أسرة علي إلى يوم الدين^(٤).

وأكثر من هذا أن هاجم حمزة الدرزي، الذي خرج على مبدأ التوحيد^(٥)، ولا يزال أتباع حمزة لليوم، وهم المسمون بالدروز خطأ^(٦)، وإن عرفوا أيضاً بالموحدين، فقد اقتصرُوا على منطقة حوران بالشام^(٧)، التي أصبحت تعرف في وقتنا بجبل الدروز. وهم مسلمون يشاركون في كل مظاهره، ولكنهم تميّزوا في أخذه بالتصوف^(٨)؛ إلا أنهم يعتقدون برجعة الحاكم في آخر الزمان، وأنه هو

(١) يحيى، (شيخو) من ٢٧٢، وما بعدها؛ المعينى، تاريخ، ورقة ١٨٤؛ انظر. Druzes. GCCXC. : CCCLXXXVII sqq. من زوزن؛ انظر. معجم البلدان، ٤، ص ٤١٦.

(٢) مخطوط رقم ٦٧٥٢ (B.N.) ، ورقة ٢٠؛ زهر المعانى (للتنخب)، ص ٥٥. وذلك في أيام الإمام محمد بن إسماعيل.

(٣) مخطوطة برقم ٦١٢١ (B.N.) ، ورقات ٢، ٨، ٣؛ عقائد نحل (مخطوط نادر الكتب)، ١٣٨؛ الكرمانى، الرسالة الدرية في معنى التوحيد والوحد، ورسالة النظم في مقابلة العوالم، تحقيق كامل حسين، مصياف ١٩٥٢.

(٤) الرسالة الراجعة، ص ٢٥ وهامش؛ ديوان المؤيد في الدين، تحقيق كامل حسين، ص ٨٩ وما بعدها.

(٥) مخطوط برقم ٦٧٥٢ (B.N.) ورقة ٢٢؛ ومخطوط بدار الكتب برقم ١٣٢، ورقات ١٣٥-١٣٨؛ انظر. الحاكم، عنان، ٢٠٦.

(٦) على الخصوم؛ عنان، الحاكم، ص ٢٠٤-٢٠٥ (ينقل عن صديق)

Ency de l'Ial, (art Druzes) t I, P. 1108 sqq.;

Le Calife Hakim, Chap. V, Betty

(٧) انظر Betty، Op. Cit, P. 198. من كورة حوران؛ معجم البلدان، ٢، ص ٣٦٠-٣٦١.

(٨) انظر. Betty، Op. Cit.P. 197.

المهدى لا محالة، ويحلفون إلى الآن بغيبة الحاكم^(١). ويقول كاشف الغطاء - وهو شيعي. إن التدين بالرجعة جائز في الإسلام بقصد إظهار قدرة الله، وهو من قبل الإيمان بنزول عيسى من السماء، ووجود الجنة والنار^(٢).

كذلك هاجم حمزة فرقة سميت النصيرية^(٣)، ويبدو أنها كانت فرقة قديمة للغلاة في الشام قبل مجئ الفاطميين إلى الشرق، وسميت هكذا لأنها غلت في علي بن أبي طالب، وادعت فيه ما ادعت النصارى في المسيح؛ فقالت بألوهية علي وأنه هو المثل عندهم. ولدينا عدة رسائل من تأليف حمزة، كلها تهاجم النصيرية وخروجها على التوحيد، أشهرها رسالة بعنوان: «الرسالة الدامغة للفاسيق؛ والرد على النصيري، لعنه المولى في كل كور ودور»^(٤). وقد كانت النصيرية بسبب مقالاتها في علي، من أعدى أعداء الإسماعيلية^(٥).

وغنى عن البيان أن نقرر أن ما حدث من غلو الدعاة في ذات الحاكم، حدث من قبل لأجداده الأئمة، ولخلفه من بعده، وفي كل حالة كان الأئمة الفاطميون يحتجون على هذه الادعاءات، ويعتبرونها هرطقة، وخروجاً على الاعتقاد الفاطمي، ويعملون جهدهم على تصحيحها. ونجد استبشاح هذه الادعاءات على لسان المعز - جد الحاكم - في فقرة وردت في كتاب المجالس والمسائرات يحمل فيها على جراءة الدعاة. فيوجه الكلام إلى الداعية الفقيه النعمان بن حيون؛ فيقول^(٦): إنه انتهى إليك وإليها؛ أننا ندفع نبوة محمد وندعى النبوة بعده، وندفع

(١) ابن إياس، ١ ص ٥٨ .

(٢) انظر . كاشف الغطاء، ص ٩٩ وما بعدها.

(٣) عن هذه الفرقة؛ النجوم، ٤ ص ٢٤٩ س ٦-٩. النصيرية نسبة إلى نصر من البصرة (٨٦٨/٢٤٥)، وهو تلميذ للإمام العاشر، وهو البلب، بدأت أفكاره الدينية تنتشر في وقت الحمدانيين؛ كما ساعد مجئ الصليبيين إلى الشرق على انتشارها، وكانت فرقة الإسماعيلية من أشد أعدائهم، ومركزهم في مصيف. انظر. Les, Pays, Weurleresse, des Alaouites. 2 vols, Tours, 1940, P. 53 sqq. وتوجد هذه العقيدة في مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N.)، برقم ٦١٨٢. انظر.

Ency de l'Isi, (art. Nusairi) t 3, q. 1030-1033;

Histoire et Religion des Nosairis Paris, 1900. : Dussaud;

كرد علي، خطط الشام: ١٩٣٨، ٦ ص ٢٥٨-٢٦٨.

(٤) مخطوط برقم ٦٧٤٦ بالمكتبة الأهلية (B.N.)، ورقة ٧، وتوجد أيضاً برقم ٦٧٤٧) (B.N.)، وبرقم ٦٧٥٢ (B.N.) .

(٥) انظر. Frag , P. 3, N.(1) : Guyard.

(٦) النعمان، المجالس والمسائرات، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٦٠٦٠، وورقات ٣٥٨-٣٧١؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ٧١.

سنته وشريعته، وندعو إلى غيرها؛ فلعن الله من قال بهذا وانتحله وادعاه، ومن تقوله علينا، ورمانا به، ونسبه إلينا». ثم يقول أيضاً: «فكيف ندعيها (النبوة)، وندعى ما يصلى الله من ادعاء النار؛ ونقول بقول من أبطل نبوة جدنا محمد (ﷺ) من الكفار، والله سائل من قولنا من ذلك ما لم نقله، ومؤاخذه بقوله، وأخيراً يقول: «إن المنتسبين إلينا، المتقولين ما لم نقله، أعداء لنا، وأضر من عدونا المناصب لنا، المباين بعداوتنا». وكذلك الظاهر ابن الحاكم، أصدر سجلاً يفند ما قاله الدعاء في ذات الإمام، ويتيح لهم فرصة التوبة كما أتاحتها لهم أبوه، فيتحدث في سجله^(١): «من ذهب طائفة من الجهال إلى الغلو في الإمامة، وعدلوا ما بالأباطيل عن موجب الحقائق، وصفتها المخلوق بصفة الخالق، وتبرؤوا إلى الله في ذلك». ثم يقول: «وإنه هو وأسلافه الماضون، وأخلافه الباقون، مخلوقون اقتداراً، ومربوبون اقتساراً، لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة، ولا يخرجون عن قضية الله تعالى». وأخيراً يقول: «إنه قدّم إنذاره لهم بالتوبة إلى الله تعالى من كفرهم، ولما يعتمد منه من الإبقاء على الجماعة - الدعاء - ومن أتى ذلك منهم، وأقام على كفره، فسيف الحق يستأصله».

كذلك يقول المؤيد داعي الدعاء^(٢): «وأستعيذ بالله من قوم يقولون بأنواهم إنهم شيعة، وهم من طلائع الكفر والإلحاد شر طليعة، يستوطنون مراكز الإباحة، ويميلون ميل الراحة، ويحتجون بكون الصلاة إشارة إلى حد من حدود الدين، فإذا عُرِف سقطت الصلاة، وأن الزكاة إشارة إلى مثلة فإذا عرفت بطلت الزكاة، وأن الصوم هو السكوت عن إنشاء سرهم إلى غير أهله؛ فإذا هم سكتوا لم تبق بهم حاجة إلى الصوم، واحتمال كده، وأن النهي عن شرب الخمر هو النهي عن موالة بعض الأضداد؛ فإذا هم كفوا كان شربها حلالاً سهل القياد، ولا يزالون كذلك حتى يحلوا من تكاليف الشريعة كل عقد، ويردوا من مهاوى الردى في تحليل المحرمات شر ورد، وهؤلاء أضر بالدين وبالمؤمنين ممن شهر سيفه وشرع رمحه إلى أئمتهم بالبغضاء، ولم يزل من مضى من أمير المؤمنين

(١) يحيى (شيفو)، ص ٢٣٦؛ انظر. ما ورد في كتاب: النجوم، ٤ ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٢) المجالس المؤيدية بمكتبة كامل حسين؛ انظر. كامل حسين، في كتاب ادب مصر الفاطمية، ص ١٦.

على، والأئمة من ذريته، إلى إمام الزمان، براء من الله تعالى من هذه سبيله سراً وجهاً... إلخ».

*

ولا بد لنا أن نقرر أنه على الرغم من الحماس للدعوة في عهد الفاطميين فإن الدولة لم تجبر أحداً على اعتناقها، أو أنها تعصبت ضد المذاهب الأخرى. فسمعنا أن بعض من تولى مناصب الدولة الكبرى، وحتى في القضاء، كانوا من فقهاء المالكية والشافعية. وقد لاحظ القلقشندي ذلك، فقال (١): إن مذهبي مالك والشافعي ظاهرا الشعار في زمن الفاطميين؛ بحيث أصبح وجود المذهبين الكبيرين معاً في أرض مصر تجربة رائدة، ويبدو أن الفاطميين كانوا يراعون مذهب مالك أكثر من رعايتهم مذهب الشافعي، ومن سألهم الحكم به أجابوه، ربما لأنهم عرفوه من قبل بالمغرب، أو لوجودوا للمذهب الشافعي منافسا ويضعفوه؛ إذ كان المذهب الشافعي مذهب غالبية المصريين قبل مجيء الفاطميين في مصر. ومع ذلك، ينكر المؤرخون أن الحاكم ومن بعده الظاهر. قد تعصبا ضد المالكية على الخصوص، فقتل الحاكم بعضهم، كما أخرج الظاهر (٢) المالكية وغيرهم من الفقهاء من مصر، وربما يكون هذا التعصب الطارئ ضد المالكية راجعاً لأسباب عليا، ففي عهدي الحاكم والظاهر فإن المغرب الذي كان معظم أهله على المذهب المالكي بدأ يسعى إلى الانفصال.

وثمة أيضا ما يجب أن نذكره هو أنه ليس لدينا نصوص صريحة تؤيد أن السب كان فاشياً في عهد الفاطميين؛ وذلك على عكس ما كان من قبل العباسيين أو الأمويين في الأندلس، الذين كانوا يلعنون علياً من على منابرهم. فحينما جاء المعز مصر، لم يلعن لاعتنيه، وإنما كتب على سائر الأماكن بمدينة مصر: «خير الناس بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام» (٣). ولكن لما أقبل كثير من المصريين على دعوة التشيع زمن الحاكم، وتركوا المذهب السني،

(١) صبح الأعشى، ٢ ص ٥٢٤.

(٢) النجوم، ٤ ص ١٧٨ س ١٥-١٧؛ الخطط، ٢ ص ١٦٩ س ٥؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٨٩.

(٣) الخطط، ٤ ص ١٥٦ س ٢٥-٢٦.

أخذ بعضهم من أنفسهم يظهر من سب من تقدم على عليّ، ومن خالفه وحاربه وباينه، وهم من اصطاح على تسميتهم بالصحابية والسلف. فجهروا بلعنهم على المنابر، وكتبوا على الحوائط، وسموهم بأسمائهم، وهم: عائشة زوج النبي التي حاربت علياً في موقعة الجمل، وأبو بكر وعمر وعثمان وكل منهم منع علياً من الخلافة، وطلحة والزبير اللذان حاربا علياً في موقعة الجمل مع عائشة، والخليفة معاوية وواليه عمرو بن العاص، وغيرهم من سائر خلفاء بنى العباس^(١). ويؤيد المقريري ذلك بقوله: إن هذا اللعن كان من رأى جماعة المصريين، الذين كتبوه بالأصباغ في سائر المواضع على أبواب الحوانيت والبيوت وسائر المساجد، وعلى المقابر أو حتى في الصحراء مبالغة. والواقع أن الحاكم لم يكن مسئولاً عن لعن السلف وسبهم في عهده، وعلى النقيض كان يأمر بمحوه، ويؤدب بالعقاب من يسبهم إلى حد قتله^(٢). وينقل عن الحاكم قوله: لا يسب السلف لقول بعض آبائه الأئمة- في وصيته لشيعته- ولا تكونوا سبابين ولا عيايين. ولدينا سجل أصدره الحاكم، ليقرأ في كل مكان على جميع الناس، في رمضان ٣٩٨/ يونيو - يوليو ١٠٠١، يظهر فيه منع سب السلف^(٣).

*

كذلك أحسن الفاطميون معاملة أهل الذمة، كما كان الخلفاء^(٤) الفاطميون لا يترددون في تفسير ما يتعلق بالمسيح، ويبدون رأيهم فيه بما يتفق مع الإسلام؛ حيث إن علمهم الإلهي لا يجعلهم يتخرجون من ذلك. فقد كانوا يتركونهم أحراراً في الاحتفال بأعيادهم، مثل^(٥)؛ النيروز وهو عيد رأس السنة الميلادية القبطية،

(١) عيون، ٧/٦ ورقة، ٢٦٤ س ١٢ وما بعدها.

(٢) الخطط، ٤ ص ٦٩-٧٠، ١٥٨، ١٦٠ (على الخصوص، انظر. ماجد، الحاكم، ٨٨).

(٣) عيون، ٧/٦ ورقة ٢٦٥. ولدينا صيغة أخرى للسجل ذاته. ابن خلدون، العبر، ٤ ص ٦٠-٦٩؛ انظر. عنان، الحاكم، ص ٧٧.

(٤) عن ذلك، انظر. Troupeau. Un traité christologique attribué au Calife Fatimide al.:: Mu' izz. Ahn Islamo, 1979, P. 11 sqq.

لدينا رسالة تسمى: المقالة المسيحية، من تأليف الإمام المعز الخليفة بمصر؛ وإن كان النص فيه تأويل؛ حيث أن علمهم الإلهي، لم يجعلهم يتخرجون من ذلك، بما يتفق مع الإسلام. فالمسيح موصول باله، ولا مفصول عنه كقرص الشمس والشعاع، فهو باطن بما ظهر، وظاهر بما بطن، ظاهره نبي رسول، وباطنه غيب لا يدرك، وهو الروح القدس، وهو اللاهوت القديم.

(٥) انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ ص ١٢١ وما بعدها (توجد مصادر كثيرة)، التي أهمها: الخطط، ٢ ص ٢٤ وما بعدها.

وعيد الصليب وهو اليوم الذي عثر فيه البيزنطيون على الصليب الذي صلب المسيح عليه في القدس، وعيد الفطاس، وهو ذكرى تعميد المسيح بفلسطين. بل سمحوا للمسلمين بمشاركتهم فرحهم فيها، وكانت الدولة تطلق المأكولات والملابس للموظفين من أهل الذمة والمسلمين، زيادة في الابتهاج، وحتى تصدر عملة تذكارية مثل العملة المسماة خروية، التي كانت برسم خميس العهد أو العدى، الذي كان يعمل قبل النيروز.

كذلك كان البطريرك القبطى إذا تولى سلطته الدينية استقبله الخليفة الفاطمى استقبالاً رسمياً فى قصر^(١). ولدينا وصف استقبال بطريرك القبط فى عهد المستنصر، الذى أرسل إليه فى الإسكندرية -مقر البطريركية- عشاري خاص، وهو مركب من مراكبه، لينقله إلى مصر. فلما وصل البطريرك إلى مصر، انتظره خلق كثير، ودخل إلى القاهرة من باب اسمه البحر فى مركب رسمى، يحيط به القرأ الذين لعلهم يرتلون الإنجيل. وحينما وصلوا إلى قصر الخليفة، خرج إليهم صاحب الرسالة -موظف بالقصر للمقابلات- وقال للبطريرك: أمير المؤمنين يرد عليك السلام، فسكح البطريرك، أى أثنى إلى قرب الأرض، ثم دخل البطريرك وحده على الخليفة، الذى عنده أمه وأخته جالستان، وبين أيديهم طيب كثير، فضمخوه به وقالوا له: «بارك علينا وعلى قصرنا». فبارك عليهم، ودعا لهم ففرحوا به، ثم خرج فوقف على باب القاعة وأمر أحد تلاميذه أن يقرأ دعاء خاصاً، فقرأه. وبعد ذلك، سار مركب البطريرك إلى دار الوزير، وقرأ الدعاء ذاته، ولقى الترحيب ذاته، ورجع فى صحبة والى القاهرة.

وحتى الأديرة النائية كانت تحظى برعاية الخلفاء الفاطميين، وزيارتهم، وخصوصاً إذا كان الخليفة فى رحلة صيد؛ حيث عرف خلفاء الفاطميين بحبهم للصيد. فقد كان الأمر كلما خرج للصيد بالقرب من دير نهيا إلى القرب من الجزيرة، منح رهبانه المال^(٢). كذلك لدينا سجلات فى دير القديسة كاترين بسينا^(٣)، برسلة من قبل الخلفاء والوزراء الأقوياء، لتأمين الرهبان فى هذا

(١) سير الأباء، ٢ ورقات، ٨٨-٨٩؛ انظر. ماجد، المستنصر بالله، ص ٦٦.

(٢) أبو صالح، الكنائس والأديرة، ص ٧٧-٨٧.

(٣) مقالة أحمد عيسى؛ مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء، مقالة بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس، ١٩٥٦، ص ١٠٥-١٢٤؛ جوزيف نسيم، دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبي، المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين، فصل ١٩٦٤ صفحات ١٧٩ وما بعدها.

الدير على أرواحهم وممتلكاتهم، مثل تلك السجلات المرسلة من الحافظ والفائز وطلائع وشيركوه.

ولكن في عهد الحاكم بالذات، عمد إلى مراقبة أهل الذمة، أحياء لتقاليد الإسلام الأولى، لإظهار ما في الإسلام من العزة، أو أنه ربما قصد أيضاً تحويلهم إلى الإسلام. وفي الواقع إنه منذ عمر بن الخطاب الذي وضع لأهل الذمة شروطاً تنظم تصرفاتهم في المجتمع الإسلامي، عرفت بالشروط العمرية أو العهد العمري، لم يكن أغلب حكام المسلمين يلجأون إلى هذه الشروط، إلا في حالات الاضطهاد والحروب. ولذلك اعتبر أهل الذمة رجوع الحاكم إلى هذه الشروط وزيادته عليها^(١)، امتحاناً لهم من قبل الله، يذكرهم بما عانوه في عهد الاضطهاد السابقة^(٢).

وأكبر الظن أن رجوع الحاكم إلى الشروط العمرية، يرجع إلى أن أهل الذمة كانوا قد اشتد بأسهم بين المسلمين. وأنهم تمكنوا في الدولة الفاطمية؛ بسبب تسامح الخلفاء، حتى أنهم كثروا في الإدارة، وتقلدوا أعلى مناصبها: بما فيها الوزارة؛ كما ذكر، ويبدو أن العامة من المسلمين كانت تشكو قسوة الموظفين من أهل الذمة، ويصف أحد الشعراء وصول اليهود منهم إلى أعلى المناصب بقوله^(٣) :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم، والنال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إنني نصحت لكم تهودوا، قد تهود الفلك

ومع ذلك؛ فإننا نلاحظ أن الحاكم كان أشد وطأة على القبط الملكانية دون بقية أهل الذمة. فنعرف أن القبط في مصر طوائف مختلفة^(٤)، منها: الملكانية على

(١) وفيات، ٢ ص ٥ س ١٤؛ الكامل، ٧ ص ٢٤٠ وهامش. نقل عن ابن كثير في البداية والنهاية. من الشروط العمرية؛ انظر. ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥٠ هـ)، شرح الشروط العمرية، تحقيق صبحي الصالح، دمشق ١٩٦١.
كذلك، صبح، ١ ص ٢٥٦، ٢ ص ٢٢٤؛ انظر.

Ency (art. Kibt) t 2, P. 1049-1050.

(٢) انظر. Hakem, P. 110 : Betty

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، ٢ ص ١١٦.

(٤) يحيى (شبخو) ص ١٨٦ س ٥.

مذهب بيزنطية (الروم)، ولذلك كانت تعرف باسم ملكانية الروم أيضاً، والنسطورية وهي كنيسة مستقلة عن بيزنطة، ولا سيما اليعقوبية أو الأرثوذكسية ملة غالبية قبط مصر، التي كانت ظهرت لها كنيسة مستقلة هي الأخرى. فكانت للروم الملكانية أحياء^(١) خاصة بهم، عرفت منها: حارة الروم الجوانية عند باب النصر، وحارة الروم السفلى عند باب زويلة، وكان منهم من يرتزق بالجندية؛ بينما كان القبط وأقلية من اليهود يعيشون مع المسلمين في أحيائهم. ومع أن المعز لم يتعصب لطائفة من القبط على الأخرى؛ إلا أن نفوذ الملكانية كان قد ازداد في عهد العزيز؛ بسبب زواجه من نصرانية ملكانية كما ذكرنا، أنجبت له سيدة (أو ست) الملك^(٢)، أخت الحاكم؛ بحيث إن العزيز عين أخويها في أعلى مناصب الكنيسة؛ فعين أريستس (Oreste) بطريركاً على بيت المقدس، والآخر أرسانيوس "Arsenius" (أساميس أو أرساني)، بطريركاً على القاهرة ومصر، ومنذ ذلك الوقت، استبدت طائفة الملكانية في البلاد، وحتى بطائفة الأرثوذكس المسيحية^(٣).

وقد انتهزت الملكانية هذه الحرية؛ فأظهروا شعائرهم بطريقة صارخة، ففي ليلة الغطاس أو ما يعرف بليلة الحميم؛ كانوا يخرجون من كنيستهم، ويسيرون في الشوارع، يقرأون بتلحينات ومعهم الصليبان المشهورة، والشموع الموقدة؛ فإذا وصل الموكب على شاطئ النيل، الذي أسرج بالمشاعل، صلّوا وقَدَسُوا، ووقف وخطب بالعربي في هذه الذكرى، ودعا للخليفة. ثم بعد ذلك، يغطس القبط في النيل، حتى يتطهروا أو يبعدوا عنهم المرض، وكان المسلمون يغطسون معهم، تكثر الزوارق، ويبالغ الناس في المأكّل والشرب والعزف والقصف^(٤).

وعلى العموم قام الحاكم بتنفيذ الشروط العمرية مع أهل الذمة، وإن استثنى منهم الخيابرة^(٥)، وهم يهود أصلهم من خيبر وما يجاورها- الذين كان

(١) أنظر. Locations of non- Muslim quarters in Medieval Cairo. Ann Islamo t, Doris. XXII, P. 117 sqq.

(٢) يخطئ. كنار "Canard"، الذي يرى في مقالته عن الحاكم في (Ency, de l'Isi, 26d)؛ أن الحاكم أيضاً من أسرة هذه السيدة النصرانية. أنظر. كتابنا: الحاكم بأمر الله الخليفة المقتدى عليه، ص ٢٤-٢٥.

(٣) يحيى (شيخو)، ص ١٦٤-١٦٥؛ سير الآباء، ٣ ورقة ٥٠؛ ابن العميد، ص ٢٤٧.

(٤) يحيى (شيخو)، ص ١٩٦-١٩٧.

(٥) عن خيابر، أنظر. معجم البلدان، ٣ ص ٤٩٢-٤٩٧.

عمر نقلهم من الجزيرة إلى مصر- وذلك جرياً على السنة الأولى منذ أيام النبي. فأصدر الحاكم الأمر إلى أهل الذمة بالتمييز عن المسلمين بعلامات خاصة عرفت بالغيار، بوضع زناير ملونة جعلها أسود حول أوساطهم، ولبس العمائم السوداء على رؤوسهم^(١)، وتلفيعات سوداء (طيلالس)- وذلك لأن اللون الأسود هو شعار أعدائهم العباسيين كما ذكرنا- وجعل القبط يحملون صليباً واليهود يحملون الخشب إشارة إلى رأس العجل، ومنعهم من ركوب الخيل، وركوب البغال والحمير، بركب من خشب وسروج ولجم من سيرسود غير محلاة بفضة، وأمرهم أن يتميزوا في الحمامات عن المسلمين، ثم أفرد لهم حمامات على حدة.

ولكن أهل الذمة في أغلبهم نزعوا الغيار، وتشبهوا بالمسلمين، حتى لا يعرفوا^(٢). فنأدى الحاكم بأن يلتزموا بما أمر أو يسلموا، وخير القبط الملكانية في الهجرة إلى بلاد الروم أو الحبش أو النوبة^(٣). ثم اتخذ قوانين صارمة منذ حوالي ١٠١٠/٤٠٠، استمرت إلى آخر حكمه؛ فجعل النصارى يحملون صليباً ثقيلاً. فبعد أن كانت طولها شبراً، جعلها ذراعاً ونصفاً، زنتها خمسة أرتال، وختمها بالرصاص، فجعلهم يلبسون الزنار- شريط حول الوسط- ويحملون الخشب الثقيل. كذلك أمر النصارى بالآلا يظهرها صليباً، أو ناقوساً، ونزعت الصليبان نواقيس^(٤). كما منع أهل الذمة، من التظاهر بالأعياد^(٥)، مع أن لم يمنعهم من إدهم في أول الأمر. وأكثر من ذلك هدم الكنائس والبيع والأنيرة في مصر^(٦)، سار أملاكها^(٧) واحتاط على ما يوجد في الكنائس، وجعله ملكاً للدولة بوان^(٨)، وفي خارج مصر هدم كنيسة القيامة المقدسة، التي يحج إليها

من مصادر متعددة: يحيى (شيخو)، ص ١٨٧، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٢-٢٠٣؛ سير الأباء، ٣ رقات ٥٤-٥٥؛ ابن حنبل، ص ٥٤؛ الخطط، ٤ ص ١٥٧-١٥٨.
 سير الأباء، ٢ ورقة ٥٦.
 الكامل، ٢ ص ٢٤٠؛ سير الأباء، ٢ ورقة ٥٦.
 سير الأباء، ٢ ورقة ٥٤؛ يحيى (شيخو)، ص ٢٠٠، ١٦-١٧، ٢٠٣، ص ١٧-١٨.
 الخطط، ٤ ص ٢٩٩ ص ٤-٥.
 نفسه، ٤ ص ٣٩٩.
 يحيى (شيخو)، ص ٢٢٩، ٢٣٢.
 نفسه، ص ٢٣١.

النصارى^(١) ومع ذلك، فعلى حسب قول المقرئى؛ فإن الحاكم لم يهدم غير كنائس وأديرة ملكانية^(٢). ويبدو أن العوام المسلمين، انتهزوا هذه الأوامر، فكانوا يأتون بأمر فظيعة لم تشاهد من قبل، مثل أنهم يدخلون الأديرة والمقابر، ويأخذون توابيت الموتى، ويحرقون الكتب، ولكن الحاكم أنكر فعل ذلك، وأمر بالكف عنه^(٣). وقد نسب إلى الحاكم أفعالاً ظالمة كثيرة نحو أهل الذمة، مع أنها من أفعال رعاياه المسلمين المتعصبين، وهو برئ منها.

ومهما يكن، فإن الحاكم فى آخر سنة من حكمه عدل عما زاده على الشروط العمرية، واكتفى من أهل الذمة بلبس الغيار^(٤) وهى العلامة المميزة. فأصدر سجلات متفرقة، يأمر فيها بإعادة بناء الكنائس، ورد أوقافها^(٥) وربما أعاد بناء كنيسة القيامة^(٦)، التى قد يكون أعيد بناؤها فى عهد الظاهر^(٧) أو المستنصر^(٨) ولما قيل للحاكم إن الذين أسلموا من أهل الذمة، أن دخولهم فى الدين الإسلامى لم يكن عن إيمان، وخبروه بين أن يقتلهم أو يرجعوا إلى دينهم، سمح لهم الحاكم بالرجوع إلى دينهم، على أن يلتزموا بلبس الغيار^(٩)؛ بحيث إنه ارتد منهم فى يوم واحد أكثر من سبعة آلاف يهودى إلى دينهم^(١٠)؛ كما ارتد قبط كانوا قد تظاهروا بالإسلام من سبع سنوات^(١١) وقد أصدر الحاكم سجلاً^(١٢) هاماً عليه علامته، يطمئن فيه أهل الذمة بحمايته لهم، ما داموا قد التزموا بأوامره.

(١) أنظر. قبله.

(٢) الخطط، ٤ ص ٣٩٩ س ٢٥.

(٣) يحيى (شيخو)، ص ١٩٧.

(٤) نفسه، ص ٢٢٢ س ٥-٦.

(٥) نفسه، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٦) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٢ س ١٢.

(٧) الخطط ٢ ص ١٦٩ س ٨-؛ أنظر. Dölger, Regesten der Kaiserurkunden des Ostro-mischchen Reiches, I. Berlin- Munich 1824.

؛ أسد رستم؛ الروم، ١ ص ٦٤.

(٨) العيني، تاريخ، ودرقات ١٨٥-١٨٦.

(٩) يحيى، ص ٢٢٢ س ٥-٦.

(١٠) ابن إياس، ١ ص ٥١.

(١١) يحيى (شيخو) ص ٢٢٢ س ٥-٦.

(١٢) نفسه، ص ٢٢٢-٢٢٣؛ أنظر. ماجد، الحاكم، ص ١٠٣-١٠٤.

وقد وجد مؤرخو السنة وغيرهم في رجوع الحاكم عن شدته مع أهل الذمة، دلالة على مروقه عن الإسلام؛ فقد سمح لمن أسلم من أهل الذمة بالارتداد، مع أن ذلك عقابه القتل، ولكن الحاكم يرد على ذلك بقوله: « ننزه مساجدنا عن أن يدخلها من لا نية له في الإسلام^(١)، ولا سيما أن بعض من أسلم لم يكن إطلاقاً عن إيمان، فقد وجد منهم من يشارك النصارى في الصلاة والتقديس، وأخذ القربان^(٢). ومن بعده خلفه الظاهر، فكان يسمح هو الآخر لمن أظهر الإسلام دون رغبة أن يعود إلى النصرانية؛ فرجع كثير منهم إليها^(٣). ولا ريب، ففي ذلك الوقت، كان الشعب المصري في فترة قلق، يغير دينه من النصرانية ويتحول إلى الإسلام. فينقل المؤرخون ديالوجاً بين مصري أسلم، وآخر لم يسلم، فمن قوله له: « أكسر الصليب، وادخل في الدين الواسع^(٤)، كذلك كان الحاكم يرى إعادة الكنائس للنصارى، مع أن غيره لا يجوز إعادتها ولو هدمت بغير وجه حق؛ كما يقول السيوطي^(٥)؛ فلأن الحاكم نظر إلى الأمور نظرة واقعية؛ فقد كان القبط يكونون وقتئذ ثلث سكان مصر، ويؤيد رأينا أحد اليهود المعاصرين^(٦) للحاكم مدح تصرفاته نحو أهل الذمة، وعدله وإحسانه في البلاد.

* * *

والخلاصة أن الفاطميين ساروا في سياستهم الداخلية في مصر بسياسة متنورة، ترعى حقوق الشعب المصري؛ وإن سعت في الوقت ذاته إلى صبغه بصبغة فاطمية إسلامية.

(١) شذرات، ٣ ص ١٥٠.

(٢) يحيى (شيخو)، ص ٢٢٨ س ٧-٩.

(٣) الخطط، ٢ ص ١٦٩ س ١٠-١١.

(٤) سير الأبياء، ٢ ورقة ٥٨.

(٥) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٣ س ١٤-١٥.

(٦) نشره Neubauer في : Jewish Quarterly Review IX. 25.

وأيضاً. انظر: Kaufmann.

Beiträge zur Geschichte Aegyptens ansjudischen Quellen. Z.,D.M.G.L.I. (1897) 442-

;-3;

Ency de l'Isrl, (art. Hâkim). 2 éd, t 3, P. 83 : Canard

الفصل السادس

كوارث الخلافة

المجاعات- طوائف
الجيش وتعددها- استفحال تنازعها
في عهد المستنصر- ظهور أطماع رجال
أقوياء مثل: ناصر الدولة والدكز- مجمع بدر
الجمالى وقضاؤه على أعداء الخلافة- إعادة تنظيم
الدولة- استيلاء بدر على السلطة- تدخل الأفضل في
تعيين المستعلى والأمر- انقسام الدعوة إلى فرقتي
المستعلية والنزارية- تولية المحافظ- ظهور الدعوة
الطبيية- تدخل الوزراء في تعيين الظاهر
والفائر والعاقد

بكواريث الخلافة

ولكن هذه الدولة التي بلغت القمة في الازدهار داخلياً وخارجياً، جرت حياتها على سنة الحياة في أن يلاحقها الضعف والاضمحلال. ونجد أن عوامل الضعف فيها يرتبط بعضها ببعض، مثل عوامل الازدهار، وإن كان بعضها قد ظهر في أثناء الازدهار، وإن بعضها الآخر قد أدى إلى بعض.

فمصر الإسلامية - منذ عهد الولاة الأمويين - كانت تختابها من وقت لآخر المجاعات^(١)، التي تأتي غالباً من تقصير النيل عن ارتفاعه؛ مما يترتب عليه ألا تجد أرض مصر المياه اللازمة، فتترك الأرض بدون زراعة، ويتعذر وجود الأقوات، ويؤدي ذلك إلى ارتفاع الأسعار، فضلاً عن أنه كان يزيد استهلاكاً سوء تدبير الحكام، وغفلتهم عن معالجتها^(٢).

وقد استمرت المجاعات قبل مجئ الفاطميين في عهد الإخشديين تسع سنوات؛ بحيث إن وقوعها كان السبب في مجئ الفاطميين. فيذكر المؤرخ المقرئ أن مجئ الفاطميين كان سببه الضنك من المجاعات، وتعذر وجود الأقوات؛ بحيث إن المصريين كاتبوا المعز الفاطمي^(٣). فلما وصل الفاطميون مصر، عملوا على تخفيف حدة المجاعات القائمة؛ بما اتخذوه من إجراءات؛ منها حمل الغلال معهم من المغرب. كذلك كان الفاطميون إذا قصر النيل كتموا مقاييسه إلى أن يوفى إلى الحد المرموق^(٤)؛ حتى لا يحدث اضطراب في الأسعار، واختفاء الأقوات، وذلك على عكس ما كان يحدث قبلاً؛ فكان ينادى على ارتفاع النيل يومياً.

وقد اهتمت الخلافة الفاطمية بنظام الحسبة^(٥)، وهي كلمة في الإصطلاح الإسلامي تعنى مراقبة الأسواق، ومحتسب يعنى مراقب الأسواق فكان يعين لها موظف كبير، يستخدم النواب^(٦) والعرفاء - أي الخبراء - من بين أرباب الصناعات

(١) إغاثة، ص ١١.

(٢) نفسه، ص ٤ س ٢.

(٣) النجوم، ٤ ص ٧٢ س ١٥-١٧، إغاثة، ص ١٤٦-١٤٧.

(٤) الخطط، ١ ص ٩٧-٩٨؛ إغاثة، تحقيق جديد، ص ١٢٨.

(٥) ابن خلدون، المقدمة ص ١٧٨؛ الماوردى، الأحكام، ص ٢٠٨ وما بعدها؛ ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، القاهرة ١٣١٨هـ؛ انظر.

Ency. (art. Hisba) t 2, P. 337 : (art. Muhtasib) t 3, P. 701.

؛ ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ١٦١ وما بعدها.

(٦) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٢.

والتجارة- بالقاهرة ومصر وفي جميع أجزاء الدولة، بقصد مراقبة الأسعار. وكان إذا كذب أحد التجار على أحد المشتريين، أو باع بأكثر من الثمن؛ فإنه يدفع بالتاجر على جمل، ويعطى جرساً بيده، ويطوف به في المدينة، وهو يدق الجرس ويقول: « قد كذبت وها أنا أعاقب، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب»^(١).

ولكن عادت المجاعات إلى الظهور في عهد الخليفة الحاكم بين ١٠٠٣/٣٩٥ إلى ١٠٠٩/٣٩٩^(٢)، واتخذ هذا الخليفة من الإجراءات ما يدل على كبر عقله وتفانيه في القيام بواجبه. فكان يعمل على تثبيت الأسعار بمنع تذبذب العملة، بتحديد مقاديرها، وإنزال عملة جديدة تفرق على الصيارفة، ثم أقام سعراً لكل شيء، ولا سيما الحبوب والمبيعات؛ كما كان يدخل البيوت، ويوزع الأموال على الناس بنفسه. وكذلك استخدم وسائله الخاصة في منع الناس من تخزين الأقوات؛ فضرب جماعة بالسوط وشهرهم، وأمر ألا يباع القمح إلا للطحانين؛ كما كان يكبس الحواصل والبيوت للبحث عن القمح، ويفرقه على الطحانين بالسعر الرسمي. وفي مرة ركب حماره، وقال: « أنا ماض إلى الجامع، فأقسم بالله لئن عدت فوجدت في الطريق موضعاً يطؤه حمارى مكشوفاً من الغلة، لأضرب رقبته كل من يقال لى إن عنده شيئاً منها، ولأحرقن ناره وأنهبن أمواله». فلما عاد في آخر النهار، لم يكن قد بقى أحد من أهل مصر والقاهرة إلا وعنده غلة، حتى حملها من بيته أو منزله، وسعى بها في الطرقات، فامتلات عيون الناس، وشبعت نفوسهم. ويدل على بعد نظره أيضاً، أنه أمر بمنع ذبح الأبقار السليمة من العاهة إلا في أيام الأعياد حتى لا تنقرض.

وكان الحاكم تواقاً إلى أن يقطع دابر المجاعات عن مصر، فسمع أن شخصاً من العراق اسمه أبو علي بن الحسين بن الهيثم^(٣)، نبغ في الهندسة، وأنه قال: لو

(١) سفرنامه، ص ٦١.

(٢) إنفاثة الأمة، ص ١٤، وما بعدها؛ يحيى (شيفو)، ص ١٩٤-١٩٥؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٦٤.

(٣) ابن العبري، ص ٢١٦ وما بعدها؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٦٤-٦٥. كذلك في عهد المستنصر، أرسل البطريرك إلى الحبشة لطلب إصلاح مجارى النيل، وإن لم يحدث شيء بطبيعة الحال. صبيح، ص ٢٢٣.

كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص. فأرسل الحاكم إليه جملة من مال، وحثه على المجيء إلى مصر. فلما وصلها خرج الحاكم بنفسه للقاءه، وأمر بإنزاله وإكرامه، وسيّره مع جماعة من الصناع في طول الإقليم المصري حتى وصل إلى أسوان. ولكن ابن الهيثم لم يستطع أن يقوم بشيء، واعتذر عن عجزه؛ فأبقاه الحاكم عزيزاً مكرماً إلى وقت وفاته.

ولكن زادت المجاعات في عهد الظاهر؛ بسبب كثرة الفئران التي آثت على كل شيء، وانشغاله باللهو عن رعاية الأمور، حتى أن رجال الدولة فكروا في خلعه، لولا أنه أسرع بتفرقة الأموال. وقد صاح الناس في مظاهرة قاموا بها بالخليفة^(١): «الجوع، الجوع، يا أمير المؤمنين، لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك، قاله الله في أمرنا؛ كما أنه لما عمل السمامط في عيد النحر، كبست طوائف العسكر عليه، وهم يصيحون: «الجوع، الجوع»^(٢). ونهبوا سائر ما كان عليه. ويبدو أن الدولة لم تحصل على مالها- ولعل الناس امتنعت عن دفعها- ملأ الحبوب بالرجال والنساء، حتى النساء الحبالى ولدوا في الحبوب^(٣). وعلى كل حال عولجت هذه المجاعات لأن الدولة الفاطمية كانت لا تزال فتية، فمن الإجراءات التي اتخذتها منع ذبح الماشية لاستكثارها^(٤) ولما ذهب شيخ المجاعة، عاد الناس إلى الدعة والطمأنينة، واشتغلوا بالأكل والشرب.

ولكن عادت المجاعات إلى أشدها في عهد المستنصر، الذي تولى بعد الظاهر، فوقعت في عدة سنين من حكمه؛ في ٤٤٤/١٠٥٠، وفي ٤٤٦/١٠٥٢، وفي ٤٤٧/١٠٥٥ و ٤٤٨/١٠٥٦، وفي ٤٥٠/١٠٥٨^(٥)، وكلها في وزارة اليازوري،

(١) سير الأباء، ٣ ورقة ٦٨.

(٢) الخطط، ٢ ص ١٦٨ س ٢٢.

(٣) سير الأباء، ٣ ورقة ٦٨.

(٤) الخطط، ٢ ص ١٦٨ س ١٤-١٥.

(٥) ابن ميسر، ص ٦-٧؛ إغاثة، ص ١٨-٢٠؛ العيني، تاريخ، ورفقات ١٨٦؛ انظر. ماجد،

المستنصر، ص ١٤٥-١٥٦.

فعالج اليازورى هذه المجاعات ارتجالياً؛ بقصد التقرب من الخليفة، إذ عرف بأنه وصولى. فقد كان المستنصر يشتري فى كل سنة بمائة ألف دينار غلة ويخزنها ويتاجر فيها، ويبيعها بالسعر الذى يريده. فكان الاحتفاظ بهذه الغلة أشبه باحتياطى للبلاد، فضلاً عن أن التجار كانوا مجبرين على البيع بالسعر الذى يبيع به الخليفة. ولكن اليازورى حض المستنصر على ألا يخزن الغلال؛ وأن يخزن غيرها من المواد التى تأتى بربح أكبر، مثل: الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وشبه ذلك. وترتب على ذلك أنه لما حدثت المجاعات، ولم يعد يوجد احتياطى من الغلات؛ كما تلاعب التجار بأسعار الغلال التى فى حوزتهم، وكانوا يخفونها لبيعها بالسعر الذى يريدونه. وقد أدرك اليازورى خطأه، فعمل على مصادرة ما فى مخازن التجار وختم عليها؛ كما لجأ إلى المفاوضات مع ملك الروم قسطنطين التاسع "Constantine IX Manomachus" فى سبيل استيراد ما مقداره أربعمائة ألف أردب من الحبوب. ولكن لما مات هذا الملك، وتولت بعده ثيودرة "Theodora" عاقت إصدار القمح^(١). على كل حال، خففت هذه الإجراءات السريعة من قبل اليازورى من حدة المجاعات فى البلاد، وشهد له بعض المؤرخين بهراعتة فى ذلك. ومن ناحية أخرى؛ فإن بعض حكام ملوك الطوائف بالأندلس أرسلوا إلى إخوانهم المصريين سفناً مملوءة بالطعام^(٢)، ولدينا رسائل ودية متبادلة بين على بن مجاهد العامرى صاحب دانية والخليفة المستنصر فى سنة ٤٥٢/١٠٦٠^(٣)، بل أعاد المصريون بدورهم السفن محملة بالذخائر الحربية، كى يستطيع إخوانهم الأندلسيون الاستعانة بها فى كفاحهم ضد الأسبان^(٤).

ولعل أكبر مجاعة حدثت فى عهد هذا الخليفة، هى تلك التى امتدت عدة سنين بشكل لم يعرف من قبل، من ٤٥٧/١٠٦٥ إلى ٤٦٤/١٠٧١^(٥)، أى

(١) ابن ميسر، ص ٦-٧.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٤٥٢. ٢٥٤؛ انظر. مختار العبادى، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ١٩٥٧، ص ٢١٧.

(٣) ابن الأبار، التكملة، ص ٦٢٢.

(٤) الحلل الموشية، ص ٧٢؛ انظر. مختار العبادى، الصقالبة، مجلة معهد مدريد ١٩٥٢، ص ٢٦ حاشية (٤).

(٥) إغاثة، ص ٢٤ وما بعدها.

استمرت سبع سنين؛ وإن بلغت أشدها في ٦٩/٤٦٢ ١ وهذه المجاعة العارمة
عرفت بالشدة المستنصرية، نسبة لهذا الخليفة، وشبهت بأنه لم يحدث مثلها منذ
أيام يوسف الصديق؛ كما وصلت آثارها إلى أماكن أخرى في الشرق في العراق
والحجاز، وحتى في بلاد ما وراء النهر^(١). وقد كان أساسها تقصير النيل، ولدينا
قوائم مستوى النيل في أثناء هذه الشدة^(٢).

وقد كانت هذه المجاعات شديدة على الأهالي، حتى عانوا الأمرين في
معيشتهم. فتعذر وجود الأقوات، وارتفعت الأسعار، فبلغ رغبة العيش ١٥
دينار^(٣) (٧ جنيهات^(٣))، بل لم تعد للأموال أهمية في سبيل الحصول على الأكل،
حتى أن حارة سميت بحارة الطبق؛ إذ بيعت فيها عشرون داراً لقاء طبق من
الأكل^(٤). كذلك باعت نساء الأسر الغنية جواهرهن. فقد باعت امرأة عقداً لها
يساوي ألف دينار^(٥). لتحصل على القليل من الدقيق. ولكن هذا الدقيق نهبه
الناس وهو في الطريق، واضطرت هي أن تأخذ منه ما يعجن قرصة. فأخذت هذه
القرصة ووقفت في مكان مرتفع، ورفعتها في يدها؛ بحيث يراها الناس، ونادت
بأعلى صوتها؛ يا أهل القاهرة، ادعوا لمولانا المستنصر، الذي أسعد الله الناس
بأيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره، حتى تقومت على هذه القرصة بألف
دينار. بل اضطر أعيان الدولة ورؤساؤها أن يخدموا الناس لقاء كسرة من الخبز؛
لكونهم باعوا جميع موجودهم من الغلال، حتى أن رجلاً ذهب الحمام، فطلب
صاحب الحمام من الرجل أن يخدمه سعد الدولة أو عز الدولة أو فخر الدولة^(٦).
ويذكر بعض المؤرخين أن الملكة أم المستنصر وبنااته نزحن إلى بغداد^(٧)؛ وإن ذكر

(١) العيني، تاريخ، وريقات ١٨٧ - ١٨٨.

(٢) انظرها في أبي المحاسن؛ النجوم الزاهرة، الجزء الخامس.

(٣) ابن إياس، ١ ص ٦٠.

(٤) ابن أبيك، كنز الدرر، ٦ ورقة ٢١٥.

(٥) إغاثة، ص ٢٥ - ٢٦.

(٦) النجوم، ص ١٦ س ٦-٩.

(٧) اختلف أيضاً في التاريخ، لتقيل ١٠٦٨/٤٦٠ أو ١٠٦٩/٤٦٢. النجوم، ص ٣ س ١١؛

وفيات، ص ٥٥١ س ٦.

آخرون إلى الشام، وهذا أقرب إلى الحقيقة للعداء بين العراق ومصر؛ كما أن بعض أهل مصر هاجروا وتشقتوا في البلاد، ولم يكن المستنصر نفسه يجد ما يقتات به في أثناء هذه الشدة، ويركب وحده، وكل من معه من الخواص مترجلين ليس لهم دواب يركبونها، وكانوا يتساقطون في الطرقات من الجوع^(١).

كذلك اضطر الناس إلى أكل الميتة من الكلاب والقطط، والبحث عن شرائها؛ فبيع الكلب بخمسة دنائير^(٢)، والقط بثلاثة دنائير. وقد حكى أن وزير الخليفة نزل يوماً عن بغلته، فغفل عنها الغلام لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصلبوا، فأصبح الناس فلم يروا إلا عظامهم، لأن الناس أكلوا في تلك الليلة لحومهم^(٣)، وقيل للمبالغة أو للحقيقة إنه من شدة الجوع صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويشويه ويأكله ولا ينكر ذلك. بل صارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف وبأيديهم حبال فيها كلاليب؛ فإذا مر بهم أحد من الناس أقوا عليه تلك الحبال ونشلوه بتلك الكلاليب، في أسرع وقت، فإذا صار عندهم ذبحوه في الحال وأكلوه بعظامه، أو شرحوا لحمه وأكلوه، وعرف الزقاق الذي يجلسون فيه بزقاق القتل، ولكن الدولة تعقبتهم؛ وعملت على شنقهم^(٤).

هذه المجاعات زاد من حدتها أن صاحبها انتشار الأوبئة والأمراض، ولا سيما الجدري، الذي مات منه كثيرون. ففي سنة ٤٤٨/١٠٥٦، كان يموت كل يوم على الأقل ألف نفس^(٥)، ثم زاد إلى عشرة آلاف، وفي يوم مات ثمانية عشر ألفاً؛ بحيث كان المستنصر يكفن بالعشرين ألفاً على حسابه^(٦)، ويبدو أنه فني ثلث أهل مصر^(٧)، وقيل إنه مات مليون وستمائة ألف وخمسون ألفاً؛ فكانت

(١) وفيات، ٢ ص ٥٥١؛ العيني، تاريخ، ورقة ١٨٧ ب.

(٢) ابن إياس، ١ ص ٦٠.

(٣) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٥٤؛ النجوم، ٥ ص ١٦.

(٤) مثلاً؛ إغاثة، ص ٢٤؛ الخطط، ٢ ص ١٤١؛ ابن إياس، ١ ص ٦٠.

(٥) الكامل، ٨ ص ٧٩.

(٦) العيني، تاريخ، ورقة ١٨٧ أ.

(٧) نفسه، ابن إياس، ١ ص ٦١.

الأسواق لا يرى بها أحد؛ كما نزلت الجند الأرض لزراعتها، لعدم وجود الفلاحين. وقد نقص عدد القرى في عهد المستنصر إلى ٢٠٦٢ قرية^(١)؛ مع أنها بلغت في العصر الفاطمي الأول ٣٨٣٤^(٢)، ويذكر المؤرخون، أن خراب الفسطاط بدأ منذ الشدة المستنصرية؛ فتلاشت أحيائها الشمالية كالعسكر والقطائع، مع أن الفسطاط ازدهرت في أول عهد المستنصر، بأقوال الرحالين كما ذكرنا، وكانت القطائع مائة ألف دار، فصارت نتيجة لهذا الخراب لا توجد إلا كيमान، فيما بين مصر والقاهرة^(٣).

*

ومما زاد الطين بلة، حدوث نزاع بين طوائف الجيش الفاطمي وقيامها بغتة عديدة، أشاعت الفوضى في داخل البلاد. فالخلافة الفاطمية في مصر - مثل غيرها من دول الإسلام - لم تكن تعتمد على عنصر واحد في الجيش، وإنما على عناصر متعددة من أجناس مختلفة، حتى يوجد التنافس بينها في خدمتها^(٤)، وقد استمر بعدها من أول ظهور دولتهم إلى وقت سقوطها، فنعلم أن الخلافة الفاطمية كانت تستمد قوتها الحربية أول ظهورها في المغرب ثم في مصر من العنصر البربري، وهو ما عرف بالمغاربة نسبة إلى إقليمهم الذي أتوا منه، وهو بلاد المغرب، فعرفت منهم طوائف متعددة أشهرها؛ كتامة وزويلة ونحوها من طوائف البربر^(٥)، فكانوا يسكنون في معسكرات أو حارات أشبه بالمدن، فمثلاً المصامدة^(٦) وحدهم سكنوا حاره تضم أكثر من عشرين ألفاً. وقد كان المعز يقرب طائفة كتامة على حساب الطوائف الأخرى، وذلك لأنها أصل خلافتهم بالمغرب. ويبدو أنها أتت معه إلى مصر بكل عناصرها وبهم أخذ مصر؛ فكان شيوخها يحتلون وظائف الخلافة الكبرى^(٧).

(١) الكنائس والأديرة، ص ٩٠ وما يليها؛ انظر . عمر طوسون، مالية مصر، ص ٢٢٤-٢٢٩ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الفاطميين، ص ٢٩٠.

(٢) الخطط، ١ ص ١١٧ س ١٩-٢٠.

(٣) نفسه، ٢ ص ١٤١ س ٢٣-٢٥.

(٤) انظر . Sefer Nameh, trad. Schefer, P. 135.

(٥) الخطط، ٢ ص ١٨، ١٥، ٣٠، ٣٢-٣٣.

(٦) سفر نامة، ص ٥٣، ٥٧. أصلهم من بلاد المصامدة التي تقع في جنوب إفريقية، وتمتد حتى حدود المحيط الأطلسي. انظر . Ency de l'Isi, 13, P. 448-452.

(٧) الخطط، ٣ ص ١٧، ١٥.

ومع اعتماد الفاطميين الأوائل على المغاربة أساساً كما ذكرنا؛ إلا أنه لما استقر ملكهم في مصر، أخذوا يبحثون عن عناصر أخرى يستخدمونها في جيوشهم، حتى لا يستبد البربر، وخصوصاً أنهم قدروا أن المغرب قد يحاول الانفصال، مما يجعل طاعة المغاربة وإخلاصهم غير موثوق فيه. وفي يوم مجئ الفاطميين إلى مصر، شرع المعز في تكوين جيش خاص من الشباب من أهل البلاد (أولاد الناس)، أو من عناصر الماليك الذين يشترون، أو من سبي الفرنجة، أو من غيرهم، الذين يؤتى بهم صفاراً، فأقرده لهم ثكنات في قصره عرفت بالحجر، يعلمون فيها أنواع الحرب وصنوف حيلها، وسماهم بسبب سكتاتهم هذه الحجر باسم: صبيان الحجر أو غلمان الحجر، أو حتى الغلمان المصطنعين في القصر؛ حيث كان لكل حجرة اسم تعرف به، مثل: المنصورة والفتح والجديدة وغير ذلك^(١). كذلك جعلوا درجات؛ فبعضهم يعرفون بالحجرية الكبار، وبعضهم «حجرية الصفار، فلعل هذا التمييز راجع إلى سن المجندين، أو إلى التفوق في التدريب على الحرب، وكانت داخلة في التقدير عند الفاطميين، وقد سم زهاء خمسة آلاف نسمة. وكان على هؤلاء المجندين أن يتعلموا امتطاء الجواد وبمهارة، فأعد لهم اصطبلأ يرسم دوابهم، يعرف باسم: اصطبل برية.

ثم ظهر ميل الفاطميين إلى استخدام عناصر موجودة في الشرق من الديلم ناك^(٢)، كانوا يعملون كجنود مرتزقة في جيوش المسلمين، وعرفوا بسبب من الشرق بالمشاركة. وقد اعتبر العزيز أول من أدخل المشاركة من الديلم في الجيش الفاطمي، حتى أن عددهم كثر في عهده، وعرفت لهم بعض ات؛ كحارة الديلم وحارة الأتراك^(٣). وقد كان العزيز على خلاف المعز يقرب

نفسه، ٢، ص ٣٠٩-٣١١، ٢٧٨، س ١٠-١١؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١، ص ١٩٧-١٩٨.

١، نفسه، ١، ص ١٥٢، س ١٦-١٧، ٤، ص ٦٧، س ٢٢-٢٤؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١، ص ١٩٦.

الخطط، ٣، ص ١٢، ١٥.

المشاركة على حساب المغاربة، مما أوجد بين المشاركة والمغاربة تحاسداً^(١). ولما تولى الحاكم، وكان صغير السن، طمعت المغاربة في استعادة نفوذها الذي ضعف على يد العزيز، فدخل على الحاكم مقدمو كتامة وطالبوه بإبعاد المشاركة، وأجبروه على تولية شيخهم أبى محمد بن عمار^(٢) شئون الحكم، أو ما عرف بالوساطة، -وهى الوزارة- وهو الذى كان اشتهر بحروبه فى صقلية فقام ابن عمّار بتفرقة الأموال الكثيرة على طوائف المغاربة، وقرب كتامة وولى شيوخها الوظائف الرئيسية فى الدواوين والولايات، كما كانت فى أيام المعز. كذلك توقف عن صرف أكثر العطاء للمشاركة وأساء معاملتهم، فهرب كثير من المشاركة إلى الشام. وما لبث أن ظهر لابن عمّار منافس، وهو برّجوان (أو أرّجوان^(٣)). وهو خصى أبيض من الصقالبة من رجال القصر كما يبدو، الذى استعان به للمشاركة فى سبيل الوصول إلى الحكم. فقاتل بهم المغاربة وانتصر عليهم وتولى الحكم، وأعاد نفوذهم إلى أقصاه. ولكن الحاكم الذى كان قد دخل مرحلة الشباب، عمل على قتل الطامعين فيه بما فىهم برّجوان وابن عمّار، وأضعف نفوذ كتامة وأقضى شيوخهم^(٤)؛ حتى جاءت كتامة إلى قصر الحاكم كاشفين رهوسهم طالبين العفو والأمان، فقبل الحاكم توبتهم، ولما قامت فتنة أبى ركونة من المغرب، أضعف الحاكم من جديد نفوذ المغاربة؛ مما قوى من شأن المشاركة.

كذلك كان الفاطميون يستخدمون فى جيشهم السود أيضاً، مثلما فعل ابن طولون من قبل^(٥). وقد يكون الذى شجع على استخدام السود وجود المعاهدة المسماة البقظ^(٦)، التى عقدت منذ أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، بين العرب والنوبة كما ذكرنا، وبمقتضاها يسلم ملك النوبة إلى ولاية مصر عدداً معيناً من السود، مما جعل هؤلاء يكثرّون فى مصر. وقد استخدم الفاطميون من السود

(١) نفسه، ٣ ص ١٧ س ٢٨.

(٢) نفسه، ٣ ص ٥٧-٥٨؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤ و ٤٥؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٢٩ وما بعدها.

(٣) عنه؛ الخطط، ٢ ص ٤ وما بعدها؛ وما بعدها؛ وفيات، ص ١٥٥-١٥٦؛ الكامل، ٧ ص ١٧٧، الروذراورى، ذيل كتاب تجارب الأمم، تحقيق A.medroz، مصر ١٩١٦/١٣٢٤، ص ٢٢١ وما بعدها؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٣٠ وما بعدها.

(٤) يحيى (شيخو)، ص ١٧٨ س ٢١؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٣٥.

(٥) الخطط، ١ ص ١٥٢ س ٦ وما بعدها.

(٦) انظر. ما قبله.

نوعين: الزنوج- لعلهم من البقط- وعبيد الشراء أو الشرى، لأنهم عبيد مشتركون^(١)؛ وكثر عدد السود فى عهد الحاكم^(٢)، حتى أنه استعان بهم مع المشاركة ضد المغاربة^(٣). ولما زاد نفوذ السود فى عهد الحاكم، اتهموا بحرق مصر أو الفسطاط، فحاربهم المغاربة والمشاركة خوفاً منهم^(٤). وفى أيام المجاعة فى عهد الظاهر، هاجم السود قصر الخليفة، ممّا يبين قوتهم^(٥). كذلك زاد عدد السود زيادة هائلة فى عهد المستنصر، الذى كانت أمه سودانية، حتى صار عددهم زيادة عن خمسين ألفاً^(٦)، نصفهم من الزنوج والنصف الآخر من عبيد الشرى، فقد كان تجار الرقيق يسرقون أبناء البجة^(٧)، وهى عناصر سوداء تسكن بين النيل والحبشة، لبيعها للفاطميين. وقد سكنت طوائف السودان فى وقت المستنصر حارات عديدة معروفة، مثل: الحسينية والفرحية والميمونية والريحانية، وكانت الريحانية وحدها عدة حارات^(٨) ولكثرة السود عرف المستنصر باسم: صاحب السودان^(٩).

وإستخدام الفاطميون البدو^(١٠)، الذين هاجروا إلى مصر وكثروا بها، وكانوا يؤلفون طلائع الجيش الفاطمى وقت الحرب، وهم قبائل عديدة، عددهم خمسون ألف فارس فى أيام المستنصر^(١١)، وإن كانوا دائماً عنصر قلق فى البلاد، فهم يكوينون القوات غير النظامية. لقبيلة بنى قرة^(١٢). الذين هم عدة بطون من قيس

(١) سفر نامه، ص ٥٣؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين، ١ ص ١٩٩-٢٠٠.

(٢) العبر، ٤ ص ٦٣ .

(٣) الروذراورى، ص ٢٥٥.

(٤) النجوم، ٤ ص ١٨١؛ يحيى، ص ٢٢٤-٢٢٦؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٤٩-٥٠.

(٥) الخطط، ٢ ص ١٦٨ س ٢٦ .

(٦) نفسه، ٢ ص ١٢٨ ص ٩-١٠ .

(٧) سفر نامه، ص ٧٢-٧٣ .

(٨) الخطط، ٢ ص ٢٣-٢٤ .

(٩) على الخصوص المصادر الصليبية؛ انظر.

(١٠) ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ٧٨ .

(١١) سفر نامه، ص ٥٣ .

(١٢) المقرئى، الأعراب، ص ١٥، ١٨ .

وهلال، نزلوا أراضي البحيرة الخصبة، وفي نواحي الإسكندرية، فإنهم كانوا فى عداة مع دولة الفاطميين منذ أيام الحاكم، حينما تحالفوا مع الثائر المغربى أبى ركوّة، الذى زحف من المغرب، وهدد دولة الحاكم^(١).

وأخيراً؛ فإن الفاطميين استخدموا المصريين. وربما عرفوا فى جيش الفاطميين باسم السرائيين^(٢)، الذين ذكرهم ناصر خسرو بأنهم جاءوا من كل ولاية، ولهم قائد خاص، وكل منهم مستعمل سلاح ولايته، وقد بلغ عددهم عشرة آلاف زمن المستنصر، أو ربما يكونون هم الحجرية الذين ذكرناهم. ومما لا شك فيه أن استخدام المصريين بكثرة راجع إلى أن الدولة كانت قد بُنيت، بسبب عصيان طوائف الجيش السابقة.

*

ولكن فى عهد المستنصر استفحل النزاع بين طوائف الجيش بشكل ظاهر. ويتقصى ابن الأثير أسباب استفحاله^(٣)، وينسبه إلى سوء سياسة الوزراء، الذين كانوا يسقطون بسرعة مذهلة؛ بحيث عين فى أربع سنوات عشرون وزيراً منهم، ومن كثرتهم لا نعرف ترتيبهم الزمنى. ولسوء الحظ لم يصلنا كتاب المقرئى عنهم وعن غيرهم، المعنون؛ تلقيح العقول والآراء فى تنقيح أخبار الجلة الوزراء^(٤). وكان المستنصر هذا بالذات لا يشارك الوزير المسئولية؛ كما كان الخلفاء من قبل، وإنما تركها فى يد أمه، التى كانت تتحكم فى الوزراء بالتغيير، وتتلقب؛ «بالسيدة الملكة»^(٥)، ويخاطبها الرجال فى حضرة ابنها؛ «بمولاتهم»^(٦)، ويشار إليها؛ «بالجهة الجليلة»، و«الستر الرفيع»^(٧).

فقد أراد الوزير الفلاحى مثلاً أن ينفرد بالأمر من دون الملكة الوالدة التى كانت تسيطر على الدولة؛ بأن يغرى طائفة الأتراك بطائفة السودان، التى كانت أم

(١) الخطط، ٤ ص ٧٠؛ عيون ٧/٦ ورقة ٢٢٧؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٦٠.

(٢) سفرنامه، ص ٥٣.

(٣) الكامل، ٨ ص ١١٥-١١٦.

(٤) الخطط، ٢ ص ٢٠٩ س ١٥-١٦.

(٥) سجل رقم ٥١ ص ١٦٩.

(٦) سير الأباء، ٢ ورقة ٨٨.

(٧) السيرة المؤيدية، ص ٨٧ (آخر الصفحة)، ص ٨٩ س ٢.

المستنصر تعتمد عليها في الحكم، على أساس أنها سودانية مثلهم. ولكي يحقق ذلك أنقص عطاء الأتراك^(١)، وزاد رواتب السودان والمغاربة، وادعى أن الذي فعل ذلك أم المستنصر ورئيس ديوانها الخاص؛ التستري. فما كان من الأتراك إلا أن سعوا إلى الانتقام؛ بأن قتلوا التستري رئيس ديوان الملكة، وخرجوا إلى الصحراء اعتصاماً. وقد طلب المستنصر إن كانوا في الطاعة أم لا، وعفا عنهم بعد ذلك، ولما قتل الفلاحى بتحريض من أم المستنصر، وتولى الوزارة بعده أبو البركات، كانت الملكة تحرض العبيد على الأتراك لإضعافهم، وغضباً من الأتراك كانت تفتك بقوادهم. وقد خاف الوزير مغبة هذا التصرف؛ فغضبت عليه الملكة وعزلته، وولت بدله اليازورى، وهو شخصية قوية، كان يعمل رئيساً لديوانها مكان التستري الذى قتل. فكان اليازورى بشخصيته وتقربه من الملكة، يستطيع أن يوقف العداء بين الطائفتين إلى حد ما؛ وإن استمر تقريب السودانين.

وبموت اليازورى عاد النزاع شديداً بين الطائفتين؛ بحيث أصبح فى قلب كل طائفة ضد الأخرى إحن^(٢). ولعل أهم تصادم بين الطائفتين وقع فى ١٠٦٢/٤٥٤^(٣)؛ بسبب حادث شخصى؛ يبدو فيه التحرش على كل حال. فقد جرد بعض الأتراك سيفاً وهو سكران فى أثناء إحدى نزعات المستنصر؛ حتى أن العبيد اجتمعوا على التركى وقتلوه. فاجتمع الأتراك بالمستنصر ووزيره ابن المدبر، وقالوا؛ إن كان هذا عن رضاك؛ فالسمع والطاعة، وإن كان من غير رضى أمير المؤمنين. فلا نرضى. فأنكر المستنصر ما وقع من العبيد ربما لإضعاف نفوذ أمه التى تعتمد عليهم؛ مما جعل الأتراك يجتمعون لحربهم. فكانت بين الطائفتين حروب شديدة أهمها بناحية كوم^(٤) شريك المجاورة للإسكندرية؛ هزم فيها العبيد، وقتل منهم أربعون ألفاً. وبعد هذه المعركة الحامية أمدت أم المستنصر

(١) ابن ميسر، ص ٢-١.

(٢) نفسه، ص ١٤.

(٣) نفسه، ص ١٣؛ عيون، ٧ ورقة ٦٦؛ الخطط، ٢ ص ١٢٨-١٢٩، ص ٢٨٢-٢٨٤؛ الكامل،

٨ ص ١١٥؛ العبر، ٤ ص ٦٢. عن كوم شريك، انظر، معجم البلدان، ٧ ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٤) يقول ابن الأثير وكذا ابن خلدون كوم الريش، وهذا خطأ. انظر. قبله.

العبيد بالأموال والسلاح سرّاً؛ فكما يقول ابن ميسر كانت أم المستنصر تغرى العبيد بالترك لكى تحكم. وقد اتهم الأتراك المستنصر وأمه بمساعدة العبيد^(١)، حتى أنهم أغلظوا للمستنصر فى القول، ويبدو استبدادهم -الذى عد أول استبداد بالخليفة- فى أنهم منعوا العبيد من أرزاقهم. ولكن العبيد تجمعوا من جديد بالجييزة وعادوا إلى القتال وانهزموا إلى بلاد الصعيد، ثم حاولوا مرة ثالثة استمر القتال فيها ثلاثة أيام وهزموا؛ كما سلّم عبيد الأسكندرية إلى الأتراك. وبعدها ساروا إلى الصعيد وتغلبوا عليه^(٢)، وسار الأتراك فى أثرهم، وأضعفهم جداً. وفى أثناء نزاع الأتراك والعبيد عانى الشعب المصرى الكثير من الآلام، فمثلاً قتل أحد جنود السودان- واسمه حفاظ- ٦٣ راهباً، وأخرجوا الرهبان من بعض الديار^(٣).

ولكن تقوية الأتراك فى القاهرة جعلتهم فى نزاع مع طائفة أخرى فى جيش الفاطميين، هى طائفة المغاربة، يظهر صدها فى السجلات المستنصرية المتبادلة بين المستنصر والصلحي عامله فى اليمن؛ مما أعاد نزاعهم القديم الذى بدأ فى عهد الحاكم كما ذكرنا، فيذكر السجل رقم ٥٦؛ أن المشاركة كانت تظن أن المستنصر يقوى عليهم المغاربة، وكانت المغاربة تظن العكس، وربما يكون تفسير ذلك إلى كثرة تغيير الوزراء واختلاف سياستهم، أو إلى أن المستنصر فعلاً قوى المغاربة على المشاركة؛ بسبب عداة السلاجقة وهم ترك، ثم قوى المشاركة على المغاربة بسبب انفصال المغرب عن حكمه. ولعل أهم موقعة بين المغاربة والمشاركة وقعت فى كوم الريش المجاورة للقاهرة فى ١٠٧١/٤٦٤^(٤)- وهو غير كوم شريك- مات فيها من الفريقين فى يوم واحد ١٢ ألفاً. ويذكر المؤرخون أن الفتنة بين الترك والمغاربة استمرت أربع سنوات، وكان من نتائجها الخراب والدمار فى أجزاء البلاد.

كذلك كانت ثورة هذه الطوائف من الجيش على الدولة بسبب عدم انتظام دفع استحقاقاتها، أو المطالبة بزيادتها. فحينما تولى المستنصر الإمامة، يبدو أنه لم

(١) ابن ميسر، ص ١٣-١٤، ١٧-١٨.

(٢) أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٧٠.

(٣) أبو صالح، ٥٠، ٦٣، ٦٠، ص ٨٣، ٩٠، ص ١١٣.

(٤) ابن حماد، ص ٥٩.

تكن توجد فى الخزائن أموال كافية لدفع مرتبات الأجناد؛ ربما بسبب إسراف أبيه الظاهر، وحدث المجاعة. فنسمع بأن الكتاميين وعبيد الشرى وغيرهم^(١)، وقفوا عند باب القصر الكبير- لعله باب الذهب، الذى يقف عنده المتظلمون عادة- وأغلظوا الكلام، وطلبوا أرزاقهم. فخرج لهم الوزير الجرجرائى وقتئذ يعتذر عن الدفع؛ لأن الدولة التى تركها الظاهر ليس فيها مال، وقال لهم: «أنا كنت وزير الظاهر، وقد توفى». ومع ذلك فقد اضطر الوزير أن يحضر لهم ما فى داره- لعله من ماله الخاص- لإسكاتهم؛ كما أنه- على لسان المستنصر- وعدهم بالدفع فى مستهل رمضان؛ فقال لهم: «ومولانا يقرئكم السلام، ويقول لكم الصرف يكون فى مستهل رمضان». ولما استهل رمضان، أنفق فيهم؛ بما فيهم الكتاميين والديلم والعرب، وإن أعطى لكل واحد منهم ثلث رزقه، ودام الصرف إلى العشر الوسطى من شوال. ولكن الأتراك والمغاربة والعبيد تحالفوا على أن يكونوا عصابة واحدة، فى طلب بقية واجباتهم؛ فلما كان المستنصر على وشك الخروج فى موكب، رماه أحد العبيد بحربة، فرمى المستنصر بنفسه على دابته؛ فلم تصبه؛ كما حاولوا قتل الوزير ولم يتم الخروج. وربما يكون قد أعاد النفقة فيهم بعد ذلك؛ بحيث لما ركب المستنصر من جديد مشى الجند بين يديه^(٢).

وعلى كل حال؛ فقد كان ما حدث فى بداية خلافة المستنصر، ولم يتكرر لأمد طويل من حكمه، بسبب الرخاء الذى ساد دولته فى أول عهده، ولوجود الجراجرائى القوي. فكان الخليفة يدفع أرزاق الجند بانتظام من الخراج ومن الأموال التى تأتى إلى الخزائن من الولايات. فلكل جندي مرتب شهري على قدر درجته؛ فلا يجبر أحد الرعايا على دفع دينار واحد، ولكن تدخل أم المستنصر فى الحكم، وتوليها الوزارة للمحاسبين والوصوليين، أضعف دخل الدولة جداً. فمثلاً لم تتعد ميزانية مصر فى عهد اليازورى مليوناً لمصر ومليوناً للشام، خصص منها لعطاء الأجناد وأرباب الوظائف ٣٠٠ ألف^(٣)؛ وذلك بينما كانت الميزانية ذاتها فى عهد المعز- أول خليفة فاطمى فى مصر- تبلغ أكثر من ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف دينار^(٤). ولما تفاقمت المجاعات، وأنفقت الأموال على حملة

(١) النويرى، ٢٦ ورفقات ٦٢-٦٣.

(٢) سفرنامه، ص ٥٣.

(٣) الخطط، ١ ص ١٢٢، تحقيق Wiet، ٢ ص ٤ (٦٧)؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ١٢٥.

(٤) الخطط، ص ١٦٠ (فى آخر الصفحة).

البساسيرى فى العراق كما ذكرنا؛ خلت الخزائن من المال، ولم يعد يوجد بها شىء لدفع واجبات الدولة للجند أو للموظفين.

وقد كان الأتراك أكثر الطوائف ثورة على الدولة بسبب أرزاقهم. وكانت مقرراتهم فى الشهر عشرين ألف دينار؛ إلا أنهم انتهزوا ضعف الدولة، ولا سيما أيام الشدة المستنصرية، وطالبوا بزيادتها؛ بحيث طالبوا بأربعمائة ألف^(١). فكانوا يطالبون الوزراء بأرزاقهم؛ ولا يتورعون عن قتلهم أو عزلهم، وتكون منهم طائفة لا تكتفى بالمطالبة، وإنما تهاجم بيوت المال^(٢). ويبدو أنه لما ماطلتهم الدولة هجموا على القبور التى دفن فيها أجداد المستنصر، وأخذوا منها قناديل الذهب والمباخر وحلىّ الحابر وغير ذلك^(٣).

وأخيراً ألزموا المستنصر ببيع ما فى خزائنه^(٤)؛ فكان الجند وحتى الوزراء يأخذون عوضاً عن مرتباتهم أشياء من خزائنه بأرخص الأثمان؛ بحيث عاش الخليفة ليشاهد بيع ما كدسه هو وأجداده من تحف وكنوز، جلبت من جميع بقاع الدنيا، وفيما صنعوه فى مصر، واعتبرت أشهر ما عرف فى تاريخ مصر منذ عهد الفراعنة. ويكفى أن نذكر ما ذكره المقرئى عن بعض كنوز الخزائن الفاطمية، التى نقل صنوفها من مجلد ضخّم؛ لعله كتاب الذخائر والتحف^(٥)، دون أن يذكر اسم مؤلفه. فالخلفاء الفاطميون فى مصر مالوا إلى حياة الترف؛ فالعزیز اقتنى التحف النفيسة ولا سيما البللور^(٦)، والظاهر استكثر من شراء الجواهر^(٧)، أما المستنصر الذى لم تكن له يد فى سياسة دولته، فقد عرف بجنونه

(١) الكامل، ٨، ص ١٩٦ س ١٢-١٣.

(٢) أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٧٠.

(٣) الخطط، ٢، ص ٢٥٣ س ٢-٥؛ ابن إياس، ١، ص ٦١.

(٤) ابن ميسر، ص ١٧. فمثلاً الوزير المغربي أخذ واجباته خمسة وعشرين جملاً محملة بالكتب؛ وذلك لقاء خمسة آلاف دينار، بينما بلغ ثمنها أكثر من مائة ألف دينار. الخطط، ٢، ص ٢٥٤ س ١٣.

(٥) الخطط، ٢، ص ٢٥٣ وما بعدها. يقول ابن ميسر يقع فى نحو العشرين كراسة. ابن ميسر، ص ٢٠.

(٦) نفسه، ٢، ص ٢٦٢ س ١.

(٧) نفسه، ٢، ص ١٦٩ س ٢٦.

فى حب التحف، حتى أنه حكى عنه للمبالغة أنه طلب بعض الجواهر، وجعلها مسحوقة وذراها فى النيل^(١). وقد جمع المستنصر عدداً لا يحصى من التحف والجواهر مما لم يجمع مثله قبلاً، عن طريق الشراء، أو عن طريق الهدية، ولا سيما من الصليحيين فى اليمن، الذين كانوا يرسلون له نفيس الدر الرائع^(٢)، أو يتصل بالروم لاحضارها. وقد تعدى حب التحف وتكديسها المستنصر إلى أهله، مثل عبدة ورشيدة ابنتى المعز، اللتين جمعتا أموالاً وتحفاً كثيرة، ورثها المستنصر عنهما بعد موتها فى ٤٤٢/١٠٥٠^(٣). بل إن أم المستنصر وأولادها من غير أبى المستنصر - وذلك بعد موت زوجها الظاهر - كان لها خزائن تشبه خزائن الخلفاء^(٤). ويبدو أن الأمر لم يقف عند البيع من الخزائن لحساب الجند، بل تعدى إلى النهب أيضاً. وتؤيد السجلات الرسمية هذا النهب^(٥)؛ حيث هرب التجار كثيراً منها إلى الخارج، مثل: إلى بغداد عند الخلفاء العباسيين - أعداء الفاطميين - الذين بدورهم كانت قد نهبت خزائنهم، وجلبت إلى مصر أيام فتنة البساسيرى، أو حتى أيام الطائع فى سنة ٣٨١/٩٩١؛ بسبب المجاعات فى العراق. ويشارك القريرى الحسرة على ضياع الكنوز الفاطمية من الخزائن بين جنود لا تقدر قيمتها.

ولدينا أمثلة لبعض ما نهب أو بيع بأبخس القيم من هذه الخزائن. فهى^(٦)؛ قطع أقمشة من سائر الألوان، وجواهر بأنواعها، وخواتم ذهب وفضة فصوصها من سائر الجواهر المختلف الألوان، وصناديق مملوءة سكاكين مذهبة ومفضضة مقابضها من سائر الجواهر، وصناديق مملوءة بأنواع الدوى المربعة والمدورة، الصغار والكبار المعمولة من الذهب والفضة والصنل، بصناعة معجزة، وصناديق

(١) الجوينى، تاريخ جهانكشاي، ص ١٠٠.

(٢) الخطط، ٢ ص ٢٦٣ ص ٢.

(٣) نفسه، ٢ ص ٢٦٤. وجد للأولى فى خزائنها مالا يحصى، والثانية تركت ما قيمته مليوناً وسبعمائة ألف دينار.

(٤) الخطط، ٢ ص ٢٦٦ س ٢٦٩، ١٨ س ١٠.

(٥) سجل رقم ٥٦ ص ١٨٣-٤؛ عيون الأخبار، ٦ ورقة ٢٩٤.

(٦) الخطط، (ط. بولاق) ٢ ص ٢٦١ وما بعدها.

من البللور بما فيها كيزان أقداح «الفقاع» -البيرة- وصحون متنوعة، وصواني الذهب المطعمة بالمينا بسائر أنواع النقوش، وكؤوس عليها نقش هرون الرشيد وغيره، وأوان صينية كبار لغسل الثياب «أجاجين» لها أرجل على صورة الوحوش، ومرايا من حديد أو من صيني أو من زجاج محلاة بالذهب والفضة أو بالجوهر، لها مقابض من العقيق، وغلف من أنواع مختلفة من الحرير أو الخيزران أو الخشب، مزودة بأقفال «مضيب» من الذهب والفضة، وأزيار صينية كبار مملوءة كافوراً، وجماجم «حلل» محتوية على العنبر والمسك وقطع العود، وطرائف مثل: عدد كبير من الشطرنج رقعته من الحرير، وشطرنج من جوهر، وديك من ذهب له عرف من الياقوت الأحمر، وريشه من الزجاج المطعم بالمينا والذهب، وذيله من الذهب، وطاوس من ذهب مرصع بنفيس بالجوهر، وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر، بطنه أبيض، ونخلة مكلفة الجوهر، وفرش وأمتعة منها مراتب ملونة، وأجلة للفيلة التي تنزل على الأفاذ، وستائر وستور بعضها عليه صور الدول وملوكها والمشاهير فيها، مكتوب على صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه، وخيام من كل نوع وشكل كالحصون والقصور والفساطيط والشراعات والمسطحات، مبطنة بأنواع الرسوم المتعددة، وذلك بالآتها من الأعمدة الملبسة بأنابيب الفضة والحبال الملبسة بالقطن والحرير والأوتاد، ولا سيما الفساطط الكبير الذي صنعه اليازورى للمستنصر، وأسمه المدورة، عدد قطعه أربع وستون قطعة، وعشاريات -وهي مراكب للخليفة- وتضيب للمظالم، وأعلام، وقناديل، وسروج، ولجم، وعماريات -أي هودج- وموائد من كل نوع؛ مما كان يستخدم في المراكب أو الجلوسات بالقصر، والكتب بأنواعها. وقد ترتب على هذا النهب والبيع، أن الخزائن المقدسة أصبحت قاعاً بلقماً؛ وأن الأتراك زادت شوكتهم^(١)، وكثرت أموالهم.

✱

وقد أدت الحالة السيئة في البلاد من مجاعات ونزاع بين طوائف الجيش وثوراتها إلى ظهور أطماع رجال أتقوا، أرادوا السيطرة على الدولة من دون هذا

(١) ابن ميسر، ص ١٦.

الخليفة، مثلما فعلت أمه معه. ويذكر المقرئ عشرين عشرة ثائرين عليه، يذكر بعض أسمائهم^(١)، على رأسهم ناصر الدولة بن حمدان وأخوه، وبلدكوش، وسبكتكين، وسعد الدولة المعروف بسلام عليك، وشاور بن حسين.... وربما يكون الناسخ قد اسقط بقية الأسماء العشر؛ كما لم يعط تفاصيل إلا عن ناصر الدولة وبلدكوش، أما الباقي فلا نعرف عنهم شيئاً.

وإذا تفحصنا سبب طموح بنى حمدان - وهم أقواهم - وجدناه يرجع إلى الوقت الذي نشأت فيه دولة الفاطميين. فقد ظهر بنو حمدان كأُسرة عربية تحكم في ثغور المسلمين بحلب في شمال بلاد الشام، وفي الموصل من بلاد الجزيرة، فلما استولى الفاطميون على مصر ثم على الشام عملوا على القضاء على دولتهم في حلب، وأحلوا مكانهم المرداسيين زعماء قبيلة بنى كلاب. كذلك كان البويهيون بالعراق قد قضوا على دولة بنى حمدان بالموصل؛ فانتقل بقايا الحمدانيين إلى القاهرة، وعاشوا فيها كمنفيين أو كلاجئين.

ومع أن المعز، كان قد حذر^(٢) جوهراً؛ من أن يفسح لهم مجالاً في الجيش أو في الحكم؛ بسبب أنهم أعداء الفاطميين، ووصفهم بأنهم غدارون لا ثقة فيهم، إلا أن الخلفاء الفاطميين ابتداءً من الحاكم، لكي يوازنوا نفوذهم مع المرداسيين في حلب بدأوا يولون الحمدانيين بعض ولايات الشام، ويدخلونهم في جيشهم. ويبدو أن المستنصر هو الذي فتح لهم باباً على مصراعيه، ولا سيما لأحدهم، واسمه؛ أبو محمد الحسين بن أبي عبد الله الحسين بن حمدان، من نسل الحمدانيين الذين هربوا إلى مصر، بعد قضاء البويهيين على دولتهم في الموصل. فجعل المستنصر ابن حمدان هذا من كبار قواده، وعينه في ولاية دمشق سنة ٤٣٢/١٠٤١^(٣)، بعد موت الدزبري، فكان الدعاء في سجل ابن حمدان: «سَلِّمْهُ اللهُ وحفظه»؛ كما منحه لقب؛ ناصر الدولة وسيفها ذي المجدين. وقد استمر ناصر الدولة في ولاية دمشق إلى سنة ٤٤٠/١٠٤٨، ثم رجع إلى مصر. وربما يكون ناصر الدولة هو الذي أشار

(١) الخطط، ٢ ص ٢٦٨. عن اسم سعد الدولة. نفسه، ٢ ص ٢٧٨.

(٢) قبله.

(٣) نيل تاريخ دمشق، ص ٨٢ وما بعدها؛ النجوم، ٥ ص ٣٤، ٤٥.

على أم المستنصر بتولية الوزارة لليازورى^(١)، الذى أرسل له أحمال التفاح كرشوة. فلما تولى اليازورى الوزارة، كفل إلى ناصر الدولة حكم الريف بشرقيه وغربيه، فكان ناصر الدولة يجبى الجوالى - وهى جزية أهل الذمة - من النصارى، ويقررها كلها على البطريرك القبطى^(٢). وفى سنة ١٠٥٨/٤٥٠^(٣)، طلب المستنصر من ناصر الدولة فتح حلب من المرداسيين، الذين سعوا إلى الاستقلال، مثلما فعل الحمدانيون من قبل، فلما فشل ناصر الدولة ضدهم عاد إلى مصر فى سنة ١٠٦٠/٤٥٢.

ولكن استبداد ناصر الدولة فى دولة الفاطميين ظهر منذ أن تزعم الأتراك؛ حيث كان أفراد أسرته يتولون زمام الأتراك وأمراهم منذ عهد الحاكم^(٤). وقد بدأت زعامته لهم فى الانحياز ضد العبيد، الذين كانت تناصرهم أم المستنصر. فقد قام على رأس الأتراك فى قتال العبيد فى الجيزة والإسكندرية، وذهب وراءهم فى الصعيد وهزمهم هزيمة نكراء^(٥). وبعدها طالب بزيادة المال والإنفاق فى الأتراك^(٦)؛ بحيث تسبب فى خراب خزائن المستنصر ونهبها كما ذكرنا؛ ويكفى أن نذكر أنه أخذ لغلمانة أكثر من ثمانمائة بدلة من ثياب الخليفة بجميع آلاتها كاملة^(٧).

وقد وصل استبداد ناصر الدولة بالمستنصر أقصاه؛ حينما أظهر الحقد فى نفسه ضد الخلافة التى أسقطت أسرته؛ بحيث فكر فى خلع المستنصر وإعلان الخطبة لأحد الأشراف، رغبة فى الإنتقام والكيد. فكتب إليه المستنصر قائلاً^(٨)؛ «بأنك قدمت علينا زائراً، وجئتنا ضيفاً؛ فقابلناك بالإحسان وأكرمناك، فقابلتنا بما لا نستحقه منك، نحن عليك صابرون، وعنك مغضوبون، وقد انتهت بك الحال إلى مخالفة العسكر علينا، والسعى فى إتلافنا، وما ذاك مما يهكم، ونحب أن

(١) ابن حجر ، ورقات ٨٤-٨٥.

(٢) ذيل سير الأباء، ٣ ورقة ٧٥.

(٣) النجوم، ص ٦٣ س ١-٥.

(٤) الخطط، ٣ ص ٣٢ س ٢٣-٢٤.

(٥) نفسه، ٢ ص ١٢٨-١٢٩.

(٦) النجوم، ص ١٣ س ٢-٨؛ الكامل، ٨ ص ١١٦.

(٧) الخطط، ٢ ص ٢٦١ س ٢٤.

(٨) النجوم ، ص ٥ ص ١٣-١٤.

تنصرف عنا موفوراً فى نفسك ومالك؛ وإلا قابلناك على قبيلح أفعالك». وربما يكون المستنصر وأمه قد دسا صيرفياً لقتله؛ فحسب الصيرفى ابن حمدان بسكين وجرحه^(١)، فأخذ الصيرفى وشنق فى الحال، وعولج ناصر الدولة، فبرئ بعد أن أشرف على الموت.

لم يرض الأتراك وشيخهم المسمى إلكز أو بلد كوش^(٢)، الملقب بأسد الدولة، بإسقاط الخلافة الفاطمية، ولا سيما أنهم أصبحوا مسيطرين فيها؛ بحيث أنقسم عسكر مصر قسمين؛ قسم مع ناصر الدولة وقسم عليه. فسعى ناصر الدولة إلى قتل إلكز والوزير خطير الملك، ولكنه لم يتمكن إلا من قتل الوزير^(٣). كذلك عمل ابن حمدان على الاعتماد كلية على العرب وزعمائهم بدلاً من الترك، ففك أسر زعمائهم من بنى الجراح الناشرين وهما؛ حازم بن الجراح وحميد، مع أن كلا منهما كان له فى سجن المستنصر عشرون سنة^(٤)، وأحاط نفسه بشخصيات لا نعرف عنها إلا القليل مثل^(٥)؛ أمير العرب ابن كيغلق والأعز بن سنان؛ كما اعتمد على طوائف الأكراد، التى كانت فى جيش الفاطميين، وكانت عدتهم خمسة آلاف رجل^(٦)، برياسة رجل لعله تاج الملوك شادى. وقد أصبحت هذه الفئة من أنصاره تعرف باسم؛ الطائفة الحمدانية.

وعلى العكس سعى المستنصر أن يستوثق من الأتراك والمغاربة^(٧). وتحت تحريض إلكز، خرج المستنصر لمحاربة ناصر الدولة، فلبس لامة الحرب ولباسها؛ حيث ضربت له خيمة حمراء مسماة «خيمة الدم»، خارج القصر. فتمكن المستنصر من هزيمة ناصر الدولة، بمساعدة المصريين على الخصوص، الذين نهبوا دور بنى حمدان، وهرب ناصر الدولة عند عرب الدلتا. فحالف قبائل منها قيس، ولواتة وسنيس؛ الأولى قبائل عربية هاجرت إلى مصر أيام الأمويين فى الحوف الشرقى، ولكننا نراها الآن فى الحوف الغربى. والثانية من أصل بربرى

(١) نفسه، ص ٨٣ س ٦-٩.

(٢) عن الاسم الأخير، انظر أيضاً؛ سجل رقم ٥٧ ص ١٨٦-١٨٧؛ عيون، ٧ ورقة ٧٣.

(٣) مثلاً؛ الخطط، ٢ ص ١٣٩؛ الكامل، ٨ ص ١١٦.

(٤) ابن إياس، ١ ص ١٣؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٣-٩٦.

(٥) ذيل سير الأباء البطارقة، ٣ ورقة ٧٨.

(٦) سجل رقم ٥٧ ص ١٨٦.

(٧) النجوم، ٥ ص ١٤-١٥؛ الخطط، ٢ ص ١٣٩؛ ذيل سير الأباء، ٣ ورقة ٧٨ وما بعدها.

كانت تقييم فى برقة وإفريقية، وكانت تباع أبناءها فى الجزية^(١)، وربما يكون أغلبهم فى مصر نتيجة لهذا البيع، أو من الذين جاءوها فى أثناء غزوة أبى ركوّة كما ذكرنا، وقد بلغ عددهم خمسين ألفاً أو أربعين ألفاً سوى أتباعهم^(٢)، سكنوا المنوفية؛ كما قيل إنهم من أصل عربى من قيس^(٣)، والثالثة وهم بنو سننيس^(٤)، من قيس وهلال، وكانوا ينزلون بفلسطين وكثروا هناك، واشتدت وطأتهم على الولاية، فاستدعاهم اليازورى فى ٤٤٢/١٠٥٠^(٥)، وأقطعهم البحيرة مكان بنى قرّة، الذين تحالفوا مع الناصر المغربى أبى ركوّة؛ بحيث إن الدولة كانت تتربص بهم الدوائر، فنزل بنو سننيس ديارهم وعلا شأنهم، فتزوج الناصر من هؤلاء. وهكذا أصبحت البلاد موزعة بين طوائف الجيش المختلفة: فالدلتا فى يد العرب، والصعيد فى يد السودان، والقاهرة فى يد الأتراك والمغاربة.

فخرجت إليه العساكر من الترك من مصر بقيادة ناصر الجيوش بن أسد الدولة، ومن العبيد بقيادة عزيز الدولة— مما يدل على عودتهم من الصعيد— وإن كانت القيادة العليا لابن زنبور، الذى خلع عليه المستنصر وقلده سيفاً بحلية فوق درعه. ولكن الانقسام بين قواد الطوائف المتنافرة؛ جعل كل قائد لا يرضى باتباع رأى الآخر؛ بحيث انحل أمر الجيش، واستولى ناصر الدولة على أسلحته. بعد ذلك ملك ناصر الدولة الإسكندرية والريف بشرقيه وغربيه، وهو ما عرف بأسفل الأرض، وأحاط بدمياط واستولى عليها، فعظّم أمره، وأخذ الخراج من كل هذه البلاد، وقطع خطبة المستنصر فيها، ودعا للخليفة القائم^(٦)، وأرسل إليه يطلب تقليده، كما أرسل رسولاً من قبله إلى ألب أرسلان السلجوقى، يسأله أن يرسل إليه عسكرياً على أن تؤول إليه السيادة على مصر^(٧)، فرحب ألب أرسلان بذلك، غير أنه ما لبث أن شغل بمحاربة الروم. وقد هاجم ناصر الدولة نواحي مصر والقاهرة، وأجبر المستنصر على قبول مندوب عنه هو تاج الملوك شادى، لعله من

(١) فتوح البلدان، ص ٢٥٥. عنهم؛ انظر. معجم البلدان، ٧ ص ٣؛ المقرئى، البيان والأعراب، ط. Wust. ص ٣٤.

(٢) نيل سيرة الأبناء، ٣ ورقة ٨٦؛ سجل ٥٦ ص ١٨٤، ٥٧ ص ١٨٧.

(٣) فتوح البلدان، ص ٢٥٥؛ انظر.

Berbères et Arabes. Paris, 1942, P. 124. Brémond

(٤) الخطط، ٢ ص ١٣١؛ البيان، ص ٩.

(٥) نفسه، ٢ ص ١٧٠ س ١٩-٢٠؛ المقرئى، البيان والأعراب، ص ٩.

(٦) الكامل، ٨ ص ١١٧.

(٧) ابن ميسر، ص ١٩-٢٠.

زعماء طائفة الأكراد التي انضمت إليه- كما ذكرنا- وصار يخاطب بمولانا
الناصر^(١).

ولدينا وصف ما قام به أتباع ناصر الدولة من تخريب فى البلاد التي
استولوا عليها؛ فقد قتلوا أهلها، وهتكوا حريمها، وذبحوا الأولاد فى بطون
أمهاتهم. كذلك أخذوا البطريك الأنبا أخرسطودلوس من داره، ولم يفك أسره إلا
لما وعد بدفع المال، وفى سبيل ذلك أرسل البطريك مندوباً عنه إلى ملك النوبة،
ليرسل إليه مالاً لناصر الدولة^(٢). ولا تزال الأديرة تذكر غارات العرب عليها، مثل
دير وادى النطرون، كما هرب الرهبان من أديرتهم إلى القرى^(٣). ونجد أن
السجلات تشبه لواتة بأنهم كالوحوش، وليسوا من البشرية^(٤). ونتيجة للتخريب
فى البلاد توقفت الزراعة؛ ففى أثناء هذه الفوضى تركت الأراضى بدون جسور،
ولا سيما أنه فى ذلك الوقت كانت الشدة العظيمة أيضاً^(٥).

كذلك لدينا وصف النهب، الذى أتى على كل ما فى الخزائن الفاطمية كما
ذكرنا؛ فقد كان أتباع ناصر الدولة يدخلون القصر ويأخذون من الأسلحة ما
يريدون، ولا تفرقة فى ذلك بين الأسلحة التى تستخدم فى المواكب أو أسلحة
القتال، فأخذوا منها سيوف أجداد^(٦) المستنصر، مثل؛ سيف الحسين، ودرقة
حمزة، وسيف جعفر، وإن كان أهم ما أخذه أدوات الحرب مثل السهام والرمح
والقسي والزرذ البيض. كذلك كانوا يحملون الكتب من الخزائن إلى الإسكندرية،
ويأخذون جلودها، ويلبسونها فى أرجلهم^(٧). بل أخذوا عامود خيمة اسمها
القاتول- تنصب أثناء أعياد فيض النيل- يعتبر أعلى عامود لأوسع خيمة، وكان
الخليفة العزيز قد أنفذ إلى ملك الروم فى طلبه، ويقول المقرئى ما أدرى ما
فعل به^(٨).

(١) ليل سير الآباء، ٣ ورقة ٨٥.

(٢) نفسه، ٣ ورقة ٧٨.

(٣) نفسه، ٣ ورقة ٨٦.

(٤) سجل، رقم ٥٧ ص ١٨٧.

(٥) ليل سير الآباء، ٣ ورقة ٧٨، ٨٦.

(٦) الخطط، ٢ ص ٢٦٨.

(٧) نفسه، ٢ ص ٢٥٤ س ٢٠.

(٨) نفسه، ٢ ص ٢٧١ س ١١.

فلما اشتد أمر ناصر الدولة ذهب إلى القاهرة وأحاط بها، وإن كانت أم المستنصر عملت عن طريق عبيدها^(١) - وهم كانوا غير طوائف العسكر - على السيطرة في مصر (الفسطاط). وقد قيل في سبب حضور ناصر الدولة إلى القاهرة، أن تاج الملوك شادي^(٢) مندوبه، استبد فيها من دونه. فقطع ناصر الدولة الميرة في مصر واستولى عليها؛ حتى أن أم المستنصر لم تستطع أن تصده. كذلك ضعف المستنصر عن مقاومته؛ وخاف من أن يأخذه ناصر الدولة ويسلمه إلى عدوه الخليفة العباسي، فراسله وصالحه؛ وإن اشترط ناصر الدولة أن يبعد المستنصر الذكز ومن يعاديه، وأن ينفرد هو بحكم البلاد^(٣). ولما دخل ناصر الدولة القاهرة عمل على حبس الأتراك. وأسر شادي؛ مما جعل بعض المشاركة ينضمون إليه. وصالح ناصر الدولة الذكز بعد ذلك، وتزوج بابنته^(٤)، وكان يحكم هو والذكز والوزير ابن أبي كدينة.

وقد عمل ناصر الدولة على استئلال المستنصر وأهله بعد دخول القاهرة. فقبض على أم المستنصر واستصفى أموالها^(٥) ولم يفك أسرها إلا بعد دفع دية. ومنذ ذلك لم تقم لها قائمة، وأصبح دورها في سياسة الخلافة ضعيفاً جداً؛ حيث يحدد ابن ميسر نهاية حكمها إلى سنة ٤٦٢/١٠٦٩-١٠٧٠. كذلك تفرق أولاد المستنصر، وسار بعضهم إلى المغرب أو إلى الشام، فسار ابنه عبد الله لعكا، وأبو القاسم محمد - والد الخليفة الحافظ فيما بعد - لعسقلان، ونزار - وهو الأكبر - لثغر يمياط^(٦). ثم إن المستنصر أصبح مع ناصر الدولة كالمحجور عليه؛ فأخرج له ما تبقى في قصره، وبلغ به الأمر أنه كان يجلس على حصير، ولم يعد عنده شيء سوى سجادة وقبقاب، ولم يبق معه سوى ثلاثة خدم، وأطلق له ناصر الدولة مائة دينار كل شهر؛ وذلك بعد أن كان المستنصر يملك من الأموال الطائلة ما لا يعد ولا يحصى.

(١) العيني، تاريخ، ورقات ١٨٩-١٩٠. عن عبيد أم المستنصر؛ الخطط، ١، ص ١٥٣ س ١٩-٢٠.

عدتهم خمسون ألفاً.

(٢) الكامل، ٨، ص ١١٧.

(٣) النجوم، ٥، ص ١٥.

(٤) نفسه، ٥، ص ٢١.

(٥) ابن ميسر، ص ٣١؛ الخطط، ٢، ص ١٤٠ (آخر سطر).

(٦) ابن ميسر، ص ٦٧-٦٨.

ولكن الدكز - شيخ الأتراك - دبر مؤامرة لقتل ناصر الدولة، وليستقل من دونه بالسيطرة في البلاد كذلك قيل إن الدكز أراد قتله، بسبب أن ناصر الدولة أعلن السنة. وكاد يحدث للمستنصر على يده ما حدث للقائم على يد البساسيري، فقصده الدكز مع جماعة إلى داره في منازل العز^(١)؛ الواقعة على النيل؛ فخرج ناصر الدولة إليه، فضربوه بسيوفهم حتى قتلوه وحزوا رأسه وقتلوا أيضاً أخويه؛ فخر العرب بن حمدان، وتاج المعالي بن حمدان، كما قتل محمود بن ذبيان أمير بني سنيس، وقد قطع ناصر الدولة قطعاً. وأنفذت كل قطعة إلى بلد^(٢)؛ كما تتبع بنو حمدان في جميع أنحاء مصر؛ فقتلوا عن آخرهم، وذلك في سنة ١٠٧٢/٤٦٥.

*

ولا يعنى هذا أن المستنصر قبض على زمام الأمور. فإن الدكز وأنصاره أصبحوا يقومون بدور ناصر الدولة وأنصاره، بل غالبوا في التضييق على الخليفة. فبعد قتل ابن حمدان، جاءوا إلى القصر ومعهم الرؤوس، وأرسلوا إلى الخليفة وقالوا: قد قتلنا عدوك وعدونا، من أضرِب البلاد، وقتل العباد، ونريد الأموال. ولم يكن المستنصر يملك الأموال التي اقتدها بعد أن نهبها الأتراك وغيرهم، فأعلن أن العداوة كانت بين الدكز وابن حمدان. ولكن الدكز أخذ يطالبه بالمال، وبلغ من سيطرته في الدولة، أنه منع دخول أي أحد إلى القاهرة أو خروجه منها؛ ولعله سعى أيضاً إلى الملك^(٣).

فلما وجد المستنصر أن لا جدوى في إرجاع سلطته والقضاء على الاضطراب في البلاد، طلب عون أحد ولاته المخلصين في الشام. فقد طلب العون من بدر بن عبد الله^(٤)، الذي كان مملوكاً لجمال الدولة بن عمار، أحد ولاة طرابلس الشام، فاشتهر بالجمالي. وقد كان بدر من أصل أرمني مسلم، أخذ في حياته بالجد، فرفعه عبقريته إلى أعلى المناصب، وتنقل في خدم متعددة. وكان

(١) الكامل، ٨ ص ١١٧-١١٨

(٢) النجوم، ٥ ص ٢١-٢٢؛ ذيل سير الأباء، ٣ ورقة ٨٦؛ العيني، تاريخ، ورقة ١٩٠

(٣) سجل رقم ٥٧ ص ١٨٧.

(٤) عن شخصيته. الخطط، ٢ ص ٢١١-٢١٢؛ ابن حجر، رفع الإصر، ورفقات ٥٦ وما بعدها؛ انظر.

Ency de l'Isl, (art.Badr al-Djamâli) t I, P 571, 2 éd t I, P 894.

Gesch der Fat Chalifen, P 204 et suiv Wust

أظهر ما تولاه ولاية دمشق الهامة، فلعله كان حاجباً لصاحب دمشق، فلما مات تولى مكانه^(١). فتولاهما في ٤٥٥/١٠٦٠، فباشرها سنة وثلاث السنة، ومرة أخرى ومعها صور في ٤٥٨/١٠٦٦، وبقي فيها إلى أن خرج منها. نتيجة لثورة أهلها عليه، بسبب ضبطه وحزمه؛ حيث كان أهلها قد تعودوا على فوضى الولاية السابقين، فاضطر إلى الهروب، ونهبت خزائنه. وفي أثناء هذه الولاية طلب منه المستنصر أن يحارب محمود المرداسي صاحب حلب، وكان قد استقل بها، ولو أن بدر لم يحاربه ربما بسبب هجوم السلاجقة على شمال الشام، ولكنه عاد إلى دمشق وانتصر على عدوه، الذي تسبب في ثورة الأهالي ضده. وسلخه حياً^(٢). بعد ذلك نقل بدر إلى ولاية عكا (أو عكا) في ٤٦١٢/١٠٦٩، التي بقي فيها إلى أن طلب المستنصر العون منه.

فوجد المستنصر يكتب إلى بدر فيقول: «فإن كنت مأكولاً، فكن أنت اكلى». فوجد هذا الأرمني المسلم الطامع يسرع إلى تلبية طلب الخليفة الفاطمي، ويرد عليه سريعاً: «لبيك لبيك». فجمع بدر عدداً كبيراً من الجنود؛ حيث كان قد استكثر من الأرمن من بنى جنسه، الذين أصبحوا نواة لطائفة جديدة، في جيش الفاطميين، وربما يكون ذلك بأمر من المستنصر. فيأتي بدر لإتقاد الخليفة في شتاء عام ٤٦٧/١٠٧٤، أي بعد سنة من استبداد الدكز. فسار بمائة مركب، مع أنه لم تجر العادة بركوب البحر في الشتاء لهيجانه، ووصل في أربعين يوماً سالماً إلى دمياط وتأسيس. ولكن قبيلة لواته قاومته عند نزوله؛ بحيث اشتد في قتالهم، وقتل مقدمهم سليمان اللواتي، وغرق منهم الأكوف، وأبادهم من أعمال الريف وملكها، واستصفي أموالهم^(٣). وفي نواحي دمياط قضى على طائفة تعرف بالملحية، وصفوا على أنهم طائفة في الجيش الفاطمي، ولعلها الحاميات، التي عند الملاحات.

ثم سار إلى القاهرة، فلما وصلها تشجع أنصار المستنصر، وتمكنوا من تعليق الدكز من إحدى رجليه في ركاب فرسه، وقبضوا عليه، وحبسوه في خزانة البنود. ويبدو أن هذا التصرف تم بناء على اتفاق بين بدر والمستنصر^(٤).

(١) العبر، ٤ ص ٦٤.

(٢) النجوم، ٥ ص ٧٩-٨٠، ٨٥.

(٣) العبر، ٤ ص ٦٤؛ الخطط، ٢ ص ٥١ س ٢٥؛ سجل ٥٦ س ١٨٤، ٥٧ ص ١٨٧؛ ابن ميسر، ص ٢٢.

(٤) الخطط، ٢ ص ٢١١ (أسفل الصفحة). يقول بلد كوش.

بالأيدخل القاهرة، قبل أن يقبض على الدكز، وخصوصاً أن الدكز كان قد تحصن في أحد أحياء القاهرة، ولعل بدراناً قتل الدكز، أو أن الدكز هرب إلى الشام^(١). وكان أول عمل لبدر بعد دخوله القاهرة، أن دبر مذبحة كبرى للأمراء الأتراك؛ بحيث قويت شوكته، فقد وصفه الشعراء بحب القتل من أجل مصلحة الدولة^(٢) "Raison d'Etat". ولم يكن أغلب الأمراء الأتراك على علم باستدعائه، فما منهم إلا من أضافه وقدم إليه الهدايا. فدعاهم بدر إلى دعوة صنعها، فلم يتخلف أحد منهم. وفي الوقت ذاته، قرر بدر مع جماعة من أتباعه أن يوكل كل واحد منهم بأمير من أولئك الأمراء يظهر أنه قائم بخدمته، ورفع السماط-الأكل- فكان إذا دخل الواحد منهم الخلا قتل، ويتوجه الذي يليه، وقتلوا جميعاً. فلما تم الأمر أنعم بدر بجميع ما يتركه الأمير من مال ودار وإقطاع لقاتله، كما أنه استرد منهم جميع ما أخذوه من الخزائن من الأموال والأمتعة. وقتل بدر عدداً كبيراً من الوزراء والقضاة، الذين كانوا لا يفعلون شيئاً، ولا سيما الوزير ابن أبي كدينة، الذي كان يحكم مع الدكز، بأن ضربه بسيف كليل عشر ضربات؛ حتى بانث رأسه، وذلك عدد ولايته القضاء والوزارة^(٣).

ثم قام بدر بالقضاء على العناصر المعادية للخليفة الفاطمي، وإعادة هيئته في البلاد. فذهب إلى البحيرة في الوجه البحري، وقضى على العرب من قيس وبنى سنبس، فقتل منهم ما لا يحصى، بلغ نحو العشرين ألف إنسان^(٤). وذهب إلى الإسكندرية، وقضى على عناصر معادية فيها؛ ولدينا دينار ضرب فيها باسم المستنصر سنة ٤٦٩/١٠٧٦^(٥). ثم ذهب إلى الصعيد، ويظهر أنه كانت به عناصر معادية من عرب جهينة والثعالبة^(٦). كذلك سار إلى أقصى الصعيد وهزم كنز الدولة محمداً الذي كان حاكماً عليه؛ فقتله. وقد اختلف في أصل أسرة كنز الدولة هذه. فلعلها من ربيعة التي سكنتها في خلافة المتوكل حوالي ٢٤٠/٨٥٤^(٧)؛ وإن

(١) النجوم، ٥ ص ٣٢ س ١٦.

(٢) ابن حجر، رفع الإصر، ورقة ٥٨. وقد وصفه الشعراء بسبب ذلك، بحبه شرب الدماء.

(٣) نفسه، ورفقات، ٨٨-٨٩.

(٤) مثلاً: سجل رقم ٧، ص ١٨٧.

(٥) أنظر. Lavoix. Cat, P. 102 (255).

(٦) الخطط، ٢ ص ٢١٢ س ١٦.

Ency de l'Isl, (art al-Sa'id) t 4 P 73

(٧) المقرئزي، الأعراب، ص ٢٧-٢٩ أول من لقب منهم أبو المكارم هبة الله

كان لقبهم كنز الدولة لم ينالوه إلا من عصر الحاكم؛ بسبب أنهم ظفروا بأبى ركوة المغربي عدو الحاكم اللدود، ولم تنزل الإمارة فيهم، حتى سقوط دولة الفاطميين، وربما كانت طوائف من السودان في خدمته؛ كما ذكرنا.

وفى أثناء الاضطراب الداخلى، كان نفوذ دولة الفاطميين فى الشام قد انهار نهائياً، فقد هاجمها السلاجقة، كما استقل بمدنها عديد من الولاة والقضاة^(١). فحاصر ألب أرسلان السلجوقى حلب؛ إلا أنه سلمها إلى محمود المرदाسى، وبقي فيها إلى أن توفى فى سنة ٤٦٧/١٠٧٤، وأخيراً استولى عليها السلاجقة نهائياً، وقتلوا نصر ابن محمود فى ٤٧٩/١٠٨٦^(٢). كذلك لما تولى ملك شاه، أمر أخاه تتش^(٣) أن يستولى على الشام وما يفتحه، أى أن يقضى على دولة المستنصر قضاء تاماً. ومن قبل فقد كان القائد السلجوقى أتسز، المعروف بالأقسيس، أحد قواد الفاطميين السابقين، ثم انقلب عليهم وانضم للسلاجقة، فأخذ يجول ويصوّل فى الشام؛ فتمكن من أخذ دمشق من أميرها المغربى واسمه المعلى، من قبل المستنصر الفاطمى، الذى كان سيئ السيرة ظالماً؛ بحيث استولى أتسز عليها بالأمان من أهلها الثائرين^(٤)، وخطب فيها للخليفة المقتدى بأمر الله فى ٤٦٨/١٠٧٦، ثم أخذ بيت المقدس وقتل خلقاً كثيراً، ووصل العريش، ودخل الريف المصرى فى الشرقية، ووصل أمام أبواب القاهرة فى ٤٦٩/١٠٧٦^(٥)، يسأئده ناصر الجيوش، ابن الدكز، الذى كان هرب بعد قتل أبيه، وحرص أتسز على الهجوم على مصر، وقدم له تحفاً مما أخذه من خزائن المستنصر. وقد لجأ بدر فى الدفاع عن القاهرة ومصر ضد السلاجقة، إلى دفاع جواهرذاته ضد القرامطة من قبل بتسليح المصريين، وأعلن أن الجهاد ضد الترك أفضل من الحج،

(١) ابن حجر، ربيع الإصر، ورقة ٥٧.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٩١، ص ١٠٨-١٠٩، الكامل، ص ٨، ١٤٠-١٤١؛ انظر. Rép. ٢٧, P. 140 (n.2764).

(٣) الكامل، ص ٨، ١٢٦، ١٦٠. من تتش، انظر. وفيات، ص ١٦٨-١٦٩.

(٤) الكامل، ص ٨، ١٢٢.

(٥) نفسه، ص ٨، ١٢٣-١٢٤؛ ابن ميسر، ص ٢٧؛ ذيل سير الأباء، ٣ ورقة ٩٢؛ العبر، ص ٤.

فأرسل إليه رؤساء القرى ومقدموها الرجال وسلحوهم. وقد تمكن بدر من هزيمة الجيش التركي، وهرب أتسز في نفر يسير، وقتل إخوته؛ كما قتل ناصر الجيوش. وحينما رجع أتسز، كان تتش قد تولى حكم الشام، فحاصر تتش أتسز في دمشق وقتله لأمر أخذها عليه في ١٠٧٩/٤٧١، ربما لهزيمته في مصر، أو لقسوته وكثرة من قتل على يديه في بيت المقدس^(١)، حتى من التجأ منهم إلى المسجد الأقصى.

وبعد ذلك، قويت همة بدر-كما يظهر من السجلات- لاستعادة الشام. وعلى الرغم من محاولته حصار دمشق عدة مرات ابتداء من ١٠٧/٤٧١^(٢). ولم يوفق في استردادها؛ كما بذلت محاولة من قبل مرداسي حلب لأخذها بمساعدة المصريين، لولا أن مصر لم ترسل المدد^(٣). وكان تتش قد اضطر أمام هجمات بدر أن يستنجد بأخيه ملك شاه^(٤)؛ كما حاول وقف العداء بمصاهرة بين الأسرتين، بأن يتزوج بدر ابنة تتش^(٥). وعلى العكس استولى جيش بدر على عدة بلاد في الساحل الشامي؛ فاستولى على صور، التي كان قد تغلب عليها عين الدولة ابن أبي عقيل، ثم توفى ووليها أولاده، فحصرهم جيش بدر؛ فلم يكن لهم من القوة ما يستطيعون به المقاومة، فسلموها، ولدينا عملة منها في ١٠٨٩/٤٨٢^(٦). ومع أن بدر أيام ولايته الشام لم يستطع فتحها لما حاصرها في ١٠٦٩/٤٦٢^(٧)، وحسنتي لما ثارت في ١٠٩٣/٤٨٦^(٨)، فإنه لما عاد لحصارها فتحها، وضرب أعناق الجميع. كذلك سلم ابن ملاعب بعلبك، التي حاول تتش استردادها^(٩)؛ كما استولى جيش بدر على عسقلان من ابن معروف^(١٠) وقد يكون ابن عمار أخضع طرابلس للفاطميين، وحافظ عليها من هجمات تتش، إذ

(١) الكامل، ص ٨، ١٢٣؛ السيوطي، إتحاف الأخصاء بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق Lemn-ing، ١٨٧٠.

(٢) الكامل، ص ٨، ١٢٦؛ نيل تاريخ دمشق، ص ١١٢ وما بعدها.

(٣) الكامل، ص ٨، ١٢٣؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art. Dimashk) t2, 2 éd, P. 290.

(٤) النجوم، ص ٥، ١٢٥، جاءها مسلم بن قرواش في ١٠٨٢/٤٧٦.

(٥) نفسه، ص ٥، ١١٦؛ مرآة الزمان، ١/١٢ ورقة ١٨٠.

(٦) النجوم، ص ٥، ١٢٨؛ Lavoix؛ Cat, P. 128, 129 (335-6).

(٧) الكامل، ص ٨، ١٠٧.

(٨) النجوم، ص ٥، ١٢٨، مرآة الزمان، ٣/١٢ ورقة ٢١٤.

(٩) النجوم، ص ٥، ١٢٨، ١٣٠.

(١٠) العبر، ص ٤، ٦٤.



يبدو أنه كان على علاقة طيبة به، فلدينا عملة منها باسم المستنصر فى
١٠٨٢/٤٧٥ (١).

والخلاصة أن بدرأ أنقذ دولة المستنصر، وأعاد لها بعض نفوذها فى الشام.
ونجد السجلات تؤيد بدرأ ضد كل أعدائه، حتى ضد الذين هربوا من مصر إلى
اليمن؛ فيأمر المستنصر ملكة اليمن السيدة الحرّة، بقطع رؤوسهم (٢).

*

وفى الوقت ذاته، عمل بدر على إعادة تنظيم الدولة التى انتابتها ثورات الجند
والمجاعات. فقد أطلق الخراج للمزارعين ثلاث سنوات حتى تتحسن أحوالهم (٣).
وقد ساعدهم على زراعة البلاد عودة فيض النيل إلى طبيعته الأولى؛ فبلغ ارتفاعه
القديم؛ ثمانية عشر ذراعاً (٤)، أى أن الزيادة أكثر من خمسة عشر ذراعاً. فزرعت
الأرض أول سنة، فجاء القمح والشعير والفول وجميع الحبوب مختلطة (٥).
وبفضل سياسة بدر تحسنت ميزانية البلاد، فبينما كانت -قبل مجيئه- مليونين
وثمانمائة ألف دينار فى ١٠٧٢/٤٦٦، وصلت إلى ثلاثة ملايين ومائة ألف فى
١٠٩٠/٤٨٣ (٦). وربما تكون البلاد قسمت تقسيماً جديداً فى وزارة بدر، فأبو
صالح الأرمنى يذكر تقسيماً إدارياً للبلاد فى عهد المستنصر (٧)، إلى واحد
وعشرين عملاً بمعنى مديرية، وإلى نواح بمعنى مراكز، وإلى كفور وقرى، أما
كلمة كورة -وجمعها كور- بمعنى مركز، التى كانت أساس التقسيم الإدارى
القديم، فلم يعد لها وجود.

وكان انتظام الزراعة من شأنه أن عمل على تراجع الأسعار، حتى صار القمح
يباع بربع دينار التليس. كذلك جاءت القوافل التجارية من كل مكان، وزادت عن
ذى قبل (٨)؛ وإن أصبحت -منذ الشدة المستنصرية- كل التجارة تمر عن طريق
بلدة قوص، ومنها على الإهل إلى صحراء عيذاب، مما يدل على أن الخليج الموصل

(١) أنظر. Lavoix، Cat، P. 133 (348).

(٢) سجل رقم ١٦ من ٦٧-٦٩، ٥٢، ص ١٧٩-١٧٥.

(٣) الخطط، ٢، ص ٢١٢، س ٢٥-٢٦.

(٤) النجوم، ٥، ص ١١٦.

(٥) ذيل سير الآباء، ٣، ورقة ٨٧.

(٦) أبو صالح، ص ٧-٩.

(٧) نفسه، ص ١٩-١٩، س ١٠-١١، ترجمة ١٧-١٨؛ أنظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١، ص

١٣٠-١٣١.

(٨) ذيل سير الآباء، ٣، ورقة ٨٦-٨٧.

بين النيل والبحر الأحمر اضمحل فى أثناء الاضطرابات الداخلية. ويبدو أن الرخاء عاد إلى ماكان عليه، حتى أن كاتب بدر القبطى اشترى سمكة بألف دينار؛ كما أن بدر نفسه صارت عنده خزائن عديدة، وكان احتياجه الخاص من السكر مائة قنطار^(١).

ودليل آخر على انتظام حالة البلاد المالية، العودة إلى البناء والعمائر. فأعيد بناء أسوار القاهرة من أنقاض العسكر والقطائع، ربما لأن السور القديم الذى بناه جوهر بالطوب قد تهدم، ولدينا نقش بعمل السور فى ١٠٨٧/٤٨٠^(٢). كذلك بنى بدر ثلاثة أبواب هامة، تعتبر أروع آثار الفاطميين الباقية إلى الآن؛ فقد بنى باب الفتوح، وباب النصر، وباب زويلة الكبير، الذى عمل فى بابه زلاقة كبيرة؛ بحيث أصبح أعظم الأبواب ولدينا عليها نقوش فيها اسم بدر والمستنصر، وتاريخ البناء فى ١٠٨٧/٤٨٠^(٣)؛ مما يدل على بنائها وقت إعادة بناء السور. ويقول المؤرخ أبو صالح إن راهباً قبطياً اسمه حنا، هو الذى قام بعمل الأسوار والأبواب، للوزير الأرمنى، أبى بدر^(٤). ولاتساع القاهرة الجديد، سمح بدر للناس وللعسكر بنقل حجارة القطائع والعسكر للتعمير^(٥) فى القاهرة.

كذلك بنيت جوامع عديدة، بلغ عددها فى عهد المستنصر ٣٦ ألف مسجد^(٦)؛ كما ذكرنا. فبنى جامع العطارين بالإسكندرية، فى سوق العطارين، ولدينا عليه نقش فى ١٠٨٤/٤٧٧^(٧). وبنى فى القاهرة مشهداً على قمة المقطم

(١) ابن حجر، رفع الإصر، ورفقات ٥٨-٥٩.

(٢) أنظر. t 7, P. 237. n.2762.

Van Berchem : j. A. 1891, 443 Suive

(٣) أنظر. t7. 237 n. 2762 (آخر سطر)؛

Corpus Inscript arab Egypte. t2, 32, 33, 36-39, 516, :Van Berchem;

Wiet 518 : Gesch der Fat. P. 264 sqq. : الخطط، ٢ ص ٣٠٩-٣١٠، ٣١٢.

؛ أنظر لين هول، سيرة القاهرة، ترجمة عربية، ص ١٤٥.

يذكر المقرئى أن باب زويلة بنى فى ١٠٩٢/٤٨٥ أو فى ٤٨٤-١٩٠١، نسبة لقبيلة من قبائل البربر، وباب الفتوح فى ١٠٨٧/٤٨٠، كما قيل إن باب زويلة بناه العزيز وتسمه بدر؛ وإن باب النصر والفتوح وضعهما جوهر. أنظر. Wiet et Haut .

Les Mosquées, 1, P. 232 sqq.

(٤) أبو صالح (مذكرات ثان برشم) طبعة ١٨٩١، ص ٣٧-٧٢

(٥) الخطط، ٢ ص ٩٠ س ٢٠-٢٣، ٢ ص ١٨٤

(٦) معجم البلدان، ٦ ص ٣٨٤

(٧) النجوم، ٥ ص ١١٩؛ ابن حجر، دفع، ورقة ٥٧؛ وفيات ١ ص ٣٩٦

Rép. t 7, P 220-230 no 2752;

Corpus Inscript. arabe Egypte t 2, P 50 Notes d'archéologie arabe. Van Barchem

Ext. du J. A. 1891, P 37 sqq.

فى ٤٨٧/١٠٨٥، يعرف بالجيوشى، نسبة إلى أمير الجيوش بدر، ويسبب بناء هذا المشهد على جبل المقطم، عُرف أيضاً بالجيوشى^(١). وبنى جامعاً على ساحل النيل فى ٤٨٥/١٠٩٢^(٢)، عند المكان الذى يجلس فيه الماكس - وهو من يجبى ضريبة المكس على التجارة وغيرها- عرف بجامع المقس، حيث حورت الكلمة. كذلك بنى جوامع ومشاهد فى أماكن أخرى، مثل إنشائه مسجداً باسناى فى ٤٧٠/١٠٨٨^(٣)، ومشهداً لرأس الحسين فى عسقلان فى ٤٧٩/١٠٨٦^(٤)، حيث عثر على الرأس التى حملت إلى يزيد فى عهد الأمويين ودفنت بدون احتفال للعداء بينهم وبين بنى هاشم، فدفن بدر الرأس الشريف فى المشهد، وحبس عليه الأحباس؛ كما أنه وجدت نقوش فى المشهد على المنبر مكونة من اثنى عشر سطرأ من أيامه. وقد أمر بدر بإصلاح وترميم عديد من الجوامع، فزاد فى جامع الحاكم^(٥)، وجدد باب مسجد ابن طولون^(٦)، وأمر بعمارة ضريح السيدة نفيسة الذى انتهى منه فى ٤٨٩/١٠٩٦^(٧).

يضاف إلى ذلك أن بدرأ أعاد تنظيم الجيش الفاطمى. فزاد من استخدام جنود الحجرية المصريين التى أهملت بسبب صراع الطوائف المختلفة. ومنذ وقت بدر إلى سقوط دولة الفاطميين، نسمع عن العساكر المصرية، والأمراء المصريين، أما المغاربة والمشاركة، فقد تلاشى أمرهم وصاروا من جملة الرعية^(٨)، بعدما كانت لهم السيطرة فى الدولة. وعلى العكس يبدو أن بدرأ لم يقض على طوائف السودان، التى استمر استخدامها حتى آخر الدولة الفاطمية. وعلى العكس، فإن بدرأ أوجد عنصراً جديداً فى جيش الفاطميين، وهو العنصر الأرمنى^(٩)، من جنس بدر. فقد كان اشترط على المستنصر قبل مجيئه مصر أن يحضر معه من يختاره من العسكر، ولا يبقى أحداً من عسكر مصر

(١) أنظر. Les Mosquées t I, P. 229 sqq; Rép t7p 229-230; Ency, t I, P. 572.

(٢) أنظر. Rép. t7, P. 265-6.

(٣) أنظر. Ibid, t7, P. 202.

(٤) أنظر. Ibid t2, P. 260-262. ؛ وفيات، ١ ص ٣٩٦.

(٥) أنظر. Rép, t7, P. 199.

(٦) أنظر. Id.

(٧) أنظر. Ibid, t7, P. 248' n 2776. ربما يكون تاريخ الانتهاء من بنائه، إذ بدر توفى قبل

بنائه

(٨) الخطط ٣ ص ١٨ س ١٠-١١

(٩) نفسه

السابقين^(١)؛ وإن بقي هذا العنصر الجديد كجيش خاص. ولم تكن الجيوش الخاصة بدعة بدر، فقد سمح الخليفة العزيز من قبل لوزيره ابن كلس، بتكوين طائفة عرفت بالوزيرية، نسبة إلى هذا الوزير^(٢). فلعل طائفة بدر الخاصة، هي التي عرفت بالجيوشية^(٣)، نسبة إلى لقبه أمير الجيوش، الذي عرف به وهو في الشام. وقد أصبح للأرمن في الجيش حارة^(٤) -أي معسكر- هي حارة الحسينية التي كانت للسود، ومن قبل كانوا يسكنون في منطقة طُرة^(٥)، كما استقدم لهم بطيريكاً يرعى شئونهم^(٦)؛ وخصصت لهم إحدى الكنائس. فقد كانت الأرمن منذ استيلاء الروم على بلادهم تهاجر إلى الشام ومصر^(٧)؛ حيث دخلوا في جيش ابن طولون، وإن كان بدر وابنه من بعده شجعاً هجرتهم إلى مصر، ثم إن وجود السلاجقة في الشام جعل معظم الأرمن يتجهون إلى مصر.

وفوق ذلك، نظم أحوال المذهب الفاطمي الذي ضعف بسبب ضعف الإمام ووزرائه؛ مما جعل الناس لا تحفل بالمذهب وشعائره. ومن المحقق أنه كان متشعباً، حتى أنه انتسب إلى الإمام، فكان يعرف بأبي النجم بدر المستنصري^(٨) فنجده يأمر بعودة الأذان الشيعي بحى على خير العمل؛ كما دعا إلى التكبير على الجنائز. وفعل مثلما فعل الوزراء قبله، فنظم دروساً في المذهب، فعرف بالباب أو باب الدعوة لذلك، وهي مرتبة من مراتب الدعوة، يقصد بها أنها فصل الخطاب^(٩). وقد اتهم لتحمسه الشيعي بتعصبه ضد المذهب السني، حتى أنه أمر بنقش لعن الصحابة^(١٠)، ووصف بأنه قتل خلقاً كثيراً من العلماء والسنة.

(١) نفسه، ٢ ص ٢١١ س ٢١-٢٢.

(٢) ابن الصيرفي، الإشارة، ص ٢٣؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ١٩٩.

(٣) صبح، ٣ ص ٤٨٢، ٥٠٨؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ١٩٩.

(٤) ذيل سير الأباء، ٣ ورقة ٩٥.

(٥) أبو صالح الكنائس، ص ٤٧ ب، ترجمة ١٤٢.

(٦) ذيل سير الأباء، ٢، ورقات ٩٢-٩٣.

(٧) يذكر المقدسي أن جبل اللكام «Amanus»؛ كان بيد الأرمن.

انظر. أحسن التقاسيم، ص ١٨٩؛ Canard.

Notes surs Les arméniens en Egypte à l'époque faimite:

Ext. des Ann. de l'Inst. D'Etudes. Or. T XIII, 1955, PP. 143-157.

(٨) سجل رقم ٥٨، ص ١٩٢.

(٩) سجل رقم ٢١ ص ٧٨؛ انظر.

Ency. de l'Isi, (art-Bâb) 2éd, t I, P. 855-6.

عن هذه المرتبة؛ انظر. راحة العقل لحميد الدين الكرمانى.

(١٠) النجوم، ٥ ص ١٢٠.

ونظم أحوال القبط، فحدد الجرية على الجميع بدينار وثلث أو ربع^(١) ولكن استمر تمييز القبط-كما كان الحال في بلاد العصور الوسطى- بلبس زنانيير سود ومن خالفوا يصيغون لرنانييرهم السود أطرافاً صفراً^(٢) وفي مرة قبض على البطريك لما سمع أن ملك النوبة هدم مسجداً، وأن ملك الحبشة أساء معاملة المسلمين^(٣). ومع ذلك؛ فإنه كان دائماً على علاقة طيبة بالأقباط وبطريركهم، ويستقبله بنفسه، ويطلب من الأساقفة السماع له، ويمنع الوشاية بينهم^(٤). كذلك لما ترك سلمون ملك النوبة ملكه كما ذكرنا، وسلّمه إلى ابن أخته جرجة، التجأ سلمون إلى مصر، فاستقبله بدر استقبال الملوك، وأنزله في دار حسنة^(٥). كل هذا يدل على أن بدر أسهم في إعادة تنظيم دولة الفاطميين، التي كادت تطيح بها الزعازع.

✱

ولقاء إنقاذ بدر خلافة المستنصر، تولى الوزارة ليس كوزير تنفيذ مثل الوزراء السابقين، الذين يقومون بتنفيذ إرادة الخلفاء، ولكن كوزير تفويض فوضت إليه جميع أمور الدولة ويتحكم فيها بإرادته، فكان أول وزير تفويض^(٦) فاطمي. وأكثر من هذا فإن المستنصر على حد قوله نصب بدرأ منصب والده الإمام الظاهر لإعزاز دين الله^(٧)، كما أنه بالنسبة لأم المستنصر كان أيضاً بمثابة والدها^(٨)، بل هو قلب أمير المؤمنين وناظره وعيناهه وباتره^(٩). وبملاحظة المؤرخ أبي المحاسن، فإن بدرأ تولى الوزارة، حتى لا يأخذها أحد فينازعه إياها^(١٠)، فهي تولية مظهرية، بينما هو في الشام كان في رتبة أجل من الوزارة.

ولدينا وصف تولية بدر الوزارة^(١١)، فقد خرج المستنصر من حجرات قصره إلى الإيوان، وهو القاعة ذات الأعمدة؛ حيث أقيمت حفلة تولية بدر،

(١) ذيل، سير الأباء، ٢ ورقة ٩٢

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ٣ ورقة ٨٦

(٤) نفسه، ٣ ورقة ٩٠

(٥) نفسه، ٣ ورقة؛ وقبله.

(٦) عن ذلك بتفصيل؛ فصل الوزارة في كتابنا؛ نظم الفاطميين، الجزء الأول.

(٧) سجل رقم ٢٤ ص ١٧-١٠٨. وسجل رقم ٥٨ ص ١٩٢

(٨) سجل رقم ٥١ ص ١٧ س ١

(٩) سجل رقم ٦٣ ص ٩

(١٠) النجوم، ٥ ص ١

(١١) سجل رقم ٥٩ ص ١٩٤-١٩٦. وسجل رقم ٢٤ ص ٨ ١٠ الخطط، ٢ ص ٣٠٤؛ انظر

ماجد نظم الفاطميين، ١ ص ٨٢

بحضور رجال الدولة وأعيان المملكة والدعاة والقضاة. فقدم الخليفة إلى بدر عهداً (سجلاً) لم يكتب مثله من قبل، ذكر فيه لعمراً ما قام به بدر؛ كما كتب الخليفة بعد علامته المميزة في المراسلات- الحمد لله رب العالمين- بخط يده في مدح وزيره. وتظهر سلطة بدر فيما ورد في سجله، الذي جاء فيه: «وقد قلَّدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره، فباشر ما قلَّدك أمير المؤمنين من ذلك مدبراً للبلاد، ومصلحاً للفساد، ومدمراً أهل العناد». وقد وضع سجل بدر في لفافة مذهب، وقبله الخليفة أمام الحاضرين ليمنحه البركة، وأرسلت نسخ من السجل إلى ولاية اليمن، مع مندوب يحمله إليها؛ حيث كانت هي الباقية في خلافة المستنصر تخضع له، إذ كان تفويضه لبدر حكم بلاد الفراعين وما يتبعها.

ومنح المستنصر بدرأ خلع الوزارة، وهي جميعها بيضاء شعار الفاطميين، كما منحه ثوبه الذي كان عليه للبركة، وتتكون من عمامة لها طرف (ذؤابة)، كانت من زىِّ أمراء مصر القواد دلالة على سيطرته على الجيش، والحنك وهو أن طرف العمامة يمر تحت الحنك، زىِّ رجال القصر، وثوب مطرز بالذهب اسمه «دُراعة» مشقوق من أمام، ومطلى بعري وأزرار؛ كما خلع عليه العقد المنظوم بالجواهر، مكان الطوق رمز الوزارة السابقة- وزارة التنفيذ- والطيلسان المقوى- رداء صلب- رمز قاضي القضاة الذي أصبح بدر مسيطراً عليه أيضاً.

وبمقتضى هذا التفويض، ظهرت ألقاب لبدر لم تعرف من قبل، وأصبحت من خصائص وزارة التفويض الفاطمية. فمنذ بدر أصبح للوزير لقب جديد، فللقب وزير الذي كان يتلقب به وزراء التنفيذ قبله، حل مكانه لقب السيد؛ وإن بقيت لفظة الأجل؛ لتكون نعتاً للقب الجديد. وظهرت ألقاب أخرى تدل على سلطة بدر التي تمتد إلى كل شيء، فهو: أمير الجيوش المسيطر على الجيش، وكافل قضاة المسلمين، المسيطر على السلطة القضائية، وهادى دعاة المؤمنين، المشرف على الدعوة الفاطمية؛ فكان بدر أول من جعل القضاة والدعاة نواباً عنه. فكان يطلق عليه: السيد، الأجل، أمير الجيوش، سيف الإسلام ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين. ومع ذلك، فإن لقبه أمير الجيوش كان أحب الألقاب إليه، حتى مباتيه يطلق عليها هذا اللقب «الجيوشى» بقصد نسبتها إليه، دون اسمه.

كذلك أصبح لبدر مقر خاص يحكم منه عرف بدار الوزارة الكبرى^(١)، ولم يزل يسكنه وزراء التفويض بعده حتى سقوط الدولة، فكان يشمل عدة قاعات منها: قاعة البحر، وقاعة السر، وقاعة البستان. وقبل بدر، كان الوزراء يعقدون مجلسهم في دار بنيت للوزارة، أنشأها الوزير يعقوب ابن كلس في عهد العزيز، وهي التي عرفت في وزارة بدر بدار الديباج، لأنها تحولت إلى مصنع للحريير «الديباج».

وقد كان المستنصر مع بدر محجوراً عليه فلم يبق له معه أمر إلا القيام برسوم الدولة والركوب في العيدين^(٢)، مثلما كان مع أمه التي سيطرت عليه. فتحكم بدر في مصر تحكم الملوك، بحيث يقول ابن حجر إنه أنشأ دولة جديدة. ويبدو أن شخصية بدر كانت عاملاً على ذلك، فقد كان كفتاً لمنصبه، عرف بالجد، ووطن نفسه على العزم، شديد الهيبة، وافر الحرمة، مخوف السطوة^(٣). وقد استمر يحكم حكماً مطلقاً لهذا الخليفة الناعم، الذي كره المسئولية، إلى وقت وفاته في جمادى الأولى سنة ١٠٩٤/٤٨٧ (أو حتى في ١٠٩٥/٤٨٨)، فكان أول الوزراء المستبدين، وفاتحاً لسلسلة الاستبداد إلى وقت سقوط الدولة.

*

حقاً إن السلطة الروحية للخليفة المستنصر قد بقيت له، لم تتأثر باستبداد وزيره بدر، إذا المسألة لم تتعد تسلط دكتاتور على الخليفة. ولكن الخطر ظهر أيضاً لهذه السلطة الروحية، من الوزراء المستبدين، الذين أتوا بعد بدر. فقد وجد هؤلاء في كيفية تعيين الخلفاء الفاطميين ما سهل لهم الاستبداد، ذلك لأن تعيين الخليفة العباسي، يتم باجماع الأمة الإسلامية - كما هو مفروض عندهم - ولكن يتم - كما ذكرنا - بما عرف بالنص أو التنصيب، لأن الإمام ينص على من يخلفه. وفوق ذلك، لم يكن للنص نظام معين، فهو قد يكون تحريراً بوصية؛ أو شفويًا وهو الغالب، أو حتى بالتلميح بالعطف، كما أنه لم تكن هناك شروط

(١) الخطط، ٢ ص ٣٠١-٣٠٢، ٣٤٣-٣٤٤. وقيل بناها ابنه الأفضل. انظر.

(٢) Essai, 111, 2, P. 50-6; Ravaisse، نظم الفاطميين، ١ ص ٩١.

(٣) النجوم، ٥ ص ٤٥؛ مرآة الزمان، ٢/١٢ ورقة ٢٢٠.

(٤) الخطط، ٢ ص ٢١٢ س ٢١. عن وفاته؛ انظر. ابن ميسر، ص ٢٠؛ ذيل سير الأبهاء، ٢ ورقة

١٠٣. يقول في المحرم.

خاصة بعمر الإمام أو حالته الجسمية والنفسية مثلما هو عند السنة، غير إرادة الإمام، التي اعتبرت من إرادة الله بسبب وصاية النبي لعلى عن طريق الوحي؛ ولأن هذه التولية كان يصحبها وراثة العلم الإلهي أو اللدني، الذي ورثه على ومن بعده من الأئمة عن النبي، فكل إمام كان يلقيه لخلفه^(١). ومع ما يبدو من أهمية النص عند الفاطميين من الناحية العقيدية؛ فإن وقوع الأزمات الاقتصادية في عهد المستنصر، وثورات الجند، جعلت الناس لا يراعون له حرمة؛ كما ضعفت ثقتهم في النص.

وقد بدأ استبداد وزراء التفويض بالنص منذ الخليفة المستنصر، الذي كفل وزارة التفويض لأبي القاسم شاهنشاه بن بدر، الذي عرف بلقبه الوزاري بالأفضل، في أثناء مرض أبيه، في العشر الأخير من شهر ربيع الأول في سنة ٤٨٧ / إبريل ١٠٩٤، وهو على ما يبدو لم يكن الابن الأكبر لبدر، الذي ثار عليه في الإسكندرية، واشتهر بالأوحد^(٢)، وعمل بدر على خنقه، وقيل غرقه حياً. فقرر للأفضل سجل^(٣) في الإيوان -وهي القاعة ذات الأعمدة- بحضور المستنصر، وسائر كبار رجال الدولة وأشرافها، وجنودها وعساكرها، وضيوفها، وعمامة الناس. وبمقتضى هذا السجل، قلد الأفضل تدبير المملكة، وسائر أمور الدولة وقضاياها وشرائعها وأحكامها، مثلما كان الأمر لبدر، كذلك منح الأفضل خلع الوزارة من ثياب. ودعى له بالقباه على المنابر بعد الخليفة وبدر، في القاهرة ومصر وسائر الأعمال في أيام الجمع والأعياد، وهي^(٤)؛ الأفضل، سيف الإمام، جلال الإسلام، شرف الأنام، ناصر الدين، خليل أمير المؤمنين، أبو القاسم شاهنشاه. بل هو الآخر كون فرقة خاصة من الجيش لتحمي استبداده جعلها من المماليك أو الأرمن، عرفت بالأفضلية^(٥)؛ لتكون تحت يده مباشرة. معنى هذا أن الأفضل كان يمهّد للسيطرة بدوره على الدولة.

- (١) فصل الإمامة، من كتاب: نظم الفاطميين؛ الملل، ص ١٠٨ وما بعدها. وقبله.
 (٢) ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ٩١ وما بعدها؛ الخطط، ٣ ص ٢١٢؛ انظر. ماجد، المستنصر، ص ١٨٢-١٨٣. المسمى أبو الحسن على الملقب؛ بمظفر الدولة، شرف الملك، ناصر الدين، عمدة المؤمنين، ذي الرياسات. سجل ٥٩ ص ١٩٥ (سنة ٤٧٢هـ).
 (٣) عن ذلك: سجل، رقم ١٥ ص ٦٤-٦٦؛ ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ١٠٢. عن الأفضل، انظر. وفيات، ١ ص ٢٩٦ وما بعدها.
 (٤) انظر. Rép. t8, P 4: n. 2806.
 (٥) صبح، ٣ ص ٥٠٨ س٦.

ف نجد الأفضل يتدخل فى تعيين ولى العهد قبل وفاة المستنصر وبعدها، على الرغم من أن المستنصر أبدى رأيه فى النص على خلفه. فقد كان للمستنصر عدة أولاد، منهم^(١) نزار، ومحمد، وعبد الله، وإسماعيل والحسن^(٢)، والحسن^(٣)، وحيدره^(٤)، وأحمد، فتوفى بعضهم مثل حيدرة، ولا نعرف منهم بعد موت المستنصر غير: نزار، وعبد الله، وإسماعيل، وأحمد. وقد كان المستنصر يرشح ابنه الأكبر نزاراً ليخلفه، وربما يكون أيضاً قد كاتب بعض الناس مشيراً بولايته العهد لنزار، وأنه سك اسمه على العملة^(٥). ولكن الأفضل كان يغار من نزار، فوقف موقف العداء من هذه المبايعة، فكان يقلل من قيمة نزار، ولا يقرب أحداً من غلمانه وحاشيه، بل قصدهم بالأذى، وحذر رجال الدولة من قبول مبايعته، وخوفهم منه^(٦). ويذكر المؤرخون مبايعة وقعت بين نزار والأفضل: فقد خرج نزار ذات يوم من بعض أماكن القصر، فوجد الأفضل قد دخل من أحد الأبواب وهو راكب، فصاح به: انزل يا أرمنى يا نجس، فحقدتها الأفضل عليه، وظهرت كراهة أحدهما للآخر^(٧).

فلما سمع الأفضل بوفاة المستنصر فى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٤٨٧/ ١٠ فبراير ١٠٩٥ (الثانى من طوبة سنة ٤٨٤) سار إلى القصر من ساعته، واختار أحمد الأصغر دون بقية إخوته^(٨)، خليفة للمستنصر؛ فقد ارتبط به عائلياً بزواجه من أخته ست الملك.

(١) لدينا أسماءهم وكنياتهم مختلفة فى مصادر متفرقة، فمثلاً صاحب أخبار الدولة النقطعة، يقول هم: أبو القاسم أحمد الأصغر، وأبو المنصور نزار، وأبو الحسن جعفر وغيرهم. انظر. ورقة ٧٢.

(٢) ورد اسمه فى سجل رقم ٨ ص ٥١. ولد فى عشرة من جمادى سنة ٤٥٧-١٠٦٥، وكنيته أبو الفضل.

(٣) ورد اسمه فى سجل، رقم ١١ ص ٥٤-٥٥. لم يذكر تاريخ مولده. وكنيته أبو محمد.

(٤) الخطط، ٣ ص ٧٩ س ٢٠-٢١. عرف قبره برحبة أبى تراب.

(٥) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٥٤. عنه؛

Ency. de l'isl, (art. Nizâr b. al Mustansir) t 3, P. 1006.

(٦) المواعظ والاعتبار، مخطوطة طوب قبو سراى، ورقة ١١١، انظر. الشيال، مجموعة الوثائق، ١ ص ٥٥، ص ٣٠٥ وما بعدها.

(٧) الخطط، ٢ ص ٢٧٧ س ١١؛ ابن ميسر، ص ٢٥.

(٨) عن ذلك بتفصيل: ذيل سير الأباء، ٢ ورقات ١٠٢-١٠٣؛ ابن ميسر، ص ٣٤ وما بعدها. ولد المستعلى فى يوم الأحد ١٤ من صفر سنة ٤٥٢/ ٢١ مارس ١٠٦٠؛ كما يظهر فى سجل (السجلات) رقم ٦ ص ٤٧؛ أى أن عمره عند التولية حوالى اثنتين وثلاثين سنة. ولدينا تواريخ أخرى، منها أنه كان عند التولية سبع عشرة سنة (ذيل سير الأباء، ٢ ورقة ١٠٢)، أى بعد سنة ٤٥٢/ ١٠٦٠، وهذا يتوافق مع سجل ذكره المستشرق جيب "Gibb" مأخوذاً من كتاب عيون الأخبار (الجزء ٧ ورقة ١٥٢)، وذلك بأن مولده فى ٢٠ المحرم سنة ٤٦٧/ ١٦ سبتمبر ١٠٧٤. ويوجد هذا السجل فى ملحق كتاب: الصليحيون، برقم ٧ ص ٢١٩؛ وأيضاً، Ency. t3, P. 18-19. عن المستعلى نفسه؛ وفيات، ١ ص ١٠٠-١٠١.

ويقول أحد المؤرخين إن أحمد هذا لم يكن ابناً للمستنصر، وإنما هو ابن روحانى له، وهو فى الحقيقة حفيد بدر الجمالى^(١). فألبسه ثياب الخلافة - وهو رداء- وتاجها- وهو عمامة- بالجواهر- ولقبه بالمستعلى بالله أمير المؤمنين. كذلك أوفد الشريفة عمه أحمد -وهى أخت المستنصر- إلى بقية أولاد المستنصر بما فيهم نزار، وأعلمهم بوفاة أبيهم، وضرورة حضورهم. فقد كان لهذه العمه - على ما يبدو- طموحها، مثل طموح الملكة أم المستنصر من قبل، فكانت تلقب مثلها بالقباب منها: السيدة، الطاهرة الشريفة، الملكة، الكريمة، الرؤوف، الرحيمة، ولها علامة خاصة، هى: الحمد لله ولى كل نعمه^(٢). ويذكر المؤرخون أن المستنصر ترك لهذه العمه أمر إعلان تولية خليفة عهده، أو أن الأفضل اتفق معها على أن تكون لها كفالة الدولة^(٣)، مما يؤيد طموحها.

فلما حضر أولاد المستنصر، وأبصروا الصغير جالساً بزى الخلافة امتعضوا، وأنكروا ذلك، فقال لهم الأفضل: قبلوا الأرض لمولانا المستعلى بالله وبايعوه، فهو الذى نص مولانا عليه قبل وفاته، إنه الخليفة من بعده. ولكنهم امتنعوا عن مبايعته، وقال كل واحد منهم إن والده وعده، فإنه الخليفة من بعده. ثم قال نزار- وهو الأكبر وعمره وقتئذ ٥١ سنة^(٤)- «والله لو قطفت رأسى ما بايعت بالخلافة لمن هو أصغر منى، ولا رضيت تقدمته على، لأن مولانا -أبى المستنصر- قال لى دفعات كثيرة إنى الخليفة من بعده، وأن معى خطه بهذا، وهانذا أحضره إليكم الساعة». وقد كان هذا حجة من نزار، لكى يهرب من أمام الأفضل المستبد؛ إذ كان لنزار قوم من رجال الدولة يؤيدونه للخلافة، بما فيهم غلمان من غلمان بدر. فلما عرف الأفضل بهرب نزار قبض من ساعته على أخويه عبد الله وإسماعيل وحبسهما فى المسجد بالقصر، وجعل مع كل واحد منهما عشرة يحفظونه.

(١) انظر. حسن إبراهيم، عبید الله، ص ٧٩. يعتمد على مصدر.

(٢) سجل رقم ٥٢ ص ١٧١؛ سجل رقم ٢٨ ص ٩٦-٩٧.

(٣) ابن خلدون، العبر، ٤ ص ٦٦؛ ابن ميسر، ص ٦٧

(٤) مولده فى ١٠٤٤/٤٣٦ - الذهبى (هامش) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٩. أو حتى

١٠٤٥/٤٣٧. ابن ميسر ص ٣٧

فلما أصبحوا بالغد، أقيمت البيعة الرسمية للمستعلى، الذي جلس على سرير الملك فى الإيوان الكبير، ومعه الأفضل بين يديه، وحضر القاضى وشهود القاهرة ومصر، وأخذوا البيعة على مقدمى الدولة ورؤسائها. ثم أرسل الأفضل صاحب الرسالة - وهو من يخرج برسالة الخليفة^(١) - إلى عبد الله وإسماعيل لإحضارهما من سجنهما بالقوة، فلما دخلا على المستعلى قبلا الأرض، وسلما عليه بالخلافة، واستوفى القاضى عليهما إيمان البيعة. وإن ذكر أحد السجلات أن الأمراء إخوة المستعلى، أول من دخل فى البيعة من أنفسهم، لعلمهم بصحة عقدها.

ومع أنه ذكر أن نزاراً بايع^(٢)، إلا أنه تمكن من الفرار؛ فقد سار فى الليل مع غلمانه؛ فأنفذ الأفضل وراءه جماعة كبيرة من الفرسان، ليقبضوا عليه ويعيدوه، فساروا فى إثره فلم يلحقوه، ولا عرفوا أى طريق أخذه، فوصل نزار الإسكندرية، وأعلن أنه الإمام، وتلقب بالمصطفى لدين الله. وكان نزار قد اتفق مع نصر الدولة أفتكين، أحد غلمان بدر، والى الإسكندرية، أن يجعله مدبر مملكته والناظر فيها عوض الأفضل، فانضم إليه؛ وكذلك انضم إلى نزار أهل الإسكندرية، بسبب أن بدرًا كان قد أساء معاملتهم عند ثورة ابنه الأوحى فيها، وجاء إلى الإسكندرية، محمود بن مصال اللقى - نسبة إلى لك بلدة من نواحي برقة^(٣) - ربما إيماناً بحق نزار، ولعاقبته. بل انضمت إلى نزار كل الأجناد، التى حاربها بدر، من عربان وسودان ومغاربة، بحيث زاد عددهم على ثلاثين ألف فارس وراجل.

فاستولى نزار بأنصاره على معظم الدلتا (بلاد الريف) وهزموا جيشاً للأفضل. ولكن هذا الوزير جمع عسكرياً كبيراً من كتامة على الخصوص - وهى من طوائف المغاربة وأصل دولتهم - كما أخرج من خزائنه أموالاً كثيرة وكساوى وخلعاً وسلاحاً، وعدة آلات، وقبل أن يتحرك الأفضل من القاهرة، خرج المستعلى لتوديعه؛ فركب المستعلى بالمظلة شعار الإمامة الفاطمية. ويبين السجلان برقى

(١) عن منصبه؛ صبح، ٣ ص ٤٥٨.

(٢) يذكر ذلك سجل رقم ٤٣ ص ١٤٧.

(٣) عنها؛ معجم البلدان، ٧ ص ٣٣٧.

٣٥ و٤٣ ، ظروف القتال الشديدة بين الأفضل من ناحية، وبين نزار وأفتكين من ناحية أخرى، حيث كان نزار على رأس جيشه، وعلى رأس المظلة أيضاً. وقد بلغ القتال أشده في موقع كوم الريش- بجوار القاهرة- حتى أن نزاراً وأفتكين اضطرا بعدها إلى التقهقر للإسكندرية. فحاصر الأفضل الإسكندرية براً وبحراً، وإن توقف القتال في شهر رمضان؛ لقيام فريضة الصوم، وبعد انتهاء هذا الشهر، ضربها بالأحجار واللهب من المنجنيقات، وقد استمر القتال حولها من صفر إلى ذي القعدة في ١٠٩٦/٤٨٨، أي حوالي عشرة شهور؛ حيث لقي الأفضل من أهلها مشقة. فلما رأى أهلها أنهم مغلوبون، وقد فرغت المؤن، طلب أفتكين الأمان له ولنزار ولأهل البلد. فأمّنهم الأفضل؛ وإن ذكر السجلان أنه لم يكن لهما عهد أو عقد. بعد ذلك فتحت المدينة أبوابها للأفضل، الذي أمر بمسير نزار وأفتكين إلى القاهرة، أو حملهما إليها بالسفن^(١)؛ على أن يقيما بظاهرها إلى أن يصل إليها، ويسأل المستعلى بالله في العفو عنهما. أما ابن مصال^(٢)، الذي هرب إلى المغرب، فقد عاد إلى الأفضل، الذي عفا عنه، ربما لأن ابن مصال من المغاربة، الذين ساعدوه، حيث أصبح لابن مصال هذا شأن فيما بعد أيام الخليفة الفاطمي. وقبل مغادرة الأفضل المدينة، غير جميع موظفيها، ولاسيما القاضي، وعين عليها والياً من قبله.

وبعد ذلك يروى السجلان أن الخليفة المستعلى اعترافاً بحق وزيره، الذي أبقى له الخلافة. وهو قابع على سريرته في القاهرة، أرسل إليه هدايا كثيرة. فلما وصل الأفضل قرب القاهرة عند بركة الحبش^(٣)- وهي بساتين على النيل قرب القاهرة- خرج الخليفة إليه بنفسه لتلقيه، وفكر في تكريم وزيره؛ فلم يجد أفضل من الخلع عليه بملابس جسده، كما خلع عليه تاجه- عمامته- المرصع بفاخر الجواهر، ووضع بيده على رأس وزيره. فلما كان بالغداة؛ جلس المستعلى في باب الملك - وليس في الإيوان- ليشعر المغلوبين بازدرائة؛ فدخل إليه الأفضل، ومعه أسيراه نزار وأفتكين. ولكن المستعلى الذي رأى نزاراً؛ صاح عليه وانتهره،

(١) العبر، ٤ ص ٦٦.

(٢) الخطط، ٢ ص ٣٧٧.

(٣) هي ليست بركة ماء، وإنما منتزه. عنها؛ معجم البلدان، ٢ ص ١٥١-١٥٢.

وأمر باخراجه، فأسرع الأستاذون من رجال القصر بسحبه. ولعل نزاراً اعتقل في موضع بالقصر، وضيق عليه إلى أن مات، أو إنه قتل بالقصر، أو غير ذلك. أما أفتكين؛ فإنه وبخ وأمين، وحبس في موضع في دار الأفضل، ثم قتل بالخراب بالعصى. كذلك قتل الأفضل من كان مع نزار. وبنى على رؤوسهم مسجداً؛ سمي: بمسجد المستنصر^(١).

وبفضل هذا الانتصار قبض الأفضل على السلطة في الدولة طول خلافة المستعلى. حيث كان قد ارتبط به منذ زواجه من أخت الأفضل المسماة ست الملك^(٢). فكان بقاء المستعلى في الخلافة الفاطمية؛ بسبب سيف الأفضل، على حد قول أحد المؤرخين^(٣). وبعد موت المستعلى - في يوم الثلاثاء ١٧ من صفر سنة ١٣/٤٩٥ ديسمبر ١١٠١ - ولي الأفضل ابناً للمستعلى اسمه أبو علي، كان لا يزال طفلاً. له من العمر خمس سنين وأشهر، ولقبه بالأمر بأحكام الله سخرية. وقد خرج سجل بتولية الأمر^(٤) ذكر فيه تمسك الخليفة الجديد بالأفضل، مثلما فعل جده وأبوه من قبل. كما أرسلت سجلات أخرى إلى ولاية الأقاليم؛ يظهر فيها تأييد الوزير في منصبه^(٥). وليزيد الأفضل قبضته على الدولة، نقل الدواوين من القصر إلى بيته^(٦). وقد بين ابن الصيرفي الكاتب، الذي كتب له رسائل مشهورة هي الأفضليات؛ أن نقلها - أي الدواوين - فيه إقرار بمكانة الوزير^(٧). وحتى لما خرج حرب الفرنجة، الذين غزوا الشام ترك عند الخليفة أخاه^(٨). فاستمر الأفضل قرابة عشرين عاماً أخرى يحكم وحده في مصر^(٩) حكم الملوك.

*

(١) ابن أبيهك، ٣/٦ ورقة ٣٥٢؛ ذيل سير الأباء، ٣ ورقة ١٠٣؛ العبر، ٤ ص ٦٦.

(٢) ابن ميسر، ص ٣٤.

(٣) ذيل تاريخ دمشق (هامش، قول الفارقي)، ص ١٢٨.

(٤) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٤-١٦؛ ابن منجب، الإشارة لمن ولي الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، ص ١٣-١٥؛ انظر. الشيال، مجموعة الوثائق، ١ ص ١٨٤ وما بعدها؛ ماجد، الأمر بأحكام الله. (الموسوعة الأردنية).

(٥) صبح، ٨ ص ٢٢٧-٢٤١؛ انظر. الشيال، مجموعة الوثائق، ١ ص ١٩٢ وما بعدها.

(٦) الخطط، ٢ ص ٢٣٦ ص ٢.

(٧) حصل معهد المخطوطات بالجامعة العربية على نسخة مصورة من هذه الرسائل. فهرست، القاهرة ١٩٥٤، ١ ص ١٤٦؛ انظر. مجموعة الوثائق، ١ ص ٤٣.

(٨) الخطط، ٢ ص ٣١٠ ص ٤.

(٩) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٤-١٦.

ولكن تدخل الأفضل في نص المستنصر. ترتب عليه انقسام في المذ
 الفاطمي لا يزال موجوداً حتى وقتنا الحاضر. فقد أثار غضب بعض الدعاة
 مصر ولا سيما أن الأفضل اتبع الشدة مع الذين لم يوافقوه منهم واضطهد
 فنفى أسرة بنى عبد القوي إلى المغرب، وهي التي تولت المنصب أباً عن جد
 وعلى النقيض استطاع أحد الدعاة الزائرين في مصر في أيام المستنصر أن ي
 معارضة جدية- نتيجة للتدخل في النص- في خارج مصر. هذا الداعية
 الحسن بن الصباح^(٢) (حسنى صباح) المشهور بالحميري الذي يمتد نسب
 ملوك حمير اليمانيين، يتبين من سيرته أنه فارسي، ولد في الري أو بمكانة
 منها، عام ١٠٣٨/٤٣٠ أو ١٠٤٠/٤٣٢، في بيت عرف بالتشيع، على المذ
 الاثنى عشرية. وكان الحسن منذ شب يهتم بالعلوم والمعارف، والتزود بكل
 يستطيعه في سبيل توسيع مداركه. وقد اشتغل في دواوين الدولة السلجو
 في عهد ألب أرسلان. وتقرب من ملك شاه، ولكن خرج من الدواوين بسبب
 نظام الملك، الذي وزر لملك شاه، مع أنه زميله في الدراسة، هو والشاعر المعر
 عمر الخيام. وتعرف الحسن إلى داعية فاطمي، اسمه مؤمن، كان موقفاً إلى ا
 من قبل الملك بن عطاش، داعي الدعوة في العراقيين (أى في العراق العج
 والعراق العربي)، فقبل الحسن بيعة الخليفة الفاطمي، وما لبث أن عهد أحما
 عطاش- لما جاء الري^(٣)- إلى الحسن بنشر الدعوة الفاطمية

(١) الخطط، ٢ ص ٢٢٦. آخرهم الجليس، ولد بالمغرب.

(٢) الجويني. جهانكشاي، ص ١٠٤ وما بعدها؛ العبر، ٤ ص ٩٢ وما بعدها؛ الملل وال
 (على هامش الفصل)، طبعة مصر ١٣٢٠هـ، ٢ ص ٣٢ وما بعدها؛ وتحقيق Cureton
 ١٥٠ وما بعدها؛ الكامل، ٨ ص ١١؛ انظر. كامل حسين، الإسماعيلية، ص ٦٤ وما به
 غالب، تاريخ الدعوة، ص ١٧٧ وما بعدها؛ طه شرف، دولة النزارية، ١٩٥٠؛ ما
 المستنصر، ص ١٩٩ وما بعدها؛

y de l'IsI, (art. al-Hasan B. al- Sabbâh) t 2, P. 293; (Hasani Sabbâh) 2 éd, t3, P.
 Ismaïlîiya) t2, P. 585 sqq; 260-1;

an ibn Sabbah, 2 ed. Karatchi, 1951 : Muscati

هناك رأى أنه لم يتلمذ مع الخيام ونظام الملك. انظر. طه شرف، دولة النزارية، ص ٢٨.

(٣) عنها: معجم البلدان، ٤ ص ٣٥٥ وما بعدها.

وجهه إلى مصر في عام ١٠٧٦/٤٦٩-٧، فوصل الحسن إلى القاهرة في ١٠٧٨/٤٧١، ولعل الحسن كان يأمل أن يأخذ الدعوة من المؤيد داعي الدعوة - وهو فارسي مثله - ولكن المؤيد توفي قبل أن يصل، وإن وجد الحسن كتب المؤيد وتلاميذه. وقد بقى الحسن في مصر زهاء ثمانية عشر شهراً، كان فيها موضع إكرام المستنصر، الذي أعطاه مالا، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته في بلاد العجم. وفي أثناء ذلك، أخبره المستنصر بولاية عهده لنزار، أو أن الحسن طلب من المستنصر أن ينص على خلفه في الإمامة، فنص على نزار.

ولكن الذي عجل بتترك الحسن مصر، هو أن الوزير بدر الجمالي، الذي سيطر في البلاد كما ذكرنا، وأشرف على الدعوة، فكان من ألقابه: كافل دعاة المؤمنين، لم يرحب بوجود الحسن، وربما يكون عمل على إخراجه. فسار الحسن إلى بلاد العجم ماراً بالشام، وترك آراءه فيها، ولعل هذا هو نشأة مذهبه في الشام، الذي أخذ مكانه بجانب الدرزية في عهد الحاكم. والواقع إن الشام أخذ يمتلئ بالشيعة من كل فرقة، حتى أنهم بنوا مشهداً لعلي بن أبي طالب في دمشق عاصمة الأمويين شاهده ابن جبير^(١)، مع أنه لم يسمع أن علياً جاء إلى الشام؛ كما بنوا مشاهد لآل البيت. وكان هدف الحسن منذ وصوله بلاده تأسيس دولة إسماعيلية تدعو للمستنصر. فكان يقوم بنشر الدعوة بين الإيرانيين، الذين كرهوا حكم الأتراك السلاجقة؛ حيث عرف بينهم بداعية الحق. كذلك قام بحركة تدمير "Sabotage" في بلاد السلاجقة واستولى على قلاع بحر قزوين، ولا سيما قلعة الأملوت^(٢) - ومعناها عش العقاب - وهي مبنية على جبال البرز، لا يبلغها الأعداء إلا بشق الأنفس، فاستجابت إليه في ١٠٩٠/٤٨٣، وإن سماها بلدة الإقبال؛ حيث أرسل منها دعواته إلى كل مكان. وأمام دعوة الحسن القوية، أمر الخليفة المستظهر العباسي أن يقوم المصنف الكبير الغزالي، بتصنيف كتاب للرد عليها^(٣). فقد كان الحسن عميق التفقه في المذهب، قوى الحجّة، حتى أنه كان

(١) ابن جبير، رحلة، ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) ابن العميد، ص ٢٨٦-٢٨٧، عنها؛ انظر

Ency de l'Isl, (art Alamût) t I, P. 253;

La Fortressie d'Alamut. Mém. de la Soc. de Linguistique. Paris, XV. Cf.: Huart

(٣) عنوان كتاب: فضائح الباطنية، تحقيق Gold، طبعة Leiden ١٩١٦، وتحقيق عبد الرحمن بدوي، ط. القاهرة.

يلقب «بالحجة» أو «الشيخ» ويخاطب بسيدنا. ولدينا نتف من تأليفه في المذهب «تعليم»، وردت في كتب^(١)؛ الشهرستاني والجويني ورشيد الدين.

ولما حدثت حوادث نزار في مصر، فإن الحسن بن الصباح خطب لنزار وعمل على تكوين فرقة تدعوه، عرفت منذئذ بالنزارية نسبة إلى نزار. أو الإسماعيلية الشرقية، وهم الذين يعرفون الآن بالخوجة أو الأغاخانية، وذلك على عكس الفرقة التي أيدت إمامة المستعلي، عرفت بالمستعلية، أو الإسماعيلية الغربية. أو حتى بأسماء أخرى بعد انتهائها من مصر. وقد قيل عدة أمور في مسألة الدعوة لنزار، منها أن الحسن أرسل بعض أصحابه لإحضار نزار، أو أن الحسن جاء من فارس إلى نزار وهو مختف بمصر، وأقام عنده، وتزوج نزار بنت الحسن، وأولدها ولداً أسماه محمداً، ولقبه بالمصطفى^(٢)، أو أن نزاراً نفسه تمكن من مغادرة الإسكندرية في أثناء الحصار، واتجه إلى بلاد فارس، ومضى إلى بيت الصباح في قلعة الموت، وأولد بنت الحسن هذا الابن، وأنه نص عليه. وهناك مخطوطة متداولة بين الإسماعيلية الشام تروى قصة فرار الإمام نزار من الإسكندرية، وأنه هرب في زىّ التجار، وأبلغ الحسن بن الصباح مكانه. ولكن في آخر الأمر دعا الحسن أيضاً لنفسه، إلى وقت وفاته في ١١٢٤/٥١٨.

وأخطر ما جد في دعوة الحسن تكوينها للفداوية، الذين يفتدون مبادئهم بأرواحهم؛ وهم أطفال يربون منذ الصغر مثل الحجرية في مصر، بحيث إنهم أربوا رجال الدولة السلجوقية. فمن ضحاياهم المشهورين نظام الملك، الذي ورد الب أرسلان وملك شاه، وتسبب في إخراج الحسن من الدواوين فقطعوه أرباً في ١٠٩٣/٤٨٦^(٣). ويذكر كتاب تاريخ آل سلجوق الحال العصيبة التي أصابت المجتمع السلجوقي في تلك الأيام، وكيف كان الإنسان لا يأمن على نفسه أو نريته من بغات الفداوية، فقد كان الفدائي منهم يهجم على كثير، ويعلم أنه يقتل^(٤).

(١) كتبهم بالترتيب: الملل، جهانكشاي، جامع التواريخ.

(٢) نيل تاريخ دمشق (هامش) ص ١٢٨-١٢٩.

(٣) وفيات، ص ٢٥٥-٢٥٧؛ عماد الدين، تاريخ آل سلجوق، ص ٦٣.

(٤) تاريخ آل سلجوق، ص ٦٣ وما بعدها؛ انظر. كامل حسين، الإسماعيلية، ص ٦٤.

وعرفت هذه الفرق أيضاً باسم: الحشيشية، لتعاطيها الحشيش، وربما منها أخذت الكلمة الفرنسية^(١) "Assissn"، بمعنى قاتل سفاك. فقد قيل إن الحسن بن الصباح، الذي زار مصر، كان يعطى المستجيبين لدعوته الحشيش، الذي كشفه في مصر، حيث يذكر ناصر خسرو أن الأفيون كان يزرع في أسيوط^(٢)، ولكن لدينا رأى أن هذا الاسم مدسوس من الأعداء، لأن من يتعاطى الحشيش جبان لا يستطيع أن يقتل. يضاف إلى ذلك أن فرقة الحسن كانت متشددة في تحريم الخمر وغيره من المفاسد؛ بحيث إن الحسن قتل بنفسه ولديه لأنهما شربا الخمر، فكيف يسمح لأعضاء فرقتة بالحشيش^(٣). كذلك سموا من أعدائهم بالباطنية، لأنهم يرون لكل ظاهر باطناً، وهم سموا أنفسهم -بسبب التأويل- بالتعليمية^(٤)، لأنهم يتبعون تعاليم الإمام.

والواقع أن فرقة الحسن كان لها تنظيم داخلي مشابه لتنظيم الفرق الفاطمية الأخرى من حيث درجاتها. ولكن الشهرستاني يرى أن الدعوة الفاطمية اختلفت على يدى الحسن، ولا سيما أن الحسن كان متفقها، وإن كتب عقائد بالأعجمية^(٥). وفي رأينا أنه حدث اختلاف على النص، أساس العقيدة الفاطمية؛ فقد تمسكت النزارية بالنص الأول، على عكس المستعلية التي تؤخر النص إلى وقت الموت، وإن الإمام له حق العدول عن النص؛ فالمستنصر أقعد المستعلي في دقيقة انتقال

(١) لم يكن يذكرها الإسماعيلية وأعدائهم لأنفسهم، وإنما ذكرها السوريون لهم، ونقلها الصليبيون عنهم (Assassini)، وكانت تعنى في أول الأمر المتحمس، حتى أن التروبادور، وهم المغنون الجائلون، كانوا يتسمون بها. انظر. De Sacy :
Mémoire sur la dynastie des Assassins et sur l'origine de leur nom, 1818 ;
The Troubadours and the Assassins. : Chambers;
Modern Language notes LXIV (1964) sqq;
Ency. de l'Isl., (art. Hashâshiyyn) t3, P. 275-6.

(٢) يقول ناصر خسرو إن حبه أسود، وحينما تنمو الشجرة تكسر ويربط كيس في موضع الكسر، فيخرج منه سائل يشبه اللبن، فيجمعونه ويحفظونه. سفرنامه، ص ٧٠.

(٣) انظر . كامل حسين . الإسماعيلية، ص ٧٤ - ٧٥ - ٨٧.

(٤) الملل، ٢ ص ٢٩

(٥) نفسه، ٢ ص ٣٣

مقعده^(١). وتقول النزارية بولاية عهد نزار للمسلمين، على عكس المستعلية، التي تعطي أهمية لتسمية المستعلى بولي عهد المؤمنين^(٢). فتبرز المستعلية المعنى، الذي تدل عليه كلمة مؤمن؛ فهذه الكلمة تدل على الإيمان؛ بينما كلمة مسلم لا تدل إلا على الإسلام؛ وأن الإيمان هو الذي يهم في العقيدة الفاطمية، لما فيه من إقرار بحق الأئمة الفاطميين بالإضافة إلى الإقرار بعقيد الإسلام. وما حدث لنزار حدث من قبل لعبد الرحيم^(٣)، الذي كان الحاكم قد سماه بولي عهد المسلمين، ولم يتول الإمامة، وأن نزاراً نفسه اعترف في مرة بولاية المستعلى عهد المؤمنين.

وعلى كل حال، حاول الأمر بعد أن بلغ رشده، أن يسترجع نفوذه، ولكن كان عليه أن يحارب في جبهتين؛ الجبهة الأولى ضد وزيره المستبد، الذي حاول- لما رأى من يقظته لحقوقه أن يقتله، فدس له السم مرات- كما فعل مع أبيه المستعلى^(٤)، الذي ربما مات مسموماً- فلم يصل إليه. وحينئذ عمل الأمر من ناحيته على قتله^(٥)، ونجح في ذلك، فقتله في سنة ١١٢١/٥١٥، بأن دس له رجلاً وثبوا عليه في زقاق ضيق، فضربوه بالسيوف، وسار الأفضل إلى داره وبه رمق، فلما علم الأمر جاءه وكأنه زائر له، فخرج الناس عنه، فقيل إنه جعل على وجهه مخدة وقعد عليه حتى أزهق روحه، وصادر أملاكه الكثيرة، التي كانت تشمل مراكب وبغالا وخيلاً ورقيقاً وحلياً وجواهر، بحيث أمضى أربعين يوماً وليلة في نقل ما وجدته في قصره، وهو شيء كثير لا يوجد له مثيل إلا عند الخلفاء^(٦)، كما سجن ابن الأفضل واسمه أبو علي أحمد^(٧).

(١) الهداية الأمرية (في مجموعة الوثائق) ص ١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٦.

(٢) نفسه، ص ٢١٥ - ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣.

(٣) عن ذلك بتفصيل؛ انظر. كتابنا؛ الحاكم بأمر الله ص ١٧٧ (المصادر الأصلية).

(٤) ابن ميسر، ص ٤٠. يقول ابن القطان إن أخاه هو الذي سمعه، ولكن الأمر كان صغيراً؛

مما يدل على أن الأفضل هو الذي سمعه. نظم الجمان، ص ٢٠.

(٥) النجوم، ص ٥، ٢٢٢؛ وفيات، ص ١، ٣٩٧؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٣-٣٠٤؛ ابن القطان،

نظم الجمان، ص ٢٥. وعلى العكس يقول ابن ميسر إن قتلته هم جماعة من الباطنية. ابن

ميسر، ص ٥٧-٥٨.

(٦) النجوم، ص ٥٠؛ وفيات، ص ١، ٣٩٧.

(٧) ابن ميسر، ص ٥٨؛ انظر حسن إبراهيم، الدولة الفاطمية، ط ٢، ص ٢٢٧.

ويدل على ترف الوزير البالغ، أنه كان له مجلس شراب، فيه ثمانية تماثيل. لثمان جوار متزينات بأثمن الحلى والملابس، فكان إذا دخله نكسن رموسهن إجلالا له؛ فإذا جلس وضع في مجلسه صوانى الذهب مصفوفة وفيها الأوانى المملوءة بالجواهر، ويجعل بدلها الشراب. كذلك أنشأ الأمر لنفسه فرقة مخصصة، عرفت بالطائفة الأمرية، ونقل الدواوين إلى القصر^(١)؛ كما كانت عليه. فاتخذ الأمر بعده وزيراً اسمه المأمون البطائحي^(٢)، الذى يقال إن له يداً فى قتل الأفضل، ولكنه أراد الاستبداد بدوره؛ بحيث إن الخليفة طالبه بأن يوسع عليه فى الحال، فوافق وإن طالبه بأن لا يستمع إلا له، وأن يتولى أولاده بعده. ولكى يشغله من استبداده شغله بالأعياد، حتى أن هذا الوزير هو الذى أعاد إلى الرسوم الفاطمية بهجتها، قيل إنها اكتملت فى عهد الأمر. ولكن الأمر قبض على هذا الوزير فى ١١٢٥/٥١٩، وصادر أمواله وقتله، وقتل خمسة من إخوته فى ٢ رجب ٥٢٢/٢٠ يوم ١٢٢٨، وبقي بغير وزير. وقيل إن السبب هو أنه كاتب الأمير جعفر بن المستعلى يغريه بقتل أخيه ليقيمه مكانه، أو حتى أنه أراد أن يعين محمد بن نزار، أو أنه لم يكن مخلصاً لمذهب الدولة الفاطمية، وعلى مذهب الإمامية المخالف.

ولكن التمتع بسلطته لم يطل، إذ كان عليه أن يقاتل أعداءه فى الجبهة الثانية وهم الذين قالوا إن النص لم يكن لأبيه المستعلى، ولكن لعمه نزار وعقبه، وهى الجماعة المعروفة بالنزارية كما ذكرناه، ولكى يحارب دعوتها قفل دار الحكمة^(٣)؛ خوفاً من الاجتماع على مذهب النزارى، إذ أنها كانت أشبه بجامعة؛ وإن أعيد فتحها بعد قليل. فعرفت بدار العلم الجديد. كذلك لجأ إلى الدعوة المضادة، ونجد أثرها فيما وصلنا من رسائل كانت تقرأ أو ترسل إلى ولاية الأقاليم؛ ليذيعوها بين الناس، بقصد الدفاع عن ولاية أبيه بالنص، نذكر منها: الرسالة الموسومة بالهداية الأمرية فى إبطال الدعوة النزارية، ورسالة صواعق الإرغام فى إدحاض حجج أولئك اللئام^(٤).

(١) الخطط، ٢ ص ٢٢٦ س ٢.

(٢) نفسه، ٢ ص ٢٠٧، ٢ ص ٢٤٠-٢٤٢.

(٣) الخطط، ٢ ص ٢٢٧.

(٤) تذييل وتحقيق وترجمة Fyzee، بعنوان؛

Epistle of the tenth fatimid Calife al-Amir bi Ahkâm Allah. Isl. Res. Ass. Series, n.

وقد بلغ الحذر في مصر من الفداوية درجة إلى حد أن أوجدت الدولة الفاطمية في عهد الأمر رقابة شديدة على الوافدين إلى القاهرة، وربما كانت الفداوية هي التي اغتالت الوزير الأفضل؛ بحيث إنه في وزارة المأمون صدر أمر بإقامة إحصاء «تصقيع» لمن كان فيها من السكان شارعاً شارعاً وحارة حارة، كما أرسل الجواسيس فالرجال والنساء لتتبع الفداوية. ومع ذلك، فقد تمكن أتباع الفرقة النزارية من قتل الأمر، وعمره لم يتعد أربعاً وثلاثين سنة في ١١٣٠/٥٢٤، قتله عشرة منهم، وقضوا عليه بالسكاكين، فقتل تسعة منهم، ووصل إلى قصره، وبه رمق من الحياة، ثم مات من يومه^(١). ولدينا تفاصيل شائقة من ابن القطان^(٢) (حوالي ٦٢٨/١٢٨٠) عن المؤامرة المصبوكة التي راح ضحيتها الخليفة؛ فقد جاء هؤلاء القتلة من بلاد الشام، فأقاموا بمصر، وعملوا بيوم ركوب الخليفة إلى بعض نزهه، وكان إذا ركب سدت الديار والحوانيت في مره، ولا يمر بطريقه أحد سواه، ويجعل نصف عسكره «الركابية» أمامه ونصفهم وراءه، وفي وسط كلتا المسافتين اللتين أمامه وخلفه فارسان بينهما وبينه مثل ما بينهما وبين العسكر، وحوله أربعة من خواص عبيده وصاحب المظلة، فقصده هؤلاء القوم إلى طريقه الذي عهد سلوكه عليه، وفيه فرن على ممر الشارع فقصدوا إلى الفرن معهم دقيق وقالوا له: نريد منك أن تخبز لنا خبزاً من هذا الدقيق فإننا قوم غرباء مسافرون فقال لهم الفرن: مولانا اليوم يمر على هذا الشارع، فإن أنتم أبطأتم فلا يصح لكم ما تريدون، وإن أنتم عجلتم صح لكم ذلك. فقالوا له: الساعة نفرغ من ذلك؛ وأرغبوه في الأجرة ودفعوها له، فأذن لهم، وشرط عليهم العجلة. فجعلوا يتأنون، ويحدثون أشغالا والفران يتعجلهم، إلى أن مر عليهم مقدم العسكر الأول الذي يمشى أمامه، فأعنف عليهم الفرن في الخروج ولم يمهلمهم، فلما رأوا ذلك منه اجتمعوا عليه ودسوه داخل الفرن، وسدوا فمه بغطائه فشووه. وأقاموا بالفرن وبابه مفلق عليهم إلى أن سمعوا وقع حوافر فرس الأمر، فأول من خرج من الفرن كهل منهم، وجعل يسجد إلى الأرض وينادي: أنا باله وبعدل مولانا، ويسجد سجدة أخرى ويقول مثل قوله، ويقتررب منه وهو يمشى إليه إلى أن ألقى يده في شكائم الفرس، وسل من حزامه سكيناً

(١) ابن حماد، ص ٦٠؛ ابن أبيك، الدرر، ص ٦٠٥؛ النجوم، ص ٥٥؛ ١٨٤-١٨٥؛ العبر، ص ٤٧١. التفاصيل تختلف قليلاً من مصدر لآخر.

(٢) ابن القطان، جزء من كتاب نظام الجمان، ص ٢٢-٢٤.

وضرب بها بطن الفرس فسقط جميع ما فى بطنه وسقط على الأرض. وخرج أصحابه من القرن بعد ذلك، وألقى يده فى مجاميع ثياب الخليفة، وضربه ضربة فرى بها أوداجه، وتبادر أصحابه فضربوه بسكاكينهم ضربات كثيرة؛ حتى ذهل حرسه «الركابية» إلى أن فرغ من قتله وإن عمدوا بعد ذلك إلى القتلة فقتلوه.

*

وقد كان سقوط الأمر سريعاً سبباً فى تعقيد الأمور بالنسبة للخلافة الفاطمية فى مصر، ولا سيما أنه كان مشكوكاً فى أن هذا الخليفة سيكون له ولى عهد، فقد تغلب شخصان على السلطة هما: هزير أو هزار أو حرز الملوك والعاذل برغش ولعلهما من الأرمن من خدام الأمر. وقد اختارا حفيد المستنصر ليحكم معهما من الناحية الشكلية، الذى أبوه اسمه قاسم، وهو عبد المجيد وعمره ثمانية وخمسون عاماً^(١)، ولكن بقى عليهما أن يبررا هذا الوضع أمام الدعاة، فأعلنا قصة مؤداها: أن تولية عبد المجيد هى بمثابة نائب، لانتظار حمل لإحدى جهات الأمر أى زوجاته، التى نص عليها قبل وفاته «ما يتوهم فى البطون»^(٢)، فهو لم يبايع بالخلافة، وإنما أصبح: الكفيل لطفل مرتقب (كفيل المنتظر فى بطن أمه).

هذه الظروف المضطربة، كانت سبباً فى ظهور أحد الوزراء المستبدين الذى كان يتحين الفرصة لاستغلالها، وهو كتيفات أبى على أحمد^(٣) - Alias - ابن الأفضل الوزير السابق. وكان ينقم على الخلافة الفاطمية، لقتل أبيه واعتقالها له: فقام بانقلاب عسكري ناجح، بفضل مماليك أبيه من الأفضلية، وذلك فى يوم إعلان نيابة عبد المجيد، ربما بمساعدة برغش، الذى كان ينقم على هزار الملوك^(٤). وفى سبيل الاحتفاظ بسلطته، قتل أبو على كل من عارضه من رجال الدولة، فقتل هزاراً، وحبس عبد المجيد، ونقل أموال القصر الفاطمى إلى داره، كما فعل الأمر حينما قتل أباه الأفضل، ونهب القاهرة. وكان ابن الأفضل دائم التفتيش على أهل القصر للبحث عن حمل للأمر، إلا أنه لم يوفق فى ذلك، كما لم يقدر

(١) العينى، تاريخ، ورقة ٢٠٤؛ انظر Magued.

Ency de l'Isi, (art. Hâfiz) 2 éd. t3, P. 56-57.

(٢) ابن حماد، ص ٦٠؛ ابن أبيك، الدرّة، ص ٦٠٥؛ الخطط، ص ١٧٢.

(٣) النجوم، ص ٥٥٠-٢٣٨-٢٣٩؛ نيات، ص ١٥٥؛ إتعاظ، ورقة ١٢٣ ب.

(٤) يقول بعض المؤرخين إنه هو الذى قتل الأمر، وهو أحمد غلمانة. البيان، ص ٢١١. ابن

القطان، نظم الجمان، ص ١٨٥.

على قتل عبد المجيد، وإنما خطب لنفسه باعتباره «ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم بنصرتة بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره»، وكتب اسمه على العملة^(١)، وعليها اسم الإمام المنتظر بأمر الله أمير المؤمنين، وذلك في سنة ١١٣١/٥٢٥. وفي القضاء أشرك مع القاضي الإسماعيلي قضاة شافعية ومالكية وحتى إمامية؛ لأنه كان على هذا المذهب الأخير، ليعارض المذهب الإسماعيلي. وأكثر من هذا أنه مهد للقضاء على المذهب الإسماعيلي لإعلان مذهب الإمامية الاثني عشرية^(٢)، فقطع صيغة الأذان الإسماعيلي والفاطمي بحى على خير العمل، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة الذي إليه تنسب الإسماعيلية، وحبس أفراد بني فاطمة، وقتل الدعاة الذين عارضوه.

ولكن أنصار بقاء الدولة الفاطمية لم يرضوا أن تخضع دولتهم على يد هذا الوزير، الذي استمر يحكم مصر أكثر من عام فقاموا بانقلاب ناجح؛ بقيادة يانس^(٣) أحد رجال القصر، وهو أيضاً من أصل أرمني فقتلوا أبا على أحمد بن الأفضل، وأخرجوا عبد المجيد^(٤) من سجنه، حيث ترددوا قليلاً في إعلان خلافته حتى أنهم اكتفوا بتعيينه ولياً للعهد؛ كما يظهر من عملة ضربت في الإسكندرية في سنة ١١٣١/٥٢٦؛ وإن أعلنوه خليفة بعد ذلك، وتلقب عبد المجيد باسم؛ الحافظ لدين الله، أى ضمننا الحافظ للخلافة الفاطمية من الضياع، ولدينا نص البيعة^(٥) ليس لها تاريخ؛ وإن وضعت في سنة ١١٣١/٥٢٦؛ كما إن المقرئ في حوادث هذه السنة يقول: «وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله وبويح له بيعة ثانية لما عدم الحمل^(٦)».

فلما بويح عبد المجيد بالخلافة اتخذ القاباً فخمة لم يسبق إليها لتأييد نفوذه فكان الخطيب في الجامع يقول: «أصلح الله من شيدت به الدين بعد بثوره،

(١) انظر. Lavoix: Egypte et Syrie, P. 163-164. Catalogue des monnaies Musul de la B.N.

:Lane - Poole; (n. 439).

Catalogue of the Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library no. 1268, P. 194.

(٢) المعنى، تاريخ، ورقة ٣٠٤؛ ابن ميسر، ص ٧٥.

(٣) الخطط، ص ٢٦.

(٤) بتفصيل ومصادر، انظر.

MAGUED: Ency de l'Isl, (art. Hâfiz) 2 éd, t3, P. 567.

(٥) صبح ٩، ص ٢٩١-٢٩٧؛ انظر. مجموعة الوثائق، ص ١، ٩٩، ٢٥١ وما بعدها.

(٦) اتعاط، ورقة ١٣٥؛ ابن ميسر، ص ٧٥؛ الشهاب، تاريخ مصر الإسلامية، ص ٢٥٨.

وأعززت به الإسلام بأن جعلته سبباً لظهوره. مولانا وسيدنا إمام العصر والزمان أبا ميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله ﷺ، وعلى آباءه الطاهرين حجج الله على العالمين^(١). وقد استمرت الخلافة الفاطمية تحتفل بيوم خلاص عبد المجيد من سجنه، وكان يوم الاحتفال به يعرف بعيد^(٢) النصر، فكان قاضي القضاة يتلو على الحاضرين أسماء من أصيب من الأنبياء والصالحين والملوك بشدة حتى يصل أخيراً إلى ما وقع للخليفة الحافظ.

فكانت تولية عبد المجيد الخلافة مع أنه ابن عم الأمر؛ كما فعل النبي حين أوصى إلى ابن عمه عليّ مع أن النص حتى الأمر كان ينتقل من أب إلى ابن^(٣)؛ وتكون في الأعقاب. وقد ادعى عبد المجيد أن الأمر عهد بها له وأن المستنصر كان ينتظرها له، فسمى أباه وليّ عهد المسلمين^(٤)، وأشاع بين العوام أن الأمر كان يعرف نهايته، وأنه سمي نفسه: المسكين المقتول بالسكينة. ولكن البحث العلمي، لا يستطيع أن يرفض نص سجل^(٥)، ورد في مصادر الشيعة، أرسله الأمر للسيدة الحرّة ملكة اليمن وقتئذ، ليعلن فيه مولد ابن له اسمه الطيب، وكنته أبو القاسم، في ربيع الأول سنة ٥٢٤ / فبراير ١١٢٩. وقد ورد فيه أن القاهرة ومصر زينتا، وعملت الملاهي في الأسواق وباب القصر بهذه المناسبة، ولجست العساكر وزينت. وإن كنا لا نعرف خبر الطيب هذا، وإن ظهر نص به شيء من الإيضاح في كتاب اسمه: البستان الجامع، لمؤلف مجهول عاش في القرن السادس الهجري، نشر^(٦) Cahen جزءاً منه مؤداه أن الحافظ دس رجلاً اسمه ناصر الليثي، أخذ

(١) النجوم، ٥ ص ٢٢٧.

(٢) الخطط، ٢ ص ١٧٣؛ انظر. ما ورد عن هذا الاحتفال في كتابها؛ نظم الفاطميين، ٢ ص ١٢٩-١٣٠.

(٣) المجالس المؤيدية، ورقة ٥؛ النجوم، ٥ ص ٢٢٧ وما بعدها؛ وفيها ١ ص ٥٥٤ وما بعدها؛ انظر. كامل حسين، التشيع، ص ٦٠.

(٤) غاية المواليد، الباب الرابع عشر، تحقيق Ivanow، ص ٢٥-٣٩.

(٥) إتعاظ، ورفقات ١٢١ب-١٢٢؛ عمارة اليمنى/ كاي ص ١٠٠ وما بعدها؛ انظر. الشيال، مجموعة الوثائق، ١ ص ٢٢؛ وفي ملحق رقم ٨ بكتاب الصليحيين والحركة الفاطمية في اليمن، من تأليف الهمداني، القاهرة ١٩٥٥، انظر. Stern.

The succession to the Fatimid imam al-Amir. Oriens. 4,31, 12, 1951.

(٦) نشر جزء منه في: Bull. d'Etudes Orientales. Damas, 1938, 121-2.

انظر. الشيال، مجموعة الوثائق، ١ ص، وهامش (٢).

الطيب هذا ولم يظهر له خبر بموت أو بغيره. وعلى العكس، ربما تكون شيعته خوفاً عليه حملوه إلى اليمن؛ حيث انتشرت دعوته فيها، وربما اتخذتها الملكة الحرّة تكأة للاستقلال باليمن عن نفوذ مصر؛ حيث إنها من أول الأمر رفضت الاعتراف بالحافظ، على أساس أنه وصي لإمام منتظر؛ كما أنها أوصت بكل ما تملك له ولشيعته، التي عرفت بالطيبية، وفي الواقع أن الملكة الحرّة كانت أكبر نصيرة لدعوة المستعلي، جد الطيب، كما يظهر من مكاتبة الملكة أم المستعلي وابنها للملكة الحرّة، أي أنها قبلت الوضع الجديد في مصر. كذلك انتشرت هذه الدعوة الجديدة في الهند، التي كانت منذ أيام المستنصر ميداناً للدعوة الشيعية، الذي جعل للسيدة الحرّة الإشراف على تعيين الدعاة فيها. فانتشرت فيها بالتالي الدعوة المستعلية التي قبلتها السيدة الحرّة حتى سميت بالتالي الدعوة الطيبية وبقيت في اليمن حتى بعد زوال الفاطميين^(١)؛ حيث اعتنقتها قبيلة همدان اليمنية الكبيرة، فكان انتشار هذه الدعوة أيضاً بين من كانوا من أصل عربي، وأطلق عليها الإسماعيلية الغربية، وإن أصبح يطلق على أتباعها البهرة، وهي كلمة تعني تاجر؛ مما يدل على أنهم كانوا على صلة بالتجارة في اليمن. ونجد هذه الدعوة انقسمت من جديد في الهند إلى الداودية والسليمانية^(٢)، بينما النزارية في الهند عرفت باسم الخوجة على اسم بعض الدعاة. ويحتفظ البهرة بالكتب الفاطمية التي ربما تكون نقلت من اليمن إلى الهند، بسبب موت الملكة الحرّة؛ وبسبب الحروب التي نشأت بين الصليحيين بعد موتها، وتفرقت أنصار الدعوة وضمن الكتب التي عثرنا عليها في الهند، السجلات المستنصرية التي تتعلق بوثائق الخلافة الفاطمية زمن المستنصر، وما تحويه من سجلات تولية المستعلي خلافة المستنصر.

(١) أنظر. Abbas: Al Hamdani at the outset of the domination of the Hamdan over yamen Sanna Univ. Publ, 1936, P. 165.

(٢) يرجع هذا الانفصال إلى القرن العاشر الهجري؛ بسبب الخلاف على من يتولى مرتبة الداعي المطلق للطائفة، فالداودية تنتسب إلى الداعي قطب شاه داود السابع والعشرين من دعاة الفرقة المستعلية، والسليمانية تنتسب إلى الداعي سليمان بن حسن، الذي أدى أتباعه الاعتراف بداود، واعترفوا بسليمان داعياً لهم في سنة ٩٩٧ هـ. أنظر كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، ص ٥١-٥٢.

ومع ذلك نحن لا نستبعد أن يكون للأمر أولاد صبيان آخرون فقد اشتهر بكثرة عشيقاته، ويأنه زير نساء، ولا سيما من بين العربيات، وصارت له عيون بالبوادى تبحث عنهن^(١)، ويسير بنفسه للبحث عنهن، وكان يبني لهن استراحات خاصة، يقابلهن فيها، ولا سيما ذلك البناء العجيب الذى يشبه «الهودج»، أقامه فى جزيرة الفسطاط فى النيل، التى عرفت من يومئذ بالروضة أو جزيرة الروضة، بسبب البساتين التى أحاط بها هذا البناء. ويؤيد ذلك أنه توجد رواية ثالثة، تبين أن جهة أخرى للأمر، أنجبت بعد وفاته ولداً ذكر^(٢) - غير الطيب - فجعلته فى قف من خوص، وأدخل فى القرافة؛ وخفى أمره على الحافظ حتى كبر، وكان يعرف بين الصبيان بقطيفة؛ إلا أن الواعظ ابن الجوهري نم عليه إلى الحافظ، الذى أخذ الصبي وقتله، ونفى ابن الجوهري إلى بمياط.

ولكن يانسا الذى تولى الوزارة للحافظ ونعت بناصر الجيوش، ما لبث أن استبد به، وكون لنفسه طائفة من الجند عرفت باسم: «اليانسية». فتخلص منه الحافظ عن طريق طبيب كان يعالجه فى سنة ١١٣٢/٥٢٦^(٣)، وإن قيل إن يانسا مات موتاً طبيعياً. ولعل الحافظ فى ذلك الوقت أنشأ لنفسه حرساً خاصاً سماه الحافظ^(٤).

وبعد لم يتخذ عبد المجيد وزراء، واعتمد على نفسه فى تصريف الأمور. ولكن أحد أبنائه واسمه حسن تطلع إلى السيطرة بعد أن أكله الحقد، لأن أباه لم يوله عهده، فعهد فى أول الأمر بولاية العهد لابنته سليمان؛ إلا أنه مات بعد شهرين، فعين بعده ولده أبا تراب حيدرة. وجعل له طائفة خاصة من الجند تعرف: بالعهدية، ولدينا سجل^(٥) صادر عن الخليفة الحافظ بذلك. فنجح حسن فى السيطرة على الجيش والدولة وكون له طائفة خاصة عرفت: بصبيان الزرد، أى لا يسي الدروع، وقتل أمراء الدولة «القواد»، وصادر أموالهم، وأوقع بين

(١) الخطط، ٢ ص ٣٧٦.

(٢) إتعاظ، طوب قبو سراى، ورقة ١٣٦، انظر. الشيال، مجموعة الوثائق، ١ ص ٩٥-٩٦.

(٣) الخطط، ٢ ص ٢٥-٢٧.

(٤) صبح، ٢ ص ٤٨٢، ٥٠٨.

(٥) نفسه، ٩ ص ٣٧٧-٣٧٩؛ انظر. مجموعة الوثائق، ١ ص ٢٦٣ وما بعدها، ١٠٣ وما بعدها.

طوائف العسكر بحيث قتل منهم خمسة آلاف، واعتبر المؤرخ المقرئ ذلك^(١) أول مصائب الدولة الفاطمية؛ لما ترتب عليه من إضعافها، فأهاج تصرفه المصريين ضده، واجتمع من العسكر عشرة آلاف أمام قصر الخليفة، وطالبوا برأس حسن، فأضطر أبوه أن يدس لابنه طبيباً يهودياً سقاه السم.

فاستوزر عبد المجيد أرمنياً نصرانياً مهاجراً من بلادة اسمه بهرام^(٢)، ولقبه: سيف الإسلام، تاج الدولة^(٣)، وذلك في جمادى الآخرة ٥٢٩/مارس ١١٣٥. وربما كان بهرام جاء ضمن الأرمن الذين بدأوا يقدون إلى مصر من أيام بدر الجمالي وابنه الأفضل، إذ كان كلاهما من الأرمن. وقد تدرج بهرام في وظائف الدولة الفاطمية، فكان قائداً في الجيش ثم والياً على الغربية. ولعل الحافظ ظن أنه باستخدام وزير مسيحي؛ فإنه لا يستبد به مثل الوزراء المسلمين. وقد كان اختيار مسيحي كوزير تفويض أمراً لم يحدث من قبل؛ لأن الفقهاء استجازوا أن يتولى المسيحي وزارة التنفيذ، وليس وزارة التفويض، وذلك لأن وزير التفويض يتدخل في القضاء والدعوة، ولكن الخليفة حل ذلك بأن جعل تولية القضاء والدعاة من جانبه. ولكن بهرام تعصب لجنسه الأرمن وكون جيشاً منهم، بلغ عدده عشرين ألفاً بين فارس وراجل، موضوعة عنهم الجزية، وكانت لهم شوكة^(٤)، وعين أخاً له اسمه باسك "Vasak" والياً على قوص في الصعيد، من أهم ولايات مصر، كما أكثر بهرام من بناء الكنائس والديارات^(٥). وخوفاً على الإسلام من أن يضيع، عزل عبد المجيد بهرام بمساعدة رجل قوى هو رضوان ابن ولخشى^(٦) (أو الولخشى)، الذي كان بهرام عينه والياً على عسقلان في الشام، لإبعاده عن مصر - وذلك قبل سقوطها في أيدي الفرنجة - حتى أن رضوان منع الأرمن من التسرب إلى مصر فاستدعاه بهرام وولاه على الغربية، إلى أن استدعاه

(١) الخطط، ٢، ص ٢٧ من ٢٣-٢٤.

(٢) ابن ميسر، ص ٧٨-٧٩؛ صبح، ٦، ص ٤٦٠-٤٦٣؛ الخطط، ٢، ص ١٧٢-١٧٣؛ انظر. Un vizir chrétien à l'Époque fatimite L'Arménien Bahrâm. Ext. des Ann. de, Canard l'Inst. d'Et. t XII. Paris, 1954, P. 84 sqq.

(٣) النويري، نهاية، ١٦ ورقة ٥٠؛

Ency. de l'Isl, (art. Bahrâm) 2 éd, t I P 968.

(٤) الروستين، ١، ص ٢٤١؛ ابن أبيك، الدررة المضية، ٦، ص ٥١٨.

(٥) أبو صالح، الكنائس، ص ١٦٩ (٨٤).

(٦) الخطط، ٢، ص ١٧٢، ٣٠٥؛ ابن ميسر، ص ٧٩ - ٨١؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢، ص ٨٦ وهامش.

عبد المجيد لحرب بهرام؛ فحارب رضوان بهرام في الدلتا، ولما تقارب جيشه مع جيش بهرام، أمر رضوان برفع المصاحف على رؤوس الرماح؛ فخرج الجند المسلمون من جيش بهرام واعتزلوه؛ مما تسبب في هزيمته، وبعدها طارده حتى الصعيد، وحمل على أرمن مصر وأماكن سكناهم. وقد كان أهالي قوص ذبحوا بأسك؛ فلما وصلها بهرام انتقم من أهلها لمقتل أخيه؛ وإن اضطر في النهاية أن يلجأ إلى دير أحميم في سنة ١١٣٩/٥٣٣؛ وربما يكون هروبه إلى الصعيد بقصد الاستعانة والاتصال بالنوبة أو الحبشة المسيحيين^(١). ولكن بعد ذلك عفا الحافظ عن بهرام، نتيجة لتدخل ملك صقلية النورمانى راجار^(٢) "Roger II"؛ حيث سار النورمان على سياسة التقرب من المسلمين. فجعل الحافظ بهرام يقيم في قصره، وكان يستشير في أمور السياسة، دون أن يسند إليه الوزارة. ولما توفى بهرام في ٢٤/ ربيع الثاني ٥٣٥/ ٧ ديسمبر ١١٤٠، سار الخليفة في جنازته وبكى عليه.

وقد استوزر عبد المجيد رضوان^(٣) المذكور منذ سنة ١١٣٦/٥٣١، ولكن هذا الوزير أعاد إلى الخليفة الفاطمى سيرة الوزراء المستبدين السابقين، وفاقهم فهو لم يكتف بالألقاب القديمة، ولا خصائصها التي تدل عليها للدلالة على نفوذه الواسع، بل أضاف إلى بقية الألقاب لقب: ملك. ومنذ ذلك الحين والوزراء من بعده يتلقبون به، فكان يتلقب: بالسيد، الأجل، الملك، الأفضل. ثم فسد ما بين رضوان وعبد المجيد؛ إذ حجر عليه وسلك طريق الوزراء المستبدين، ففسد عليه عبد المجيد من قتله في ١١٤٧/٥٤٢، ولم يستوزر بعده أحداً، وياشر الأمور بنفسه إلى أن مات. ولكن في عام ١١٤٨/٥٤٣ ظهر له رجل من ولد نزار يطالب بالخلافة؛ فقاتله الحافظ وهزمه. وقد استمرت خلافة الحافظ عشرين سنة، وهو في أغلبها لم يزل محكوماً عليه، يحكم عليه وزراؤه^(٤).

*

(١) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٨٧.

(٢) صبح، ٦، ص ٤٥٨ - ٤٦٣؛ انظر. Canard.

Une lettre du calife fatimite al - Hâfiz.. à Roger II. Atti del Convegno Intern. de Studi Ruggieriani. Palermo, 1955, 125 - 46.

(٣) الخطط، ٢، ص ١٧٢ - ١٧٣؛ النجوم، ٥، ص ٢٨١.

(٤) الكامل، ٩، ص ٢٤.

ولكن موت عيد المجيد كان فرصة لظهور أطماع وزراء جدد، وخصوصاً أنه كان له ثمانية أولاد ذكور؛ فنجد أحد كبار رجال الدولة واسمه أبو الفتح محمد بن مصال، وكان من المغاربة وحارب مع نزار كما ذكرنا، وهرب بعد هزيمته، ثم عفا عنه الأفضل وقربه، ادعى أن عبد المجيد كان قد نص على ابنه الصغير إسماعيل من دون بقية أولاده، وأنه عينه وزيراً له. وبذلك أعلن خلافة إسماعيل باسم؛ الظاهر لدين الله^(١)، وكان عمره سبع عشرة سنة.

فنافسه والي على الإسكندرية والبحيرة اسمه علي بن السلار^(٢) من أصل كردي، استولى على الوزارة، وتلقب بالملك العادل في سنة ١١٥٠/٥٤٤، أثناء أن كان ابن مصال في طلب إحدى العصابات، وأرسل ولد زوجته المسمى عباساً فقتله، ولم يكن ابن مصال قد مكث في الوزارة أكثر من خمسين يوماً^(٣)، ولكي يبقى ابن السلار على نفوذه أخذ في قتل كل من اعترض على وزارته من أعيان المصريين وقواد الجيش، إذ لم يكن للخليفة الظاهر معه حكم. وزاد الطين بلة، أن ابن السلار لم يكن شيعياً، بل تظاهر بالتسنن على مذهب الشافعي؛ حتى أنه لما وصل أبو طاهر أحمد السلفي إلى الإسكندرية، وأخذها دار مقامه، احتفى به ابن السلار، وعمر له هناك مدرسة فوض تدريسها إليه.

وما لبث أن ظهر لابن السلار، منافس جديد في شخص عباس^(٤) ولد زوجته، الذي جاء هارباً إلى الديار المصرية مع أبيه، من أخيه ملك إفريقية الزيري. فتزوج ابن السلار أم عباس واسمها بلارة، بعد موت زوجها، وعاش عباس وابنه نصر في القصر، ثم عين عباس قائداً لحامية عسقلان على الساحل السوري. ولكن عباساً طمع في الوزارة؛ وقبل رحيله حرض ابنه نصرًا على قتل ابن السلار؛ حيث دبر مؤامرة اشترك فيها أسامة بن منقذ^(٥) (ت ١١٨٨/٥٨٤) - صاحب

(١) النجوم، ص ٥٠، من ٢٤٥. عن الظاهر؛ وفيه، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٢) الكامل، ص ٩٠، من ٢٤ - ٢٥، عن ابن السلار؛ وفيه، ص ٦٦ - ٧٧؛ انظر.

Ency. de l'Isi, (art. al, 'Adil b. al- Salâr)) 2 éd, t I, P. 9.

سلار هو القائد.

(٣) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٦.

(٤) ابن ميسر، ص ٨٩، ٩٠، ٩٢، ٩٥؛ الخطط، ص ٣، من ٩٨-٩٠؛ العبير، ص ٧٤ وما بعدها؛ انظر.

Fncy. de l'Isi, (art. ' Abbâs b. Abî - Futûh) 2 éd, t I, P. 9

هو عباس بن أبو الفتح يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي.

(٥) أسامة بن منقذ، ص ١٣ - ١٤

التصانيف المعروفة- الذى كان خصيصاً بعباس. فأخذ هذا الأخير موافقة الخليفة، الذى كان يكره ابن السلار؛ لأنه كان سنياً، ولأنه اتصل بنور الدين السلجوقى، حتى أن الخليفة كان هو الآخر قد دبر مؤامرة لقتله ففشلت^(١)، ولكن ابن نصر تمكن من قتل ابن السلار فى ١٦ المحرم ١٣/٥٤٨ إبريل ١١٥٣، وعاد عباس سريعاً إلى القاهرة لتولى الوزارة بدل ابن السلار، بناء على رسالة أرسلها له ابنه نصر بالحمام الزاجل. فدخل عباس القاهرة وتقلد الوزارة، وخلع عليه الخليفة وتسمى بالمظفر^(٢)، ولكى ينسى عباس المصريين إساءة ابن السلار أحسن إلى الأمراء المصريين. وبذلك انتهت وزارة ابن السلار، التى امتدت حوالى خمس سنوات.

والذى يدل على هوان خلفاء الفاطميين، واستبداد الوزراء، أن نصر ابن العباس قد عرف بجرأته على الخليفة الظافر، الذى تروى المصادر السنوية عنه أنه كان يميل إلى مخالطة الصبيان. ويبدو أن نصراً خالطه، فخاف عباس أن يؤدي ذلك إلى قتلها، وكان دائم اللوم له، فحرض ابنه على قتل الخليفة فى آخر المحرم ١٦/٥٤٩ إبريل ١١٥٤، ورمى بجثته فى بئر، وادعى أن من قتله هما أخواه يوسف وجبريل، حسداً له على تولية الخلافة من دونهما، وقتلها؛ حتى أن أحد رجاله شق بطن جبريل يجذب مصارينه، أما عن يوسف؛ فقد قطع عباس رأسه بنفسه، ووضعها تحت إبطه ورأسه مكشوف، وقد ضربه بسيف، والدم يفر من وجهه، وربما يكون الظافر أراد أن يتخلص من عباس- مثلما فعل مع ابن السلار، لأنه هو الآخر لم يكن شيعياً مخلصاً^(٣)- فحرض نصراً على قتل أبيه، مما دعا عباس إلى تدبير مؤامرة لقتل الظافر عن طريق ابنه. فيورد ابن القطان^(٤) تفاصيل عن قتل الظافر؛ فقد قال نصر للظافر: بنيت داراً وأريد أن أعمل فيها طعاماً، فعسى أن تشرفنى وتكون أنت أول من يأكل طعامى فيها، فلما دخل الظافر فى دار نصر، قتله عباس ودفنه.

(١) نفسه، ص ٦-٧ .

(٢) ابن أبيهك، الدرر، ٦ ص ٥٠٧ .

(٣) بعد هربه دعا لبنى العباس وخلع العبيدية . نظم الجمان، ص ٢٣٩ .

(٤) نفسه، ص ٢٣٧-٢٣٨ .

وعلى كل حال، أظهر عباس الكأبة لموت الخليفة، وأخرج عيسى ابن الظافر، وكان طفلاً لا يتجاوز عمره ثلاث سنين، وأجلسه على سرير الملك، ليعلنه خليفة، باسم الفائز لنصر الله^(١). ولما لم يكن القتيلان يوسف وجبريل قد رفعا بعد، فزع الطفل لرؤيتهما، وأصيب بخلل في عقله، ظل ملازماً له طول مدة خلافته، التي لم تدم أكثر من ست سنين. ولكن الجند وأهل القاهرة ثاروا، واستكثروا أن يقتل أحد من عترة النبي، وخصوصاً أن الحقيقة ما لبثت أن عرفت، فكان الناس يلتقون على عباس وابنه الحجارة، حتى فكر عباس في حرق القاهرة. وأخيراً اضطر عباس وابنه إلى الهرب إلى الشام، ولكن الفرنجة الذين اجتاحوا الشام - كما سنبين - أوقعوا بهما، فقتلوا عباساً، أما ابنه فأرسل إلى مصر في قفص من حديد، ولدينا سجل بوصوله إلى القاهرة^(٢)، ولكي يموت صريع قباقيب نساء الظافر^(٣)، في ربيع الثاني ٥٥٠/يونيو-يوليو ١١٥٤.

في الوقت ذاته، ظهر طامع جديد في الوزارة يهفو للسيطرة، وهو طلائع ابن رزيك (ت ٥٥٦/١١٦١)^(٤) وإلى الأشمونين^(٥)، لعله من أصل عسراقي، الذي زحف على القاهرة. وقد أظهر طلائع الحزن لموت الظافر، وأخرج جثته من البئر، التي ألقى فيها، وجعلها في تابوت، ومشى وراءها حافياً مكشوف الرأس، ثم أقام نفسه وزيراً للفائز، وتلقب بالملك الصالح فارس المسلمين، أخرج له سجل^(٦) في غاية الطول، لم يكتب له مثيل منذ بدر.

ولكن طلائع بن رزيك، الذي بهرته أضواء الحكم استبد بدوره، وكون لنفسه فرقة خاصة جلب أفرادها من برقة، فعرفت باسم البرقية، لتكون طوع

(١) عنه؛ وفيات، ٢، ص ١٢١-١٢٣.

(٢) يوجد في Brit. Mus. Suppl 1140 fol 67.

Ency. de l'Isl, 2 éd t I, P. 9.

(٣) أسامه بن منقذ، ص ١٩-٢٠. يقول ابن القطان قرض لحمه بالمقاريض، وأحرق بالنار. نظم الجمان، ص ٢٤٠.

(٤) الخطط، ٤، ص ٨١-٨٢؛ وفيات، ١، ص ٤٢٦ وما بعدها.

(٥) الخطط، ٢، ص ٩٠، ص ١٢.

(٦) حسن المحاضرة، ٢، ص ١٢٨-١٣٣؛ انظر. مجموعة الوثائق، ١، ص ٢٢٧ وما بعدها.

إرادته. وقد أخذ في قتل كبار قواد مصر، وأقنى ذوى الرأى فيها، حتى فر عدد كبير من أهل البلاد وأعيانها إلى الحجاز واليمن، وفعل ذلك خوفاً من أن يثوروا عليه أو ينازعوه الوزارة. ولما استولى على البلاد عين في جميع ولاياتها أتباعه، وباعها بأسعار معينة، وكان يغيرهم كل ستة أشهر. ويبدو أنه خرج عليه وإلى قُوص الذى عينه واسمه ناصر الدولة^(١)، فقبض عليه واعتقله، حيث توفى بالسجن.

فلما مات الفائز ادعى طلائع أنه نص على ابن عمه العاضد، الذى كان أبوه يوسف أحد الاخوين اللذين قتلتهما عباس، فتولى العاضد الخلافة فى ١٧ رجب ٥٥٥/ ٢٣ يوليو ١١٦٠، وعمره لا يتجاوز إحدى عشرة سنة، وزوجه ابنته^(٢)؛ ليبقى على زمام السلطة فى يده، وذكر الحجج ذاتها التى قيلت عند تولية الحافظ ابن عم الأمر، وله كتاب اسمه: الاعتماد فى الرد على أهل العناد^(٣)، وعمل على الاستبداد به، حتى قال ابن تغرى بردى عن طلائع: إنه أقامه صورة^(٤). ولدينا ما يؤكد أن الفائز لم ينص للعاضد بولاية العهد؛ حيث كان الفائز صغير السن. ولكن استبداده الشديد بالخليفة الجديد وأهله، أثار الدسائس ضده، مما أدى إلى قتله على يد أمراء المصريين- أى قوادهم- بتحريض عمه العاضد، فعمل على قتلها بعد أن أرسلها إليه العاضد بناء على طلبه، وتمكن من ذلك قبل موته فى ١٩ رمضان ٥٥٦/ ١١ سبتمبر ١١٦١^(٥).

ومع ذلك، فإن ابن طلائع واسمه رزيك^(٦)، الذى كان قد تولى مقدمة الجيش فى وزارة أبيه. وأجبر العاضد على أن يفوض إليه الوزارة مثل أبيه، وأخذ لنفسه لقب الملك العادل، ولكن ظهر له منافس فى شخص وإلى قُوص- وهى عاصمة الصعيد التى جاء منها طلائع- واسمه أبو شجاع شاورد^(٧)، فنذهب شاورد إلى

(١) الخطط، ٢ ص ٨١.

(٢) الكامل، ٩ ص ٦٨. عن العاضد؛

Ency de l'Isi, (art. al Adid li-Dfni Allah) 2 éd. il, P. 202-203.

(٣) أنظر، هريدى، فهرست، (حوليات المعهد الفرنسى) ص ٦٩.

(٤) النجوم، ٥ ص ٣٢٨ س ٢.

(٥) أنظر تفاصيل ذلك فى: الكامل، ٩ ص ٧٥.

(٦) صبح الأمشى، ١٠ ص ٢٢٥-٣٣٧.

(٧) وفيات، ١ ص ٣٩٣ وما بعدها؛ النجوم، ٥ ص ٣٤٦.

القاهرة في ربيع الأول ٥٥٨ / فبراير ١١٦٣، فهرب رزيق إلى أطفيح وأسر هناك، وحمل إلى مصر ليقتله طيئ بن شاور، وكان هو الآخر له طموح أبيه.

ولكن أحد أتباع رزيق وأسمه أبو الأشبال ضرغام^(١)، كان رئيساً لفرقة جند طلائع الخاصة المعروفة بالبرقية، أتى إلى القاهرة من الصعيد أو من مصر ليثار لمقتل رزيق، ويتمكن من قتل ولد شاور الأكبر طيئ، ويهرب شاور الذي خذله أهل القاهرة لبغضهم له إلى الشام، ليستعين بالسلاجقة (أو القُرَ)، ويتولى ضرغام وزارة العاضد، ويتلقب بالملك المنصور. وعلى العموم كان هروب شاور إلى الشام والتجاؤه إلى سلاجقة الشام، سبباً في ربط تاريخ الفاطميين إلى وقت سقوط دولتهم، بعجلة السلاجقة.

* * *

كل هذه الكوارث من مجاعات وثورات للجند واستبداد بالسلطة الداخلية مهد لسقوط دولة الفاطميين.

(١) الخطط، ٢، ص ١٨-٢٠؛ عمارة، الذكت العصرية، ص ٦٧، ٧٨، ٨٨.

الفصل السابع

سقوط الدولة الفاطمية

خطر الفرنجة

الدايم على الشام ومصر-

موقف الأتابكيات السلجوقية في الشام-

سعى أتابكية نور الدين للاستيلاء

على مصر وحملات شيركوه-

إلغاء صلاح الدين الخلافة الفاطمية-

ثورات المصريين

سقوط الرجلة الفاطمية

هذه الكوارث التي أحاطت بالخلافة الفاطمية في الداخل أضعفتها وشغلها عما يحيط بها من الأخطار؛ بحيث لم تستطع أن تصمد أمام التدخل الخارجي، الذي كان يتربص بها ويريد الانقضاض عليها، وتسبب في النهاية في إسقاطها ومحور رسمها. فقد حدث خطر داهم على الشام، ليس هذه المرة كما تعود الفاطميون من قبل الروم، الذين حاربوهم بشدة في جولات متعددة، وأوقفوا خطرهم نهائياً، وأجبروهم على عقد الهدنة، ولكن من قبل أهل أوروبا، الذين عرفوا للعرب باسم^(١)؛ الفرنجة أو الأفرنج أو الفرنج "Frankos"؛ نسبة إلى أمة عرفت بهذا الاسم في أوروبا، فأطلقه العرب على كل أمم أوروبا عموماً.

فهذه الأمم الأوربية، كانت في أصل نشأتها عبارة عن قبائل وثنية عديدة^(٢)، وصفت بأنها ذات السن كثيرة، وتعيش عيشة القبائل الهمجية "Barbaros" وكانت تهاجم الإمبراطورية الرومانية، التي تحمل مشعل الحضارة وقتئذ. ولما انتشرت المسيحية ووصلت إلى رومة، كانت كنيستها سبابة إلى المسيحية، فكان تحولهم إليها سبباً في تقويتها؛ بحيث استطاعت هذه الكنيسة أن تقف نداً للكرسي البطريركي في القسطنطينية، واختصت من دون الكنائس الأخرى بلقب: «البابا»، بعد أن كان هذا اللقب لكرسي الإسكندرية^(٣)، وانفصلت عن كرسى القسطنطينية، في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي؛ ولا سيما أن اعتقاد رؤسائها يخالف اعتقاد بيزنطة. وحينما ضعفت بيزنطة كانت البابوية في رومة تسيطر بسلطتها الروحية المطلقة على جميع أمم فرنجة أوروبا؛ بحيث إن من خالف البابا، كان يعتبر خاطئاً عاصياً، يستحق النفي والطرده والقتل، ويحرم من حقوق المسيحي وأكله وشربه، والزواج من النصرانيات، فكان سلطان البابا قوياً لا يمكن لأحد مخالفته^(٤). ومن ناحية أخرى كان تحول هذه الأمم إلى المسيحية،

(١) معجم البلدان، ١ ص ٢٩٩-٣٠٠. يقول إنهم نسبة إلى جد اسمه أفرنجش.

(٢) ابن هاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٦٤.

(٣) سعيد بن بطريق، ١ ص ٩٦؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨٥.

(٤) معجم البلدان، ٤ ص ٣٣١-٣٣٢.

مساعداً على ظهور ممالك قوية في أوروبا، صارت منافسة خطيرة لدولة الروم في ميدان الزعامة على المسيحيين.

ومع أن أغلب هذه الأمم من الفرنجة لم يكن الإسلام قد عادها في عداها فيما عدا فرنسا، التي أثار عليها المسلمون وهاجموا أراضيها وسواحلها، في عهد الأمويين والعباسيين^(١)، وهي البلاد التي جاورت بلادهم في الأندلس، وعرفت لهم باسم: أفرانسة أو أفرنجة العظمى^(٢)؛ لأنها كانت على الخصوص موطن أمم الفرنجة أو الفرنج، إلا أنه حينما دعت أوروبا إلى حرب المسلمين، أصبحت أممها جميعاً من أشد أعداء الإسلام، واتسع نطاق الصراع، واتخذ شكل حرب عالمية؛ بحيث أصبحت حرب المسيحيين بقصد استعادة الأندلس، وغزوهم في الشرق الأوسط حركة واحدة^(٣).

ويبدو أن السبب الرئيسي في عداة أهل أوروبا للمسلمين في الشرق الأوسط هو الحج المسيحي إلى الأماكن المتصلة بذكرىات المسيحية في مدينة القدس أو بيت المقدس أو ما عرف بإيلياء أو بأورشليم بفلسطين وهي جميعاً تعنى القداسة والطهارة أو بيت الله^(٤). ويدعونا هذا إلى أن نتكلم عن الحج المسيحي، فليس لدينا ما يدل على وجود عقائد مسيحية قديمة للحج، أو أنه فرض ديني كما هو عند المسلمين. ولكن يظهر أنه بدأت تظهر له عقائد بقيام الدولة البيزنطية- وهم الروم- التي ورثت الرومان في الشرق، وأخذت بدين المسيح ودانت بتعظيمه فيرى المؤرخون- ومنهم الغرب- أن هيلانة "Helena"، أم قسطنطين "Constantinus" أول إمبراطور لهذه الدولة المسيحية ارتحلت إلى القدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح، فأخبرها القساوسة ومنهم الأسقف مقار Maximus بأنه رمى بخشبته على الأرض، وألقيت عليها القمامة والقاذورات،

(١) الكامل، ص ١٠٢.

(٢) معجم البلدان، ص ٢٩٩-٢٢٢.

(٣) ابن صاعد، ص ٤. عن غزواتها الأولى، انظر. كتابنا: التاريخ السياسي، الجزء الثاني.

(٤) انظر Grousset.

L'épopée des Croisades. Paris, 1939, P. 8-9:

فاستخرجت الخشبة وبنت مكانها كنيسة، عرفت باسم كنيسة القيامة كأنها على قبره أو كنيسة القمامة لوجود هذه القمامة، ثم بنى البيزنطيون فى بيت لحم المجاور للقدس كنيسة على المكان الذى ولد فيه المسيح^(١)، فكان النصرارى من جميع البقاع يذهبون لزيارة هذه الأماكن المقدسة، وأن الحج إليها تكفير نهائى للذنوب^(٢).

ولما جاء المسلمون كفاتحين لفلسطين، نجد أن بطريرك بيت المقدس اليونانى، واسمه صفرينوس "Sophronius" يصمم على تسليم بيت المقدس للخليفة عمر بن الخطاب نفسه، على أن يمنح النصرارى الأمان لدينهم ولكنائسهم فقبل الخليفة وقدم إلى فلسطين فى سنة ٦٣٨/١٧، وهو راكب بعيراً أحمر، وخلفه جفنة مملوءة بالتمر وقربة ماء، ودخل القدس التى سلمها إليه البطريرك ومنح أهلها النصرارى الأمان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم، وقد صالحهم وحدهم دون اليهود، وامتنع من أن يصلى فى كنيسة القيامة، حتى لا يحولها المسلمون إلى مصلى^(٤). وقد كان تسامح خلفاء المسلمين سبباً فى استمرار الحج المسيحى، وأثبت المسلمون أنهم غير متعصبين؛ بحيث أن مؤرخى أوروبا وحدهم أوردوا أن الخليفة العباسى هارون الرشيد (١٧٠-١٩٠/٧٨٦-٨٠٩)، جعل لإمبراطور الفرنجة فى أوروبا شرفان الإشراف المعنوى على بيت المقدس، وأرسل له جملة هدايا منها مفاتيح كنيسة القيامة^(٥). ولهذا ازداد اهتمام النصرانية فى أوروبا بالحج إلى بيت المقدس، وبدأت تظهر تقاليدهم بينهم، كما ظهرت بين مسيحيى الشرق؛ بحيث إنهم بنوا لهم فى بيت المقدس نزلاً وأديرة.

ولما أسس الفاطميون خلافتهم فى مصر، واستولوا على الشام من العباسيين؛ نجد أن الخليفة العزيز الفاطمى (٣٦٠-٣٨٦/٩٧٠-٩٩٦)، يصاهر

(١) معجم البلدان، ١ ص ٢٩٢-٢٩٤، ٨ ص ١١٠ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isi, (art. Kuds) t2, P. 1158 sqq.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٢.

(٣) انظر. Alphandéry et Dupont،

La chrétienté et l'idée de croisades. Paris, 1954, P. 10.;

Lieux saint et pèlerinage d' Orient: Histoire et géographie. Des origines à, Maraval la conquête arabe. Paris, 1985.

(٤) سعيد بن بطريق، ٢ ص ١٧؛ اليعقوبى، تاريخ، ص ١٦٧-١٦٨.

(٥) لا يرد ذكر لهذا الاتصال فى المصادر العربية.

بطريرك بيت المقدس^(١)، وهو لم يكن متسامحاً فقط مع النصارى بل ومع اليهود^(٢) الذين يأتون لزيارتها. حقاً إن الخليفة الفاطمي الذي أتى بعد العزيز وهو الحاكم (٣٨٦-٤١١/٩٩٦-١٠٢٠)، أظهر تعصباً؛ فمنع النصارى في بيت المقدس من الاحتفال بأعيادهم^(٣)، وهدم كنيسة القيامة المقدسة وغيرها من الأماكن الدينية، بما فيها أديرة للنساء^(٤)، وفرض عليهم وعلى اليهود لبس علامات مميزة «الغيار»؛ لإظهار عزة الإسلام، بلبس ثياب سوداء أو تعليق الصليب وإبرازه^(٥)، مما أدى بنصارى بيت المقدس من غير العرب إلى الهجرة إلى بلاد الروم^(٦)، وتوقف الزيارات. وقد أثار هذا التصرف غضب النصارى عموماً، حتى أن البابا بنوا الثامن "Benoi VIII"، قام بالدعوة لحرب المسلمين في ١٠١٦/٤٠٧، إلا أن الخليفة الحاكم عاد إلى حسن معاملة النصارى، وأمر بإعادة بناء الكنائس، ومن بينها كنيسة القيامة المقدسة^(٧). يضاف إلى ذلك أن ملك الروم ربما لم يوافق على حرب المسلمين؛ خوفاً من أن يسعى البابا إلى إعادة الكنيسة المنسقة إلى حوزته، ولأنه كان قد عقد الصلح مع الفاطميين. ويبدو أن الحاكم فعل ذلك، ليس بقصد وقف حج النصارى ولكن لينتقم من الروم الذين تكررت هجوماتهم في الشام كما ذكرنا، بحجة حماية هذه الكنيسة.

ولما هاجم السلاجقة أملاك الفاطميين في الشام، ساءت أحوال نصارى بيت المقدس، وتوقفت الزيارات إليه، لأنهم حينما عملوا على فتحه من يد الفاطميين كما ذكرنا؛ حيث هاجمه القائد التركي المسمى أتسز أو الأقسيس، من قبل تُتُش أخى السلطان ملكشاه في سنة ٤٦٣/١٠٧٠ و٤٦٩/١٠٧٦، بونهبه وقتل كثيراً من أهله. فكان الحجاج في الأراضى المقدسة القادمون من أوربا يتحملون أشد

(١) يحيى الأنطاكي (في P.O. ٤23) من ٤١٥ [٣٠٧].

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، من ٢٠.

(٣) يحيى الأنطاكي، (P.O.) ص ٤٨٧ (٢٧٩).

(٤) نفسه، من ٤٩١-٤٩٢ (٢٨٣-٢٨٤).

(٥) نفسه، من ٥١٠ (٣٠٢).

(٦) نفسه، من ٥١٩ (٣١١)؛ انظر، لند رستم، الروم، ص ٢٦٤.

(٧) وفيات، ص ٦٢.

الفظائع على أيدي السلاجقة. ولكن -تتش غضب على أتسز وقلته، ربما بسبب ذلك، وولى غيره واسمه سكرمان أو سقمان^(١). ثم أن الفاطميين عادوا بعسكر من مصر، لاسترداد بيت المقدس من السلاجقة بقيادة وزيرهم الأفضل في سنة ١٠٩٦/٤٨٩، بمعاونة أهله؛ وأتابوا فيه رجلا عرف بافتخار الدولة^(٢)، ومعه حامية مصرية، بقيت إلى وقت غزو الفرنجة لفلسطين.

ومهما يكن، فإن قرنجة أوروبا اتخذت شكوى الحجاج إلى بيت المقدس ذريعة لحرب المسلمين في الشرق، فنجد أن البابا إريبانوس الثاني (إربان) "Urbanus II" (١٠٨٨-١٠٩٩م)، يكلف رجل الدين الفرنسي بطرس الراهب "Pierre L'Ermite" بالدعوة إلى حرب المسلمين، لتخليص الأماكن المقدسة. وهكذا خرجت الدعوة من فرنسا لحرب المسلمين إذ أنها لم تكن قد نسيت غارات المسلمين في أراضيها، وأنها هي التي دافعت عن المسيحية في الموقعة المعروفة عند المسلمين باسم بلاط الشهداء، لكثرة ما سقط من قتلى المسلمين، بما فيهم قائدهم عبد الرحمن الغافقي في سنة ٧٣٢/١١٤^(٣). فعقد البابا في كليرمون فران "Clermont Ferrand" -أكلمنت- بجنوب فرنسا، مؤتمرا اجتمع فيه الفرنجة من جميع أركان أوروبا، خطب فيه كل من البابا ويطرس حاضرين على حرب المسلمين، فقال البابا في خطابه: «إنه من الواجب على النصارى أن يحموا أرواحهم بالذهاب في طريق المسيح، وإذا لم يستطيعوا فليقدموا أموالهم»، وقال بطرس الراهب: «إنى نظرت قبر المسيح محتقرا مهانا وزواره مضطهدين». فصرخ الحاضرون بالحرب، وهم يرددون «الله يريد ذلك» "Dieu le veut" "Dieux le volt"، وهي العبارة التي أصبحت صرخة المسيحية في حرب

(١) الكامل، ص ٨، ١١٠، ١٢٣، ١٣٦. ينفي كثير من المؤرخين، من بينهم نصارى، تعصب السلاجقة ضد النصارى، فمثلا كانوا يعفون كنائسهم من الضرائب. انظر.

Chronique de Mathieu d'Edesse, continuée par Grégoire le prêtre, trad. Dulaurier.

Paris, 1858, PP. 156; 201;

Les Souverains Seldjoukides et leur Sujets non,: Osman Turan.

Musulmans Stvdia. Islamica. Paris, 1953 P. 65-100.

(٢) الكامل، ص ٨، ١٨٩.

(٣) انظر ماورد في كتابنا التاريخ السياسي للدولة العربية، ص ٢٠٦.

المسلمين^(١) فأخذ الفرنجة يتجمعون من كل مكان لقتال المسلمين، وهم يعلقون على الكف الأيمن أو على الكتفين صليباً من قماش أحمر^(٢) "Crux"، لذلك عرفت الحروب التي قاموا بها ضد المسلمين بالحروب الصليبية "Cruzada"، أو ما يسميه الأوروبيون في لغتهم الفرنسية: "Croisades"، والإنجليزية "Crusades"، أما المؤرخون العرب مثل ابن تغرى بردى فسموها بحركة الفرنج^(٣)، أما المشتركون فيها فسماهم العرب الفرنجة، ويقصدون بهم كل محارب مسيحي غير عربي.

وقد اشترك في أول موجة صليبية رجال ونساء وأطفال جاءوا من كل مكان من أوروبا، يقودهم بطرس الراهب، حيث تحركوا بجموعهم الحاشدة عبر وسط أوروبا. ويصف لنا المؤرخون اليونان^(٤) وغيرهم؛ هذه الموجة بأنها، تتكون من الأفاقيين والمشردين، الذين لا يستحقون زيارة قبر المسيح، فهم لكي يحصلوا على ما يمسك رمتهم كانوا يسلبون وينهبون. فلما وصلوا إلى أسوار القسطنطينية في ١٠٩٦/٤٨٩، أسرع ملكها الكسيوس كومنينوس "Alexius Comnenus"، بترحيلهم إلى آسيا الصغرى، لمحاربة الترك السلاجقة، الذين كانوا انساحوا فيها بعد موقعة بلاد كرد. وقد انتصر الترك السلاجقة على أفراد هذه الموجة الصليبية، وأحرقوا من هرب منهم في الغابات أو القوا بهم في البحر، واضطر بطرس الراهب قائدهم إلى النجاة بنفسه.

وفي الوقت ذاته، قامت تجمعات أخرى كبيرة، معظمها من فرسان

(١) أنظر. P. II. Gesta Francorum, transl. Somerset.

(وهي من مؤلف مجهول معاصر).

R. H. G. occ. t.v. 2 e, P. 6634;

؛ انظر، مكسيموس، تاريخ الحروب المقدسة، ١ ص ١٠ وما بعدها.

(٢) أنظر. P. 12, 15. Gesta,

(٣) النجوم، ٥ ص ١٤٦.

(٤) أنظر. P. 12-15. Gesta,

(٥) أنظر. Ibid P. 14 sqq. ؛ وأيضاً ما أورده الكامل؛ ٨ ص ١٨٥ وما بعدها.

الفرنجة أكثر تنظيماً من السابقة^(٥)، ولذا كان خطرهما شديداً على المسلمين. وقد ظهر بين أفرادها قواد مشهورون ارتبط اسمهم بهذه الحملة، مثل: الأخوين الفرنسيين جودفروا الملقب دى بويون "Godefroi de Bouillon" - ويسميه العرب فى كتبهم كندفرى أو كندهرى- وبودوان "Baudouin" ويسمونه بغدوين أو بردويل- والنورمانى بوهمند "Bohemond" - ويسمونه بيمنت أو بيمند^(١). وقد أقبل الجزء الأكبر من هذه الحملة نحو الشرق من طرق متعددة، بعضها عن طريق وسط أوربا، والبعض عن طريق سهول إيطاليا الشمالية، فلما وصل الجزء الأكبر إلى القسطنطينية فى ١٠٩٧/٤٩٠، ليعبروا بحر مرمرة- أو ما سماه العرب « بالخليج » أو « المجاز »^(٢) - إلى بلاد الترك السلاجقة؛ فإن ملكها الكسيوس أرسل معهم جيشه، ليشارك فى قتال المسلمين.

وقد تمكن الفرنجة والروم من إحراز أول نصر لهم على الترك السلاجقة. فى موقعة نيقية أو أنيقية^(٣)، بلدة من أعمال اسطنبول، وإن سلم هؤلاء المدينة لملك بيزنطة، دون الفرنجة. ثم أقبلوا على حصار أنطاكية فى جمادى الأولى ٤٩١/مارس ١٠٩٨^(٤)، فلما دخلوها نهجوا معظم أهلها، مع ما بذله السلاجقة والعرب فى الدفاع عنها. وكان الصليبيون قد اتفقوا مع الكسيوس على أن تسلم إليه أنطاكية؛ إلا أنهم سلموها لبوهمند النورمانى، مما أغضب الكسيوس وانفصل عن الصليبيين، فلم يشاركهم بقية حملتهم، بل هدد بأخذ أنطاكية بالقوة^(٥) وبعدها سار قسم من الصليبيين فى بلاد الجزيرة واستولوا على مدن عديدة منها الرها^(٦)، المسماة أيضاً أرفة، ولليونان إديسا "Edessa"، وهى المدينة المسيحية الذائعة الصيت، الواقعة بين الموصل والشام؛ وإن تمكن السلاجقة من وقف تقدمهم إلى بغداد. كذلك ذهب قسم آخر من الصليبيين إلى شمال الشام،

(١) مما أورده مؤرخو العرب. مثلاً: الكامل، ٨ ص ١٨٧ س ٩-١٠.

(٢) عنها: معجم البلدان، ٣ ص ٤٦٠، ص ٢٢٨.

(٣) انظر. Gesta, P. 21-24؛ النجوم، ٥ ص ١٤٦؛ معجم البلدان، ٨ ص ٣٦٠، Ency. de l'Isi, (art Iznik) t 2, P. 606. يقول ابن الأثير قونية وغيرها: الكامل، ٨ ص ١٨٦.

(٤) انظر. Gesta P. 34 sqq.

(٥) انظر. Ibid, P. 71-74.

(٦) النجوم، ٥ ص ١٧٨-١٧٩. لعلها قد فتحت فى سنة ١١٠١/٤٩٤. الكامل، ٨ ص ٢٠٤.

عنها: معجم البلدان، ٤ ص ٢٤٠-٢٤١؛ انظر

Ency de l'Isi (art. Orfa) t3, P. 1062.

وكانوا يمشون على شط البحر، وتأتيهم المراكب الإيطالية ولا سيما الجنوبية، الذين كانت بيدهم التجارة مع الشرق^(١)، بالذخائر والرجال^(٢)؛ فكانت موانئ الشام العليا ومدنها تسلم إليهم بدون مقاومة. وقد استعمل الصليبيون منتهى القسوة مع أهل المدن المستسلمة، فحينما دخلوا معرة النعمان^(٣)؛ قتلوا من الرجال والنساء أكثر من مائة ألف، وأخذوا من كان حياً لبيعه.

وقد كانت جميع هذه الانتصارات الأوربية على حساب السلاجقة، الذين كما ذكرنا انساحوا في آسيا الصغرى وفي بلاد الجزيرة وفي أعالي الشام، حتى دمشق. فقد انقسمت دولتهم بعد ملكشاه إلى أجزاء متناثرة، بسبب تنافس أبنائه على السلطة. وزاد من الانقسام أن ملوك السلاجقة كانوا يكفلون تربية أولادهم إلى أوصياء، عرفوا بالأتابكة. وهي كلمة - جمع أتابك^(٤) - مركبة من كلمة أتا بمعنى أب، بك بمعنى أمير، أى الذى يربى أولاد الأمراء، فكان الأتابكة يستحذون على السلطة من دون الأمراء، ويتنافسون أيضاً فيما بينهم. فحين توفي ملكشاه، تقاسم السلطة أولاده الأربعة^(٥)، ومعهم أتابكتهم في العراق والجزيرة وإيران وخراسان، وفي آسيا الصغرى وجدت قبائل تركية متشاحنة، وبخاصة الروم السلاجقة، الذين كونوا فيها إمارة قوية. وفي أعالي الشام، كان أبناء توتش أخى ملكشاه وواليه على الشام، يتنافسون وأتابكتهم على السيطرة في أعالي الشام^(٦). بمعنى آخر أن دولة السلاجقة المتحدة في عهد ملكشاه أصبحت بعده دولة ممزقة، يتنازع أفرادها السلطة؛ مما سهل دخول الصليبيين إلى بلاد الشام.

*

وفي الواقع إن الضربة التالية وجهت إلى أملاك الفاطميين، الذين بقيت لهم السيطرة على بعض مدن الساحل، فضلاً عن أنهم كانوا استردوا بيت المقدس

(١) أنظر. الكنانى، العلاقات مع جنوه والشرق الأدنى، الإسكندرية، ١٩٨١.

(٢) أنظر. Gesta, P. 81، مكسيموس، ١ ص ١٥٠.

(٣) أنظر. Gesta P. 81، الكامل، ٨ ص ١٨٧-١٨٨.

(٤) وفيات، ١ ص ٣٤٤؛ أنظر. حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١٢٢ وما بعدها.

(٥) آل سلجوق، ص ٧٦. هم بركياوق ومحمود ومحمد وسنجر.

(٦) الكامل، ٨ ص ١٨٤؛ النجوم، ٥ ص ١٥٥.

من السلاجقة. ويظهر أن الفاطميين الضعاف في مصر أرادوا أن يوقفوا زحف الصليبيين نحو أملاكهم في الشام، بعد أن عجز السلاجقة عن صددهم، بالدخول معهم في مفاوضات أو أن وجودفرا الصليبي جاء إلى مصر وتفاوض معهم. ولا نصدق ما قيل من أنهم هم الذين استدعوهم إلى الشام ليستعينوا بهم ضد السلاجقة؛ فالفاطميون كانوا دائما حماة الإسلام كما رأينا، وابن الأثير المؤرخ صاحب هذه الرواية يتشكك فيها، ويقول: «والله أعلم»^(١). ولدينا سجلات عديدة بتقليد وتولية أمراء مصر الجهاد ضد الصليبيين^(٢)؛ كما أنهم أكثروا من الجند صبيان الحجر^(٣) من أولاد الناس، ليتعلموا الفنون الحربية، ويكونوا مستعدين للقتال عند أول إشارة. فهم إذن لم يقفوا من غزو الصليبيين موقف الحياد أو المشاهد لحربهم ضد السلاجقة، مع أن هؤلاء عادوهم وغزوهم في مصر.

ولكن الحجاج النصارى كان هدفهم بيت المقدس، الذي كان بأيدي الفاطميين فحاصروه بعدد قبيل المليون (الف ألف)، بين فارس ومشاه^(٤)، وضربوه بالنار والحجر من المنجنيقات، ودافع عنه عسكر مصر بشجاعة نادرة مدة أربعين يوما^(٥)؛ فكانوا يفضلون الانتحار بإلقاء أنفسهم من بروج الحوائط عن تسليم أنفسهم. ولما تمكن الصليبيون من دخول المدينة في شعبان سنة ٤٩٢/يونية ١٠٩٩، ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين من شيوخ ونساء وأطفال، وإن تمكن قائد الفاطميين افتخار الدولة وبعض القواد من النجاة، وأحرقوا منهم من هرب إلى مسجد قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، حتى أن المصادر النصرانية ذاتها تقول: «لم نر مثل هذا الذبح من قبل في المسلمين»^(٦). وقد فرحوا بهذا الانتصار والوصول إلى مقبرة المسيح (ربهم)؛ بحيث إنهم كانوا يكون من شدة الفرح^(٧). وهكذا سقط بيت المقدس في أيدي الفرنجة؛ بعد أن ظل في أيدي المسلمين منذ فتحه في وقت عمر بن الخطاب سنة ٦٣٨/١٧.

(١) الكامل، ٨ ص ١٨٦ ص ٤.

(٢) مثلا: صبح الأعشى، ١٠ ص ٤٠٦.

(٣) وفيات، ٢ ص ٧٨؛ انظر. ما ورد عنهم في كتابنا: نظم الفاطميين، ١ ص ١٩٧-١٩٨.

(٤) النجوم، ٥ ص ١٤٨. سنة ٤٩٢.

(٥) انظر. Gesta P. 84 sqq.؛ الكامل، ٨ ص ١٨٩؛ النجوم، ٥ ص ١٤٨-١٤٩.

(٦) انظر. Gesta p. 88.

(٧) انظر. Id.

وكان الوزير الأفضل، وهو الذى استرد بيت المقدس من السلاجقة، لما بلغه وصول الفرنجة إلى بيت المقدس، قد حشد العساكر المصرية وسار بهم نحو بيت المقدس، ربما بقصد استنقاذه. فلما قرب من القدس كان الفرنجة قد فتحوه، وهجموا عليه وهزموه^(١)، وأحرقوا من التجأ من عسكره بين شجر الجميز المجاور، وكان هناك كثيراً. فما كان من الأفضل إلا أن أحرق جميع ما كان معه من الآلات. وقد تحدث الشعراء بكسرة الأفضل، وربما كان الأفضل يريد أن يصد تقدمهم. كذلك حاول الأفضل أن يكون حلفاً بين مصر وأتابك دمشق المسمى طغديكين، وآق سنقر حاكم حلب، لا استنقاذ بقية فلسطين، ولكن ذلك لم يتم لمشاكل الأفضل فى مصر.

كذلك أصبح هم الفاطميين استنقاذ مدن الساحل الشامى الباقية، التى كانوا استردوها من السلاجقة فى أيام بدر الجمالى. فكانوا يرسلون أسطولهم، الذى كان له صيت وريهة فى أول عهد دولتهم، ويبدو أنه كان لا يزال قوياً، على الرغم من أن الروم كانوا قد اتهموا بحرقه فى أيام العزيز؛ كما ذكرنا. ففى عهد الأمر أرسل فى مرة أربعين شينياً - جمع شينى أو شونة - وهى مراكب حربية كبيرة، مزودة بالقلاع والأبراج، والمنجنقات لقذف الحجارة أو المواد الملتهبة فكان الخليفة الفاطمى يقوم بتوديع الأسطول قبل خروجه للحرب، وهو ما عرف «بالموادعة»؛ فيحضر الخليفة بصحبة وزيره والأعيان إلى ساحل النيل عند ميناء المقس؛ فكانت المراكب قبل أن ترحل تقوم أمام الخليفة «بالحركة» أى المناورات، كما يفعل تماماً فى حالة القتال. فكان الخليفة الفاطمى فى هذه المناسبة يدعو للأسطول بالنصرة والسلامة، ويوزع «النفقة» على رجال الأسطول، كما يمنح القواد الخلع. فكانت هذه المراكب توقع بسفن الفرنجة، وتعمل على صمود مدن الساحل، بتزويد المقاتلة بالسلاح والمؤن والرجال. ومن ناحية أخرى كان الفاطميون يرسلون تجريدات - جمع تجريدة - لا يتجاوز عددها ثلاثمائة إلى أربعمائة، والكثيرة من أربعمائة إلى ستمائة، يقوم على كل مائة فارس أمير. وكان الخليفة الحافظ يبارك

(١) الكامل، ٨، ص ١٩٠؛ النجوم، ٥، ص ١٤٩.

هذه التجريدات، ويسلم بنفسه العلم والخريطة لأمير الحملة^(١). كذلك حاول الفاطميون في عهد هذا الخليفة تجديد الاتصال بالأمراء البوريين من نسل طفتكين، في أتاكية دمشق السنية، على الرغم من اختلاف المذهب، بقصد مقاومة الصليبيين. فلدينا عن هذا الاتصال سجلات، في أحدها^(٢) ذكر لمحاربة أمير بعلبك لأمير فرنجي وقتله، فضلاً عن سعى هؤلاء الأمراء إلى التقرب من الفاطميين للسبب ذاته.

وعلى كل حال، وجد الصليبيون أنهم لكي يؤمنوا فتحهم في بيت المقدس أن يستمروا في الزحف فحاصر جودفروا عكة في سنة ١١٠١/٤٩٤، إلا أنه قتل بسهم من أحد المسلمين، فلما اختار كبار رجال الفرسان ورجال الدين أخاه بودوان - بغدوين أو برديول - ملكاً على بيت المقدس، أحرز الصليبيون انتصارات متتالية على المسلمين^(٣)؛ فاستولوا على عكا في ١١٠٤/٤٩٧، وطرابلس في ١١٠٨/٥٠٢، وجبيل في ١١٠٩/٥٠٢، وببيروت في ١١١٠/٥٠٣، وصيدا في ١١١٠/٥٠٤، وصور "Tyre" في ١١٢٤/٥١٨؛ كما سيطروا على كل فلسطين فيما عدا عسقلان^(٤)، التي بقيت تجاهد الفرنج حتى وقت سقوطها في ٢٧ جمادى الأولى ٥٤٨/٢٠ أغسطس ١١٥٣؛ حيث أصبحت أشبه برأس حربة للهجوم على أراضي الصليبيين، وقاعدة متقدمة للأسطول الفاطمي. وخوفاً من أن يحتل الصليبيون عسقلان، نقل الفاطميون رأس الحسين المدفوعة هناك منذ أيام الأمويين بعد مقتله في عهد يزيد بن معاوية. حيث أقاموا لها مشهداً بالقاهرة في ١١٥٤/٥٤٩^(٥). لا يزال يحمل اسم الحسين إلى الآن. وقد كان الفرنجة يقصدون عسقلان بجيوش كبيرة، فلا يجدون إلى ملكها سبيلا، وكان

(١) النجوم، ص ٢٤٤.

(٢) مثلاً، صبح، ٦ ص ٤٤٩-٤٥١؛ انظر Canard.

Fatimides et Bûrides à l'époque du calife al-H'afz li'din-illah.

Revue des Etudes Islamiques XXXV, 1967. Paris. 103-118.

(٣) الكامل، ٨ ص ٢١٨-٢١٩، ٩ ص ٤٢؛ النجوم، ٥ ص ١٧٠. كذلك تذكر المصادر أن عكة

سلمت في ١١٠٣/٤٩٧، وغزة في ١١٠٨/٥٠٢. الخطط، ٤ ص ٧٧.

(٤) معجم البلدان، ٦ ص ١٧٤؛ انظر.

Ency. de l'Isi, (art 'Askalân) ti, P. 732.

يقول ابن تغري بردي في سنة ١١٥٠/٥٤٥. النجوم، ٥ ص ٢٩٩.

(٥) الخطط، ٢ ص ٢٨٣-٢٨٤؛ أبو الفداء، المختصر، ١ ص ١٩١.

اختلف فيمن أحضر الرأس، فلعله الوزير بدر الجمالي أو ابنه الأفضل، أما المشهد فقد أنشئ في عهد الوزير طلائع بن رزيق.

الوزراء المستبدون في مصر يرسلون الذخائر والأسلحة والأموال والرجال لحفظها، حيث كانوا يرسلون لها جنداً كل عام^(١)، وأصبح كل من فيها مجنناً حتى الأطفال. بل إن الإسطول المصري هاجم يافا وصيدا وبيروت وطرابلس في ١١٥٦/٥٤٦، ولهذا عمل الفرنجة على الانتقام بأن أرسلوا حملة برية إلى الفرما في مصر. وقد أرسل الوزير ابن السلار أحد رجاله الأقوياء وهو عباس للدفاع عن عسقلان؛ كما فكر الوزير أن يسير بنفسه^(٢) إليها لاستنقاذها بالتعاون مع نور الدين أتابك حلب القوي السلجوقي. ولكن عباساً-طمعاً في الوزارة في مصر- تركها لتسقط؛ مما أتاح للفرنجة أخذها، بعد أن أحاطوها بحزم من التحصينات، بحيث سلمت بعد حصار من البر والبحر دام سبعة أشهر. ويقول ابن تغري بردي المؤرخ؛ إنه كان من الممكن إنقاذ كل هذه المدن، لولا سوء الحال في بلاد المصريين^(٣). وقد مهدت هذه الانتصارات للفرنجة مدخولهم إلى صحراء القتب على حدود مصر.

ولم يقتصر طمع الصليبيين أو الحجاج المسيحيين عند حد، بل إنهم طمعوا أيضاً في مصر لضعفها، وهي التي كانت تزدهر أمام أعينهم بغناها. ولعلمهم خافوا إن لم يغزوها أن يقعوا بين مسلمي مصر ومسلمي الشام. ولذلك وضعت مملكة بيت المقدس سياسة ثابتة، تهدف للاستيلاء على مصر؛ فقد فكر جودفروا في غزوها، وإن كان بغدوين أو بردويل هو الذي قام بالغزو، وفكر في الاستيلاء المغرب أيضاً. فذهب بنفسه يستكشف طريق الزحف، وتوغل في شبه جزيرة سيناء، ودخل الفرما^(٤) على الساحل (شرقي بورسعيد) بين العريش سطاط، وفتحها في سنة ١١١٥/٥٠٩، ولكن الجنود الغاطميين الدائميين ~~دين في الشرقية، يتقدمهم العربان حاربوه، كما أسرع الوزير الأفضل في~~ العساكر الرئيسية من القاهرة فرحل، ومات في طريق عودته قبل أن لي العريش. فأخذت جثته لتدفن بكنيسة القيامة، بعد أن ألقى بأمعائه في : يزال إلى اليوم يعرف بسبخة بردويل أو بالسبخة.

يسر، ص ٩٤.

ة بن منقذ، الاعتبار، ص ٧.

ات، ٢ ص ٨-٩.

نجوم، ص ١٧١؛ ابن إياس، بدائع، ١ ص ٦٣. عن الفرما: معجم البلدان، ص ٦

٩-٣٦٧.

كل هذا يبيّن الخطر الشديد الذي كان يتهدد مصر والشرق الإسلامي،
نتيجة لضعف حكامها الفاطميين.

*

وكان من الممكن للصليبيين أن يستفيدوا أكثر من ضعف المسلمين، لولا أن أوقف أطماعهم ظهور أتابكية تركية قوية في الشام، أصبح هدفها الاتحاد مع مصر لصد خطر الصليبيين. هذه الأتابكة مؤسسها مملوك من الرقيق اسمه آقسنقر، كان في بلاط السلطان ملكشاه، الذي بناء على نصيحة وزيره المشهور نظام الملك، ولاء حلب ثم الموصل^(١) في ١٠٨٧/٤٨٠ ولكن بعد موت ملكشاه، نجد أن تتش أخا السلطان الذي يملك الشام يقتل آقسنقر هذا في ١٠٩٤/٤٨٧^(٢). وقد كان ابن آقسنقر الوحيد عماد الدين زنكي^(٣) صغيراً، فلما كبر تمكن من استرجاع أملاك أبيه، إذ أقطعه سلطان وقته محمود بن ملكشاه بعض أراضى العراق كواسط والبصرة، ثم ولاء الموصل وبلاداً أخرى في سنة ١١٢٧/٥٢١. وكان السلطان محمود قد سلم إلى عماد الدين ولديه: ألب أرسلان وفروخ شاه لتربيتهما، ولهذا قيل لعماد الدين الأتابك، لأن الأتابك هو الذي يربى أولاد الأمراء، كما عرفت إمارته بالأتابكية.

والواقع أن هذا الأتابك كان يعمل لحسابه الخاص؛ فأخذ يوسع أملاكه على حساب بقية الأتابكيات الأخرى في الجزيرة والشام، فاستولى على حلب وغيرها من مدن الجزيرة، وإن أظهر أن البلاد التي فتحها لأميره ألب أرسلان بن محمود، وأنه نائبه فيها^(٤). وأكثر من هذا تدخل في تولية السلطان السلجوقي في بغداد، فكان مع مسعود بن محمد بن ملكشاه ضد الخليفة المسترشد، الذي كان يؤثر بالسلطنة غيره من أمراء السلاجقة. ولما ذهب عماد الدين لحصار الخليفة في

(١) ابن الأثير، الدولة الأتابكية (R. des Hist des Cois. Or) ٢/٢ ص ١١، ١٧؛ آل سلجوق، ص ٦٦، ٧٨.

(٢) الدولة الأتابكية ص ٢٨ وما بعدها.

(٣) نفسه، ص ٤٢ وما بعدها؛ وفيات، ص ١، ٢٤٣-٢٤٤؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art Zengf) t 4, P. 1294-5.

(٤) الدولة الأتابكية، ص ١٢٦-١٢٧، ٦٩ وما بعدها؛ الكامل، ص ٩، ٥-٧.

بغداد، وأرسل إليه الخليفة أمد قواده، فهزّمه، فهرب ناجياً بنفسه في ١١٣٢/٥٢٦^(١)، حيث أنقذه رجل كردي الأصل اسمه أيوب^(٢)، كان يمتلك قلعة تكريت، مع أن ذلك كان فيه تحد للخليفة. ولكن بعد أن قتل مسعود الخليفة المسنرشد، عاد عماد الدين زنكي إلى مركزه الأول، وتولى الموصل واعترافاً بجميل أسرة أيوب الكردية، حينما فتح بعلبك، وهي مدينة قريبة من دمشق من جهة الساحل، سلمها إلى أيوب^(٣)، وجعله أميراً عليها.

وثمة أمر آخر يبين طموح الأتابك، وهو طمعه في أخذ دمشق^(٤) الواقعة في وسط الشام، والتي كانت تحكمها أسرة طغتكين أو طغديكين أتابك دياق بن تتش بعد موته، حيث كان أبوه تتش هو الذي قتل أقسنفر أبا زنكي. وكانت هذه الأتابكة هي الأخرى قوية فلم يستطع الصليبيون الاستيلاء على دمشق، ولكنها ضعفت بسبب ضعف من فيها. فحاصرها في ١١٣٩/٥٣٤، ولكنه لم يستول عليها بسبب طلبها مساعدة من الفرنج.

كذلك كان هذا الأتابك متحمساً لحرب الصليبيين، بحكم وجود أملاكه في شمال الجزيرة وحب، ملاصقة لإمارتي الرها وأنطاكية الصليبيتين القويتين. وكان يرى أن الضرر كبير بوجود إمارة الرها وسط بلاد الجزيرة قريبة من بغداد مركز الخلافة العباسية؛ بحيث إن غارات الفرنجة منها يعظم شرها، وامتدت إلى أقصى بلاد الإسلام^(٥). فيذكر له المؤرخون أنه كان لا ينقضى عليه

(١) الأتابكية، ص ١٨٣، ابن واصل، ١ ص ٤٧-٤٨، ٥١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق الشيبان، ١ ص ٨، انظر ماجد، صلاح الدين، ص ٥٧-٥٨.

(٣) الخطط، ٣ ص ٣٧٨؛ وفيات ٣ ص ٤٧٤. عن بعلبك: معجم البلدان، ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها. تذكر رواية مؤداها أن شيركوه قتل رجلاً بتكريت فطرد هو وأخوه، وهذا هو سبب تركها لها.

(٤) عن أتابكتها؛ وفيات، ١ ص ١٦٩؛ أبو الفدا، المختصر ٢ ص ٨ وما بعدها.

(٥) الأتابكية، ص ٦٠؛ انظر.

عام، حتى يفتح بلاداً من بلادهم، حتى اشتهر بالشهيد، ربما لرغبته في الاستشهاد. ولعل أهم انتصاراته عليهم هو فتحه مدينة الرها، وذلك بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً في سنة ٥٣٩/١١٤٤^(١). فلما دخلها قتل كل من فيها من الصليبيين، وجمع رؤوس القتلى وبنى بها منارة أذن عليها، ونكس صلبانها وأباد رهبانها. وبذلك خلس الإسلام من خطرهم بحيث شبه الانتصار فيها بالانتصار في بدر.

ولكن هذا الأتابك اغتيل على يد غلمانة في سنة ٥٤١/١١٤٦^(٢)، فأسرع ابنه غازي ونور الدين إلى الاستيلاء على أهم أملاك أبيهما، ولا سيما أنها خلصت لهما بقتل ألب أرسلان^(٣)، الذي كان زكي يظهر أنه نائيه، فأخذ الأول، وهو الأكبر الموصل وبلاد الجزيرة، والثاني حلب. وعلى العكس، فإن أيوباً، الذي كان زكي أعطاه بعلمك اعترافاً بجميل إيوائه إياه، فقد انتقل مع ابنه صلاح الدين إلى أتابكية دمشق^(٤)، التي عملت على ضم بعلمك إليها، وإن بقي شيركوه^(٥)، آخر أيوب في خدمة نور الدين في حلب.

وحيثما أرسلت حملة جديدة إلى الشرق، تعتبر الحملة الصليبية الثانية، نتيجة لاستيلاء زكي على الرها، بقيادة لويس السابع "Louis VII" ملك فرنسا، وكونراد الثالث "Konrad III"، ملك ألمانيا، فإن آل زكي شاركوا في مقاومتها. حقاً إن لويس وكونراد هزما في آسيا الصغرى، إلا أنهما يما شطر دمشق، مع أن هدف الحملة كان استعادة الرها. فنجد أن نور الدين وغازي، ومعهما أسرة أيوب يهرعون للدفاع عن دمشق، وإن كان أتابكها ما لبث أن صالح الملكين، لقاء تسليم بعض القلاع والمال^(٦).

هذه الحملة الصليبية الثانية، جعلت نور الدين، الذي أصبح أكبر الأتابكة الزنكيين، بعد وفاة أخيه أكبر غازي في الموصل سنة ٥٤٢/١١٤٧^(٧) وتنازل أخيه

(١) الأتابكية، ص ١١٨. وما بعدها؛ الكامل، ٩ ص ٨.

(٢) الأتابكية، ص ١٣١ وما بعدها؛ ابن واصل، ١ ص ٩٩ وما بعدها. هو غير السلطان ألب أرسلان، الذي تولى بعد طغرلبيك.

(٣) ابن واصل، ١ ص ١٠٩.

(٤) نفسه، ١ ص ١١٠؛ الكامل، ٩ ص ١٦.

(٥) النجوم، ٦ ص ٥.

(٦) الأتابكية، ص ١٥٩ وما بعدها؛ ابن واصل، ١ ص ١١٢ وما بعدها؛ الكامل، ٩ ص ٢٠-٢١.

(٧) الكامل، ٩ ص ٢٤.

الأصغر قطب الدين مودود عن أملاكه في الشام له، يفكر جدياً في الاستيلاء على أتاكية دمشق، وضمها إلى أملاكه، كما كان يريد أبوه من قبل والذي جعله يعجل بذلك، هو استيلاء الفرنجة على عسقلان أكبر معاقل الفاطميين في الشام في سنة ١١٥٣/٥٤٨، وكانت بقيت وحدها تقاوم طول هذه المدة، ولأن الصليبيين قويت آمالهم بعد ذلك في أخذ دمشق أيضاً، وتابعوا الغارة عليها^(١). ويبدو أن الخليفة العباسي المقتدى^(٢) لأمر الله، هو الذي حث نور الدين على أخذ دمشق، فمنحه تقليداً على البلاد الشامية، وحتى على البلاد المصرية، التي كانت هي الأخرى تعاني الاضطرابات، بسبب مقتل الخليفة الظافر في سنة ١١٥٤/٥٤٩، وطمع فيها الصليبيون من جديد.

وقد دبر نور الدين الأمر بينه وبين أيوب في دمشق عن طريق شيركوه، بحيث يقول المقرئ^(٣) إن أيوباً عمل كثيراً في أخذ دمشق لنور الدين، فسلم المدينة إلى أخيه شيركوه لما حاصرها في سنة ١١٥٤/٥٤٩. فنقل نور الدين إليها مركز حكمه، وعين أيوباً حاكماً عليها، وشيركوه نائباً عنه، وصلاح الدين رئيساً لشرطته «الشحنجية»^(٤)، وهذا الأخير كانت قد بدأت تظهر عليه إمارات الذكاء والشجاعة، التي تعلمها من نور الدين^(٥).

*

وبينما كان نور الدين يوطد حكم أتاكيته التي اتسعت من حلب إلى دمشق، إذ جاءه شاور الوزير الفاطمي سنة ١١٦٤/٥٥٨؛ طالباً النجدة والعساكر ضد ضرغام الذي طرده من الوزارة واستولى عليها كما ذكرنا. فأطمعه في الديار المصرية، ووعدته بحصة من خراجها مقدارها الثلث سنوياً، ويمنح جنده الإقطاعات ويقيمون في مصر، ويكون منصرفاً تحت أمره ونهيه. ويلاحظ

(١) ابن واصل، ١ ص ١٢٦-١٢٧. عن سقوط عسقلان في سنة ١١٥٢/٥٤٧، انظر. الكامل، ٩ ص ٤٢؛ وقبله.

(٢) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٧. يكتبها المستكفي. عن المقتدى، انظر.

Ency. de l'Isl, (art al-Muktafi) t3, P. 769.

(٣) الخطط، ٣ ص ٣٧٨ س ٢٢؛ انظر. حبشى، نور الدين، ص ٦٢ وما بعدها.

(٤) وفيات، ٢ ص ٤٧٤؛ النجوم، ٦ ص ٨. الشحنجية وردت في القاموس الفارسي بمعنى

مكتب رئيس الشرطة المسمى الشحنة. النجوم، ٥ ص ٢٠١ وهامش رقم (٢)

(٥) وفيات، ٢ ص ٤٧٤

المؤرخون أن نور الدين قد تردد أول الأمر في إجابة شاور إلى طلبه، بسبب توسط الفرنجة بينه وبين الديار المصرية؛ إلا أنه قيل تحت إلهام شيركوه، الذي كان يرغب بشدة مُرَّ، الذهاب على رأس الحملة إلى مصر^(١). وربما يكون الدافع على تحريض شيركوه لنور الدين، أنه فكر في تأسيس ملك فيها لأسرته^(٢)، إذ يبدو أنه كان متفقاً في ذلك مع أخيه أيوب، بدليل اصطحاب صلاح الدين، الذي لم يكن قد تجاوز خمسة وعشرين عاماً. وعلى التقيض يظهر أن صلاح الدين نفسه لم يكن متحمساً للمغامرة في مصر، فيروي أنه قال^(٣): «خرجت مع عمي كارها وأنا كمن يقاد إلى المذبح». ونحن نرى أن قبول نور الدين لطلب شاور راجع إلى الرغبة في استعلاء حقيقة أحوال مصر، التي كانت ضعفت^(٤)، وعلى الخصوص إلى ما يمكن الحصول عليه من الفوائد بتقوية المسلمين، إذا ما اتحدت معه قوى مصر الوافرة الثراء بالمال والرجال ضد الفرنجة، إذ لا يبدو أنه كان يقصد وقتذاك فتحها وضمها إلى ملكه بالشام.

ويظهر أن شاور لم يكن يرغب في حضور شيركوه وصلاح الدين، ولعله كان يظن أن نور الدين بكل قيادة الحملة إليه، ولكن أسقط في يده لما جهز نور الدين عسكره من الترك بقيادة شيركوه، وسر لشغل الفرنجة بالفارات، حتى يصل جيشه سالماً إلى مصر. فلما وصل شيركوه إلى بلبيس^(٥) شرقى القاهرة، خرجت عساكر البرقية المذكورة من قبل ضرغام بقيادة أخيه ناصر الدين، لقتال الجيش التركي؛ ولكن عسكر شيركوه أجبره على التقهقر نحو القاهرة؛ فلما دخل جيش شيركوه القاهرة خرج ضرغام لملاقاة شاور، وحدث قتال عنيف اشترك فيه أول الأمر الجند المصريون والسودانيون - وهم طوائف الجيش الفاطمي - خوفاً من الغزى (أى الترك) القادمين مع شاور، فانتصروا عليهم في القاهرة، وبقي ضرغام أياماً يقاتلهم ولكن كره الجند الفاطمي لضرغام لأمر منها قتله قوادهم «أمراءهم»، وأعيان البلاد، إذ كان يأخذ بالظنة حتى بين أصحابه

(١) الكامل، ٩ ص ٨٤-٨٥؛ الأتابكية، ص ٢١٥-٢١٦؛ ابن واصل، ١ ص ١٢٧ وما بعدها.

(٢) وفيات، ٢ ص ٤٧٦ ص ١٠.

(٣) الفخرى، ص ٧٢.

(٤) وفيات، ٢ ص ٤٧٥ س ١٠-١١.

(٥) عنها؛ معجم البلدان، ٢ ص ٢٦٢؛ انظر.

وأفراد أسرته، جعلهم ينحرفون عنه، مما دعا الخليفة العاضد بدوره إلى التخلص عن تأييده له؛ فاستطاع شاور بمماليكه وعربانه أن يهزم ضرغام ويقتل أخويه (١). وبعدها تولى شاور الوزارة للخليفة العاضد ثانية وتلقب بالملك المنصور، وكتب العاضد سجلاً له بتفويض الوزارة (٢)، وذكر أنه ما اختاره إلا لحنكته في السياسة والتدبير، ودعاه إلى المحافظة على دعوة الفاطميين، كما قلّد ابنه الوزارة نيابة عن أبيه، الذي أسمه الكامل على ما يبدو (٣)، لأن ابننا آخر اسمه طيئ، كان قد قتل في النزاع مع ضرغام، وسليمان قتل قبل أن يذهب مع أبيه إلى دمشق.

فلما حصل شاور على الوزارة ظهرت منه أمارات الغدر بجيش الترك، الذي كان يقيم بظاهر القاهرة، وأرسل إلى شيركوه يطلب منه الرجوع إلى الشام فامتنع شيركوه، وأسرع إلى بلبيس، بناء على إشارة صلاح الدين (٤) - الذي بدأت تظهر كفاءته الحربية أيضاً - للتحصن بها فأخذ شاور، الذي رأيناه من قبل قد استدعى الترك ووعدهم بامتيازات في مصر، ليحتفظ بمنصب الوزارة، يعمل على الاتصال هذه المرة بالفرنجة، ويدعوهم إلى إخراج جند شيركوه، ووعدهم بمال كثير إذا رحل عسكر نور الدين. ولعل شاور كان يستهدف من وراء ذلك، أن يستفيد من نزاعهما بالانفراد بالبلاد. فبادر الفرنجة إليه ووجدوا في دعوته الفرصة المناسبة، ولا سيما أنهم كانوا قد عرضوا مساعدتهم من قبل على ضرغام (٥) - ويسمونه Dargam - إذ قدروا خطورة الاتحاد بين مصر ونور الدين في الشام، فيقول ابن واصل: إنهم قد خافوا خوفاً شديداً إذا ما تحقق ذلك وأيقنوا بالهلاك، وأن بلادهم تستأصل (٦) - فاجتمعت جيوشهم بقيادة ملك بيت المقدس المسمى أمريك "Amalricus" والمعروف أيضاً بمعموري "Amauri"، ويسميه

(١) الخطط، ٢، ص ١٤٢، ٣، ص ١٩-٢٠.

(٢) صبح الأعشى، ١٠، ص ٣١٠-٣١٨.

(٣) نفسه، ١٠، ص ٣١٨-٣٢٥. لا يذكر اسمه لعله الكامل؛ لأن طيئ الكبير كان قد قتل السلوك، ١/١، ص ٤٤ وحاشية (٥).

(٤) النجوم، ٥، ص ٢٤٧ س ٧-٨؛ سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية البنداري، ص ١٩.

(٥) أنظر ما كتبه وليام الصوري في مجموعة: R. H. Cr, Occ, II, 2 e, P. 892؛ حبشي، نور الدين، ص ١٠٦.

(٦) ابن واصل، ١، ص ١٣٩.

العرب غالباً في كتبهم مري، وحاصروا شيركوه وصلاح الدين في بلبيس^(١)، يساعدهم عسكر شاور من العربان والسودان، فقاومهم جيش شيركوه حتى أعياهم مدة ثلاثة أشهر، وانتهى الأمر بعقد اتفاق بمقتضاه خرج شيركوه والصليبيون من مصر، وخاصة أن نور الدين أخذ كعادته في الإغارة في أطراف أملاكهم، ليخلص جيوشه من هذا الحصار، وأرسل بالأعلام التي غنمها منهم، لتنتشر على أسوار بلبيس مما أزعجهم، وجعل عموري يسرع بالعودة إلى بلاده. وهكذا انتهت حملة شيركوه وصلاح الدين الأولى على مصر، ومدح الشاعر المعروف عمارة اليمنى شاور على حسن سياسته، كما مدحه شعراء آخرون^(٢).

ولكن شيركوه، الذي رأى ضعف حالة مصر؛ بحيث وصفها بأنها بلاد بغير رجال، أخذ يحرض من جديد نور الدين لإرساله على رأس حملة ثانية، وقبل نور الدين ذلك^(٣). فخرج شيركوه في ٥٦٣/١١٦٧^(٤)، ومع هذه المرة أيضاً ابن أخيه صلاح الدين، ودخل مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر عند أطفيح من ناحية الصعيد، ثم نزل الجيزة قبالة مصر (أو الفسطاط) حتى لا يحاصر في بلبيس مرة أخرى، وبقي فيها نيفاً وخمسين يوماً^(٥). فلما وصل جيش شيركوه، أرسل شاور ثانية إلى الفرنجة يستنجد بهم ويعددهم بالمال، فأتاه عموري إلى الجيزة، وأرسل رسله إلى قصر العاضد للاتفاق على المبلغ الذي يدفع له لقاء إخراجه شيركوه؛ حيث تركوا لنا وصف أبهة قصر العاضد^(٦). فحاربهم

(١) نفسه، ١ ص ١٤٠؛ الأتابكية، ص ٢١٧-٢١٨؛ الخطط، ٢ ص ١٤٢، ١٧٤؛ الحنبلي، شفاء القلوب، مخطوط بدار الكتب، ورقة ٦ وما بعدها؛ انظر. سعداوي، التاريخ العربي المصري في عهد صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٧، ص ٨ وحاشية (٣)، يعتمد على مصادر مخطوطة، Les Campagnes du roi Amaury. Paris, 1906, P. 63-80.: Schlumberger

(٢) عمارة، ديوان، تحقيق Derenbourg، ٢ ص ٤٢٤؛ ابن واصل، ١ ص ١٤٢؛ الحنبلي، شفاء القلوب، ورقة ٦.

(٣) ابن شدك، ص ٢٩.

(٤) الكامل، ٩ ص ٩٤-٩٦؛ ابن واصل، ١ ص ١٤٨ وما بعدها؛ الخطط، ٢ ص ١٤٢-١٤٣، ١٧٤؛ وفيات، ١ ص ٤٠٥ وما بعدها، ٢ ص ٤٧٧؛ الأتابكية، ص ٢٣٦ وما بعدها؛ الحنبلي، شفاء القلوب، ورقة ٧ وما بعدها؛ انظر. حبشى، نور الدين، ص ١١٠ وما بعدها؛ سعداوي، التاريخ العربي، ص ٩ وما بعدها.

(٥) سنا البرق الشامي، ص ٢٠.

(٦) انظر. R.H.C.Occ. II, 2c, P. 910-913.

Op. Cit, P. 142-3 Schlumberger

: ماجد، نظم الفاطميين، ٢ ص ١٤٢؛ المنجد، كتاب الرسل والملوك، ص ١٢٧-١٢٩.

شيركوه وهزمهم حين حاولوا عبور النيل على جسر أقاموه، ولكن بسبب قلة جنده اتجه إلى الصعيد، فلما تابعوه هزمهم بفضل مهارة صلاح الدين في مكان أسمه البابين جنوب الدنيا الحالية؛ ونجا عمورى بحياته بمعجزة^(١) وكان هذا من أعجب الانتصارات لقلة عسكر شيركوه، الذين هزموا شاور والصليبيين معاً؛ إذ صمم جنده ألا يسلموا مصر للكفار. ولكن لا داعى للعجب، لأن شعب مصر في الصعيد كان يعاون جيش شيركوه. ثم سار شيركوه إلى الإسكندرية، التي رفض أهلها وأعيانها أن يسلموها إلى شاور؛ لأن معه الصليبيين، وسلموها لشيركوه، وكانوا قد راسلوه من قبل^(٢)، فتركها شيركوه لابن أخيه صلاح الدين، وعاد هو بقسم من جيشه إلى الصعيد؛ ربما ليشتت قوى أعدائه. ومن الطريف أن نذكر أن تسليم الإسكندرية إلى شيركوه راجع أيضاً إلى أن أهلها كانوا من السنة الذين يكرهون التشيع؛ وذكر هذه المعارضة المبكرة للفاطميين نجدها في الوثائق المعروفة بالسجلات المستنصرية^(٣)؛ فكان كل ثائر على الخلافة الفاطمية يلتجئ إليها. فحاصرها شاور حوالى أربعة أشهر تناصره مراكب الصليبيين؛ حيث كانوا يتوقون للاستيلاء على هذا المرفأ الهام على البحر الأبيض، فكافح عنها صلاح الدين وأهلها كفاحاً شديداً، حتى أنه قال عند ذكر هذه الحقبة: «والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق، ما لا أنساه أبداً». وقد سأل شاور أهل الإسكندرية أن يسلموه صلاح الدين، ويرفع عنهم الضرائب، وبخاصة المكوس -ضريبة الأسواق البغيضة- إلا أنهم رفضوا أن يسلموا المسلمين إلى الفرنج على حسب قولهم. عندئذ سعى إلى الصلح وقبله شيركوه لسوء موقف جيشه، وليخرج الصليبيين من مصر بأى ثمن، فاتفق على أن يتركها لقاء مبلغ من المال، على أن يخرج الصليبيون أيضاً، ولا يتسلموا أية قرية، وأن تعاد الإسكندرية إلى المصريين. ومع تظاهر الصليبيين بقبول ذلك، إلا أنهم وافقوا لقاء خروجهم من مصر، على أن يكون لهم بآبواب القاهرة حامية «شحنة»، وأن يدفع لهم شاور بعض المال، فكان أحد الفرنجة يقيم في دار خاصة

(١) انظر R.H.C.Occ. II, 26, P. 928

Op. Cit, P. 142-3, Schlumberger

؛ حبشى، نور الدين، ص ١١٥. يقول الحنبلى البابين أو أبوان، (شفاء القلوب) ورقة ٧.

(٢) أبو شامة، الروضتين، ص ١٦٨

(٣) سجل رقم ٥٧ ص ١٨٨.

ليحصل على نصف مال مصر^(١). فوافق شاوور على ذلك، حيث كان يرى أن الأموال وحدها هي التي تسيطر، دون المبادئ.

ومن المحقق، أن هذا التدخل أثبت بوضوح أن مصر لم تعد في أيدي الفاطميين، وإنما أصبحت بيد القوتين المتسابقتين عليها، وهي الدولة الغزية (التركية) النورية، وفرنجة بيت المقدس، وبالأحرى في يد شاوور الوزير المستبد، الذي كان لا يهمله غير الاحتفاظ بمنصب الوزارة. ومما زاد الطين بلة أن الصليبيين صمموا هذه المرة على سباق جيش نور الدين في الوصول إلى مصر بغية احتلالها، مخالفين بذلك سابق عهدهم. ولكي يدبر عموري حملته على مصر سعى إلى الاتفاق مع البيزنطيين، وتزوج ابنة أخى ملك بيزنطة مانويل "Manuel" (١١٤٣-١١٤٨ م)، لتتربع معه على عرش مملكة بيت المقدس^(٢). وقد ترك لنا المؤرخ الصليبي وليم الصوري "Willero Mo Tyrensi"، صورة للاتفاقية التي وقعها بنفسه نيابة عن عموري؛ فقد اتفق الطرفان على أن تكون رئاسة الحملة لعموري وأن يطيع القائد البيزنطي في كل ما يأمر به^(٣). ومع أن عموري نفسه كان يفضل انتظار وصول الجيش البيزنطي، إلا أن فرسان مملكته، وذوى الرأى فيها، أشاروا عليه بقصد مصر لفتحها لحساب مملكتهم والتقوى بها في نزاعهم مع نور الدين، إذ كان اعتقادهم أن فتحها سيكون سريعاً، بسبب أنه كان لهم أبواب القاهرة حامية، وأنهم تحكموا فيها، فأسرع عموري على رأس الفرنجة بالدخول إلى الريف المصرى شرقى الدلتا أو ما يعرف بالحواف الشرقى في سنة ١١٦٨/٥٦٤^(٤)، فارتكبت جيوشه في بلبيس - أهم مدن الحواف - فظائع تذكر بما حدث عند فتح الفرنجة بيت المقدس، فكانوا يقتلون الرجال والنساء والشيوخ، مما يدل على نيات الغزو الحقيقية عند الفرنجة هذه المرة.

(١) الخطط، ٣، ص ١١١؛ ابن واصل، ١، ص ١٥٢.

(٢) انظر. R.H.C.Occ. t I, 2 P. 942-943.

(٣) انظر. Ibid, P. 945 sqq.

(٤) النجوم، ٥، ص ٢٥٠؛ الكامل، ٥، ص ٩٨ وما بعدها؛ ابن واصل، ١، ص ١٥٧ وما بعدها؛

الروضتين، ١، ص ١٧٠؛ انظر. حسن إبراهيم، الفاطميون في مصر، ص ٣٠٥؛

*Ency. de l'Isl, (art. al-Sharikiya) t 4, P. 45-6.

خاف شاور الفرنجة، ولا سيما أنه أرسل إلى عموري يسأله عن سبب سيره، فاعتل له بأن هذا هو رأى الفرنجة بالشام. وأنه يريد بعض المال. عندئذ قدر شاور نياته وقرر مقاومته^(١). فجمع جالية الفرنجية في مصر، وقتل منهم جماعة كبيرة، وحفر خندقاً وبنى حصناً، وجعل الفقهاء يحضون الأهالي على القتال، ثم أحرق مصر أو الفسطاط، وأمر أهلها بالهجرة إلى القاهرة، بقصد مرقلة زحف الفرنجة، وهي العاصمة القديمة التي أنشأها عمرو بن العاص عند فتح العرب مصر، وازدهرت -على حساب وصف الرحالين^(٢)- وفي جنوب القاهرة العاصمة الجديدة للفاطميين كما ذكرنا، إلا أن المجاعات والفتن التي حلت بالدولة الفاطمية في عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء، كانت ضربة قاصمة لازدهار هذه المدينة، فتلاشت أهميتها، كما تلاشت أحيائها الشمالية مثل العسكر والقطائع ويذكر المقرئ أن شاور استخدم في حريق مصر أو الفسطاط عشرين ألف قارورة نפט، وعشرة آلاف مشعل نار، وقد ظلت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوماً؛ بحيث أن هذا الحريق أطاح بجميع عمائر المدينة، وأحرق جانباً من جامعها العتيق (جامع عمرو)، ولاتزال آثار هذا الحريق موجودة إلى وقتنا الحاضر في التلال المعروفة بالكوم أو الكيمان في منطقة مصر القديمة. وقد أوقف حريق الفسطاط تقدم الفرنجة في البلاد، فحاصروا القاهرة وضربوها بالمنجنيق - وهي من أدوات الحصار لقذف الأحجار والنار - إلا أن أهلها قاوموهم بحماس شديد، أشار إليه معظم المؤرخين.

وقدر نور الدين - هو الآخر - الخطورة المترتبة على تصرفات الفرنجة باحتلال مصر، فأسرع بإرسال شيركوه ومعه صلاح الدين على رأس حملة ثالثة، وكان ينوي أن يذهب بنفسه^(٣). ويورد المؤرخون أسباباً أخرى لإرسال هذه الحملة، منها: أنها أرسلت بناء على طلب الخليفة العاضد، الذي أرسل إلى نور الدين شعور نسائه. وكتب إليه يستصرخه ويقول: « ادركنى واستنقذ نساءى من

(١) الخطط، ٢ ص ١٤٢؛ الحنبلى، شفاء القلوب، ورقة ٨ وما بعدها؛

Ency. de l'Isi, (art. Caire) t I, P. 837 sqq;

Fouilles d'al-Foustât, Paris 1921. : Állf Bahgat

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، س ٥٨ وما بعدها.

(٣) الأتابكية، ص ٢٥٤

أيدي الفرنج^(١)؛ أو بناء على دعوة الوزير شاوور نفسه الذي قدر هو الآخر خطورة الموقف^(٢)، أو بناء على دعوة أهل مصر، الذين كانوا يراسلون نور الدين في أثناء الحصار^(٣)، وعلى كل حال لا نستبعد أن يتعاون المسلمون على اختلاف مذاهبهم ضد عدوهم الصليبي، فلما سمع الصليبيون بتحريك عساكر نور الدين، وجدوا أنفسهم في هذه المرة على عكس المرات السابقة مضطرين إلى قتال عساكر مصر والشام موحدة، قبلوا الصلح مع شاوور، الذي عرض عليهم مائة ألف دينار، على أن يرد إليهم بقية مليون دينار أخرى فيما بعد، فلما قرب جيش نور الدين من القاهرة، رحل الفرنجة عنها، وكان هذا على حد تعبير ابن واصل المؤرخ: من أجل الفتوح وأعظمها؛ إذ لو استولى العدو - لعنه الله - على الديار المصرية، لا استولى على سائر الخطة الإسلامية^(٤).

ويظهر أن حيل شاوور في سبيل الاحتفاظ بمنصب الوزارة لم تكن قد انتهت، فأراد تدبير مؤامرة لقتل شيركوه ومن معه، وإخراج جيشه من مصر^(٥). وربما كان من الممكن أن ينجح في تدبير ذلك؛ إلا أنه نسي أن يقدر حقيقة كره المصريين له، وأثر ذلك في قلب خططه. فهؤلاء رأوا في مواقفه السابقة في طلب العون من الصليبيين تهديداً هائلاً لبلدهم وخيانة كبرى للإسلام، حتى أنهم عنفوه في سبيل ذلك. وتجد أن جماعة منهم على رأسهم شخص اسمه ابن الخياط، يسعون إلى أخذ الوزارة منه، ولكن شاوور استطاع إخضاع ثورتهم، واستبد بالمصريين^(٦). وقد رأينا أن هزيمته هو والصليبيين في حملة شيركوه الثانية، ترجع على الخصوص إلى أن المصريين خذلوه، حيث سبق ذكر تسليم أهل الإسكندرية مدينتهم لصلاح الدين، وأن شاوور لم يكن يعتمد في محاربة شيركوه في واقع الأمر إلا على طائفة من جنده الخاصة -العربان والسودان- إذ جرى وزراء مصر منذ عهد مبكر على تكوين طوائف خاصة لهم من العسكر. وقد زاد كره المصريين له بسبب سوء سياسته بحرق مصر أو الفسطاط، ففقد كثير منهم بيوتهم ومتاعهم، وبقيت مصر مدة لا يسمع

(١) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٨.

(٢) النجوم، ٥ ص ٢٥٠.

(٣) الكامل، ٩ ص ١٠٠ س ١٠-١١.

(٤) ابن واصل، ١ ص ١٦٠.

(٥) نفسه، ١ ص ١٦١-١٦٢؛ النجوم، ٥ ص ٢٥١؛ الروضتين، ١ ص ١٥٦-١٥٧.

(٦) ابن واصل، ١ ص ١٥٦.

فيها أذان، ولا يوجد فيها مصباح؛ كما أنهم بعد هجرتهم إلى القاهرة لقوا شظف العيش، وأقاموا أثناء حصارها مطروحين في المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات بعيالهم وأولادهم. وعلى العكس كان شاور وأولاده يتعاضمون على الناس، فمجتهم الأنفس^(١). فلما جاء عسكر نور الدين، أحضر شيركوه أعيان المصريين وأظهر لهم أسفه لمصائبهم، وسفه رأى شارو^(٢) في إحراق الفسقاط ويقول ابن تغرى بردى^(٣) - وهو مؤرخ مصري - إن الأمراء المصريين في الجيش الفاطمي، اتفقوا على قتله.

ويبدو أن نهاية شاور قد قربت؛ إذ كان من بين أبنائه من يعارضه، وهو ابنه الكامل، الذي كان يميل إلى مخالفة نور الدين^(٤)؛ إنقاذاً للإسلام في المنطقة؛ كما يبدو من أحاديث الكامل الخاصة. وكان العاضد يؤيد الكامل في التحالف مع نور الدين، ويفكر في إسناد الوزارة للكامل بدلاً من أبيه شاور، وخصوصاً أن الكامل هو الذي دافع عن القاهرة في أثناء هجوم الفرنجة. ويظهر من سجل^(٥) كتبه العاضد لاستنابة الكامل في الوزارة عن أبيه، صفات الكامل الطيبة، وحتى تفوقه واجتهاده في العلوم الدينية وجهاده. وربما يكون الذي دعا العاضد إلى تأييد الكامل على حساب شاور، هو أن هذا الأخير أيد دعوة الطيب في اليمن^(٦)؛ مما هدد خلافة العاضد في مصر.

ومع ذلك، فإن الذي قضى على شاور هو صلاح الدين وشيركوه، لتحقيق أطماعهما في مصر، بعد أن علقت مخالفتها بالبلاد. وقبل أن يقتلاه أخذوا إقراراً من العاضد، الذي كان شاور قد استبد به طول فترة وزارته مثل بقية وزراء التفويض، بأنه هو الذي طلب قتله لخيانته للمسلمين^(٧)، ومعالاته للأجنبي. فنجد أن صلاح الدين يشرف بنفسه على تنهيب المؤامرة لأنه لا يجسر عليها

(١) الروضتين، ١ ص ١٦٥.

(٢) الخطط، ٢ ص ١٤٤ ص ٤.

(٣) النجوم، ٥ ص ٢٥١ ص ١٦.

(٤) الروضتين، ١ ص ١٧٠. قال لصال صلاح الدين: أوصل إلى نور الدين سلامي، وعرفه شفقي بخيمته وغرامى؛ وأن أتوسط في جمع الكلمة، ورد هذه القلوب المتهددة؛ إلى عقود العقد المنتظمة. انظر. سنا البرق الشامي تحقيق النبراوى، ص ٢٤.

(٥) إتعاظ، ورقات ١٥٩ ب-١٦٠؛ انظر مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٥٧ وما بعدها.

(٦) إتعاظ، ورقة ١٢٦.

(٧) النجوم، ٥ ص ٢٥١ - ٢٥٢؛ وفيها، ١ ص ٢٩٤؛ الكامل، ٩ ص ١٠١؛ السلوك ١/١ ص

٤٢؛ الروضتين، ١ ص ١٧١ - ١٧٢.

غيره، وذلك في أثناء زيادة شاور لشيركوه، الذي كان مضطراً إلى أن يظهر له الود، وإن تعمد شيركوه الخروج لزيادة ضريح الإمام الشافعي، فقبض صلاح الدين على شاور وكتفه، وأخذه ليقتله. ثم لما دخل ولد شاور وإخوته إلى القصر الفاطمي معتصمين قتلوا، وربما كان ذلك أيضاً بتحريض من شيركوه وصلاح الدين. وهكذا انتهت حياة هذا الوزير الذي كان همه الاحتفاظ بمنصبه، ففرح الناس فرحاً عظيماً لموته.

وقد كان قتل شاور إزالة العقبة أمام شيركوه في تحقيق أطماعه في مصر. فقد أخذ مكانه في الوزارة، إذ لم يكن العاضد يستطيع أن يرفض طلبه لضعفه، ولقبه بالملك المنصور، وهو ذات لقب شاور السابق، وخرج له سجل طويل أورده لنا القلقشندي يعتبر من الوثائق الهامة^(١)، فقد أصبح شيركوه: السيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش؛ كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين؛ أي أنه سيطر على كل شيء في الخلافة الفاطمية بما فيها من جيوش وقضاة ودعاة المذهب الشيعي ونلاحظ أنه سمي بسلطان الجيوش، وليس بأمير الجيوش لقب الوزراء السابقين، ربما لأنه كان مسيطراً على جيش الخليفة الفاطمي والجنيش التركي، الذي جاء من الشام^(٢). وقد احتفظ العاضد لنفسه اسماً بحق تولية الدعاة والقضاة، ولأن شيركوه كان سني المذهب؛ فإن سجلات توليتهم كانت تخرج بالضرورة من ديوان الإنشاء باسم الخليفة^(٣)، وإن كان شيركوه في واقع الأمر قد حجب على تصرفات العاضد كلها.

ولكن شيركوه توفي أو قتل^(٤) بالسم، ممن لا نعرف؛ ربما من العاضد أو من صلاح الدين، ولم يمكث في الوزارة أكثر من شهرين، فتولاها بعده ابن أخيه صلاح الدين، وتلقب بالملك الناصر، وإن غلب عليه اسم السلطان دون أن

(١) صبح، ١٠ ص ٨-٩؛ الحنبلي، شفاء القلوب، رقات ٨-١٠، انظر مجموعة الوثائق، ١ ص ٣٨٣ وما بعدها.

(٢) نظم الفاطميين، ١ ص ٨٤.

(٣) صبح، ١٠ ص ٣٤٣ وما بعدها.

(٤) وفيات، ٢ ص ٤٧٩ س ١٢. دفن وأخوه أيوب بمدينة الرسول. نفسه، ١ ص ٤٠٦؛ السلوك، ١/١ ص ٥١.

يتلقب به؛ مثل وزراء الفاطميين قبله، وذلك في ٢٥ من جمادى الآخرة سنة ٢٦/٥٦٤ مارس ١١٦٩^(١). وقد كتب له العاضد سجل الوزارة «منشور» بخط يده، مع أن الخلفاء الفاطميين لا يكتبون إلا نادراً، ورد فيه: «هذا عهد لا عهد لوزير بمثله^(٢)»، واحتوى على تخوله السلطات ذاتها، التي خولها لعمه شيركوه بالسيطرة على الجيش والقضاة والدعاة، فخرج سجله في قماش أبيض، وألبسه العاضد أمام جمع عظيم من موظفي الدولة خلعة الوزارة في يوم مشهود، وهي جميعها بيضاء شعار الفاطميين، فضلاً على خيل وسروج وأشياء أخرى^(٣).

وقد أثير حول تولية صلاح الدين الوزارة أقوال كثيرة، منها؛ إنه تولاها نتيجة لتوصية سابقة من شيركوه، أو أن العاضد منحه إياها لظنه أنه أصغر القواد «الأمراء» النورية سناً، ليكون تحت يده، إذ لم تكن سن صلاح الدين تزيد على اثنتين وثلاثين سنة، وأنه أحس أنه مثل شيركوه له طموح قد يستغله لمصلحته في معارضة نور الدين، وإن كان سجل التولية يقول: إنه اختاره لأنه جمع حكمة المشيب، ومضاء الشباب؛ أي بقوة شخصيته، التي يبدو أنه لم يكن يوجد أقوى منها بين أمراء نور الدين بعد شيركوه. ونحن أيضاً لا نستبعد أن يكون العاضد قد ألزم بتوليته^(٤)، كما ألزم بتولية عمه من قبل، بناء على اتفاق أغلبية الأمراء النورية. فهو لا يلبث أن يكون معه كالحجور عليه، لا يتصرف في الأمور إلا بعد مشورته^(٥).

*

والواقع أن تولية شيركوه وصلاح الدين لوزارة العاضد أمر غير عادي، يعلن عن قرب سقوط الخلافة الفاطمية، إذ أن كليهما بقي قائداً لنور الدين في

(١) انظر. تلقيب ابن السلاويه. ابن ميسر، ص ٩٢.

(٢) صبح، ١٠ ص ٣٠٨. نص سجل، انظر. نفسه، ١٠ ص ٩١ وما بعدها؛ انظر. مجموعة الوثائق الفاطمية، ١ ص ٤٠٥ وما بعدها؛ ماجد، صلاح الدين الأيوبي؛ انظر

(٣) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٨؛ الروضتين، ١ ص ١٧٢. عن زى الوزراء، انظر. ما ورد في كتابنا؛ نظم الفاطميين، ١ ص ٨٩ وما بعدها.

(٤) ابن واصل، ١ ص ١٦٩ - ١٧٠

(٥) ابن إياس، ١ ص ٦٨

الوقت ذاته، ثم لأول مرة يبقى في الوزارة الفاطمية وزير غير شيعي. وقد لاحظ السيوطي المؤرخ أن سيطرتهم على الخليفة الفاطمي تشبه سيطرة البويهيين مع خلفاء العباسيين السنة. فكانت هذه الحالة تبين مدى الضعف الذي وصلت إليه الخلافة الفاطمية في أخريات أيامها؛ مما مهد للقضاء عليها.

وكان القضاء على الخلافة الفاطمية، وعودة المصريين إلى المعسكر السنني أمراً تمليه ضرورة الموقف الإسلامي، حتى يتمكن المسلمون في المشرق من توحيد صفوفهم أمام الصليبيين، الذين استفادوا من هذا التشتت كما ذكرنا. يضاف إلى ذلك أن عقيدة صلاح الدين المذهبية كانت سننية، ولم يكن عنده باعث ديني على أن يؤمن بأحقية الخلافة الفاطمية وانتسابها إلى بيت النبي، أو بمبادئها الشيعية حتى يبقى عليها. كذلك كان نور الدين، وهو الذي أرسله وعمه إلى مصر، مثل بقية الترك السلاجقة متعصباً للعباسيين، فكتب إلى صلاح الدين بضرورة قطع الخطبة عن اسم العاضد، وجعلها للخليفة المستنجد بالله^(١) العباسي، فضلاً عما يترتب على ذلك من خضوع مصر لسلطانه مباشرة. أما الخليفة العباسي؛ فإنه كان ينتظر بفروغ الصبر إلغاء خلافة الفاطميين أعداء بيته، والخطبة له في أرض مصر وما يتبعها من أملاك، حتى أنه كتب في ذلك لنور الدين.

ولما شرع صلاح الدين في إلغاء الخلافة الفاطمية، اضطر إلى التمهّل على الرغم من إلحاح نور الدين وعتاب الخليفة العباسي، لأنه لما اختبر وقع إلغائها بين أعيان المصريين وجد ميلهم صريحاً لهذه الخلافة العلوية، ووجد أنه لو قام به سريعاً لقامت ضده فتنة لا تتدارك نتائجها^(٢)، ولا سيما أن المذهب الفاطمي كان قد انتشر انتشاراً هائلاً بين المصريين؛ حتى قال القاضي الفاضل عنه إنه خالط من المصريين اللحم والدم. ولذلك سار في إلغائها بخطوات وثيدة، دلت على قدرته السياسية.

فعمل صلاح الدين على محاربة الدعوة الفاطمية، وساعده على ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة معاً، إذ كان من ألقابه كوزير تفويض للعاضد؛

(١) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٩. عن المستنجد؛ انظر.

Ency. de Isl, (art-Al-Mustandjid) t3, P. 820.

(٢) النجوم، ٦ ص ٧ س ١٣-١٤؛ ابن واصل، ١ ص ٢٠٠.

كافل قضاة المسلمين، وهاذى دعاة المؤمنين؛ مما أطلق يده. حقاً إن الخليفة العاضد منذ أيام وزيره شيركوه وهو غير فاطمى، كان يتكفل بتولية القضاة والدعاة كما ذكرنا، ولكن يبدو أنه فى وزارة صلاح الدين، لم يعد له هذه السلطة الدينية؛ فعزل صلاح الدين قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم، وشرذ الدعاة، وألغى مجالس دعوتهم، وأزال أصول المذهب الشيعى، مثل: الأذان بحى على خير العمل، بدلا من الأذان بحى على الفلاح بل حذف من النقش الدينى على العملة المتداولة بين الناس صيغة العقيدة الشيعية: «على ولى الله»^(١). ثم أخذ فى إبراز أن نسب الفاطميين غير صحيح، وأنهم من نسل المجوس أو اليهود، وإن زعموا أنهم علويون، حتى لا ينسبوا إلى بيت النبى^(٢). كذلك منع صلاة الجمع بالجامع الأزهر وجامع الحاكم، حيث استمر هذا المنع مائة عام إلى أن جاء المماليك ليعيدوها إلى الجامعين^(٣)، كما أنه كان يخطب لنور الدين بعد العاضد فى الجوامع الأخرى^(٤).

وفى الوقت ذاته، جعل صلاح الدين همه عودة مذهبه السنة؛ الشافعى ومالك إلى انتشارهما الأول قبل مجئ الفاطميين. ويجب أن نقرر أن الفاطميين على الرغم من حرصهم على نشر مذهبهم، فإنهم لم يقضوا على شعائر المذاهب المخالفة، حيث صرح القلقشندي بقوله: إن مذهبه مالك والشافعى كانا موجودين فى عهد الفاطميين ظاهرى الشعار^(٥). وليقوم بذلك أخذ فى بناء مدارس^(٦) لتدريس المذهبين السنيين، ليس فقط فى القاهرة، وإنما أيضاً فى جميع أنحاء القطر؛ مع أنه لم يكن للمذاهب غير الشيعة شئ من المدارس، مقتدياً فى ذلك بنور الدين، الذى أكثر من بناء المدارس بالشام. ويبدو أن صلاح الدين وشيركوه، كانا يرفعيان المذهب الشافعى، ربما لأنهما كانا من معتنقيه، أو تقريباً للمصريين، الذين كانت غالبيتهم من أتباعه قبل مجئ الفاطميين، أو لأن الفاطميين أنفسهم

(١) أنظر. Lavoix، P. 196 (450).

وذلك ابتداء من عام ١١٥٨/٥٦٤.

(٢) الروضتين، ١ ص ٢٠١.

(٣) حسن المحاضرة، ٢ ص ٦٧.

(٤) الخطط، ٢ ص ١٧٥ س ٥.

(٥) صبح، ٣ ص ٥٢٠.

(٦) الخطط، ٤ ص ١٩٢ - ١٩٣؛ النجوم، ٦ ص ٥٤ ٥٥؛ انظر أحمد بدوى، الحياة العقلية فى

عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، القاهرة ١٩٥٣ ص ١١

كانوا على العكس يرفعون مذهب مالك دون الشافعي، ومن سألهم الحكم به أجابوه^(١). وقد رأينا شيركوه يزور ضريح الشافعي يوم دبر مقتل شاور، وبني صلاح الدين حول الضريح مدرسة، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل^(٢)، وأنه جعل الحكم في إقليم مصر كله لقضاة الشافعية وحدهم. ويذكر المقرئى نتيجة لذلك، أن تظاهر الناس في مصر بمذهبي مالك والشافعي، واختفى مذهب الشيعة^(٣).

ثم خطأ خطوة أخرى ترمى إلى إضعاف نفوذ حاشية القصر، وبخاصة أنه الوزير المتحكم الذي لا يرد أمره في شيء^(٤). فقد كان نفوذها كبيراً في وقت العاضد، تدخل في شئون السياسة، بحيث تمكنت من قتل الوزير المستبد طلائع ابن رزيق كما ذكرنا، ولا غرو فهي فرقة كبيرة، لم تعرف مصر لها مثيلاً في قصر إسلامي من قبل، إذ يقول المقرئى: إن عددها عند سقوط دولة الفاطميين، بلغ ثمانية عشر ألفاً^(٥). فنجد صلاح الدين يضايق أهل القصر، ويستبد بهم استبداداً، ويعمل على اغتيال كبيرهم مؤتمن الخلافة، وكان خصياً أسود من الأستاذين المحنكين؛ بحجة أنه تأمر على قتله ومالاً الأجنبي بأن استدعى الفرنجة، كما فعل شاور. ومما يدل على نجاح صلاح الدين في توطيد سيطرته على قصر الخليفة الفاطمي بعد قتله مؤتمن الخلافة هذا، قول المقرئى: إن جوهراً فاتح مصر، وخراب الفاطميين بسبب جوهر^(٦). وبعده عين صلاح الدين للقصر الفاطمي خصياً أبيض اللون من أتباعه، لعلة تركي أو يوناني، كان شيركوه قد اعتقه، اسمه قراقوش^(٧) بمعنى الطائر الأسود - ولقبه بهاء الدين، بأن جعله

(١) صبح، ٢، ص ٥٢٤.

(٢) رحلة ابن جبیر، ص ١٧.

(٣) الخطط، ١، ص ١٧٥ س ١٦ - ١٧.

(٤) وفيات، ٣، ص ٤٨٠ (في آخر الصفحة).

(٥) الخطط، ٢، ص ٣٦٩ س ٨.

(٦) نفسه، ٣، ص ٤ - ٥.

(٧) عنه : وفيات ، ٢، ص ١٨٣ - ١٨٤ : انظر .

Ency de l'Isi, (art. Karakûch) t2 , P. 786 - 7 .

Karakouçh, sa légende et son histoire (M.M.A.F.) III. Paris, 1890. P. : Casanova

447 ssq.

زماماً للقصر، أي مشرفاً على شئونه. فأشرف قراقوش على أمور القصر الفاطمي؛ بحيث أصبح لا يجرى فيه صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين^(١) يُضاف إلى ذلك أن صلاح الدين صادر مخصصات العاضد، ومنعه من المال والخيل والرقيق، ولم يبق عنده غير فرس واحد طلبه منه. كذلك منع رسوم الخلافة - وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها- من ركوب في المواكب، وجلس عام في القصر الكبير، واعتقل الخليفة ولم يعد يظهر للناس البتة^(٢)، حتى يبين لهم ما يريد من إزالة دولته ويعودهم على نسيانه، واعتقل أقرباءه، بل جعل القاهرة عاصمة الفاطميين مبتذلة^(٣)، وحط من قيمتها؛ كما ألغى من نقش العملة^(٤) كلمة المعزية، التي تدل على أن باني القاهرة هو الخليفة المعز لدين الله الفاطمي. ولما جاء أيوب أبو صلاح الدين في سنة ٥٩٥ / ١١٦٩، أخرج العاضد للقاءه، وهذا يدل على مدى امتهان حق هذا الخليفة^(٥)، وقد حدث مثل ذلك، حينما كان يسيطر ملوك البويهيين الشيعة على الخليفة العباسي السنن الطائع وأجبروه على استقبال رسول الخليفة العزيز^(٦) ويقول عمارة اليمنى، إن صلاح الدين فعل بالفاطميين، أكثر مما يفعله الفرنجة^(٧).

ثم اتخذ صلاح الدين خطوات حاسمة للإجهاز على قوة الخلافة الحربية، التي كانت قد ضعفت بدليل تسابق الترك والصليبيين إلى الاستيلاء على مصر. فقد بقي الجند الفاطمي في أواخر أيامه يتكون من عناصر مختلفة كمعظم الجند الإسلامية في عصره، إلا أنه أصبح يستمد قوته من عنصرين أساسيين، هما؛ المصريون الذين كانوا قد كثروا فيه بسبب أن بلادهم أصبحت مهددة من جانب الصليبيين؛ فاضطروا إلى القيام بالدفاع عنها؛ بحيث أنهم لم يصبحوا فقط عماد جنده، ولكن أيضاً من قواده، فنقرأ غالباً في كتب المؤرخين عبارة: «الأمراء المصريين»^(٨)؛ أما العنصر الأخر؛ فهو السودانيون ومعظمهم من النوبيين، الذين

(١) شامشاه بن أيوب، منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماه، تتعلق بسيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي، ص ٢٦٢ ملحق في كتاب ابن شداد (بهاء الدين)؛ كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي.

(٢) الخطط، ٢، ص ١٧٥.

(٣) نفسه، ٢، ص ١٨٤ س ٢٦.

(٤) انظر. Lavoix، P. 169 no. 450.

(٥) الخطط، ٢، ص ٣٥٠ ص ٢٧؛ ابن واصل، ١، ص ١٨٥.

(٦) النجوم، ٤، ص ١٢٤-١٢٥.

(٧) ابن واصل، ١، ص ٢١٣.

(٨) الخطط، ٢، ص ١٦.

كثروا منذ عهد المستنصر كما ذكرنا. وعلى العكس، لم نعد نسمع فى تكوين الجند الفاطمى عن العناصر السابقة من المغاربة البربر، والمشاركة الترك والديلم، فالأولى قد أهدت من صفوفه منذ ثورة أبى ركوته المغربى فى عصر الحاكم، وانفصال المغرب عن طاعة الفاطميين فى عهد المستنصر، أما المشاركة وهم الترك والديلم فإنهم أهدوا منذ مجىء الترك السلاجقة الشام، ولم يعد للفاطميين فىهم ثقة، أما الأرمن الذين زادوا منذ أيام بدر، وكثروا فى وزارة بهرام، فلم نعد نسمع عنهم بين طوائف الجيش الفاطمى.

وفد بدأ صلاح الدين بطائفة السودانين، الذين كانوا يكونون غالبية الجيش الفاطمى فى آخر أيامه، ولا يعترفون إلا بالخلافة الفاطمية، وبلغ عددهم أيام العاضد خمسين ألفاً، وكانوا يقيمون فى حارات كثيرة بظاهر القاهرة، حيث عرفت لهم طوائف قوية، مثل: الفرحية والريحانية والميمونية والحسينية والمنصورية. وكان السودانين قوة وشوكة فى وقت العاضد، ويقول المقرئى إنهم سيطروا على الجيش والدولة والقصر، وإذا ثاروا على وزير قتلوه^(١). لذلك تحرشوا بصلاح الدين بعد قتل مؤتمن الخلافة وثورة حرس القصر وأغلبهم من السود مثلهم، فأرسل صلاح الدين نحوهم أخاه الأكبر توران شاه -بمعنى ملك الشرق- على رأس الترك لقتالهم. ومع أن السودان كانوا يتغلبون على الترك، إلا أنهم انهزموا لما أجبر صلاح الدين الخليفة على تخذيلهم^(٢)، وأحرق حاراتهم بما فيها مساكنهم ونساقهم وصبيانهم؛ فانهزموا إلى الصعيد، وعرفت الواقعة بواقعة السودان أو العبيد، وذلك فى سنة ١١٦٨/٥٦٤.

وفوق ذلك، استبد صلاح الدين بقواد الجيش الفاطمى «الأمراء المصريين»، مع أنه فى أول الأمر بذل لهم المال فأحبوه وأطاعوه^(٣)؛ وكان عمه قبله لم يغير على أحد شيئاً^(٤)، فعمل على إنقاص إقطاعهم^(٥)، ثم قبض عليهم فى ليلة واحدة. وأنزل أصحابه فى دورهم، وفرق إقطاعاتهم عليهم^(٦). ويقول المقرئى، منذ

(١) نفسه، ٢ ص ٢٩ س ٢٢.

(٢) نفسه، ٣ ص ٣ وما بعدها؛ الحنبلى، ورقة ١٢. عن توران شاه؛ وفيات؛ ١ ص ١٧٥-١٧٧.

(٣) النجوم، ٥ ص ٣٥٥ س ٦-٥.

(٤) الروضتين، ١ ص ١٧٢.

(٥) الحنبلى، ورقة ١٩.

(٦) الخطط، ٢ ص ١٧٥ س ٢١-٢٢، ٣ ص ٢٧٩ س ١.

كانت أيام صلاح الدين إلى يومنا؛ فإن أراضى مصر كلها كانت تقطع للسلطان وأمراؤه وأجناده^(١)؛ إذ كان معظم من جاء معه من التركمان - وهم الترك - والكرد^(٢). وكان الرجل منهم إذا استحسّن داراً أخرج سكانها ونزل فيها، بحيث أن معظم أهل القاهرة كانوا يبيكون من الاستبداد^(٣).

ولما تم له إضعاف جانب الخلافة الفاطمية وهدم دعوتها، لم يتردد في إلغائها من مصر في أول جمعة من محرم سنة ١٠/٥٦٧ سبتمبر ١١٧١، وإرجاع الخطبة للخليفة العباسي السنّي المستنصر؛ بأمر الله، الذي تولى بعد أبيه المستنجد بالله المتوفى سنة ١١٧٠/٥٦٦، وذلك بعد أن كانت الخطبة العباسية قطعت من مصر منذ مائتي سنة. وقد قيل في ظروف هذا الإلغاء عدة روايات منها؛ إن صلاح الدين لما خطب لبني العباس، اغتم الخليفة العاضد ومات، أو أنه كان في يده خاتم فيه سم فمصه ومات، كما قيل إن الطبيب الذي كان يعالجه لما رأى رغبة صلاح الدين في عزله، امتنع عن مداواته^(٤)، أو أن توران شاه أخو صلاح الدين، هو الذي قتله بنفسه على حسب مصادر الفرنجة^(٥). وقد حاول صلاح الدين إبعاد الشبهة عن نفسه فأدخل الشهود والأعيان، قرأوه وقلبوه، فلم يروا به أثر قتل، كما سار في جنازته راجلاً مشقوق العباء، وقد لبس الهياض^(٦)، ويلاحظ المؤرخون أن العاضد في اللغة هو القاطع^(٧)، فعملاً قطعت بالعاضد خلافة الفاطميين، وأن وفاته كانت في عاشوراء يوم ذكرى مقتل الحسين، وهو يوم نوح وبكاء عند الشيعة.

وبعد هذا الإلغاء استولى صلاح الدين على الكنوز التي كان خلفاء الفاطميين قد كدسوها منذ مجيئهم مصر في الخزائن والحواصل، عبارة عن قاعات كبيرة بداخل قصورهم وخارجها، وتتمثل فيما جمعه منها في جميع بقاع الدنيا، وفيما صنعوه في مصر مما لم يكن له مثيل من قبل في أي بلاط آخر. حيث

(١) نفسه، ١ ص ١٥٦ س ٢٢ .

(٢) الروستين، ١ ص ١٧، ١٧٣، ١٧٨؛ انظر. Gibb .

The armies of Saladin. Cahiers d'histoire égyptienne. Serie. III. Fasc. 4 Mai 1951, P. 304 .

(٣) الخطط، ٢ ص ١٧٥ س ٢٢ .

(٤) النجوم، ٥ ص ٢٣٤-٢٣٥؛ انظر.

Ency de l'IsI, (art.al-Adid) 2 éd, t I, P. 203-204.

(٥) ورد ذلك في : Ency, t4, P. 88 .

(٦) ابن حماد، ص ٧٣ .

(٧) نفسه، ص ٦٢، حسن المحاضرة، ٢ ص ١٧ .

سبق أن ذكرنا أمثلة لها، وقد استمر بيع الكنوز، التي قدر قراقوش بنفسه اثمانها، أكثر من عشر سنين، كما أهدى صلاح الدين بعضها لمن حوله وبخاصة لنور الدين^(١). أما الكتب بالقصر الفاطمي الكبير، وكانت كثيرة فإن صلاح الدين كان يهيم التخلص منها لاحتوائها على كتب الشيعة وعقائدهم، فحدد لبيعها في كل أسبوع يومين^(٢)، وأعطى كثيراً منها للقاضي الفاضل^(٣) (ت ٥٩٦/١١٠٠)، الذي كان قد عمل في الدواوين الفاطمية أيام رزيق بن طلائع وشاور، ولما جاء شيركه عينه رئيساً لديوان الإنشاء بدلاً من رئيسها السابق يوسف بن الخلال، وأصبح ذراع صلاح الدين اليمنى ووزيره فيما بعد. أما الأملاك والأراضي؛ فإنها وزعت على أقرباء صلاح الدين، وأفراد أسرته الكثيرين، الذين استدعاهم من الشام، فأعطى؛ أيوباً إقطاع الفيوم^(٤)، وتوران شاه قوص وأسوان وعيذاب، وذلك بعد هزيمته للسودان^(٥). وقد أغلق القصور أو ملكها أمراءه، ومنح أباه إحداهما.

أما سكان القصور الفاطمية، فإن قراقوش أخرج منهم على حسب قول المقرئى عشرة آلاف شريف وشريفة- أى من العلويين- ومن الخدم ثمانية آلاف بين خادم وأمة مولدة أو أكثر؛ فأعنت صلاح الدين بعضهم وأهدى أو باع الآخر^(٦). أما أولاد العاضد وأقرباؤه- وكانوا أكثر من مائة وثلاثين غير الأطفال- فإنهم اعتقلوا وفرق الرجال من النساء لئلا يتناسلوا، واستمروا، معتقلين طول زمن الدولة الأيوبية، ومجرى المماليك^(٧). وقد كانت تصرفات قراقوش الجائرة نحو سكان القصور الفاطمية سبباً في سخرية المؤلفين منه، حتى أن أحدهم من المصريين ألف كتاباً عنه سماه: الفاشوش- أى الغباوة- في أحكام قراقوش، نكر

(١) الخطط، ٢ ص ٣٩٤ وما بعدها؛ المحتلى، ورقة ٢٠.

(٢) الروضتين، ١ ص ٢٦٧؛ الخطط، ٢ ص ٢٥٥.

(٣) النجوم، ٥ ص ٣٣٦. عن القاضي الفاضل؛ وفيات، ١ ص ٥٠٩-٥١٢؛ انظر.

، Beitrage, P. 34. : Bjokmann

Ency de l'Isi, (art. al-Kâdî al-Fâdil) t2, P. 646-647.

(٤) وفيات؛ ١ ص ١٥١.

(٥) الخطط، ٣ ص ٥٩ س ٢٠-٢١.

(٦) نفسه، ٢ ص ٣٩٦ س ٨؛ ابن واصل، ١ ص ٣.

(٧) الخطط، ٢ ص ٢١٦، ٣٩٤، ٣٩٦.

فيه أشياء يبعد وقوعها منه، والظاهر أنها موضوعة للنيل منه^(١)، كما لعل القراقوز تحريف لاسمه، وهو اللعبة التي بقيت إلى وقتنا لتضحك الناس في مصر، بل وفي العالم أجمع .

*

وقد ترتب على إنهاء صلاح الدين الخلافة الفاطمية رنة فرح كبيرة بين السنيين، الذين وصفوها بدولة الرافضة^(٢)، أي التي رفضت الدين الإسلامي وخرجت عليه. وقد كانت الخلافة العباسية السنية تتطلع إلى أن يزيل نور الدين الدولة الفاطمية، حتى أن الخليفة المقتدى لأمر الله بعث بتقليدها إليه حينما قتل الظاهر بمصر^(٣)، وإن كان سقوطها على يد صلاح الدين تم في أيام حفيده المستضيء بأمر الله^(٤). وقد بعث صلاح الدين ببشارة الإلغاء إلى نور الدين، فبعث هذا الأخير رسولاً بكتاب تهنئة خاص للمستضيء، ومعه منشور الإلغاء الذي قرئ في سائر المدن والقري إلى أن وصل إلى بغداد^(٥)، كما أرسل صلاح الدين للمستضيء بكتاب من خط القاضي الفاضل وإنشائه^(٦) فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وأقيمت الاحتفالات لاستقبال نور الدين، وقراءة المنشور. وقد أسرع الخليفة المستضيء بإرسال الخلع من ملابس وغيرها لنور الدين، ومثلها أقل في العدد والقيمة لصلاح الدين لأنه نائب لنور الدين، وكلها سوداء شعار العباسيين، بدلا من البياض شعار الفاطميين.

وفي مصر احتفل صلاح الدين رسمياً بوصول خلعة الخليفة العباسي إليه، فلبسها وشق بها حارات القاهرة، وفي صلاة الجمعة التالية للإلغاء نصبت على المنابر في مصر والقاهرة الأعلام السوداء، ولبس الخطباء ثياباً سوداء أرسل بها من بغداد^(٧)، وأجبر على الحضور رجال الدولة وأعيان المصريين، وهدد من تأخر

(١) وفيات، ٢ ص ١٨٢. ينسب تأليفه إلى ابن ممان.

(٢) النجوم، ٥ ص ٣٥٧ س ١٢.

(٣) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٧.

(٤) الفخرى، ص ٤٢٥؛ انظر.

Ency de l'IsI, (art. al-Mustadfi) t3, P. 811.

(٥) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٩؛ السلوك، ١/١ ص ٤٤ وما بعدها.

(٦) الحنبلي، ورقة ٢٠-٢١.

(٧) سنا البرق، ص ٦١

منهم بالعقاب فحضر من لا يريد الحضور^(١)، وأصبح يخطب^(٢) لصالح الدين على منابر مصر، بعد الخليفة العباسي ونور الدين. كذلك قررت العملة باسم المستنصر؛ بأمر الله، وباسم الملك العادل نور الدين فنقش اسم كل منهما في وجهه^(٣).

أما حقيقة موقف المصريين من إنهاء الخلافة الفاطمية، فقد كان له وقع المأسى؛ بحيث أن ابن تغرى بردى يقول: إن نفوس المصريين كادت تزهر لانتهاج دولة الفاطميين. ولا ريب، فهذه الخلافة الفاطمية، كان قد أحبها المصريون؛ لأنها جعلت من مصر دولة مستقلة استقلالاً تاماً، لا يحكمها ولاية معينون من بغداد أو دمشق أو المدينة كما كان الحال من قبل، ولكن خلفاء من بيت النبي يتنافسون الخلفاء العباسيين في العراق، فنهبوا بذلك إلى مركز مصر في دار الإسلام، ولم ينس المصريون أن الفاطميين جاءوا للجهاد، وأنهم قاموا بدور هام في الدفاع عن الإسلام بصد البيزنطيين اليونان، الذين كانوا بدأوا الحروب الصليبية، ووصلوا إلى قرب القدس وحدود مصر، قبل مجئ الفرنجة بالشام. كذلك كانت الخلافة الفاطمية تعتمد في دواوينها على المصريين، سواء أكانوا من المسلمين أم القبط، الذين تولوا أعلى مناصبها بما فيها الوزارة. وأخيراً؛ فإن الخلافة الفاطمية في مصر، كانت أعياداً متواصلة؛ مما لم يعرف له مثيل من قبل، ليس فقط للمسلمين من أهلها وإنما أيضاً للقبط؛ بحيث إنها في أعياد القبط كانت تطلق المأكولات والملابس والأموال للموظفين القبط والمسلمين ليكون الابتهاج عاماً، وإنما كانت تقوم بسك بنانير خاصة بها، كما كانت تفعل في أعياد المسلمين^(٤). لذلك اعتبرها المصريون دولتهم، حتى إن معظم المؤرخين أجمعوا على تسميتها؛ دولة المصريين^(٥).

(١) السلوك، ١/١ ص ٤٧.

(٢) النجوم، ٥ ص ٣٥٧ ص ٢.

(٣) السلوك، ١/١ ص ٤٥.

(٤) عن أعيادها؛ نظم الفاطميين، ٢ ص ١٣١-١٣٦؛ وقبله.

(٥) الروضيتين، ١ ص ٢٢٠.

ومن ناحية أخرى، كان سقوط الخلافة الفاطمية يعنى عندهم أن مركز بلادهم قد ضعف بعودتها؛ ولاية تابعة لخلافة العباسيين، وأنهم خضعوا لجنس أجنبي عنهم وهو الغزّ (أى الترك)؛ بحيث إن ابن جبير الرحالة الذى زار مصر عدة مرات أيام صلاح الدين؛ لاحظ أنه بإنهاء خلافة الفاطميين تملك الغزّ ديار مصر^(١)، كما ألف ابن الجوزى المؤرخ العراقى المتعصب (ت ٥٩٧/١٢٠٠)، كتاباً سماه: «النصر على مصر»^(٢). وكان سقوط مصر يعنى أيضاً الخضوع لصلاح الدين الكردى المستبد، الذى استبعد فى وزارته رجال مصر^(٣)، وأخرجهم من الوظائف والجيش وأنزل رجاله فى بيوتهم، وهم أيضاً باخراج القبط من الدواوين، لولا خوفه من توقف دولاب الأعمال^(٤). كذلك قدروا أن عصر الرخاء قد زال بزوال الفاطميين؛ لأن أموال مصر وخيراتها تخرج للترك الغرباء فى مصر والشام، وأحسوا باختفاء العملة الذهبية والفضية من التداول منذ مجئ صلاح الدين، وظهرت بدلها عملة رديئة هى الفلوس وهى من نحاس أو نحاس مخلوط بفضة، فكان العثور على دينار ذهب «أحمر» أشبه ببشارة من الجنة؛ مع أن الفلوس كانت تعتبر زمن الفاطميين عملة غير قانونية^(٥).

لذلك نجد المصريين يقومون ضد صلاح الدين بثورات؛ بقصد التخلص من استبداده واحتلال الترك لبلادهم وأخذهم خيراتها، وإعادة الخلافة العلوية المصرية. ويحس صلاح الدين بعداء المصريين له ورغبتهم فى التخلص منه؛ فيذكر فى مراسلاته لنور الدين، أن أهل مصر وجنداء أعداء^(٦). وقد قاموا بثورات عارمة بجميع طبقاتهم ودياناتهم، استمرت عدة سنوات، وشملت معظم

(١) رحلة، ص ٥٣، عته؛ انظر.

Ency de l'Isi, (art. Ibn Djubair) t2, 296.

زار مصر بين ٥٨٥-٥٨٧/١١٨٩-١١٩١ و١٢١٧/٦١٤، وتولى بالإسكندرية.

(٢) حسن المحاضرة، ٢س ١٩، عته؛ انظر.

Ency. ' de l'Isi, (art. Ibn al- Djawzi) t2, P. 394-5.

(٣) السلوك، ١/١، ص ٤٣ من ١٣-١٤.

(٤) نفسه، ١/١، ص ٤٧-٤٨.

(٥) نفسه ١/١، ص ٤٦-٤٧. فلوس جمع فلس، كلمة من أصل يونانى أو لاتينى. انظر.

أنستاس مارى، النقود العربية، القاهرة ١٩٣٩، ص ٦٠، ٦٥، ٦٧؛ نظم الفاطميين، ص ١٣٧ هامش (٣).

(٦) ابن واصل، ١، ص ٢٤٨

مدن مصر من الإسكندرية إلى حدود النوبة. ونحن لا نقبل ما روجه مؤرخو السنة من أن ثورات المصريين، كانت بالإتفاق مع الصليبيين رغبة في تشويه أهدافها. حقاً إن الصليبيين جاءوا لمهاجمة مصر في الوقت الذي قامت فيه هذه الثورات؛ لأنهم كانوا يتربصون بها منذ أن استقروا بالشام، وينتهبون فرصة اضطراب أحوالها للحصول على مغانم. ففى رأينا أن ثورات المصريين ضد صلاح الدين نبعت من باعث وطنى ضد الاحتلال التركى، ومن الكبرياء لاستبداده بهم، خصوصاً وقد رأيناهم من قبل يثورون بشاور لاستعانتة بالأجنبي سواء أكان من الصليبيين أم الترك. وحتى بعد أن تولى صلاح الدين الوزارة، وأرسل الفرنجة والبيزنطيون حملة إلى دمياط فى ٥٦٥ / ١١٦٩^(١)، تقديراً منهم لخطر التحالف بين مصر والشام؛ فإن أهل مصر بمن فيهم الخليفة العاضد الفاطمى عاونوا على صد هذه الحملة وانسحابها، حتى نوه صلاح الدين بهذه المعاونة. وبذلك تعتبر ثورات المصريين دليلاً جديداً يناقض فرية المؤرخ السيوطى، فى أن أهل مصر كانوا عبيداً لمن غلبه^(٢).

ولعل أكبر المحاولات لإعادة الخلافة الفاطمية، هى التى اشترك فيها جمع كبير من المصريين بما فيهم القاضى والداعى والكاتب والأمير وأستاذ القصر، والعوام من الشعب، وأهل ثلاث ديانات من المسلمين والنصارى واليهود، وحتى السودانىين. وذلك فى سنة ٥٦٩ / ١١٧٣^(٣). وكان على رأس هذه المؤامرة شخصيات من كبار رجال الدولة السابقة، مثل ابن عهد القوى المعروف بالجلس، الذى كان أفراد أسرته يتولون رئاسة الدعوة الفاطمية والإشراف على مكتبة القصر أباً عن جد^(٤)، والموريس المشرف على مالية الفاطميين ومتولى ديوان

(١) نفسه؛ الخطط، ١ ص ٣٤٦ - ٣٤٧، ١ ص ١٨١؛ انظر. حسن حبشى، نور الدين والصليبيون، ص ١٣٢ - ١٣٦ .

(٢) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٧٨ س ٢٢ .

(٣) الروضتين، ١ ص ٢١٩ وما بعدها؛ ابن واصل، ١ ص ٢٤٣ وما بعدها، الكامل، ٩ ص ١٢٣ - ١٢٤؛ النجوم ٦ ص ٧٠ - ٧١؛ السلوك ١/١ ص ٥٣ - ٤٤؛ انظر .

. Les Derniers Fatimides, P. 415 - 445. , Casanova

(٤) عنهم؛ الخطط، ٢ ص ٢٢٦ - س ١٩ .

النظر، وابن كامل القاضي، والقشة أحد أمراء المصريين (أى قوادهم)، والشاعر الفقيه عمارة اليمنى^(١)، الذى كان من أنصار الفاطميين، وجاء مصر فى عهد الفائز، واستمر يمدحهم ويرثيهم حتى بعد زوال خلافتهم، والواعظ على بن نجا. وكانوا قد اختلفوا على أن يكون خليفتهم رجلاً كبير السن من بنى عم العاضد أى من نسل جبريل أو من أولاد العاضد نفسه؛ حيث يذكر المقرئى أن العاضد ترك أحد عشر ولداً^(٢)، ثم اتفقوا على تولية ابن العاضد الأكبر ولقبوه بالحامد لله، ووزعوا فيما بينهم المناصب، ويذكر المؤرخون وأكثرهم من السنة انصار صلاح الدين -أنهم دبروا هذه المؤامرة بعد مراسلات مع الفرنجة فى صقلية والشام (الساحل)، وحتى مع صاحب الدعوة الإسماعيلية فى شمال الشام رشيد الدين سنان بن سليمان، ويلقب بشيخ الجبل، وكان أبوه من كبار دعاة الحسن ابن الصباح ببلاد الألمات بفارس -بمعنى عش النسر- وجاء إلى الشام فى أيام نور الدين. ودعا للشيعة الإسماعيلية، وأصبح كبيرها، واستولى على قلاع كثيرة من السلاجقة، وكان تحت يده الفداوية وهم المخلصون من أتباعه، الذين يقتلون بإشارة منه، فإمر أحدهم بالتردى من شاهقة جبل فيتردى، ويستعجل فى مرضاته الردى؛ كما يقول ابن جبير الرحالة^(٣)، وأصبحت بلاده تعرف ببلاد الإسماعيلية^(٤). فكتبوا إليه ليرسل أحد رجاله لتدبير مكيدة لاغتيال صلاح الدين، وقالوا له: إن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأنه ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة، ولا يجب به القعود عن نصرة^(٥). وأخذ عمارة اليمنى أحد المشتركين فى المؤامرة فى مدح توران شاه، وأغراه بالذهاب إلى اليمن - وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين - بغية إبعاده لأنه عرف بقوة شكيمة؛ كما أنهم استطاعوا استمالة بعض القواد الترك الذين كانوا مع صلاح الدين. ولكن خبر المؤامرة وصل إلى علم صلاح الدين على يد أحد أعوانه وهو ابن نجا الذى دسه بينهم^(٦).

(١) عنه: وفيات، ٢ ص ٨٦ - ٨٩.

(٢) الخطط، ٢ ص ٣٩٥، يقول أبو شامة إنه كان له ولدان. الروضتين، ١ ص ٢٢١.

(٣) رحلة، ص ٢٤٣

(٤) النجوم، ٦ ص ١١٧، الروضتين، ١ ص ٢٦٢؛ انظر.

Ency de Isl, (art. Ismâ'ilya) t2, P. 586;

Les Derniers Fatimides, 419 sqq. : Casanova

(٥) الروضتين، ١ ص ٢٢١.

(٦) قيل أيضاً ابن مصال، نفسه، ١ ص ٢٢٠ س ٦.

فاحتاط على ولد العاضد وسجنه، وأحضر التأميرين واعترفوا له، وأجبر فقهاء مصر على الإفتاء بقتلهم، فشنقهم وصلبهم في ميدان بين القصرين، وهو أكبر الميادين بالقاهرة، كذلك قبض على كل من له يد في المؤامرة من بعيد أو قريب فشنق كثيراً من رجال الحاشية وأجناد الفاطميين السابقين، وقتل بعض قواده «أمراء»، الذين استطاع المصريون استعمالهم، ولم يمكن لورثتهم في شيء. ثم تتبع أنصار الخلافة الفاطمية بالقتل والسجن، حتى أنه قبض أيضاً على من ثار من دعواتهم بالإسكندرية، وجمع كثيراً من السودانيين وكواهم بالنار في صدروهم وجوهم^(١). وعلاوة على ذلك أمر كافة الأجناد المصرية والسودانية وحاشية القصر بالرحيل إلى أقصى الصعيد بقصد نفيهم؛ بحيث لم يبق من العساكر الفاطمية بالقاهرة أحد^(٢)؛ كما قطع أرزاق الموظفين وصادر أملاكهم، ومنهم القاضي والداعي والموظف والأمير^(٣)، فأصبحت الدولة كلها بين يديه، ويدي الكرد والترك من جنده.

هذه الثورة التي أطفئت في العاصمة، ما لبثت أن اشتعلت من جديد في الصعيد وهدفها أيضاً إعادة الخلافة الفاطمية، وذلك في سنة ١١٧٤/٥٧٠^(٤)، ونقصد بها الثورة التي قام بها شخص يلقب بكنز الدولة أو الكنز^(٥)، وهو مصري من أهل الصعيد، كان من قواد الفاطميين «مقدماتاً»، وواليا على أسوان، ولا سيما أنه كانت في هذا الثغر حامية من العسكر مستعدة بالأسلحة؛ إذ كان من عادة الفاطميين إنزال العسكر في مراكز الحدود (الثغور)^(٦). واختلف بعض المصادر في أصله، فقول إن كنز الدولة من السودان؛ إلا أن المقرئ يقطع بصحة مصريته، حينما ينقل إلينا أنه خرج لقتال عبيد النوبة، الذين هاجموا القرى المتاخمة لثغر أسوان، بالاشتراك مع عسكر صلاح الدين؛ فقاتلهم وهزمهم سنة

(١) السلوك ١/١ ص ٧٤ .

(٢) وفيات، ٣ ص ٤٨٢ .

(٣) الروضتين، ١ ص ٢٢٠-٢٢١ .

(٤) أبو الفداء، المختصر، ٢ ص ٥٦؛ وفيات، ٣ ص ٤٩٠؛ السلوك ١/١ ص ٥٧-٥٨؛ النجوم،

٦ ص ٧٨؛ الحنبلي، ورقة ٢٢ .

(٥) بسميه ابن شداد (الكندي). سيرة، ص ٢٧. بنو كنز هم من ربيعة قدموا مصر في عهد خلافة المتوكل العباسي حوالي سنة ٨٥٤/٦٤٠، ونزلوا بأعلى الصعيد، وهم الذين ظفروا بأبي ركوه، والحاكم هو الذي لُقّب أبا المكارم هبة الله بكنز الدولة، ولم تنزل الإمارة فيهم، حتى قضى عليهم صلاح الدين. المقرئ، البيان، ص ٢٧ وما بعدها.

(٦) الخطط، ١ ص ٢٢١. عن أسوان؛ انظر. معجم للبلدان، ١ ص ٢٤٨-٢٤٩ .

١١٧٢/٥٦٨؛ كما أرسل صلاح الدين بعدها جيشاً بقيادة أخيه توران شاه إلى بلاد النوبة لتأديب أهلها، وإن لم يستطع أن يقوم بشئ هام، إذ كانت النوبة لا تزال دولة مسيحية مستقلة لم يفتحها المسلمون^(١). وقد اشترك معه في هذه الثورة عباس بن شادي والى قُوص^(٢)، وهي المدينة الكبيرة الواقعة شرقي النيل وسط الصعيد واعتبرت قصبته، ومحط التجارة والحجاج؛ بسبب أن الصليبيين كانوا يسيطرون في الشام. وقد جمعا حولهما عدداً كبيراً لم نسمع بمثله من قبل، بلغ مائة ألف من أهل الصعيد الأتقياء، والجنود الكثيرين من المصريين والسودانيين، الذين كان صلاح الدين قد نفاهم إلى الصعيد. وقد قدر صلاح الدين خطورة ثورة الصعيد عليه؛ حتى أنه فكر في الذهاب بنفسه لإخمادها، ولكن خوفه من تجدد الثورات بالقاهرة؛ جعله يرسل أخاه العادل أبا بكر، الذي استطاع أن يهزمهم، ويقتل كنزاً وثمانين ألفاً من المصريين؛ كما نهب بلاد الصعيد عقاباً لها، وأخذ أسرى كثيرين من أهلها، صلب منهم ثلاثة آلاف؛ مما دعا إلى فرار عدد كبير من المصريين إلى بلاد النوبة^(٣).

ولكن عادت الثورات إلى الصعيد حينما اندلعت من جديد بمدينة قفط^(٤) وسط الصعيد قرب قُوص سنة ١١٧٦/٥٧٢، إذ كانت هذه المدينة منذ أيام خلافة علي بن أبي طالب وقيلاً على العلويين. فقد ظهر فيها أحد الدعاة السابقين من بني عبد القوي الذي استطاع أن يجمع حوله عدداً كبيراً من أهلها بقصد إعادة الخلافة الفاطمية. فأرسل صلاح الدين نحوه جيشاً بقيادة أخيه العادل، الذي قتل منهم نحو ثلاثة آلاف، وصلبهم بعمائمهم وطياستهم على شجر المدينة ليكونوا عظة لمن تحدته نفسه بالدعوة للفاطميين.

ومع ذلك؛ فإن ثورات الشيعة لإرجاع الخلافة الفاطمية لم تنته من مصر، حتى بعد استقرار حكم صلاح الدين فيها؛ نتيجة لقضائه على كل مقاومة ضد حكمه. ففي سنة ١١٨١/٥٧٧^(٥)، قام بالصعيد رجلان من أهل إسنا يدعوان

(١) السلوك، ١/١ ص ٥٠-٥١. يقول أبو شامة. السودان. الروضتين، ٩ ص ٢٠٨.

(٢) عنها؛ معجم البلدان، ٧ ص ١٨٢، وقبله.

(٣) الحنبلي، ورقة ٢٢.

(٤) الخطط، ١ ص ٢٧٦. عن قفط؛ معجم البلدان، ٧ ص ١٢٨-١٢٩.

(٥) السلوك، ١/١ ص ٧٦.

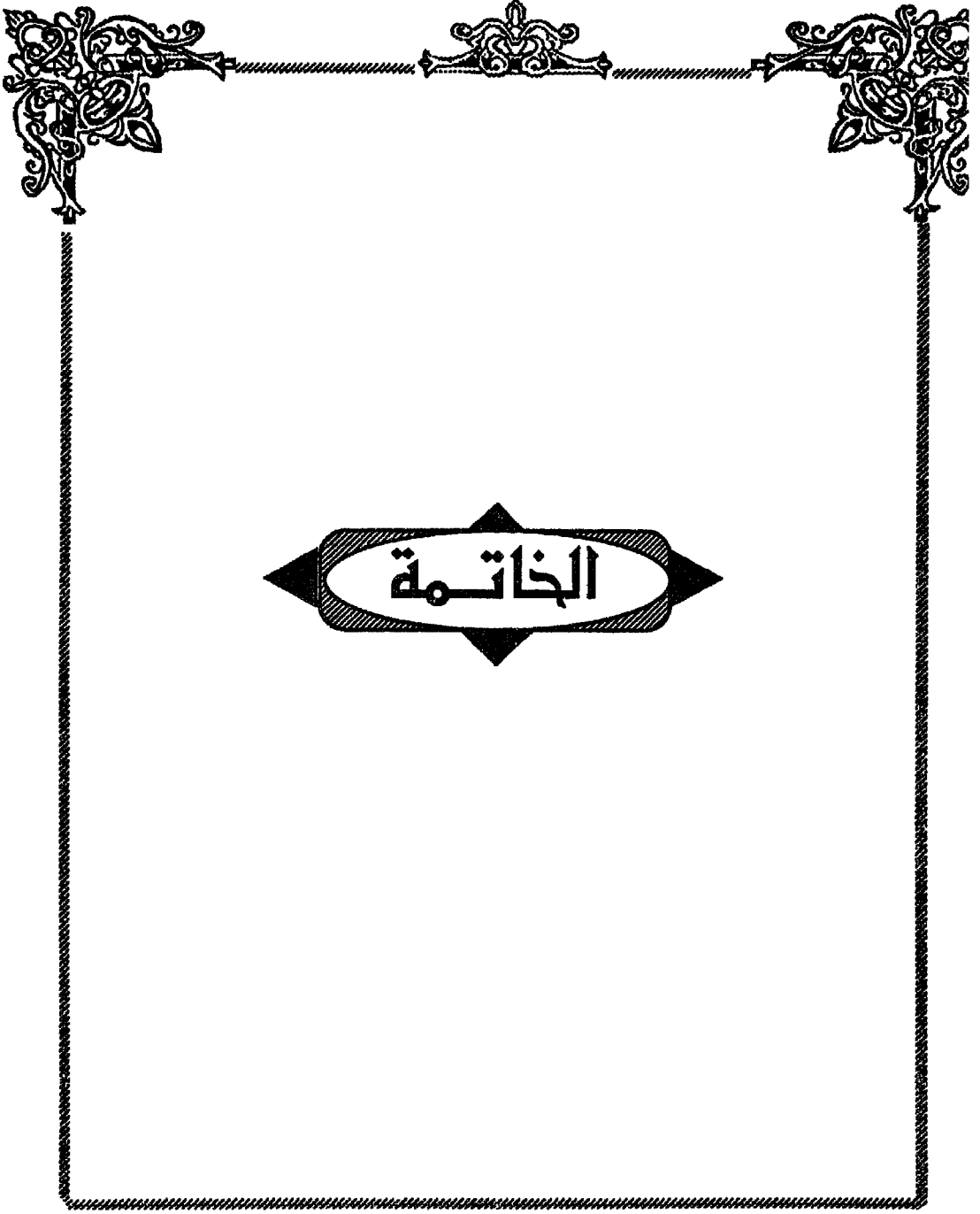
للفاطميين. وفي سنة ٥٨٤/١١٨٨^(١)، ثار بعض الشيعة ونادوا بشعار العلويين في شوارعها، وهتفوا: «يَا عَلِيَّ يَا عَلِيَّ»، ظناً منهم أن أهل القاهرة يلبون دعوتهم، ويخرجون العلويين المعتقلين. ولكن أهل مصر لم يهتموا بهم، فأخذوا بسهولة. والواقع إن أهل مصر، لم يعودوا يهتمون بعودة الفاطميين، بقدر اهتمامهم بصالح الإسلام، الذي أصبح مهدداً بشدة من قبل الصليبيين، وخصوصاً أن همة المسلمين جميعاً أصبحت متجهة إلى تكريس كل جهد لحربهم.

وعلى العكس؛ فإن صلاح الدين، الذي كان قد انتقل إلى الشام لحرب الصليبيين، ووجد مقاومة من جانب الإسماعيلية، التي كانت تنقم عليه قضاءه على الخلافة الفاطمية، حتى أنها حرّضت على اغتياله عن طريق الفداوية^(٢)؛ مما اضطره إلى محاربتها. والواقع أن الشيعة في الشام في أيام صلاح الدين بقيت محافظة على مذهبها ولا تزال حتى وقتنا الحاضر، وهي فرق متعددة، مثل: الدرزية والإسماعيلية والنصيرية، وهذه الأخيرة تعتبر من أعدى أعداء الإسماعيلية^(٣).

(١) الكامل، ٦ من ١٩٧.

(٢) الروضتين، ١ من ٢٢٨-٢٢٩؛ الكامل، ٩ من ١٢٢؛ انظر. ماجد، صلاح الدين، ص ١١٤، ١١٧.

(٣) ابن جبير، رحلة، ص ٢٦٨؛ انظر. Frag. P3, n(1): Guyard.



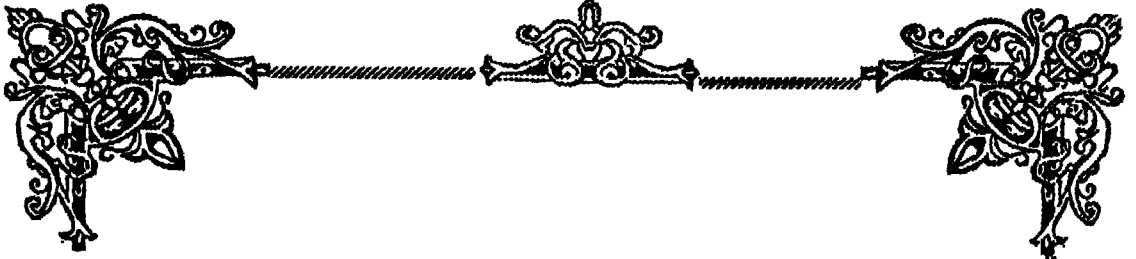
الخاتمة

إن تاريخ الخلافة الفاطمية في مصر كان غامضاً إلى عهد قريب جداً. فقد كانت معظم مصادره التاريخية ، لا تستقى من منابعها، أو أنها غير موجودة، أو مزيفة ، أو مضطربة، أو جافة، أو مختصرة، فضلاً عن أن معظمها مصادر أدبية، لا تعطى فكرة صحيحة عنهم. ولكن بفضل ما حصلنا عليه من وثائق أو مخطوطات مكتوبة بأقلام معاصرة، تمكننا من أن نُكوّن تاريخاً صحيحاً للفاطميين في مصر.

فهذه الدولة الفاطمية أثارت انتباه المؤرخين المحدثين بحيويتها المتدفقة، التي أوجدتها في جسم الإسلام، الذي كان قد شاخ على يد الدولة العباسية. فتاريخها منذ انتقالها إلى مصر؛ أشبه بملاحمة كبرى، دعوة إلى وحدة العرب في المشرق والمغرب، جهاد بضراوة ضد أعداء الإسلام، نشر الحضارة الإسلامية على نطاق واسع، نشر الدعوة الشيعية أو الدين الصحيح في رأياها، مجاعات ضارية، انقلابات متعددة، ثم سقوط مؤثر.

ثم إن هذه الدولة اعتبرت في وقتها دولة عظمى بكل مقاييس الدولة العظمى؛ فقد كانت تمتلك قوة عسكرية ضارية ، ظهرت تجلياتها في انتصاراتها الحربية الكثيرة؛ حيث اعتمدت في أول الأمر على طوائف مختلفة من العسكر مثلما كانت غالب الجيوش الإسلامية الأخرى؛ إلا أنها منذ مجيئها إلى مصر اعتمدت على المصريين أيضاً؛ فاستخدموهم فيما عرف بالحجيرة الكبار والصفار، وفي آخر أيام دولتهم في مصر تلاشت جميع الطوائف من جيشهم، ولا تسمع إلا عن العسكر المصري، وإن وجد بجانبهم السودانيون؛ بحكم أن السودان ملازم لمصر دائماً، كذلك هي دولة عظمى باعتمادها على الاقتصاد المزدهر، فاشرفت وحدها على تجارة البهار الهامة وما تدره من أرباح هائلة. مسيطرة على سواحل مصر في البحرين الأبيض والأحمر، وسواحل أقاليم الجزيرة العربية في الحجاز واليمن، والخليج . وأخيراً فهي دولة عظمى بامتلاكها النموذج الحضاري المتميز، الذي أسهم بإبداع في النهوض بالمعرفة الإنسانية، ولا سيما الإسلامية، مما أبرز حلقة هامة من نهضات المسلمين.

ولا مرأء؛ فإن مصر قبل أى بلد آخر، بمركزها الإستراتيجى بين القارات، كقاعدة لخلافتهم، تعودت على أن تحرك السياسة، وتندش الحضارة؛ خلقت للفاطميين هذا التاريخ المملوء بالنبض. ولكن الفاطميين بمجيئهم مصر، واتخاذها قاعدة لهم، عملوا أيضاً على إبراز أهمية دور مصر فى الإسلام، وهو الدور المتميز، الذى لا تزال تلعبه فى الإسلام.



الجدول

١- المصاحف

١- المخطوطات

إدريس عماد الدين (ابن الحسن ١٤٦٨/٧٨٢)، عيون الأخبار، مخطوط مصور
بعضه بمكتبتي الخاصة، عن مخطوط الهمداني الخاص.

الأزدري (علي بن ظافر، ت ١٢٢٣/١٢٢٦)، الدول المنقطعة، صورة شمسية
بدار الكتب بالقاهرة برقم ٨٩٠ تاريخ.

جعفر بن منصور اليماني (نحو القرن الرابع الهجري)؛ كتاب أسرار النطقاء،
نسخة خطية بمكتبة كامل حسين.

ابن الجوزي (أبو الفرج ١٢٠١/٥٩٧)، عجائب البدائع، مخطوط بالمكتبة
الأهلية (B.N.) برقم ١٥٦٧.

ابن الجوزي (أبو المظفر، ١٢٥٧/٦٥٤)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان،
مخطوط بدار الكتب، الجزء الحادي عشر والثاني عشر، برقم
٥٥١ تاريخ.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين، ت ١٤٤٩/٨٥٣)، رفع الإصر عن قضاة
مصر، مخطوط بدار الكتب، برقم ١٠٥ تاريخ (وفي آخر كتاب
الكندى: الولاية والقضاة).

الذهبي (شمس الدين، ت ١٣٤٨/٧٤٨)، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير
والأعلام، مجلدات ٢٢-٢٤، مخطوط بدار الكتب، برقم ٤٢.

رسائل الحاكم بأمر الله، كتبها دعاء الفاطميين، ولا سيما حمزة بن علي، وهي
مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم: ٢٠ و ٣٥ و ٣٧ و ٣٩ و ٥٤
و ١٣٢ و ١٣٨ عقائد النحل؛ وبالمكتبة الأهلية (B.N.)، برقم:
٦١٢١ و ٦٧٤٦ و ٦٧٤٧ و ٧٦٥١ و ٦٧٥٢.

ابن زولاق (أبو محمد، ت ٩٩٧/٣٨٧)؛ كتاب فضائل مصر وأخبارها
وخواصها، مخطوط بدار الكتب برقم ٣٥٩١ تاريخ، وبالمكتبة
الأهلية (B.N.)، برقم ١٢٠٦٩.

تاريخ مصر، مخطوط في (B.N.)، برقم ١٨١٧.

ابن سعيد الأندلس، الاغتباط في حلى مدينة الفسطاط، مخطوط بدار الكتب،
برقم ٢٧١٢

شرح اللمعة من أخبار المعز لدين الله وتسيير عساكره إلى مصر - لم يعرف
مؤلفه بعد - مخطوط بجامعة القاهرة، ٢٤٠٢٢.

شموس الغيوب من حناديس القلوب، مخطوطة بالمكتبة الأهلية (B.N.)
بباريس، برقم ٢٦٦٩.

العيني (بدر الدين، ت ١٤٥١/٨٥٥)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية، برقم ١٥٨٤ تاريخ، الجزء
٢١ / القسم ٣، والجزء ١ / القسم ١.

تاريخ دولة بنى العباس والطولونيين والفاطميين، مخطوط
بالمكتبة الأهلية (B.N.)، برقم ٥٧٦١.

القضاعي (أبو عبد الله، ت ١٠٦٢/٤٥٤)، عيون المعارف وفنون أخبار
الخلايف، مخطوط بدار الكتب برقم ١٧٧٩، وبالمكتبة الأهلية
(B.N.)، برقم ١٤٩٠.

المقريزي (تقى الدين، ت ١٤٤٢/٨٤٥)، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء،
نسخة مصورة من مخطوط طوب قب سراي أحمد الثالث، برقم
٣٠١٣، نشر منها الشيبان قسماً إلى نهاية خلافة العزيز، وهو
الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٧، ونشر الجزء الثاني محمد أحمد
حلمى القاهرة ١٩٧١.

المقفى، مخطوط في Paris، فى B.N.، برقم ٥٤٤، نشره زكار
جزء منه عن حياة الحسن بن الأعصم، بيروت ١٩٧٠.

مؤلف مجهول تاريخ جبل لبنان (جبل الدروز)، مخطوط بدار الكتب، ١٦ م.
ميخائيل الأنبا، ذيل سير الآباء، البطارقة، الجزء الثالث، مخطوط بدار الكتب،
برقم ٦٤٣٤ ح.

النعمان (ابن حيور، ت ٩٧٤/٣٦٣)، المجالس والمسائرات، فى ٣ أجزاء،
مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٦٠٦، حقق حديثاً من
الفقى، وشيوخ واليعلاوى، تونس ١٩٧٨

، إفتتاح الدعوة الزاهرة، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٤٠٨٨، وبمكتبة حسين الهمداني الخاصة، وظهرت لها طبعة فى بيروت، بعناية وداد القاضى، بيروت ١٩٧٠ (وهذه الأخيرة لم تستخدم)؛ وتحقيق Dachroui ، تونس ١٩٧٥ (لم تستخدم)، شرح الأخبار، مخطوط بدار الكتب، برقم ٧٠٦٢ ح.

النويرى (شهاب الدين، ت ٧٣٢/١٣٣٢)، نهاية الأرب فى فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب برقم ٥٤٩ معارف عامة، مجلدات ٢٠ إلى ٢٦. نشر منه ١٢ جزءاً، ط. دار الكتب المصرية.

ب- المطبوعات العربية

إبراهيم جلال، المعز لدين الله الفاطمى، وتشيد مدينة القاهرة، سلسلة ألف كتاب، القاهرة ١٩٦٣.

ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، عنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء، مصر ١٣٥٣ هـ - أجزاء ٩، ٨، ٧ على الخصوص.
تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل، فى مجموعة؛

Recueil des Historiens des Croisades:

Historiens Orientaux, t II Ièr. Paris, 1869

، وتحقيق طليمات، بعنوان: التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، القاهرة ١٩٦٣.

أبو البقاء، كتاب المناقب الزيدية فى أخبار الملوك الزيدية؛ تحقيق درادك وخريسات فى جزئين، عمان.

أحمد توفيق المدنى، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، الجزائر.
أحمد صبحى، نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثنى عشرية، دار المعارف.
أحمد عيسى؛ مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء، مقال بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس ١٩٥٦، صفحات ١٠٥-١٢٤.

أحمد مختار العبادى، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، المجلد الخامس، ١٩٥٧، ص ١٩٣ وما بعدها.

- ؛ ودراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى. ١٩٦٨ .
- ، فى التاريخ العباسى والفاطمى ، ط. الإسكندرية .
- إحسان عباس، العرب فى صقلية، مصر ١٩٥٩ .
- ، شذرات من كتب مفقودة فى التاريخ، بيروت ١٩٨٩ .
- إخوان الصفا، رسائل، طبعة زنبار ١٣٠٦ .
- الإدريسى، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى إختراق الأفاق، تحقيق Dozy و de Goeje ، طبعة Leyde ، ١٨٦٤ .
- أربع رسائل إسماعيلية، تحقيق عارف تامر، سلمية - سورية ، ١٩٥٢ .
- ابن اسحق، كتاب فتوح مصر وأعمالها، القاهرة، ١٢٧٥هـ .
- أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار أو حياة أسامة، تحقيق Derenbourg ، ط. Paris ، ١٨٨٩ .
- أسد رستم، الروم، فى سياستهم وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب، فى جزأين، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٦ .
- الأسفرايينى (شاهبور بن طاهر) التبصير فى الدين، وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، القاهرة ١٣٥٩/١٩٤٠ .
- الأصفهاني، مقاتل الطالبين، النجف ١٣٥٢ هـ .
- أمارى، المكتبة العربية الصقلية، بعنوان Biblioteca Arabo-Sicula، جزأين، ١٨٥٧-١٨٨٨ .
- أمين طليح، أصل الموحدين، الدرر وأصولهم، بيروت ١٩٦١ ،
- أمينة بيطار، موقف أمراء العرب والشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس من الهجرة، دمشق ١٩٨٠ .
- الأمينى، محمد هادى، عيد الغدير فى عهد الفاطميين، النجف .
- أنستاس، النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩ .
- أومان، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب مصطفى بدر، القاهرة ١٩٥١ .

- ابن أبيك الداودارى، الدرّة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية، من كتاب كنز الدرر
وجامع الغرر، وهو الجزء السادس، تحقيق صلاح الدين منجد،
القاهرة ١٣٨٠/١٩٦١.
- ابن إياس، تاريخ مصر، المعروف ببداية الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الأول،
ببلاط ١٣١١هـ.
- أيمن فؤاد، دراسة نقدية لمصادر وتاريخ الفاطميين فى مصر، القاهرة ١٩٨٢.
- الدولة الفاطمية فى مصر، القاهرة ١٩٩٢.
- البارونى النفوسى (ت ١٣٢٩/١٩٤٠)، الأزهار الرياضية فى أئمة الملوك
الأباضية.
- الباز، الشرق الأوسط والحرب الصليبية، ١٠٥٠-١١٩٣، القاهرة ١٩٦٣.
- الباشا (حسن)، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٥٧.
- باهر، دليل مختصر عن المتحف القبطى، القاهرة ١٩٦٢.
- بتلر، فتح العرب لمصر، عرّبه فريد أبو حديد، ط٢، ١٣٦٥/١٩٤٦.
- البرغوثى، الوزير اليازورى، القاهرة ١٩٤٨.
- ابن بعرة، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق فهمى عبد
الرحمن، القاهرة ١٩٦٦.
- البغدادى، الفرق بين الفرقتين وبيان الفرقة الناجية، القاهرة ١٣٢٨/١٩١٠.
- البكرى، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق Paris, De Slane،
ط٢، ١٩١١.
- البلاذرى، فتوح البلدان، ط Leyden، ١٨٦٦.
- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، حققه محمد كرد على، دمشق
١٣٥٨هـ/١٩٣٩.
- البندارى، تاريخ دولة آل سلجوق، ١٣١٨/١٩٠٠.
- البيرونى، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق London, Sachau ١٨٧٩.
- ترتون، أهل الذمة فى الإسلام، ترجمة وتعليق حبشى، الطبعة الثانية، القاهرة
١٩٦٧.

تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، ديوان، ط دار الكتب، القاهرة ١٣٧٧/١٩٥٧.
توفيق المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، الجزائر ١٩٣٤.
ابن تيمية، كتاب مناهج السيرة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، بولاق
١٢٢١هـ.

ثقة الإمام، علم الإسلام (الداعي)، المجالس المستنصرية، نشر كامل حسين
القاهرة ١٩٤٧.

جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢، القاهرة.

ابن جبير، رحلة، تحقيق نصار، مصر ١٩٥٥.

جرجس عوض، القبط، القاهرة ١٩٣٢.

جروهمان، أوراق البردي العربية، جمع وتعليق، نقله بالعربية حسن إبراهيم
وعبد الحميد، القاهرة ١٩٣٤.

جعفر بن منصور اليمن، كتاب الكشف تحقيق Strottmann، القاهرة ١٩٤٩.

الجوزي (أبو علي منصور العزيزي)، سيرة الأستاذ جونر، وبه توقيعات
الأئمة الفاطميين، حققه وأقدم له كامل حسين وشعيرة، القاهرة
١٩٥٤.

ابن الجوزي (أبو الفرج)، المنتظم، رسالة عن القرامطة، تحقيق

Josaph de Somogi في: Rivista degli Studi Orientali, Vol VIII

، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، في عدة أجزاء، الهند ١٣٥٨هـ.

جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية، ١٩٦٣، ط
١٩٦٧.

دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي، المحفوظة بمكتبة
دير سانت كاترين في سيناء، فصله من مجلة كلية الآداب جامعة
الإسكندرية، المجلد ١٨، ١٩٦٤.

الجويني، كتاب تاريخ جهانكشاي؛ تصحيح سيد جلال الدين، طهران
١٣١٢هـ.

ابن الحبال (ت ٤٨٢/١٠٨٩)، وفيات المصريين فى العهد الفاطمى، تحقيق
صلاح الدين المنجد، مجلة معهد المخطوطات العربية، ١٩٥٦، ص
٢٨٦-٣٣٦.

حبشى، نور الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨.

ابن حجر، الإصابة، الجزء الرابع، القاهرة، ١٣٢٨ هـ.

ابن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٣ أجزاء، الطبعة الأولى، القاهرة
١٣٢١ هـ.

حسن إبراهيم، النظم الإسلامية، بالاشتراك مع على إبراهيم، القاهرة ١٩٣٩،
كافور الإخشيد، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب، جامعة
القاهرة ١٩٤١.

عبيد الله المهدي، إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة
الفاطمية فى بلاد المغرب، بالاشتراك مع طه شرف، القاهرة
١٩٤٨.

تاريخ الإسلام السياسى، القاهرة ١٩٤٩.

اليمن: البلاد السعيدة (فى مجموعة إخترنالك)، العدد ٢، دار
المعارف ١٩٥٨.

تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب
(وهو كتاب: الفاطميون فى مصر، بولاق ١٩٣٢)، القاهرة
١٩٥٨.

أبو الحسن الخزرجى (٨١٢/١٤١٠)، الكفاية والإعلام فىمن ولى اليمن
وملكها من ملوك الإسلام، مخطوط (B.N.)، برقم (2) 5832،
تحقيق لبعض الفصول على يد راضى دغفوس، فصلة من
Les Cahiers de Tunisie، عدد ١٠٧-١٠٨، مجلة ٢٨، ١٩٧٩.

حسن سليمان محمود، علاقات الفاطميين بالدول الإسلامية، رسالة
ماجستير بجامعة القاهرة، ١٩٤٧.

الملكة أروى سيدة ملوك اليمن، القاهرة ١٩٥٥.

حسن عثمان، البحر الأحمر كطريق تجارى، القاهرة ١٩٣٩.
ابن حسول، تفضيل الأتراك على سائر الأجناد، باعتناء عباس العزاوى،
استانبول ١٩٤٠

حسين أمين، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى، بغداد ١٩٦٥.
حسين مؤنس وآخرون، تاريخ مصر، القاهرة.

، المسلمون فى حوض البحر المتوسط، مجلة الجمعية التاريخية
المصرية، مايو ١٩٥١.

حسين الهمدانى، بحث تاريخى فى رسائل إخوان الصفا، وعقائد الإسماعيلية،
بومباى ١٣٥٤/١٩٣٥.

، الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن، القاهرة ١٩٥٨.

الحسينى، أخبار الدولة السلجوقية، لاهور ١٩٣٣.

ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، ١٩٣٧/١٣٤٦، تحقيق Vonde-
rheyden، ٢ أجزاء، Paris-Ager، ١٩٢٧.

الحمادى اليمانى، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، ١٩٣٩/١٣٥٧.

حنّا أبو راشد، تاريخ جبل الدروز، القاهرة ١٩٢٥.

حورية، الحياة الاجتماعية فى العراق زمن البويهيين، مصر ١٩٨٠.

ابن حوشب، (منصور اليمن)، رسالة الرشد والهداية، تحقيق كامل حسين،
فى مجلة Collectanea، المجلد الأول، ١٩٤٨، ص ١٨٥ وما
بعدها.

، الفرائض وحدود الدين (فى نسب الخلفاء الفاطميين)، تحقيق
حسين الهمدانى، القاهرة ١٩٥٨ (مطبوعات الجامعة الأمريكية
بالقاهرة).

خاشع المعاضيدى، دولة بنى عقيل فى الموصل، رسالة الماجستير بأداب
القاهرة، القاهرة ١٩٦٦، ونشر بغداد ١٩٦٨.

؛ العلاقات الفاطمية البيزنطية، المجلة التاريخية، بغداد العدد ٣،
١٩٧٤، ص ١١١ وما بعدها.

- ؛ من بعض أنساب العرب، أعلى الفرات، بغداد ١٩٨٦.
- الخشنى (محمد بن الحارث)، كتاب طبقات علماء إفريقية، تحقيق محمد ابن أبى شنب، الجزائر ١٣٢٢/١٩١٤.
- ابن الخطيب أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق العبادى والكتانى، الدار البيضاء ١٩٦٤ (وهو الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية).
- ابن خلدون، المقدمة القاهرة ١٣٢٢هـ.
- ، العبر وديوان المبتدأ والخبر، فى ٧ أجزاء ، القاهرة ١٢٧٤ هـ.
- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣ أجزاء القاهرة ١٢٩٩ هـ.
- خمسة رسائل : بين أبى العلاء وداعى الدعاة، نشر المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٩ هـ.
- ابن الداية، سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق Berlin, Vollers ، ١٨٩٤ ، وتحقيق شوقى ضيف وآخرون، القاهرة ١٩٥٤.
- الدباغ، معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تونس ١٣٣٠ هـ.
- دراج، عيدآب، مقال بمجلة نهضة إفريقية، أغسطس ١٩٥٨.
- الدرجيني(حوالى ٥٦٧/١١٧١)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، فى جزين، حققه إبراهيم طلاى
- دوريش النخيلى، فتح الفاطميين للشام، الإسكندرية ١٩٧٩.
- دونلدسن، عقيدة الشيعة ، تعريب ع . م . القاهرة ١٩٤٦.
- ابن أبى دينار، كتاب المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس، تونس ١٢٨٦ هـ.
- الذهبى ، دول الإسلام، الطبعة الأولى ، حيدر آباد ١٣٣٧ هـ.
- الرازى (أحمد بن حمدان) ، الزينة فى المصطلحات الإسلامية، تحقيق حسين الهمدانى، الجزء الأول ، القاهرة. ١٩٥٦.
- الرازى (فخر الدين) ، اعتقادات فرق المسلمين والمشرىكين، تحقيق النشار، القاهرة ١٩٣٨.
- الرازى (محمد بن زكريا) ، رسائل فلسفية، نشرها Kraus ، القاهرة ١٩٣٩.

راضى دغفوس، العوامل الاقتصادية لهجرة بنى هلال وبنى سلّيم من مصر
إلى أفريقيا، أوراق مجلة المعهد الأسباني العربي ١٩٨١ ص ١٤٧
وما بعدها.

الراوندى، راحة الصدور وأية السرور، نقله إلى العربية الشواربى وغيره،
القاهرة.

رشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، تحقيق حميد الله، كويت ١٩٥٩.
الروذراوى (أبو شجاع)، ذيل كتاب تجارب الأمم لسكويه، تحقيق Amedroz
، مصر ١٩١٦/١٣٣٤.

رينو جوزيف، الفتوحات الإسلامية فى فرنسا وإيطاليا وسويسرا، فى
القرون: الثامن والتاسع والعاشر الميلادى، ترجمة إسماعيل
العربى، بيروت ١٩٨٤.

زامبور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، فى جزأين،
تعريب زكى حسن وحسن محمود. القاهرة ١٩٥٢.

زاهدى على، تاريخ الفاطميين فى مصر، حيدر آباد ١٩٤٨.
الزاوى (طاهر)، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، طبعة دار المعارف بالقاهرة.

أبن أبى زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب،
وتاريخ مدينة فاس، تحقيق Tornberg، Paris، ١٨٤٣.

زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٣٧.
الزهرانى، نظام الوزارة فى الدولة العباسية ٣٣٤-٥٩٠ هـ، بيروت ١٩٨٠.

، نفوذ السلاجقة فى الدولة العباسية، بيروت ١٩٨٤.
ابن زولاق، كتاب أخبار سيديويه المصرى، تحقيق محمد بن سعد الديب،
القاهرة ١٩٣٣.

ساويرس بن المقفع، سير الأباء البطارقة للكنيسة القبطية فى الأسكندرية
تحقيق Evetts (فى P.O.)، طبعة Paris، ١٩٠٧، ١٩١٠،

١٩١٥، وتحقيق Seybold، طبعة بيروت ١٩١٠-١٩١٢، وتحقيق
عبد المسيح وسوريال وبرمستمر، طبعة مصر ١٩٤٣-١٩٤٨.

ابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة ١١٢٩ هـ.

السجستاني، كتاب الينابيع، تحقيق غالب، بيروت ١٩٦٥.

السجلات المستنصرية: «سجلات وتوقيعات، وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه، إلى دعاة اليمن وغيرهم، قدّس الله أرواح جميع المؤمنين»، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٤. وله طبعة ثانية ١٩٨٥.

سرور، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٥٩، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، ط ٢، القاهرة ١٩٥٩.

، مصر في عصر الدولة الفاطمية، مجموعة الألف كتاب، القاهرة ١٩٦٠. الدولة الفاطمية في مصر، سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، القاهرة ١٩٦٥-١٩٦٦.

، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧.

سعاد ماهر، مساجد مصر، حفائر كلية الآثار بظاهر مدينة الفسطاط، مجلة الآداب، العدد ١، ١٩٧٦، ص ٩٥ وما بعدها.

سعد زغلول، فترة حاسمة من تاريخ المغرب، موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في إفريقيا ونقلتهم إلى مصر، فصلة من مجلة كلية الآداب والتربية، الجامعة الليبية، المجلد الأول ١٩٥٨.

، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية.

السلوى، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ٤ أجزاء القاهرة ١٣١٠-١٣١٢.

ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب والمشرق، Leyden، (١٨٩٨-١٨٩٩).

سليمان صائغ، تاريخ الموصل، بيروت ١٩٢٨.

السمعاني، كتاب الأنساب، تحقيق Sybold، في مجموعة:

Gibb. Mem. Series XX, London, 1912.

سوقاچيه، دمشق الشام، لمحة تاريخية، تعريب فؤاد البستاني، بيروت ١٩٣٦.

- سيمنوف ، حول الرق في عهد الدولة الفاطمية في مصر، المجلة التاريخية، بغداد ١٩٧٢، العدد الثاني، ص ١٩٧ وما بعدها.
- السيوطي، حسن الماضرة في أخبار مصر القاهرة ، في جزاين، القاهرة ١٩٠٩/١٣٢٧.
- سيده كاشف، مصر في فجر الإسلام، القاهرة ١٩٤٧.
- ، مصر في عهد الاخشيديين، القاهرة ١٩٥٠.
- الشاطر بصيلي، الكارمية، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد ١٣، القاهرة ١٩٦٧.
- ابو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، نشره عبد الله بن السعود، في جزاين، القاهرة ١٢٨٧-١٢٨٨ هـ.
- ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، حققه سركييس، بيروت ١٩٠٩.
- ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق وتعليق Dominique Sourdel ، الجزء الأول ، القسم الأول ، دمشق ١٩٥٣.
- شعيرة ، الإسكندرية من العصر الإسلامي إلى نهاية العصر الفاطمي، كتاب الغرفة التجارية بمدينة الإسكندرية ١٩٤٩.
- شهاب الدين حقيقت مذهب الشيعة، سمي در حقيقت دين، تحقيق Ivanow م. ١٩٣٢.
- الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق Cureton ، ط . London ١٩٤٦.
- الشيال (جمال الدين)، مصر والشام بين دولتين، القاهرة ١٣٦٦/١٩٤٧.
- ، مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية ١٩٤٩.
- ، نظام الوزارة في العصر الفاطمي، مقالة بمجلة الثقافة، العدد ٦٢٨، ١٩ مارس ١٩٥١.
- ، وحدة مصر وسورية في العصر الإسلامي، مجلة جامعة الإسكندرية، إبريل ١٩٥٨.

- ، مجموعة الوثائق الفاطمية، وثائق الخلافة وولاية العهد
والوزارة، جمعها وحققها وأعدّها للنشر مع دراسات تحليلية
مقارنة، المجلد الأول، القاهرة ١٩٥٨ .
- تاريخ مصر الإسلامية، الجزء الأول ، من الفتح العربي إلى نهاية
العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٦٧ .
- صابر، أرمينية بعد الفتح الإسلامي إلى مستهل القرن الهجري، القاهرة
١٩٧٨ .
- الصايبى (١٩٩٤/٣٨٤)؛ كتاب التاجى فى أخبار الدولة الديلمية، تحقيق
Saber Khan ، الهند .
- أبو صالح الأرمنى، كنائس وأديرة مصر، تحقيق وترجمة Evetts ، ط. Oxford
١٨٩٤ م .
- ابن صاعد ، طبقات الأمم، نشر شيخو ببيروت ١٩١٢ .
- صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، مجلة
الجمعية المصرية، ١٩٥٢/٤٢ .
- صدر الدين (أبو الحسن) ، أخبار الدولة السلجوقية، صححه محمد إقبال،
طبعة لاهور ١٩٣٣ .
- ابن الصيرفى، كتاب قانون ديوان الرسائل، نشر على بهجت ، القاهرة ١٩٠٥ ،
ترجمة إلى الفرنسية Masse ، القاهرة ١٩١٤ .
- ، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، القاهرة
١٩٢٤ (فى Bull. de l'Inst. fr. du Caire) .
- طلائع بن رزيك، ديوان، جمعه الأمينى، بغداد ١٩٦٤ .
- طليع (أمين محمد)، أصل الموحدين الدروز وأصولهم، بيروت ١٩٦١ .
- طوسون، كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، الإسكندرية
١٩٣١/١٣٥٠ .
- الطوسى، فهرست كتب الشيعة، كلكتا، ١٨٥٥ م .
- طه شرف، تاريخ الإسماعيلية السياسى، الجزء الأول، ١٩٤٧ . ، دولة النزارية،
القاهرة ١٩٥٠ .

- عادل العوا، منتخبات إسماعيلية، تحقيق، دمشق ١٣٧٨هـ.
- عارف تامر، القرامطة، بيروت - بغداد.
- عاشور، شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، ١٦، القاهرة ١٩٦٩، ص ١٥ وما بعدها.
- عباس الهمداني، نبذة تاريخية عن الدعوة الإسماعيلية في شمال الهند في مراحلها الأولى، مصر ١٩٥٦.
- عبد الباقي، عبد المجيد، تاريخ اليمن، المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق حجازي، القاهرة ١٩٦٥.
- ابن عبد الحكم، كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس، نشره London, Torrey ١٩٢٠.
- عبد الحميد يونس، الأزهر، بالاشتراك مع عثمان توفيق، القاهرة ١٩٤٦.
- ، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، القاهرة ١٩٥٦.
- عبد الرحمن زكي، القاهرة منارة الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩.
- عبد الرحمن فهمي، الفسطاط وصاحبتيها العسكر والقطائع، القاهرة ١٩٦٦.
- عبد الله بن أبيك الدواداري (أبو بكر)، الدرر الماضية في أخبار الدولة الفاطمية، من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر، حقق الجزء السادس منه على يد صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٣٨٠/١٩٦١.
- عبد الله خورشيد، القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة القاهرة، ١٩٦٧.
- عبد الله الشرقاوي، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين، القاهرة ١٢٠٩هـ.
- عبد المولى، بنو مرداس الكلابيون في حلب وشمال الشام، ١٩٨٥.
- عبد التعميم حسنين، المهدي المنتظر، الهادي النبوي، مجلد ١٩، صفر ١٣٧٤، ص ١ وما بعدها.
- ، سلاجقة إيران والعراق، القاهرة ١٩٥٩.

ابن العبرى (جريجوزيوس)، تاريخ مختصر الدولة، تحقيق صالحانى، بيروت
١٨٩٠، وتحقيق Kirsch و Bruns ، بعنوان: "Chronicon"

، العدوى، الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط، القاهرة ١٩٥٧ .
، مصر العربية، مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية، القاهرة
١٩٧٨/١٣٩٨ .

ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب تحقيق سامى الدهان، فى جزأين،
دمشق ١٩٥١-١٩٥٤، له ترجمة من Blochet ، بعنوان: Hist.
d'Alep. Paris, 1900.

ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار المغرب، فى ٢ أجزاء، تحقيق Lévi-
Colin و Provençal ، ط. Leyden ، ١٩٤٨ ، ط. بيروت ١٩٥٠ ،
فى جزأين .

عريب بن سعد، صلة تاريخ الطبرى، القاهرة ١٣٢١هـ .
عطية القوصى، أضواء جديدة على تجارة الكارم، من واقع وثائق الجنيزة،
المجلة التاريخية المصرية، ٢٢، ١٩٥٧ ص ١٧ وما بعدها .
، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة ١٣٥٢/١٩٣٣ .
على إبراهيم، تاريخ جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى، القاهرة
١٩٣٣/١٣٥٢ .

، تاريخ مصر فى العصور الوسطى، ط٣، القاهرة ١٩٥٣ .
على بيومى، قيام الدولة الأيوبية فى مصر، مصر ١٩٥٢ .
على مبارك باشا، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، فى ٢٠ جزءاً،
بولاغ ١٣٠٦هـ .

عليان، قرامطة العراق فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، القاهرة ١٩٧٠ .
علية الجنزورى، إمارة الرها، القاهرة ١٩٧٦ .
عماد الدين محمد، تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح بن على، مصر
١٩٠٠/١٣١٨ .

- ، سنا البرق الشامى، وهو مختصر من كتاب البرق الشامى،
اختصار الفتح بن على، تحقيق فتحية الهندارى، ١٩٧٩ .
- ابن العماد (عبد الحى)، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، القاهرة
١٣٥٣/١٣٥٠ .
- عمارة اليمنى، النكت المصرية فى أخبار الوزارة المصرية Paris , Derenbourg ،
١٨٩٧ .
- ، تاريخ اليمن، وعليه المختصر المنقول من كتاب العبر لابن
خلدون، ثم أخبار القرامطة للجندى، تحقيق Kay ، London ،
١٨٩٢ .
- عمر فروخ، إخوان الصفا، بيروت ١٩٤٥ .
- عمر كمال توفيق، الأمبراطور. ثقفور فوقاس، واسترجاع الأراضى المقدسة،
الإسكندرية ١٩٥٩ .
- ، مقدمات العدوان الصليبي، الأمبراطور يوحنا تزيمسكس
وسياسته الشرقية، القاهرة ١٩٦٦ .
- ، تاريخ الأمبراطورية البيزنطية، القاهرة ١٩٦٧ .
- ابن العميد (جرجس)، تاريخ المسلمين، تحقيق وترجمة Erpenius ، طبعة
Lugduni-Batavorum ، ١٦٢٥ .
- عنان، تاريخ الجمعيات السرية، القاهرة ١٩٢٦ .
- ، مصر الإسلامية، وتاريخ الخطط الإسلامية، القاهرة ١٩٣١ ،
١٩٤١
- ، تاريخ الجامع الأزهر، القاهرة ١٩٤٢ .
- ، الحاكم بأمر الله، ط ٢، القاهرة ١٩٥٩ .
- عوض خليفات، نشأة الحركة الاباضية، عمان ١٩٧٨ .
- غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر،
دمشق .
- ، تاريخ العلويين؛ اللاذقية ١٩٢٤ .

- ، اعلام الإسماعيلية، بيروت ١٩٦٤ .
- ابن غلبون، تاريخ طرابلس الغرب، المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس، وما كان بها من الأخبار، تحقيق الزاوي، القاهرة ١٣٤٩ هـ .
- الغزالي، فضائح الباطنية، تحقيق Goldziher ، ط. Leyden ، ١٩١٦ .
- ، المنقذ من الضلال، أو الملل والنمل، دمشق ١٣٥٣/١٩٣٤ .
- فاروق عمر، الوزير يعقوب بن كلس اليهودي، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد ١٩٧٣ .
- فايز اسكندر، موقعة ملاذكرد، وصداها في القسطنطينية، الإسكندرية . ١٩٨٨ .
- فازيليف، العرب والروم، الترجمة العربية شعيرة، القاهرة ١٩٥٠ .
- أبو الفدا (إسماعيل) المختصر في أخبار البشر، الطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٥ .
- فيصل السامر، الدولة الحمدانية، بغداد ١٩٧٢ .
- فضيلة الشافعي، تاريخ الفرقة الزيدية، النجف ١٩٧٤ .
- ابن القطان، جزء من كتاب: نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود مكى، الرياض ١٩٦٤ .
- قطب الدين النهرايى (ت ١٥٨٢/١٩٠)، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق Wust ، ط. Leipzig ، ١٨٥٧ .
- القفطى، أنباء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق أبو الفضل، ٤ أجزاء، القاهرة ١٩٥٤ .
- ابن القلانسي، تاريخ ابن القلانسي، المسمى ذيل تاريخ دمشق مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارقي وسبط الجوزي والذهبي، تحقيق Amedroz ، بيروت ١٩٠٨ .
- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، في ١٤ جزءاً، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩ .

- ، مآثر الإنافة فى معالم الخلافة، تحقيق عبد القادر فراج
أجزاء، الكويت ١٩٦٤.
- ابن القيم الجوزية، شرح الشروط العمريية، تحقيق صبحى صالح، ١
١٩٦١.
- أل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، الطبعة العاشرة، القاهرة ٩٥٨
كامل حسين، فى الأدب المصرى الإسلامى، القاهرة ١٩٣٩.
- نظرية المثل والممثل، القاهرة ١٩٤٨.
- ، فى أدب مصر الفاطمية، القاهرة ١٩٥٠.
- ، التشيع فى الشعر فى عصر الأيوبيين والمماليك، مج
الآداب، المجلد الخامس عشر الجزء الأول، ١٩٥٣، ص ٥٧-
- ، طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، القاهرة ٩
، طائفة الدرود، تاريخها وعقائدها، القاهرة ١٩٦٢.
- كانار (Canard)، ترتيب مملكة الفاطميين فى مصر، مأخوذة من كتا
الأعشى فى صناعة الانشأ (الجزء الثالث)، تأليف الفلق
نص عربى، الجزائر.
- الكتيبى، فوات الوفيات، مصر ١٣٩٩هـ.
- ابن كثير، (عماد الدين)، البداية والنهاية، ١٤ جزءاً، القاهرة ١٣٥٨هـ /
كمال، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عدة أجزاء،
١٩٤٩/١٢٦٨
- كرد على، كتاب خطط الشام، دمشق ١٩٥٢.
- ، البيهزدة، تأليف بازيار العزيز بالله الفاطمى أبى عبد الله
ابن الحسين، نظر وتعليق، دمشق ١٩٥٢.
- الكرمانى (حميد الدين)، راحة العقل، تحقيق كامل حسين ومصطفى
القاهرة ١٩٥٢.
- ، الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله
، تحقيق كامل حسين، فصلة من مجلة كلية الآداب، المجلد
عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٥٢.

- ، الرسالة الدرية فى معنى التوحيد والموحد، ورسالة النظم فى
مقالة العوالم، تحقيق كامل حسين، مصياف ١٩٥٢.
- ، كتاب الرياض، تحقيق وتقديم، عارف تامر.
الكلىنى، الكافى، طهران ١٢٨١هـ.
- الكىالى، سيف الدولة وعصر الحمدانيين، حلب ١٩٣٩.
- كريسول Creswell، The Foundation of Cairo، ترجمة رجب، فى مجلة
المقتطف، نوفمبر ١٩٣٤.
- الكندى، كتاب الولاة وكتاب القضاة، وبه ذيل مأخوذ معظمه من كتاب (رفع
الإصر؛ لابن حجر العسقلانى، تحقيق Guest، بيروت ١٩١٢.
- ، الكيلانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق، الإسكندرية ١٩٨١.
- ، أول محاولة صليبية لغزو مصر، على ضوء وثيقة لاتينيا
الإسكندرية ١٩٨٧.
- لويس برنارد، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة
أحمد محمد عيسى، القاهرة.
- ، أحوال الإسماعيلية والقرامطة، ترجمة عربية، بيروت ١٩٨٠.
- لينبول، سيرة القاهرة، ترجمة عن الإنجليزية، من حسن إبراهيم وعلى
إبراهيم وأدوار حلیم، ط٢.
- ماجد (عبد المنعم) العلاقة بين بغداد والقاهرة فى عهد الفوالم، مجلة
الرسالة، العددان ٧٠٣ و٧٠٤، ١٩٤٦.
- ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، فى جزأين، القاهرة
١٩٥٣-١٩٥٥.
- ، أصل حفلات الفاطميين فى مصر، فصلة من صحيفة المعهد
المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد، المجلد الثانى، ١٩٥٤،
العدد ١-٢

، ما ألفه العرب في المئة سنة الأخيرة في دراسة التاريخ
وغيره. الفترة الفاطمية من ٣٥٨-٥٦٧/٩٦٩-١١٧١،
البحوث في الجامعة الأمريكية في بيروت، ١٩٥٩ .
، الحاكم بأمر الله، الخليفة المقتدى عليه، القاهرة ١٩٥٩، وا
ثالثة.

، الإمام المستنصر بالله الفاطمي، القاهرة ١٩٦٠ .
، العلاقات بين الشرق والغرب، العصور الوسطى،
١٩٦٦ .

، الناصر صلاح الدين الأيوبي، ط٢، بيروت ١٩٦٧ .
، الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الو
ترجمة وتقديم الكتاب Wusténfaid ، ط٢ ، القاهرة ١٨٥
الفكر العربي).

، أسس السياسة الحربية للفاطمية في مصر، مجلة ا
الثقافي، العدد ٧، الجزائر في جوان ١٩٦٧ .
، الموسوعة الأفریقیة مواد: المعز لدين الله، جوهر ال
النعمان بن حيون، العزيز بالله، ابن كلس، الحاكم بأمر الله
الملك، المستنصر بالله، طلائع بن رزيك، القاهرة .
، موسوعة الحضارة الإسلامية بعمان مادة: الأمر بأحكا
عمان.

، مشروع لكتابة تاريخ الأمة العربية، المنظمة العربية لك
والثقافة والعلوم، تونس (الدولة الفاطمية).
، جزيرة كريت بين الإخشيديين والفاطميين والروم، فر
خاص بعنوان، الكراسات التوسينة، فصل الثلاثة أشهر ا
والثانية، لسنة ١٩٩١، ص ٦٥ وما بعدها.

مارتينو ماريو مورينو، المسلمون في صقلية، بيروت ١٩٥٧ .
المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وع
ونساكهم وسهر من أخبارهم، تحقيق حسين مؤنس، القا
١٩٥١ .

ابن المأمون؛ أخبار مصر، نصوص حققها أيمن فؤاد، المعهد الفرنسي ٨٣،
الماوردي، الأحكام السلطانية، مصر ١٣٢٧/١٩٠٩

- المخزومي (ت ٥٨٥/١١٨٩)، المنهاج فى علم الخراج، تحقيق Cahen، المعهد الفرنسى، منتخبات ١٩٨٦.
- متز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، نقله إلى العربية أبو رييدة، فى جزأين، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٧.
- أبو الحاسن (ابن تغرى بردى)، النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة طبعة دار الكتب، بالقاهرة ١٣٥٢/١٩٣٣.
- محمد بن تاويت التطوانى، دولة الرستمييين أصحاب تأهّرت، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، ١٩٥٧، ص ١٠٩ وما بعدها.
- محمد حسين المظفرى، كتاب تاريخ الشيعة، ١٣٥٢هـ.
- محمد عكوش، تاريخ ووصف الجامع الطولونى، القاهرة ١٩٢٧.
- ، مصر فى عهد الإسلام، القاهرة ١٩٤١.
- محمد ماهر حماده، الوثائق السياسية والإدارية، العائدة للعصور العباسية المتتابة ٢٤٧-٦٥٦/٨٩١-١٢٥٨، بيروت ١٣٩٨-١٩٧٥،
- محمد مرزوق، مساجد القاهرة ومدارسها قبل عصر المماليك، القاهرة ١٩٢٢.
- محمود إسماعيل، الأغلبة، سياستهم الخارجية، القاهرة ١٩٧٢.
- محمود مكي، التشيع فى الأندلس، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمديرى، العدد ١-٢، ١٩٥٤.
- ابن أبى مخرمة، كتاب تاريخ ثغر عدن، مع نخب أخرى، تحقيق Löfgren، طبعة Leyde، فى جزئين، ١٩٣٦.
- المسعودى المسبحى، الوصية، ط. النجف، بدون تاريخ.
- مسكويه، كتاب تجارب الأمم، تحقيق Amedroz، فى جزأين، Oxford، ١٩٢١.
- مشرفة، القضاء فى مصر من الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى، القاهرة ١٩٤٥،
- ، نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٨.
- مصطفى بيرم، تاريخ الأزهر، القاهرة ١٣١٢هـ.
- مصطفى طه بدر، مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى زوال الإخشيديين، ١٩٧٩.
- مصطفى كامل شملول، عروبة مصر من قبائلها، القاهرة ١٩٧٠.
- مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠.

معهد المخطوطات العربية، فهرس المخطوطات المصورة، القاهرة ١٩٥٤ .
المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، تحقيق De Goeje ، ط. Leyde ،
١٨٧٧ .

المقريزى، البيان والاعراب، تحقيق Wust ، ط. Gottingen ، ١٨٤٠ ، وتحقيق
عبد المجيد، القاهرة ١٩٧١ .

، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، فى ٤ أجزاء، القاهرة
١٣٢٦هـ .

، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء، تحقيق الشيال، القاهرة
١٩٤٨ ، وبعض نتف من نسخة مصورة من مخطوطة طوب قبو
سراى، فى مجموعة الوثائق للشيال، وتحقيق جديد للجزء
الأول، القاهرة ١٩٦٧ ، أما الجزء الثانى والثالث، حققه محمد
حلمى، ١٩٧١-١٩٧٣ .

، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ط ٢، الجزء ٢/١ ، تحقيق
زيادة، القاهرة ١٩٥٦ .

، شذور العقود فى ذكر النقود. النجف، ١٣٥٦هـ .

، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق زيادة والشيال (الطبعة الثانية)،
القاهرة ١٩٥٧ .

ابن ممتى، كتاب قوانين الدواوين، نشر سوريال، القاهرة ١٩٤٣ .

مؤلف مجهول، البستانى الجامع، تحقيق Cahen فى B.E.O. دمشق، ١٩٣٨ .

مؤلف مجهول، رسائل إخوان الصفا، ط. بمباى ١٣٠٥هـ، ومصر ١٩٢٨ .

المؤيد فى الدين، سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة، ترجمة حياته بقلمه،
تقديم وتحقيق كامل حسين القاهرة ١٩٤٩ .

، ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة، تحقيق كامل حسين،
القاهرة ١٩٤٩ .

منصور الكاتب، سيرة الأستاذ جودر، تحقيق كامل حسين وشعيرة، القاهرة،
وترجمة Canard بعنوان: Alger، vie de l'Ustâdh Jaudhar. Alger،
1958.

- ابن ميسر، تاريخ مصر، تحقيق Massé، القاهرة ١٩١٩.
- ، المنتقى من أخبار مصر، وهو الجزء الثانى من أخبار مصر،
حققه أيمن فؤاد، المعهد الفرنسى ١٩٨١.
- ناصر خسرو، زاد المسافرين، تحقيق Kaviani، ط. Berlin، ١٩٢٣.
- ، وجه الدين، تحقيق Kaviani، ط. Berlin، ١٩٢٥.
- ، ديوان، طهران ١٩٢٩.
- ، خوان الإخوان، تحقيق يحيى الخشاب، القاهرة.
- ، سفر نامه، نقله إلى العربية يحيى الخشاب، الطبعة الأولى،
القاهرة ١٩٥٤، وله ترجمة فرنسية من Schefer، ط. Pairs،
١٨٨١.
- ابن نباته، ديوان خطب ابن نباته، بيروت ١٣١١هـ.
- ابن التديم، كتاب الفهرست، تحقيق Fluguel، فى جزأين، ط. Leipzig،
١٨٧١-١٨٧٢.
- النشار، نشأة التشيع وتطوره، ط٤، الإسكندرية ١٩٦٩.
- نظام الملك، سياسة نامه (أو سياستنامه)، تحقيق وترجمة Schefer، ط.
Pairs، ١٨٩١. ١٨٩٣.
- نظير حسان، الحرب و السلام زمن العدوان الصليبي، القاهرة ١٩٦٠.
- النعمان، كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة، تحقيق كامل حسين، القاهرة
١٩٤٧.
- ، كتاب الاقتصار، تحقيق ميرزا، ١٩٥٧.
- ، اساس التأويل، تحقيق عارف تامر، بيروت ١٩٦٠.
- ، دعائم الإسلام، تحقيق آصف بن على فيضى، فى جزأين،
القاهرة ١٩٥١-١٩٦٠.
- ، تأويل دعائم الإسلام، تحقيق محمد حسن الأعظمى، القاهرة
١٩٦٧.

- ، قضية إقريطش في عهد المعز لدين الله، تحقيق فرحات
الدشراوي، حوليات الجامعة التونسية، ٢، ١٩٦٥.
- نعيم زكي، الوزارة في العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٧٠.
- نقولا زيادة، برقة، بيروت ١٩٥٠.
- النوبختي، فرق الشيعة، صححه وعلق عليه محمد صادق. النجف ١٩٣٦.
- النيسابوري، إستنار الإمام وتفرق الدعوة في الجزائر لطلبه، تحقيق Ivanow،
في مجلة جامعة القاهرة، العدد ٤، ١٩٣٩، ص ٩٣-١٠٧.
- ، الهداية الأمرية في إبطال الدعوة النزارية، نشر فيضى، كلكتا
١٩٣٨، وفي وثائق الشيال، القاهرة ١٩٥٨، ٢٠٥-٢٣٠.
- ابن هاني الأندلسي، ديوان، بيروت ١٣٢٦هـ.
- الهداية الأمرية، ومعها رسالة إيقاع صواعق الإرغام في إحاض
حجج أولئك اللثام، تحقيق Fyze، ط، Calcutta، ١٩٣٨.
- هريدي، فهرست خطط مصر، المجلد الثاني، المعهد الفرنسي ١٩٨٣.
- الهمداني (أبو محمد)، صفة جزيرة العرب، تحقيق Muller، في جزأين،
Leyden، ١٨٩١.
- ابن واصل، مفرح الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق الشيال، القاهرة
١٩٥٣-١٩٦٠، نم ٤-٥ تحقيق حسنين ربيع، القاهرة
١٩٧٧/١٩٧٢
- ابن الوردي، تاريخ، الجزأين ١-٢، مصر ١٣٨٥هـ.
- الواقدي، فتح البهنسة والفيوم من أرض مصر، القاهرة ١٢٨٠هـ.
- ياقوت، معجم البلدان، ٨ أجزاء، القاهرة ١٣٢٣/١٩٠٦.
- يحيى بن حمزة العلوي (٦٦٩=٧٤٥/١٢٧٠-١٣٤٤)، الأرقام لأئدة الباطنية
الطغام، حققه عون، دار المعارف.
- يحيى بن سعيد الأنطاكي، تاريخ، أو صلة كتاب أوتيا "Eutychius" المسمى:
التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، تحقيق شيخو، في

جزاين، بيروت ١٩٠٩، وتحقيق وترجمة Vasi- و Krachkovsky
، ط. Paris ، lev ، ١٩٢٤ .

اليمانى (محمد بن محمد)، سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدي
من سلمية ووصوله إلى سجلماسة، تحقيق Ivanow ، فى مجلة كلية
الآداب، جامعة القاهرة ١٩٤٦، وترجمة Canard. بعنوان :

L'Autobiographie d'un Chambellan du Mahdi Obeid. le
Fâtimide. Hespéris 3è: 4é trim, 1952,

ابن يونس، كتاب الزيج الكبير الحاكمى. ترجمة إلى الفرنسية من
، ط. Paris. Caussin ، ١٨٠٤ .

ج-الكتب الأوروبية

- Abel: Un Hadît sur la prise de Rome dans la tradition eschatoloaique de l'Islam. Arabica tv. Jan 1958. Fase 1, p.I ssq.
- Allouche: the Establishment of Four chief Judgeships in Fatimid Egypt. jAOs , 105(1985) pp.327- 320
- Alphandéry et Dupont : La chrétienté et l'idée de croisades.
Les premières croisades. Paris, 1954.
- Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia. Vols 2,3 Firenze, 1858-68.
Seconda edizione. Catania, 1933-1943. vol 3.
: L'Epigraphie Arabiche di Sicilia. Palermo, 1875, t I.
- Angelo: Histoire de la Palestine. Paris, 1932.
- Artin Pacha: La conversion du Calife el-Hakem au christianisme.
Légende copte traduite de l'Arabe. Le Caire, 1894.
- Ashtor E: Histoire des prix et des Salaires dans 'Orient Médiéval. Paris, 1969.
:The Karimi Merchants J.R.A.S.April, 1956.
- Aubin: Le Chiisme et la Nationalité persane. R.M.M. Vol Iv.Mars, 1908, No. 3, p 457-491.
- Baldwin : A. History of the crusades. The First Hundred years. Volume I. Philadelphia 1955 sqq.
- Balog : Quatre Dinars du khalife fatimide al-Mostansir.
BIE, XXIII, 1950-1951, P.P. 375-378.
- Bardo : Monnaies fatimites du Musée de Bardo. Revue tunisienne, 1936, et Supplément, 1948.

Becker : Regierung und Politik unter dem Chalifen Zahir. Beitrage zur Geshichte Aegyptens unter dem Islam. Strassbourg. 1982, 1903.

: Beitrage zur Geschichte Agyptens unter dem Islam. Strassbourg, 1902 - 1903.

Bel: Coup d'oeil our l'Islam en Berbérie. Paris, 1917.

: La religion musulmane en Berbérie. Paris, 1938.

Bell: Jews and Christians in Egypt. London, 1924.

Beshir: Fatimid Military organization. Der Islam . LV(1978) P. 37 - 65.

: New light in nubian Fatimid Relations. Arabica XXII (1975) PP. 15 - 24 .

Betty : Le Calife Hakim. Bieu de l'An Mille. Paris, S. D.

Beylié : La Kalaa des Beni Hammâd. Une Capitale berbère de L'Afrique du nord au XIe Siècle. Paris, 1909.

Bianquis: La prise du Pouvoir par les Fatimides en Egypte. Ann . Islamo, XI (1972), .49 - 109 .

: L'acte de euccesslon de Kâfûr. Ann Islamo, t x 11,19.

: al-Hakim bi Amr Allah ou la folie de l'unitè chez un souverain fatimide. Les Africains XI (1978) PP. 107 - 133.

: Une crise Frumentaire dans L'Egypte fatimide. JESHO XXIII (1980) PP. 67 -101.

: Damas et la Syrie sous la domination Fatimide 359 - 468 / 969 - 1076, 2 tomes IFAD, 1986 et 1989 .

Bianquis et Atassi- Khaattab : Lettres d'influence à l'intérieur du sunnisme damascain entre 400 et 550 de l'hégire B.E.O. 1978, Txxx, P. 361 sqq.

Blachère : La fondation du Caire et la renaissance de l'humanisme Arabo. Islamique au Iv' Siècle. CIHC, PP . 95 - 96 .

- Bloch** : Le Messianisme dans l'Hétérodoxie Musulmane . Paris , 1903.
 : Etude sur l'ésotorisme musulman. Paris, 1910.
- Boonawala** : al - Qâdî al. nu'man's Work and Sources .B.S.O.A.S. , 1973 , Part I, P. 109 sqq.
 : Bio - bibliographs of Islamâili Literature. Malily, 1933 .
- Bosworth** : Sanawbaris elegy on the Pilgrims Slain in the Carmatian attack on Mecca (317 / 930) .Arabica. Oct, 1972, p. 222 - 590.
- Bowen** : The last Buwayhids. J.R.A.S. April, 1929, pp. 225 - 246.
- Brémond** : Berbères et Arabes. Paris, 1942.
- Brunschvig** : Fiqh Fatimide et histire de l'ifriqiya. Mélange d'hist et d'arch de l'Ocident musul. Alger ; 1957. 11, 13-20.
- Bulliet** : Conversion to islam in the Medieval Period, 1979.
- Cahen** : La Campagne de Mantzikert d'après les soureces musulmanes. Byzantion, IV (1934) p. sqq.
 : Quelques chroniques anciennes relatives aux derniers fatimides. B.I.F.A.XXXIII, 1937, P. 1 -27 .
 : Le Malik - Nameh et l Histoire des origines Seljukides. Oriens. Vol. 2. N1 1949, p. 13 sqq.
 : Un texte peu connu relatif au commerce orientale d'Amelfie au xè siècle. Archivio storica per le povencio napoletana 1953, pp. 308.
 : L'histoire économique et sociale de l'Orient musulman médiéval. S.I. t 3, 1955, p. 93 . 115.
 : Une correspondance bûyide inédite. Studi Orientalistici in Onore di G. Levi Della Vida, 1956, pp. 83 - 97.

- : Histoire copte d'un cadí médiéval. B IFA O. LIX (1960)
133 sqq.
- : Contribution à l' étude des impôts dans l'Egypte Fatimide.
J.E.S.H.O.V, 1962
- : Douanes et commerce dans les ports méditerranéens de
l'Egypte médiévale d'après le Minhâdj, dans .J.ESHO, vol
VII, 1964, P.P. 241 -242 .
- : Un récit inédit du vizirat du Dirghâm. Ann.Isl, VIII,
1969, P.P.27 -46 .
- : Les marchands étrangers au Caire sous les Fatimides. au
Collaqué 1 st. au Caire, 1969.
- : L'Administration financière de l'armée fatimide d'après al-
Makhzûmî. J.E.S.H.O. June, 1972. P. 163 sqq.
- : Makhzumiyyat. Etudes sur l'histoire économique et finan-
cière de l'Egypte médiévale. Leiden, 1977.
- : Contribution à l'étude de la circulation monétaire en Orient
au Milieu du Moyen Age. Ann. Islamo XV. Le Caire,
1979, P. 37 sqq.
- Cahen, Râgib et Taher : L'Achat et Wakf d'un grand domains , égypti-
ens, Par Talá, b. Ruzzik. Ann . Islamo, 1978, P. 59 sqq.
- Chambers: The troubadours and the Assassin. Modern Language notes.
LXIV (1989) .
- Canard: Sayf al-Daula (Recueil de textes relatifs à l'émir Sayf al - Daula
le Hamdanide. Alger, 1934.
- : Une Lettre de Muhammed ibn Tugi- al- Ikhshid à
l'empereur Romain Lécapène, in A.I.E.Q. II. 1936

: Laguerre sainte dans le monde islamque et dans le monde chrétien. Revue Africaine. Alger, 1936.

: Deux documents arabes sur Bardas Skleros. Studi Bizantini et Neellenice Vol V.I. Rome. 1939.

: L'histoire byzantine et les sources arabes. Congrès (Nice) Paris, 1939.

: L'impérialisme des Fatimides et leur Propagande. A.I.E.O.VI. 1942-7, P. 156-193.

: Deux Episodes des relations diplomatiques arabo- byzantines au Xe Siècle B.E. O. Inst F. de Damas XIII, 1950

: La date des expéditions mésopotamiennes de Jean Tzimiscès: Mélange Grégoire. II, Bruxelles 1950,

: Le cérémonial fatimite et le cérémonial byzantin: Essai de comparaison. Byzantion, XXI (1951), PP.355-420.

: Procession de Nouvel An chez les Fatimides. Ext. des Ann de l'Inst. d'Et. Or. X année, 1952.

: Histoire de la dynastie des H'amdanides de Jazira et de Syrie. TI. Paris, 1953.

: Un Vizir chrétien à l'époque fatimide. L'Arménien Bahram. AIEO, XII,1957, PP.48-157.

:Une letter du Calife fatimide al-Hâfiz (524-544/1130-1149) à Roger II,. Atti del Convegno Internazionale di Studi Ruggeriani. Palerme, 1955, P. 125-126.

:Notes sur les Arménins en Egypte à l'époque fatimide. Ext. des Ann. de l'Inst. d'Etudes Or. t XIII, 1955. PP. 143-157.



: Quelques Notes relatives à la Sicile sous les premiers Califes fatimides. Ext des Studi. Palerme, 1956.

: Une familles de partisans, puis d'adversaires, des Fâtimides en Afrique dú Nord. Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident musman. Alger, 1957. Vol. 1. PP. 33-49.

: Bagdâd au IV siècle de l'Hégire X siècle de l'ère chrétienne. Arabica, 1962.

: (art Fâtimides)) Ency de l'Isl, 2 éd. t2. P. 870-882.

: Byzantium and the Muslim World to the Middle of the eleventh century, dans Cambridge Medieval History t IV, ch XVII, 1964.

: La destruction de l'Eglise de la Résurrection par le calife al Hâkim et l'histoire de la descente du feu sacré. Byzantion, XXV, 1965.

: La campagne arménienne du sultau Selguqid Alp Arslan R.E. Arm. M.S. I, 1965.

: Fatimides et Bûrides à l'époque du calife al- Hâfiz lidîn-illâh. Revue des Etudes Islamiques. XXXV. 1967. Paris, 103-118.

Casanova: La doctrine Secrète des Fatimides d'Egypte. Ext du Bull de, l'Inst. F.A.O. t XVIII. Le Caire, 1920.

Inventaire Sommaire de la collection des Monnaies Musulmans de S.A. la Prince Ismail. Paris, 1896.

- Cedrenus: Synopsis Historiae. Corpus Scriptionum. Historiae Byzantinae (C.S.H.B.). ed Bekker. Bonn, 1838-9
- Chalandon: Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile. Paris, 1907.
: Histoire de la Première Croisade. Paris, 1925.
: Essai sur le règne d'Alexis I^{er} Comnène. New-York 1960.
- Chauleur: Histoire de Coptes d'Egypte. Paris .
- Creswell: Le Mahdi depuis les origines de l'Islam jusqu'à nos jours. Paris, 1885.
: The Muslim Architecture of Egypt. 1 Khshids and Fatimids. Oxford, 1953.
- Curtis: Roger of Sicily. Cicilia s.d.
- Dachraoui: Contribution à l'Histoire des Fâtimides en Ifrîqiya. Arabica, 1961, P 189 sqq.
: Les Califes fatimides au Magherb (296 -362/ 909 - 973). Histoire politique et Institutions. Tunis, 1981.
- Daftray : The Islam;ilis. Their History and Doctrines. Cambidge, 1950.
- Daghfous: Contribution à l'étude des conditions de l'immigration des tribus arabes (Hilâlet Suloym en Ifiquja. Ext Txxv (1977, PP. 123-50:
- Darmestaeter: Le Mahdi depuis les oigines de l'Islam jusqu'à nos jours. 1885. .
- De Reyliè: La Kalaa des Bani Hâmmâd. Une Capitale berbère de l'Afrique du Nord au XIe Siècle. Paris, 1909.
- Defrémeiy: Recherches et nouvelles rescherches sur les Bathiniens ou Ismaéliens de Syrie. J. A. 1948.

: Mémoire sur les Emirs el-Oumara. Paris, 1852.

: Histoire des Ismailie de la Perse. J.A. VIII, 1856.

De Goejé: Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides.
Leide, 1886.

: La Fin kde l'Empire des Carmathes du Bahrain. J.A.
1895.

De Sacy: Mémoire sur la dynastie des Assassins et sur l'origine de leur nom. 1818.

:Recherches sur l'initation à la Secte Ismaélienne. J.A.
1828.

: Observations sur une pratique supestiteuse attribuée au
Druzes et sur la doctrienc des Nosairiens Paris, 1827.

: Exposé de la Religion des Druzes et Précédé d' une into-
duction et de la vie du Khalife Hakem Biamar-Allah. 2
Vols. Paris. 1838.

De Tassy: Mémoire sur les noms propres et sur les titres Musulmans.
J.A. 1854 t III, p.p. 422-518.

Devonshire: Some Cairo Mosques and thier Founders. London, 1912.

:Quatre-vingts Mosquées et autres monumemt musulmans
du Caire. Le Caire, 1925.

:L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses monuments.
Paris, 1926.

Diehl (Ch) : Histoire de l'Empire byzantin. Paris, 1924.

: Etudes our l'histore et l'art de Byzance . Paris, 1930 .

Diehl et Marçais: Histoire du moyen Age, t III. Paris, 1936.

Wölger: Regesten der Kaiserurkunden des Ostromischen Reiches 1. Berlin -München, 1924.

: Byzantinische Diplomatie, 1956.

Doris: Locations of non-Muslim quarters in Medieval Cairo. Ann Islamo. TxxII, P. 117 - sqq.

Dozy: Supplément aux dictionnaires arabes, 2 éd. Leyden, 1881.

: Essai sur l'Histoire de l'Islamisme, trad. Chauvin. Leyde, 1887.

Dussaud: Histoire et Religion des Nosairis the. Paris, 1900.

Ehrenkreutz : Saladin Coup d'Etat in Egypt, in Medieval and Middle Eastern Studies , in Honour of Aziz. Suryal Atiya. Leiden, 1972, PP. 144-57.

Elisséf : Nûr al- Din. Un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades. Damas. 1 F O D, 1967.

El- Shayyal: The Fatimid Documents as a Source for the History of the Fatimids and their Institutions. Reprinted from the Bulletin of the Faculty of Arts. Alexandria University. Vol VIII, Dec, 1954.

Encyclopédie de l'Islam l'éd; 2 éd.

Ettingham : Painting in the Fatimid period. Ars Islamica , t ix (1942) pp. 112 - 124 .

Fahmy (Ali Mohamed): Muslim Sea-Power in the East Mediterranean from the Seventh to the tenth Century. Alexandria. 1950.

Finaly: History of the Byzantine Empire from 716 to 1500. London 1856.

Fischel : Jews in the Economic and Political life of Medieval Islam. London , 1937.

Fournel: Les Berbères, I. Paris, 1875.



- Freytag: Geschichte der dynastien der Hamdaniden in Mosul und Aleppo. Z.D,M.G, X, XI, 1856-1857.**
- Fu'ad Sayyd: Lumières nouvelles sur quelques sources del'Histoire fatimide en Egypt. Ann. Islamo XIII (1977) P. 11 -41.**
- Fyzee: The Ismaili law of Wills. Bombay, 1933,**
: Cadi an Nu'man. J.R.A,S. 1934.
: A Chronological list of the Imams and Da'is of the Mustalian Ismailis. J. of Bombay Branch of the Royal. Asiatic Society, 1935. (J.B.B.R.A.S.)
: The Ismaili Law and its founder. Isl . Cult IX. No I. Jan 1935. P. 107 sqq.
: A Shi'ite Creed Isl. Res Ass. Series, 1942.
: Materials for an Ismaili bibliography. (J.B.B.R.A..S. vol II, 1935.)
: Outlines of Muhammadan Law . 2 ed Orford, 1955.
- Gaudefroy. Demombynes et Platonov: Le Monde musulman et byzantin jusqu' aux Croisades. Paris, 1931.**
- Gerard Troupeau : Un traité christologique attribué au calife Fatimid al Mu'izz. Ann. Islamo, 1979 P. 11 sqq.**
- Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum éd Bréhier, 1924.**
Transl into English for the first time by Somerset de Chair. England, 1946.
- Gochenhour : The penetration of Zaidi Islam into Eearly Medieval Yemen. Harvard Univ, 1981.**
- Gibb: The career of N ūr ad- Dīn. 1955.**
- Goitein: The Cairo Geniza as a Source for the History of Muslim Civilization S I, III, 1955.**
: Jews and Arabs. New York, 1955.

L'Etat actuel de la recherche sur les documents de la Geniza. R.E.J, CXIIIIV (1959-196) 9-27.

: New light on the Beginning of the Karimi Merchants
J.E.S.H.O, 1, 1958.

: The Unity of the Mediterranean World in the Middle Ages.
Studia Islamica, 1960, XII.

: The Main industries of Mediterranean area as reflected in
the records of the Caire Geniza. J.E SH O. IV/2 (1961)

Golvin : Le Maghreb central à l'époque des Zirides, 1957.

Goldziher : Vorlesungen uber den Islam. Heidelberg, 1910.

: Le dogme et la loi de l'Islam. Trad Arin. Paris, 1920

: Die Streiteschrift des Gazâlî gegen die Bâtinijja - Sekte.
Leyde.

Gottheil : A distinguished family of Fatimide Cadis. J.A.O.S. XXVII,
1906, P. 217-296.

Grousset: Histoire des Croisades, I. Paris, 1935.

: Histoire de L'Arménie, des origines à 1071. Paris.1947.

:L'Empire du Levant. Histoire de la question d'Orient Paris,
1949.

: Lépopée des Croisades. Paris, 1939.

Grunebaum: The Nature to the Fatimid Achievement 1923

Guys (Héni): La nation drruze son histoire, sa religion , ses moeurs et
son état politique. Paris, 1864.

Guyard: Fragments relatifs à la doctrine des Ismaélis. Paris, 1874.



Halphen : Les Barbares et l'Essor de l'Europe. Alcan, 1930.

Hamdani ('Abbas) : Some Aspects on the history of Libya during the Fatimid Period. Ext. Beirut, 1970.

: The Dâ'î Hâtim ibn Ibrâhîm al-Hâmîdî (d. 596 / 1190) and the book Tuhfat al-Qulûb. Oriens. Leiden, 1974, P. 258-299.

: Evolution of the organisatimal Structure of the Fatimi Da'wah. The Yamani and Persian Contribution. Arab Stud. Cambidge, Univ. III, 1976, P. 95- 114.

: Abû Hayyan al-Tawhîdî and the Brethern of Purity. Middle Stud, 9, 1978, P.P. 345 - 353 .

: al- Hamdani at the outest of the damination over Yaman. Sanna Univ. Publ., 1986, P. 156 -167.

: Some Consideration on the Fatimid Caliphate as a Mediterranean Power. Ext. de Congress Ravello on : Fatimid Influence in Europe, P. 385 - 396 .

Hamdani (Husseïn) The History of the Ismaili Dawât and its .

Literature during The Last phase of the Fatimid Empire J.R.A.S 1932, PP. 126-136.

: Some unknown Ismaili authors and their works J.A.R.S. 1933.

Hassan Ibrahim: Relations between the Fatimids in North Africa and Egypt and the Umayyads in Spain.

(فصلة من مجلة كلية الآداب، الجزء ٢٠ ديسمبر ١٩٤٨).

: Contribntions to the study of Fatimid History in Egypt during the last twelve Years.

(فصلة من مجلة كلية الآداب، الجزء ١٣، مايو ١٩٥١).

:Aspects of Shi'ah History: Reprinted from the Muslim World. Vol. XI.VII. October, 1957.

Hassan Zaki: Les Tulnides. Paris, 1937.

Hautecoeur et Wiet: Les Mosqués du Caire. 2 Vols. Le Caire, 1932.

Heinz Halm : Kasmologie und Heilslehre des frühen Ismâ' îlîya. Wiesbaden, 1978.

Hawari : Trois minarets fatimides à la frontière nubienne 1 - 4 , 3 i EXV, 1934 - 35 , P.P. 141 - 153 .

Hassan Husnî: la Domination musulmane en Sicile. Alger, 1905.

Herbek: Die Slaven im Dienste der Fatimiden. Aro, XXI, 1957, P. 650-571.

Heyd : Histoire du Commerce du Levant, 2 Vols. Ed. Fr. Leipzig, 1886

Hitti: The Origins of the Druze People and Religion. Columbia 1929.
: History of Syria. London. 1951.

Hodgson : The order of Assassins. The Struggle of the early Nizarî Ismâ'îlis against the Islamic World. La Haye. 1955.
: How did the Early Shî'a Become Sectarian. J.A.O.S. LXXV, 1955.

Hody : Godefroi de Bouillon et les rois Latins de Jerusalem. 2 éd. Pairs 1859 . .

Hogarth : Arabia. Oxford, 1922.

Idris : Sur le retour des Zîrîdes à l'obédience fâtimide, dans A.I.E.O, XI Alger, 1935, P. 25 sqq.

- : La Berbérie orientale sous les Zirides. 2vols. Paris, 1962.
- : De la réalité de la catastrophe hilalienne. Ann E.S.C. XXIII, 2, 1968, 390 - 6 .
- : Invasion hilalienne et ses conséquences . Cahiers de civilisation médiévale, 11, 1986, P. 353 - 71 .
- Inostrantsev : Torzestvenniy vezd fatimidskh Califov. St Petersburg 1905.
- Iorga : Chronologie de la première croisade (extrait de la Bevue de l'Orient Latin). Paris, 1992.
- : Brève Histoire des Croisades et leurs fondation en Terre Sainte. Paris, 1924.
- : Brève Histoire de la Petite Arménie. Paris, 1930.
- Israel Friedlaender: The heterodoxies of the Shiites according to Ibn Hazm. New-Haven. 1909.
- Ivanow: A. Guide to Ismaili Literature. London, 1933.
- : Tow Early Ismaili Treaties. Oxford, 1933.
- : A. Forgetten Branch of the Ismailis. J.R.A.S. Jan, 1938, P. 57-79.
- : The Oraganization of the Fatimid Propaganda. J.B.B. R.A.S. vol, 15., 1939. P. 1-35.
- : Ismailis and Qarmatians. J.B.B.A.R.S. 1940. P. 43-85.
- : Ismaili traditions concerning the rise of the Fatimids. Bombay, 1942. Isl. Res. Ass. Sries no 10.

- : the Alleged Fouders of Ismailism, 2ed. Bomaby, 1946
- : Studies in the Early Persian Ismailism. Leiden. 1947.
- : The Ismaili Society, Series, No, 3.
- : Risala Dar Haqiqat-i-Din, or True Meaning of Religion
Transl, Bombay, 1947.
- : On the Recognition of the Imam (Fasl dar Bayan-I Shina-
kht-i imam,)Transl. Bombay, 1947.
- : Nasir -i Khusraw and Islamilism. Bombay, 1948.
- : Brief Survey of the rvolution of Isamilism. Leiden, 1952
- Kabir. M:** The Buwayyhld dynasty of Baghdad. Calcutta 1946.
- : The relation of the Bawayhids with the Fatimids . Indo-
Iranica, VII (1955),
- Kahle:** Die Schatze der Fatimiden. Z.D.M.G. 1935. XIV, 329 sqq.
- : The Cairo Geniza, 2ed 1959.
- Kasser :** Les Dialectes Coptes, B.I.F.A.O. Le Caire, 1973, P. p72 sqq.
- Khan:** Miskawayh and the Buwyhides. Oriens, 1968-69. Leiden, 1971,
Vol 21-25. P. 235- 599.
- Kaufmann :** Beiträge zur Geschichte Aegyptens aus judischen Qullen
Z.D.M.G. LI (1897) 442-43.
- Khayat :** The Shi'ite Rebellions in Aleppo in the 6 th A. U, 12 th A.D.
Century R.S.O. Roma, 1971, vol XLVX.
- Kraus:** Die Anfagne des Christentums in Nubien. 1930.
- Kremer :** Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen. 2 Bande.
Vienne, 1875-1877.
- Lammens:** Le Syrie et sa mission historique. Le Caire, 1915.
- : La Syrie Précis Historique vol.I. Beyrouth, 1921.

- : Islam Beliefs and institutions. Translated from the French by Ross, London, 1929.
- Lane-Poole : Coinage of Egypt A.H. 358-922. Collection of the British Museum Oriental Coins. 1892.
- : Catalogue of the Arabic Coins, preserved in the Khedivial Library, No. 1268.
- : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. London, 1893.
- : History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.
- : The Muhammadan Dynasties Chronological and genealogical tables with historical introduction. Paris, 1925.
- Laout : Les Schismes dans l'Islam, Introduction à une étude de la religion musulmane. Paris, 1965.
- Launois : Catalogue des monnaies Fatimites entrées au Cabinet des Médailles depuis 1896. B.E. or. Damas, 1971, XXIV, P. 17 sqq.
- Laurent : Byzance et les Turcs Seldjucides , dans l'Asie occidentale jusqu'en 1081. Paris, 1913-1914). (Annales de l'Est, publiées par la Faculté des l'univ de Lettres, de l'Univ de Nancy. XXVII-XXVIII).
- : L' Arménie entre Byzance et l'Islam depuis la conquête arabe jusqu'en 886. Paris, 1919.
- : Des Grecs aux Croisés. Byzantion, 1, 1924, P. 367-449.
- : Byzance et l'origine du Sultanat de Roum. Mélanges
- Lauer: Le poème de la destruction de Rome et les origines de la cité Léonine. Mélanges de Rome, XIX, 1899, P. 307 sqq.
- Lapidus : The Conversion of Egypt to Islam, in Israel Oriental Studies ,2 , 1972 , PP. 248 - 262 .

Lavoix : Catalogue des monnaies de la Bibiotheque Nationale. t3 :
Egypte et Syria. Paris, 1896.

Lemann : L'Origine de l'Idée de la Croisde. Hesperis, 1937, T XXIV

Leo Diaconus : Historiae Vi, 8, ed Haase C,S.H.B. Bonn, 1828.

Lévi-Provençal: La Politica africana de Abd al- RAhman III, Al-
Andalus, Vol. XI, Fasc 2, 1946.

Lewis (Bernard) : The origins of Isma'ilism; a study of the historical
background of the Fatimid Caliphate. Cambridge, 1949.

له ترجمة عربية من أحمد جلو وجاسم محمد، مع تقديم
الدورى، القاهرة ١٩٤٨، طبعة أخرى بيروت ١٩٨٠.

: Isma'a'ili Notes. Reprinted from the Bull. of the School of
Or and Af . Studies. Vol,. XII. Parts 3,4. 1948.

: The Sources for the History of the Syrian Assassins.
Speculum, XXVII, 1952.

: The Fatimide and the route to india. Ext. de la revue de la
Faculté des Sciences économiques de l'Univ. d'Istanbul.
Ilème année No. 1-41, 1953.

: Some obsrevations on the significance of Heresy in the
History of Islam . Stvdia Islamica. Paris, 1953, I, P. 43
sqq.

: The Ismá' ilites and the Assassine. Philadelphia 1955.

: An interperatation of Fatimid History CIHC.DOR,1973,
PP. 287-295.

Lorence Lockhart : Hasani Sabbah and the Assassins B.S.O.S. Lon-
don. 1829-30.

Lézine: Mahdiya, recherches d'archéologie islamique. Paris, 1965.

: Mahdiya Quelques Précisions sur la (VIII) des premiers Fatimide. Revue des Etudes Islamiques XXXV, 1967, P. 82 sqq.

Madelung: Fatimiden und Bahrain Qarmaten. Der Islam. XXXIV 1959, PP. 34-88.

:Das Imamate in der frühen in der frühen Ismailitischen Lehre. Der Islam. XXXVII. 1961, 43-135.

Magued A.M : Le Personnel de la Cour Fatimide en Egypte. Reprint from the Annals of the Faculty of Arts Ain Shams Univ. Vol. III, January, 1955.

: La fonction de Juge Suprême dans l'Etat fatimide en Egypte. Revue de l'Egypt, Contemporane (R.E.C.) Jan, 1960.

: De quelques Juridictions fatimides en Egypte, R.E.C. Juillet, 1961.

: L'Organisation financière en Egypte sous les Fatimides R.E.C. Avril, 1962.

: La Divination du Calife Hâkim Résumé des Communications, xxix. congrès int. des orientalistes, 1973.

: (art al-Hâfiz). Ency de l'Islam. 2 éd, PP. 56-67.

Mamour : Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs. London 1934.

Mandikov: La Palestine de la Conquête par les Arabes jusqu' aux Croisades. Saint -Pétersbourg, 1883. (ترجمة العنوان بالروسية)

Mann: The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs. 2 Vols. Oxford, 1920-1922.

- Marçais (G) : Les Arabes en Berbèrie du XIe au XIV siècle. Paris, 1913.
- : La Berbèrie au IXe siècle d'après al-Y-a' quobi . Revue Africaine, 1914 P. 57 sqq.
- : La Berbèrie musulmane et l'Orient au Moyen Age . Paris, 1946.
- Marcel (J): Egypte, depuis la conquête des Arabes jusqu'a la domination Française. Paris, 1848.
- Margolieu : On Mahdis and Mahdism. Proceedings of the British Academy. Vol. VII, PP. 1-21.
- Massignon : Esquisse d'une Bibliographie Carmate. Cambridge, 1922
- : Fatima bint al-Husayn et l'origine du nom dynastique .(Fâtimides). Akten des XXIV. Intern. Orientalisten Kongressess. Munich. 1957, P. 368.
- Maury : Les Kûras d'Egypte dans le Mabahig de Watawat. Essai de chronologie des listes de Kuras. Ann. Islamo , txxII, P. 194 sqq.
- Ménant: Les Khodjas du Guzarate. R.M.M. Vol. 12.
- Miles: Fatimid Coins. New York Amer.Num Soc. LII (1951).
- Minorsky : La domination des Dailamites. S.E.I. Paris, 1932.
- Muller: Der Islam in Morgen und Abendland. Berlin, 1885.
- Munier : Précis de l'histoire d' Egypte . Le Caire , 1932.
- Murad Kamil : Aspects de l'Egypte Copte. Berlin , 1965.
- Nichelson (J): An Account of the Estabnlshment of the Fatimite Dynasty in Africa. Thèse. Tubingen, 1840.

- O'Leary: A Short History of the Fatimid Khalifate: London 1923.
- : The coptic Churches and Egyptian Monasticism. Oxford, 1941.
- Poliak : L'Arabisation de l'Orient Sémitique. R.E.I. 1936.
- Psellos Michel : Chronographie, éd et tard Renaud. 2 Vols . Paris, 1928.
- Quatremère : Recherches Critique et Historiques sur la langue et la Littérature de l'Egypte. Paris, 1808.
- : Mémoires Géographiques et Histoires sur l'Egypte. 2 Vols. Paris, 1811.
- : Observations sur quelques points de la géographie de l'Egypte pour servir de supplément aux Mémoires historiques et géographiques sur l'Egypte, Paris, 1812.
- : Vie de calife fatimide Moeizz Lidin Allah. J.A, 1836.
- : Mémoire historique sur la dynastie des Khalifes. fatimides Paris, 1838.
- Ragib : Une épisode obscure d'histoire fatimide. S1 V.LVIII, 1979, PP. 125 -132 .
- Ravaisse: Essai sur l'Histoire et sur la topographie du Caire d'après Maqrîzî. Memoires publiés par les membres de la Mission Archeologique Français au Caire t I, ère partie. Paris, 1887, tIII 2 ème partie, 1890.
- Recueil des Historiens des Croisades. Hist. Océ, t 1-VI Paris 1844 - 86; Hist Arm 1-2. Paris, 1869; Hist Or. 1-2 Paris.

Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe. Le Caire .

Rosen : L'empereur Basile Bulgaroktonos. Saint - Pétersbourg, 1833.

Runciman : A History of the Firist Balgarian Empire. London 1930.

: The Byzantine "Protectorate" in the Holy Land, in the XI Century. Byzantion XVIII, 1947-8. ,

: La Civilisation byzantine 330-1453 trad. Levy. Paris, 1952.

Sadik : The Reign of al - Hakim Bi Amr Allah. A Palitical Study. Beirut, 1947 .

Sanaullah: The Decline of the Seljuqid Empire. Calcutta, 1938.

Sauvaget : Une inscription de Badr al-Jamâlf . Paris, 1929. Extrait de la Rev. Syrie, 1929.

Schlumberger : Un Empreur byzantin au X siècle. Nicephore Phocas. Paris, 1890.

: l'Épopée byzantine à la Fin du Dixième Siècle. 3 vols Paris, 1896-1905.

: Campagnes du roi Amaury I èr, de Jérusalem en Egypte, au XIIe Siècle. Paris, 1906.

: Byznacè et les Croisades. Paris, 1927.

Snouck Hurgronje : Der Mahdi. Revue Coloniale Internationale, 1868.

Stern : Ismâ'îlî Propaganda and the Fatimid Rule in Sind I, C. Oct 1949 XXIII. PP. 298-307.

: An Embassy of the Byzantine Emperor to the Fatimid Caliph al-Mu'izz. Byzantion, XX, 1950.

: The succession to the fatimid imam-al-Amir, the claims of the later Fatimids to the imamate, the rise of Tayyibi Ismailism. Oriens. Vol. 4 No. 2 Dec, 1951, PP. 193-255.

: Herterodox Ismâ'ilism at the time of alMu'zzi B.S.O.A.S. 17/1955, PP. 10-33.

: The Early Ismâ'ilî Missionaries in North West Persia and in Khursân and Transoxiana. B.S.O.A.S. 1960 P. 56 sqq.

: An original document from the Fâtimid Chancery. concerning Italian merchants. Mém. Lévi Della Vida, II, Rome 1956, 529-38.

: A Fâtimid Decrees of the Year 524/1120. B.S.O.A.S. XXIII, 1960.

:Ismâ'ilis and Carmatians, in l'Elaboration de l'Islam Colloque de Strasbourg 12,14 juin, 1959, Paris, 1961.

: A petition to the Fatimid Calife al - Mustansir, concerning a conflict within the jewish community. R.E.J, 128 (1969) PP. 103 - 215 .

: Studies in Early Isâ'ilisme. Jerusalem, 1983.

Taylor : The History of Muhammedanism and its Sects. London 1939.

Tilman Nagel : Frure Ismailiya und Fatimiden im Lichte der Risâlat if-titâh ad-da'Wa-eine religione geschichtliche Studie. Bonn, 1972.

Toumin : Histoire de Syrie. Paris, 1929.

Tourneau : La révole d'Abu Yazîd au xè siècle. CT. 1953, PP. 103-125.

: The Epistle of the Fatimid Caliph al-Amir (al-Hidaya al-Amiriyya), its Date and Purpose. J.R.A.S. 18, 1950.PP. 26-21.

Trimingham : Islam in the Sudan. London, 1949.

Tritton : Notes on Some Ismaili Mss. B.S.O.S. Vol. XII.

: The First and Second Crusades From Anonymous Syriac Chronicle, translated by Tritton with Notes by Gibb. J.R.A.S. January 1933, P. 69-192; April 1933. P. 273-305.

: The caliphs and their non Muslim Subjects . London

(لهالترجمة العربية).

Van Berchem: Matériaux pour un Copus Inscriptionum Aabicarum Egypte (M.I.F.A.O) Première Partie t 2, 1930.

(تحت إشرافه).

: Epigraphie des Assassins de Syrie. J.A. 1897. Mai-Juin.

Van Ess: Der Kalif àl - Hakim (375 - 411). Heidelberg, 1977.

Vatikiotis : Notes d'Archeologie arabe, in J.A. 1891.

: Epigraphie des Assassins de Syrie. J.A. 1897.

- : A Reconstruction of the Fatimid Theory of the State Isl. Cult. 28. 1954, PP. 399-409.
- : al -Hakim bi-Amr illah : The God King idea realized I,C. XXIX. 1955-1-18.
- : The Syncretic Origins of the Fatimid Da`wa. Isl. Cult 28. 1954, PP. 475-49.
- Von Hammar : Histoire de l'ordre des Assassins 1833.
- Waern : Medieval Sicily, 1910.
- Walker : A Byzantine Victory over the Fatimids at Alexandretta. Byzantion, t XLII, 972, Fasc 2, P. 431-440.
- Weulersse : Les Pays des Alaouittes. 2 Vols. Tours, 1940.
- Wiet : Matériaux Pour un corpus inscriptionum arabicarum. Première partie t 2 Egypte I.F.A.O., 1929 -36
- : L'Egypte musulmane de la conquête arabe à la conquête ottomane IV. Le Caire, 1938.
- : Trois formules d'Indépendance dans l'Egypte Médiévale. Le Caire, 1942 (édition de la Revue du Caire).
- : Grandeur de l'Islam. Paris, 1961.
- : Les Mosquées du Caire. Paris, 1966.
- Wiet et Combe et Sauvaget : Répertoire chronologique d'épigraphie arabe. Le Caire, 1931. sqq.
- Wolff : Die Drusen und ihre Vorlauff. Leipzig, 1845.
- Wüstenfeld: Calcaschandeis Geographie. Gottingen, 1879.
- : Geschichte der Fatimidenn . Gottingen, 1891.
- Yves Marquet : La place du Travail dans la Hiérarchie ismâlienne d'après L'Encyclopedie des Frères de la Pureté. Arabica, 1961, Y. 225 sqq.

: Le Shisme au 1 Xe siècle à travers l'histoire de Ya' qûbî
.Arabica txix, juin, 1972. Fasc 2 , p . 101 sqq.

: A propos d'un poème Ismaélien dans le Ihwân as - Safa
et l'Ismailime. Colloque Rome. Accademia dei lincei Octo-
bre , 1979 .

: Convegne Sugli Ikhwân as - Safá' Rma , 1981 , P. 69 -96

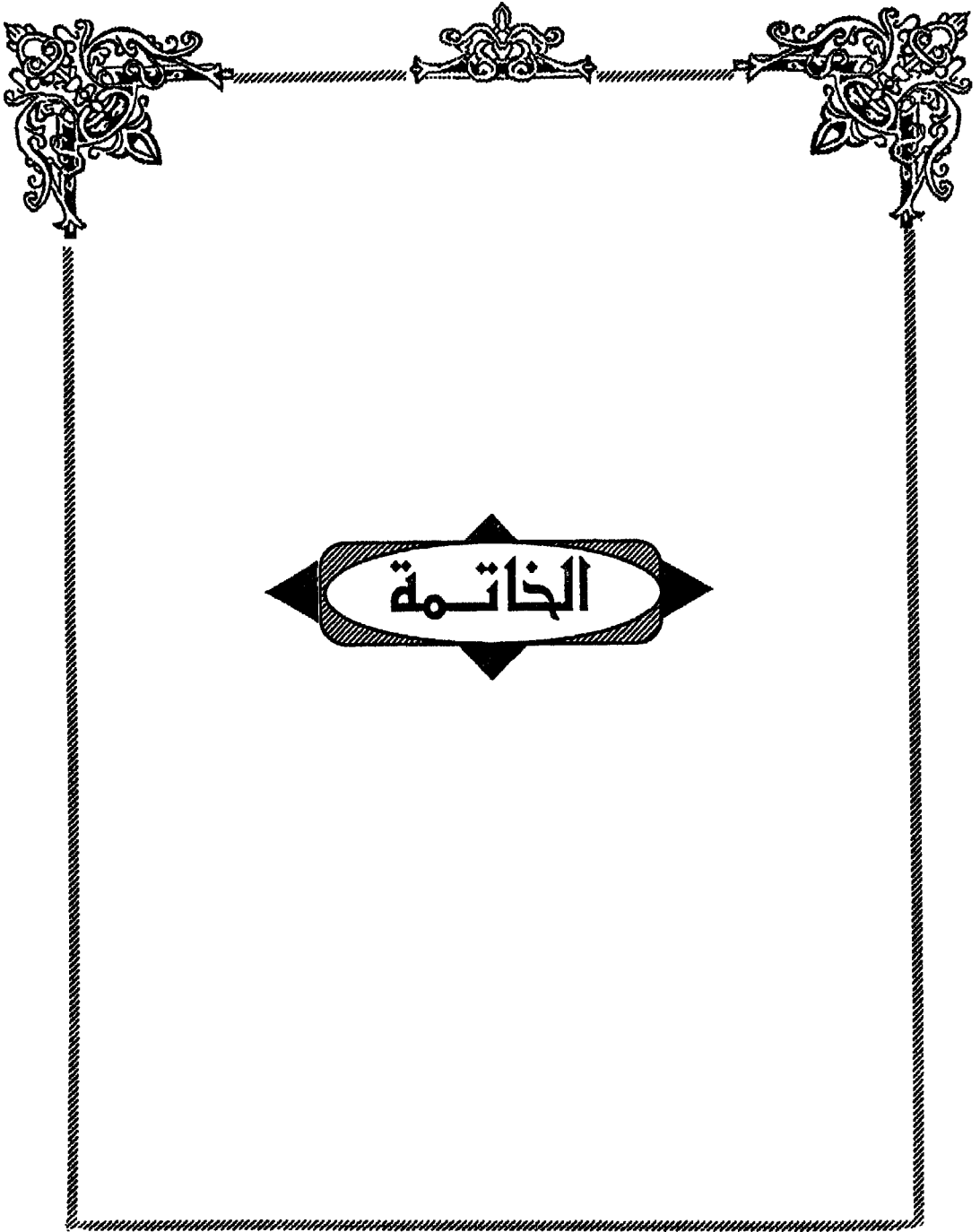
:La Pensée d'Abu Y a'qûb as- Sijistâni à travers l' lthbât
an- nubewah ." La Tuhfat al - Mutajjibîn" S1 . Ex Fasc
LIV. Pars, 1981.

: Les épîtres des IHWân as - Safá. En fascicub LVo Paris,
1982 (note annexe).

: Quelques Remarques, à propos de Kosmologie und Heil-
slehre der Frühen Ismâ'iliyya de Heinz Halm . S.I. Ex .
Fasc Lve. Paris , 1982 , P. 115 sqq .

: Poésie ésotérique Ismailienne le Tá'iyya de Amir b. 'Amin
al - Bosri. Paris 1985 .

Zananiri : L'Egypte et l'équilibre du levant au Moyen Age. Marseille,
1933 .



الخاتمة

٥ - جدول الأعلام

الأمويون ٤٨ وما بعدها، ٧١، ٧٢،

٢٤٦، ٢٦٧، ٣٧٣ .

أنوشتكين (الذيرى) ١٣٠

أيوب ٣٧٦ وما بعدها.

باديس ٢٠٧ وما بعدها، ٢١٣

البحجة ١٩٥

بدر الجمالى ٣٢٥ وما بعدها، ٣٤٣

البربر ٧٧

برجوان ١٢٥، ١٢٧

برغش ٣٤٩

البساسيرى ١٥٠ وما بعدها، ١٦٠

بكجور ١٢٠، ١٢٢

البلغار ١٢٣ .

بلكين ٢٠٥ وما بعدها .

بهرام ٣٥٤ وما بعدها.

البوريون ٣٧٣، ١٣٧ وما بعدها

البويهيون ١٢٠، ١٨١

بنيامين ٤٧

تاج الملوك شادى

تتش ١٦٥، ٣٢٨، ٣٧٥، ٣٧٦

تميم بن المعز ٢٢٦

توران شاه ١٧٧، ١٧٨

ثمال بن صالح ١٣٣

ابن الثمثة ٢٢٧ وما بعدها

إبراهيم ينال ١٦١ - ١٦٢ .

الأبخاز ١٢٧ .

أتسز ١٦٥، ٣٢٧ وما بعدها،

أحمد بن طولون ٦٢ وما بعدها،

أحمدالمكرم ١٩٣، ١٩٨ وما بعدها

الإخشيد ٩٢ وما بعدها، ٢٤٥

إخوان الصفا ٢٦

أخو محسن ١٤٥

الأدارسة ٧٨، ٨٧، ٢٠٢

إدريس عماد الدين ٢٥

الأرمن ١١٩

أسامة بن منقذ

أسماء بنت شهاب ١٧١

إسماعيل بن جعفر الصادق. ٧٤

الإسماعيلية ٧٤ وما بعدها، ١٦٦،

١٦٨

الأغالبة ٧٩، ٢٣٠

أفتكين ١١٩، ١٢١، ١٢٢

الأفضل شاهنشاه ٣٢٦ وما بعدها،

٣٢٧، ٣٤٠، ٣٧٢

أقسنقر ٣٧٦، ٣٧٥

الأكل ٢٣٥، ٢٣٦

أب أرسلان ١٦٤، ٣٢١، ٣٧٥

إلكز ٢٢٦

الأمر الفاطمى ٣٤١ وما بعدها،

٣٥١

بنو حماد ٢٢٨
 حمدان بن الأشعث ١٠٠
 الحمدانيون ١٠١، ١١٤، ١١٥، ١١٨
 حمزة بن علي حميد الدين
 الكرمانى ٢٨، ٢٧٨، ٢٨٨ وما
 بعدها
 أبو حمير سبأ ١٧٥
 ابن حوشب ١٦٦، ١٦٨، ١٧٩
 بنو خزرون ٢٠٦، ٢٠٨ .
 ابن خلدون ١٤٦
 خمارويه ٦٥
 الدرزي ١٣١ وما بعدها ٢٨٣ وما
 بعدها
 الدروز ٢٩
 ديسان ١٤٥
 الرازي ٢٨٠
 رزيك ٣٥٩
 الرستمية ٢٠٢
 رضوان بن رولخشي ٣٥٥
 أبو ركوه ٢٨٩، ٢١٢، ٣٢١
 زناتة ٨٧، ٢٠٢
 ابن زولاق ١٧
 زنكي ٣٧٧
 زويلة

الجرجرائي ١٣٢
 جعفر الصادق ٧٤
 جعفر بن الفلاح ١٠٤
 جعفر بن يعفر ١٦٧
 جوذر ١٩
 جوهر ٩٤ وما بعدها، ١٢١، ٢٠٣ .
 ٢٤٤ وما بعدها
 حياصة ٨٩
 الحافظ. ٣٥٠ وما بعدها .
 الحاكم ١٤٨، ١٥٢، ١٨٧، ٢٠٦ .
 وما بعدها، ٢١٦ وما بعدها،
 ٢٤٥ وما بعدها، ٢٧٤، وما
 بعدها ٢٩٤ وما بعدها، ٣٠٢ .
 حسان بن الجراح ١٢٨
 الحسن بن طنج ٩٩
 حسان بن مفرج ١٢٨
 الحسن الأعصم ١٠٣ وما بعدها،
 ١٢١
 حسن بن علي الكلبي ٢٣٢
 الحسن بن الصباح ٣٤٢ وما بعدها
 الحسينيون ١٨٤ وما بعدها
 الحسن بن علي ٢٧١، ٢٧٢
 الحسينيون ١٨٥
 بنو أبي الحسين الكلبي ٢٣٢ وما
 بعدها

ضرغام ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠
 أبو طاهر ١٠١ وما بعدها، ١٨٠
 أبو طاهر الذهلي
 طغتكين (طغتكين) ٣٧٣
 طغرليك ١٥٩، ١٦٠
 طلائع بن رزيك ٣٥٨ وما بعدها
 ابن الطوير ١٧
 الطيب ٣٥١، ٣٥٢
 طيي ١٠٤، ١٠٥، ١٢٧
 الظافر ٣٥٧
 الظاهر ٣٠٢، ٣٣٦، ٣٣٣
 العاضد ٣٨٠ وما بعدها
 عامر الزواحي ١٧٦
 العباسيون ٥١ وما بعدها، ١٤٥
 عبد الرحمن الثالث. ٩١
 أبو عبد الله شكر
 أبو عبد الله الشيعي ٧٨ وما بعدها،
 ١٦٦
 أبو عبد الله القضاعي ١٨
 عبد الله بن ميمون ١٤٥
 بنو عبد القوي ٣٩٩
 عبد المستنصر ١٧٥
 عبيد الله المهدي ٨٥، ٢٦٨
 العزيز ٢٠٥، ٢٤٥، ٢٥٠

الزيدية ١٧٧، ٢٢٢
 زيري بن منذ
 سابور ١٨٠
 سالم بن راشد ٢٣٢
 ست الملك ١٣٠، ٣٣٧
 سحنون بن سعيد ٢١٤
 سعيد الجنابي ١٨٠، ١٨٢
 السلاجقة ١٥٩ وما بعدها، ٣٦٦،
 ٣٦٩
 سنان بن عليان ١٣٠
 السيدة أروى ١٧١ وما بعدها ١٨٣،
 ٣٥٢
 سيف الدولة الحمداني ١٠١، ١١٤،
 ١١٥، ١١٨
 بنو سليم ١١٤
 السلمانيون ١٨٤
 بنو شامة ١٨٢
 شاور ٣٧٩ وما بعدها، ٣٨٦
 أبو الشلعلع ١٤٦
 شيركوه ٣٧٧ وما بعدها، ٣٨١
 صالح المرادسي ١٢٩، ١٣١
 صلاح الدين ٣٧٧، وما بعدها، ٣٨٦
 وما بعدها
 صنهاجة ٨٧، ٢٠٤ وما بعدها

القائم الفاطمي ٨٩	عضد الدولة ١٣٩، ١٤٠، ١٤١
قراقوش ٣٩٥	بنو عقيل ١٥٢، ١٥٤
القرامطة ١٠٠ وما بعدها، ١٨١	علاقة
بنو قررة ٢١١	على بن أبي طالب ٧١
قرغويه ١٢٠، ١٢٢	على بن السلار ٣٥٦
ابن قرهب ٣٢١، ٣٢٢	على الصليحي ١٦٩ وما بعدها
قرواش المقلد ١٥٣	١٩١
قريش بن بدران ١٥٤، ١٥٥، ١٦١	أبو على بن الأفضل ١٤٩
قسام التراب ١٢٢	عمارة اليمن ٢١، ٤٠٠
قيس ٤٨، ١١٤، ١٨٠	عماد الدين زنكي ٣٧٥
كافور ٩٣، ٩٤	عمارة اليمنى ٣٨١، ٤٠٠
أبو كاليجار ١٤٢، ١٤٩	عمر بن الخطاب ١٩٩، ٣٦٥
الكامل بن شاور	عوصلة بن بكار
كتامة ٧٨ وما بعدها، ٩٥، ٢٠٤	غازي ٣٧٧
٣٠٧، ١١٤، ١٢٩	الغز ١٣٦، ١٥٨، ٣٧٩
بنو كلاب ٩٤، ١٢٩، ١٣٣	الغزنوية ١٧٩، ١٨٠
الكبيون ١١٤، ١٣٠	فاتك ١٢٩، ٩٧
ابن كلس ١٢٥، ١٢٧، ٢٧٣ وما	الفائز ٣٥٧
بعدها	أبو الفتوح الحسنى ١٨٦ وما بعدها
كنز الدولة ٣٢٦، ٤٠١	الفلاحى ٣١١
ملك بن مالك ١٧٨	القادر بالله ١٤١، ١٤٢، ١٤٣
لؤلؤ الكبير ١٢٩ وما بعدها	القاضى الفاضل ٣٩٥
لواته ٣٢٥	القائم بالله ٤٢، ٩٠، ١٠٢، ١٦٠
المأمون البطائحي ٣٤٧	وما بعدها، ١٩٠، ٢٠٣، ٣٢١

الموسيع لون ١٨٥
 المؤيد في الدين ٢٠، ١٤٩، ١٥١،
 ٢٩٠، ١٧٨
 ناصر خسرو ٢٠، ٢٤٥، ١٨٢،
 ٢٦٥
 ناصر الدولة بن حمدان ٣٢١ وما
 بعدها
 ابن نباتة ١٢٠
 بنو نجاح ١٦٨، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٢
 ابن نجيب الدولة ١٧٦، ١٧٧،
 نزار ٣٢٢، ٣٢٨ وما بعدها، ٣٤٧
 نصر بن محمود ١٣٥
 النصيرية ٢٨٩
 نظام الملك ٣٧٥
 النعمان بن حيون ١٨، ٢٧،
 نور الدين ٣٧٧ وما بعدها،
 النورمان ٢٣٨ وما بعدها
 ابن هانئ ٢٣٣، ٢٣٤
 هزار الملوك ٣٤٩
 بنو هلال ١١٤، ٢١١، ٢٢٨
 ابن الهيثم ٣٠٢، ٣٠٣
 بنو واسول (بنو مدرار) ٢٠٢
 اليازوري ١٦٢، ٢٢٤ وما بعدها
 يانئ ٣٥٠ وما بعدها
 يحيى بن الملك ١٧٨
 يزيد بن مخلد ٩٠ وما بعدها
 يوسف بن زيري ٢٠٥

محمد بن إسماعيل ١٤٥
 محمد بن جعفر ١٩١، ١٩٤،
 محمد بن عمار ٣٠٩
 محمود بن مصال ٣٥٦
 محمود بن نصر ١٣٤، ٣٢٥
 الموداسيون ١٢٤
 بنو مدرار ٨٧
 بنو مزيد ١٥٣، ١٥٤
 المسبحي ١٧
 سحر ٣٧٥
 المستعلى ٣٤٠ وما بعدها، ٣٣٧ وما
 بعدها، ٣٤٠
 المستنصر ١١٣، ١٥٤، ١٥٦،
 ٣٢٢، ٣٢٥، ٢١٤ وما بعدها،
 ٢٤٨، ٢٩٣، ٣٠٣ وما بعدها،
 ٣٢١ وما بعدها.
 المعز بن باديس ٢٣٦، ٢٣٧
 معز الدولة ١٣٩
 المعز لدين الله ٩٤ وما بعدها،
 ١٨٠، ٢٠٣ وبعدها
 المقريني ١٤٧، ٣٢٢، ٣٧٨، ٣٨٤،
 ٤٠١
 بنو مكرم ١٨٢
 الملك الرحيم
 ملك شاه (ملكشاه) ١٦٤، ٣٧٥
 أبو مناد باديس ٢٠٦.
 منجوتكين ١٢٣، ١٢٤
 المنصور الفاطمي ٢٠٦، ٢٣٢

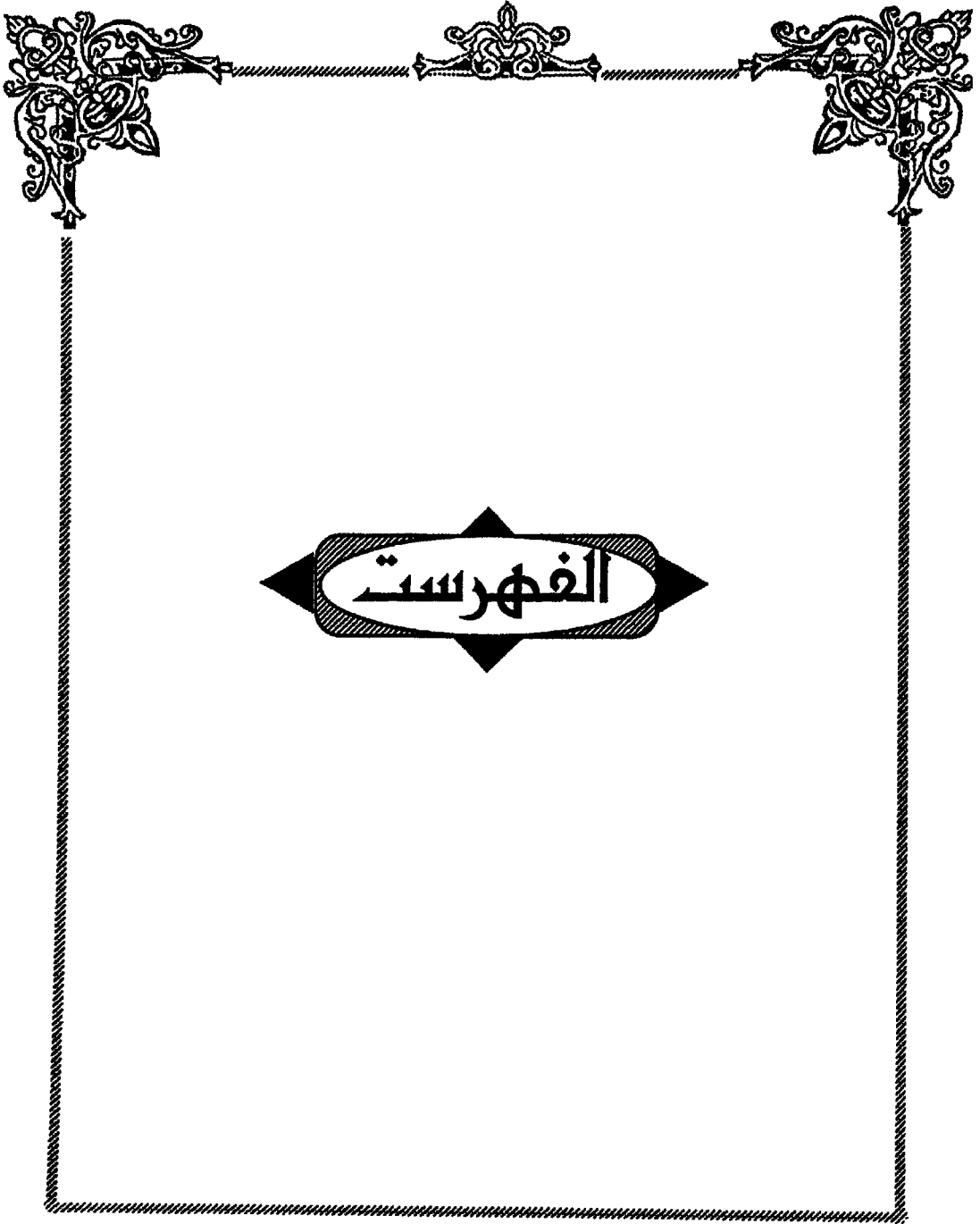
هـ- جدول البلدان والمدن

تركستان ١٥٧	الأحساء ١٨٣
تروجة ٩٧	إخميم ٢٤٨
تنيس ٤٤ ، ٣٢٥	الإسكندرية ٩٦ ، ٢١١ ، ٣٢٢ ، ٣٥٦
الجزيرة ١١٤ ، ١٢٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧٧	٣٦٣ ، ٣٨١ ، ٤٠١
جنوة ٣٧٠	إسنا
الجزيرة ٩٧	أسوان ٤٠١
الحبشة ٢٠٠	آسيا الصغرى ١١٧
الحجاز ١٧٢ ، ١٨٤ ، وما بعدها	أطفيح ٣٨١
حلب ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣١ ،	أقرانسة
١٣٣ ، ٣٧٧ ، ٣٧٥	إفريقية ٨٨ وما بعدها
الحلة ١٥٣ ، ١٦٢	الموت ٣٤٤
الحواف الشرقى ٣٨٣	الأندلس ٢٠٣
خراسان ١٩٠	أنطاكية ١١٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٦
دمشق ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،	البحرين ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٨٠ ، ١٨٣
١٢٣ ، ١٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٧٦	برقة ٢٠٩ وما بعدها
دمياط ٣٢٥	البصرة ١٠٠ ، ١٨١
رقادة ٧٩	بعلبك ٣٢٨ ، ٣٧٧
الرها ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧	بغداد ١٠١ ، ١٦٢
رومية ٢٣٠	بلبيس ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢
الريف ٩٨ ، ٣٢٥ ، ٣٨٣	بلهيب ٤٤
زبيد ١٧٧	بيت المقدس ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٣٧٠ وما
السبخة ٣٧٤	بعدها ٣٧٣ ، ٣٨٣
سجلماسة ٧٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣	بيروت ٣٧٣ ، ٣٧٤
سردانية ٢٢٣	تاهرت ٧٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣

الفسطاط ٤٥، ٨٩، ٩٧، ٣٧٤، ٣٨٤
فلسطين ١٢١، ٣٧٣ وما بعدها
الفيوم ٤٤
القاهرة ٤٦، ٩٨ وما بعدها، ١٢٧،
١٨٩، ٢٥٤، ٣٢١، ٣٢٦، ٣٨٢،
٣٩٢
قرطبة ٢٠٢
قزوين ٧٠
القسطنطينية ١٢٦، ١٣٦، ٣٦٣
القطائع ٦٢، ٦٢
قفط ٤٠٢
القلزم ٢٧٥
قلورية ٢٣٠، ٢٣٢
قورسقة ٢٣٣
قوص ٣٢٩، ٣٥٩
القيروان ٢٧٧
الكوفة ٩٩، ١٠١، ١٥٤، ١٧٧،
١٨٨
كوم الريش ٣١٣
كوم شريك ٣١٢
مالطة ٢٣٠
ما وراء النهر ١٧٩
المدينة المنورة ١٨٥
المرية ٢٢٣

سلمية ٨٠
الصعيد ٣١٣، ٢٢٣، ٣٨١، ٣٨٢
الشرقية ٣٧٤
صقلية ٢٣١ وما بعدها
صنعاء ١٦٦ وما بعدها، ١٧٧
صور ١٢٥، ٣٧٢، ٣٧٣
صيدا ٣٧٣، ٣٧٤
طرابلس ١١٧، ٢٠٨، ٣٧٣، ٣٧٤
عدن ١٧٩
العراق ١٠١، ١٦٥، ١٣٧ وما
بعدها، ٢٢٨، ٣٢١، ٣٧٣، ٣٧٤
العريش ٣٧٤
عسقلان ١٠١، ٣٢٢، ٣٢٨، ٣٣١،
٣٧٤، ٣٧٣
العسكر ٦٣
عكا ٣٧٢، ٣٧٣
علوة ١٩٥
عمان ١٠٠، ١٨٢، ١٨٣
عيزاب ١٧٩
عين شمس ٤٤، ٢٤٤
غديرخم ٧٤
فاس ٢٠٢
فج الأخيـار ٧٩
الفرما ٤٤، ٤٥، ٣٧٤

النوبة ١٩٥ وما بعدها، ٢١٢، ٤٠١	المغرب ٧٧، ٩٥، ٢٠١ وما بعدها،
نصيبين ١٢٠	٣٧٤، ٢٠٤
نيقية ٣٩٦	المقس ١٢٤، ٢٢٤
هجر ١٠٠	ملازكرد ١٦٤
الهند ١٧٩	الملتان ١٧٩
يانا ٣٧٤	مكة ١٨٤، ١٨٤، ١٨٦
اليمن ١٦٦ وما بعدها	المهدية ٨٨، ٢٧٧
	الموصل ٣٦٩، ٣٧٧



الفهرست

محتويات الكتاب

تهذيب

المصادر التاريخية

﴿ ٧ - ٣٨ ﴾

الأوراق الرسمية - الآثار - النقوش - السكة - الكتب التاريخية من العصر الفاطمي -
الكتب التاريخية من العصر الأيوبي - الكتب التاريخية من العصر المملوكي - كتب العقائد
الفاطمية - كتب السنة المعادية - كتب مؤرخي القبط ووثائق اليهود - كتب مؤرخي اليونان
المعاصرين - كتب مؤرخي الحروب الصليبية - المراجع الحديثة.

الفصل الأول

أحوال مصر قبل مجيء الفاطميين

﴿ ٢٩ - ٦٦ ﴾

انتشار المسيحية - الفتح العربي - الولاة الراشدون - الولاة الأمويون - الولاة
العباسيون - انتشار الإسلام - الإستعراب - ولاية الطولونيين.

الفصل الثاني

ظهور خلافة الفاطميين فتح المغرب

﴿ ٦٧ - ٨٢ ﴾

ضعف الخلافة العباسية - ظهور التشيع - فرق الإسماعيلية - قيام خلافة الفاطميين في
المغرب.

الفصل الثالث

فتح الفاطميين لمصر

﴿ ٨٣ - ١٠٦ ﴾

حملات المهدي على مصر - تمرد القبائل المغربية - ولاية الإخشيديين - دخول جيش
العز مصر - تهديد القرامطة.

الفصل الرابع

السياسة العربية

﴿ ١٠٧ - ٢٤٠ ﴾

أهدافها - الشام - العراق - اليمن، وهر العرب من الخليج الفارسي، والحجاز - السودان
- المغرب - صقلية.

الفصل الخامس

السياسة الخارجية

﴿٢٤١ - ٢٩٨﴾

أهدافها - الإدارة - التنظيم المالي - التجارة والصناعة - رخاء الدولة والناس - إحلال التشريع الشيعي وخصائص المذهب - الأعياد المذهبية - الدعوة الفاطمية - الغلو في ذات الأئمة - معاملة أهل السنة - معاملة أهل الذمة.

الفصل السادس

مؤامرات الخلافة

﴿٢٩٩ - ٣٦٠﴾

المجاعات - طوائف الجيش وتعددتها - استفحال تنازعاتها في عهد المستنصر - ظهور أطماع رجال أهوية مثل : ناصر الدولة والذكز - مجيء بدر الجمالي الأرمني وقضاؤه على أعداء الخلافة - إعادة تنظيم الدولة - استيلاء بدر على السلطة - تدخل الأفضل في تعيين المستعلي والأمر - انقسام الدعوة إلى فرقتي المستعلية والنزارية - تولية الحافظ - ظهور الدعوة الطيبية - تدخل الوزراء في تعيين الخافر والفائز والعاقد.

الفصل السابع

سقوط الدولة الفاطمية

﴿٣٦١ - ٤٠٤﴾

خطر الفرنجة الداهم على الشام ومصر - موقف الأتابكيات السلجوقية في الشام - سعي اتابكية نور الدين للإستيلاء على مصر وحملات شيركوه - إلغاء صلاح الدين الخلافة الفاطمية - ثورات المصريين .

الخاتمة :

﴿٤٠٥ - ٤٠٨﴾

الجدول:

﴿٤٠٩ - ٤٧٠﴾

المصادر : المخطوطات - المطبوعات العربية - الكتب الأوربية ، الجداول: جدول الأعلام - جدول البلدان والمدن .

محتويات الكتاب

﴿٤٧٣ - ٤٧٤﴾

رقم الإيداع	٩٣ / ٤٧٥٤
الترقيم الدولي I. S.B.N.	977 - 10 - 0593 - 6

دار المناهل للطباعة
٧ ش يوسف البندارى - أرض اللواء
بولاق الدكرور

Apparition et Chute du Califat Fatimite en Egypte.

A.D. MAGHUED

Professeur d' Histoire Islamique.
Université Ain Shams (Heliopolis)
Docteur ès Lettres de La Sorbonne.

4 ème Edition .

Le Caire
1414 - 1994

Publié Par La librairie :
Dar al-Fikr al-'Arabi
94. Rue 'Abbas al-Akad. Madinat nasr.
Le Caire - EGYPTE.
Tèl : 2619049

أهمية التاريخ

تأتى من أن الفاطميين جاءوا من المغرب إلى مصر بناء على دعوة المصريين أنفسهم؛ فلم يكن المصريون سعداء في ظل حكم ولاة العباسيين الإخشيديين، فقد كانوا يتطلعون إلى مستقبل جديد مع هذه الدولة الإسلامية الفتية، لينبؤوا مصر الإسلامية، التي لا تقل عن مصر الفرعونية. فلما وصل جيش المعز لدين الله الخليفة الفاطمي من المغرب إلى الإسكندرية، سارع المصريون بإرسال وفد منهم إلى جوهر قائد جيشه؛ باتفاق جميع طبقاتهم، كالقائد، والكاتب، والقاضي، والتاجر، والمسلم والقبطي.

والحقيقة أن الفاطميين، وهم أسرة علوية، أعتبرت خلافتهم في نظر المصريين خلافة شرعية، منافسة للخلافة العباسية، وذلك لأن المبدأ الدستوري القائم وقتذاك، كان ينص على أن الخلافة الشرعية تكون في أسرة النبي، وعصبيتها تكون في قریش. لذلك لم يكن يطمع المصريون مثل غيرهم من شعوب الإسلام في حكم أنفسهم بأنفسهم. فهذه الأفكار في الوطنية لم يكن لها وجود في وقت الفاطميين، والفكرة المسيطرة على المسلمين أن تهمهم شرعية الحكم.

وقد بنى جوهر في مصر عاصمة جديدة سميت القاهرة، تفاضلاً بأنها ستقهر أعداء الأمة الإسلامية، وهي توجد في مكان عاصمة مصر القديمة منف عند رأس الدلتا، وأصبحت من يومها عاصمة مصر إلى الآن؛ حيث شبهت القاهرة بيد المروحة؛ لوقوعها عند ملتقى فروع النيل وقنواته، مما يؤكد أن الفاطميين سحرتهم الهوية المصرية؛ فسعوا إلى ربط مصر القديمة بمصر الإسلامية.

بل إن خلفاء الفاطميين إلى نهاية دولتهم، ولدوا جميعهم في مصر، واعتبروا أنفسهم مواطنين مصريين، يتبين ذلك مما أنجزوه لها في مدة حكمهم في الكم والمقدار؛ بالعمل على ازدهار اقتصادياتها ورخائها، وامتلاكها النموذج الحضاري المتميز، الذي أسهم بإبداع في مكانة مصر، ومن يومها أصبحت مصر هي الرائدة عند المسلمين جميعاً.

بل وخلفاء الفاطميين كانوا «ملتزمين» في مصر بإحساس قوى نحو قضايا العرب؛ الذين بدأت تظهر عندهم إحساسات قوية نتيجة للتراكمات التاريخية، ولعيشهم في دار الإسلام في إطار حدودى محدد، ولمصيرهم الواحد. فكانت إرادة الفاطميين ظاهرة بالقفز إلى مستقبل عربي أفضل هي شغلهم الشاغل، بينما كانت الدولة العباسية قد أصبحت حطاماً وركاماً، وأن الإنسان العربي يائس من وجودها.

حقاً إن الخلافة الفاطمية قد تميزت بالمذهب الشيعي؛ إلا أن هذا المذهب أصبح في مصر في إطار يتأقلم مع روح مصر، وانعكس على كل مظاهر الدولة والحياة. ومع ذلك؛ فقد بقي المذهب السني، الذي كان مذهب غالبية المصريين في أول عهد الفاطميين مع المذهب الفاطمي ظاهر الشعار بملاحظة المؤرخين؛ بحيث أصبح وجود المذهبين الكبيرين معاً في أرض مصر تجربة رائدة؛ ولا سيما أن المذاهب الإسلامية في ذلك الوقت كانت تحرك كل شيء، مثل مذاهب الاقتصاد في وقتنا.

أ. د. محمد المنعم صاچر